

صَحِيحٌ

تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ

اِفْتَصَرَهُ وَفَرَّغَ اِمَامِدَيْتَهُ

اَبُو عَبْدِ اللهِ مُصْطَفَى بْنِ الْعَدَوِيِّ

الجزء الأول

فُلَانُ بْنُ رَجَبٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَحِيحُ  
تَفْسِيرِ اَبِي بَكْرٍ

# حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1427 هـ - 2006 م

رقم الإيداع : 2006/13379  
الترقيم الدولي : 0-088-390-977  
I. S.B.N

دار الفوائد

طبع. نشر. توزيع

دار البرجيب

المركز الرئيسي : فارسكور : تليفاكس 002057441550 جوال : 0122368002  
فرع المنصورة : 33 شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : 0020502312068



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مُقَدِّمَةُ الْمَحَقِّقِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ<sup>(١)</sup> وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ  
أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ  
وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .  
أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الْأُمُورِ  
مُحَدَّثَاتُهَا وَكُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[ آل عمران : ١٠٢ ]

﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ  
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ  
رَقِيبًا ﴾ [ النساء : ١ ]

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [ الأحزاب : ٧٠ - ٧١ ]

فَإِنَّ مِنْ أَجْلِ الْقُرْبَاتِ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا الْعَبْدُ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تَعَلَّمَ كِتَابَهُ  
وَسُنَّةَ رَسُولِهِ ﷺ ، وَتَعَلَّمَ النَّاسِ ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا  
رِدَائِعِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [ آل عمران : ٧٩ ] ، وَقَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ( خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ ) »<sup>(٢)</sup> .

فَالْحَيْرِيَّةُ تَتَأْتِي بِتَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَتَعَلِّمِيهِ مَعَ الْعَمَلِ بِهِ ، وَالرَّبَائِيَّةُ أَيْضًا تَتَأْتِي بِذَلِكَ ،

(١) في الحديث القدسي الذي أخرجه مسلم (٢٥٧٧) « كُتِّبَ صَالٍ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ » .

(٢) البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمان ؓ مرفوعًا .

ثُمَّ رَفَعَهُ الدَّرَجَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيضًا ، فَلَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١]

فَلِهَذَا ، وَلَآنَ أَهْلَ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ<sup>(١)</sup> ، اتَّجَهْتُ إِلَى تَفْسِيرِ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ سَائِلًا اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَنِي وَالْقَارِئِينَ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَقْرَبَ ذَلِكَ لِلنَّاسِ ، وَكَانَ مِنَ السُّبُلِ الَّتِي سَلَكَتُهَا فِي هَذَا بِفَضْلِ اللَّهِ تَنَاولُ أَوْسَعِ التَّفَاسِيرِ انْتِشَارًا وَهُوَ تَفْسِيرُ الْإِمَامِ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فَقَدْ تَنَاوَلْتُهُ بِالِاخْتِصَارِ وَتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ وَتَحْقِيقِهَا سَائِلًا اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَنِي وَالْمُسْلِمِينَ بِكِتَابِهِ ، ثُمَّ بِهَذَا السَّفَرِ الْجَلِيلِ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ هَذَا .

وَيَتَسَمَّى هَذَا التَّفْسِيرُ الْمُبَارَكُ تَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ بِسَبَاتٍ مِنْهَا مَا يَلِي :

سَيَرُّهُ عَلَى النَّهْجِ الْعَامِّ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي التَّفْسِيرِ ، ذَلِكَمُ النَّهْجُ الْمُمَثَّلُ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بِأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَا تَتَحَمَّلُهُ لُغَةُ الْعَرَبِ وَتَقْتَضِيهِ ، وَهَذَا النَّهْجُ مُبَارَكٌ مَيْمُونٌ .

فَكِتَابُ اللَّهِ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَاَلْجَمْلُ مِنْهُ فِي مَكَانٍ يُفَسِّرُ وَيَبْسِطُ وَيُوضِّحُ فِي مَكَانٍ آخَرَ ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٨] ، فَسَّرَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الشعراء : ٥٩] ، فَبَيَّنَّ أَنَّ الْقَوْمَ الْآخِرِينَ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَلَقَى ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ٣٧] قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّهَا مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] ، فَسَّرَتْ كَلِمَةَ رَبَّنَا هَاهُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ

(١) أخرج الإمام أحمد (١٢٧/٣) بسند حسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (( إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ )) قال : قيل من هم يا رسول الله ؟ قال : (( أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ )) .

أَيِّمَةً وَنَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٥﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦٦﴾ [ القصص : ٥-٦ ] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فَسَّرْتَهَا آيَاتٌ أُخْرَى .

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمِنْهُ تَفْسِيرُ اعْتِزَالِ النِّسَاءِ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ ، فَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْإِعْتِزَالَ فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ <sup>(١)</sup> فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يَأْكُلُوا وَلَمْ يَجَامِعُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ <sup>(٢)</sup> ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ <sup>(٣)</sup> [ البقرة : ٢٢٢ ] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا : مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [ يس : ٣٨ ] ، فَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ مُسْتَقَرَّهَا فِيمَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ <sup>(٤)</sup> فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي دَرٍّ ﷺ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ﴾ [ يس : ٣٨ ] قَالَ : « مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ » . وَتَوْضِيحُ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [ الأنعام : ٥٩ ] ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا

(١) مسلم (حديث ٣٠٢) .

(٢) ولم يجامعوهن في البيوت (أي : لم يخالطوهن ولم يسكنوهن في بيت واحد) .

(٣) (المحيض) الحيض الأول المراد به الدم ، والثاني قد اختلف فيه ، قيل : إنه الحيض ، ونفس الدم ، وقال بعض العلماء : هو الفرج ، وقال آخرون : هو زمن الحيض .

(٤) البخاري (٤٨٠٣) ، ومسلم (١٥٩) .

تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿﴾ [لقمان : ٣٤] . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الآيَاتِ الَّتِي فَسَّرَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

أَمَّا عَنْ تَفْسِيرِ الصَّحَابَةِ ﷺ فَكَوْنُهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ، وَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ كَذَلِكَ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ... »<sup>(١)</sup> ، وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْمَشَاهِدِ وَالْوَقَائِعِ وَمُنَا سَبَاتِ النَّزُولِ وَأَسْبَابِهِ .

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ دَعَا لِبَعْضِهِمْ بِالْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَتَعَلَّمَ التَّأْوِيلَ - كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَلَقَدْ دَعَا لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ « اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْحِكْمَةَ »<sup>(٢)</sup> ، وَفِي رِوَايَةٍ « اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْكِتَابَ »<sup>(٣)</sup> ، وَفِي ثَالِثَةٍ « اللَّهُمَّ فَهِّمْنِي الدِّينَ وَعَلِّمْنِي التَّأْوِيلَ »<sup>(٤)</sup> .

وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ الَّذِي قَالَ عَنْ نَفْسِهِ<sup>(٥)</sup> : « وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أَنْزَلْتُ ، وَلَا أَنْزَلْتُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أَنْزَلْتُ وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ تَبْلُغُهُ الْإِبْلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ » .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٦)</sup> أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ : حَطَبْنَا ابْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً . وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ أَنِّي مِنْ أَعْلَمِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِخَيْرِهِمْ . قَالَ شَقِيقٌ : فَجَلَسْتُ فِي الْحَلِيقِ أَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ فَمَا سَمِعْتُ رَادًّا يَقُولُ غَيْرَ ذَلِكَ .

وَمِنْ الصَّحَابَةِ الْأَجْلَاءِ وَالْمُكْتَرِبِينَ مِنَ التَّفْسِيرِ كَذَلِكَ عَلِيُّ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو

(١) البخاري (٣٦٥١) ، ومسلم (٢٥٣٣) ، وله عدة طرق عن رسول الله ﷺ .

(٢) البخاري (٣٧٥٦) .

(٣) البخاري (حديث ٧٥) .

(٤) أحمد بسند حسن (٣٢٨/١) .

(٥) البخاري (٥٠٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٢) .

(٦) البخاري (٥٠٠٠) ، ومسلم (٢٤٦٢) .

رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا « مَعَ الْاِحْتِرَازِ مِنَ الْاِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي يَرْوِيهَا عَبْدُ اللهِ ﷺ » إِلَى غَيْرِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْاَفْضَالِ الْكِرَامِ .

أَمَّا التَّابِعُونَ فَهُمْ أَيْضًا مِنَ الْقُرُونِ الْمَفْضَلَةِ لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدُ بْنُ جَبْرِ ، وَقَتَادَةُ بْنُ دُعَامَةَ ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْاَفْضَالِ الْكِرَامِ .

أَمَّا عَنِ لُغَةِ الْعَرَبِ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِهَا فَلَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، فَهَذَا الْمَسْلُوكُ مِنْ مَسَالِكِ التَّفْسِيرِ سَلَكَهُ الْعَلَمَةُ الْإِمَامُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى .

وَمِمَّا اِمْتَارَ بِهِ تَفْسِيرُهُ أَيْضًا اسْتِقْصَاؤُهُ فِي إِيرَادِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي تُفَسَّرُ بِهَا الْآيَاتُ مَعَ حُكْمِهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَلَى الْأَحَادِيثِ بِمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الصَّحَّةِ أَوْ الضَّعْفِ .

وَمِمَّا اِمْتَارَ بِهِ تَفْسِيرُهُ أَيْضًا بَيَانُهُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَحْكَامِ وَمَسَائِلِ الْفِقْهِ وَالْاِعْتِقَادِ .

وَكَذَلِكَ مِمَّا اِمْتَارَ بِهِ تَفْسِيرُهُ سُلُوكُهُ مَسْلُوكَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ

الصِّفَاتِ .

وَكَذَلِكَ اِمْتَارَ هَذَا الْكِتَابُ بِبُعْدِهِ عَنِ الْجَدَلِيَّاتِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَمِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ

مِنَ الْأَقْوَالِ ، فَهَذَا بَعْضُ مَا اِمْتَارَ بِهِ هَذَا التَّفْسِيرُ الْمُبَارَكُ الْمَيْمُونُ ، نَسَأَلُ اللهُ أَنْ

يَرْحَمَ كَاتِبَهُ ، وَأَنْ يُجَازِيَهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ عَلَى مَا قَدَّمَ ، وَأَنْ يُفْسِحَ لَهُ فِي قَبْرِهِ ، وَأَنْ

يُوسِّعَ لَهُ فِيهِ .

أَمَّا عَنِ عَمَلِي فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ ، فَقَدْ قُمْتُ بِالْآتِي :

أَوَّلًا : حَذْفُ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ ، سِوَاءِ الَّتِي حَكَمَ عَلَيْهَا الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَوْ الَّتِي تَبَيَّنَ لِي ضَعْفُهَا ، وَإِذَا اضْطُرَّرْتُ إِلَى الْإِبْقَاءِ عَلَى حَدِيثٍ

ضَعِيفٍ لِكُونِ الْمَقَامِ يُقْتَضِيهِ . بَيَّنْتُ وَجْهَ الضَّعْفِ فِيهِ ، وَكَذَا حَذْفُ الْأَحَادِيثِ

الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَكَرَّرَتْ مَا دَامَ فِي الْبَابِ مَا يُغْنِي عَنْهَا .

ثَانِيًا : حَذْفُ أَسَانِيدِ الْأَحَادِيثِ مَعَ الْإِبْقَاءِ عَلَى اسْمِ الصَّحَابِيِّ ، وَذَلِكَ تَيْسِيرًا

عَلَى الْقُرَاءِ وَتَخْفِيفًا .

ثَالِثًا : الْحُكْمُ عَلَى الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَبْقَيْتُ عَلَيْهَا وَلَمْ تُحْذَفْ ، بِالَّذِي تَقْتَضِيهِ مِنَ

الصَّحَّةِ أَوْ الْحُسْنِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ .  
 رَابِعًا : تَخْرِيجُ مُخْتَصِرٍ لِتِلْكَ الْأَحَادِيثِ .  
 خَامِسًا : حَذْفُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثَارِ خَاصَّةً تِلْكَ الَّتِي لَمْ تَصِحَّ أَسَانِيدُهَا ، وَحَذْفُ  
 أَسَانِيدِ الْأَثَارِ الْأُخْرَى الَّتِي أُوْرِدَهَا .  
 سَادِسًا : حَذْفُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ كَذَلِكَ إِلَّا مَا اسْتَدْعَى الْمَقَامُ بَقَاءَهُ .  
 سَابِعًا : يُلْحَظُ أَنَّ الْحَافِظَ ابْنَ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَذْكُرُ  
 الْحَدِيثَ بِالْمَعْنَى ، فَأَشِيرُ فِي الْحَاشِيَةِ إِلَى اللَّفْظِ الصَّحِيحِ لِلْحَدِيثِ .  
 هَذَا ، وَخِتَامًا فَمَا كَانَ مِنْ صَوَابٍ فِي هَذَا الْعَمَلِ فَمِنْ اللَّهِ ﷻ فَلِلَّهِ النَّعْمَةُ وَلَهُ  
 الْفَضْلُ وَلَهُ الشَّنَاءُ الْحَسَنُ ، وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ فَمِنْ نَفْسِي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَسْتَغْفِرُ  
 اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ وَخَطَأٍ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ .  
 وَجَزَى اللَّهُ خَيْرًا مَنْ سَدَّ خَلَلًا وَسَتَرَ عَيْبًا ، وَوَجَّهَ نُصْحًا .

هَذَا ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا  
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

كتبه

أبو عبد الله مصطفى بن العدوي

منيه سمهود - أجا - دقهلية - مصر

## ترجمة مختصرة للحافظ ابن كثير رحمه الله

اسمُهُ :

هُوَ الإِمَامُ الحَافِظُ الحِجَّةُ المَحَدِّثُ المُوَرِّخُ الثَّقَةُ عِمَادُ الدِّينِ أَبُو الفِدَاءِ إِسْمَاعِيلُ  
ابْنُ عُمَرَ بْنِ كَثِيرِ القُرَشِيِّ الدَّمَشْقِيِّ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وَطَيَّبَ اللهُ تَرَاهُ .  
مَوْلِدُهُ :

وُلِدَ رَحِمَهُ اللهُ بِقَرْيَةِ « مَجْدَل » مِنْ أَعْمَالِ « بُصْرَى » سَنَةَ إِحْدَى وَسَبْعِمِائَةٍ  
( ٧٠١ هـ ) أَوْ نَحْوِهَا . أَبُوهُ الحَاطِبُ شَهَابُ الدِّينِ أَبُو حَفْصِ عُمَرَ بْنِ كَثِيرٍ مِنْ  
العُلَمَاءِ الفُقَهَاءِ الحُطَبَاءِ ، وَوُلِدَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَاسْتَعْلَمَ بِالعِلْمِ ، وَكَانَ يَقُولُ  
الشُّعْرَ الجَيِّدَ وَتَمَذَّهَبَ لِلسَّافِعِيِّ وَأَخَذَ عَنِ النُّوَاوِيِّ وَالفَزَارِيِّ . تُوُفِّيَ وَالحَافِظُ إِذْ  
ذَلِكَ ابْنٌ ثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ نَحْوِهَا .  
نَشَأَتُهُ :

نَشَأَ الحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي بَيْتِ عِلْمٍ وَصَلَاحٍ وَقَدِ انْتَقَلَ - بَعْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ - فِي  
صُحْبَةِ شَقِيقِهِ « كَمَالِ الدِّينِ عَبْدِ الوَهَّابِ » إِلَى دِمَشْقَ ، وَاسْتَعْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ فِي العِلْمِ ،  
ثُمَّ اجْتَهَدَ فِي تَحْصِيلِ العُلُومِ عَلَى العُلَمَاءِ الكِبَارِ فِي عَصْرِهِ ، وَحَفِظَ القُرْآنَ الكَرِيمَ  
وَخَتَمَ حِفْظَهُ وَهُوَ ابْنٌ عَشْرٍ سِنِينَ ، وَسَمِعَ الحَدِيثَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ أَيْمَةِ الحُقَّافِ فِي  
عَصْرِهِ ، وَعَنَى بِالسَّمَاعِ وَالإِكْثَارِ مِنْهُ .

وَلَقَدْ نَشَأَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي القَرْنِ الثَّامِنِ الهِجْرِيِّ فِي ظِلِّ دَوْلَةِ المَمَالِكِ ، وَشَهِدَ  
هُجُومَ التَّارِ ، وَحُرُوبَ الصَّلِيبِيِّينَ ، وَكثْرَةَ المُوَامَرَاتِ وَالفِتَنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ  
يَسُودُ هَذَا العَصْرَ نَشَاطٌ عِلْمِيٌّ تَمَثَّلَ فِي كَثْرَةِ المَدَارِسِ وَالتَّأْلِيفِ وَالأَوْقَافِ عَلَى  
العُلَمَاءِ وَالمَدَارِسِ .

مَكَانَتُهُ العِلْمِيَّةُ :

كَانَ رَحِمَهُ اللهُ قُدُوةَ العُلَمَاءِ وَالحُقَّافِ ، وَعَمُدَةَ أَهْلِ المَعَانِي وَالأَلْفَافِ ، تَفَقَّهُ عَلَى  
الشَّيْخَيْنِ بُرْهَانَ الدِّينِ الفَزَارِيِّ وَكَمَالِ الدِّينِ ابْنِ قَاضِي شُهْبَةَ ، ثُمَّ صَاهَرَ الحَافِظَ  
المَزِّيَّ وَهُوَ مُحَدِّثُ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ فِي عَصْرِهِ وَصَاحِبُ كِتَابِ « تَهْذِيبِ الكَمَالِ » فَلَازِمُهُ

وَسَمِعَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ تَصَانِيْفِهِ وَأَخَذَ عَنْهُ وَأَفَادَ مِنْهُ كَثِيرًا فِي الْحَدِيثِ وَرَجَالِهِ .  
 وَقَدْ صَاحَبَ وَلَا يَمَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ وَأَخَذَ الْكَثِيرَ عَنْهُ ، وَقَرَأَ  
 الْأُصُولَ عَنِ الْأَصْفَرَايْنِيِّ ، وَأَقْبَلَ عَلَى حِفْظِ الْمُتُونِ وَمَعْرِفَةِ الْأَسَانِيدِ وَالْعِلَلِ  
 وَالرِّجَالِ وَالتَّارِيخِ حَتَّى بَرَعَ فِي ذَلِكَ ، وَكَانَ - رَحِمَهُ اللهُ - مِنْ أَفْذَاذِ الْعُلَمَاءِ فِي  
 عَصْرِهِ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ مُعَاَصِرُوهُ وَتَلَامِيذُهُ .

فَذَكَرَهُ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ فِي « تَذَكُّرَةِ الْحَفَاطِ » وَوَصَفَهُ فِي « الْمُعْجَمِ الْمُخْتَصِّ »  
 بِقَوْلِهِ : الْإِمَامُ الْمُفْتِي الْمَحْدَثُ الْبَارِعُ ، فَقِيهٌ مُتَفَنِّنٌ مُحَدِّثٌ مُتَقِنٌ مُفَسِّرٌ نَقَّالٌ .

وَقَالَ تَلْمِيذُهُ شَهَابُ الدِّينِ حِجِّي : كَانَ أَحْفَظَ مَنْ أَدْرَكْنَاهُ لِمُتُونِ الْحَدِيثِ  
 وَأَعْرَفَهُمْ بِتَخْرِيجِهَا وَرِجَالِهَا وَصَحِيحِهَا وَسَقِيمِهَا ، وَكَانَ أَقْرَأَهُ وَشُيُوخَهُ  
 يَعْتَرِفُونَ لَهُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ يَسْتَحْضِرُ كَثِيرًا مِنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ ، قَلِيلُ النَّسِيَانِ ،  
 وَكَانَ فَقِيهًا جَيِّدَ الْفَهْمِ صَحِيحَ الذَّهْنِ .

وَوَصَفَهُ الْحَافِظُ شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ نَاصِرٍ فِي كِتَابِ « الرَّدِّ الْوَافِرِ » بِأَنَّهُ الشَّيْخُ  
 الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ الْحَافِظُ عِمَادُ الدِّينِ ، ثِقَّةُ الْمُحَدِّثِينَ ، عُمْدَةُ الْمُؤَرِّخِينَ ، عَلَمُ الْمُفَسِّرِينَ .  
 وَقَالَ السُّيُوطِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : لَهُ التَّفْسِيرُ الَّذِي لَمْ يُؤَلَّفْ عَلَى نَمَطِهِ مِثْلُهُ .  
 تَصَانِيْفُهُ :

لَهُ الْكَثِيرُ مِنَ التَّصَانِيْفِ فِي شَتَّى مَنَاحِي الْعُلُومِ مِنْهَا :

١- تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ .

٢- الْبِدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ .

٣- اخْتِصَارُ عُلُومِ الْحَدِيثِ .

٤- اخْتِصَارُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَهُوَ الْفُصُولُ فِي سِيَرَةِ وَخَصَائِصِ وَشَأْنِ الرُّسُولِ ﷺ .  
 وَقَاتَهُ :

كَانَ رَحِمَهُ اللهُ قَدْ أَضْرَّ فِي آخِرِ عُمُرِهِ ثُمَّ مَاتَ يَوْمَ الْحَمِيسِ السَّادِسِ وَالْعِشْرِينَ  
 مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . قَالَ ابْنُ نَاصِرٍ : وَكَانَتْ لَهُ جَنَازَةٌ حَافِلَةٌ  
 مَشْهُورَةٌ ، وَدُفِنَ بِوَصِيَّةٍ مِنْهُ فِي ثُرْبَةِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، بِمَقْبَرَةِ الصُّوفِيَّةِ  
 خَارِجَ بَابِ النَّصْرِ مِنْ دِمَشْقَ ، رَحِمَهُ اللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً .



## سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

يُقَالُ لَهَا الْفَاتِحَةُ أَيُّ : « فَاتِحَةٌ » الْكِتَابِ خَطًّا وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَوَاتِ وَيُقَالُ لَهَا أَيضًا : أُمُّ الْكِتَابِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ : أُمُّ الْقُرْآنِ ، وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي ، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ » (١) .

وَيُقَالُ لَهَا : « الْحَمْدُ » وَيُقَالُ لَهَا : « الصَّلَاةُ » لِقَوْلِهِ ﷺ عَنْ رَبِّهِ : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ ، [ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ] (٢) ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ اللَّهُ : مَحَدَّنِي عَبْدِي » (٣) .

وَيُقَالُ لَهَا : « الشِّفَاءُ » وَيُقَالُ لَهَا : « الرُّقِيَّةُ » لِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ فِي الصَّحِيحِ حِينَ رَقَى بِهَا الرَّجُلُ السَّلِيمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ ؟ » .

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي ﴾ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .  
وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي « الْبَسْمَلَةِ » هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مِنْ أَوْهَا ، أَوْ بَعْضُ آيَةٍ أَوْ لَا تُعَدُّ مِنْ أَوْهَا بِالْكُلِّيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهَا فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثَّقَةُ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي أَوَّلِ كِتَابِ التَّفْسِيرِ : وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِرُجُوعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ جَامِعٍ أَمْرًا أَوْ مُقَدِّمًا لِأَمْرٍ إِذَا كَانَتْ لَهُ تَوَابِعٌ

(١) صحيح : أخرجه الترمذي (٣١٢٤) ، ولفظه « الحمد لله أم القرآن ، وأم الكتاب والسبع المثاني » ، وأخرجه البخاري (٤٧٠٤) ، ولفظه « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » ، وهذا ، وذلك من حديث أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ .

(٢) سقطت من بعض نسخ ابن كثير ، وهي موجودة في الحديث عند مسلم .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (مع النووي ٤/١٠١ - ١٠٢) .

تَبِعَهُ هُوَ لَهَا إِمَامٌ جَامِعٌ : أَمَّا . فَتَقُولُ لِلْجِلْدَةِ الَّتِي تَجْمَعُ الدَّمَاعَ : أُمُّ الرَّأْسِ . قَالَ :  
وَسُمِّيَتْ مَكَّةُ أُمُّ الْقُرَى ؛ لِتَقْدُمِهَا أَمَامَ جَمِيعِهَا وَجَمْعِهَا مَا سِوَاهَا . وَيُقَالُ لَهَا أَيضًا :  
الْفَاتِحَةُ لِأَنَّهَا تُفْتَحُ بِهَا الْقِرَاءَةُ وَافْتَتَحَتِ الصَّحَابَةُ بِهَا كِتَابَةَ الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ ، وَصَحَّ  
تَسْمِيَتُهَا بِالسَّبْعِ الْمَثَانِي ، قَالُوا : لِأَنَّهَا تُشْنَى فِي الصَّلَاةِ فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ، وَإِنْ كَانَ  
لِلْمَثَانِي مَعْنَى آخَرَ غَيْرَ هَذَا كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

### ذِكْرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْفَاتِحَةِ

عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ أُصَلِّي فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ  
حَتَّى صَلَّيْتُ فَاتَيْتُهُ ، فَقَالَ : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْتِيَنِي ؟ » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي  
كُنْتُ أُصَلِّي ، قَالَ : « أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ  
إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا تَحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال : ٢٤ ] ثُمَّ قَالَ : « لِأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ،  
قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ » قَالَ : فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ قُلْتُ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ : لِأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ : « نَعَمْ ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ ﴾ (١) .

عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ  
مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبْدِي نِصْفَيْنِ ﴾ (٢) .  
وَاسْتَدَلُّوا بِهَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ عَلَى تَفَاوُلِ بَعْضِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا هُوَ  
الْمَحْكِيُّ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى إِلَى أَنَّهُ لَا تَفَاوُلَ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ  
الْجَمِيعَ كَلَامُ اللَّهِ وَلِئَلَّا يُوهَمَ التَّفْضِيلُ نَقَصَ الْمُفْضِلَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ الْجَمِيعُ فَاضِلًا .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ : كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَتَرَلْنَا فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ فَقَالَتْ : إِنَّ سَيِّدَ  
الْحَيِّ سَلِيمٍ ، وَإِنَّ نَفَرًا غَيْبٌ فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبَهُ بِرُفِيَّةِ  
فَرَقَاهُ فَبَرَأَ ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً ، وَسَقَانَا لَبَنًا فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ : أَكُنْتَ مُحْسِنٌ رُفِيَّةً أَوْ

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٤٧٤) ، وفي عدة مواطن من صحيحه .

(٢) سنده حسن : أخرجه الترمذي (٣١٢٥) ، ولمعانيه شواهد يصح بها .

كُنْتُ تَرْقِي؟ قَالَ: لَا مَا رَقَيْتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ أَوْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَهَا رُقِيَةٌ اقْسِمُوا وَأَضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرَائِيلُ إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا فَوْقَهُ فَرَفَعَ جِبْرِيْلُ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ» قَالَ: فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أَوْتَيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَمْ تَقْرَأْ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»<sup>(٢)</sup>، وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ وَلِمُسْلِمٍ نَحْوَهُ.

حَدِيثٌ آخَرٌ: رَوَى مُسْلِمٌ<sup>(٣)</sup> بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ»<sup>(٤)</sup> فَهِيَ خِدَاجٌ ثَلَاثًا غَيْرُ تَمَامٍ «فَقِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ خَلْفَ الْإِمَامِ فَقَالَ: اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ اللَّهُ: أَتْنِي عَلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ اللَّهُ: مَجْدِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَضَّ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾<sup>(٥)</sup> صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ اللَّهُ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ».

الْكَلَامُ عَلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْحَدِيثِ مِمَّا يَخْتَصُّ بِالْفَاتِحَةِ مِنْ وُجُوهِ

أَحَدُهَا: أَنَّهُ قَدْ أُطْلِقَ فِيهِ لَفْظُ الصَّلَاةِ وَالْمَرَادُ الْقِرَاءَةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] أَيْ: بِقِرَاءَتِكَ، كَمَا

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٥٠٠٧)، ومسلم (مع النووي ١٤/١٨٧).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٢/١٣٨)، ومسلم (مع النووي ٦/٩١).

(٣) أخرجه مسلم (مع النووي ٤/١٠١ - ١٠٢).

(٤) عند مسلم في المصدر الذي أشرنا إليه (بفاتحة الكتاب).

جاء مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهَكَذَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » ثُمَّ بَيَّنَّ تَفْصِيلَ هَذِهِ الْقِسْمَةِ فِي قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فَدَلَّ عَلَى عَظَمَةِ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ ، وَأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِهَا إِذْ أُطْلِقَتِ الْعِبَادَةُ وَأُرِيدَ بِهَا جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْهَا وَهُوَ الْقِرَاءَةُ ، كَمَا أُطْلِقَ لَفْظُ الْقِرَاءَةِ وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّلَاةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] وَالْمُرَادُ : صَلَاةُ الْفَجْرِ كَمَا جَاءَ مُصَرَّحًا بِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ يَشْهَدُهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فَدَلَّ هَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْقِرَاءَةِ فِي الصَّلَاةِ وَهُوَ اتِّفَاقٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

### الكلام على تفسير الاستعاذة وأحكامها

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣١) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ حَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (٣٢) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿ (٣٣) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون ٩٦-٩٨] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٦] فَهَذِهِ ثَلَاثُ آيَاتٍ لَيْسَ لِهِنَّ رَابِعَةٌ فِي مَعْنَاهَا ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِيُرَدَّهُ عَنْهُ طَبَعُهُ الطَّيِّبُ الْأَصْلُ إِلَى الْمُوَالَاةِ وَالْمُصَافَاةِ وَيَأْمُرُ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مُحَالَهَ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا ، وَلَا يَتَّبِعِي غَيْرَ هَلَاكِ ابْنِ آدَمَ لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَنْبِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦] ، وَقَالَ : ﴿ أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ

عَدُوًّا بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿ [الكهف : ٥٠] ، وَقَدْ أَقْسَمَ لِلْوَالِدِ آدَمَ ﷺ أَنَّهُ لَهُ لِمَنْ  
النَّاصِحِينَ وَكَذَبَ فَكَيْفَ مُعَامَلْتُهُ لَنَا وَقَدْ قَالَ : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٦﴾  
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَّصِينَ ﴿ [النحل : ٩٨-١٠٠] ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ  
بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٦٧﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ  
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ [النحل : ٩٨-١٠٠] ،  
قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرَّاءِ وَغَيْرِهِمْ : يَتَعَوَّذُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ ،  
وَاعْتَمَدُوا عَلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْآيَةِ وَلِدَفْعِ الْإِعْجَابِ بَعْدَ فَرَاغِ الْعِبَادَةِ .

وَالْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ : أَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التَّلَاوَةِ لِدَفْعِ  
الْوَسَاوِسِ فِيهَا ، وَمَعْنَى الْآيَةِ عِنْدَهُمْ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ  
الرَّجِيمِ ﴿ [النحل : ٩٨] أَيْ : إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ  
فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴿ [المائدة : ٦] أَيْ : إِذَا أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ .

وَمِنْ فَوَائِدِ الْإِسْتِعَاذَةِ مَا ذَكَرَهُ سُلَيْمَانُ بْنُ صُرَدٍ ؓ قَالَ : اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ  
النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ ، فَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغَضَّبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ : « إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُهُ لَوْ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ  
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » فَقَالُوا لِلرَّجُلِ : أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنِّي  
لَسْتُ بِمَجْنُونٍ <sup>(١)</sup> .

وَمِنْ لَطَائِفِ الْإِسْتِعَاذَةِ أَنَّهَا طَهَارَةٌ لِلْفَمِ بِمَا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّعْوِ وَالرَّفَثِ  
وَتَطْيِبٌ لَهُ وَتَهْيِؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللَّهِ ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ ، وَلِلْعَبْدِ  
بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنِ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْمُبِينِ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ  
وَدَفْعِهِ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةَ وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ بِخِلَافِ الْعَدُوِّ  
مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الْمَثَانِي وَقَالَ  
تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿ [الإسراء : ٦٥] ،  
وَقَدْ نَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ لِمُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ الْبَشَرِيِّ ، فَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرِيُّ الْبَشَرِيُّ كَانَ

شَهِيدًا ، وَمَنْ قَتَلَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيَّ كَانَ طَرِيدًا ، وَمَنْ غَلَبَهُ الْعَدُوُّ الظَّاهِرِيَّ كَانَ مَأْجُورًا ، وَمَنْ قَهَرَهُ الْعَدُوُّ الْبَاطِنِيَّ كَانَ مَفْتُونًا أَوْ مَوْزُورًا ، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشَّيْطَانُ .

فصل : وَالِاسْتِعَاذَةُ هِيَ : الْإِلْتِجَاءُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالِالْتِصَاقُ بِجَنَابِهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ ، وَالْعِيَاذَةُ تَكُونُ لِدَفْعِ الشَّرِّ ، وَاللِّيَاذُ يَكُونُ لِطَلْبِ جَلْبِ الْخَيْرِ ، كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّي :  
يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُهُ      وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّنْ أَحَاذِرُهُ  
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ      وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ : أَيُّ : اسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي دِينِي أَوْ دُنْيَايَ أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلٍ مَا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ يَحْتَنِي عَلَى فِعْلٍ مَا نَهَيْتُ عَنْهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَكْفُهُ عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللَّهُ ؛ وَهَذَا أَمْرٌ تَعَالَى بِمُصَانَعَةِ شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَمُدَارَاتِهِ بِإِسْدَاءِ الْجَمِيلِ إِلَيْهِ لِيُرِدَّهُ طَبْعُهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الْأَدَى ، وَأَمْرٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رِشْوَةَ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ ، لِأَنَّهُ شَرِيرٌ بِالطَّبَعِ وَلَا يَكْفُهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَا أَعْلَمُ كَهُنَّ رَابِعَةً ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْأَعْرَافِ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، فَهَذَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْبَشَرِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٢٠٠] وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ ﴿ [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ﴿١٦﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ [فصلت : ٣٦ - ٣٤]

الشَّيْطَانُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنِ طِبَاعِ الْبَشَرِ ، وَبَعِيدٌ بِفِسْقِهِ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَقِيلَ : مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ . قَالَ :

وَهَذَا يُسْمُونَ كُلَّ مَا تَمَرَّدَ مِنْ جَنِّيِّ وَإِنْسِيِّ وَحَيَوَانِ شَيْطَانًا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [ الأنعام : ١١٢ ] وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ <sup>(١)</sup> عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَقْطَعُ الصَّلَاةَ الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ الْأَسْوَدُ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بَالُ الْكَلْبِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْأَحْمَرِ مِنَ الْأَصْفَرِ ؟ فَقَالَ : « الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ » .  
 وَ« الرَّجِيمُ » فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، أَي : أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [ الملك : ٥ ]

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اِفْتَتَحَ بِهَا الصَّحَابَةُ كِتَابَ اللَّهِ ، وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سُورَةِ النَّمْلِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا : هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا ، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا ، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفُضْلِ لَا أَنَّهَا آيَةٌ عَلَى أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلْفًا ، وَكَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

فَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَهْرِ بِهَا فَمُفْرَعٌ عَلَى هَذَا ، فَمَنْ رَأَى أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْفَاتِحَةِ فَلَا يَجْهَرُ بِهَا ، وَكَذَا مَنْ قَالَ إِنَّهَا آيَةٌ مِنْ أَوَّلِهَا ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِأَنَّهَا مِنْ أَوَائِلِ السُّورِ ، فَاخْتَلَفُوا ، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى أَنَّهُ يُجْهَرُ بِهَا مَعَ الْفَاتِحَةِ وَالسُّورَةِ وَهُوَ مَذْهَبُ طَوَائِفٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَائِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ سَلَفًا وَخَلْفًا ، وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا بَعْضُ الْفَاتِحَةِ فَيَجْهَرُ فِيهَا كَسَائِرِ أَعْضَائِهَا ، وَأَيْضًا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ صَلَّى فَجَهَرَ فِي قِرَاءَتِهِ بِالْبِسْمَلَةِ وَقَالَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ : إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ بِسَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ

(١) لفظه في مسلم ( حديث ٥١٠ ) « إذا قام أحدكم يصلي فإنه يستره إذا كان بين يديه مثل آخرة الرمل ، فإذا لم يكن بين يديه مثل آخرة الرمل ، فإنه يقطع صلاته الحمار والمرأة والكلب الأسود » .  
 قلت : ( القائل عبد الله بن الصامت الراوي عن أبي ذر ) ما بال الكلب الأسود من الكلب الأحمر من الكلب الأصفر ، قال : يا ابن أخي سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال : « الكلب الأسود شيطان » .

﴿١﴾. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : كَانَتْ قِرَاءَتُهُ مَدًّا ثُمَّ قَرَأَ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يَمُدُّ (( بِبِسْمِ اللَّهِ )) وَيَمُدُّ (( بِالرَّحْمَنِ )) وَيَمُدُّ (( بِالرَّحِيمِ )) .

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى أَنَّهُ لَا يَجْهَرُ بِالْبَسْمَلَةِ فِي الصَّلَاةِ وَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغَفَّلٍ ، وَطَوَائِفَ مِنْ سَلَفِ التَّابِعِينَ وَالْخُلَفَاءِ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ . وَعِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ الْبَسْمَلَةَ بِالْكُلِّيَّةِ لَا جَهْرًا وَلَا سِرًّا وَاحْتَجُّوا بِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْتَتِحُ الصَّلَاةَ بِالتَّكْبِيرِ وَالْقِرَاءَةِ بِ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وَبِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : صَلَّيْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ فَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ <sup>(٢)</sup> بِ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وَلِمُسْلِمٍ لَا يَذْكُرُونَ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ <sup>(٤)</sup> فِي أَوَّلِ قِرَاءَةِ وَلَا فِي آخِرِهَا ، وَنَحْوُهُ فِي السُّنَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ ﷺ .

فَهَذِهِ مَا خِذَ الْأَيْمَةَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ ، لِأَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى صِحَّةِ صَلَاةٍ مَنْ جَهَرَ بِالْبَسْمَلَةِ ، وَمَنْ أَسْرَّ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

### فصل في فضلها

عَنْ رَدِيفِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : عَثِرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ حِمَارُهُ فَقُلْتُ : تَعَسَّ الشَّيْطَانُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (( لَا تَقُلْ تَعَسَّ الشَّيْطَانُ ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : تَعَسَّ الشَّيْطَانُ تَعَاظَمَ وَقَالَ بِقُوَّتِي )) .

(١) صحيح : أخرجه النسائي (١٣٤/٢) لكن قد تعقب هذا بأن الذي استنكر على أبي هريرة (كما في طرق الحديث الأخرى) هو التكبير إذ قد قال له قائل : ما هذا التكبير يا أبا هريرة ، فقال : إني لأشبهكم صلاة بصلاة رسول الله ﷺ . فقال بعض العلماء : إن مراد أبي هريرة بقوله : إني لأشبهكم صلاة .. التكبير الذي استنكروه عليه ، وقد كانوا في زمن يستنكرون تكبيرات الانتقال ، لكن يجاب على هذا بأن الأصل هو تعميم المشابهة ، ثم هنا ملاحظة أخرى أن أكثر رواة الحديث روه بدون ذكر البسملة ، والله أعلم .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٤٩٨) .

(٣) أي : يستفتحون الصلاة .

(٤) صحيح : أخرجه البخاري (٧٤٣) ، ومسلم (٣٩٩) .

(٥) مسلم (٣٩٩) .



صَرَغَتْهُ ، وَإِذَا قُلْتَ : بِسْمِ اللَّهِ تَصَاغَرَ حَتَّى يَصِيرَ مِثْلَ الذُّبَابِ ))<sup>(١)</sup> . وَقَالَ : (( لَا تَقُلْ هَكَذَا فَإِنَّهُ يَتَعَاظِمُ حَتَّى يَكُونَ كَالْبَيْتِ ، وَلَكِنْ قُلْ : بِسْمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَصْغُرُ حَتَّى يَكُونَ كَالذُّبَابَةِ )) .

فَهَذَا مِنْ تَأْثِيرِ بَرَكَةِ (( بِسْمِ اللَّهِ )) وَهَذَا تُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ كُلِّ عَمَلٍ وَقَوْلٍ . وَتُسْتَحَبُّ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ ؛ لِمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (( لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ))<sup>(٢)</sup> وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَهَكَذَا تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْأَكْلِ لِمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِرَبِيبِهِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ : (( قُلْ بِسْمِ اللَّهِ وَكُلْ بِيَمِينِكَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ ))<sup>(٣)</sup> ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَوْجَبَهَا وَالْحَالَةَ هَذِهِ .

وَكَذَلِكَ تُسْتَحَبُّ عِنْدَ الْجَمَاعِ لِمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا ))<sup>(٤)</sup> . فَاَلْمَشْرُوعُ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ فِي الشَّرْعِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَبَرُّكًا وَتَيْمُّنًا وَاسْتِعَانَةً عَلَى الْإِتْمَامِ وَالتَّقْبُلِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ اللَّهُ ﴾ عَلَّمَ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُقَالُ : إِنَّهُ الْاسْمُ الْأَعْظَمُ ؛ لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ هُوَ اللَّهُ

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٥٩/٥) ، وأبو داود (٢٦٠/٥) .

(٢) أخرجه عدد من أهل العلم منهم ابن ماجه (٣٩٧) ، وكما ترى فقد حسنه الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - ولهذا الحديث جملة كبيرة من الطرق لا يخلو واحد منها من مقال ، ومن العلماء من صححه بمجموعها ، ومنهم من ضعفه ، وعلى كل فالنفي فيه الكمال لا نفي الأصل .

(٣) ليس في مسلم بهذا اللفظ إنما الذي في مسلم (( يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك )) (حديث ٢٠٢٢) ، وكذا هو عند البخاري (٥٣٧٦) ، ولفظه (( قل : بسم الله ... )) عند الطبراني (في المعجم الكبير ١٤/٩ رقم ٨٣٠٤) .

تنبيه : يروي الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى الأحاديث بالمعنى فلينتبه لمثل ذلك .

(٤) أخرجه البخاري (١٤١) ، ومسلم (١٤٣٤) .

الْخَلْقِ الْبَارِئِ الْمُصَوِّرِ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [الحشر: ٢٢-٢٤] فَأَجْرَى الْأَسْمَاءَ الْبَاقِيَةَ كُلَّهَا صِفَاتٍ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنْ لَهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا ، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » (١) . وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ اسْمَانِ مُشْتَقَّانِ مِنَ الرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَالَغَةِ ، وَرَحْمَنٌ أَشَدُّ مُبَالَغَةً مِنْ رَحِيمٍ ، وَفِي كَلَامِ ابْنِ جَرِيرٍ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ حِكَايَةُ الْإِتْفَاقِ عَلَى هَذَا .

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ : ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ اسْمٌ عَامٌّ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ يُخْتَصُّ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

قَالُوا : وَهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، فَذَكَرَ الْإِسْتِوَاءَ بِاسْمِهِ الرَّحْمَنَ لِيَعْمَ جَمِيعَ خَلْقِهِ بِرَحْمَتِهِ ، وَقَالَ :

وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا فَخَصَّهُمْ بِاسْمِهِ الرَّحِيمِ ، قَالُوا : فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الرَّحْمَنَ أَشَدُّ مُبَالَغَةً فِي الرَّحْمَةِ لِعُمُومِهَا فِي الدَّارَيْنِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَالرَّحِيمِ خَاصَّةً بِالْمُؤْمِنِينَ ،

وَلَمَّا تَجَمَّهَرَ مُسَيَّلِمَةَ الْكُذَّابِ ، وَتَسَمَّى بِرَحْمَنِ الْيَمَامَةِ كَسَاهُ اللَّهُ جِلْبَابَ الْكُذْبِ وَشَهَرَهُ بِهِ ، فَلَا يُقَالُ إِلَّا مُسَيَّلِمَةَ الْكُذَّابِ ، فَصَارَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْكُذْبِ بَيْنَ

أَهْلِ الْحَضَرِ مِنْ أَهْلِ الْمَدْرِ ، وَأَهْلِ الْوَبْرِ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَالْأَعْرَابِ .  
وَأَمَّا الرَّحِيمُ فَإِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ بِهِ غَيْرَهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] ، كَمَا وَصَفَ غَيْرَهُ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا

الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢]

وَالْحَاصِلُ أَنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى مَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ كَأَسْمِ اللَّهِ ، وَالرَّحْمَنِ ، وَالْخَالِقِ ، وَالرَّزَاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَلِهَذَا بَدَأَ بِاسْمِ اللَّهِ وَوَصَفَهُ

بِالرَّحْمَنِ ؛ لِأَنَّهُ أَحْصَى وَأَعْرَفَ مِنَ الرَّحِيمِ ؛ لِأَنَّ التَّسْمِيَةَ أَوْلَا إِنَّمَا تَكُونُ بِأَشْرَفِ الْأَسْمَاءِ ، فَلِهَذَا ابْتَدَأَ بِالْأَحْصَى فَلَا أَحْصَى .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ الرَّحْمَنَ حَتَّى رَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء: ١١٠]   
 وَهَذَا قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَلِيِّ : « أَكْتُبْ ﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ ﴾ فَقَالُوا : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ وَلَا الرَّحِيمَ ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ <sup>(١)</sup> ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَنَ الْيَمَامَةِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٠]   
 وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِنْكَارَهُمْ هَذَا إِنَّمَا هُوَ جُحُودٌ وَعِنَادٌ وَتَعَنُّتٌ فِي كُفْرِهِمْ ، فَإِنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَسْمِيَةَ اللَّهِ تَعَالَى بِالرَّحْمَنِ <sup>(٢)</sup> .

### ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الْقُرْآنُ السَّبْعَةُ عَلَى ضَمِّ الدَّالِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ هُوَ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : مَعْنَى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ الشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِصًا دُونَ سَائِرِ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ، وَدُونَ كُلِّ مَا بَرَأَ مِنْ خَلْقِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدَدُ وَلَا يُحِيطُ بِعَدَدِهَا غَيْرُهُ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ثَنَاءٌ أَتَيْتُ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ وَفِي ضَمْنِهِ أَمْرَ عِبَادِهِ أَنْ يُثْنُوا عَلَيْهِ فَكَأَنَّهُ قَالَ قُولُوا : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ .

### ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الرَّبُّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَّصِفُ وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ وَعَلَى الْمُتَّصِرِ لِلْإِصْلَاحِ ،

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .

(٢) قلت : ومن الكفار من كان يعرف اسم الرحمن ولا يحجده ، ومن ذلك قولهم لرسولهم : « وما أنزل

الرحمن من شيء » .

وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ الرَّبُّ لِغَيْرِ اللَّهِ بَلْ بِالْإِضَافَةِ تَقُولُ :  
 رَبُّ الدَّارِ ، رَبُّ كَذَا ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَلَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ ﷻ .  
 وَالْعَالَمِينَ جَمْعُ عَالَمٍ وَهُوَ كُلُّ مَوْجُودٍ سِوَى اللَّهِ ﷻ .  
 قَالَ الزَّجَّاجُ : الْعَالَمُ كُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .  
 قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّهُ شَامِلٌ لِكُلِّ الْعَالَمِينَ كَقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ  
 وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢٣-٢٤] ، وَالْعَالَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَامَةِ .

قُلْتُ : لِأَنَّهُ عَلِمَ دَالَ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِ وَصَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :  
 يَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ      أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ  
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ      تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

### ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي الْبَسْمَلَةِ بِمَا أَغْنَى عَنِ الْإِعَادَةِ .  
 قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : إِنَّمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ بَعْدَ قَوْلِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، لِيَكُونَ  
 مِنْ بَابِ قَرْنِ التَّرْغِيبِ بَعْدَ التَّرْهِيبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ  
 الرَّحِيمُ ﴾ [١١] وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿ [الحجر : ٤٩-٥٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ  
 رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] قَالَ : (( فَالرَّبُّ )) فِيهِ  
 تَرْهِيبٌ (( وَالرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ )) تَرْغِيبٌ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( لَوْ يَعْلَمُ  
 الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ فِي جَنَّتِهِ أَحَدٌ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ  
 مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَحَدٌ ))<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه مسلم ( حديث ٢٧٥٥ ) ، وهذا منهج ينبغي أن يسلكه الدعاة إلى الله فيميزون بين الترغيب والترهيب ، ولا يكن جل حديثهم عن القبر والبلى والعذاب والعقاب ، ولكن يذكرون أيضًا بسعة رحمة الله وفسيح جناته وواسع مغفرته ، وإن كان ثم مقامات يناسب فيها الاقتصار على الترغيب ، وأخر على الترغيب ، والله أعلم .

## ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

قَرَأَ بَعْضُ الْقُرَّاءِ ﴿ مَلِكِ ﴾ وَقَرَأَ آخَرُونَ « مَلِكِ » ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ مُتَوَاتِرٌ فِي السَّبْعِ ، وَمَالِكٌ : مَاخُودٌ مِنَ الْمَلِكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [ مريم : ٤٠ ] ، وَقَالَ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ، وَمَلِكٌ : مَاخُودٌ مِنَ الْمَلِكِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَهُوَ الْمَلِكُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [ الفرقان : ٢٦ ] وَتَخْصِيصُ الْمَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِنْجَابُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [ البقرة : ٣٨ ] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [ طه : ١٠٨ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [ هود : ١٠٥ ]

وَالْمَلِكُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ ﷻ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ [ الحشر : ٦٣ ] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ مَرْفُوعًا « أَخْنَعُ اسْمٌ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلِكِ الْأَمْلاكِ <sup>(١)</sup> وَلَا مَالِكِ إِلَّا اللَّهُ <sup>(٢)</sup> » وَفِيهِمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ <sup>(٣)</sup> ؟ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ <sup>(٤)</sup> » وَفِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [ غافر : ١٦ ]

(١) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦٢٠٥ ، ٦٢٠٦) ، ومسلم (حديث ٢١٤٣) .

(٢) هذه الزيادة أوردتها مسلم عقب الحديث السابق .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٨١٢) ، ومسلم (حديث ٢٧٨٧) .

(٤) هذه العبارة أخرجها مسلم (حديث ٢٧٨٨) من طريق عمر بن حمزة ، وهو ضعيف .

فَأَمَّا تَسْمِيَةُ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا بِمَلِكٍ فَعَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ [البقرة: ٢٤٧] ﴿ وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ [الكهف: ٧٩] ﴿ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠] وَفِي الصَّحِيحَيْنِ « مِثْلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسْرَةِ » (١) . وَالدِّينُ : الْجَزَاءُ وَالْحِسَابُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ﴾ [النور: ٢٥] وَقَالَ : ﴿ أءَنَا لَمَدِينُونَ ﴾ أَي : مَجْزِيُونَ مُحَاسِبُونَ .

### ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

قَرَأَ السَّبْعَةَ وَالْجُمُهورُ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ مِنْ ﴿ إِيَّاكَ ﴾ ، وَ « الْعِبَادَةُ » فِي اللُّغَةِ مِنَ الذَّلَّةِ ، يُقَالُ : طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ أَي : مُذَلَّلٌ ، وَفِي الشَّرْعِ : عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ . وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ وَهُوَ إِيَّاكَ وَكَرَّرَ لِلاِهْتِمَامِ وَالْحَضْرَ أَي : لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَهَذَا هُوَ كَمَالَ الطَّاعَةِ . وَالدِّينُ كُلُّهُ يَرْجِعُ إِلَى هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ .

وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فَأَلَّوْا تَبَرُّؤَ مِنَ الشَّرِكِ ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤَ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَالتَّفْوِيضَ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ آيَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣] ، ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩] ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [الزمل: ٩] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وَتَحَوَّلَ الْكَلَامُ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْمُواجَهَةِ بِكَافِ الْخِطَابِ وَهُوَ مُنَاسِبَةٌ لِأَنَّهُ لَمَّا أَتَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَكَانَهُ أَقْتَرَبَ وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعَبْدِي ، وَلِعَبْدِي مَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٨٨، ٢٧٨٩)، ومسلم (حديث ١٩١٢).

(٢) لفظ مسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ... ».

سَأَلَ ، إِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِيْنَ ﴾ قَالَ اللهُ : حَمْدِيْ عِبْدِيْ وَإِذَا قَالَ : ﴿ اَلرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ ﴾ قَالَ اللهُ : اُنْتِنِيْ عَلَيَّ عِبْدِيْ ، فَاِذَا قَالَ : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ﴾ قَالَ اللهُ : مَجْدِيْ عِبْدِيْ ، وَإِذَا قَالَ : ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ قَالَ : هَذَا بَيْنِيْ وَبَيْنَ عِبْدِيْ وَلِعِبْدِيْ مَا سَأَلَ ، فَاِذَا قَالَ : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِيْنَ اَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّيْنَ ﴿ ﴾ قَالَ : هَذَا لِعِبْدِيْ وَلِعِبْدِيْ مَا سَأَلَ ﴿ ١ ﴾ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ يَا مُرْكُمُ اَنْ تُخْلِصُوْا لَهُ الْعِبَادَةَ ، وَاَنْ تَسْتَعِيْنُوْهُ عَلٰى اُمُوْرِكُمْ ، وَاِنَّمَا قَدَّمَ ﴿ اِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ عَلٰى ﴿ وَاِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ لِاَنَّ الْعِبَادَةَ لَهُ هِيَ الْمَقْصُوْدَةُ ، وَالِاسْتِعَاْنَةُ وَسِيْلَةٌ اِلَيْهَا ، وَالِاهْتِيَامُ وَالْحَزْمُ تَقْدِيْمُ مَا هُوَ الْاَهْمُ فَاَلْاَهْمُ ، وَاللهُ اَعْلَمُ .

### ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾

قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ بِالصَّادِ ، وَقُرِيءَ : السِّرَاطُ ، وَقُرِيءَ : بِالزَّايِ . لَمَّا تَقَدَّمَ الشَّنَاءُ عَلٰى الْمَسْئُوْلِ تَبَارَكَ وَتَعَالٰى نَاسَبَ اَنْ يُعَقَّبَ بِالسُّوَالِ ، كَمَا قَالَ : « فَنِصْفُهَا لِي وَنِصْفُهَا لِعِبْدِيْ وَلِعِبْدِيْ مَا سَأَلَ » وَهَذَا اَكْمَلُ اَحْوَالِ السَّائِلِ اَنْ يَمْدَحَ مَسْئُوْلَهُ ثُمَّ يَسْأَلَهُ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ اِخْوَانِهِ الْمُؤْمِنِيْنَ بِقَوْلِهِ : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ ﴾ لِاَنَّهُ اَنْجَحَ لِلْحَاجَةِ وَاَنْجَحَ لِلْاِجَابَةِ ، وَهَذَا اُرْشَدُ اللهُ اِلَيْهِ ؛ لِاَنَّهُ الْاَكْمَلُ ، وَقَدْ يَكُوْنُ السُّوَالُ بِالْاِخْبَارِ عَنْ حَالِ السَّائِلِ وَاحْتِيَاجِهِ ، كَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ رَبِّ اِنِّيْ لِمَا اَنْزَلْتَ اِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيْرٌ ﴾ [ القصص : ٢٤ ] ، وَقَدْ يَتَقَدَّمُهُ مَعَ ذَلِكَ وَصْفُ مَسْئُوْلِ كَقَوْلِ ذِي النُّوْنِ : ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنْتَ سُبْحٰنَكَ اِنِّيْ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ ﴾ [ الانبياء : ٨٧ ] وَقَدْ يَكُوْنُ بِمَجْرَدِ الشَّنَاءِ عَلٰى الْمَسْئُوْلِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

اَذْكُرْ حَاجَتِيْ اَمْ قَدْ كَفَانِي  
حَيَاوُكَ اِنْ شِيَمْتِكَ الْحَيَاءُ  
اِذَا اُنْتِنِيْ عَلَيَّكَ الْمَرْءُ يَوْمًا  
كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّنَاءُ

(١) صحيح : أخرجه مسلم ( حديث ٣٩٥ ) .

(٢) ليس في مسلم بهذا اللفظ ، وانظر الحديث المتقدم .

وَالْهُدَايَةُ هَهُنَا: الْإِزْشَادُ وَالتَّوْفِيقُ، وَقَدْ تُعَدَّى الْهُدَايَةُ بِنَفْسِهَا كَمَا هُنَا ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فَتُضَمَّنُ مَعْنَى الْهُمْنَا، أَوْ وَقَفْنَا، أَوْ أَرْزُقْنَا، أَوْ اعْطِنَا ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أَي: بَيْنَا لَهُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَقَدْ تُعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢١] ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٣] وَذَلِكَ بِمَعْنَى الْإِزْشَادِ وَالدَّلَالَةِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَقَدْ تُعَدَّى بِاللَّامِ كَقَوْلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: ٤٣] أَي: وَقَفْنَا هَذَا وَجَعَلْنَا لَهُ أَهْلًا.

وَأَمَّا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ: أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ فِي لُغَةِ جَمِيعِ الْعَرَبِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي تَفْسِيرِ الصِّرَاطِ وَإِنْ كَانَ يَرْجَعُ حَاصِلُهَا إِلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ وَهُوَ: الْمَتَابَعَةُ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، فَرَوِيَ أَنَّهُ كِتَابُ اللَّهِ.

وَقِيلَ: هُوَ الْإِسْلَامُ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفْتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوِجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ - فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلْجَهُ - فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ وَالْأَبْوَابُ الْمَفْتَحَةُ: مُحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قَالَ: الْحَقُّ، وَهَذَا أَشْمَلٌ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَقَدَّمَ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَهِيَ مُتَلَازِمَةٌ فَإِنَّ مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ ﷺ وَاقْتَدَى بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؛ فَقَدْ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَمَنْ اتَّبَعَ الْحَقَّ؛ فَقَدْ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ اتَّبَعَ الْإِسْلَامَ؛ فَقَدْ اتَّبَعَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ وَحَبْلُهُ

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٢/٤)، وله طرق أخر بالفاظ متقاربة.



الْمَيِّنُ وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ ، فَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَاللَّهُ الْحَمْدُ .  
 فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يَسْأَلُ الْمُؤْمِنُ الْهُدَايَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا وَهُوَ  
 مُتَّصِفٌ بِذَلِكَ ؟ فَهَلْ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ أَمْ لَا ؟ فَالْجَوَابُ : أَنْ لَا ،  
 وَلَوْ لَا اِحْتِيَاجُهُ لَيْلًا وَمَهَارًا إِلَى سُؤَالِ الْهُدَايَةِ ؛ لَمَا أَرْشَدَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ  
 الْعَبْدَ مُفْتَقِرًا فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَحَالَةٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَثْبِيْتِهِ عَلَى الْهُدَايَةِ وَرُسُوحِهِ فِيهَا  
 وَتَبْصُرِهِ وَازْدِيَادِهِ مِنْهَا وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا  
 إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ فَأَرْشَدَهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْ يُمِدَّهُ بِالْمَعُونَةِ وَالنَّبَاتِ  
 وَالتَّوْفِيقِ ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِسُؤَالِهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ بِإِجَابَةِ الدَّاعِي  
 إِذَا دَعَاهُ وَلَا سِيَّامُ الْمُضْطَّرِّ الْمُحْتَاجِ الْمُفْتَقِرِ إِلَيْهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ . فَمَعْنَى قَوْلِهِ  
 تَعَالَى : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ اسْتَمْرَبْنَا عَلَيْهِ ، وَلَا تَعْدِلْ بِنَا إِلَى غَيْرِهِ .

﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ فِيهَا إِذَا قَالَ الْعَبْدُ : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إِلَى آخِرِهَا أَنْ  
 اللَّهُ يَقُولُ : « هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ مُفَسَّرٌ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ بَدَلٌ  
 مِنْهُ عِنْدَ النَّحَاةِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفَ بَيَانٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ  
 يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ  
 وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ ١١ ذَلِكِ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

[النساء : ٦٩-٧٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قَرَأَ الْجُمْهُورُ غَيْرَ بِالْجُرِّ  
 عَلَى النَّعْتِ . يَعْنِي : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ مِمَّنْ  
 تَقَدَّمَ وَصَفُهُمْ وَنَعْتُهُمْ ، وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَايَةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ وَامْتِنَالِ  
 أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ ، غَيْرِ صِرَاطِ ﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ

فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ وَلَا صِرَاطَ ﴿الضَّالِّينَ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ ، فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ . وَأَكَّدَ الْكَلَامَ بِبَلَا ؛ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ ثَمَّ مَسْلُكَيْنِ فَاسِدَيْنِ وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

إِنَّمَا جِيءَ «بِلا» لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَنَّ أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى الَّذِينَ أَنْعَمَتْ عَلَيْهِمْ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ لِتُجْتَنَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَإِنَّ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْإِيمَانِ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَالْيَهُودُ فَقَدُوا الْعَمَلَ وَالنَّصَارَى فَقَدُوا الْعِلْمَ ، وَهَذَا كَانَ الْغَضَبُ لِلْيَهُودِ وَالضَّلَالِ لِلنَّصَارَى ؛ لِأَنَّ مَنْ عَلِمَ وَتَرَكَ اسْتَحَقَّ الْغَضَبَ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ ، وَالنَّصَارَى لَمَّا كَانُوا قَاصِدِينَ شَيْئًا لَكِنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى طَرِيقَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ وَهُوَ اتِّبَاعُ الْحَقِّ ضَلُّوا ، وَكُلٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ضَالٌّ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ ، لَكِنْ أَخْصَّ أَوْصَافِ الْيَهُودِ الْغَضَبُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ : ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة : ٦٠] وَأَخْصَّ أَوْصَافِ النَّصَارَى الضَّلَالُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ : ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٧٧] ، وَهَذَا جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ وَالْأَنْبَاءُ .

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ : هُمُ الْيَهُودُ . ﴿وَالضَّالِّينَ﴾ قَالَ : النَّصَارَى هُمُ الضَّالُّونَ<sup>(١)</sup> . وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ قَالَ : «الْيَهُودُ» ، قُلْتُ : الضَّالِّينَ . قَالَ : «النَّصَارَى»<sup>(٢)</sup> .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : وَلَا أَعْلَمُ بَيْنَ الْمُفْسِّرِينَ فِي هَذَا اخْتِلَافًا ، وَفِي السِّيَرَةِ عَنْ زَيْدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى الشَّامِ يَطْلُبُونَ الدِّينَ الْحَنِيفَ قَالَتْ لَهُ الْيَهُودُ : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ ، فَقَالَ : أَنَا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ أَفْرٌ ، وَقَالَتْ لَهُ النَّصَارَى : إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الدُّخُولَ مَعَنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيكَ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، فَقَالَ : لَا أَسْتَطِيعُهُ فَاسْتَمَرَّ عَلَى

(١) صحيح لشواهده : انظر ما أخرجه أحمد (٣٧٨/٤ - ٣٧٩) والترمذي (٢٩٥٤) وغيرهما ، ومعناه

تشهد له آيات من كتاب الله ﷻ .

(٢) المتن صحيح ، وانظر ما تقدم ، لكن السند به عله أشرت إليها في كتابي التسهيل لتأويل التنزيل .

فِطْرَتِهِ ، وَجَانِبَ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَدِينِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمْ يَدْخُلْ مَعَ أَحَدٍ مِنَ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى ، وَأَمَّا أَصْحَابُهُ فَتَنَصَّرُوا وَدَخَلُوا فِي دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ لِأَنَّهُمْ وَجَدُوهُ أَقْرَبَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ إِذْ ذَاكَ وَكَانَ مِنْهُمْ وَرَقَةُ بْنُ تَوْفَلٍ حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ لَمَّا بَعَثَهُ آمَنَ بِهَا وَجَدَ مِنَ الْوَحْيِ ﷺ .

« مَسْأَلَةٌ » وَالصَّحِيحُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ الْإِخْلَالَ بِتَحْرِيرِ مَا بَيْنَ الضَّادِ وَالظَّاءِ لِقُرْبِ مَحْرَجَيْهَا .

فَصُلِّ : اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ سَبْعُ آيَاتٍ عَلَى حَمْدِ اللَّهِ وَتَمَجِيدِهِ وَالشَّانِ عَلَيْهِ بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الْمُسْتَلْزِمَةِ لِصِفَاتِهِ الْعُلْيَا ، وَعَلَى ذِكْرِ الْمَعَادِ وَهُوَ يَوْمُ الدِّينِ وَعَلَى إِرْشَادِهِ عَيْدُهُ إِلَى سُؤَالِهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ ، وَالتَّبَرُّؤِ مِنْ حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، وَإِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَتَوَحُّدِهِ بِالْأَلُوْهِيَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَنْزِيهِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ نَظِيرٌ ، أَوْ مُمَاتِلٌ ، وَإِلَى سُؤَالِهِمْ إِيَّاهُ الْهَدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَهُوَ الدِّينُ الْقَوِيمُ ، وَتَثْبِيْتِهِمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَقْضِيَهُمْ هُمْ بِذَلِكَ إِلَى جَوَارِ الصِّرَاطِ الْحَسِيِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُفْضِي بِهِمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ فِي جَوَارِ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّرْغِيبِ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ؛ لِيَكُونُوا مَعَ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْ مَسَالِكِ الْبَاطِلِ لِئَلَّا يُخْشَرُوا مَعَ سَالِكِيهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهُمْ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ وَالضَّالُّونَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا جَاءَ إِسْنَادُ الْإِنْعَامِ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَحَذَفَ الْفَاعِلَ فِي الْغَضَبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَإِنْ كَانَ هُوَ الْفَاعِلَ لِذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [المجادلة : ١٤]

وَكَذَلِكَ إِسْنَادُ الضَّلَالِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَضَلَّهُمْ بِقَدَرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] وَقَالَ : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالْهَدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ لَا كَمَا تَقُولُ الْفِرْقَةُ الْقَدَرِيَّةُ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ ، مِنْ أَنَّ الْعِبَادَ هُمْ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ

ذَلِكَ وَيَفْعَلُونَهُ وَيَحْتَجُونَ عَلَىٰ بَدْعَتِهِمْ بِمُتَشَابِهٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَتَرَكُونَ مَا يَكُونُ فِيهِ صَرِيحًا فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالغِيِّ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ <sup>(١)</sup> . « إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاخَذَرُوهُمْ » يَعْنِي : فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧]

فَلَيْسَ بِحَمْدِ اللَّهِ لِيُتَدَعَ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ لِيُفْصَلَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ مُفَرِّقًا بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَلَيْسَ فِيهِ تَنَاقُضٌ وَلَا اخْتِلَافٌ لِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .

فصل : يُسْتَحَبُّ لِمَنْ قَرَأَ الْفَاتِحَةَ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهَا : آمِينَ ، مِثْلَ يَس ، وَيُقَالُ : آمِينَ بِالْقَصْرِ أَيْضًا ، وَمَعْنَاهُ : اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ ، وَالذَّلِيلُ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّامِينَ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، وَغَيْرُهُ عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فَقَالَ : آمِينَ مَدَّ بِهَا صَوْتَهُ <sup>(٢)</sup> وَلَا بِي دَاوُدَ رَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ ، قَالَ أَصْحَابُنَا وَغَيْرُهُمْ : وَيُسْتَحَبُّ ذَلِكَ لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الصَّلَاةِ وَيَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ الْمُصَلِّي ، وَسَوَاءٌ كَانَ مُنْفَرِدًا أَوْ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، لِمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَاَفَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » <sup>(٣)</sup> وَلِئْسَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ آمِينَ وَالْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ آمِينَ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » <sup>(٤)</sup> قِيلَ : بِمَعْنَى مَنْ وَاَفَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ فِي الزَّمَانِ ، وَقِيلَ : فِي الْإِجَابَةِ ، وَقِيلَ : فِي صِفَةِ الْإِخْلَاصِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ <sup>(٥)</sup> عَنْ أَبِي مُوسَى مَرْفُوعًا « إِذَا قَالَ - يَعْنِي الْإِمَامُ - وَلَا الضَّالِّينَ فَقُولُوا آمِينَ يُجِبْكُمْ اللَّهُ » .

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٤٥٤٧) ، ومسلم (حديث ٢٦٦٥) .

(٢) أخرجه أحمد (٣١٦/٤) ، وسنده صحيح .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٨٠) ، ومسلم (حديث ٤١٠) .

(٤) مسلم (ص ٣٠٧ ط محمد فؤاد في طرق حديث (٤١٠) .

(٥) أخرجه مسلم (حديث ٤٠٤) .

قَالَ الْأَكْثَرُونَ مَعْنَاهُ : اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لَنَا . وَقَدْ قَدَّمْنَا فِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ « إِذَا آمَنَ  
 الْإِمَامُ فَأَمَّنُوا » وَأَنَّهُ ﷺ كَانَ يُؤَمِّنُ إِذَا قَرَأَ ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ، وَرَوَى  
 ابْنُ مَاجَهَ « مَا حَسَدْتُمْ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدْتُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالتَّأْمِينِ » (١) .  
 قُلْتُ : وَمِنْ هُنَا نَزَعَ بَعْضُهُمْ فِي الدَّلَالَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى :  
 ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا  
 حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [ يونس : ٨٨-٨٩ ] فَذَكَرَ الدُّعَاءَ عَنْ مُوسَى وَحْدَهُ وَمِنْ سِيَاقِ  
 الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَارُونَ آمَنَ فَنَزَلَ مَنزِلَةً مِنْ دَعَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ  
 دَعْوَتُكُمْ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَنْ آمَنَ عَلَى دُعَاءِ فَكَاثَمًا قَالَهُ ، فَلِهَذَا قَالَ : مَنْ  
 قَالَ إِنَّ الْمَأْمُومَ لَا يَقْرَأُ ، لِأَنَّ تَأْمِينَهُ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ بِمَنْزِلَةِ قِرَاءَتِهَا .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ « الْفَاتِحَةِ » وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

(١) سننه حسن : أخرجه ابن ماجه ( حديث ٨٥٦ ) ، وابن خزيمة ( حديث ٥٧٤ ) .

## تفسير سورة البقرة

مدنية وآياتها ست وثمانون ومائتان

ذَكَرَ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَصَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « لَا تَجْعَلُوا بَيْوتَكُمْ قُبُورًا ، فَإِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ الشَّيْطَانُ »<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ - وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ - إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ ، فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ ، فَأَنْصَرَفَ ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ ، فَلَمَّا أَخَذَهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، حَتَّى مَا يَرَاهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ : « اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ » قَالَ : قَدْ أَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى يَحْيَى ، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَأَنْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ ، فَخَرَجْتُ حَتَّى لَا أَرَاهَا ، قَالَ : « وَتَدْرِي مَا ذَاكَ ؟ » قَالَ : لَا . قَالَ : « تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا ، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ »<sup>(٢)</sup>.

ذَكَرُ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِهَا مَعَ آلِ عِمْرَانَ

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ » قَالَ : ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : « تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ، وَآلَ عِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا الزُّهْرَاوَانِ ، يُظَلَّانِ

(١) أخرجه أحمد ( ٣٣٧/٢ ) ، ومسلم ، ولفظ مسلم ( حديث ٧٨٠ ) « لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ».

(٢) صحيح : أخرجه البخاري معلقاً ( ٥٠١٨ ) وقد وصله غيره .

صَاحِبُهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ، أَوْ غَيَابَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَعْرِفُنِي ؟ فَيَقُولُ : مَا أَعْرَفُكَ ، فَيَقُولُ أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلِكَ ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ ، فَيُعْطَى الْمَلِكُ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدُ بِشِمَالِهِ ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقِيمُ لَهَا أَهْلُ الدُّنْيَا ، فَيَقُولَانِ بِمَا كُنِسْنَا هَذَا ؟ فَيَقَالُ : بِأَخِذْ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ ، ثُمَّ يُقَالُ : اقْرَأْ ، وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغَرِّفْهَا ، فَهُوَ فِي صُعودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ ، هَذَا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اِقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ لِأَهْلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اِقْرَأُوا الزَّهْرَ أَوْ يَنْ الْبَقْرَةَ وَالْعِمْرَانَ ، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَابَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ أَهْلِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ قَالَ : اِقْرَأُوا الْبَقْرَةَ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطْلَةُ»<sup>(٢)</sup>.

الزَّهْرَ أَوْ يَنْ : الْمُنِيرَتَانِ ، وَالْعِيَاةُ : مَا أَظْلَكَ مِنْ فَوْقِكَ ، وَالْفِرْقُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ وَالصَّوْفُ : الْمُصْطَفَةُ الْمُتَصَامَةُ ، وَالْبَطْلَةُ : السَّحْرَةُ وَمَعْنَى لَا تَسْتَطِيعُهَا . أَي : لَا يُمَكِّنُهُمْ حِفْظُهَا وَقِيلَ : لَا تَسْتَطِيعُ النُّفُودَ فِي قَارِيئِهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِيهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ ، تَقْدُمُهُمْ سُورَةُ الْبَقْرَةِ وَالْعِمْرَانَ » وَضَرَبَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ ، مَا نَسِيَتْهُنَّ بَعْدُ قَالَ : « كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ ، بَيْنَهُمَا شَرْقٌ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا»<sup>(٣)</sup>.

فَضْلٌ : وَالْبَقْرَةُ جَمِيعُهَا مَدِينَةٌ بِلَا خِلَافٍ وَهِيَ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِهَا ، لَكِنَّ قَوْلَهُ

(١) حسن : أخرجه أحمد (٣٤٨/٥) .

(٢) أخرجه مسلم بلفظ قريب (حديث ٨٠٤) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٨٠٤) .

تَعَالَى فِيهِ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ الْآيَةُ يُقَالُ : إِنَّمَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنْهَا ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الرَّبِّ مِنَ آخِرِ مَا نَزَلَ .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم ﴿١﴾

قَدْ اخْتَلَفَ الْمَفْسَّرُونَ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّورِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هِيَ بِمِثْلِ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ ، فَرَدُّوا عِلْمَهَا إِلَى اللَّهِ ، وَلَمْ يُفَسِّرْهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهَا ، وَاخْتَلَفَ هُوَ لَاءٍ فِي مَعْنَاهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا هِيَ : أَسْمَاءُ السُّورِ . وَيُعْتَصَدُ هَذَا بِمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ : الم السَّجْدَةَ وَ ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ <sup>(١)</sup> وَقَالَ آخَرُونَ ﴿ الم ﴾ وَ ﴿ حم ﴾ وَ ﴿ المص ﴾ وَ ﴿ ص ﴾ فَوَاتِحَ إِفْتَتَحَ اللَّهُ بِهَا الْقُرْآنَ .

وَقِيلَ : هِيَ إِسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ قَسَمٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ آخَرُونَ : فَهِيَ حُرُوفٌ أُسْتُفْتِحَتْ مِنْ حُرُوفِ هِجَاءِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى .

قُلْتُ : مَجْمُوعُ الْحُرُوفِ الْمَذْكُورَةِ فِي أَوَائِلِ السُّورِ بِحَذْفِ الْمَكْرَرِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ حَرْفًا وَهِيَ - « ا ل م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن » - يَجْمَعُهَا قَوْلُكَ : نَصُّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرٌّ . وَهِيَ نِصْفُ الْحُرُوفِ عَدَدًا ، وَالْمَذْكُورُ مِنْهَا أَشْرَفُ مِنَ الْمَتْرُوكِ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَةِ التَّضْرِيْفِ .

قَالَ الرَّمَّحَشَرِيُّ : وَلَمْ تَرِدْ كُلُّهَا مَجْمُوعَةً فِي أَوَّلِ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا كُرِّرَتْ ؛ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي التَّحْدِي وَالْتَبَكِيْتِ ، كَمَا كُرِّرَتْ قِصَصُ كَثِيرَةٌ ، وَكُرِّرَ التَّحْدِي بِالصَّرِيحِ فِي أَمَاكِنَ ، قَالَ : وَجَاءَ مِنْهَا عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ ﴿ ص ﴾ ﴿ ن ﴾ ﴿ ق ﴾ وَحَرْفَيْنِ مِثْلُ ﴿ حم ﴾ وَثَلَاثَةِ مِثْلُ ﴿ الم ﴾ وَأَرْبَعَةٍ مِثْلُ ﴿ المر ﴾ وَ ﴿ المص ﴾ وَخَمْسَةِ مِثْلُ ﴿ كهيعص ﴾ وَ ﴿ حم عسق ﴾ لِأَنَّ أَسَالِيْبَ كَلَامِهِمْ عَلَى هَذَا مِنَ الْكَلِمَاتِ مَا هُوَ عَلَى حَرْفٍ ، وَعَلَى حَرْفَيْنِ وَعَلَى ثَلَاثَةٍ ، وَعَلَى أَرْبَعَةٍ ، وَعَلَى خَمْسَةٍ لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٨٩١)، ومسلم (حديث ٨٨٠).



قُلْتُ : وَهَذَا كُلُّ سُورَةٍ أُفْتِتِحَتْ بِالْحُرُوفِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا الْإِنْصَارُ  
 لِلْقُرْآنِ وَبَيَانِ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعِ  
 وَعَشْرِينَ سُورَةً وَهَذَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ الْم ﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿ ﴿ الْم ﴾  
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿  
 [ آل عمران : ١ - ٣ ] ﴿ الْمَص ﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴿  
 [ الأعراف : ١ - ٢ ] ﴿ حَم ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ [ فصلت : ١ - ٢ ] ، وَغَيْرُ ذَلِكَ  
 مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ لِمَنْ أَمَعَنَ النَّظْرَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

### ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾

ذَلِكَ الْكِتَابُ أَي : هَذَا الْكِتَابُ ، وَالْعَرَبُ تُعَارِضُ بَيْنَ إِسْمِي الْإِشَارَةِ  
 فَيَسْتَعْمِلُونَ كَلًّا مِنْهَا مَكَانَ الْآخَرَ ، وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِهِمْ ، وَقَالَ الزَّخَشَرِيُّ : ذَلِكَ  
 إِشَارَةٌ إِلَى ﴿ الْم ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ ذَالِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ تَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ ذَالِكُمْ اللَّهُ ﴾ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا أُشِيرَ بِهِ  
 إِلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالْكِتَابُ : الْقُرْآنُ ، وَالرَّيْبُ : الشُّكُّ ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَقَالَ ابْنُ أَبِي  
 حَاتِمٍ : لَا أَعْلَمُ فِي هَذَا خِلَافًا ، وَمَعْنَى الْكَلَامِ هُنَا : أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ الْقُرْآنُ لَا  
 شَكَّ فِيهِ ، أَنَّهُ نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السَّجْدَةِ ﴿ الْم ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ  
 لَا رَيْبَ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [ السجدة : ١ - ٢ ] ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا خَبْرٌ وَمَعْنَاهُ  
 النَّهْيُ ، أَي : لَا تَرْتَابُوا فِيهِ .

وَخُصَّتِ الْهُدَايَةُ لِّلْمُتَّقِينَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً  
 وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ  
 بَعِيدٍ ﴾ ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ  
 الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى إِخْتِصَاصِ  
 الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّفْعِ بِالْقُرْآنِ ، لِأَنَّهُ هُوَ فِي نَفْسِهِ هُدًى ، وَلَكِنْ لَا يَنَالُهُ إِلَّا الْأَبْرَارُ ، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ

وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ [يونس: ٥٧]

﴿ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعنى : نُورًا لِّلْمُتَّقِينَ ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هَدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ ﴿ هُدَىٰ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَقِيلَ : الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَتَهُ ، وَقِيلَ : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لِّلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَّقُونَ الشَّرْكَ بِي وَيَعْمَلُونَ بِطَاعَتِهِ ، وَقِيلَ : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ اتَّقُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَدُّوا مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .  
وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ هُمُ الَّذِينَ نَعْتَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ الْآيَةَ ، وَالَّتِي بَعْدَهَا ، وَاخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ : أَنَّ الْآيَةَ تَعْمُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] ، وَقَالَ : ﴿ \* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، وَقَالَ : ﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٦] ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ ، وَيُطْلَقُ الْهُدَى وَيُرَادُ بِهِ مَا يُقَرُّ فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَهَذَا لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ إِلَّا اللَّهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] ، وَقَالَ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠] عَلَى تَفْسِيرٍ مَنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِهِمَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَهُوَ الْأَرْجَحُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَصْلُ التَّقْوَى التَّوْقِي بِمَا يُكْرَهُ ، قَالَ النَّبِغَةُ :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ  
فَتَنَاوَلْتَهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

قَالَ ابْنُ الْمَعْتِزِّ :

خَلَّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا  
وَاصْنَعْ كَمَا شِ فَوْقَ أَرْ  
لَا تَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً  
وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التَّقَى  
ضِ الشُّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى  
إِنَّ الْجِبَالَ مِنَ الْحَصَى

وَأَنشَدَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَوْمًا :

يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَىٰ مِنْهُ  
يَقُولُ الْمَرْءُ فَإِنَّتِي وَمَالِي  
وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَا  
وَتَقْوَىٰ اللَّهُ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَا

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٠﴾

أَمَّا الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ فَيُطْلَقُ عَلَى التَّصَدِيقِ الْمَحْضِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ فِي الْقُرْآنِ وَالْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١] ، وَكَمَا قَالَ إِخْوَةُ يُونُسَ لِأَبِيهِمْ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : ١٧] ، وَكَذَلِكَ إِذَا أُسْتَعْمِلَ مَقْرُونًا مَعَ الْأَعْمَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [ص : ٢٤] فَأَمَّا إِذَا أُسْتَعْمِلَ مُطْلَقًا ، فَالْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ الْمَطْلُوبُ لَا يَكُونُ إِلَّا اعْتِقَادًا وَقَوْلًا وَعَمَلًا . هَكَذَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَكْثَرُ الْأَيْمَةِ ، بَلْ قَدْ حَكَاهُ الشَّافِعِيُّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ إِجْمَاعًا : أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ . وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ : بِالْحَشِيَّةِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ تَحَشَّوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ [الأنبياء : ٤٩] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق : ٢٣] ، وَالْحَشِيَّةُ : خُلَاصَةُ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا تَحَشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّاعِلْمَتُوا ﴾ [فاطر : ٢٨]

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِالشَّهَادَةِ وَلَيْسُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ، وَقَالَ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الَّاعِلْمَتُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الَّاعِلْمَتِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُهُ بِالْغَيْبِ حَالًا . أَي : فِي حَالِ كَوْنِهِمْ غَيْبًا عَنِ النَّاسِ . وَأَمَّا الْغَيْبُ الْمُرَادُ هَاهُنَا ، فَقَدْ اخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ السَّلَفِ فِيهِ ، وَكُلُّهَا صَحِيحَةٌ تَرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْجَمِيعَ مُرَادٌ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ وَالْآخِرِ وَجَنَّتِهِ وَنَارِهِ وَلِقَائِهِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْحَيَاةِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَبِالْبَعْثِ فَهَذَا غَيْبٌ كُلُّهُ . وَقَالَ آخَرُ : الْغَيْبُ فَمَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ مِنْ أَمْرِ الْجَنَّةِ وَأَمْرِ النَّارِ ، وَمَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ : بِالْقَدْرِ . فَكُلُّ هَذِهِ مُتَقَارِبَةٌ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ ، لِأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ مِنَ الْغَيْبِ ، الَّذِي يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ إِقَامَةُ الصَّلَاةِ إِتِمَامُ الرُّكُوعِ ، وَالسُّجُودِ ، وَالتَّلَاوَةِ ، وَالْحُشُوعِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهَا فِيهَا ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى مَوَاقِفِهَا ، وَوُضُوءِهَا ، وَرُكُوعِهَا ، وَسُجُودِهَا . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ : إِقَامَتُهَا : الْمُحَافَظَةُ عَلَى مَوَاقِفِهَا ، وَإِسْبَاحُ الطَّهُورِ بِهَا ، وَتِمَامُ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ فِيهَا ، وَالتَّشَهُدُ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَهَذَا إِقَامَتُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ قِيلَ الْمُرَادُ : زَكَاةُ أَمْوَالِهِمْ ، وَقِيلَ : نَفَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ .

قُلْتُ : كَثِيرًا مَا يَقْرُنُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الصَّلَاةِ ، وَالْإِنْفَاقِ مِنَ الْأَمْوَالِ ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ حَقُّ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ ، وَالتَّنَائِي عَلَيْهِ وَتَمَجِيدِهِ ، وَالِإِبْتِهَالِ إِلَيْهِ وَدُعَائِهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَالْإِنْفَاقِ : هُوَ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّي إِلَيْهِمْ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْقَرَابَاتُ ، وَالْأَهْلُونَ ، وَالْمَالِيكَ ثُمَّ الْأَجَانِبُ ، فَكُلٌّ مِنَ النَّفَقَاتِ الْوَاجِبَةِ وَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ) » ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَأَصْلُ الصَّلَاةِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الدُّعَاءُ . وَهَذَا ظَاهِرٌ ، ثُمَّ أُسْتُعْمِلَتْ الصَّلَاةُ فِي الشَّرْعِ فِي ذَاتِ الرُّكُوعِ ، وَالسُّجُودِ ، وَالْأَفْعَالِ الْمَخْصُوصَةِ فِي الْأَوْقَاتِ الْمَخْصُوصَةِ ، بِشُرُوطِهَا الْمَعْرُوفَةِ ، وَصِفَاتِهَا ، وَأَنْوَاعِهَا الْمَشْهُورَةِ .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾

أَيُّ : يُصَدِّقُونَ بِمَا جِئَتْ بِهِ مِنَ اللَّهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ وَلَا يَجْحَدُونَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ . أَيُّ : بِالْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، وَالْحِسَابِ وَالْمِيزَانِ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ الْآخِرَةُ ، لِأَنَّهَا

(١) البخاري (حديث ٨) ، ومسلم (حديث ١٦) ، واللفظ للبخاري .

بَعْدَ الدُّنْيَا ، وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُوصُوفِينَ هُنَا هَلْ هُمْ الْمُوصُوفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، وَمَنْ هُمْ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ حَكَاهَا ابْنُ جَرِيرٍ أَحَدَهَا : أَنَّ الْمُوصُوفِينَ أَوْلَا هُمْ الْمُوصُوفُونَ ثَانِيًا ، وَهُمْ كُلُّ مُؤْمِنٍ : مُؤْمِنُو الْعَرَبِ وَمُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ .

وَالثَّانِي : هُمَا وَاحِدٌ وَهُمْ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ وَعَلَى هَذَيْنِ تَكُونُ الْوَاوُ عَاطِفَةً صِفَاتٍ عَلَى صِفَاتٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ ﴾ [الأعلى : ١-٥] ، وَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ  
وَلَيْتَ الْكُتَيْبَةَ فِي الْمُرْدَحِمِ

فَعَطَفَ الصِّفَاتِ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَالْمُوصُوفُ وَاحِدٌ .

وَالثَّلَاثُ : أَنَّ الْمُوصُوفِينَ أَوْلَا مُؤْمِنُو الْعَرَبِ ، وَالْمُوصُوفُونَ ثَانِيًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِأَنَّ خِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿ لِمُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَيُسْتَشْهَدُ لِمَا قَالَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] الْآيَةُ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِنَا بِنَا إِنَّنَا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [القصص : ٥٢-٥٤]

وَبِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي ، وَرَجُلٌ مَلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا » .

قُلْتُ : وَالظَّاهِرُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَقَدْ قَالَ : أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَعْتِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٩٧) ، ومسلم (حديث ١٥٤) بلفظ قريب .

الْمُؤْمِنِينَ ، وَآيَاتَانِ فِي نَعْتِ الْكَافِرِينَ ، وَثَلَاثَةَ عَشَرَ فِي الْمُنَافِقِينَ ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ عَامَاتٌ فِي كُلِّ مُؤْمِنٍ انْتَصَفَ بِهَا مِنْ عَرَبِيٍّ وَعَجَمِيٍّ وَكِنَانِيٍّ مِنْ إِنْسِيٍّ وَجَنِيٍّ ، وَلَيْسَ تَصِحُّ وَاحِدَةٌ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِدُونِ الْأُخْرَى ، بَلْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْأُخْرَى ، وَشَرَطُ مَعَهَا ، فَلَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ إِلَّا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الرُّسُلِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَالْإِيمَانُ بِالْآخِرَةِ كَمَا أَنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِذَلِكَ وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦] الآية . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَاتِي حَىٰ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامِنًا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالنَّهْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ءَامِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامِنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفْرَقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ لَكِنِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلَ الْكِتَابِ خُصُوصِيَّةً وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا بِيَدِيهِمْ مُفْصَلًا فَإِذَا دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَآمَنُوا بِهِ مُفْصَلًا كَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْأَجْرَ مَرَّتَيْنِ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ الْإِيمَانُ بِمَا تَقَدَّمَ مُجْمَلًا ، وَلَكِنِ قَدْ يَكُونُ إِيْمَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَتَمَّ وَأَكْمَلَ وَأَعَمَّ وَأَشْمَلَ مِنْ إِيْمَانِ مَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ، فَهُمْ وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ أَجْرَانِ مِنْ تِلْكَ الْحَيْثِيَّةِ فَعَيْرُهُمْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ التَّصَدِيقِ مَا يُنِيفُ ثَوَابُهُ عَلَى الْأَجْرَيْنِ اللَّذَيْنِ حَصَلَا لَهُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَوْلَيْتِكَ عَلَىٰ هُدَىٰ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَيْتِكَ ﴾ أَيُّ : الْمُتَّصِفُونَ بِمَا تَقَدَّمَ ﴿ عَلَىٰ هُدَىٰ ﴾ أَيُّ : عَلَىٰ نُورٍ وَبَيَّانٍ وَبَصِيرَةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِقَامَةٍ وَسَدَادٍ بِتَسْدِيدِهِ إِيَّاهُمْ وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ ، وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْلَيْتِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ : الْمُنْجِحُونَ الْمُدْرِكُونَ مَا طَلَبُوا عِنْدَ

اللَّهُ بِأَعْمَالِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ مِنَ الْفَوْزِ بِالثَّوَابِ وَالْخُلُودِ فِي الْجَنَّاتِ ،  
وَالنَّجَاةِ مِمَّا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : عَطَّوْا الْحَقَّ وَسَتَرُوهُ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ  
إِنْذَارُكَ وَعَدَمُهُ فَإِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ  
كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿ يونس : ٩٦-٩٧ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُعَانِدِينَ مِنْ  
أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] .  
أَيَّ أَنْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الشَّقَاوَةَ فَلَا مُسْعِدَ لَهُ ، وَمَنْ أَضَلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ فَلَا  
تَذَهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ وَيَبْلُغُهُمُ الرَّسَالَةَ فَمَنْ اسْتَجَابَ لَكَ فَلَهُ الْخِطُّ  
الْأَوْفَرُ ، وَمَنْ تَوَلَّى فَلَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْمُنُكَ ذَلِكَ ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا  
الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠]

﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ ﴾ أَي : هُمْ كُفَّارٌ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ ؛ فَلِهَذَا  
أَكَّدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

حَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ حَتَمَ اللَّهُ ﴾ أَي : طَبَعَ اللَّهُ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ  
وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحَتْمِ وَالطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ مُجَازَةً لِكُفْرِهِمْ كَمَا قَالَ : ﴿ بَلْ  
طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وَذَكَرَ حَدِيثَ تَقْلِيلِ الْقُلُوبِ « وَيَا مُقَلَّبَ  
الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ »<sup>(١)</sup> وَذَكَرَ حَدِيثَ حُذِيفَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ عَنْ  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تُعْرَضُ الْفِتْنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُوْدًا عُوْدًا فَأَيُّ قَلْبٍ

(١) أخرجه أحمد (في المسند ٤/ ١٨٢) بإسناد صحيح من حديث النواس بن سمعان ﷺ مرفوعاً .

أَشْرِبَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِبَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءٌ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضٍ مِثْلِ الصَّفَاءِ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْآخِرُ أَسْوَدٌ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا»<sup>(١)</sup> الْحَدِيثُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْحَقُّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ مَا صَحَّ بِنَظِيرِهِ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَعْتَبَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾»<sup>(٢)</sup> ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ الدُّنُوبَ إِذَا تَتَابَعَتْ عَلَى الْقُلُوبِ أَغْلَقَتْهَا ، وَإِذَا أَغْلَقَتْهَا أَتَاهَا حَيْثُئِذِ الْخُتْمُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى وَالطَّبْعِ ، فَلَا يَكُونُ لِلْإِيمَانِ إِلَيْهَا مَسْلَكٌ وَلَا لِلْكُفْرِ عَنْهَا مَخْلَصٌ فَذَلِكَ هُوَ الْخُتْمُ وَالطَّبْعُ الَّذِي ذُكِرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ .  
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْوَقْفَ التَّامَّ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ جُمْلَةٌ تَامَّةٌ فَإِنَّ الطَّبْعَ يَكُونُ عَلَى الْقَلْبِ وَعَلَى السَّمْعِ ، وَالْغِشَاوَةُ وَهِيَ الْغِطَاءُ يَكُونُ عَلَى الْبَصَرِ .

لِمَا تَقَدَّمَ وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ بِأَرْبَعِ آيَاتٍ ثُمَّ عَرَّفَ حَالَ الْكَافِرِينَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ وَلَمَّا كَانَ أَمْرُهُمْ يَشْتَبِهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِمْ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّ مِنْهَا يَفَاقُ كَمَا أَنْزَلَ سُورَةَ بَرَاءَةَ فِيهِمْ ، وَسُورَةَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ ، وَذَكَرَهُمْ فِي سُورَةِ النُّورِ وَغَيْرِهَا مِنَ السُّورِ تَعْرِيفًا لِأَحْوَالِهِمْ لِتُجَنَّبَ وَيُجْتَنَّبَ مَنْ تَلَبَّسَ بِهَا أَيْضًا فَقَالَ تَعَالَى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٠﴾  
يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠١﴾

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٤٤) من حديث حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) إسناده حسن : أخرجه الطبري في تفسيره (١/٢٦٠ ط شاكر) .



النَّفَاقُ : هُوَ إِظْهَارُ الْحَيْثُورِ وَإِسْرَارُ الشَّرِّ ، وَهُوَ أَنْوَاعٌ : اِعْتِقَادِيٌّ وَهُوَ الَّذِي يُحْدِثُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ ، وَعَمَلِيٌّ وَهُوَ مِنْ أَكْثَرِ الذُّنُوبِ كَمَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا كَمَا قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : الْمُنَافِقُ يُخَالِفُ قَوْلُهُ فِعْلُهُ وَسِرُّهُ عَلَانِيَتُهُ وَمَدْخَلُهُ مَخْرَجُهُ وَمَشْهُدُهُ مَغْيِبُهُ ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ صِفَاتُ الْمُنَافِقِينَ فِي السُّورَةِ الْمَدِينِيَّةِ لِأَنَّ مَكَّةَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نِفَاقٌ بَلْ كَانَ خِلَافُهُ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَانَ يُظْهِرُ الْكُفْرَ مُسْتَكْرَهًا وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مُؤْمِنٌ ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ ، وَكَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلَ : بَنُو قَيْنِقَاعَ حُلَفَاءَ الْخَزْرَجِ وَبَنُو النَّضِيرِ وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءَ الْأَوْسِ ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ قَبِيلَتِي الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، وَقَلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ﷺ وَلَمْ يَكُنْ إِذْ ذَاكَ نِفَاقٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بَعْدَ شُكُوكِهِ تَخَافُ بَلْ قَدْ كَانَ ﷺ وَادَعَ الْيَهُودَ وَقَبَائِلَ كَثِيرَةً مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَوَالِي الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرِ الْعُظْمَى ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَأَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ مِنَ الْخَزْرَجِ ، وَكَانَ سَيِّدَ الطَّائِفَتَيْنِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانُوا قَدْ عَزَمُوا عَلَى أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ فَجَاءَهُمُ الْحَيْثُورُ وَأَسْلَمُوا وَاشْتَغَلُوا عَنْهُ فَبَقِيَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرِ قَالَ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفٌ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَنَحْلَتِهِ وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَمِنْ ثَمَّ وَجَدَ النِّفَاقَ فِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ ، فَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ يَهَاجِرُ مُكْرَهًا بَلْ يَهَاجِرُ فَيْتْرُكَ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَرْضَهُ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ .

وَلِهَذَا نَبَّهَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِظَاهِرِ أَمْرِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَيَقَعَ لِذَلِكَ فَسَادٌ عَرِيضٌ مِنْ عَدَمِ الْإِحْتِرَازِ مِنْهُمْ وَمِنْ اِعْتِقَادِ إِيْمَانِهِمْ وَهُمْ كُفَّارٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا مِنَ الْمَحْدُورَاتِ الْكِبَارِ أَنْ يَظُنَّ لِأَهْلِ الْفُجُورِ خَيْرٌ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا

لَيْسَ وَرَاءَهُمْ شَيْءٌ آخَرَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ [ المنافقون : ١ ] أَيْ : إِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ إِذَا جَاءُوكَ فَقَطْ لَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا يُؤَكِّدُونَ الشَّهَادَةَ بِأَنَّ وَلَا مَ التَّأَكُّدِ فِي خَبَرِهَا ، كَمَا أَكَّدُوا أَمْرَهُمْ قَالُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَمَا كَذَّبَهُمُ اللَّهُ فِي شَهَادَتِهِمْ وَفِي خَبَرِهِمْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ ، وَبِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَخَذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيْ : بِإِظْهَارِهِمْ مَا أَظْهَرُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ إِسْرَارِهِمُ الْكُفْرَ يَعْتَقِدُونَ بِجَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْدَعُونَ اللَّهَ بِذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ نَافِعُهُمْ عِنْدَهُ وَأَنَّهُ يَرُوجُ عَلَيْهِ كَمَا قَدْ يَرُوجُ عَلَى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ ، كَمَا كَفَرُوا لَكُمْ ، وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ءَلَا إِلَهَ إِلَّا هُمْ ﴾ [ المائدة : ١٨ ] وَهَذَا قَابَلَهُمْ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يَقُولُ : وَمَا يَغْرُونَ بِصَنِيْعِهِمْ هَذَا وَلَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ بِذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [ النساء : ١٤٢ ]

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١﴾  
 ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ : الشُّكُّ ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ : شَكًّا . وَقِيلَ : نِفَاقٌ ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ : قِيلَ : هَذَا مَرَضٌ فِي الدِّينِ وَلَيْسَ مَرَضًا فِي الْأَجْسَادِ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْمَرَضُ : الشُّكُّ الَّذِي دَخَلَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ ﴿ فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ : زَادَهُمْ رِجْسًا ، وَقَرَأَ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٢﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [ التوبة : ١٢٤ - ١٢٥ ] شَرًّا إِلَى شَرِّهِمْ وَضَلَالَةً إِلَى ضَلَالَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ ، وَقُرِئَ (( يَكْذِبُونَ )) ، وَقَدْ كَانُوا مُتَّصِفِينَ بِهَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا كَذِبَةً وَيَكْذِبُونَ بِالْغَيْبِ يَجْمَعُونَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١٥﴾ أَلَا  
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١١٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ : هُمُ الْمُنَافِقُونَ .  
أَمَّا ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ : الْفَسَادُ هُوَ الْكُفْرُ وَالْعَمَلُ بِالْمَعْصِيَةِ . وَقِيلَ :  
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي : لَا تَعْصُوا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ فَسَادُهُمْ  
ذَلِكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ ، لِأَنَّهُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِي الْأَرْضِ أَوْ أَمَرَ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ أَفْسَدَ فِي  
الْأَرْضِ ، لِأَنَّ صَلَاحَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ بِالطَّاعَةِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَأَهْلُ النِّفَاقِ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَعْصِيَتِهِمْ فِيهَا رَبَّهُمْ ،  
وَرُكُوبِهِمْ فِيهَا مَا نَهَاهُمْ عَنْ رُكُوبِهِ ، وَتَضْيِيعِهِمْ فَرَائِضَهُ ، وَشَكَّهُمْ فِي دِينِهِ الَّذِي لَا  
يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ عَمَلٌ إِلَّا بِالتَّصَدِيقِ بِهِ وَالإِيقَانِ بِحَقِيقَتِهِ ، وَكَذِبِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ  
بِدَعْوَاهُمْ غَيْرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مُقِيمُونَ مِنَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ ، وَمُظَاهَرَتِهِمْ أَهْلَ التَّكْذِيبِ  
بِاللَّهِ وَكُتْبِهِ وَرُسُلِهِ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ إِذَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَذَلِكَ إِفْسَادُ الْمُنَافِقِينَ  
فِي الْأَرْضِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُهُمْ ذَلِكَ مُصْلِحُونَ فِيهَا . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ  
حَسَنٌ ، فَإِنَّ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِتِّخَاذَ الْمُؤْمِنِينَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾  
[ الأنفال : ٧٣ ] فَفَطَعَ اللَّهُ الْمَوَالَاةَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿يَتَأَيُّهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ  
عَلَيْكُمْ سُلْطَنًا مُبِينًا﴾ [ النساء : ١٤٤ ] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ  
النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [ النساء : ١٤٥ ] فَالْمُنَافِقُ لَمَّا كَانَ ظَاهِرُهُ الإِيْمَانَ اشْتَبَهَ أَمْرُهُ عَلَى  
الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَانَ الْفَسَادُ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِ حَاصِلًا لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي غَرَّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ  
الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَوَالَى الْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلَوْ أَنَّهُ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالِهِ الْأَوَّلِ لَكَانَ  
شَرُّهُ أَحْفَ ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْعَمَلُ لِلَّهِ وَتَطَابَقَ قَوْلُهُ وَعَمَلُهُ لِأَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ؛ وَهَذَا قَالَ  
تَعَالَى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ أَي : نُرِيدُ  
أَنْ نُدَارِيَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَنَصْطَلِحَ مَعَ هَؤُلَاءِ وَهُؤُلَاءِ .

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: أَلَا إِنَّ هَذَا الَّذِي يَعْتَمِدُونَهُ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ هُوَ عَيْنُ الْفَسَادِ وَلَكِن مِّنْ جَهْلِهِمْ لَّا يَشْعُرُونَ بِكُونِهِ فَسَادًا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا قِيلَ لِلْمُنَافِقِينَ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ، أَي: كَأَيِّمَانِ النَّاسِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَعَنْهُ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِي امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ وَتَرْكِ الزَّوَاجِرِ. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ يَعْنُونَ - لَعَنَهُمُ اللَّهُ - أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. يَقُولُونَ: أَنْصِيرْ نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ وَعَلَى طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ سُفَهَاءُ؟ وَالسُّفَهَاءُ: جَمْعُ سَفِيهِ، وَالسَّفِيهِ هُوَ: الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ الرَّأْيِ الْقَلِيلُ الْعَرَفَةِ بِمَوَاضِعِ الْمَصَالِحِ وَالْمَضَارِّ وَهَذَا سَمَّى اللَّهُ النِّسَاءَ وَالصَّبِيَانَ سُفَهَاءً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَوُوتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ قَالَ عَامَّةُ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ: هُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَانَ، وَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَوَابَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ فَأَكَّدَ وَحَصَرَ السَّفَاهَةَ فِيهِمْ ﴿وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي: وَمِنْ تَمَامِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُمْ لَّا يَعْلَمُونَ بِحَالِهِمْ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلِ، وَذَلِكَ أَرَادَى لَهُمْ وَأَبْلَغَ فِي الْعَمَى وَالْبُعْدِ عَنِ الْهُدَى.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٢﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: وَإِذَا لَقِيَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا: آمَنَّا وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْإِيمَانَ وَالْمُؤَالَاةَ وَالْمُصَافَاةَ غُرُورًا مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَنِفَاقًا وَمُصَانَعَةً وَتَقِيَّةً، وَلِيُشْرِكُوهُمْ فِيمَا أَصَابُوا مِنْ خَيْرٍ وَمَعْتَمٍ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يَعْنِي: إِذَا أَنْصَرَفُوا وَذَهَبُوا وَخَلَصُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ. يَعْنِي: هُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ فِي الْكُفْرِ ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾

مِن يَهُودِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُمْ بِالْتَّكْذِيبِ وَخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَقَادَتِهِمْ فِي الشَّرْكِ وَالشَّرِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أَي: أَنَا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ أَي: إِنَّمَا نَحْنُ نُسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَنَلْعَبُ بِهِمْ .

آخَرُ: إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ سَاخِرُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى جَوَابًا لَهُمْ وَمُقَابَلَةً عَلَى صَنِيعِهِمْ ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ فَاعِلٌ بِهِمْ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ دَبَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ

وَوَظْهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣] الْآيَةُ . وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨] . قَالَ:

فَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ مِنْ اسْتَهْزَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، وَسُخْرِيَّتِهِ وَمَكْرِهِ وَخَدِيعَتِهِ لِلْمُنَافِقِينَ، وَأَهْلِ الشَّرْكِ بِهِ عِنْدَ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ وَمُتَأَوِّلِ هَذَا التَّأْوِيلِ قَالَ: وَقَالَ آخِرُونَ: بَلْ

اسْتَهْزَأُوهُ بِهِمْ تَوْبِيحُهُ إِيَّاهُمْ وَلَوْ مَهْهُمُ عَلَى مَا رَكِبُوا مِنْ مَعَاصِيهِ وَالْكَفْرِ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يَمُدُّهُمْ: يُمِلِّي لَهُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ:

يَزِيدُهُمْ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]، وَقَالَ: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: كُلَّمَا أَحَدُثُوا ذَنْبًا أَحَدَثَ لَهُمْ نِعْمَةً وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ نِقْمَةٌ،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ﴿ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا

وَأَلْحَمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥]

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَالصَّوَابُ نَزِيدُهُمْ عَلَى وَجْهِ الإِمْلَاءِ وَالتَّرْكِ لَهُمْ فِي عُدُوَّتِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَى مَرَّةٍ

وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وَالطُّغْيَانُ هُوَ الْمَجَاوِزَةُ فِي الشَّيْءِ،

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] ، وَقِيلَ : ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فِي كُفْرِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْعَمَهُ الضَّلَالُ ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ فِي ضَلَالَتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ الَّذِي عَمَرَهُمْ دَنْسُهُ وَعَلَاهُمْ رِجْسُهُ يَتَرَدَّدُونَ حِيَارَى ضَلَالًا لَا يَجِدُونَ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهُ سَبِيلًا لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَخَتَمَ عَلَيْهَا وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَغْشَاهَا لَا يُبْصِرُونَ رُشْدًا وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْعَمَى فِي الْعَيْنِ وَالْعَمَهُ فِي الْقَلْبِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ الْعَمَى فِي الْقَلْبِ أَيْضًا . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦]

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ﴾ أَخَذُوا الضَّلَالََةَ وَتَرَكُوا الْهُدَى . أَيِ : الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : اسْتَحَبُّوا الضَّلَالََةَ عَلَى الْهُدَى . وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ يُشَبِّهُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى فِي ثَمُودَ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧]

وَحَاصِلُ قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ عَدَلُوا عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ وَعَاظُوا عَنِ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ﴾ أَيِ : بَدَلُوا الْهُدَى ثَمَنًا لِلضَّلَالَةِ ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِيمَانُ ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أَوْ أَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الضَّلَالََةَ عَلَى الْهُدَى ، كَمَا يَكُونُ حَالُ فَرِيقٍ آخَرَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ أَنْوَاعٌ وَأَقْسَامٌ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أَيِ : مَا رِيحَتْ صَفْقَتُهُمْ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ : أَيِ : رَاشِدِينَ فِي صَنْعِهِمْ ذَلِكَ .

مِثْلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾

وَتَقْدِيرُ هَذَا الْمَثَلِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ شَبَّهَهُمْ فِي إِسْتِرَائِهِمُ الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ، وَصَيَّرُوهُمْ بَعْدَ الْبَصِيرَةِ إِلَى الْعَمَى بِمَنْ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ وَانْتَفَعَ بِهَا وَأَبْصَرَ بِهَا مَا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، وَتَأَنَسَ بِهَا فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ طُفِئَتْ نَارُهُ ، وَصَارَ فِي ظَلَامٍ شَدِيدٍ لَّا يُبْصِرُ وَلَا يَهْتَدِي وَهُوَ مَعَ هَذَا أَصَمُّ لَّا يَسْمَعُ ، أَبْكُمْ لَّا يَنْطِقُ ، أَعْمَى كَوَ كَانَ ضِيَاءً لَمَّا أَبْصَرَ ؛ فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي إِسْتِنْدَالِهِمْ عَوَضًا عَنِ الْهُدَى وَاسْتِحْبَابِهِمُ الْغَيِّ عَلَى الرَّشْدِ . وَفِي هَذَا الْمَثَلِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قُلْتُ : وَقَدْ انْتَفَتِ فِي أَثْنَاءِ الْمَثَلِ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْجَمْعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٧﴾ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهَمْ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ وَهَذَا أَفْصَحُ فِي الْكَلَامِ وَأَبْلَغُ فِي النِّظَامِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ أَيُّ : ذَهَبَ عَنْهُمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَهُوَ النُّورُ ، وَأَبْقَى لَهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ وَهُوَ الْإِحْرَاقُ وَالذُّخَانُ ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ ﴾ وَهُوَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّكِّ وَالْكَفْرِ وَالنَّفَاقِ ﴿ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى سَبِيلِ خَيْرٍ وَلَا يَعْرِفُونَهَا . وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ﴿ صُمُّ ﴾ لَا يَسْمَعُونَ خَيْرًا ﴿ بِكُمْ ﴾ لَا يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ﴿ عُمَىٰ ﴾ فِي ضَلَالَةٍ وَعَمَايَةِ الْبَصِيرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فَلِهَذَا لَا يَرْجِعُونَ إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ الَّتِي بَاعَوْهَا بِالضَّلَالَةِ .

عَنْ قَتَادَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ الْمُنَافِقَ تَكَلَّمَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَأَضَاءَتْ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، فَبَاكَحَ بِهَا الْمُسْلِمِينَ ، وَغَارَاهُمْ بِهَا ، وَوَارَاهُمْ بِهَا ، وَحَقَنَ بِهَا دَمَهُ وَمَالَهُ ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ سَلِبَهَا الْمُنَافِقُ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَصْلٌ فِي قَلْبِهِ وَلَا حَقِيقَةً فِي عَمَلِهِ . ﴿ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ ﴾ فَهَمْ حُرْسُ عُمَىٰ . لَا يَسْمَعُونَ الْهُدَى وَلَا يَعْقِلُونَهُ ، ﴿ فَهَمْ لَّا يَرْجِعُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يَرْجِعُونَ إِلَى هُدَى ، وَقِيلَ : ﴿ لَّا يَرْجِعُونَ ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَقِيلَ : لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ .

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ  
مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ  
أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

هَذَا مِثْلُ آخِرِ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِيَضْرِبَ آخِرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَهُمْ قَوْمٌ يَظْهَرُ هَمُّ  
الْحَقِّ تَارَةً وَيَسْكُونُ تَارَةً أُخْرَى ، فَقَلُوبُهُمْ فِي حَالِ شَكْهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَتَرَدُّدِهِمْ  
﴿ كَصَيْبٍ ﴾ ، وَالصَّيْبُ : الْمَطَرُ . وَقِيلَ : هُوَ السَّحَابُ ، وَالْأَشْهَرُ هُوَ الْمَطَرُ نَزَلَ مِنَ  
السَّمَاءِ فِي حَالِ ظُلُمَاتٍ ، وَهِيَ الشُّكُوكُ وَالْكَفْرُ وَالنَّفَاقُ ﴿ وَرَعْدٌ ﴾ وَهُوَ مَا يُزْعِجُ  
الْقُلُوبَ مِنَ الْخَوْفِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ الْخَوْفَ الشَّدِيدَ وَالْفَزَعَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
﴿ مَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَتَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لَمَنْكُمُ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ  
وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴾ ﴿١١﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَتًا أَوْ مَدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ  
يَجْمَحُونَ ﴿ [ التوبة : ٥٦ - ٥٧ ] ﴾ وَ ﴿ الْبَرْقُ ﴾ هُوَ مَا يَلْمَعُ فِي قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الضَّرْبِ مِنَ  
الْمُنَافِقِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْ نُورِ الْإِيْيَانِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ  
مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أَي : وَلَا يُجْدِي عَنْهُمْ حَذْرَهُمْ  
شَيْئًا لِأَنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِقُدْرَتِهِ وَهُمْ تَحْتَ مَسِيَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ  
الْجُنُودِ ﴾ ﴿٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿١٠﴾  
[ البروج : ١٧ - ٢٠ ] بِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ تَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ ﴾ أَي : لِيَشِدَّتْهُ وَقُوَّتِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَصَغَفَ  
بَصَائِرَهُمْ وَعَدَمَ ثَبَاتَهَا لِلإِيْيَانِ . وَجِهَةٌ أُخْرَى : يَكَادُ مُحْكَمُ الْقُرْآنِ يَدُلُّ عَلَى عَوْرَاتِ  
الْمُنَافِقِينَ ، ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ ﴾ يَقُولُ : كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ  
إِطْمَأْنَأُوا إِلَيْهِ ، وَإِذَا أَصَابَ الْإِسْلَامُ نَكْبَةً قَامُوا لِيَرْجِعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى :  
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ [ الحج : ١١ ]

آخِرُ : أَي يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيَتَكَلَّمُونَ بِهِ ، فَهُمْ مِنْ قَوْلِهِمْ بِهِ عَلَى إِسْتِقَامَةٍ ، فَإِذَا  
إِرْتَكَبُوا مِنْهُ إِلَى الْكُفْرِ قَامُوا أَي : مُتَحَيِّرِينَ ، وَهَكَذَا يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَمَا



يُعْطَى النَّاسَ النُّورَ بِحَسَبِ إِيْمَانِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى مِنَ النُّورِ مَا يُضِيءُ لَهُ مَسِيرَهُ  
فَرَأَسَخَ ، وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ تَارَةً وَيُضِيءُ أُخْرَى ،  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى الصِّرَاطِ تَارَةً وَيَقِفُ أُخْرَى ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْفَأُ نُورُهُ بِالْكُلِّيَّةِ  
وَهُمْ الْخُلَّصُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ  
وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا  
نُورًا ﴾ [ الحديد : ١٣ ] ، وَقَالَ فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى  
نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [ الحديد : ١٢ ]  
فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا صَارَ النَّاسُ أَقْسَامًا : مُؤْمِنُونَ خُلَّصٌ وَهُمْ الْمَوْصُوفُونَ بِالآيَاتِ  
الْأَرْبَعِ فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ ، وَكُفَّارٌ خُلَّصٌ وَهُمْ الْمَوْصُوفُونَ بِالآيَاتِ بَعْدَهَا ، وَمُنَافِقُونَ  
وَهُمْ قِسْمَانِ : خُلَّصٌ وَهُمْ الْمَضْرُوبُ لَهُمُ الْمَثَلُ النَّارِيُّ ، وَمُنَافِقُونَ يَتَرَدَّدُونَ تَارَةً  
يَظْهَرُ لَهُمْ لَمَعُ الْإِيْمَانِ وَتَارَةً يُجْبَوُ وَهُمْ أَصْحَابُ الْمَثَلِ الْمَائِيِّ وَهُمْ أَخْفُ حَالًا مِنَ  
الَّذِينَ قَبْلَهُمْ .

وَهَذَا الْمَقَامُ يُشْبِهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ النُّورِ مِنْ ضَرْبِ مَثَلِ  
الْمُؤْمِنِ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْهُدَى وَالنُّورِ بِالْمُضْبَاحِ فِي الرَّجَاجَةِ الَّتِي كَانَتْهَا  
كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ وَهِيَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ الْمَفْطُورِ عَلَى الْإِيْمَانِ وَاسْتِمْدَادِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ  
الْحَالِصَةِ الصَّافِيَةِ الْوَاصِلَةِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ كَدْرٍ وَلَا تَخْلِيطٍ كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ  
إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ ضَرْبَ مَثَلِ الْعِبَادِ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ  
وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ أَصْحَابُ الْجَهْلِ الْمُرَكَّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [ النور : ٣٩ ] ،  
ثُمَّ ضَرْبَ مَثَلِ الْكُفَّارِ الْجُهَالِ الْجَهْلِ الْبَسِيطِ وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿ أَوْ  
كَظَلَمْتَ فِي نَحْرِ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتَ بَعْضَهَا فَوْقَ  
بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرِنُّهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [ النور : ٤٠ ]  
فَقَسَمَ الْكُفَّارُ هَاهُنَا إِلَى قِسْمَيْنِ دَاعِيَةٍ وَمُقَلِّدٍ كَمَا ذَكَرَهُمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَجِّ ﴿ وَمِنْ  
النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾ [ الحج : ٣ ] ، وَقَالَ :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الحج : ٨] وَقَدْ قَسَمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْوَاقِعَةِ وَفِي آخِرِهَا وَفِي سُورَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى قِسْمَيْنِ : سَابِقُونَ وَهُمْ الْمُقْرَبُونَ ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ وَهُمْ الْأَبْرَارُ .

فَتَلَخَّصَ مِنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكُرَيَمَاتِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ صِنْفَانِ مُقْرَبُونَ وَأَبْرَارٌ وَأَنَّ الْكَافِرِينَ صِنْفَانِ : دُعَاةٌ وَمَقْلَدُونَ ، وَأَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا صِنْفَانِ : مُنَافِقٌ خَالِصٌ وَمُنَافِقٌ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ ﷺ : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِيَهَا : مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ » اِسْتَدْلُوا بِهِ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَكُونُ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَشُعْبَةٌ مِنْ نِفَاقٍ ، إِمَّا عَمَلِيًّا لِهَذَا الْحَدِيثِ ، أَوْ اعْتِقَادِيًّا كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ ، كَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، كَمَا تَقَدَّمَ وَكَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴾ لَمَا تَرَكُوا مِنَ الْحَقِّ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ مَا أَرَادَ بِعِبَادِهِ مِنْ نِقْمَةٍ أَوْ عَفْوٍ قَدِيرٌ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؛ لِأَنَّهُ حَدَّرَ الْمُنَافِقِينَ بِأَسْهُ وَسَطَوْتُهُ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ بِهِمْ مُحِيطٌ ، وَعَلَى إِذْهَابِ أَسْمَاعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ قَدِيرٌ . وَمَعْنَى ﴿ قَدِيرٌ ﴾ : قَادِرٌ كَمَا مَعْنَى « عَلِيمٌ » عَالِمٌ .

وَذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى : أَنَّ هَذَيْنِ الْمَثَلَيْنِ مَضْرُوبَانِ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَتَكُونُ أَوْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ بِمَعْنَى الْوَاوِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُطِيعُ مِنْهُمْ ءِثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾ أَوْ تَكُونُ لِلتَّخْيِيرِ . أَي : إِضْرِبْ هُمْ مَثَلًا بِهَذَا ، وَإِنْ شِئْتَ بِهَذَا ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَوْ لِلتَّسَاوِي ، وَيَكُونُ مَعْنَاهُ : سِوَاءٌ ضَرَبْتَ هُمْ مَثَلًا بِهَذَا أَوْ بِهَذَا فَهُوَ مُطَابِقٌ لِحَالِهِمْ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤) ، ومسلم (حديث ٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال :

(( أربعٌ من كُنَّ فِيهِ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَّعِيَهَا

إِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ )) ، وَاللَّفْظُ الَّذِي أوردَهُ ابْنُ كَثِيرٍ

(( ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا .. )) خَطَأً بِلَفْظِ الثَّلَاثِ

قُلْتُ: وَهَذَا يَكُونُ بِاعْتِبَارِ جِنْسِ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّهُمْ أَصْنَافٌ وَهُمْ أَحْوَالٌ وَصِفَاتٌ كَمَا ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ بَرَاءةَ - وَمِنْهُمْ - وَمِنْهُمْ - وَمِنْهُمْ - يَذْكُرُ أَحْوَالَهُمْ وَصِفَاتَهُمْ وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، فَجَعَلَ هَذَيْنِ الْمُثَلِّينِ لِصِنْفَيْنِ مِنْهُمْ أَشَدَّ مُطَابَقَةً لِأَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، كَمَا ضَرَبَ الْمُثَلِّينَ فِي سُورَةِ النُّورِ لِصِنْفِي الْكُفَّارِ الدُّعَاةِ وَالْمُقَلِّدِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩] إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ أَوْ كَطَلْمَتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي ﴾ [النور: ٤٠] ، فَأَلَّوْا لِلدُّعَاةِ الَّذِينَ هُمْ فِي جَهْلٍ مُرَكَّبٍ ، وَالثَّانِي لِذَوِي الْجَهْلِ الْبَسِيطِ مِنَ الْأَتْبَاعِ الْمُقَلِّدِينَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

يَتَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ الْوَهْبِيِّ بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبِيدِهِ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَإِسْبَاغِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ، أَي : مَهْدًا كَالْفِرَاشِ مُقَرَّرَةً مُوَطَّأَةً مُثَبَّتَةً بِالرَّوَايَةِ الشَّجَرَاتِ ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً : وَهُوَ السَّقْفُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢] ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : السَّحَابُ هَاهُنَا فِي وَفْتِهِ عِنْدَ إِحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ فَأَخْرَجَ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالشُّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ رِزْقًا لَهُمْ وَلِأَنْعَامِهِمْ ، كَمَا قَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ أَشْبِهِ آيَةٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٤] ، وَمَضْمُونُهُ أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ مَالِكُ الدَّارِ وَسَاكِنِيهَا وَرَازِقُهُمْ ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » (١) الْحَدِيثُ ، وَكَذَا حَدِيثُ مُعَاذٍ « أَنْتَدِرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » (٢) الْحَدِيثُ وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « لَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فَلَانٌ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فَلَانٌ » (٣) . وَهَذَا كُلُّهُ صِيَانَةٌ وَحِمَايَةٌ لِجَنَابِ التَّوْحِيدِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأُنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ التَّوْحِيدِ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾ ، قَالَ : هُوَ الشَّرْكَ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةِ سَوْدَاءٍ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ : وَاللَّهِ وَحَيَاتِكَ يَا فَلَانُ وَحَيَاتِي ، وَيَقُولَ : لَوْلَا كَلْبَةٌ هَذَا لِأَتَانَا اللَّصُوصُ الْبَارِحَةَ ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ لَأَتَى اللَّصُوصُ . وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ : لَوْلَا اللَّهُ وَفَلَانُ ، لَا تَجْعَلُ فِيهِ فَلَانُ ، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شَرْكَ .

وَقِيلَ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا ﴾ أَي : عُدْلَاءُ شُرَكَاءَ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ : تَعْلَمُونَ أَنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .

### ذِكْرُ حَدِيثٍ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، وَأَنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا فَقَالَ لَهُ عِيسَى ﷺ : إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ : أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ ، فَأَمَّا أَنْ تُبَلِّغَهُنَّ وَإِمَّا أَنْ أُبَلِّغَهُنَّ فَقَالَ : يَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٧٦١) ، ومسلم (حديث ٨٦) .

(٢) البخاري (حديث ٧٣٧٣) ، ومسلم (حديث ٣٠) ، والقاتل : « (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) هو رسول الله ﷺ ، فالحديث هنا مجمل .

(٣) صحيح : وله شواهد ، وقد أخرجه أبو داود (حديث ٤٩٨٠) ، ومن شواهد ما أخرجه النسائي وغيره من حديث قتيلة - امرأة من جهينة - أن النبي ﷺ أمرهم أن يقولوا : « ما شاء الله ثم شئت » .

أَخِي إِيَّيْ أَحْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ أَعَذَّبَ أَوْ يُحْسَفَ بِي . قَالَ : فَجَمَعَ بِيحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا  
بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ فْقَعِدَ عَلَى الشَّرَفِ ، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى  
عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَأَمُرَّكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ ،  
أَوْهَنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا  
مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بَوْرِقٍ أَوْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَأَيْكُمْ  
يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَهُ كَذَلِكَ ، وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ  
شَيْئًا ، وَأَمَّرَكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ  
فَلَا تَلْتَفِتُوا ، وَأَمَّرَكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ مِنْ مِسْكِ فِي  
عِصَابَةٍ كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمِسْكِ ، وَإِنَّ خُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ أَطِيبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ  
الْمِسْكِ ، وَأَمَّرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى  
عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ . وَقَالَ لَهُمْ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتِدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ  
يَفْتِدِي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ ، وَأَمَّرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَإِنَّ  
مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ،  
وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ « قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ  
ﷺ : « وَأَنَا أَمَّرُكُمْ بِخَمْسِ أَمْرٍ مِنْ اللَّهِ : الْجَمَاعَةُ ، وَالسَّمْعُ ، وَالطَّاعَةُ ، وَالْهَجْرَةُ ،  
وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ  
مِنْ عُنُقِهِ ، إِلَّا أَنْ يَرِاجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ مِنْ جُنَاءِ جَهَنَّمَ » قَالُوا :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى ؟ فَقَالَ : « وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ ، وَرَعِمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، فَأَدْعُوا  
الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عَلَى مَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ ﷻ الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ » هَذَا حَدِيثٌ  
حَسَنٌ<sup>(١)</sup> وَالشَّاهِدُ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .  
وَهَذِهِ دَالَّةٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ  
الْمُفَسِّرِينَ كَالرَّازِيِّ وَغَيْرِهِ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ تَعَالَى ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى ذَلِكَ بِطَرِيقِ  
الْأَوْلَى فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةَ وَالْعُلُويَّةَ وَاخْتِلَافَ أَشْكَالِهَا وَالْوَانِيَا

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٣٠) .

وَطِبَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَوَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِ النَّفْعِ بِهَا مُحْكَمَةٌ عَلِمَ قُدْرَةَ خَالِقِهَا وَحِكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ وَإِتْقَانَهُ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ وَقَدْ سُئِلَ مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى ؟ فَقَالَ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ الْبَعْرَ لَيَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ لَيَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ ، أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ؟ . وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ عَنِ ذَلِكَ فَاسْتَدَلَّ لَهُ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَصْوَاتِ وَالنَّعْمَاتِ .

وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ بَعْضَ الزَّنَادِقَةِ سَأَلُوهُ عَنِ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى فَقَالَ لَهُمْ : دَعُونِي فَإِنِّي مُفَكِّرٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أُخْبِرْتُ عَنْهُ ، ذَكَرُوا لِي أَنَّ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ مُوقَرَةٌ ، فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْمَتَاجِرِ وَلَيْسَ بِهَا أَحَدٌ يَجْرُسُهَا وَلَا يَسُوقُهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَذْهَبُ وَتَحْيِيءُ وَتَسِيرُ بِنَفْسِهَا وَتَحْتَرِقُ الْأَمْوَاجَ الْعِظَامَ حَتَّى تَتَخَلَّصَ مِنْهَا وَتَسِيرَ حَيْثُ شَاءَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسُوقَهَا أَحَدٌ ، فَقَالُوا : هَذَا شَيْءٌ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ ، فَقَالَ : وَيُحْكَمُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفُلِيِّ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحْكَمَةِ لَيْسَ لَهَا صَانِعٌ . فَبِهِتَ الْقَوْمُ وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ .

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ وُجُودِ الصَّانِعِ فَقَالَ : هَذَا وَرَقُ التُّوتِ طَعْمُهُ وَاحِدٌ تَأْكُلُهُ الدُّودُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْإِبْرِيْسِمُ ، وَتَأْكُلُهُ النَّحْلُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَسَلُ وَتَأْكُلُهُ الشَّاةُ وَالْبَقَرُ وَالْأَنْعَامُ فَتَلْقِيهِ بَعْرًا وَرَوْتًا ، وَتَأْكُلُهُ الطَّبَّاءُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمُسْكُ وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ .

وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ ذَلِكَ فَقَالَ : هَاهُنَا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا مَنْفَذٌ ، ظَاهِرُهُ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَبَاطِنُهُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَ جِدَارُهُ فَخَرَجَ مِنْهُ حَيَوَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذُو شَكْلِ حَسَنِ وَصَوْتٍ مَلِيحٍ ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْبَيْضَةَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا الدَّجَاجَةُ ، وَسُئِلَ أَبُو نُوَّاسٍ عَنِ ذَلِكَ فَأَنْشَدَ :

إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ  
بِأَحْدَاقِ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ  
بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانظُرْ  
عُيُونٌ مِنْ جُيُنِ شَاخِصَاتٍ  
عَلَى فُضْبِ الرَّبْرِ جِدِ شَاهِدَاتُ

وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ :

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهَ      أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ      تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وَقَالَ آخَرُونَ : مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي إِزْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ  
الْكُوَاكِبِ الْكِبَارِ وَالصُّغَارِ النَّيِّرَةِ مِنَ السَّيَّارَةِ وَمِنَ الثَّوَابِتِ ، وَشَاهَدَهَا كَيْفَ تَدُورُ  
مَعَ الْفَلَكَ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ دَوِيرَةً ، وَهَذَا فِي أَنْفُسِهَا سَيْرٌ يُخْصِّهَا ، وَنَظَرَ إِلَى  
الْبَحَارِ الْمُكْتَنَفَةِ لِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَالْجِبَالِ الْمَوْضُوعَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَقَرَّرَ  
وَيَسْكُنَ سَاكِنُوهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ  
جُدُدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٤٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ  
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ، كَذَلِكَ إِنَّمَا نَحْنِي اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ أَلْعَلِمَتُوا ﴿ [ فاطر : ٢٧ - ٢٨ ] ، وَكَذَلِكَ  
هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ مِنْ قَطْرِ إِلَى قَطْرِ لِلْمَنَافِعِ ، وَمَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ  
الْمُنْتَوَعَةِ وَالنَّبَاتِ الْمُخْتَلِفِ الطُّعُومِ وَالْأَرَابِيجِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، مَعَ اتِّحَادِ طَبِيعَةِ  
الثَّرْبَةِ وَالْمَاءِ ، اسْتَدَلَّ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ ،  
وَلُطْفِهِ بِهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَبَرِّهِ بِهِمْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ  
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ، وَالآيَاتُ فِي الْقُرْآنِ الدَّالَّةُ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا  
شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا  
فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٥٢﴾

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي تَقْرِيرِ النُّبُوَّةِ بَعْدَ أَنْ قَرَّرَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَقَالَ مُخَاطِبًا لِلْكَافِرِينَ :  
﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِ مَا  
جَاءَ بِهِ إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَعَارِضُوهُ بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ وَاسْتَعِينُوا عَلَىٰ ذَلِكَ  
بِمَنْ شِئْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ ﴿ شُهَدَاءَكُمْ ﴾ أَعْوَانَكُمْ ، وَقَدْ  
نَحَدَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ ﴿ قُلْ فَأْتُوا

يَكْتَسِبُ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ [القصص: ٤٩]،  
 وَقَالَ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ ﴿ قُلْ لِيْنَ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا  
 الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَقَالَ فِي  
 سُورَةِ هُودٍ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَّهُ قُلْ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ  
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣] وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ : ﴿ وَمَا  
 كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ  
 الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَّهُ قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوا  
 مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٧-٣٨]، وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ  
 مَكِّيَّةٌ ثُمَّ تَحَدَّاهُمْ بِذَلِكَ أَيْضًا فِي الْمَدِينَةِ فَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ  
 أَيْ : شَكٍّ ﴿ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ يَعْنِي : مُحَمَّدًا ﷺ : ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾  
 يَعْنِي : مِنْ مِثْلِ الْقُرْآنِ . وَرَجَّحَ ذَلِكَ بوجوهٍ مِنْ أَحْسَنهَا أَنَّهُ تَحَدَّاهُمْ كُلُّهُمْ مُتَفَرِّقِينَ  
 وَمَجْتَمِعِينَ سِوَاءَ فِي ذَلِكَ أُمَّيْهِمْ وَكِتَابِيْهِمْ ، وَذَلِكَ أَكْمَلُ فِي التَّحَدِّيِّ وَأَشْمَلُ مِنْ أَنْ  
 يَتَحَدَّىٰ أَحَادَهُمُ الْأُمِّيِّينَ يَمَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يُعَانِي شَيْئًا مِنَ الْعُلُومِ ، وَبِدَلِيلِ قَوْلِهِ  
 تَعَالَى : ﴿ فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ ﴾ [هود: ١٣]، وَقَوْلُهُ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ لَنْ لِنَفْيِ التَّأْيِيدِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْ : وَلَنْ  
 تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا ، وَهَذِهِ أَيْضًا مُعْجِزَةٌ أُخْرَى وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ خَبْرًا جَازِمًا قَاطِعًا  
 مُقَدِّمًا غَيْرَ خَائِفٍ وَلَا مُشْفِقٍ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهْرَ  
 الدَّاهِرِينَ ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ لَمْ يُعَارِضْ مِنْ لَدُنْهِ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا ، وَلَا يُمَكِّنُ وَأَنَّى  
 يَتَأْتَىٰ ذَلِكَ لِأَحَدٍ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَالِقِ  
 كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ ؟ وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً  
 وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ  
 آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] ، فَأُحْكِمَتْ أَلْفَاظُهُ وَفُصِّلَتْ  
 مَعَانِيهِ ، أَوْ بِالْعَكْسِ عَلَى الْخِلَافِ ، فَكُلُّ مِنْ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُجَادَىٰ وَلَا  
 يُدَانَىٰ ، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنِ مُغَيَّبَاتٍ مَاضِيَةٍ كَانَتْ وَوَقَعَتْ طَبَقَ مَا أَخْبَرَ سِوَاءَ سِوَاءٍ ،



وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [ الأنعام : ١١٥ ] أَيْ : صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى ، لَيْسَ فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا إِفْتِرَاءٌ ، كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَكَاذِبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يُحْسِنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا ، كَمَا قِيلَ فِي الشُّعْرِ : إِنَّ أَعَذْبَهُ أَكْذَبُهُ .

وَمَجْدُ الْقَصِيدَةِ الطَّوِيلَةِ الْمُدِيدَةِ قَدْ أُسْتَعْمِلَ غَالِيهَا فِي وَصْفِ النِّسَاءِ أَوْ الْحَيْلِ أَوْ الْحُمْرِ أَوْ فِي مَدْحِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَاقَةٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ كَائِنَةٍ أَوْ مَخَافَةٍ أَوْ سَبِّحٍ ، أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْمَشَاهِدَاتِ الْمُتَعَيَّنَةِ الَّتِي لَا تُقِيدُ شَيْئًا إِلَّا قُدْرَةَ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَيَّنِ عَلَى الشَّيْءِ الْحَقِيقِيِّ أَوْ الدَّقِيقِيِّ أَوْ إِبْرَازِهِ إِلَى الشَّيْءِ الْوَاضِحِ ثُمَّ مَجِّدَ لَهُ فِيهِ بَيْتًا أَوْ بَيْتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ هِيَ بَيُوتُ الْقَصِيدِ وَسَائِرُهَا هَذَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نَهَابَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلًا وَإِجْمَالًا يَمْنُ فَهَمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَتَصَارِيفِ التَّعْبِيرِ ، فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَخْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي غَايَةِ الْحَلَاوَةِ سَوَاءً كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً ، وَسَوَاءً تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا ، وَكُلَّمَا تَكَرَّرَتْ حَلَا وَعَلَا ، لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ مِنْهُ مَا تَفْسَعُرُ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَّاتُ ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ وَإِنْ وَعَدَ أَتَى بِهَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ وَمُشَوِّقٌ إِلَى دَارِ السَّلَامِ ، وَمُجَاوِرَةٌ عَرْشِ الرَّحْمَنِ ، كَمَا قَالَ فِي التَّرْغِيبِ ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [ الزخرف : ٧١ ] ، وَقَالَ فِي التَّرْهيبِ ﴿ أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ﴾ ١١ أَمْ أَنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿ [ الملك : ١٦-١٧ ] ، وَقَالَ فِي الرَّجْرِ ﴿ فَكَلَّا أَحْذَنَا بِيَدَيْهِ ﴾ ، وَقَالَ فِي الْوَعْظِ ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾ ١٢ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿ ١٣ ﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿ [ الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧ ] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ ، وَإِنْ جَاءَتْ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي إِشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ رَذِيلٍ دَنِيءٍ كَمَا قَالَ

إِبْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ : إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فَارْعَاهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهَا خَيْرٌ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا مَرْهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَيْهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَمَجْلٌ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَمُحْرَمٌ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

وَإِنْ جَاءَتِ الْآيَاتُ فِي وَصْفِ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَفِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهِمَا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَالْمَلَاذِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ بَشَّرَتْ بِهِ وَحَدَّرَتْ ، وَأَنْذَرَتْ وَدَعَتْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ وَرَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا ، وَرَعَّبَتْ فِي الْأُخْرَى وَثَبَّتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلَى ، وَهَدَتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ وَشَرَعِهِ الْقَوِيمِ ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسُ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . وَهَذَا ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ . أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا الَّذِي كَانَ أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) لَفْظُ مُسْلِمٍ ، وَقَوْلُهُ ﷺ : « وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا » أَي : الَّذِي اخْتَصَصْتُ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُعْجَزَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُعَارِضُوهُ بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ مُعْجَزَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَضْرٍ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ أَمَّا الْوَقُودُ بفتح الواو فهو ما يُلْقَى فِي النَّارِ لِإِضْرَامِهَا كَالْحَطْبِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ (٢) لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ إلهةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ [الأنبياء : ٩٨-٩٩] ، وَالْمَرَادُ بِالْحِجَارَةِ هِيَ هَاهُنَا حِجَارَةُ الْكِبْرِيَّتِ الْعَظِيمَةِ السُّودَاءِ الصُّلْبَةِ الْمُتَنَنَةِ وَهِيَ أَشَدُّ الْأَحْجَارِ حَرًّا إِذَا

(١) الحديث أخرجه البخاري (حديث ٤٩٨١) ، ومسلم (حديث رقم ١٥٢) ، ولفظ مسلم « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أو أُوحى الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة » .

حُمِيَتْ أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهَا حِجَارَةُ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء : ٩٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ الْأَظْهَرُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي أَعِدَّتْ عَائِدٌ إِلَى النَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، ﴿ أَعِدَّتْ ﴾ أَي : أُرْصِدَتْ وَحَصَلَتْ لِلْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .

وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنْ أئِمَّةِ السُّنَّةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ النَّارَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَعِدَّتْ ﴾ أَي : أُرْصِدَتْ وَهَيِّئَتْ . وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ مِنْهَا « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ »<sup>(١)</sup> ، وَمِنْهَا « اسْتَأْذَنْتِ النَّارُ رَبَّهَا فَقَالَتْ : رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا ، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ : نَفْسٍ فِي الشِّتَاءِ ، وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ »<sup>(٢)</sup> ، وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ سَمِعْنَا وَجِبَةً فَقُلْنَا : مَا هَذِهِ ؟ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذَا حَجَرٌ أَلْقِيَ بِهِ مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً ، الْآنَ وَصَلَ إِلَى قَعْرِهَا »<sup>(٣)</sup> ، وَحَدِيثُ صَلَاةِ الْكُفُوفِ وَكَلِمَةِ الْإِسْرَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَوَاتِرَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، وَقَدْ خَالَفَتِ الْمُعْتَرِضَةُ بِجَهْلِهِمْ فِي هَذَا .

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا أَعَدَّهُ لِأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ الْكَافِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ عَطَفَ بِذِكْرِ حَالِ أَوْلِيَائِهِ مِنَ السُّعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ الَّذِينَ صَدَّقُوا إِيْمَانَهُمْ بِأَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى تَسْمِيَةِ الْقُرْآنِ مَثَانِي عَلَى أَصْحَاقِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٨٥٠) ، ومسلم (حديث ٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة ؓ مرفوعاً .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٤٤) ، ولفظ مسلم (( هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي

في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها )) .

كَمَا سَنَبَسُطُهُ فِي مَوْضِعِهِ وَهُوَ أَنْ يَذْكَرَ الْإِيمَانَ وَيَتَّبِعَ بِذِكْرِ الْكُفْرِ أَوْ عَكْسِهِ أَوْ حَالِ  
السُّعْدَاءِ ثُمَّ الْأَشْقِيَاءِ أَوْ عَكْسِهِ وَحَاصِلِهِ ذِكْرُ الشَّيْءِ وَمُقَابِلِهِ .

وَأَمَّا ذِكْرُ الشَّيْءِ وَنَظِيرُهُ فَذَلِكَ التَّشَابُهُ كَمَا سَنَوْضَحُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى :  
﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾  
فَوَصَفَهَا بِأَنَّهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَيَّ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا وَغُرْفِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ :  
إِنَّهُمْ أَتَوْا بِالثَّمَرَةِ فِي الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهَا قَالُوا : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ فِي  
الدُّنْيَا ﴿ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ مَعْنَاهُ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَآخَرُونَ : بَلْ تَأْوِيلُ ذَلِكَ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ ثَمَرِ الْجَنَّةِ مِنْ  
قَبْلِ هَذَا ، لِشِدَّةِ مُشَابَهَةِ بَعْضِهِ بَعْضًا ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ فَتَقُولُ لَهُمْ  
الْوَالِدَانُ : كُلُّوا فَالْلَوْنُ وَاحِدٌ وَالطَّعْمُ مُخْتَلِفٌ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ  
مُتَشَابِهًا ﴾ قَالَ يُشْبِهُهُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ . وَجَهٌ آخَرٌ : ﴿ وَأُتُوا بِهِ  
مُتَشَابِهًا ﴾ قِيلَ : يُشْبِهُهُ ثَمَرُ الدُّنْيَا غَيْرَ أَنْ ثَمَرَ الْجَنَّةِ أَطْيَبُ . وَجَهٌ آخَرٌ : ﴿ وَأُتُوا بِهِ  
مُتَشَابِهًا ﴾ قَالَ : يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَهُ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا : التَّفَاحُ بِالتَّفَاحِ ، وَالرُّمَّانُ  
بِالرُّمَّانِ ، قَالُوا فِي الْجَنَّةِ : هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلِ فِي الدُّنْيَا ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا  
يَعْرِفُونَهُ وَلَيْسَ هُوَ مِثْلُهُ فِي الطَّعْمِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ مُطَهَّرَةٌ  
مِنَ الْقَدْرِ وَالْأَذَى .

وَأَيْضًا : مُطَهَّرَةٌ : مِنَ الْحَيْضِ وَالغَائِطِ وَالْبَوْلِ وَالنُّخَامِ وَالْبُرَاقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَالِدِ .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هَذَا هُوَ تَمَامُ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُمْ مَعَ هَذَا النِّعِيمِ  
فِي مَقَامِ أَمِينٍ مِنَ الْمَوْتِ وَالْإِنْقِطَاعِ فَلَا آخِرَ لَهُ وَلَا انْقِصَاءَ ، بَلْ فِي نِيعِيمِ سَرْمَدِيٍّ  
أَبَدِيٍّ عَلَى الدَّوَامِ ، وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُخَشِّرَنَا فِي زُمْرَتِهِمْ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ بَرَّ رَحِيمٌ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مِثْلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ  
اللَّهُ بِهَذَا مِثْلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

الْفَاسِقِينَ ﴿٦٥﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٦﴾

عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلدُّنْيَا أَنْ الْبِعُوضَةَ تَحْيَا مَا جَاعَتْ ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ وَكَذَلِكَ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ضَرَبَ لَهُمْ هَذَا الْمِثْلَ فِي الْقُرْآنِ إِذَا امْتَلَأُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ ثُمَّ تَلَا ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وَ ﴿ مَا ﴾ هَاهُنَا لِلتَّقْلِيلِ وَتَكُونُ ﴿ بَعُوضَةٌ ﴾ مَنْصُوبَةٌ عَلَى الْبَدَلِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : فَمَا دُونَهَا فِي الصَّغَرِ وَالْحَقَارَةِ ، كَمَا إِذَا وُصِفَ لَكَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشَّحِّ فَيَقُولُ السَّامِعُ : نَعَمْ وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ - يَعْنِي : فِيمَا وَصَفْتَ ، وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُحَقِّقِينَ . وَالثَّانِي : فَمَا فَوْقَهَا لِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحْقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبِعُوضَةِ وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ وَاخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، فَإِنَّهُ يُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ ، وَمُحِبَّتُ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ » (١) فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مِثْلًا ، وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبِعُوضَةِ ، كَمَا لَا يَسْتَنْكِفُ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ الْمِثْلِ بِهَا كَمَا ضَرَبَ الْمِثْلَ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبَ مِثْلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ [ الحج : ٧٣ ] ، وَقَالَ : ﴿ مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَرَ الْبُيُوتَ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : ٤١ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [ إبراهيم : ٢٤ ] ، وَقَالَ : ﴿ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ [ إبراهيم : ٢٦ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا مِثْلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ [ النحل : ٧٥ ] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَضَرَبَ

اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا  
يُوجِهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴿ [ النحل : ٧٦ ] . كَمَا قَالَ :  
﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا  
رَزَقْتَكُمْ ﴾ [ الروم : ٢٨ ] . وَقَالَ : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾  
[ الزمر : ٢٩ ] . وَفِي الْقُرْآنِ أَمْثَالٌ كَثِيرَةٌ .

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِذَا سَمِعْتَ الْمَثَلَ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ أَفْهَمْهُ بَكَيْتُ عَلَى نَفْسِي لِأَنَّ  
اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [ العنكبوت : ٤٣ ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : أَيُّ :  
يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : يَعْنِي : هَذَا الْمَثَلُ  
﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ  
﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ  
وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ  
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [ المدثر : ٣١ ] ، وَكَذَلِكَ قَالَ هَاهُنَا  
﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا  
يَعْنِي بِهِ : الْمُنَافِقِينَ ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا يَعْنِي بِهِ : الْمُؤْمِنِينَ ، فَيَزِيدُ هُوَ لَاءَ صَلَاحَةٍ إِلَى  
صَلَاحَتِهِمْ ؛ لِتَكْذِيبِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا مِنَ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ بِمَا ضَرَبَ  
هُم ، وَأَنَّهُ لِمَا ضَرَبَ لَهُ مُوَافِقٌ ، فَذَلِكَ إِضْلَالُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِهِ ﴿ وَيَهْدِي بِهِ ﴾ يَعْنِي :  
الْمَثَلِ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّصْدِيقِ فَيَزِيدُهُمْ هُدًى إِلَى هُدَاهُمْ ، وَإِيمَانًا إِلَى إِيْمَانِهِمْ ؛  
لِتَصْدِيقِهِمْ بِمَا قَدْ عَلِمُوهُ حَقًّا يَقِينًا ، أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا ضَرَبَهُ اللَّهُ لَهُ مَثَلًا وَإِقْرَارُهُمْ بِهِ ،  
وَذَلِكَ هِدَايَةٌ مِنْ اللَّهِ لَهُمْ بِهِ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ قَالَ هُمْ : الْمُنَافِقُونَ . وَقَالَ  
قَتَادَةُ : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ فَسَقُوا فَأَضَلَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِسْقِهِمْ . وَالْفَاسِقُ فِي  
اللُّغَةِ : هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيضًا . وَتَقُولُ الْعَرَبُ : فَسَقَتِ الرَّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ  
مِنْ قَشْرَتِهَا ، وَهَذَا يُقَالُ لِلْفَأْرَةِ فَوَيْسِقَةٌ لِحُرُوجِهَا عَنْ جُحْرِهَا لِلْفَسَادِ .

وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ<sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « حَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْغُرَابُ ، وَالْحِدَاةُ ، وَالْعَقْرَبُ ، وَالْفَارَةُ ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ »  
فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِي ، وَلَكِنَّ فَسِقَ الْكَافِرِ أَشَدَّ وَأَفْحَشَ ؛ وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ صِفَاتُ الْكُفَّارِ الْمُبَايِنَةِ لِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾<sup>(٢)</sup> الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ<sup>(٣)</sup> وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿ [الرعد : ١٩-٢١] الْآيَاتُ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥] ، وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى الْعَهْدِ الَّذِي وَصَفَ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ بِنَقْضِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ وَأَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَهْنِئَةِ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فِي كُتُبِهِ ، وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ ، وَنَقْضُهُمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ ، وَعَهْدُ اللَّهِ الَّذِي نَقَضُوهُ هُوَ مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا ، وَاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ ، وَنَقْضُهُمْ ذَلِكَ هُوَ جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ وَكِتَابَتِهِمْ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ ، بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْمِيثَاقَ لِيَسِينَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا . وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ عَنَى بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ ، وَعَهْدُهُ إِلَى جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي

(١) البخاري (حديث ٣٣١٤)، ومسلم (حديث ١١٩٨).

أَمْرِهِ وَنَهَيْهِ مَا اِحْتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ غَيْرُهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا ، الشَّاهِدَةَ لَهُمْ عَلَى صِدْقِهِمْ . قَالُوا : وَنَقَضْتَهُمْ ذَلِكَ تَرَكْتَهُمُ الْإِقْرَارَ بِمَا قَدْ تَبَيَّنَتْ لَهُمْ صِحَّتُهُ بِالْأَدِلَّةِ ، وَتَكْذِيبُهُمُ الرُّسُلَ وَالْكَتُبَ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا آتَوْا بِهِ حَقٌّ . وَهُوَ حَسَنٌ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْعَهْدُ الَّذِي ذَكَرَهُ تَعَالَى هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ الَّذِي وُصِفَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف : ١٧٢] الْآيَتَيْنِ . وَنَقَضْتَهُمْ ذَلِكَ تَرَكْتَهُمُ الْوَفَاءَ بِهِ .

عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قَالَ هِيَ سِتُّ خِصَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ إِذَا كَانَتْ فِيهِمُ الظُّهْرَةُ عَلَى النَّاسِ أَظْهَرُوا هَذِهِ الخِصَالَ : إِذَا حَدَّثُوا كَذِبًا ، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا ، وَإِذَا أُؤْتِمِنُوا خَانُوا ، وَنَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ ، وَإِذَا كَانَتْ الظُّهْرَةُ عَلَيْهِمْ أَظْهَرُوا الخِصَالَ الثَّلَاثَ ، إِذَا حَدَّثُوا كَذِبًا ، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا ، وَإِذَا أُؤْتِمِنُوا خَانُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ قِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ صِلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢] وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَعْمٌ مِنْ ذَلِكَ ، فَكُلُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ وَفِعْلِهِ فَقَطَعُوهُ وَتَرَكُوهُ . وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ قَالَ : فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الْخَاسِرُونَ : جَمْعُ خَاسِرٍ وَهُمْ النَّاقِضُونَ أَنْفُسَهُمْ حُطُوظَهُمْ - بِمَعْصِيَتِهِمْ اللَّهُ - مِنْ رَحْمَتِهِ كَمَا يَخْسِرُ الرَّجُلُ فِي تِجَارَتِهِ بِأَنْ يُوضَعَ مِنْ رَأْسِ مَالِهِ فِي بَيْعِهِ ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ خَسِرَ بِحِزْمَانِ اللَّهِ إِيَّاهُ رَحْمَتَهُ الَّتِي خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ فِي الْقِيَامَةِ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَى رَحْمَتِهِ .



كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى وُجُودِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الْمْتَصِرُّ فِي عِبَادِهِ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ أَي : كَيْفَ تَجْحَدُونَ وُجُودَهُ أَوْ تَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ أَي : وَقَدْ كُنْتُمْ عَدَمًا فَأَخْرَجَكُمْ إِلَى الْوُجُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ﴿ ٢٥ ﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ [ الطور : ٣٥-٣٦ ] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ آتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ [ الإنسان : ١ ] وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ؓ ﴿ قَالَوا رَبَّنَا أَمَّنَّا أَتَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَّيْنَا فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ [ غافر : ١١ ] قَالَ : هِيَ الَّتِي فِي الْبَقْرَةِ ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى دَلَالَتهُ مِنْ خَلْقِهِمْ وَمَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ أَنفُسِهِمْ ذَكَرَ دَلِيلًا آخَرَ مِمَّا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ إِلَى السَّمَاءِ وَالِاسْتِوَاءِ هَاهُنَا مُضْمَنٌ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالِإِقْبَالِ لِأَنَّهُ عُدِّي بِإِلَى فَسَوَّاهُنَّ أَي : فَخَلَقَ السَّمَاءَ سَبْعًا ، وَالسَّمَاءَ هَاهُنَا اسْمٌ جِنْسٍ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَا خَلَقَ كَمَا قَالَ : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ حَم فَصَّلَتْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ ١ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّا مِنْ فَوْقِهَا وَبَدَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ اللَّسَائِلِينَ ﴿ ٢ ﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا

طَائِعِينَ ﴿١٦﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ  
الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ [فصلت : ٩-١٢] ، فِيهِ هَذَا دَلَالَةٌ  
عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ إِبْتِدَاءً بِخَلْقِ الْأَرْضِ أَوْلًا ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ سَبْعًا ، وَهَذَا شَأْنُ الْبِنَاءِ  
أَنْ يُبْدَأَ بِعِمَارَةِ آسَافِهِ ثُمَّ أَعَالِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ صَرَّحَ الْمُفَسِّرُونَ بِذَلِكَ كَمَا سَنَذْكُرُهُ  
بَعْدَ هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا ﴿١٨﴾  
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا  
وَمَرَعَهَا ﴿٢١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٢﴾ مَتَعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ ﴿ [النازعات : ٢٧ - ٣٣] ، فَقَدْ  
قِيلَ : إِنْ تَمَّ هَاهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْحَبْرِ عَلَى الْحَبْرِ لَا لِعَطْفِ الْفِعْلِ عَلَى الْفِعْلِ كَمَا  
قَالَ الشَّاعِرُ :

قُلْ لِمَنْ سَادَ تَمَّ سَادَ أَبُوهُ      ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

وَقِيلَ : إِنْ الدَّخِي كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ .

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ فَصَّلَتْ ﴿ قُلْ  
أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ دُونَ ذَلِكَ رَبًّا الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾  
وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ﴿١٧﴾  
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا  
طَائِعِينَ ﴿١٨﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ  
الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ [فصلت : ٩-١٢] فَهَذِهِ وَهَذِهِ  
دَالَّتَانِ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ نِزَاعًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا  
مَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ السَّمَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ ، وَقَدْ تَوَقَّفَ فِي  
ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ : ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ  
سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا ﴿١٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ﴿٢٠﴾  
أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا ﴿٢١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٢﴾ [النازعات : ٢٧-٣٢] قَالُوا : فَذَكَرَ  
خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(١)</sup> أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ هَذَا بَعِيْنِهِ فَأَجَابَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَأَنَّ الْأَرْضَ إِنَّمَا دُحِيَتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ وَكَذَلِكَ أَجَابَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ قَدِيْمًا وَحَدِيْثًا وَقَدْ حَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ النَّازِعَاتِ وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّخِيَّ مُفَسِّرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَيْنَاهَا﴾<sup>(٢)</sup> أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٧﴾ فَفَسَّرَ الدَّخِيَّ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَمَّا أُكْمِلَتْ سُورَةُ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّمَاوِيَّةِ ، دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ فَأَخْرَجَتْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ ، فَتَبَتَّتِ النَّبَاتَاتُ عَلَى اِخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَصِفَاتِهَا وَالْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا ، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلَاقُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَةِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ أَيْضًا مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ : « خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ ، وَبَتَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيْسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ »<sup>(٣)</sup> وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِيْنِيِّ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْحَفَاطِظِ وَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبٍ وَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّمَا سَمِعَهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الْأَخْبَارِ ، وَإِنَّمَا اِسْتَبَنَ عَلَى بَعْضِ الرُّوَاةِ فَجَعَلُوهُ مَرْفُوعًا وَقَدْ حَرَّرَ ذَلِكَ الْبَيْهَقِيُّ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنۡنِى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ قَالُوۡۤا اَتَجْعَلُ فِىۡهَا مَنۡ يُّفْسِدُ فِىۡهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ اِنۡنِىۡۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوۡنَ ﴿٢٠﴾

(١) انظر البخاري مع الفتح (٨/ ٥٥٥ - ٥٥٦) .

(٢) حديث معلول وهو من الأحاديث المنتقدة على مسلم ويكفي فيه ذكره الحافظ ابن كثير عقبه ، وقد

أخرجه مسلم برقم (٢٧٨٩) .

يُخْبِرُ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى بَنِي آدَمَ بِتَنْوِيهِهِ بِذِكْرِهِمْ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى قَبْلَ إِجَادِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ ﴿ أَيُّ : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِئِكَةِ ، وَأَقْصُصْ عَلَى قَوْمِكَ ذَلِكَ ﴾ إِنْ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿ أَيُّ : قَوْمًا يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، قَرْنَا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَاهُنَا بِالْخَلِيفَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَطْ إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ لَمَا حَسُنَ قَوْلُ الْمَلَكِئِكَةِ ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَكَأَنَّهُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِعِلْمٍ خَاصٍّ ، أَوْ بِمَا فَهَمُوهُ مِنَ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يَخْلُقُ هَذَا الصَّنْفَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ ، أَوْ فَهَمُوا مِنَ الْخَلِيفَةِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ النَّاسِ مَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَظَالِمِ وَيَرْدَعُهُمْ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ، قَالَهُ الْقُرْطُبِيُّ أَوْ أَتَمُّ قَاسُوهُمْ عَلَى مَنْ سَبَقَ .

وَقَوْلُ الْمَلَكِئِكَةِ هَذَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَى اللَّهِ وَلَا عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ لِبَنِي آدَمَ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَتَمِّهِمْ لَا يَسْفِكُونَهُ بِالْقَوْلِ ، أَيُّ لَا يَسْأَلُونَهُ شَيْئًا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ فِيهِ ، وَهَاهُنَا لَمَّا أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَخْلُقُ فِي الْأَرْضِ خَلْقًا قَالَ قِتَادَةَ : وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَتَمُّهُمْ يُفْسِدُونَ فِيهَا فَقَالُوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ الْآيَةَ ، وَإِنَّمَا هُوَ سُؤَالٌ اسْتِعْلَامٌ وَاسْتِكْشَافٌ عَنِ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ ، يَقُولُونَ : يَا رَبَّنَا مَا الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ هَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُفْسِدُ فِي الْأَرْضِ وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، فَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ عِبَادَتَكَ ، فَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَنُقَدِّسُ لَكَ أَيُّ : نُصَلِّيُ لَكَ . وَلَا يَصْدُرُ مَنَّا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَهَلَّا وَقَعَ الْإِقْتِصَارُ عَلَيْنَا ؟ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجِيبًا لَهُمْ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَيُّ : أَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الرَّاجِحَةِ فِي خَلْقِ هَذَا الصَّنْفِ عَلَى الْمَفَاسِدِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ ، فَإِنِّي سَأَجْعَلُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءَ وَأُرْسِلُ فِيهِمُ الرُّسُلَ ، وَيُوجَدُ مِنْهُمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ ، وَالصَّالِحُونَ وَالْعِبَادُ وَالزُّهَادُ وَالْأَوْلِيَاءُ ، وَالْأَبْرَارُ وَالْمُقَرَّبُونَ وَالْعُلَمَاءُ الْعَامِلُونَ ، وَالْحَاشِعُونَ ، وَالْمُحِبُّونَ لَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُتَّبِعُونَ رُسُلَهُ -

صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِمْ - وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ إِذَا صَعَدَتْ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى بِأَعْمَالِ عِبَادِهِ يَسْأَلُهُمْ - وَهُوَ أَعْلَمُ - كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ .

وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَتَعَاقَبُونَ فِينَا<sup>(١)</sup> وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ فَيَمُكُّتُ هَوْلًا وَيَصْعَدُ أَوْلِيكَ بِالْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ»<sup>(٢)</sup> فَقَوْلُهُمْ: أَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ مِنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ لَهُمْ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ جَوَابًا لَهُمْ ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنِّي لِي حِكْمَةٌ مُفَصَّلَةٌ فِي خَلْقِي هَوْلًا ، وَالْحَالَةُ مَا ذَكَرْتُمْ لَا تَعْلَمُونَهَا وَقِيلَ: إِنَّهُ جَوَابٌ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فَقَالَ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أَي: مِنْ وُجُودِ إِبْلِيسَ بَيْنَكُمْ ، وَلَيْسَ هُوَ كَمَا وَصَفْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهِ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: التَّقْدِيسُ هُوَ التَّعْظِيمُ وَالتَّطْهِيرُ . وَمِنَهُ قَوْلُهُمْ سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَعْنِي بِقَوْلِهِمْ سُبُّوحٌ: تَنْزِيهِ لَهُ ، وَبِقَوْلِهِمْ قُدُّوسٌ: طَهَارَةٌ وَتَعْظِيمٌ لَهُ ، وَكَذَلِكَ قِيلَ لِلْأَرْضِ: أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ يَعْنِي بِذَلِكَ الْمُطَهَّرَةَ . فَمَعْنَى قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ إِذَا ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ نُزِّهَكَ وَنُبْرِئُكَ مِمَّا يُضِيفُهُ إِلَيْكَ أَهْلُ الشَّرِكِ بِكَ ﴿وَتُقَدِّسُ لَكَ﴾ نَسْبُكَ إِلَى مَا هُوَ مِنْ صِفَاتِكَ مِنَ الطَّهَارَةِ مِنَ الْأَذْنَابِ وَمَا أَضَافَ إِلَيْكَ أَهْلُ الْكُفْرِ بِكَ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مَا اصْطَفَى اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»<sup>(٣)</sup> .

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ

(١) حديث «يتعاقبون فيكم ملائكة...» أخرجه البخاري (حديث ٥٥٥)، ومسلم (حديث ٦٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢٧٣١)، ولفظه: «ما اصطفى الله للملائكة أو لعباده سبحانه الله وبحمده».

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿١١﴾

هَذَا مَقَامٌ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ شَرَفَ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَا اخْتَصَّهُ مِنْ عِلْمِ أَسْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ دُونَهُمْ ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ سُجُودِهِمْ لَهُ ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ هَذَا الْفَضْلَ عَلَى ذَلِكَ لِإِنْسَابِهِ مَا بَيْنَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِحِكْمَةِ خَلْقِ الْخَلِيفَةِ حِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَهُمْ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ ، وَهَذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَذَا الْمَقَامَ عَقِيبَ هَذَا لِيُبَيِّنَ لَهُمْ شَرَفَ آدَمَ ، بِمَا فَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ الَّتِي يَتَعَارَفُ بِهَا النَّاسُ : إِنْسَانٌ ، وَدَوَابٌّ ، وَسَمَاةٌ ، وَأَرْضٌ ، وَسَهْلٌ ، وَبَحْرٌ ، وَخَيْلٌ ، وَحِمَارٌ ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ وَغَيْرِهَا .

وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ عَلَّمَهُ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ كُلَّهَا : ذَرَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالِهَا حَتَّى الْفُسُوءَةَ وَالْفُسَيْيَةَ ، يَعْنِي : ذَوَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ الْمَكْرِبِ وَالْمُصَغَّرِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ : لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ، فَيَقُولُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذُكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي ... » (١) أَنَبِيُّنِي بِأَسْمَاءِ مَنْ عَرَضْتُهُ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ الْقَائِلُونَ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ؟ مِنْ غَيْرِنَا أَمْ مِنَّا . فَحَنُّ نُسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ - ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فِي قِيلِكُمْ : إِنِّي إِنْ جَعَلْتُ خَلِيفَتِي فِي الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِكُمْ عَصَانِي وَذُرِّيَّتَهُ وَأَفْسَدُوا وَسَفَكُوا الدِّمَاءَ ، وَإِنْ جَعَلْتُكُمْ فِيهَا أَطَعْتُمُونِي وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرِي بِالْتَعْظِيمِ وَالتَّقْدِيسِ ، فَإِذَا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَضْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ تُشَاهِدُونَهُمْ فَأَنْتُمْ بِمَا هُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ الَّتِي لَمْ تَوْجِدْ أُخْرَى أَنْ تَكُونُوا غَيْرَ عَالِمِينَ . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ هَذَا تَقْدِيسٌ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ، ومسلم (حديث ١٩٣) .

وَتَنْزِيهِهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِهَا شَاءَ ، وَأَنْ يَعْلَمُوا شَيْئًا إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ أَي : الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي خَلْقِكَ وَأَمْرِكَ وَفِي تَعْلِيمِكَ مَا تَشَاءُ وَمَنْعِكَ مَا تَشَاءُ ، لَكَ الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ وَالْعَدْلُ التَّامُّ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ يَتَقَدَّمُ أُنْبِيُّهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ قَالَ : أَنْتَ جِبْرَائِيلُ ، أَنْتَ مِيكَائِيلُ ، أَنْتَ إِسْرَافِيلُ ، حَتَّى عَدَدَ الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا حَتَّى بَلَغَ الْغُرَابَ . فَلَمَّا ظَهَرَ فَضْلُ آدَمَ عليه السلام عَلَى الْمَلَائِكَةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي سَرِّهِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَسْمَاءِ الْأَشْيَاءِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أَي : أَلَمْ أَتَقَدَّمْ إِلَيْكُمْ أَنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ الظَّاهِرِ وَالْخَفِيِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ، وَكَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنْ الْهُدُودِ أَنَّهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (٢٦) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿ [ النمل : ٢٥-٢٦ ] أَعْلَمُ السِّرِّ كَمَا أَعْلَمُ الْعَلَانِيَةَ ، يَعْنِي : مَا كَتَمَ إِبْلِيسُ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْإِغْتِرَارِ .

وَجَهْ آخِرٌ : وَأَعْلَمُ - مَعَ عِلْمِي غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ - مَا تَظْهَرُوهُ بِالسِّتِّكُمْ ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ ، فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ ، سِوَاءَ عِنْدِي سَرَائِرِكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ ، وَالَّذِي أَظْهَرُوهُ بِالسِّتِّهِمْ قَوْلُهُمْ : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَالَّذِي كَانُوا يَكْتُمُونَ مَا كَانَ مُنْطَوِيًا عَلَيْهِ إِبْلِيسُ مِنَ الْخِلَافِ عَلَى اللَّهِ فِي أَوْامِرِهِ وَالتَّكْبُرُ عَنْ طَاعَتِهِ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿

وَهَذِهِ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِآدَمَ إِمْتِنَنَ بِهَا عَلَى ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَى

أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثُ أَيضًا كَثِيرَةٌ مِنْهَا : حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَحَدِيثُ مُوسَى عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ : أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ... ؟ » قَالَ : وَذَكَرَ الْحَدِيثُ كَمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ . لَمَّا أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِأَدَمَ دَخَلَ إِبْلِيسُ فِي خِطَابِهِمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُنُصُرِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ قَدْ تَشَبَّهَ بِهِمْ وَتَوَسَّمَ بِأَفْعَالِهِمْ ، فَلِهَذَا دَخَلَ فِي الْخِطَابِ هُمْ ، وَدُمَّ فِي مُحَالَفَةِ الْأَمْرِ ، وَسَنَسِبُطُ الْمَسْأَلَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : ٥٠]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِأَدَمَ ﴾ فَكَانَتْ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِأَدَمَ ، أَكْرَمَ اللَّهُ آدَمَ أَنْ أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : كَانَ هَذَا سُجُودَ تَحِيَّةٍ وَسَلَامٍ وَإِكْرَامٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وَقَدْ كَانَ هَذَا مَشْرُوعًا فِي الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَلَكِنَّهُ نُسِخَ فِي مِلَّتِنَا . قَالَ مُعَاذٌ : قَدِمْتُ الشَّامَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُسْجَدَ لَكَ فَقَالَ : « لَا . لَوْ كُنْتُ أَمْرًا بَشَرًا أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ ، لِأَمْرَتِ الْمَرْأَةِ أَنْ تَسْجُدَ لِرَوْجِهَا مِنْ عِظْمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا » ﴿

إِكْرَامًا وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا وَسَلَامًا وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ عز وجل لِأَنَّهَا امْتِنَالٌ لِأَمْرِهِ تَعَالَى . وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَسْجُدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حَسَدَ عَدُوِّ اللَّهِ إِبْلِيسَ آدَمَ عليه السلام عَلَى مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْكِرَامَةِ ، وَقَالَ : أَنَا نَارِيٌّ وَهَذَا طِينِيٌّ وَكَانَ بَدَأَ الذُّنُوبِ الْكَبِيرُ ، اسْتَكْبَرَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ يَسْجُدَ لِأَدَمَ عليه السلام .

قُلْتُ : وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ » ﴿٣﴾ ، وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِ إِبْلِيسَ مِنَ الْكِبَرِ ، وَالْكَفْرِ ، وَالْعِنَادِ مَا اقْتَضَى

- (١) صحيح : وبهذا اللفظ أخرجه أبو داود (حديث ٤٧٠٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخرج البخاري نحوه (حديث ٦٦١٤) ، ومسلم (حديث ٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .  
(٢) صحيح بمجموع طرقه ، وقد أخرجه الترمذي (١١٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا ، وقد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم جمع من الصحابة . انظر أبو داود (٢١٤٠) ، وأحمد (١٥٨/٣) .  
(٣) رواه مسلم (حديث ٩١) .



طَرْدُهُ وَإِبْعَادُهُ عَنِ جَنَابِ الرَّحْمَةِ وَحَضْرَةِ الْقُدْسِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْعَاصِينَ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ الْقُرْظِيُّ :  
 ابْتَدَأَ اللَّهُ خَلْقَ إِبْلِيسَ عَلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالَةِ ، وَعَمِلَ بِعَمَلِ الْمَلَائِكَةِ ، فَصَيَّرَهُ اللَّهُ إِلَى  
 مَا [ ابْتَدَأَهُ ] عَلَيْهِ خَلْقَهُ مِنَ الْكُفْرِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ .  
 قَالَ بَعْضُ الْمُعَرَّبِينَ : وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، أَي : وَصَارَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِسَبَبِ امْتِنَاعِهِ .

وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا  
 وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا  
 فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي  
 الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَمَّا أَكْرَمَ بِهِ آدَمَ : إِنَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدُوا إِلَّا  
 إِبْلِيسَ ، وَأَنَّهُ أَبَاحَ لَهُ الْجَنَّةَ يَسْكُنُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ وَيَأْكُلُ مِنْهَا مَا شَاءَ ﴿ رَغَدًا ﴾  
 أَي : هَيِّنًا وَاسِعًا طَيِّبًا .

وَقَدْ أُخْتَلِفَ فِي الْجَنَّةِ الَّتِي أُسْكِنَهَا آدَمُ أَهِيَ فِي السَّمَاءِ أَوْ فِي الْأَرْضِ ؟ فَالْأَكْثَرُونَ  
 عَلَى الْأَوَّلِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ فَهُوَ اخْتِبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى  
 وَامْتِحَانٌ لِآدَمَ . وَقَدْ أُخْتَلِفَ فِي هَذِهِ الشَّجَرَةِ مَا هِيَ ؟ فَقِيلَ : الشَّجَرَةُ الَّتِي نُهِيَ  
 عَنْهَا آدَمُ عليه السلام هِيَ الْكَرْمُ . وَتَزَعَمَ يَهُودُ أَنَّهَا الْحِنْطَةُ .

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَالصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ  
 يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ - تعالى - ثَنَاؤُهُ - نَهَى آدَمَ وَزَوْجَتَهُ عَنْ أَكْلِ شَجَرَةٍ بَعَيْنِهَا مِنْ أَشْجَارِ  
 الْجَنَّةِ دُونَ سَائِرِ أَشْجَارِهَا فَأَكَلَا مِنْهَا ، وَلَا عِلْمَ عِنْدَنَا بِأَيِّ شَجَرَةٍ كَانَتْ عَلَى  
 التَّعْيِينِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ لِعِبَادِهِ دَلِيلًا عَلَى ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ .

وَقَدْ قِيلَ : كَانَتْ شَجَرَةُ الْبُرِّ . وَقِيلَ : كَانَتْ شَجَرَةُ الْعِنَبِ . وَقِيلَ : كَانَتْ  
 شَجَرَةُ التَّيْنِ . وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ وَاحِدَةً مِنْهَا ، وَذَلِكَ عِلْمٌ إِذَا عُلِمَ لَمْ يَنْفَعِ الْعَالِمُ بِهِ  
 عِلْمُهُ وَإِنْ جَهَلَهُ جَاهِلٌ لَمْ يَضُرَّهُ جَهْلُهُ بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَكَذَلِكَ رَجَحَ الْإِبْهَامُ الرَّازِيَّ فِي تَفْسِيرِهِ وَغَيْرِهِ وَهُوَ الصَّوَابُ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ عَنْهَا  
 عَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَرَأَ عَاصِمٌ فَأَزَلَّهُمَا . أَي : فَتَحَاهُمَا وَيَصِحُّ  
 أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَيْنِ وَهُوَ الشَّجَرَةُ ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْكَلَامِ كَمَا قَالَ  
 الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : فَأَزَلَّهُمَا ، أَي : مِنْ قَبْلِ الزَّلَلِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ  
 ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ أَي : بِسَبَبِهَا ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أَي : مِنْ  
 اللَّبَاسِ وَالْمَنْزِلِ الرَّحْبِ وَالرُّزْقِ الْهَبِيِّ وَالرَّاحَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أَي :  
 قَرَارٌ وَأَرْزَاقٌ وَأَجَالٌ ﴿ وَمَتَّعْ إِلَى حِينٍ ﴾ أَي : إِلَى وَقْتٍ مُؤَقَّتٍ وَمَقْدَارٍ مُعَيَّنٍ ثُمَّ  
 تَقُومُ الْقِيَامَةُ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِذَا كَانَتْ جَنَّةُ آدَمَ الَّتِي أُخْرِجَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ كَمَا يَقُولُ  
 الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَكَيْفَ تَمَكَّنَ إِبْلِيسُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ وَقَدْ طُرِدَ مِنْ هُنَالِكَ  
 طُرْدًا قَدْرِيًّا ، وَالْقَدْرِيُّ لَا يُخَالَفُ وَلَا يُبَاعُ ؟ وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِأَجُوبَةٍ : أَحَدَهَا أَنَّهُ  
 مُنِعَ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ مُكْرَمًا ، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ السَّرْفَةِ وَالْإِهَانَةِ فَلَا يَمْنَعُ ، وَهَذَا قَالَ  
 بَعْضُهُمْ كَمَا جَاءَ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ دَخَلَ فِي فَمِ الْحَيَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ . وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ :  
 يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسُوسَ هُمَا وَهُوَ خَارِجُ بَابِ الْجَنَّةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَحْتَمِلُ أَنَّهُ وَسُوسَ  
 لَهَا وَهُوَ فِي الْأَرْضِ وَهُمَا فِي السَّمَاءِ .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٧٧﴾

قِيلَ : إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ مُفَسَّرَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ  
 تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أَي : إِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ إِلَيْهِ  
 وَأَنَابَ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ  
 يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ﴾ الْآيَةُ . وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ إِلَى غَيْرِ  
 ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَيَتُوبُ عَلَى مَنْ يَتُوبُ ، وَهَذَا  
 مِنْ لُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبِيدِهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَمَّا أَتَذَرُ بِهِ آدَمَ وَزَوْجَتَهُ وَإِبْلِيسَ حِينَ أَهْبَطَهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالْمَرَادُ الذُّرِّيَّةُ : أَنَّهُ سَيُنزِلُ الْكُتُبَ وَيَبْعَثُ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ ﴾ أَي : مَنْ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَا أَنْزَلْتُ بِهِ الْكُتُبَ وَأَرْسَلْتُ بِهِ الرُّسُلَ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَىٰ مَا فَاتَهُمْ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ طه ﴿ قَالَ أَهْبَطْنَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [ طه : ١٢٣ ] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَلَا يَضِلُّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَىٰ فِي الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أَي : مُخْلِدُونَ فِيهَا لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا وَلَا مَحِيصَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( أَمَا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، فَلَا يَمُوتُونَ فِيهَا ، وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَلَكِنْ أَقْوَامٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً ، حَتَّىٰ إِذَا صَارُوا فَحَمًا ، أذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ )) (١) .

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿١٣٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰئِكَ كَافِرٍ بِهِمْ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّيَ فَاتَّقُونِ ﴿١٣١﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَمُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ أَفْضَلِ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، وَمُهَيِّجًا لَهُمْ بِذِكْرِ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ وَهُوَ نَبِيُّ اللَّهِ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقْدِيرُهُ : يَا بَنِي الْعَبْدِ الصَّالِحِ الْمُطِيعِ لِلَّهِ كُونُوا مِثْلَ أَبِيكُمْ فِي مُتَابَعَةِ الْحَقِّ ، كَمَا تَقُولُ : يَا ابْنَ الْكَرِيمِ ، اِفْعَلْ كَذَا يَا ابْنَ الشُّجَاعِ بَارِزِ الْأَبْطَالِ ، يَا ابْنَ الْعَالَمِ أُطَلِّبِ الْعِلْمَ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ١٨٥) .

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء : ٣] فَإِسْرَائِيلُ هُوَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ فَجَرَّ لَهُمُ الْحَجَرَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَى ، وَنَجَّاهُمْ مِنْ عُبُودِيَّةِ آلِ فِرْعَوْنَ .

قَوْلٌ آخَرَ : نِعْمَتُهُ أَنْ جَعَلَ مِنْهُمْ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ أَوْ نَزَلَ عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ ، قُلْتُ : وَهَذَا كَقَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُمْ ﴿ يَقَوْمِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠] يَعْنِي : فِي زَمَانِهِمْ .  
﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ . قَالَ : بِعَهْدِي الَّذِي أَخَذْتُ فِي أَعْنَاقِكُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا جَاءَكُمْ أَنْجَزْ لَكُمْ مَا وَعَدْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَصَدِيقِهِ وَاتِّبَاعِهِ بِوَضْعِ مَا كَانَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَصَارِ وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ فِي أَعْنَاقِكُمْ بِذُنُوبِكُمْ الَّتِي كَانَتْ مِنْ إِحْدَاثِكُمْ .

قَوْلٌ آخَرَ فِي تَفْسِيرِ الْعَهْدِ : هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الرِّكَوَةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [المائدة : ١٢]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ ﴾ أَي : فَأَخْشَوْنِ . وَهَذَا انْتِقَالٌ مِنَ التَّرْغِيبِ إِلَى التَّرْهيبِ فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَالِاتِّعَاطِ بِالْقُرْآنِ وَزَوَاجِرِهِ ، وَامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ وَتَصَدِيقِ أَخْبَارِهِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ بِشِيرًا وَنَذِيرًا وَسِرَاجًا مُنِيرًا مُشْتَمِلًا عَلَى الْحَقِّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ فَيَعْنِي بِهِ : أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ بِشَرِّ كَثِيرٍ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَاشَرَةً ، فَإِنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ أَوَّلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ خُوطِبُوا بِالْقُرْآنِ ، فَكَفَرُوا بِهِ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُمْ أَوَّلَ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ جِنْسِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ يَقُولُ : لَا تَعْتَاضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِآيَاتِي وَتَصْدِيقِ رَسُولِي بِالْدُنْيَا وَشَهَوَاتِهَا ، فَإِنَّهَا قَلِيلَةٌ فَإِنَّهُ ، فَأَمَّا تَعْلِيمُ الْعِلْمِ بِأَجْرَةٍ فَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَةٌ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَتَنَاوَلَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ مَا يَقُومُ بِهِ حَالُهُ وَعِيَالُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَحْضُلْ لَهُ مِنْهُ شَيْءٌ وَقَطَعَهُ التَّعْلِيمُ عَنِ التَّكْسِبِ فَهُوَ كَمَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا لَمْ يَتَعَيَّنْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ أُجْرَةٌ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قِصَّةِ اللَّدِيعِ « إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أُجْرًا كِتَابُ اللَّهِ » (١) ، وَقَوْلُهُ فِي قِصَّةِ الْمَخْطُوبَةِ « زَوَّجْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ » (٢) .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ ﴾ أَنَّهُ تَعَالَى يَتَوَعَّدُهُمْ فِيمَا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ ، وَمُخَالَفَتِهِمُ الرُّسُولَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا لِلْيَهُودِ عَمَّا كَانُوا يَتَعَمَّدُونَهُ مِنْ تَلْبِيسِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ وَتَمْوِيهِهِ ، وَكِتْمَانِهِمُ الْحَقَّ ، وَإِظْهَارِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ فَنَهَاهُمْ عَنِ الشَّيْئَيْنِ مَعًا ، وَأَمَرَهُمْ بِإِظْهَارِ الْحَقِّ وَالتَّضْرِيحِ بِهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ أَي : لَا تَكْتُمُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِرَسُولِي وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَأَنْتُمْ تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَكُمْ فِيمَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي بَأَيْدِيكُمْ .

﴿ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴾ حَالٌ أَيْضًا ، وَمَعْنَاهُ : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْحَقَّ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الضَّرَرِ الْعَظِيمِ عَلَى النَّاسِ مِنْ إِضْلَالِهِمْ عَنِ الْهُدَى الْمُقْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ إِنْ سَلَكُوا مَا تُبْدُونَهُ لَهُمْ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَشُوبِ بِنَوْعٍ مِنَ الْحَقِّ لِيُرَوِّجُوهُ عَلَيْهِمْ ، وَالْبَيَانُ : الْإِيضَاحُ ، وَعَكْسُهُ : الْكِتْمَانُ وَخَلْطُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٧٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري (مع الفتح ١٣١/٩) ، ومسلم (مع النووي ٢١١/٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ :  
قَوْلُهُ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُصَلُّوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَآتُوا  
الزَّكَاةَ ﴾ أَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْتُوا الزَّكَاةَ أَي : يَدْفَعُونَهَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾  
أَمَرَهُمْ أَنْ يَرْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ : كُونُوا مَعَهُمْ وَمِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ أَي : وَكُونُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَحْسَنِ  
أَعْمَالِهِمْ وَمِنْ أَحْصَى ذَلِكَ وَأَكْمَلِهِ الصَّلَاةَ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ  
عَلَى وُجُوبِ الْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ تَكَلَّمَ الْقُرْطُبِيُّ عَلَى مَسَائِلِ الْجَمَاعَةِ وَالْإِمَامَةِ فَأَجَادَ .

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٨﴾  
يَقُولُ تَعَالَى : كَيْفَ يَلِيقُ بِكُمْ يَا مَعْشَرَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنْتُمْ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ  
وَهُوَ جِمَاعُ الْخَيْرِ أَنْ تَنْسُوا أَنْفُسَكُمْ فَلَا تَأْمُرُونَ بِمَا تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِهِ ، وَأَنْتُمْ مَعَ  
ذَلِكَ تَتْلُونَ الْكِتَابَ وَتَعْلَمُونَ مَا فِيهِ عَلَى مَنْ قَصَّرَ فِي أَوْامِرِ اللَّهِ ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ مَا  
أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِأَنْفُسِكُمْ ، فَتَنْتَبَهُوا مِنْ رَقَدَتِكُمْ وَتَبَصَّرُوا مِنْ عَمَائِكُمْ .

وَالْغَرَضُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى خَطِيئِهِمْ فِي حَقِّ  
أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ ذَمَّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ  
بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ وَهُوَ وَاجِبٌ  
عَلَى الْعَالِمِ ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ وَالْأَوْلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ مَنْ أَمَرَهُمْ بِهِ وَلَا يَتَخَلَّفَ  
عَنْهُمْ كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عليه السلام : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ  
إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨]

فَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَفِعْلِهِ وَاجِبٌ لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرَ عَلَى أَصَحِّ  
قَوْلِي الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ مَرْتَكِبَ الْمَعَاصِي لَا يَنْهَى  
غَيْرُهُ عَنْهَا ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ، وَأَضْعَفُ مِنْهُ تَمَسُّكُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا .

وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْعَالِمَ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلَهُ ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ  
إِزْتَكَبَهُ ، قَالَ مَالِكٌ عَنْ رَبِيعَةَ ، سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ : لَوْ كَانَ الْمَرْءُ لَا يَأْمُرُ  
بِالْمَعْرُوفِ وَلَا يَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ مَا أَمَرَ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَا

نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ . قَالَ مَالِكٌ : وَصَدَقَ مَنْ ذَا الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ؟ .  
قُلْتُ : لَكِنَّهُ وَالْحَالَةَ هَذِهِ مَذْمُومٌ عَلَى تَرْكِ الطَّاعَةِ وَفِعْلِهِ الْمَعْصِيَةِ ؛ لِعِلْمِهِ بِهَا  
وَمُحَالَفَتِهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مَنْ يَعْلَمُ كَمَنْ لَا يَعْلَمُ ، وَهَذَا جَاءَتِ الْأَحَادِيثُ  
فِي الْوَعِيدِ عَلَى ذَلِكَ .

عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ : قِيلَ لِأَسَامَةَ وَأَنَا رَدِيفُهُ : أَلَا تُكَلِّمَ عِثْمَانَ ؟ فَقَالَ : إِنَّكُمْ  
تَرَوْنَ أَنِّي لَا أَكَلِّمُهُ ، أَلَا أَسْمِعُكُمْ إِنِّي لَأُكَلِّمُهُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ دُونَ أَنْ أُفْتَحَ أَمْرًا لَا  
أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ افْتَتَحَهُ ، وَاللَّهِ لَا أَقُولُ لِرَجُلٍ إِنَّكَ خَيْرُ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ عَلَيَّ  
أَمِيرًا بَعْدَ أَنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ؛ قَالُوا وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ  
يَقُولُ : « يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ بِهِ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ  
كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ ، فَيَطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ ، فَيَقُولُونَ : يَا فُلَانُ مَا أَصَابَكَ ؟ أَلَمْ  
تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ فَيَقُولُ : كُنْتُ أَمْرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ ،  
وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ » (١) .

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : إِنِّي لَأَكْرَهُ الْقَصَصَ لِثَلَاثِ آيَاتٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ  
النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا  
تَفْعَلُونَ ﴾ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿ [الصف : ٢-٣] ، وَقَوْلُهُ  
إِخْبَارًا عَنْ شُعَيْبٍ ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا  
الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨]

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ  
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عَبِيدُهُ فِيمَا يُؤْمَلُونَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : بِالِاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ  
وَالصَّلَاةِ ، كَمَا قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : اسْتَعِينُوا عَلَى طَلَبِ  
الْآخِرَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى الْفَرَائِضِ وَالصَّلَاةِ ، فَأَمَّا الصَّبْرُ فَقِيلَ : إِنَّهُ الصِّيَامُ نَصَّ عَلَيْهِ

مُجَاهِدٌ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالصَّبْرِ : الْكَفَّ عَنِ الْمَعَاصِي ، وَهَذَا قَرْنُهُ بِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ وَأَعْلَاهَا فِعْلُ الصَّلَاةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَالصَّلَاةُ ﴾ إِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [الكهف: ٢٧] وَعَنْ عَلِيٍّ عليه السلام يَقُولُ : لَقَدْ رَأَيْتُنَا لَيْلَةً بَدْرٍ وَمَا فِينَا إِلَّا نَائِمٌ ، غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يُصَلِّي وَيَدْعُو حَتَّى أَصْبَحَ .<sup>(١)</sup>

وقد نعي إلى ابن عباس<sup>(٢)</sup> أخوه قُتْمٌ وهو في سفرٍ ، فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأتاخ فضلي ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ، وَالصَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ عَائِدٌ إِلَى الصَّلَاةِ ، نَصَّ عَلَيْهِ مُجَاهِدٌ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَائِدًا عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكَلَامُ وَهُوَ الْوَصِيَّةُ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ قَارُونَ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿ [فصلت: ٣٤-٣٥] أَيُّ : وَمَا يُلْقَى هَذِهِ الْوَصِيَّةُ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا أَيُّ : يُؤْتَاهَا وَيُلْهِمَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ أَيُّ : مَشَقَّةٌ ثَقِيلَةٌ ﴿ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي الْمُصَدِّقِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَقِيلَ : الْخَائِفِينَ ، وَقِيلَ : الْمُتَوَاضِعِينَ . وَهَذَا يُشْبِهُ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ »<sup>(٣)</sup> وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : مَعْنَى الْآيَةِ :

(١) صحيح : وقد أخرجه عددٌ من الأئمة ، منهم الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - (حديث ١٠٢٣) والنسائي في السنن الكبرى (حديث ٨٢٣) وغيرهما .

(٢) إسناده صحيح : وقد أخرجه الطبري (٨٥٢) .

(٣) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه غير واحد منهم النسائي في السنن الكبرى (١١٣٩٤) ، وسنده هنالك فيه ضعف وقد ذكرت له بعض الطرق والشواهد في تحقيقي للمنتخب لعبد بن حميد فراجعه إن شئت (رقم ١١٢) .



وَاسْتَعِينُوا أَيُّهَا الْأَخْبَارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِحَبْسِ أَنْفُسِكُمْ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، الْمُقَرَّبَةِ مِنْ رِضَاءِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ إِقَامَتِهَا إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ، أَيُّ : الْمُتَوَاضِعِينَ الْمُسْتَكِينِينَ لِطَاعَتِهِ الْمُتَدَلِّلِينَ مِنْ مُحَافَتِهِ . هَكَذَا قَالَ ، وَالظَّاهِرُ : أَنَّ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَتْ خِطَابًا فِي سِيَاقِ إِذْذَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يُقْصِدُوا بِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّخْصِيسِ ، وَإِنَّمَا هِيَ عَامَّةٌ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهُ ، أَيُّ : أَنَّ الصَّلَاةَ أَوْ الْوَصَاةَ لِثَقِيلَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُحْشُورُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعْرُوضُونَ عَلَيْهِ ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَيُّ : أُمُورُهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى مَشِيئَتِهِ يَحْكُمُ فِيهَا مَا يَشَاءُ بَعْدِلِهِ ، فَلِهَذَا لَمَّا أَيقِنُوا بِالْمَعَادِ وَالْجَزَاءِ سَهَّلَ عَلَيْهِمْ فِعْلَ الطَّاعَاتِ وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : الْعَرَبُ قَدْ تُسَمِّي الْيَقِينَ ظَنًّا وَالشَّكَّ ظَنًّا . قَالَ : وَالشَّوَاهِدُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَكَلَامِهَا عَلَى أَنَّ الظَّنَّ فِي مَعْنَى الْيَقِينِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ ، وَفِيهَا ذَكَرْنَا لِمَنْ وَفَّقَ لِفَهْمِهِ كِفَايَةً ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ .

قُلْتُ : وَفِي الصَّحِيحِ (١) « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَلَمْ أُزَوِّجْكَ ؟ أَلَمْ أُكْرِمْكَ ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ ، وَأَذْرُكَ تَرَأْسُ وَتَرْبُوعٌ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي ، فَيَقُولُ : لَا ، فَيَقُولُ اللَّهُ : الْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي » .

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

يَذْكُرُهُمْ تَعَالَى بِسَالِفِ نِعْمِهِ عَلَى آبَائِهِمْ وَأَسْلَافِهِمْ ، وَمَا كَانَ فَضْلُهُمْ بِهِ مِنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) ولفظه : « فيلقى العبد فيقول : أي قل ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربيع ، فيقول بلى . قال : فيقول : أظننت أنك ملأني ... الحديث » ، وقوله : أسودك أي : أجعلك سيداً ، وقوله : ترأس . أي : تصبح رئيساً لقومك ، وقوله : تربيع . أي : تأخذ المربع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة ، وهو ربعها .

إِرْسَالِ الرُّسُلِ مِنْهُمْ ، وَإِنزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ ، وَعَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] ، وَقَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ آذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ  
 مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة : ٢٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ : بِنَا أَعْطُوا مِنَ الْمُلْكِ وَالرُّسُلِ  
 وَالْكِتَابِ عَلَى عَالَمٍ مَنْ كَانَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ عَالِمًا ، وَيَجِبُ الْحَمْلُ  
 عَلَى هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى خِطَابًا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ  
 أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ وَلَوْ  
 ءَأَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [آل عمران : ١١٠]

وَفِي الْمَسَانِيدِ وَالسُّنَنِ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقَشِيرِيِّ . قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :  
 « أَنْتُمْ تَوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ » (١) ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا  
 كَثِيرَةٌ تُذَكِّرُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ :  
 تَفْضِيلُ بِنُوعِ مَا مِنَ الْفَضْلِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ ، وَيَلْزَمُ تَفْضِيلُهُمْ مُطْلَقًا ، حَكَاهُ  
 الرَّازِيُّ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهُمْ فَضِّلُوا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ، لِإِسْتِثْنَائِ أُمَّتِهِمْ عَلَى  
 الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُمْ ، حَكَاهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَفِيهِ نَظَرٌ ، لِأَنَّ الْعَالَمِينَ عَامٌّ يَشْتَمِلُ مَنْ  
 قَبْلَهُمْ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فإِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ قَبْلَهُمْ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ  
 أَنْبِيَائِهِمْ ، وَمُحَمَّدٌ بَعْدَهُمْ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ وَسَيِّدُ وَوَلَدِ آدَمَ فِي الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا  
 يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٨﴾

لَمَّا ذَكَرَهُمْ تَعَالَى بِنِعْمِهِ أَوَّلًا عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ التَّحْذِيرِ مِنْ طُولِ نِقْمِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 فَقَالَ : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا أَي : لَا

(١) حسن : وقد أخرجه أحمد (٥/٣، ٥٠٤)، (٤/٤٤٧) وغيرهما ، ولمزيد انظر المنتخب بتحقيقي (٤٠٩) .

يُعْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَرُرُوا وَازِرَةً وَرَزْرًا أُخْرَى ﴾ [فاطر : ١٨] ، وَقَالَ :  
 ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] ، وَقَالَ : ﴿ يَتَأَيُّبُ النَّاسُ أَنْفُوا  
 رَبِّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾  
 [لقمان : ٣٣] ، فَهَذَا أَبْلَغُ الْمَقَامَاتِ أَنْ كَلَّا مِنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ لَا يُغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ  
 الْآخَرِ شَيْئًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ يُعْنِي : مِنَ الْكَافِرِينَ كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا  
 تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] وَكَمَا قَالَ عَنْ أَهْلِ النَّارِ : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ  
 شَفِيعِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٠]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أَي : لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِدَاءٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ  
 أَفْتَدَى بِهِ ﴾ [آل عمران : ٩١] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ آتٍ لَهُمْ مَا فِي  
 الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ  
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَعَدَلْ كُلُّ عَدْلٍ لَأُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾  
 [الأنعام : ٧٠] ، وَقَالَ : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَانُكُمْ  
 النَّارُ هِيَ مَوْلَانُكُمْ ﴾ [الحديد : ١٥] ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ وَيَتَابِعُوهُ  
 عَلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ ، وَوَفَّوْا اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمْ قَرَابَةُ  
 قَرِيبٍ ، وَلَا شَفَاعَةُ ذِي جَاهٍ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، وَلَوْ بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ،  
 وَقَالَ : ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَلٌ ﴾ [إبراهيم : ٣١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَي : وَلَا أَحَدٌ يَغْضَبُ هُمْ فَيَنْصُرُهُمْ  
 وَيُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا يُعْطَفُ عَلَيْهِمْ دُورَابُهُ ، وَلَا دُورَابُهُ ،  
 وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءٌ ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ جَانِبِ التَّلَطُّفِ ، وَلَا هُمْ نَاصِرٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ،  
 وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ١٠] أَي : أَنَّهُ تَعَالَى  
 لَا يُقْبَلُ فِيمَنْ كَفَرَ بِهِ فِدْيَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا يُنْقَذُ أَحَدًا مِنْ عَذَابِهِ مُنْقَذٌ ، وَلَا يُخَلِّصُ  
 مِنْهُ أَحَدٌ ، وَلَا يُجِيرُ مِنْهُ أَحَدٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ تَجِيرٌ وَلَا تَجَارُ عَلَيْهِ ﴾ ، وَقَالَ :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۖ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَةً أَحَدٌ ۖ ﴾ [ الفجر : ٢٦ ] ، وَقَالَ :  
 ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۗ ﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿ [ الصافات : ٢٦ ] ، وَقَالَ : ﴿ فَلَوْلَا  
 نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ [ الأحقاف : ٢٨ ]  
 قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا  
 يَنْصُرُهُمْ نَاصِرٌ ، كَمَا لَا يَشْفَعُ لَهُمْ شَافِعٌ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهُمْ عَدْلٌ وَلَا فِدْيَةٌ ، بَطَلَتْ  
 هُنَالِكَ الْمُحَابَبَةُ ، وَاضْمَحَلَّتْ الرُّشَى وَالشَّفَاعَاتُ ، وَارْتَفَعَ مِنَ الْقَوْمِ التَّنَاصُرُ  
 وَالتَّعَاوُنُ ، وَصَارَ الْحُكْمُ إِلَى الْجُبَّارِ الْعَدْلِ ، الَّذِي لَا يَنْفَعُ لَدَيْهِ الشُّفَعَاءُ وَالنُّصَرَاءُ ،  
 فَيَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ مِثْلَهَا ، وَبِالْحَسَنَةِ أَضْعَافَهَا ، وَذَلِكَ نَظِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُوهُمْ مِنْهُمْ  
 مَسْئُولُونَ ۗ ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿ [ الصافات : ٢٤-٢٦ ]

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ  
 أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا  
 بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿

يَقُولُ تَعَالَى : اذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ؛ ﴿ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ  
 يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أَي : خَلَصْتُمْ مِنْهُمْ ، وَأَنْقَذْتُمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ صُحْبَةَ  
 مُوسَى عليه السلام ، وَقَدْ كَانُوا يَسُومُونَكُمْ أَي : يُورِدُونَكُمْ وَيُدْبِقُونَكُمْ وَيُولُونَكُمْ سُوءَ  
 الْعَذَابِ ، وَهَاهُنَا فَسَّرَ الْعَذَابُ بِذَنْحِ الْأَبْنَاءِ ، وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَطَفَ عَلَيْهِ ، كَمَا  
 قَالَ : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ ، وَمَعْنَى  
 يَسُومُونَكُمْ : يُولُونَكُمْ ، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ ، كَمَا يُقَالُ : سَامَهُ خُطَّةً خَسَفَ إِذَا أَوْلَاهُ  
 إِيَّاهَا ، قَالَ : عَمْرُو بْنُ كَثُومٍ :

إِذَا مَا الْمَلِكُ سَامَ النَّاسَ خَسَفًا      أَيْنَا أَنْ نُقَرَّ الْحَسْفَ فِينَا

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : يُدِيمُونَ عَذَابَكُمْ كَمَا يُقَالُ : سَائِمَةُ الْغَنَمِ مِنْ إِدَامَتِهَا الرَّعْيِ .  
 نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ ، وَإِنَّمَا قَالَ هَاهُنَا ﴿ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ لِيَكُونَ ذَلِكَ  
 تَفْسِيرًا لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَهُ بِهَذَا لِقَوْلِهِ هَاهُنَا  
 ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، وَأَمَّا فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ فَلَمَّا قَالَ : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ

بِأَيِّمِ اللَّهِ ﴿ أَيُّ : بِأَيَادِيهِ وَنَعِمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَتَنَاسَبَ أَنْ يَقُولَ هُنَاكَ ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَمِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ فَعَطَفَ عَلَيْهِ الذَّنْحَ ، لِيَدُلَّ عَلَى تَعَدُّدِ النِّعَمِ وَالْأَيَادِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَفِرْعَوْنُ عَلَّمَ كُلَّ مَنْ مَلَكَ مِصْرَ كَافِرًا مِنَ الْعَمَالِقِ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا أَنَّ قَيْصَرَ عَلَّمَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ الرُّومَ مَعَ الشَّامِ كَافِرًا ، وَكَسْرَى لِمَنْ مَلَكَ الْفُرْسَ ، وَتَبِعَ لِمَنْ مَلَكَ الْيَمَنَ كَافِرًا ، وَالنَّجَاشِي لِمَنْ مَلَكَ الْحَبَشَةَ ، وَبَطْلِيمُوسُ لِمَنْ مَلَكَ الْهِنْدَ ، وَيُقَالُ : كَانَ اسْمُ فِرْعَوْنَ الَّذِي كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى عليه السلام الْوَلِيدُ بْنُ مُصْعَبِ بْنِ الرَّيَّانِ ، وَقِيلَ : مُصْعَبُ بْنُ الرَّيَّانِ ، فَكَانَ مِنْ سُلَالَةِ عَمَلِيقَ ابْنِ الْأَوْدِ بْنِ إِرْمَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحٍ ، وَكُنِيَّتُهُ أَبُو مُرَّةَ ، وَأَصْلُهُ فَارِسِيٌّ مِنْ اضْطَخَرَ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَعَلَيْهِ لِعَنَةِ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَفِي الَّذِي فَعَلْنَا بِكُمْ مِنْ إِنْجَانِنَا آبَاءَكُمْ مِمَّا كُتِمَتْ فِيهِ مِنْ عَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ بَلَاءٌ لَّكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ، أَيُّ : نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ .  
 وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ، مِنْ ذَنْبِ الْأَبْنَاءِ ، وَاسْتِحْيَاءِ النِّسَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ مَعْنَاهُ : وَبَعْدَ أَنْ أَنْقَذْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَخَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى عليه السلام خَرَجَ فِرْعَوْنُ فِي طَلَبِكُمْ فَفَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ مُفْصَلًا ، كَمَا سَبَّأَتْ فِي مَوَاضِعِهِ وَمِنْ أَبْسَطِهَا مَا فِي سُورَةِ الشُّعْرَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿ فَأَنْجَيْنَاكُمْ ﴾ أَيُّ : خَلَّصْنَاكُمْ مِنْهُمْ ، وَحَجَزْنَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَأَغْرَقْنَاهُمْ ، وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَشْفَى لِيُصْدِرَكُمْ ، وَأَبْلَغَ فِي إِهَانَةِ عَدُوِّكُمْ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى الْيَهُودَ يَصُومُونَ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ : « مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ ؟ » قَالُوا : هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ ﷻ فِيهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ ، فَصَامَهُ مُوسَى عليه السلام فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ » فَصَامَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَ بِصَوْمِهِ <sup>(١)</sup> .

(١) صحيح : انظر البخاري (حديث ٤٠٠٢) ، ومسلم (حديث ١١٣٠) .

وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ  
ظَالِمُونَ ﴿١٤١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَإِذْ  
ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٤٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي عَفْوِي عَنْكُمْ ، لَمَّا عَبْدْتُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ  
ذَهَابِ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِ رَبِّهِ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَمَدِ الْمُوَاعَدَةِ ، وَكَانَتْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَهِيَ  
الْمَذْكُورَةُ فِي الْأَعْرَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا  
بِعَشْرِ ﴾ [ الأعراف : ١٤٢ ] قِيلَ : إِنَّهَا ذُو الْقِعْدَةِ بِكَمَالِهِ وَعَشْرٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ، وَكَانَ  
ذَلِكَ بَعْدَ خَلَاصِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَإِنْجَائِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ ﴾ يَعْنِي التَّوْرَةَ ﴿ وَالْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ مَا  
يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَةَ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وَكَانَ ذَلِكَ أَيْضًا بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ فِي سُورَةِ  
الْأَعْرَافِ ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا  
الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَافِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ القصص : ٤٣ ]

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ إِلَانِكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ  
الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ  
فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٤﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ  
ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ قَالَ : أَمَرَ  
مُوسَىٰ قَوْمَهُ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ ، قَالَ : وَأَخْبَرَ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعِجْلَ فَجَلَسُوا ، وَقَامَ  
الَّذِينَ لَمْ يَعْكُفُوا عَلَى الْعِجْلِ فَأَخَذُوا الْحَنَاجِرَ بِأَيْدِيهِمْ ، وَأَصَابَتْهُمْ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ،  
فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَانْجَلَتِ الظُّلْمَةُ عَنْهُمْ ، وَقَدْ جَلَوْا عَنْ سَبْعِينَ أَلْفَ  
قَتِيلٍ ، كُلٌّ مِنْ قَتَلَ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ تَوْبَةٌ ، وَكُلٌّ مَنْ بَقِيَ كَانَتْ لَهُ تَوْبَةٌ .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ  
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي بَعْثِي لَكُمْ بَعْدَ الصَّعِقِ ، إِذْ سَأَلْتُمْ  
رُؤْيِي جَهْرَةً عِيَانًا ، مِمَّا لَا يُسْتَطَاعُ لَكُمْ ، وَلَا لِأَمْثَالِكُمْ .

قَوْلٌ آخَرَ : الصَّاعِقَةُ : صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ . قَوْلٌ ثَالِثٌ : الصَّاعِقَةُ : نَارٌ .

وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ رُوَيْمٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قَالَ : صُعِقَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضُهُمْ  
يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ بَعَثَ هَؤُلَاءِ وَصُعِقَ هَؤُلَاءِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾  
فَمَاتُوا ، فَقَامَ مُوسَىٰ يَبْكِي وَيَدْعُو اللَّهَ وَيَقُولُ : رَبِّ مَاذَا أَقُولُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ إِذَا  
أَتَيْتُهُمْ وَقَدْ أَهْلَكْتَ خِيَارَهُمْ ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَهْلَكُنَا بِمَا فَعَلَ  
السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنَّ هَؤُلَاءِ السَّبْعِينَ مِمَّنْ اتَّخَذُوا  
الْعِجْلَ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَحْيَاهُمْ فَقَامُوا وَعَاشُوا ، رَجُلٌ رَجُلٌ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ  
كَيْفَ يَحْيَوْنَ .

وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوْا مِّن طَيِّبَاتِ  
مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَا دَفَعَهُ عَنْهُمْ مِنَ النَّقْمِ شَرَعَ يُذَكِّرُهُمْ أَيضًا بِمَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ  
النَّعْمِ فَقَالَ : ﴿ وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ غَمَامَةٍ سُمِّيَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ يَغْمُ  
السَّمَاءَ . أَيُّ : يُوَارِيهَا وَيَسْتُرُهَا ، وَهُوَ السَّحَابُ الْأَبْيَضُ ، ظَلَّلُوا بِهِ فِي التَّيِّهِ لِيَقِيَهُمْ  
حَرَّ الشَّمْسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ ﴾ اِخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمَفْسِّرِينَ فِي الْمَنَّٰنِ مَا هُوَ ؟  
وَعِبَارَاتُهُمْ مُتَّفَارِقَةٌ فِي شَرْحِ الْمَنَّٰنِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالطَّعَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ  
بِالشَّرَابِ ، وَالظَّاهِرُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ كُلُّ مَا أَمْتَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ  
وغير ذلك ، مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ عَمَلٌ ، وَلَا كَذَا ، فَالْمَنَّ الْمَشْهُورُ إِنْ أَكِلَ وَحَدَهُ كَانَ  
طَعَامًا وَحَلَاوَةً ، وَإِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا ، وَإِنْ رُكِّبَ مَعَ غَيْرِهِ صَارَ

نوعًا آخر، وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ وَحْدَهُ . وَالِدَلِيلُ قَوْلُ النَّبِيِّ : « الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاوَاهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ » (١) . وَأَمَّا « السَّلْوَى » فَطَائِرٌ يُشَبَّهُ بِالسَّمَانِيِّ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةٍ : « السَّلْوَى » طَيْرٌ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أَمْرٌ بِإِبَاحَةِ وَإِرْشَادٍ وَامْتِنَانٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أَي : أَمَرْنَاهُمْ بِالْأَكْلِ بِمَا رَزَقْنَاهُمْ ، وَأَنْ يَعْبُدُوا ، كَمَا قَالَ : ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكُرُوا لَهُ ﴾ [سبأ : ١٥] فَخَالَفُوا ، وَكَفَرُوا ، فَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْقَاطِعَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَمِنْ هَاهُنَا تَبَيَّنَ فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِضَى عَنْهُمْ ، عَلَى سَائِرِ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ ، فِي صَبْرِهِمْ ، وَثَبَاتِهِمْ ، وَعَدَمِ تَعَتُّبِهِمْ ، مَعَ مَا كَانُوا مَعَهُ فِي أَسْفَارِهِ ، وَغَزَوَاتِهِ مِنْهَا عَامَ تَبُوكَ ، فِي ذَلِكَ الْقَيْظِ وَالْحَرِّ الشَّدِيدِ وَالْجُهْدِ ، لَمْ يَسْأَلُوا خَرْقَ عَادَةٍ وَلَا إِيجَادَ أَمْرٍ مَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ سَهْلًا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَكِنْ لَمَّا أَجْهَدَهُمُ الْجُوعُ سَأَلُوهُ فِي تَكْثِيرِ طَعَامِهِمْ ، فَجَمَعُوا مَا مَعَهُمْ ، فَجَاءَ قَدْرٌ مَبْرُكُ الشَّاةِ ، فَدَعَا اللَّهُ فِيهِ ، وَأَمَرَهُمْ فَمَلَأُوا كُلُّ وَعَاءٍ مَعَهُمْ ، وَكَذَا لَمَّا احْتَاَجُوا إِلَى الْمَاءِ سَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى فَجَاءَتْهُمْ سَحَابَةٌ فَأَمْطَرَتْهُمْ ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا الْإِبِلَ ، وَمَلَأُوا أَسْقِيَّتَهُمْ ، ثُمَّ نَظَرُوا فَإِذَا هِيَ لَمْ تُجَاوِزِ الْعَسْكَرَ ، فَهَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ فِي إِتْبَاعِ الشَّيْءِ مَعَ قَدْرِ اللَّهِ مَعَ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ .

وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾  
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِأَيُّهَا هُمْ عَلَى نُكُوهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَدُخُولِهِمُ الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ لَمَّا قَدِمُوا مِنْ بَرِّ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى ﷺ فَأَمَرُوا بِدُخُولِ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي هِيَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٧٨، ٤٦٣٩)، ومسلم (حديث ٢٠٤٩) من حديث سعيد بن زيد ﷺ مرفوعاً .



مِيرَاثٌ هُمْ عَنْ آبِيهِمْ إِسْرَائِيلَ ، وَقِتَالٌ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَمَالِقِ الْكَفَرَةَ فَنَكَلُوا عَنْ قِتَالِهِمْ ، وَضَعُفُوا وَاسْتَحْسَرُوا ، فَرَمَاهُمُ اللَّهُ فِي التِّيهِ عُقُوبَةً هُمْ ، كَمَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَهَذَا كَانَ أَصَحَّ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى حَاكِيًا عَنْ مُوسَى ﴿ يَنْقُومِ آذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا ﴾ [المائدة : ٢١]

﴿ سُجَّدًا ﴾ أَي : شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ ، وَرَدَّ بِلَدَّهُمْ عَلَيْهِمْ وَإِنْقَادِهِمْ مِنَ التِّيهِ وَالضَّلَالِ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ قَالَ : رُكْعًا مِنْ بَابِ صَغِيرٍ . ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ مَغْفِرَةٌ اسْتَغْفِرُوا ، وَرَوَى عَنْ عَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوَهُ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَقُولُوا حِطَّةً ﴾ قَالَ : قُولُوا هَذَا الْأَمْرَ حَقًّا كَمَا قِيلَ لَكُمْ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ هَذَا جَوَابُ الْأَمْرِ أَي : إِذَا فَعَلْتُمْ مَا أَمَرْنَاكُمْ ، غَفَرْنَا لَكُمْ الْخَطِيئَاتِ ، وَضَاعَفْنَا لَكُمْ الْحَسَنَاتِ ، وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُمْ أُمِرُوا أَنْ يُخَضَعُوا لِلَّهِ تَعَالَى عِنْدَ الْفَتْحِ بِالْفِعْلِ وَالْقَوْلِ ، وَأَنْ يَعْتَرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُوا مِنْهَا ، وَالشُّكْرُ عَلَى النِّعْمَةِ عِنْدَهَا ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمَحْبُوبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي

دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [سورة النصر] فَسَّرَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ عِنْدَ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ ، وَفَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَنَّهُ نُعِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجَلُهُ فِيهَا ، وَأَقْرَبَهُ عَلَى ذَلِكَ عُمَرُ رضي الله عنه وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أُمِرَ بِذَلِكَ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَنُعِيَ إِلَيْهِ رُوحُهُ الْكَرِيمَةُ أَيْضًا ، وَهَذَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَظْهَرُ عَلَيْهِ الْخُضُوعُ جِدًّا عِنْدَ النَّصْرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ

عَلَى اسْتَاهُمْ فَبَدَّلُوا وَقَالُوا حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ»<sup>(١)</sup>.

وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُرُونَ ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ مِنَ الْحَدِيثِ : أَنَّهُمْ بَدَّلُوا أَمْرَ اللَّهِ لَهُمْ مِنَ الْخُضُوعِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَأَمَرُوا أَنْ يَدْخُلُوا سُجَّدًا فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ مِنْ قِبَلِ اسْتَاهِهِمْ ، رَافِعِي رُءُوسِهِمْ ، وَأَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا : حِطَّةٌ أَيْ أَحْطَطْ عَنَّا ذُنُوبَنَا وَخَطَايَانَا ، فَاسْتَهَزَّوْا ، فَقَالُوا : حِطَّةٌ فِي شَعِيرَةٍ ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ وَالْمَعَانَدَةِ ، وَهَذَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهِمْ بَأْسَهُ وَعَذَابَهُ بِفِسْقِهِمْ ، وَهُوَ خُرُوجُهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ .

وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : كُلُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الرَّجْزِ يَعْنِي بِهِ الْعَذَابَ ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( الطَّاعُونَ رِجْزٌ وَعَذَابٌ عُدْبَ بِهِ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ))<sup>(٢)</sup> وَفِي الصَّحِيحِينَ (( إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ فَلَا تَدْخُلُوهَا ))<sup>(٣)</sup> الْحَدِيثُ .

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ط  
فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا  
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٠٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي إِجَابَتِي لِنَبِيِّكُمْ مُوسَى ﷺ حِينَ اسْتَسْقَى لَكُمْ ، وَتَيْسِيرِي لَكُمْ الْمَاءَ وَإِخْرَاجَهُ لَكُمْ مِنْ حَجَرٍ يُحْمَلُ مَعَكُمْ وَتَفْجِيرِي الْمَاءِ لَكُمْ مِنْهُ مِنْ ثِنْتِي عَشْرَةَ عَيْنًا ، كُلُّ سِبْطٍ مِنْ أَسْبَاطِكُمْ عَيْنٌ قَدْ عَرَفُوهَا ، فَكُلُوا مِنَ الْمَنْ وَالسَّلْوَى وَأَشْرَبُوا مِنْ هَذَا الْمَاءِ الَّذِي أَنْبَعْتُهُ لَكُمْ بِلَا سَعْيٍ مِنْكُمْ ، وَلَا كَدٍّ وَاعْبُدُوا الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ وَلَا تُقَابِلُوا النِّعَمَ بِالْعِصْيَانِ فَتُسَلِّبُوهَا .

(١) البخاري حديث (٤٤٧٩) ، ... ولفظة « فبدلوا ، وقالوا : حطة حبة في شعرة » .

(٢) صحيح : أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٧٥٢٣) وغيره ، وانظر أيضًا البخاري (٣٤٧٣) ،  
ومسلم (حديث ٢٢١٨) .

(٣) صحيح : الصحيحين (المصدر السابق) .

وَقَدْ بَسَطَهُ الْمَفْسُورُونَ فِي كَلَامِهِمْ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه : وَجَعَلَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ حَجْرًا مُرَبَّعًا ، وَأَمَرَ مُوسَى عليه السلام فَضْرَبَهُ بِعَصَاهُ فَأَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْهُ ثَلَاثُ عِيُونٍ وَأَعْلَمَ كُلَّ سَبْطٍ عَيْنُهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْهَا ، لَا يَرْتَحِلُونَ مِنْ مَنَقَلَةٍ إِلَّا وَجَدُوا ذَلِكَ مَعَهُمْ بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ بِالْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ <sup>(١)</sup>.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴿٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرُوا نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِي أَنْزَالِي عَلَيْكُمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى طَعَامًا طَيِّبًا نَافِعًا هَيئًا سَهْلًا ، وَادْكُرُوا ذَبْرَكُمْ وَضَجْرَكُمْ مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ، وَسْأَلَكُمْ مُوسَى اسْتِبْدَالَ ذَلِكَ بِالْأَطْعِمَةِ الدَّيْنِيَّةِ مِنَ الْبُقُولِ وَنَحْوِهَا مِمَّا سَأَلْتُمْ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فَبَطَرُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ وَذَكُرُوا عَيْشَهُمُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ، وَكَانُوا قَوْمًا أَهْلَ أَعْدَاسٍ وَبَصَلٍ وَبَقْلِ وَفُومٍ فَقَالُوا : ﴿ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا ﴾ ، وَإِنَّمَا قَالُوا عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ وَهُمْ يَأْكُلُونَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى لِأَنَّهُ لَا يَتَبَدَّلُ وَلَا يَتَغَيَّرُ كُلَّ يَوْمٍ فَهُوَ مَأْكُلٌ وَاحِدٌ . فَالْبُقُولُ وَالْقِثَاءُ وَالْعَدَسُ وَالْبَصَلُ كُلُّهَا مَعْرُوفَةٌ ، وَأَمَّا الْفُومُ فَقَدْ اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي مَعْنَاهُ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْفُومُ : الْجَنْطَةُ وَهُوَ الْبُرُّ الَّذِي يُعْمَلُ مِنْهُ الْخُبْزُ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْخُبُوبُ الَّتِي تُؤْكَلُ كُلُّهَا فُومٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ فِيهِ تَفْرِيعٌ هُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَىٰ مَا سَأَلُوا مِنْ هَذِهِ الْأَطْعِمَةِ الدَّيْنِيَّةِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ الرَّغِيدِ وَالطَّعَامِ الْهَيِّئِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَهْبَطُوا مِصْرًا ﴾ هَكَذَا هُوَ

(١) أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده (١٠/٥) بسند حسن وكذا الطبري (١٦/١٢٥) وغيرهما .

مُنُونٌ مَضْرُوفٌ مَكْتُوبٌ بِالْأَلِفِ فِي الْمَصَاحِفِ الْأَيْمَةِ الْعُمَانِيَّةِ ، وَهُوَ قِرَاءَةٌ الْجُمْهُورِ بِالصَّرْفِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَلَا أُسْتَجِيزُ الْقِرَاءَةَ بِغَيْرِ ذَلِكَ لِإِجْمَاعِ الْمَصَاحِفِ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِضْرُ فِرْعَوْنَ عَلَى قِرَاءَةِ الْإِجْرَاءِ أَيْضًا . وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِتْبَاعِ لِكِتَابَةِ الْمُصْحَفِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قَوَارِيرًا ﴾ قَوَارِيرًا ﴿ ثُمَّ تَوَقَّفَ فِي الْمُرَادِ مَا هُوَ ، أَمِضْرُ فِرْعَوْنَ أَمْ مِضْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ ؟ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ نَظْرٌ وَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ مِضْرُ مِنَ الْأَمْصَارِ ؛ لِأَنَّ مُوسَى عليه السلام يَقُولُ لَهُمْ : هَذَا الَّذِي سَأَلْتُمْ لَيْسَ بِأَمِيرٍ عَزِيزٍ ، بَلْ هُوَ كَثِيرٌ فِي أَيِّ بَلَدٍ دَخَلْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهُ ، فَلَيْسَ يُسَاوِي مَعَ دِنَائِهِ وَكَثْرَتِهِ فِي الْأَمْصَارِ أَنْ أَسْأَلَ اللَّهَ فِيهِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَسْتَبْدَلْتُمْ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ أَيُّ : مَا طَلَبْتُمْ ، وَلَمَّا كَانَ سُؤَالُهُمْ هَذَا مِنْ بَابِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ وَلَا ضَرُورَةَ فِيهِ لَمْ يُجَابُوا إِلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ﴾ أَيُّ : وَضِعَتْ عَلَيْهِمْ وَأُلْزِمُوا بِهَا شَرْعًا وَقَدْرًا ، أَيُّ : لَا يَزَالُونَ مُسْتَدْلِينَ مَنْ وَجَدَهُمْ اسْتَدَّهُمْ وَأَهَاتَهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الصَّغَارَ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَذِلَّةٌ مُسْتَكِينُونَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ اسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ مِنَ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : هَذَا الَّذِي جَازَيْنَاهُمْ مِنَ الدِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَإِحْلَالِ الْغَضَبِ بِهِمْ مِنَ الدِّلَّةِ بِسَبَبِ اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَإِهَاتَتِهِمْ حَمَلَةَ الشَّرْعِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَاتِّبَاعُهُمْ فَانْتَقَضُوهُمْ إِلَى أَنْ أَفْضَى بِهِمُ الْحَالُ إِلَى أَنْ قَتَلُوهُمْ ، فَلَا كُفْرَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ

الْمُتَّفِقِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (( الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ ))<sup>(١)</sup>.  
 وَهَذَا لَمَّا ارْتَكَبَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمْ أَنْبِيَاءَهُ أَحَلَّ  
 اللَّهُ بِهِمْ بِأَسْءُ الَّذِي لَا يُرَدُّ وَكَسَاهُمْ ذُلًّا فِي الدُّنْيَا مَوْضُوعًا بِذُلِّ الْآخِرَةِ جَزَاءً وَفَاقًا .  
 عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (( أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ أَوْ قَتَلَ نَبِيًّا ، وَإِمَامٌ ضَلَالَةٍ وَمُثَلٌّ مِنَ الْمُثَلَّلِينَ ))<sup>(٢)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ ، وَهَذِهِ عِلَّةٌ أُخْرَى فِي  
 مَجَازَاتِهِمْ بِمَا جُوزُوا بِهِ ، أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْصُونَ وَيَعْتَدُونَ ، فَالْعُضْيَانُ فِعْلُ الْمَنَاهِي ،  
 وَالْإِعْتِدَاءُ الْمَجَاوِزَةُ فِي حَدِّ الْمَأْذُونِ فِيهِ وَالْمَأْمُورُ بِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيَّةَ مِنْ ءَامِنٍ  
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ  
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حَالَ مَنْ خَالَفَ أَوْامِرَهُ وَارْتَكَبَ زَوَاجِرَهُ وَتَعَدَّى فِي فِعْلٍ مَا لَا إِذْنَ  
 فِيهِ ، وَأَنْتَهَكَ الْمَحَارِمَ وَمَا أَحَلَّ بِهِمْ مِنَ النَّكَالِ تَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنْ مَنْ أَحْسَنَ مِنَ  
 الْأُمَّمِ السَّالِفَةِ وَأَطَاعَ ، فَإِنَّ لَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلِّ  
 مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ فَلَهُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ،  
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا يَتْرَكُونَهُ وَيُخَلِّفُونَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا  
 خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] ، وَكَمَا تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ  
 الْإِحْتِضَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ  
 الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (حديث ٩١).

(٢) له إسنادٌ يُحَسِّنُ أخرجه أحمد (٤٠٧/١) والبخاري ببعضه (١٧٢٨) من طريق عاصم عن أبي وائل عن  
 ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً ، ولكن قال البخاري : ما نعلم أحداً أسنده عن عاصم عن أبي وائل إلا أبان بن يزيد ،  
 والحديث قد روي موقوفاً عن ابن مسعود ويبدو أن الوقف أصح ، وإن كان بعض طرق الموقوف فيها  
 انقطاع ، وعلى كلِّ فلقائل أن يقول : إن الحديث لا يُقال من قبيل الرأي ، بل له حكم المرفوع ، والله أعلم ،  
 وانظر علل الدارقطني (٣٠٤/٥).

وَالْيَهُودُ مِنَ الْهُوَادَةِ وَهِيَ الْمَوَدَّةُ أَوْ التَّهَوُّدُ وَهِيَ التَّوْبَةُ ، كَقَوْلِ مُوسَى ﷺ ﴿ إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أَي : ثُبْنَا ، فَكَأْتَهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ فِي الْأَصْلِ لِتَوْبَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَقِيلَ لِنِسْبَتِهِمْ إِلَى يَهُودَا أَكْبَرُ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ أَي : يَتَحَرَّكُونَ عِنْدَ قِرَاءَةِ التَّوْرَةِ ، فَلَمَّا بُعِثَ عِيسَى ﷺ وَجَبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ اتِّبَاعُهُ وَالْإِنْقِيَادَ لَهُ ، فَأَصْحَابُهُ وَأَهْلُ دِينِهِ هُمُ النَّصَارَى ، وَسُمُّوا بِذَلِكَ لِتَنَاصُرِهِمْ فِيهَا بَيْنَهُمْ ، وَقَدْ يُقَالُ : هُمْ أَنْصَارٌ أَيْضًا كَمَا قَالَ عِيسَى ﷺ ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ ، وَقِيلَ : إِنَّهُمْ سُمُّوا بِذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ نَزَلُوا أَرْضًا يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ .

وَالنَّصَارَى جَمْعُ نَصْرَانَ ، كَنَشَاوَى جَمْعُ نَشَوَانٍ ، وَسَكَارَى جَمْعُ سَكَرَانٍ ، وَيُقَالُ لِلْمَرْأَةِ نَصْرَانَةٌ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

نَصْرَانَةٌ لَمْ تُحْتَفِ

فَلَمَّا بُعِثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمًا لِلنَّبِيِّينَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَجَبَ عَلَيْهِمْ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ ، وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ ، وَالْإِنْكَفَافُ عَمَّا عَنْهُ زَجَرَ ، وَهُوَ لَأَيُّ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، وَسُمِّيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ مُؤْمِنِينَ ؛ لِكَثْرَةِ إِيمَانِهِمْ وَشِدَّةِ إِيقَانِهِمْ ، وَلَائِنَّمَا يُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ الْمَاضِيَةِ وَالْغُيُوبِ الْآتِيَةِ ، وَأَمَّا الصَّابِئِينَ فَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِمْ ، فَقِيلَ : الصَّابِئُونَ قَوْمٌ بَيْنَ الْمَجُوسِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ . قَوْلٌ آخَرَ : فِي الصَّابِئِينَ إِنَّهُمْ كَالْمَجُوسِ ، فَقَالَ الْحَكَمُ : أَلَمْ أُخْبِرْكُمْ بِذَلِكَ . آخَرَ : هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ .

وَسُئِلَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ عَنِ الصَّابِئِينَ فَقَالَ : الَّذِي يَعْرِفُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَكَيْسَتْ لَهُ شَرِيعَةٌ يَعْمَلُ بِهَا ، وَلَمْ يُجِدْثْ كُفْرًا . آخَرَ : الصَّابِئُونَ أَهْلُ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ كَانُوا بِجَزِيرَةِ الْمَوْصِلِ .

وَأَظْهَرَ الْأَقْوَالَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - قَوْلُ مَنْ قَالَ : أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَيْسُوا عَلَى دِينِ الْيَهُودِ وَلَا النَّصَارَى وَلَا الْمَجُوسِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَاقُونَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ وَلَا دِينَ مُفَرَّرٌ لَهُمْ يَتَّبِعُونَهُ وَيَقْتَنُونَهُ . وَهَذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَنْبِزُونَ مَنْ أَسْلَمَ بِالصَّابِئِيِّ أَي : أَنَّهُ قَدْ خَرَجَ عَنِ سَائِرِ أَدْيَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الصَّابِئُونَ الَّذِينَ لَمْ تَبْلُغْهُمْ دَعْوَةُ نَبِيِّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ  
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ  
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا بِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمَوَاقِبِ بِالْإِيمَانِ بِهِ  
وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَاتَّبَعَ رُسُلِهِ ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَمَّا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ رَفَعَ  
الْجَبَلَ فَوْقَ رُءُوسِهِمْ لِيَقْرُوا بِمَا عَاهَدُوا عَلَيْهِ ، وَيَأْخُذُوهُ بِقُوَّةٍ وَجَزْمٍ وَامْتِنَالٍ ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا  
آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] ، فَالطُّورُ هُوَ الْجَبَلُ كَمَا  
فَسَّرَهُ فِي الْأَعْرَافِ ، وَقِيلَ : الطُّورُ مَا أَنْبَتَ مِنَ الْجِبَالِ وَمَا لَمْ يُنْبِتْ فَلَيْسَ بِطُورٍ .  
وَقَالَ الْحَسَنُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ يَعْنِي : التَّوْرَةَ ، قِيلَ : بِقُوَّةٍ :  
أَيُّ بَطَاطَةٍ ، وَقِيلَ : قُوَّةُ الْجَدِّ .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ ﴿ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ يَقُولُ : اِقْرَأُوا مَا فِي التَّوْرَةِ وَاغْمَلُوا بِهِ .  
قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى :  
ثُمَّ بَعْدَ هَذَا الْمِيثَاقِ الْمَوْكِدِ الْعَظِيمِ تَوَلَّيْتُمْ عَنْهُ وَانْتَهَيْتُمْ وَنَقَضْتُمُوهُ ﴿ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ  
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أَيُّ : بِتَوْبِيهِ عَلَيْكُمْ وَإِرْسَالِهِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ ﴿ لَكُنْتُمْ  
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ بِنَقْضِكُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ  
﴿١٤﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ مَا حَلَّ مِنَ الْبَاسِ بِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي  
عَصَتْ أَمْرَ اللَّهِ ، وَخَالَفُوا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فِيمَا أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَعْظِيمِ السَّبْتِ  
وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ إِذْ كَانَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ، فَتَحَيَّلُوا عَلَى إِصْطِيَادِ الْحَيْتَانِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ  
بِمَا وَضَعُوا لَهَا مِنَ الشُّصُوصِ وَالْحَبَائِلِ وَالْبِرْكَ قَبْلَ يَوْمِ السَّبْتِ ، فَلَمَّا جَاءَتْ يَوْمَ  
السَّبْتِ عَلَى عَادَتِهَا فِي الْكَثْرَةِ نَسِبَتْ بِتِلْكَ الْحَبَائِلِ وَالْحَيْلِ فَلَمْ تَخْلُصْ مِنْهَا يَوْمَهَا

ذَلِكَ ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ أَحْذَوْهَا بَعْدَ انْقِضَاءِ السَّبْتِ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ مَسَحَهُمُ اللَّهُ إِلَى صُورَةِ الْقِرَدَةِ وَهِيَ أَشْبَهُ نَسِيءٍ بِالْأَنْبِيَاءِ فِي الشَّكْلِ الظَّاهِرِ وَلَيْسَ بِأَنْسَانٍ حَقِيقَةً ، فَكَذَلِكَ أَعْمَالُ هَؤُلَاءِ وَحِيلَتُهُمْ لَمَّا كَانَتْ مُشَابِهَةً لِلْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ وَمُخَالَفَةً لَهُ فِي الْبَاطِنِ كَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ مَبْسُوطَةٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَسَأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرَ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَبُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٣] الْقِصَّةُ بِكَمَالِهَا . وَقَالَ السُّدِّيُّ : أَهْلُ هَذِهِ الْقَرْيَةِ هُمْ أَهْلُ أَيْلَةَ ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ ، وَسَنُورِدُ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ هُنَاكَ مَبْسُوطَةً إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَبِهِ الثَّقَّةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ ، فَجَعَلَ اللَّهُ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فَزَعَمَ أَنَّ شَبَابَ الْقَوْمِ صَارُوا قِرَدَةً ، وَأَنَّ الشَّيْخَةَ صَارُوا خَنَازِيرَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَلًا ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : الضَّمِيرُ فِي ﴿ فَجَعَلْنَاهَا ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْقِرَدَةِ ، وَقِيلَ : عَلَى الْحَيْتَانِ ، وَقِيلَ : عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَقِيلَ : عَلَى الْقَرْيَةِ حَكَاهَا ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ عَلَى الْقَرْيَةِ ، أَي : فَجَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا بِسَبَبِ اعْتِدَائِهِمْ فِي سَبْتِهِمْ ﴿ نَكَلًا ﴾ أَي : مَا عَاقَبْنَاهُمْ عُقُوبَةً فَجَعَلْنَاهَا عِبْرَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ عَنْ فِرْعَوْنَ ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾ أَي : مِنَ الْقَرْيَةِ ، يَعْنِي : جَعَلْنَاهَا بَيًّا أَحْلَلْنَا بِهَا مِنَ الْعُقُوبَةِ عِبْرَةً لِمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقَرْيَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَفْنَا الْأَيْتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٧] ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد : ٤١]

قُلْتُ : وَأَرْجَحُ الْأَقْوَالَ الْمُرَادُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا مَنْ بَحْضَرَتْهَا مِنَ الْقَرْيَةِ يَبْلُغُهُمْ خَبَرُهَا وَمَا حَلَّ بِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ ﴾ الْآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد : ٣١] الْآيَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الأنبياء : ٤٤]



فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا لِّمَن فِي زَمَانِهِمْ ، وَمَوْعِظَةً لِّمَن يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِالْخَيْرِ الْمَتَوَاتِرِ عَنْهُمْ ،  
وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

قُلْتُ : المراد بالموعظة هاهنا الزاجر . أي : جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس  
والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله ، وما تحيلوا به من الحيل فليحذر  
المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخَبُوا بَقْرَةَ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا  
هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن  
البقرة وبيان القاتل من هو بسببها ، وإحياء الله المقتول ، ونصه على من قتله منه .  
ذَكَرُ بَسْطُ الْقِصَّةِ (١)

عَنْ عبيدة السلماني قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له  
مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل  
منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال  
ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا  
موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْخَبُوا بَقْرَةَ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا  
هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم  
أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بدبحها ،  
فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها  
ذهبا ، فأخذوها فذببوها فضربوه ببعضها فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا  
- لابن أخيه - ثم مال ميتا ، فلم يعط من ماله شيئا ، فلم يورث قاتل بعد .

وتم سياقات أخر عن أبي العالية والسدي وغيرهم فيها اختلاف ، والظاهر أن  
هذه السياقات مأخوذة من كتب بني إسرائيل وهي مما يجوز نقلها ، ولكن لا تصدق

(١) بين عبيدة والقصة بن شاسع ولعله تلقى ذلك من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب كما أشار  
الحافظ ابن كثير - رحمه الله - .

وَلَا تُكذَّبُ ، فَلِهَذَا لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا وَافَقَ الْحَقَّ عِنْدَنَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ۖ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۚ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذُنُّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَعْنَتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ لِرُسُولِهِمْ ، وَهَذَا لَمَّا ضَيَّقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقْرَةٍ كَانَتْ ؛ لَوَقَعَتِ الْمَوْقِعَ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : ﴿ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ﴾ أَيُّ : مَا هَذِهِ الْبَقْرَةُ ، وَأَيُّ شَيْءٍ صِفَتُهَا .  
عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَوْ أَخَذُوا أُذُنِي بَقْرَةٍ لَأَكْتَفَوْا بِهَا ، وَلَكِنَّهُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ ﴾ أَيُّ : لَا كَبِيرَةٌ هَرِمَةٌ وَلَا صَغِيرَةٌ لَمْ يَلْحَقْهَا الْفَحْلُ ﴿ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ يَقُولُ : نِصْفٌ بَيْنَ الْكَبِيرَةِ وَالصَّغِيرَةِ ، وَهِيَ أَقْوَى مَا يَكُونُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْبَقَرِ وَأَحْسَنُ مَا تَكُونُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : مَنْ لَبَسَ نَعْلًا صَفْرَاءَ لَمْ يَزَلْ فِي سُرُورٍ مَا دَامَ لَا يَسُهَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ صَفْرَاءَ ، وَهَذَا أَكَّدَ صُفْرَتَهَا بِأَنَّهُ ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ﴿ فَاقِعٌ لَوْنُهَا ﴾ ، وَقَالَ : صَافِيَةُ اللَّوْنِ .

قَوْلُ آخَرَ : صَافٍ ، نَالِثٌ : شَدِيدَةُ الصُّفْرِ تَكَادُ مِنْ صُفْرَتِهَا تَبْيَضُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ أَيُّ : لِكثْرَتِهَا فَمَيِّزَ لَنَا هَذِهِ الْبَقْرَةَ وَصِفَتُهَا

وَحَلَّهَا لَنَا ﴿ وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِذَا بَيَّنَّتْهَا لَنَا ﴿ لَمُهْتَدُونَ ﴾ إِلَيْهَا .  
 ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ ﴾ أَي : إِنَّهَا  
 لَيْسَتْ مُدَلَّلَةً بِالْحِرَاثَةِ ، وَلَا مُعَدَّةً لِلسَّقْيِ فِي السَّاقِيَّةِ ، بَلْ هِيَ مُكْرَمَةٌ حَسَنَةٌ صَبِيحَةٌ  
 مُسَلَّمَةٌ صَحِيحَةٌ لَا عَيْبَ بِهَا ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾ : لَا عَيْبَ فِيهَا . ﴿ لَا شَيْءَ ﴾ لَا بِيَاضَ وَلَا  
 سَوَادَ ، وَقِيلَ : لَوْنُهَا وَاحِدٌ بَهِيمٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالُوا الْفَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ الْآنَ بَيَّنَّتْ لَنَا ﴿ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا  
 يَفْعَلُونَ ﴾ كَادُوا أَنْ لَا يَفْعَلُوا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا ، لِأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ لَا  
 يَذْبَحُوهَا ، يَعْنِي : أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذِهِ الْأَسْئَلَةُ وَالْأُجُوبَةُ وَالْإِيضَاحُ مَا  
 ذَبْحُوهَا إِلَّا بَعْدَ الْجُهْدِ ، وَفِي هَذَا ذَمٌّ لَهُمْ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَرَضُهُمْ إِلَّا التَّعَنُّتُ ،  
 فَلِهَذَا مَا كَادُوا يَذْبَحُوهَا .

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فُكَلْنَا أَضْرِبُوهُ  
 بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾

﴿ فَادَّارْتُمْ فِيهَا ﴾ اِخْتَلَفْتُمْ . آخِرُ : اِخْتَصَمْتُمْ فِيهَا ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ فِيهَا ﴾  
 قَالَ بَعْضُهُمْ : أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ . وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ أَنْتُمْ قَتَلْتُمُوهُ ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ  
 تَكْتُمُونَ ﴾ مَا تُعْبِئُونَ ﴿ فُكَلْنَا أَضْرِبُوهُ بَعْضَهَا ﴾ هَذَا الْبَعْضُ أَي شَيْءٌ كَانَ مِنْ  
 أَعْضَاءِ هَذِهِ الْبَقْرَةِ ، فَالْمُعْجِزَةُ حَاصِلَةٌ بِهِ وَخَرَقَ الْعَادَةَ بِهِ كَائِنٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ﴾ أَي : فَضْرِبُوهُ فَحَيَّ وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى  
 قُدْرَتِهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَمْرِ الْقَتِيلِ ، جَعَلَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ الصَّنِيعَ  
 حُجَّةً لَهُمْ عَلَى الْمَعَادِ ، وَفَاصِلًا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْخُصُومَةِ وَالْعِنَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ  
 ذَكَرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِمَّا خَلَقَهُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى فِي حَمْسَةِ مَوَاضِعَ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ  
 بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ، وَقِصَّةُ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ  
 الْمَوْتِ ، وَقِصَّةُ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَقِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
 وَالطُّيُورِ الْأَرْبَعَةِ ، وَنَبَّهَ تَعَالَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا عَلَى إِعَادَةِ الْأَجْسَامِ بَعْدَ  
 صَيْرُورَتِهَا رَمِيًا .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ  
الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ  
وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى تَوْبِيحًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَقْرِيبًا لَهُمْ عَلَى مَا شَاهَدُوهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى  
وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ كَلَّمَهُ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ  
أَبَدًا ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ فَصَارَتْ قُلُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ طُولِ الْأَمَدِ  
قَاسِيَةً بَعِيدَةً عَنِ الْمَوْعِظَةِ ، بَعْدَ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ ، فَهِيَ فِي قَسْوَتِهَا  
كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا عِلَاجَ لَلِئِنِّهَا أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، فَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ مَا  
يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْعُيُونُ بِالْأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، وَمِنْهَا مَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ  
جَارِيًا ، وَمِنْهَا مَا يَهْبِطُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَفِيهِ إِذْرَاكٌ لِدَلِّكَ بِحَسْبِهِ ،  
كَمَا قَالَ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ  
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وَقَدْ  
زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْمَجَازِ وَهُوَ إِسْنَادُ الْخُشُوعِ إِلَى الْحِجَارَةِ مِثْلُ مَا أُسْنَدَتْ  
الْإِرَادَةُ إِلَى الْجِدَارِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ .

قَالَ الرَّازِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَثَمَةِ : وَلَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى  
يَخْلُقُ فِيهَا هَذِهِ الصِّفَةَ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ  
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وَقَالَ : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾  
﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ ﴾ الْآيَةُ ، وَفِي الصَّحِيحِ « هَذَا  
جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ » (١) ، وَكَحَيْنِ الْجَذَعِ الْمُتَوَاتِرِ خَبْرُهُ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « إِنِّي  
لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ » (٢) ، وَفِي صِفَةِ

(١) البخاري (حديث ٥٤٢٥) ، ومسلم (حديث ١٣٦٥) .

(٢) مسلم (حديث ٢٢٧٧) .

الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِمَنْ اسْتَلَمَ بِحَقِّ يَوْمِ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup> وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا فِي مَعْنَاهُ ،  
وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ قَوْلًا إِنَّمَا لِلتَّخْيِيرِ ، أَي مَثَلًا لِهَذَا وَهَذَا ، وَهَذَا مِثْلُ : جَالِسِ  
الْحَسَنِ أَوْ ابْنِ سِيرِينَ .

وَكَذَا حَكَاهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَزَادَ قَوْلًا آخَرَ أَنَّمَا لِلإِبْهَامِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُخَاطَبِ ،  
كَقَوْلِ الْقَائِلِ : أَكَلْتُ خُبْزًا أَوْ تَمْرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَيُّهُمَا أَكَلَ .

(( نَبِيَّةٌ )) اِخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ  
قَسْوَةً ﴾ بَعْدَ الإِجْمَاعِ عَلَى اسْتِحَالَةِ كَوْنِهَا لِلشَّكِّ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ (( أَوْ )) هَاهُنَا بِمَعْنَى  
الْوَاوِ تَقْدِيرُهُ : فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ وَأَشَدُّ قَسْوَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْهُمُ إِثْمًا أَوْ  
كُفْرًا ﴾ ﴿ عَذْرًا أَوْ تَنْدَرًا ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : (( أَوْ )) هَاهُنَا بِمَعْنَى (( بَل )) فَتَقْدِيرُهُ : فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ بَلْ أَشَدُّ قَسْوَةً  
وَكَقَوْلِهِ : ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ تَحَشَّوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء : ٧٧]  
﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصفات : ١٤٧] ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾  
[النجم : ٩] ، وَقَالَ آخَرُونَ : مَعْنَى ذَلِكَ ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ عِنْدَكُمْ .

وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الإِبْهَامِ عَلَى الْمُخَاطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ :  
أَحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاسًا وَحَمْرَةَ وَالْوَصِيَّا  
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشْدًا أُصِبُهُ وَلَيْسَ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيَا  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَعْنَى ذَلِكَ فَفَلُوبُكُمْ لَا تَخْرُجُ عَنْ أَحَدِ هَذَيْنِ المِثْلَيْنِ ، إِمَّا أَنْ  
تَكُونَ مِثْلَ الْحِجَارَةِ فِي الْقَسْوَةِ ، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَشَدَّ مِنْهَا فِي الْقَسْوَةِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَمَعْنَى ذَلِكَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ فَبَعْضُهَا كَالْحِجَارَةِ قَسْوَةً  
وَبَعْضُهَا أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ وَقَدْ رَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ مَعَ تَوْجِيهِ غَيْرِهِ .

قُلْتُ : وَهَذَا الْقَوْلُ الْأَخِيرُ يَبْقَى شَبِيهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي  
اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أخرج الترمذي (٩٦١) بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر :  
« والله ليعتثنه الله يوم القيامة له عينان يُبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق » قال  
الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

أَعْمَلْتُمْ كَسْرَابَ بِقِيَعَةٍ ﴿ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ كَظَلَمْتُمْ فِي نَحْرِ لُجِّي ﴾ الْآيَةُ . أَي : إِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ كَهَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

أَفْتَضَمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَفْتَضَمَعُونَ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾ أَي : يَنْقَادُ لَكُمْ بِالطَّاعَةِ هَؤُلَاءِ الْفِرْقَةُ الضَّالَّةُ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ شَاهَدَ آبَاؤُهُمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ مَا شَاهَدُوهُ ، ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ أَي : يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ أَي : فَهَمُّهُ عَلَى الْجَلِيلَةِ وَمَعَ هَذَا يُخَالِفُونَهُ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنْ تَحْرِيفِهِ وَتَأْوِيلِهِ وَهَذَا الْمَقَامُ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ ، ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ هِيَ التَّوْرَةُ حَرَّفُوهَا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ﴾ أَي : مُبَلِّغًا إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : هُمْ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الَّذِينَ يُحَرِّفُونَهُ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَهُ : هُمُ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : التَّوْرَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ يُحَرِّفُونَهَا ، يَجْعَلُونَ الْحَلَالَ فِيهَا حَرَامًا ، وَالْحَرَامَ فِيهَا حَلَالًا ، وَالْحَقَّ فِيهَا بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ فِيهَا حَقًّا ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ كِتَابَ اللَّهِ ، وَإِذَا جَاءَهُمُ الْمُبْطِلُ بِرِشْوَةٍ أَخْرَجُوا لَهُ ذَلِكَ الْكِتَابَ ، فَهُوَ فِيهِ مُحِقٌّ ، وَإِذَا

جَاءَهُمْ أَحَدٌ يَسْأَلُهُمْ شَيْئًا لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ وَلَا رِشْوَةٌ وَلَا شَيْءٌ أَمْرُوهُ بِالْحَقِّ فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾  
الآية : يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا إِذَا لَقُوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ قَالُوا ءَامَنَّا .

وَكَانُوا يَقُولُونَ إِذَا دَخَلُوا الْمَدِينَةَ : نَحْنُ مُسْلِمُونَ لِيَعْلَمُوا خَبَرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَمْرَهُ . فَإِذَا رَجَعُوا رَجَعُوا إِلَى الْكُفْرِ ، فَلَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ قَطَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يَدْخُلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُخْدِثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : يَعْنِي : بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نِعَتِ مُحَمَّدٍ ﷺ .

قَوْلٌ آخَرٌ فِي الْمُرَادِ بِالْفَتْحِ : قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أُخْدِثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنْ الْعَذَابِ ﴿ لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ هُوَ لِأَنَّ نَاسًا مِنَ الْيَهُودِ ، ءَامَنُوا ثُمَّ نَافَقُوا فَكَانُوا يُخْدِثُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَرَبِ بِمَا عَذَّبُوا بِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿ أُخْدِثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ مِنَ الْعَذَابِ لِيَقُولُوا نَحْنُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْكُمْ وَأَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْكُمْ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : يَعْنِي مَا أَسْرَوْا مِنْ كُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَتَكْذِيبِهِمْ بِهِ ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿ ٧٨ ﴾ فَوَيْلٌ  
لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ  
ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿ ٧٩ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ ﴾ أَي : وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالْأُمِّيُونَ : جَمْعُ أُمِّي وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أَي : لَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ . وَهَذَا فِي صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ : أَنَّهُ الْأُمِّيُّ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ

قَبْلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَلَا خَطُّهُ بِبِمِيزِكَ إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْتُلُونَ ﴿ [ العنكبوت : ٤٨ ] ،  
 وَقَالَ ﷺ : « إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا »<sup>(١)</sup>  
 الْحَدِيثُ أَيُّ : لَا نَفْتَقِرُ فِي عِبَادَتِنَا وَمَوَاقِيتِهَا إِلَى كِتَابٍ وَلَا حِسَابٍ ، وَقَالَ تَبَارَكَ  
 وَتَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [ الجمعة : ٢ ] ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ :  
 نَسَبَتِ الْعَرَبُ مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَحُطُّ مِنَ الرِّجَالِ إِلَى أُمَّةٍ فِي جَهْلِهِ بِالْكِتَابِ دُونَ  
 أَبِيهِ . ﴿ إِلَّا أَمَانِي ﴾ : إِلَّا أَحَادِيثَ ، وَقِيلَ : إِلَّا قَوْلًا يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا ﴿ وَمِنْهُمْ  
 أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾ : أَنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنَ  
 الْكِتَابِ شَيْئًا ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ بِالظَّنِّ بِغَيْرِ مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ مِنَ  
 الْكِتَابِ أَمَانِي يَتَمَنَّوْنَهَا ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ : يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَيْسَ  
 لَهُمْ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : تَمَنَّوْا فَقَالُوا نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
 وَلَيْسُوا مِنْهُمْ .

وَقِيلَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا أَمَانِي ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ أَيْضًا أَيُّ : إِلَّا تِلَاوَةً ، فَعَلَى  
 هَذَا يَكُونُ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعًا وَاسْتِشْهَادًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ﴾ أَيُّ :  
 تَلَا ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ ﴾ الْآيَةَ ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ : يَكْذِبُونَ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ  
 اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الْآيَةَ . هُوَ لَاءٌ صِنْفٌ آخَرٌ مِنَ الْيَهُودِ وَهُمْ الدُّعَاءُ إِلَى  
 الضَّلَالِ بِالزُّورِ وَالْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ وَأَكَلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَالْوَيْلُ وَالْهَلَاكُ  
 وَالذَّمَارُ . وَهُمْ أَحْبَابُ الْيَهُودِ . قَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ نَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ كَتَبُوا كِتَابًا مِنْ  
 عِنْدِهِمْ يَبِيعُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ وَيَحْدِثُونَهُمْ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَأْخُذُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَعَنْ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ وَكِتَابُ  
 اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ أَحَدَثُ أَحْبَابِ اللَّهِ تَقْرَؤُهُ غَضًا لَمْ يُشَبَّ ؟ وَقَدْ حَدَّثَكُمْ اللَّهُ  
 تَعَالَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ وَغَيَّرُوهُ ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الْكِتَابَ ،  
 وَقَالُوا : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ

(١) البخاري : حديث رقم (١٩١٣) ، ومسلم حديث رقم (١٠٨٠) .



مُسَاءَلَتِهِمْ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا قَطُّ سَأَلَكُمُ عَنِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ<sup>(١)</sup> .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ أَي :  
 فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْإِفْتِرَاءِ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا أَكَلُوا بِهِ مِنَ  
 السُّحْتِ ، ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ ﴾ يَقُولُ : فَالْعَذَابُ عَلَيْهِمْ مِنَ الَّذِي كَتَبُوا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ  
 الْكُذْبِ ﴿ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ يَقُولُ : مِمَّا يَأْكُلُونَ بِهِ النَّاسُ السَّفَلَةَ وَغَيْرُهُمْ .

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا  
 فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْيَهُودِ فِيمَا نَقَلُوهُ وَادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أَنَّهُمْ لَنْ تَمَسَّهُمُ  
 النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْجُونَ مِنْهَا فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ  
 أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ أَي : بِذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدٌ ، فَهُوَ لَا يُخْلَفُ عَهْدُهُ ،  
 وَلَكِنْ هَذَا مَا جَرَى وَلَا كَانَ ، وَهَذَا أَتَى بِـ « أَمْ » الَّتِي بِمَعْنَى « بَلْ » تَقُولُونَ عَلَى  
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْإِفْتِرَاءِ عَلَيْهِ .

رُويَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : زَعَمَتِ الْيَهُودُ أَنَّهُمْ وَجَدُوا فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبًا إِنْ مَا  
 بَيْنَ طَرَفَيْ جَهَنَّمَ مَسِيرَةٌ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، إِلَى أَنْ يَنْتَهُوا إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُّومِ الَّتِي هِيَ ثَابِتَةٌ  
 فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، وَقَالَ أَعْدَاءُ اللَّهِ : إِنَّمَا نُعَذَّبُ حَتَّى نَنْتَهِيَ إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُّومِ فَتَذْهَبُ  
 جَهَنَّمَ وَتَهْلِكُ . فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ .

وَذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ مَرْدَوَيْهِ<sup>(٢)</sup> - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : لَمَّا  
 فَتَحَتْ خَيْبَرَ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اِجْمَعُوا إِلَيَّ  
 مَنْ كَانَ مِنَ الْيَهُودِ هَاهُنَا » فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَبوكُمْ ؟ » قَالُوا : فُلَانٌ ،  
 قَالَ : « كَذَبْتُمْ بَلْ أَبوكُمْ فُلَانٌ » فَقَالُوا : صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : « هَلْ  
 أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْهُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ  
 عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَهْلُ النَّارِ ؟ » فَقَالُوا

(١) أخرجه البخاري بلفظ قريب (٢٦٨٥) .

(٢) انظر رواية البخاري فهي أسلم سندًا وأضبط متنا (البخاري حديث ٣١٦٩) .

نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ نَخْلُقُونَ فِيهَا فَمَّا كُنْتُمْ خَلْفُنَا فَحَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اِحْسَبُوا وَاللَّهِ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا » ثُمَّ قَالَ هُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتَكُمْ عَنْهُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ . قَالَ : « هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سَمًّا ؟ » فَقَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « فَمَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ » فَقَالُوا : أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ نَسْتَرِيحَ مِنْكَ ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ .

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَمَنِّيْتُمْ وَلَا كَمَا تَشْتَهُونَ ، بَلِ الْأَمْرُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ - وَهُوَ مَنْ وَافَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، بَلِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ سَيِّئَاتٌ - فَهَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَي : آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الْعَمَلِ الْمُوَافِقِ لِلشَّرِيعَةِ ، فَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ ﴾ أَحَاطَ بِهِ شِرْكُهُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦٣﴾

يُذَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَأَخَذَهُ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَعْرَضُوا قَصْدًا وَعَمْدًا ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذَكِّرُونَهُ فَأَمَرَهُمْ تَعَالَىٰ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِهَذَا أَمَرَ جَمِيعَ خَلْقِهِ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [ الأنبياء : ٢٥ ] ، وَهَذَا هُوَ أَعْلَى الْحَقُّوقِ وَأَعْظَمُهَا ، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، ثُمَّ بَعْدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ ، وَآكَدُهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ وَهَذَا يَقْرُنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ حَقِّهِ وَحَقِّ

الْوَالِدَيْنِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ [لقمان: ١٤]، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَفَيْهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup> جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبْرُ؟ قَالَ: «أُمَّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمَّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبَاكَ؟ ثُمَّ أَدْنَاكَ ثُمَّ أَدْنَاكَ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ قَالَ الزَّخَّشِيُّ: خَبَرْتُ بِمَعْنَى الطَّلَبِ وَهُوَ آكِدٌ. قَالَ: ﴿وَالْيَتَمَى﴾، وَهُمْ الصَّغَارُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَبَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، وَسَيَاتِي الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ عِنْدَ آيَةِ النِّسَاءِ الَّتِي أَمَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى بِهَا صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الْآيَةُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أَيُّ: كَلَّمُوهُمْ طَيِّبًا وَلَيِّنُوا لَهُمْ جَانِبًا، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِالْمَعْرُوفِ، كَمَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، فَالْحَسَنُ مِنَ الْقَوْلِ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَحْلُمُ، وَيَعْفُو، وَيَصْفَحُ، وَيَقُولُ لِلنَّاسِ حُسْنًا كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَهُوَ كُلُّ خُلُقٍ حَسَنٍ رَضِيَهُ اللَّهُ. عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَالْتَقِ أَحَاكَ بِوَجْهِ مُنْطَلِقٍ»<sup>(٣)</sup>. وَنَاسَبَ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا بَعْدَ مَا أَمَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِالْفِعْلِ، فَجَمَعَ بَيْنَ طَرَفِي الْإِحْسَانِ الْفِعْلِيِّ وَالْقَوْلِيِّ ثُمَّ أَكَّدَ الْأَمْرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ بِالْمُتَعَيَّنِّ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ فَقَالَ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلَّهُ، أَيُّ: تَرَكَوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ عَلَى

(١) صحيح: أخرجه البخاري مع الفتح (٤٠٠/١٠)، ومسلم (٨٥).

(٢) صحيح لشواهده: وقد أخرجه بنحوه أبو داود (٥١٣٩) والترمذي (١٨٩٧)، وانظر البخاري (مع

الفتح ٤٠١/١٠)، ومسلم (مع النووي ٤١٠/٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم بنحوه (حديث ٢٦٢٦) أما الإمام أحمد - رحمه الله - فقد أخرجه أيضًا في

مسنده (١٧٣/٥).

عَمْدٍ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِنَظِيرِ ذَلِكَ فِي سُورَةِ  
النِّسَاءِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي  
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ  
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا فُجُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] ،  
فَقَامَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا لَمْ تَقُمْ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ  
ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ  
وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن  
يَأْتَوْكُمْ أُسْرَىٰ تَقْدُوهُمْ وَهُوَ حَرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْوَؤْمُونَ بِبَعْضِ  
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا  
خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ  
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا  
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٣﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُنْكَرًا عَلَىٰ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
بِالْمَدِينَةِ ، وَمَا كَانُوا يُعَانُونَهُ مِنَ الْقِتَالِ مَعَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَوْسَ  
وَالخَزْرَجَ - وَهُمْ الْأَنْصَارُ - كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَبَادَ أَصْنَامٍ ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ  
كَثِيرَةٌ ، وَكَانَتْ يَهُودُ الْمَدِينَةِ ثَلَاثَ قَبَائِلَ : بَنُو قَيْنِقَاعَ ، وَبَنُو النَّضِيرِ حُلَفَاءُ الخَزْرَجِ ،  
وَبَنُو قُرَيْظَةَ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ فَكَانَتْ الْحَرْبُ إِذَا نَشِبَتْ بَيْنَهُمْ قَاتِلَ كُلِّ فَرِيقٍ مَعَ  
حُلَفَائِهِ فَيَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ أَعْدَاءَهُ وَقَدْ يَقْتُلُ الْيَهُودِيَّ الْآخَرَ مِنَ الْفَرِيقِ الْآخَرَ ،  
وَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَنَصَّ كِتَابِهِمْ وَيَخْرُجُونَهُمْ مِنْ بُيُوتِهِمْ ، وَيَسْتَهْبُونَ مَا  
فِيهَا مِنَ الْأَثَاثِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالْأَمْوَالِ ، ثُمَّ إِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا اسْتَفَكُوا  
الْأَسَارَىٰ مِنَ الْفَرِيقِ الْمَغْلُوبِ عَمَلًا بِحُكْمِ التَّوْرَةِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ أَفْوَؤْمُونَ  
بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا

تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرَجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ﴿١٠١﴾ أَي : لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ، وَلَا يُظَاهِرُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ ﴾ وَذَٰلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْمِلَّةِ الْوَاحِدَةِ بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ ، وَتَرَاحِمِهِمْ ، وَتَوَاصُلِهِمْ ، بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهَرِ » (١٠١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أَي : ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ بِمَعْرِفَةِ هَذَا الْمِيثَاقِ وَصِحَّتِهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُولَاءٍ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُولَاءٍ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرَجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ ﴾ قَالَ : أَنْبَأَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَقَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَافْتِرَاصَ عَلَيْهِمْ فِيهَا فِدَاءَ أَسْرَاهُمْ ، فَكَانُوا فَرِيقَيْنِ : طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بَنُو قَيْنُقَاعَ وَهُمْ خُلَفَاءُ الْخَزْرَجِ وَالنَّضِيرِ ، وَقَرِيبَةُ وَهُمْ حُلَفَاءُ الْأَوْسِ ، فَكَانُوا إِذَا كَانَتْ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ حَرْبٌ خَرَجَتْ بَنُو قَيْنُقَاعَ مَعَ الْخَزْرَجِ وَخَرَجَتْ النَّضِيرُ وَقَرِيبَةُ مَعَ الْأَوْسِ يُظَاهِرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حُلَفَاءَهُ عَلَىٰ إِخْوَانِهِ حَتَّىٰ تَسَافِكُوا دِمَاءَهُمْ بَيْنَهُمْ وَبِأَيْدِيهِمُ التَّوْرَةُ يَعْرِفُونَ فِيهَا مَا عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ ، وَالْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ أَهْلُ شُرْكَ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ جَنَّةَ وَلَا نَارًا ، وَلَا بَعْنًا وَلَا قِيَامَةً ، وَلَا كِتَابًا ، وَلَا حَلَالًا وَلَا حَرَامًا ، فَإِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، افْتَدُوا أَسْرَاهُمْ تَصَدِيقًا لِمَا فِي التَّوْرَةِ وَأَخَذًا بِهِ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَفْتَدِي بَنُو قَيْنُقَاعَ مَا كَانَ مِنْ أَسْرَاهُمْ فِي أَيْدِي الْأَوْسِ ، وَيَفْتَدِي النَّضِيرُ وَقَرِيبَةُ مَا كَانَ فِي أَيْدِي الْخَزْرَجِ مِنْهُمْ ، وَيَطْلُبُونَ مَا أَصَابُوا مِنْ دِمَائِهِمْ ، وَقَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنْهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُظَاهَرَةً لِأَهْلِ الشُّرْكِ عَلَيْهِمْ يَقُولُ اللَّهُ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - حَيْثُ أَنْبَأَهُمْ بِذَلِكَ ﴿ أَفْتَوُمُونَ بِبَعْضِ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ أَي : تَقَادُوهُمْ بِحُكْمِ التَّوْرَةِ وَتَقْتُلُوهُمْ ، وَفِي

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٠١١)، ومسلم (حديث ٢٥٨٦) لكن عندهما «تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم...» .

حُكْمِ التَّوْرَةِ أَنْ لَا يُقْتَلَ وَلَا يُجْرَجَ مِنْ دَارِهِ ، وَلَا يُظَاهَرَ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُ الْأَوْثَانَ مِنْ دُونِهِ إِنْغَاءَ عَرْضِ الدُّنْيَا ؟ فَفِي ذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ مَعَ الْأَوْسِ وَالْحَزْرَجِ فِيمَا بَلَغَنِي نَزَلَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ .

وَالَّذِي أُرْشِدَتْ إِلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهَذَا السِّيَاقُ ذَمُّ الْيَهُودِ فِي قِيَامِهِمْ بِأَمْرِ التَّوْرَةِ الَّتِي يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهَا وَمُخَالَفَةَ شَرْعِهَا مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِذَلِكَ ، وَشَهَادَتِهِمْ لَهُ بِالصَّحَّةِ ، فَلِهَذَا لَا يُؤْتَمُونَ عَلَى مَا فِيهَا وَلَا عَلَى نَقْلِهَا وَلَا يُصَدِّقُونَ فِيمَا كَتَمُوهُ مِنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَعْتِهِ وَمَبْعَتِهِ وَمُخْرَجِهِ وَمُهَاجِرِهِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِهِ الَّتِي أُخْبِرَتْ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْيَهُودُ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - يَتَكَاثَمُونَهُ بَيْنَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَي : بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ شَرْعَ اللَّهِ وَأَمْرِهِ ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ جَزَاءً عَلَى مُخَالَفَتِهِمْ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ ، وَمَا اللَّهُ بِعَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ ، وَاخْتَارُوهَا ﴿ فَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ أَي : لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أَي : وَلَيْسَ لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، مِنَ الْعَذَابِ الدَّائِمِ السَّرْمَدِيِّ وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْهُ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴿٤٤﴾

يُنْعَتُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْعُتُوِّ وَالْعِنَادِ وَالْمُخَالَفَةِ وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَتَمُّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ، فَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ آتَى مُوسَى الْكِتَابَ وَهُوَ التَّوْرَةُ ، فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا وَخَالَفُوهَا وَأَمَرَهَا وَأَوْلُوهَا ، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ، الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ نَحْكُمُ بِهَا النَّبِيِّينَ الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولِينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً ﴾ [ المائدة : ٤٤ ] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَقَفَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ أَي : أَتْبَعْنَا ، وَأَزْدَفْنَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا ﴾ حَتَّى خَتَمَ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ ، وَهَذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْمُعْجَزَاتِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَإِبْرَاءِ الْأَسْقَامِ ، وَإِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ ، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عليه السلام مَا يَدُهُمْ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، فَاسْتَدَّتْ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ ، وَحَسَدُهُمْ وَعِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَةِ فِي الْبَعْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ عِيسَى : ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : ٥٠]

فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الْأَنْبِيَاءَ أَسْوَأَ الْمَعَامَلَةِ ، فَفَرِيقًا يُكْذِبُونَهُ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمْ بِالْأُمُورِ الْمُخَالَفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَأَرَائِهِمْ ، وَبِالْإِلْزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا فَهَذَا كَانَ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فَكْذَبُوهُمْ وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ : فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِحَسَّانَ وَهُوَ يُنْشِدُ الشُّعْرَ فِي الْمَسْجِدِ فَلَحَظَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَنْشِدُ فِيهِ ، وَفِيهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ : أَنْشِدْكَ اللَّهُ أَسْمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « أَجِبْ عَنِّي ، اللَّهُمَّ أَيِّدُهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ » فَقَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ، وَفِي بَعْضِ الرَّوَايَاتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِحَسَّانَ : « أَهْجَهُمْ - أَوْ هَا جِهِمْ - وَجِبْرِيلُ مَعَكَ » .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوَّلَى التَّأْوِيلَاتِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : الرُّوحُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ جِبْرِائِيلُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ أَيَّدَ عِيسَى بِهِ ، كَمَا أَخْبَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ

(١) أخرجه مسلم ( حديث ٢٤٨٥ ) ، وانظر البخاري أيضًا ( حديث ٣٢١٢ ) وفي غير موطن من الصحيحين كذلك .

الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ  
وَالْإِنْجِيلَ ﴿ [ المائدة : ١١٠ ] الآية . فَذَكَرَ أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ فَلَوْ كَانَ الرُّوحَ الَّذِي أَيَّدَهُ بِهِ هُوَ  
الْإِنْجِيلُ ؛ لَكَانَ قَوْلُهُ : ﴿ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ تَكْرِيرٌ قَوْلٍ لَا  
مَعْنَى لَهُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعَزُّ وَأَجَلُّ أَنْ يُحَاطَبَ عِبَادَهُ بِمَا لَا يُفِيدُهُمْ بِهِ .

قُلْتُ : وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ جِبْرَائِيلُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَوَّلِ السِّيَاقِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ ، وَقَالَ  
الزَّخَّشَرِيُّ : ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ بِالرُّوحِ الْمُقَدَّسَةِ كَمَا تَقُولُ : حَاتِمُ الْجُودِ ، وَرَجُلٌ  
صِدْقٍ . وَقَالَ الزَّخَّشَرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ إِنَّمَا لَمْ  
يَقُلْ وَفَرِيقًا قَتَلْتُمْ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ وَصْفَهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّهُمْ حَاوَلُوا قَتْلَ  
النَّبِيِّ ﷺ بِالسَّمِّ وَالسَّحْرِ ، وَقَدْ قَالَ ﷺ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ : « مَا زَالَتْ أَكَلَةُ خَيْبَرَ  
تُعَاوِدُنِي ، فَهَذَا أَوَانُ انْقِطَاعِ أُبْهَرِي » (١) .

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ أَي : فِي أَكِنَّةٍ ، وَقِيلَ : أَي : لَا تَفْقَهُ .

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : غُلْفٌ بِضَمِّ اللَّامِ وَهُوَ جَمْعُ غَلَاظٍ أَي : قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِكُلِّ  
عِلْمٍ فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِكَ ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَي : طَرَدَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ  
كُلِّ خَيْرٍ ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ .  
وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَقَلِيلٌ مَنْ  
يُؤْمِنُ مِنْهُمْ .

وَقِيلَ : فَقَلِيلٌ إِيْمَانُهُمْ ، بِمَعْنَى : أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ  
وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَلَكِنَّهُ إِيمَانٌ لَا يَنْفَعُهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مَغْمُورٌ بِمَا كَفَرُوا بِهِ مِنَ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ

(١) أخرج البخاري نحوه معلقًا (حديث ٤٤٢٨) ، وفيه أن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ  
يقول في مرضه الذي مات فيه : « يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر ، فهذا أوان وجدت  
انقطاع أبهري من ذلك السم » ، وأشار الحافظ ابن حجر هناك إلى أنه روي مرسلًا ، وكذا فقد أشار إلى  
شواهد هناك .



مُحَمَّدٌ ﷺ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِشَيْءٍ ، وَإِنَّمَا قَالَ : فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ، وَهُمْ بِالْجَمِيعِ كَافِرُونَ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : قَلَّمَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا قَطُّ .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ يَعْنِي الْيَهُودُ ﴿ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يَعْنِي مِنَ التَّوْرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : وَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ مَجِيءِ هَذَا الرَّسُولِ بِهَذَا الْكِتَابِ يَسْتَنْصِرُونَ بِمَجِيئِهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، إِذَا قَاتَلُوهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّهُ سَيَعِثُ نَبِيٌّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، تَقْتُلُكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرَمٍ . يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦٢﴾

قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يَقُولُ : بَاعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ يَقُولُ : بِئْسَمَا اعْتَاضُوا لِأَنْفُسِهِمْ فَرَضُوا بِهِ ، وَعَدَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ عَنْ تَصَدِيقِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَنُصْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالْكَرَاهِيَّةِ ﴿ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وَلَا حَسَدَ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا .

قُلْتُ : وَمَعْنَى ﴿ فَبَاءُوا ﴾ أَي : اسْتَوْجَبُوا ، وَاسْتَحَقُّوا ، وَاسْتَفْرَّوْا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِالْإِنْجِيلِ وَعِيسَى ، ثُمَّ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَبِالْقُرْآنِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ ، وَلَمَّا كَانَ كُفْرُهُمْ سَبَبَهُ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ ، وَمَنْشَأُ ذَلِكَ التَّكَبُّرُ ، قُوبِلُوا بِالْإِهَانَةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ أَي : صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ رَاغِمِينَ . وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ ، يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولَس ، تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ ، يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ عُصَاةَ أَهْلِ النَّارِ » (١).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أَي : لِلْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَدَّقُوهُ وَاتَّبِعُوهُ ﴿ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ﴾ أَي : يَكْفِينَا الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وَلَا نَقْرَأُ إِلَّا بِذَلِكَ ﴾ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ يُعْنَى : بِمَا يَعْدُوهُ ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ أَي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ مَنْصُوبًا عَلَى الْحَالِ أَي : فِي حَالِ تَصَدِيقِهِ لِمَا مَعَهُمْ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ ، فَلِمَ قَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ جَاءُوكُمْ بِتَصَدِيقِ التَّوْرَةِ الَّتِي بَأْيَدِيكُمْ ، وَالْحُكْمَ بِهَا وَعَدَمَ نَسْخِهَا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صِدْقَهُمْ ؟ قَتَلْتُمُوهُمْ بَغْيًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا عَلَى رُسُلِ اللَّهِ ، فَلَسْتُمْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَجْرَدَ الْأَهْوَاءِ وَالْآرَاءِ وَالتَّشَهِّيِّ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧]

(١) إسناده حسن : أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) بسند حسن ، وقد أشار بعض العلماء إلى إعلاله .

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ جَرِيرٍ : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِيَهُودِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا قُلْتَ لَهُمْ : آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، قَالُوا : نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا - لِمَ تَقْتُلُونَ - إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ - أَنْبِيَاءَ اللَّهِ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ قَتْلَهُمْ ، بَلْ أَمَرَكُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَتَصَدِيقِهِمْ ، وَذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَكْذِيبٌ لَهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا ، وَتَعْيِيرٌ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَالآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ هِيَ : الطُّوفَانُ ، وَالْجُرَادُ ، وَالْقَمَلُ وَالضَّفَادِعُ ، وَالِدَّمُ ، وَالْعَصَا ، وَالْيَدُ ، وَفَرَقُ الْبَحْرِ ، وَتَظْلِيلُهُمْ بِالْغَمَامِ ، وَالْمَنْ وَالسَّلْوَى ، وَالْحَجْرُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُمْ الْعِجْلَ ﴾ أَي : مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي زَمَانِ مُوسَى وَآيَامِهِ ، وَقَوْلِهِ ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أَي : مِنْ بَعْدِ مَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَى الطُّورِ لِمُنَاجَاةِ اللَّهِ ﷻ ، ﴿ وَأَنْتُمْ ظَلِمْتُمْ ﴾ أَي : وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ فِي هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ مِنْ عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٩]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾

يُعَدُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ خَطَأَهُمْ ، وَخَالَفَتْهُمْ لِلْمِيثَاقِ ، وَعَتَوْهُمْ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنْهُ ، حَتَّى رَفَعَ الطُّورَ عَلَيْهِمْ حَتَّى قَبِلُوهُ ثُمَّ خَالَفُوهُ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ قَتَادَةَ : أَشْرَبُوا حَبَّةً حَتَّى خَلَصَ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : بِئْسَمَا تَعْتَمِدُونَهُ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، مِنْ كُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَخَالَفَتِكُمْ الْأَنْبِيَاءَ ، ثُمَّ اعْتَادِكُمْ فِي كُفْرِكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَهَذَا أَكْبَرُ ذُنُوبِكُمْ وَأَشَدُّ الْأُمُورِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ

كَفَرْتُمْ بِخَاتَمِ الرُّسُلِ وَسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الْمَبْعُوثُ إِلَى النَّاسِ أَجْمَعِينَ ،  
فَكَيْفَ تَدْعُونَ لِأَنْفُسِكُمْ الْإِيمَانَ ، وَقَدْ فَعَلْتُمْ هَذِهِ الْأَفَاعِيلَ الْفَاسِقَةَ ، مِنْ نَفْضِكُمْ  
الْمَوَاقِيقَ وَكُفْرِكُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَعِبَادَتِكُمْ الْعِجْلَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ  
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ  
أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ  
وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِهِ  
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

﴿ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ﴾ : فَسَلُّوا الْمَوْتَ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَوْ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَشَرِقَ  
أَحَدُهُمْ بِرِيقِهِ . وَبَلَّغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَنَّوْا الْمَوْتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا  
مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ أَهْلًا  
وَلَا مَالًا » (١).

ثُمَّ هَذَا الَّذِي فَسَّرَ بِهِ ابْنُ عَبَّاسٍ الْآيَةَ هُوَ الْمُتَعَيْنُ ، وَهُوَ الدُّعَاءُ عَلَى أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ  
أَكْذَبُ مِنْهُنَّ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِ الْمُبَاهَلَةِ ، وَنَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ وَأَبِي  
الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ  
الْجُمُعَةِ : ﴿ قُلْ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا  
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ  
﴿٥١﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ  
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ الجمعة : ٦-٨ ] فَهَمْ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ تَعَالَى -

(١) قد أخرج البخاري أصل هذا الحديث بدون هذا المتن ، وذلك من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -  
قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : « لو  
فعل لأخذته الملائكة » . ( البخاري : ٤٩٥٨ ) هكذا رواه البخاري بهذا القدر . أما هذا المتن الذي بين  
أيدينا ، فقد أخرجه أبو يعلى الموصلي ( ٢٦٠٤ ) في السنن الكبرى ، والنسائي ( ١١٠٦١ ) ، وغيره  
معطوفاً على القدر المذكور ، والظاهر أنه موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما .

لِمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ، دُعُوا إِلَى الْمُبَاهَلَةِ وَالِدُّعَاءِ عَلَى أَكْذَابِ الطَّائِفَتَيْنِ مِنْهُمُ أَوْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا نَكَلُوا عَنْ ذَلِكَ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّهُمْ ظَالِمُونَ ، لِأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا جَازِمِينَ بِمَا هُمْ فِيهِ ، لَكَانُوا أَقْدَمُوا عَلَى ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَأَخَّرُوا عَلِمَ كَذِبُهُمْ ، وَهَذَا كَمَا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفَدَّ نَجْرَانَ مِنَ النَّصَارَى بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي الْمُنَاطَرَةِ ، وَعَتَوْهُمْ وَعِنَادِهِمْ إِلَى الْمُبَاهَلَةِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلِ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴾ [ آل عمران : ٦١ ] ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ لِبَعْضٍ : وَاللَّهِ لَئِنْ بَاهَلْتُمْ هَذَا النَّبِيَّ لَا يَبْقَى مِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرَفُ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ جَنَحُوا لِلسُّلْمِ ، وَبَدَلُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ، فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ وَبَعَثَ مَعَهُمْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ أَمِينًا .

وَأَمَّا مَنْ فَسَّرَ الْآيَةَ عَلَى مَعْنَى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴾ ﴿ أَي : فِي دَعْوَاكُمْ فَتَمَنُّوا الْآنَ الْمَوْتَ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ هُوَ لِإِثْمِ الْمُبَاهَلَةِ كَمَا قَرَّرَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَمَالَ إِلَيْهِ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَ مَا قَارَبَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ : فَإِنَّهُ قَالَ الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ ﴾ [ البقرة : ٩٤ ] فَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا احْتَجَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَ ظَهْرَانِي مَهَاجِرِهِ ، وَفَضَّحَ بِهَا أَحْبَابَهُمْ وَعُلَمَاءَهُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى قَضِيَّةٍ عَادِلَةٍ فِيمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْخِلَافِ ، كَمَا أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ الْفَرِيقَ الْآخَرَ مِنَ النَّصَارَى إِذَا خَالَفُوهُ فِي عِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام وَجَادَلُوهُ فِيهِ ، إِلَى فَاصِلَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمُبَاهَلَةِ ، فَقَالَ لِفَرِيقِ الْيَهُودِ إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ ضَارِكُمْ - إِنْ كُنْتُمْ مُحِقِّينَ فِيمَا تَدْعُونَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَقَرُبَ الْمَنْزِلَةِ مِنَ اللَّهِ لَكُمْ - لِكَيْ يُعْطِيَكُمْ أُمَّيَّتَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ إِذَا تَمَيَّيْتُمْ ، فَإِنَّمَا تَصِيرُونَ إِلَى الرَّاحَةِ مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا وَنَصَبِهَا وَكَدَرِ عَيْشِهَا ، وَالْفَوْزَ بِجَوَارِ اللَّهِ فِي جَنَاتِهِ ، إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَزْعُمُونَ ، مِنْ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَكُمْ خَالِصَةً دُونَنَا ، وَإِنْ لَمْ تُعْطَوْهَا عَلِمَ

النَّاسُ أَنْكُمْ الْمُبْطِلُونَ وَنَحْنُ الْمُحِقُّونَ فِي دَعْوَانَا ، وَانْكَشَفَ أَمْرُنَا وَأَمْرُكُمْ هُمْ ، فَامْتَنَعَ الْيَهُودُ مِنَ الْإِجَابَةِ إِلَى ذَلِكَ ، لِعِلْمِهَا أَنَّهَا إِنْ تَمَّتِ الْمَوْتُ هَلَكْتَ ، فَذَهَبَتْ ذُنْيَاهَا وَصَارَتْ إِلَى خِزْيِ الْأَبَدِ فِي آخِرَتِهَا ، كَمَا امْتَنَعَ فَرِيقُ النَّصَارَى - الَّذِينَ جَادَلُوا النَّبِيَّ فِي عِيسَى - إِذَا دُعُوا لِلْمُبَاهَلَةِ ، مِنَ الْمُبَاهَلَةِ .

فَهَذَا الْكَلَامُ مِنْهُ أَوَّلُهُ حَسَنٌ وَآخِرُهُ فِيهِ نَظْرٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا تَظْهَرُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ عَلَى هَذَا التَّوِيلِ إِذْ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِي دَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ يَتَمَنُّونَ الْمَوْتَ ، فَإِنَّهُ لَا عِلَاقَةَ بَيْنَ وُجُودِ الصَّلَاحِ وَتَمَنِّيِ الْمَوْتُ ، وَكَمْ مِنْ صَالِحٍ لَا يَتَمَنَّى الْمَوْتَ ، بَلْ يُوَدُّ أَنْ يُعَمَّرَ لِيَزِدَّادَ خَيْرًا وَتَرْتَفِعَ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ »<sup>(١)</sup> وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَقُولُوا عَلَى هَذَا : فَهَلْ أَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ - أَنَّكُمْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، وَأَنْتُمْ لَا تَتَمَنُّونَ فِي حَالِ الصَّحَّةِ الْمَوْتَ ، فَكَيْفَ تُلْزِمُونَنَا بِمَا لَا يَلْزِمُكُمْ ؟ ، فَأَمَّا عَلَى تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَلَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ قِيلَ لَهُمْ كَلَامٌ نَصَفٍ : إِنْ كُنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ، وَأَنَّكُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُؤُهُ ، وَأَنَّكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ عَدَاكُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، فَبَاهِلُوا عَلَى ذَلِكَ وَادْعُوا عَلَى الْكَاذِبِينَ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ، اِعْلَمُوا أَنَّ الْمُبَاهَلَةَ تَسْتَأْصِلُ الْكَاذِبَ لَا مُحَالَةً ، فَلَمَّا تَيَقَّنُوا ذَلِكَ وَعَرَفُوا صِدْقَهُ نَكَلُوا عَنِ الْمُبَاهَلَةِ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكِتْمَانِهِمْ الْحَقَّ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَتَحَقَّقُونَهُ فَعَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ بِاطْلَاهُمْ وَخِزْيِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ وَعِنَادَتِهِمْ - عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةُ تَمْتِيًا ؛ لِأَنَّ كُلَّ مُحَقِّ يُوَدُّ لَوْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْمُبْطِلَ الْمُنَاطِرَ لَهُ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُ فِي بَيَانِ حَقِّهِ وَظُهُورِهِ ، وَكَانَتْ الْمُبَاهَلَةُ بِالْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ عِنْدَهُمْ عَزِيزَةٌ عَظِيمَةٌ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ سُوءِ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوتِهِمْ ﴾ أَي : عَلَى طُولِ الْعُمُرِ

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٤/١٨٨ ، ١٩٠) ، وله طرق .

لِمَا يَعْلَمُونَ مَا لَهُمُ السَّيِّئُ وَعَاقِبَتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْخَاسِرَةَ ؛ لِأَنَّ « الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ » ﴿١﴾ فَهُمْ يُوَدُّونَ لَوْ تَأَخَّرُوا عَنْ مَقَامِ الْآخِرَةِ بِكُلِّ مَا أَمْكَنَهُمْ ، وَمَا يُجَادِرُونَ مِنْهُ وَاقِعٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ، حَتَّى وَهُمْ أَحْرَصُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا كِتَابَ لَهُمْ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ قَالَ : الْأَعَاجِمُ ﴿٢﴾ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ قَالَ : الْمُنَافِقُ أَحْرَصُ النَّاسِ وَأَحْرَصُ مِنَ الْمُشْرِكِ عَلَى حَيَاةٍ ﴿ يُوَدُّ أَحَدَهُمْ ﴾ أَيُّ : يُوَدُّ أَحَدَ الْيَهُودِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ نَظْمُ السِّيَاقِ .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٨﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالتَّأْوِيلِ جَمِيعًا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَجِيَّهُمْ ثُمَّ اِخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَالُوا ذَلِكَ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ : جِبْرَ ، وَمِيكَ ، وَإِسْرَافَ : عَبْدٌ . إِيْلَ : اللَّهُ . ثُمَّ سَاقَهُ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ بِمَقْدِمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي أَرْضٍ يُحْتَرَفُ فَاتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَالِدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ ؟ قَالَ « أَخْبَرَنِي بِهِذِهِ جِبْرِائِيلُ أَيْضًا » قَالَ جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » ، قَالَ : ذَلِكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ « وَأَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ : فَتَأَرْحُشُ النَّاسُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامِ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرِيزَاةٌ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٩٥٦) من حديث أبي هريرة .

(٢) صح عن ابن عباس أنه قال : هو قول الأعاجم (سال زه نوروز مهرجان حر) أخرجه الطبري (١٥٩١) ، وأخرجه الحاكم أيضًا (المستدرک ٢/٢٦٣) ، وقال هذا إسناد صحيح على شرطها ولم يخرجاه .

كَبِدِ الْحَوْتِ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَ الْوَلَدَ ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ نَزَعَتْ » قَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بَهْتٌ ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَبْهَتُونِي ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « (أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فِيكُمْ ؟ ) » قَالُوا : خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا . قَالَ : « (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ ) » قَالُوا : أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالُوا : هُوَ شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا ، وَانْتَقَصُوهُ . فَقَالَ هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ<sup>(١)</sup> .

وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْآيَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبْرَيْلَ فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَلْيُعْلَمَنَّ أَنَّهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، الَّذِي نَزَلَ بِالذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى قَلْبِكَ مِنَ اللَّهِ ، بِإِذْنِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَهُوَ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ مَلَكَئِي ، وَمَنْ عَادَى رَسُولًا فَقَدْ عَادَى جَمِيعَ الرُّسُلِ ، كَمَا أَنَّ مَنْ آمَنَ بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ، وَكَمَا أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِرَسُولٍ فَإِنَّهُ يَلْزِمُهُ الْكُفْرَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ﴾ [النساء : ١٥٠] فَحَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ الْمَحَقَّقِ إِذَا آمَنُوا بِبَعْضِ الرُّسُلِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ عَادَى جِبْرَائِيلَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ؛ لِأَنَّ جِبْرَائِيلَ لَا يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يَنْزِلُ بِأَمْرِ رَبِّهِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الْآيَةُ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢] ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ) »<sup>(٢)</sup> وَهَذَا غَضَبَ اللَّهِ لِجِبْرَائِيلَ عَلَى مَنْ عَادَاهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَتْ عَدُوًّا لِحَبْرَيْلَ فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَهُدًى وَنُذُرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيُّ : هُدًى لِقُلُوبِهِمْ وَبُشْرَى لَهُمْ بِالْحَيَّةِ ، وَكَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ﴾ [فصلت : ٤٤]

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٨٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) بلفظ «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب» .



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : مَنْ عَادَانِي وَمَلَائِكَتِي وَرُسُلِي - وَرُسُلُهُ تَشْمَلُ رُسُلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٥] ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، فَإِنَّهُمَا دَخَلَا فِي الْمَلَائِكَةِ فِي عُمُومِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ خُصَّصَا بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْتِصَارِ لِحَبْرَائِيلَ ، وَهُوَ السَّفِيرُ بَيْنَ اللَّهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَقَرَنَ مَعَهُ مِيكَائِيلَ فِي اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوُّهُمْ وَمِيكَائِيلَ وَلِيَّهُمْ ، فَأَعْلَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَادَى وَاحِدًا مِنْهُمَا فَقَدْ عَادَى الْآخَرَ ، وَعَادَى اللَّهِ أَيْضًا ، وَلِأَنَّهُ أَيْضًا يَنْزِلُ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بَعْضُ الْأَحْيَانِ ، كَمَا قَرَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِبْتِدَاءِ الْأَمْرِ ، وَلَكِنَّ جِبْرَائِيلَ أَكْثَرُ وَهِيَ وَظِيفَتُهُ ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ ، هَذَا بِالْهَدْيِ وَهَذَا بِالرِّزْقِ ، كَمَا أَنَّ إِسْرَافِيلَ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فِيهِ إِيقَاعُ الْمُظْهَرِ مَكَانَ الْمُضْمَرِ حَيْثُ لَمْ يَقُلْ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ بَلْ قَالَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :  
لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئًا  
سَبَقَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا  
وَإِنَّمَا أَظْهَرَ اللَّهُ هَذَا الْإِسْمَ هَاهُنَا ؛ لِتَقْرِيرِ هَذَا الْمَعْنَى وَإِظْهَارِهِ ، وَإِعْلَامِهِمْ أَنَّ مَنْ عَادَى وَلِيًّا لِلَّهِ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ ، وَمَنْ عَادَى اللَّهَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لَهُ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ عَدُوًّا لَهُ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، كَمَا تَقَدَّمَ الْحَدِيثُ « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْمُحَارَبَةِ » <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧٠) من طريق عكرمة بن عمار حدثنا يحيى بن أبي كثير ... بسنده لكن قد أعله الهروي - رحمه الله - في كتاب علل أحاديث في صحيح مسلم من أجل أنه من رواية عكرمة عن يحيى ، فرواية عكرمة عن يحيى متكلم فيها .

(٢) تقدم تخرجه .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١١﴾  
 أَوْ كَلَّمَا عَنْهُدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾  
 وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ  
 أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَاتَّبَعُوا  
 مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ  
 الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ  
 هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا  
 تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ  
 بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ  
 وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا  
 بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ  
 مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾  
 أَي : أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ عَلَامَاتٍ وَاضِحَاتٍ دَالَاتٍ عَلَى نُبُوتِكَ ، وَتِلْكَ الْآيَاتُ  
 هِيَ مَا حَوَاهُ كِتَابُ اللَّهِ مِنْ خَفَايَا عُلُومِ الْيَهُودِ ، وَمَكْنُونَاتِ سَرَائِرِ أَخْبَارِهِمْ ، وَأَخْبَارِ  
 أَوْلِيائِهِمْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَالنَّبَأَ عَمَّا تَضَمَّنَتْهُ كُتُبُهُمُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا إِلَّا أَخْبَارُهُمْ  
 وَعُلَمَاؤُهُمْ ، وَمَا حَرَّفَهُ أَوْلِيائُهُمْ وَأَوَاخِرُهُمْ وَبَدَّلُوهُ ، مِنْ أَحْكَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ فِي  
 التَّوْرَةِ ، فَاطَّلَعَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ الْآيَاتُ  
 الْبَيِّنَاتُ لِمَنْ أَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَمْ يَدْعُهَا إِلَى هَلَاكِهِ الْحَسَدَ وَالْبَغْيَ ، إِذْ كَانَ فِي فِطْرَةِ  
 كُلِّ ذِي فِطْرَةٍ صَحِيحَةَ تَصَدِيقٍ مَنْ أَتَى بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ،  
 الَّتِي وَصَفَ مِنْ غَيْرِ نَعْلَمُ تَعَلَّمَهُ مِنْ بَشَرٍ ، وَلَا أَخَذَ شَيْئًا مِنْهُ عَنْ آدَمِيٍّ .

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قَالَ : نَعَمْ لَيْسَ فِي  
 الْأَرْضِ عَهْدٌ يُعَاهَدُونَ عَلَيْهِ إِلَّا نَقْضُوهُ وَبَدَلُوهُ ، يُعَاهَدُونَ الْيَوْمَ وَيَنْقُضُونَ غَدًا .

قُلْتُ : فَالْقَوْمُ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِنَبَذِهِمُ الْعُهُودَ الَّتِي تَقَدَّمَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي التَّمَسُّكِ بِهَا وَالْقِيَامَ بِحَقِّهَا ، وَهَذَا أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ التَّكْذِيبَ بِالرَّسُولِ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ ، وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً الَّذِي فِي كُتُبِهِمْ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ وَأَخْبَارَهُ ، وَقَدْ أَمَرُوا فِيهَا بِاتِّبَاعِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ وَنُصْرَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَخْدُونَهُ ، مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ الآية . أَيْ : طَرَحَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بِيَدَيْهِمْ - مِمَّا فِيهِ الْبِشَارَةُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ - وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، أَيْ : تَرَكُوهَا كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا ، وَأَقْبَلُوا عَلَى تَعَلُّمِ السَّحْرِ وَاتِّبَاعِهِ ، وَهَذَا أَرَادُوا كَيْدًا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَسَحَرُوهُ فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَتْ رَعُوفَةَ بَيْتْرِ ذُرْوَانَ ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى ذَلِكَ مِنْهُمْ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ - لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَبَّحَهُ - فَأَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ وَشَفَاهُ مِنْهُ وَأَنْقَذَهُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ مَبْسُوطًا فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ نَبَذُوا عِلْمَهُمْ وَكَنَمُوهُ وَجَحَدُوا بِهِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup> قَالَ : كَانَ آصَفُ كَاتِبُ سُلَيْمَانَ ، وَكَانَ يَعْلَمُ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ ، وَكَانَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ ، وَيَدْفِنُهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانُ أَخْرَجَتْهُ الشَّيَاطِينُ فَكَتَبُوا بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ سِحْرًا وَكُفْرًا ، وَقَالُوا : هَذَا الَّذِي كَانَ سُلَيْمَانُ يَعْمَلُ بِهَا . قَالَ : فَأَكْفَرَهُ جُهَّالُ النَّاسِ وَسَبُّهُ ، وَوَقَّفَ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَزَلْ جُهَّالُ النَّاسِ يَسُبُّونَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ١٠٢]

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ<sup>(٣)</sup> : كَانَ سُلَيْمَانُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْخَلَاءَ أَوْ يَأْتِيَ شَيْئًا

(١) انظر البخاري (حديث ٥٧٦٥، ٥٧٦٦)، ومسلم (حديث ٢١٨٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٩٨٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٦٦٠).

مِنْ نِسَائِهِ أَعْطَى الْجُرَادَةَ - وَهِيَ امْرَأَتُهُ خَاتَمَهُ - فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبْتَلِيَ سُلَيْمَانَ عليه السلام بِالَّذِي ابْتَلَاهُ بِهِ ، أَعْطَى الْجُرَادَةَ ذَاتَ يَوْمٍ خَاتَمَهُ فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ فَقَالَ : هَاتِي خَاتَمِي فَأَخَذَهُ وَلَبَسَهُ ، فَلَمَّا لَبَسَهُ دَانَتْ لَهُ الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ . قَالَ : فَجَاءَهَا سُلَيْمَانُ ، فَقَالَ لَهَا : هَاتِي خَاتَمِي ، فَقَالَتْ : كَذَبْتَ ، لَسْتَ سُلَيْمَانَ قَالَ : فَعَرَفَ سُلَيْمَانُ أَنَّهُ بِلَاءٌ أُبْتَلِيَ بِهِ . قَالَ : فَانطَلَقَتِ الشَّيَاطِينُ فَتَكْتَبَتْ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ كُتُبًا فِيهَا سِحْرٌ وَكُفْرٌ ، فَدَفَنُوهَا تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ أَخْرَجُوهَا وَقَرَّوْهَا عَلَى النَّاسِ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا كَانَ سُلَيْمَانُ يُغَلِبُ النَّاسَ بِهَذِهِ الْكُتُبِ ، قَالَ : فَبَرِئَ النَّاسُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَكَفَرُوهُ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ ﴾ أَي : وَاتَّبَعَتِ الْيَهُودُ - الَّذِينَ أَوْثَرُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِهِمْ وَمُحَالَفَتِهِمْ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم - مَا تَتْلُوهُ الشَّيَاطِينُ أَي : مَا تَرُويهِ وَتُخْبِرُ بِهِ ، وَتُحَدِّثُهُ الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَعَدَاهُ بِـ « عَلَىٰ » لَأَنَّهُ تَضَمَّنَ تَتْلُو : تَكْذِبُ .

وَقَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَكَانَ السُّحْرُ قَبْلَ زَمَانِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ صَحِيحٌ لَا شَكَّ فِيهِ ؛ لِأَنَّ السَّحْرَةَ كَانُوا فِي زَمَانِ مُوسَى عليه السلام ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ بَعْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ الْآيَةَ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْقِصَّةَ بَعْدَهَا وَفِيهَا ، ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، وَقَالَ قَوْمٌ صَالِحٌ وَهُمْ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام لِنَبِيِّهِمْ صَالِحٍ : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴾ أَي : الْمُسْحُورِينَ عَلَى الْمَشْهُورِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ﴿ مَا ﴾ نَافِيَةٌ ، أَعْنِي : الَّتِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ . قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : مَا نَافِيَةٌ ، وَمَعْطُوفٌ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا ﴾

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَ قَوْلَهُ : ﴿ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾ بَدَلًا مِنَ الشَّيَاطِينِ ، قَالَ : وَصَحَّ ذَلِكَ إِمَّا لِأَنَّ الْجَمْعَ يُطْلَقُ عَلَى الْإِثْنَيْنِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ ، أَوْ لِكَوْنِهِمَا لَهَا أَتْبَاعٌ ، أَوْ ذِكْرًا مِنْ بَيْنِهِمْ لِتَمَرُّدِهِمَا ، فَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ عِنْدَهُ : يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا أَوْلَى مَا حَمَلْتَ عَلَيْهِ الْآيَةَ وَأَصَحُّ ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى مَا سِوَاهُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ﴾ مِنَ السِّحْرِ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَا أُنزَلَ اللَّهُ السِّحْرَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴿ وَمَا أُنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾ . فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾ مِنَ الْمُؤَخَّرِ الَّذِي مَعْنَاهُ الْمُقَدَّمُ . قَالَ : فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ : كَيْفَ وَجْهَ تَقْدِيمِ ذَلِكَ ، قِيلَ : وَجْهُ تَقْدِيمِهِ أَنْ يُقَالَ ﴿ وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ﴾ مِنَ السِّحْرِ ، وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَمَا أُنزَلَ اللَّهُ السِّحْرَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينِ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ فَيَكُونُ مَعْنِيًا بِالْمَلَائِكَةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لِأَنَّ سِحْرَةَ الْيَهُودِ فِيهَا ذِكْرٌ ، كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ السِّحْرَ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ وَأَخْبَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ لَمْ يَنْزِلَا بِسِحْرِ ، وَبَرَأَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا نَحَلُوهُ مِنَ السِّحْرِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ السِّحْرَ عَنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنَّهَا تُعَلَّمُ النَّاسَ ذَلِكَ بِبَابِلَ ، وَأَنَّ الَّذِينَ يُعَلِّمُوهُمْ ذَلِكَ رَجُلَانِ : اسْمُ أَحَدِهِمَا هَارُوتَ وَاسْمُ الْآخَرِ مَارُوتَ ، فَيَكُونُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ تَرْجَمَةً عَنِ النَّاسِ وَرَدًّا عَلَيْهِمْ .

ثُمَّ شَرَعَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي رَدِّ هَذَا الْقَوْلِ : وَأَنَّ مَا بِمَعْنَى الَّذِي ، وَأَطَالَ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ وَادَّعَى أَنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مَلَكَانِ أَنْزَلَهُمَا اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَأَذِنَ لَهُمَا فِي تَعْلِيمِ السِّحْرِ إِخْتِيَارًا لِعِبَادِهِ وَامْتِحَانًا ، بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَنْهَى عَنْهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ ، وَادَّعَى أَنَّ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مُطِيعَانِ فِي تَعْلِيمِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا امْتِحَانٌ مَا أَمْرًا

به . وَهَذَا الَّذِي سَلَكَهُ غَرِيبٌ جِدًّا .

وَوَجَّهَ أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ الْإِنْزَالَ بِمَعْنَى الْخَلْقِ لَا بِمَعْنَى الْإِيحَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَنْزَاجَ ﴾ [ الزمر : ٦ ] ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [ الحديد ٢٥ ] ، وَفِي الْحَدِيثِ « مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوَاءً »<sup>(١)</sup> ، وَكَمَا يُقَالُ : أَنْزَلَ اللَّهُ الْحَيْرَ وَالشَّرَّ .

وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ أَبِيزَيْدٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُمْ قَرَأُوا ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ ، قَالَ ابْنُ أَبِيزَيْدٍ : وَهُمَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : فَعَلَى هَذَا تَكُونُ مَا نَافِيَةٌ أَيْضًا .

وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى الْوُفْقِ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ ، وَمَا نَافِيَةٌ : وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، وَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ﴾ ، فَقَالَ : الرَّجُلَانِ يُعَلِّمَانِ النَّاسَ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمَا ، وَيُعَلِّمَانِ النَّاسَ مَا لَمْ يَنْزِلْ عَلَيْهِمَا ، فَقَالَ الْقَاسِمُ : مَا أُبَالَى أَيُّهُمَا كَانَتْ .

وَذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ : إِلَى أَنَّهُمَا كَانَا مَلَكَيْنِ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنْهَمَا أَنْزِلَا إِلَى الْأَرْضِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا كَانَ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى عِضْمَةِ الْمَلَائِكَةِ ، أَنَّ هَذَيْنِ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لَهُمَا هَذَا ، فَيَكُونُ تَخْصِيصًا لَهُمَا ، فَلَا تَعَارُضَ حِينَئِذٍ ، كَمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْ أَمْرِ إِبْلِيسَ مَا سَبَقَ ، وَفِي قَوْلِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴾ [ طه : ١١٦ ] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ، مَعَ أَنَّ شَأْنَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَلَى مَا ذُكِرَ أَخْفُفُ مِمَّا وَقَعَ مِنْ إِبْلِيسَ لَعْنَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

وَقَدْ رُوِيَ فِي قِصَّةِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَقَصَّهَا خَلْقٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالتَّأَخِّرِينَ ، وَحَاصِلُهَا رَاجِعٌ فِي تَفْصِيلِهَا إِلَى أَخْبَارِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِذْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ مُتَّصِلٌ الْإِسْنَادِ إِلَى الصَّادِقِ الْمُصَدِّقِ

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٧٧) بإسناد حسن .

الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، وَظَاهِرٌ سِيَاقِ الْقُرْآنِ إِجْمَالِ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ وَلَا إِطْنَابٍ فِيهَا ، فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : نَعَمْ أُنزِلَ الْمَلَكَانِ بِالسَّحْرِ لِيُعَلِّمَا النَّاسَ الْبَلَاءَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِي بِهِ النَّاسَ ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمَا الْمِيثَاقَ أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّىٰ يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ أَخَذَ عَلَيْهِمَا أَنْ لَا يُعَلِّمَا أَحَدًا حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ أَيْ : بَلَاءٌ أُبْتَلِينَا بِهِ فَلَا تَكْفُرْ .

وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : لَا يَجْتَرِئُ عَلَى السَّحْرِ إِلَّا كَافِرٌ ، وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ الْمِحْنَةُ وَالْإِخْتِبَارُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى عليه السلام حَيْثُ قَالَ : ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ أَيْ : ائْتِلَاؤُكَ وَإِخْتِبَارُكَ وَامْتِحَانُكَ ﴿ تَضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تَكْفِيرِ مَنْ تَعَلَّمَ السَّحَرَ ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ بِالْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّازُ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : « مَنْ آتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ أَيْ : فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ ، مَا يَتَصَرَّفُونَ بِهِ فِيمَا يَتَصَرَّفُونَ مِنَ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ مَا إِيَّاهُمْ لِيَفَرَّقُونَ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخُلْطَةِ وَالْإِتْلَافِ .

وَهَذَا مِنْ صَنِيعِ الشَّيَاطِينِ ، كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فِي النَّاسِ ، فَأَقْرَبُهُمْ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ عِنْدَهُ فِتْنَةٌ ، يَجِيءُ أَحَدَهُمْ فَيَقُولُ : مَا زِلْتُ بِفُلَانٍ حَتَّىٰ تَرَكْتُهُ ، وَهُوَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ إِبْلِيسُ : لَا وَاللَّهِ مَا صَنَعْتَ شَيْئًا ،

(١) هذا الحديث في كل طرقة مقال . أما الثابت في صحيح مسلم ( حديث ٢٢٣٠ ) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة » .

رَيْحِيءٌ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ : مَا تَرَكْتَهُ حَتَّى فَرَّقْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ قَالَ : فَيَقْرَبُهُ وَيُدْنِيهِ وَيَلْتَرِمُهُ وَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ <sup>(١)</sup>.

وَسَبَبُ التَّفَرُّقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالسَّحْرِ مَا يُحِيلُ إِلَى الرَّجُلِ أَوْ الْمَرْأَةِ مِنَ الْآخِرِ مِنْ سُوءٍ مَنْظَرٍ أَوْ خَلْقٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، أَوْ عَقْدٍ أَوْ بَعْضَةٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْفُرْقَةِ ، وَالْمَرْءُ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّجُلِ ، وَتَأْنِيثُهُ امْرَأَةٌ وَيُنْتَى كُلُّ مِنْهُمَا وَلَا يُجْمَعَانِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : إِلَّا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : إِلَّا بِتَخْلِيَةِ اللَّهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا أَرَادَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : نَعَمْ ، مَنْ شَاءَ اللَّهُ سَلَطَهُمْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ لَمْ يَشَأْ اللَّهُ لَمْ يُسَلِّطْ ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرَّ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ : لَا يَضُرُّ هَذَا السَّحْرُ إِلَّا مَنْ دَخَلَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَتَعَمَّوْنَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أَي : يَضُرُّهُمْ فِي دِينِهِمْ ، وَلَيْسَ لَهُ نَفْعٌ يُوَازِي ضَرَرَهُ ، ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ أَي : وَلَقَدْ عَلِمَ الْيَهُودُ - الَّذِينَ اسْتَبَدَّلُوا بِالسَّحْرِ عَنْ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ - لِمَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ ذَلِكَ ، أَنَّهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ . عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : وَلَقَدْ عَلِمَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِيمَا عَاهَدَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ : أَنَّ السَّاحِرَ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَبِئْسَ ﴾ الْبَدِيلُ مَا اسْتَبَدَّلُوا بِهِ مِنَ السَّحْرِ عَوَضًا عَنِ الْإِيمَانِ وَمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ، لَوْ كَانَ هُمْ عَلِمَ بِمَا وَعِظُوا بِهِ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ أَي : وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَاتَّقَوْا الْمَحَارِمَ ، لَكَانَ مَثُوبَةُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّا اسْتَخَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ وَرَضُوا بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ

(١) مسلم (حديث ٢٨١٣) ولكنه بلفظ قريب من هذا اللفظ ، فأسوق لفظه ها هنا لأن الحافظ ابن كثير على ما يبدو كان يكتب في كثير من الأحيان من حفظه فيذكر أشياء بالمعنى ، وأتم لفظ للحديث عند مسلم « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يحيي أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول ما صنعت شيئاً . قال : ثم يحيي أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت » .



أَوْتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا  
الصَّابِرُونَ ﴿ [القصص: ٨٠]

وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ مَنْ ذَهَبَ إِلَى تَكْفِيرِ السَّاحِرِ كَمَا  
هُوَ رَوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ ، وَقِيلَ : بَلْ لَا يَكْفُرُ وَلَكِنْ  
حَدُّهُ ضَرْبُ عُنُقِهِ ، لِمَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - كَتَبَ عُمَرُ بْنُ  
الْحَطَّابِ رضي الله عنه أَنْ أُقْتِلُوا كُلُّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ قَالَ : فَفَقْتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ ، وَهَكَذَا  
صَحَّ أَنَّ حَفْصَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ سَحَرَتْهَا جَارِيَةٌ لَهَا فَأَمَرَتْ بِهَا فُقِّتِلَتْ . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ  
ابْنُ حَنْبَلٍ : صَحَّ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أُذِنُوا فِي قَتْلِ السَّاحِرِ .  
وَقَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ مُتَعَدِّدَةٍ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ كَانَ عِنْدَهُ سَاحِرٌ يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ ،  
فَكَانَ يَضْرِبُ رَأْسَ الرَّجُلِ ثُمَّ يَصِيحُ بِهِ فَيَرُدُّ إِلَيْهِ رَأْسَهُ ، فَقَالَ النَّاسُ : سُبْحَانَ اللَّهِ  
يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَرَأَاهُ رَجُلٌ مِنْ صَالِحِي الْمُهَاجِرِينَ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ جَاءَ مُسْتَمِلًا عَلَى  
سَيْفِهِ ، وَذَهَبَ يَلْعَبُ لَعِبَهُ ذَلِكَ ، فَاخْتَرَطَ الرَّجُلُ سَيْفَهُ فَضْرَبَ عُنُقَ السَّاحِرِ ،  
وَقَالَ : إِنْ كَانَ صَادِقًا فَلْيُحْيِ نَفْسَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ  
تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣] فَغَضِبَ الْوَلِيدُ إِذْ لَمْ يَسْتَأْذِنْهُ فِي ذَلِكَ ، فَسَجَنَهُ ثُمَّ أَطْلَقَهُ ،  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَحَمَلَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قِصَّةَ عُمَرَ وَحَفْصَةَ عَلَى سِحْرِ يَكُونُ شِرْكًَا وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ .

وَأَمَّا السَّاحِرُ الْمُسْلِمُ فَإِنْ تَضَمَّنَ سِحْرُهُ كُفْرًا كَفَرَ عِنْدَ الْأُمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ  
لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُعْلِمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا حُنَّ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ لَكِنْ قَالَ  
مَالِكٌ : إِذَا ظَهَرَ عَلَيْهِ لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ كَالزَّنْدِيقِ فَإِنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ يُظْهَرَ عَلَيْهِ  
وَجَاءَنَا تَائِبًا قَبْلُنَا ، فَإِنْ قَتَلَ سِحْرَهُ قُتِلَ . قَالَ الشَّافِعِيُّ : فَإِنْ قَالَ لَمْ أَعْمَدِ الْقَتْلَ  
فَهُوَ مُحْطٌ مَحْبُوبٌ عَلَيْهِ الدِّيَّةُ .

مَسْأَلَةٌ : وَهَلْ يُسْأَلُ السَّاحِرُ حَلًّا لِسِحْرِهِ ؟ فَأَجَازَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ فِيمَا نَقَلَهُ  
عَنْهُ الْبُخَارِيُّ وَقَالَ عَامِرُ الشَّعْبِيِّ : لَا بَأْسَ بِالنُّشْرَةِ ، وَكَرِهَ ذَلِكَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ .  
وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَّا تَنْشَرْتَ ؟ . فَقَالَ : (( أَمَّا

اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أَفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا»<sup>(١)</sup>.

وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ وَهْبٍ : أَنَّهُ قَالَ يُؤْخَذُ سَبْعَ وَرَقَاتٍ مِنْ سِدْرٍ ، فَتَدَقُّ بَيْنَ حَجْرَيْنِ ، ثُمَّ تُضْرَبُ بِالْمَاءِ ، وَيُقْرَأُ عَلَيْهَا آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، وَيَشْرَبُ مِنْهَا الْمَسْحُورُ ثَلَاثَ حَسَوَاتٍ ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ بِبَاقِيهِ ، فَإِنَّهُ يُذْهِبُ مَا بِهِ ، وَهُوَ جَيِّدٌ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُؤْخَذُ عَنْ امْرَأَتِهِ<sup>(٢)</sup>.

قُلْتُ : أَنْفَعُ مَا يُسْتَعْمَلُ لِإِذْهَابِ السَّحْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ فِي إِذْهَابِ ذَلِكَ وَهُمَا الْمُعَوَّذَاتَانِ وَفِي الْحَدِيثِ « لَمْ يَتَعَوَّذِ الْمُتَعَوِّذُ بِمِثْلِهِمَا »<sup>(٣)</sup> وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ الْكُرْسِيِّ فَإِنَّهَا مُطْرَدَةٌ لِلشَّيْطَانِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا<sup>(٤)</sup> وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ تَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٢﴾

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ فِي مَقَالِهِمْ وَفِعَالِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يُعَانُونَ مِنَ الْكَلَامِ مَا فِيهِ تَوْرِيَةٌ لِمَا يَقْصِدُونَهُ مِنَ التَّقْيِيسِ - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - فَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَقُولُوا : اسْمَعْ لَنَا ، يَقُولُوا : رَاعِنَا ، وَيُورُونَ بِالرُّعُونَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا نُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِاللِّسَانِ وَأَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٤٦] ، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ ، بِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَلَّمُوا

(١) أخرجه البخاري بنحوه (حديث ٥٧٦٦) ، وفي بعض ألفاظه « أفأخرجته ؟ قال : لا أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخشيت أن أثور على الناس منه شرًا » ، وأخرجه مسلم (حديث ٢١٨٩) بنحوه ، وعنده أفلا أحرقتة ؟ .

(٢) هذا كما هو واضح قول ابن وهب ليس بمرفوع إلى النبي ﷺ فإن جُرِّبَ ونفع فالحمد لله ، وإن لم ينفع فلا نُحْمَلُ سنة رسول الله ﷺ ما ليس فيها .

(٣) حسن : أخرجه النسائي (٢٢٢/٨) وغيره .

إِنَّمَا يَقُولُونَ : السَّامُ عَلَيْكُمْ ، وَالسَّامُ هُوَ الْمَوْتُ<sup>(١)</sup> ، وَهَذَا أَمْرُنَا أَنْ نَرُدَّ عَلَيْهِمْ بِـ  
 (( وَعَلَيْكُمْ )) وَإِنَّمَا يُسْتَجَابُ لَنَا فِيهِمْ ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِينَا .

وَالْعَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُشَابَهَةِ الْكَافِرِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا فَقَالَ : ﴿ يَتَأْتِيهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ ))<sup>(٢)</sup> ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى النَّهْيِ  
 الشَّدِيدِ ، وَالتَّهْدِيدِ ، وَالْوَعِيدِ ، عَلَى التَّشْبِيهِ بِالْكَفَّارِ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ  
 وَأَعْيَادِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمُ الَّتِي لَمْ تُشْرَعْ لَنَا وَلَا نُقَرُّ عَلَيْهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ  
 مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يَبِينُ بِذَلِكَ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَةِ الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
 وَالْمُشْرِكِينَ ، الَّذِينَ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مُشَابَهَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، لِيَقْطَعَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَهُمْ  
 وَيَبَيِّنَهُمْ ، وَنَبَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّرْعِ التَّامِّ الْكَامِلِ ، الَّذِي  
 شَرَعَهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يُخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ  
 ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : ﴿ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ ﴾ يَعْنِي : قَبْضُهَا ، رَفْعُهَا ، مِثْلُ قَوْلِهِ « الشَّيْخُ  
 وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَيَا فَاَرْجُوهُمَا الْبَتَّةَ »<sup>(٣)</sup> وَقَوْلِهِ : « لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَاِدْيَانٍ مِنْ ذَهَبٍ

(١) أخرج البخاري (مع الفتح ١٢/٢٨٠) ، ومسلم (مع النووي ١٤/١٤٤) من حديث ابن عمر - رضي الله  
 عنها - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن اليهود إذا سلموا على أحدكم إنما يقولون : سام عليك ، فقل : عليك » .

(٢) حسن لشواهده : أخرجه أبو داود (٣١٤/٤) وعبد بن حميد في المنتخب (بتحقيقي ٨٤٦) وفي سننه  
 عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان متكلم فيه ، وكذا أبو منيب الجرشي لم يوثقه معتبر . قال الحافظ : لكن له  
 شاهد مرسل بإسناد حسن أخرجه ابن أبي شيبة .

(٣) انظر الكلام على هذه الفقرة في الفتح (شرح حديث ٦٨٢٩) البخاري (مع الفتح ١٢/١٤٣) كتاب الحدود  
 باب الاعتراف بالزنا .

لَا تَنْعَى لَهَا نَائِلًا»<sup>(١)</sup> وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ ﴾ مَا يُنْقَلُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَى غَيْرِهِ ، فَبَدَّلَهُ وَنَغَيْرَهُ ؛ وَذَلِكَ أَنْ يُحَوَّلَ الْحَلَالُ حَرَامًا ، وَالْحَرَامُ حَلَالًا ، وَالْمُبَاحُ مَحْظُورًا ، وَالْمَحْظُورُ مُبَاحًا . وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ ، وَالنَّهْيِ ، وَالْحَظَرِ ، وَالْإِطْلَاقِ ، وَالْمَنْعِ ، وَالْإِبَاحَةِ ، فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ ، وَلَا مَنْسُوخٌ . وَأَصْلُ النَّسْخِ : مِنْ نَسَخَ الْكِتَابَ ؛ وَهُوَ نَقَلَهُ مِنْ نُسْخَةٍ أُخْرَى إِلَى غَيْرِهَا ، فَكَذَلِكَ مَعْنَى نَسَخِ الْحُكْمِ إِلَى غَيْرِهِ ؛ إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيلُهُ ، وَنَقْلُ عِبَارَةٍ إِلَى غَيْرِهَا ، وَسَوَاءٌ نَسَخَ حُكْمَهَا أَوْ خَطَّهَا إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مَنْسُوخَةٌ .

**وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تُنْسِهَا ﴾** فَفَرَّقَ عَلَى وَجْهَيْنِ: نَسَّأَهَا وَنُسَّسَهَا ، فَأَمَّا مَنْ قَرَأَهَا: بَفَتْحِ النُّونِ وَالْهَمْزَةِ بَعْدَ السَّيْنِ فَمَعْنَاهُ: نُؤْخِرُهَا . وَأَمَّا عَلَى قِرَاءَةِ ﴿ أَوْ تُنْسِهَا ﴾ فَعَنْ قِتَادَةَ قَالَ: كَانَ اللَّهُ ﷻ يَنْسِي نَبِيَّهُ ﷺ مَا يَشَاءُ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ . وَقِيلَ: ﴿ أَوْ تُنْسِهَا ﴾: نَرَفَعُهَا مِنْ عِنْدِكُمْ . قَالَ عُمَرُ: أَقْرَأُونَا أَبِي ، وَأَقْضَانَا عَلِيٌّ ، وَإِنَّا لَنَدْعُ مِنْ قَوْلِ أَبِي ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبِيًّا يَقُولُ: مَا أَدْعُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾<sup>(٢)</sup> .

**وَقَوْلُهُ: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾** أَي: فِي الْحُكْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَصْلَحَةِ الْمُكَلَّفِينَ .  
**وَقَوْلُهُ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** <sup>(١٥)</sup> أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿ [البقرة: ١٠٦-١٠٧] يُرْسِدُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِهَذَا إِلَى أَنَّهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ ، فَكَمَا خَلَقَهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَيُسْعِدُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُسْقِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيُصِحُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُمْرِضُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُوقِقُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَحْذِلُ مَنْ يَشَاءُ ، كَذَلِكَ يُحْكِمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، فَيَحِلُّ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْرِمُ مَا يَشَاءُ . وَيُصِحُّ مَا يَشَاءُ ، وَيَحْظُرُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الَّذِي يُحْكِمُ مَا يُرِيدُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَيُخْتَبَرُ عِبَادُهُ وَطَاعَتُهُمْ لِرُسُلِهِ بِالنَّسْخِ ، فَيَأْمُرُ بِالشَّيْءِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ الَّتِي

(١) أخرجه البخاري ( حديث ٦٤٣٦ ) ، ومسلم ( حديث ١٠٤٩ ) وله طرق أخر عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما .

(٢) أخرجه البخاري ( حديث ٤٤٨١ ) .

يَعْلَمَهَا تَعَالَى ، ثُمَّ يَنْهَى عَنْهُ لِمَا يَعْلَمُهُ تَعَالَى ، فَالطَّاعَةَ كُلَّ الطَّاعَةَ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَاتَّبَاعِ رُسُلِهِ فِي تَصَدِيقِ مَا أَخْبَرُوا ، وَامْتِثَالِ مَا أَمَرُوا وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرُوا ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ رَدُّ عَظِيمٍ ، وَبَيَانٌ بَلِيغٌ لِكُفْرِ الْيَهُودِ وَتَرْيِيفِ شُبُهَتِهِمْ - لَعْنَهُمُ اللَّهُ - فِي دَعْوَى اسْتِحَالَةِ النَّسْخِ ، إِمَّا عَقْلًا كَمَا زَعَمَهُ بَعْضُهُمْ ، جَهْلًا وَكُفْرًا ، وَإِمَّا نَقْلًا كَمَا تَخَرَّصَهُ آخَرُونَ مِنْهُمْ ، إِفْتِرَاءً وَإِفْكًَا .

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : فَتَأْوِيلُ الْآيَةِ : أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ لِي مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانِيهَا دُونَ غَيْرِي ، أَحْكُمُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا ، بِمَا أَشَاءُ ، وَأَمُرُ فِيهِمَا وَفِيمَا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ ، وَأَنْهَى عَمَّا أَشَاءُ ، وَأَنْسَخُ وَأُبَدِّلُ وَأُغَيِّرُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكُمُ بِهَا فِي عِبَادِي بِمَا أَشَاءُ إِذْ أَشَاءُ . ثُمَّ قَالَ : وَهَذَا الْخَبْرُ وَإِنْ كَانَ خِطَابًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ عَنِ عَظَمَتِهِ فَإِنَّهُ مِنْهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - تَكْذِيبٌ لِلْيَهُودِ ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا نَسْخَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ ، وَجَحَدُوا بُرُوءَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِمَجِيئِهَا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِتَغْيِيرِ مَا غَيَّرَ اللَّهُ مِنْ حُكْمِ التَّوْرَةِ ، فَأَخْبَرَهُمُ اللَّهُ : أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانِيهَا ، وَأَنَّ الْخَلْقَ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَعَلَيْهِمُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِأَمْرِهِ ، وَنَهْيِهِ ، وَأَنَّ لَهُ أَمْرَهُمْ بِمَا يَشَاءُ ، وَنَهْيَهُمْ عَمَّا يَشَاءُ ، وَنَسْخَ مَا يَشَاءُ ، وَإِقْرَارَ مَا يَشَاءُ ، وَإِنْشَاءَ مَا يَشَاءُ مِنْ إِفْرَارِهِ وَأَمْرِهِ ، وَنَهْيِهِ .

قُلْتُ : الَّذِي يَحْمِلُ الْيَهُودَ عَلَى الْبَحْثِ فِي مَسْأَلَةِ النَّسْخِ ، إِنَّهَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْعِنَادُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَى امْتِنَاعِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّهُ يَحْكُمُ مَا يَشَاءُ ، كَمَا أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَشَرَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ ، كَمَا أَحَلَّ لِأَدَمَ تَرْوِيجَ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ ، ثُمَّ حَرَّمَ ذَلِكَ ، وَكَمَا أَبَاحَ لِنُوحَ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ أَكْلَ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ ، ثُمَّ نَسَخَ حِلَّ بَعْضِهَا ، وَكَانَ نِكَاحُ الْأُخْتَيْنِ مُبَاحًا لِإِسْرَائِيلَ وَبَنِيهِ ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَمَا بَعْدَهَا ، وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ ﷺ بِذَبْحِ وَلَدِهِ ثُمَّ نَسَخَهُ قَبْلَ الْفِعْلِ ، وَأَمَرَ جُمْهُورَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِقَتْلِ مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ رَفَعَ عَنْهُمْ الْقَتْلَ كَيْلًا يَسْتَأْصِلَهُمُ الْقَتْلُ ، وَأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ يَطُولُ

ذَكَرَهَا ، وَهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِذَلِكَ وَيَصْدِفُونَ عَنْهُ .

وَمَا يُجَابُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَدِلَّةِ بِأَجْوِبَةٍ لَفْظِيَّةٍ فَلَا يَصْرِفُ الدَّلَالََةَ فِي الْمَعْنَى ، إِذْ هُوَ الْمَقْصُودُ وَكَمَا فِي كُتُبِهِمْ مَشْهُورًا مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ ، فَإِنَّهُ يُفِيدُ وَجُوبَ مُتَابَعَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا عَلَى شَرِيْعَتِهِ ، وَسَوَاءٌ قِيلَ إِنَّ الشَّرَائِعَ الْمُتَقَدِّمَةَ مُعْيَاةً إِلَى بَعْتِهِ ﷺ فَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ نَسْخًا لِقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ ﴾ ، وَقِيلَ إِنَّهَا مُطْلَقَةٌ ، وَإِنَّ شَرِيْعَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَسَخَتْهَا ، فَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَوْجُوبُ مُتَابَعَتِهِ مُتَعَيَّنٌ ؛ لِأَنَّهُ جَاءَ بِكِتَابٍ هُوَ آخِرُ الْكُتُبِ عَهْدًا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

فَفِي هَذَا الْمَقَامِ بَيْنَ تَعَالَى جَوَازِ النَّسْخِ ، رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ - حَيْثُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الْآيَةَ ، فَكَمَا أَنَّ لَهُ الْمُلْكَ بِلَا مُنَازِعٍ ، فَكَذَلِكَ لَهُ الْحُكْمُ بِمَا يَشَاءُ ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [ الأعراف : ٥٤ ] ، وَالْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى جَوَازِ النَّسْخِ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَكُلُّهُمْ قَالَ بِوُقُوعِهِ .

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۗ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿ ١٨ ﴾

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ كَثْرَةِ سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدِّلَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ ﴾ [ المائدة : ١٠١ ] أَيُّ : وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْ تَفْصِيلِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا تُبَيِّنْ لَكُمْ ، وَلَا تَسْأَلُوا عَنِ الشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهِ ؛ فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحْرَمَ مِنْ أَجْلِ تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ .

وَهَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : « إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحْرَمْ ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ » (١) .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٨٩) ، ومسلم (حديث ٢٣٥٨) .

وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ: كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال<sup>(١)</sup>.

وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم، فإنها هلك من كان قبلكم، بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»<sup>(٢)</sup>. وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثا. ثم قال ﷺ: «لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم»<sup>(٣)</sup> الحديث.

ولهذا قال أنس بن مالك: هيينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع<sup>(٤)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعلم المؤمنين والكافرين، فإنه ﷺ رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣]. والمراد: أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى ﷺ تعنتا وتكديبا وعنادا.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبَدِّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ أي: من يشتر الكفر بالإيمان ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء وأتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٩٢)، ومسلم (حديث ١٧١٥ ص ١٣٤١).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٣٣٧) ص ١٨٣٠.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) أخرجه مسلم (حديث رقم ١٢).

التَّعَنَّتِ وَالْكُفْرِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارِ ﴿ ۞ ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾

يُحَذِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ سُلُوكِ طَرِيقِ الْكُفَارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ بَعْدَاوَتِهِمْ لَهُمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَمَا هُمْ مُسْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَسَدِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِفَضْلِهِمْ وَفَضْلِ نَبِيِّهِمْ ، وَيَأْمُرُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ ، أَوْ الْاِحْتِمَالِ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَيَأْمُرُهُمْ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَيَحْتَثُّهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَيُرْغَبُهُمْ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَي : مِنْ قِبَلِ أَنفُسِهِمْ ، ﴿ ۞ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ، فَكَفَرُوا بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا ، إِذْ كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ۞ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ ۞ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ نَسَخَ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ ۞ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ ۞ قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ٢٩] إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ ۞ وَهُمْ صَغِيرُونَ ﴾ فَنَسَخَ هَذَا عَفْوَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَنَّهَا مَسْخُوحَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَيُرْشَدُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ۞ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ



انكِتَابٍ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى ، قَالَ اللَّهُ : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۗ ﴾ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَأَوَّلُ مِنَ الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ ، حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ بِالْقَتْلِ ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ ۙ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ يَجْتَنُّهُمْ تَعَالَى عَلَى الْأَشْتِغَالِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ ، وَتَعَوُّدُ عَلَيْهِمْ عَاقِبَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِتْيَاءِ الزَّكَاةِ ؛ حَتَّى يُمَكِّنَ لَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [ غافر : ٥٢ ] ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفُلُ عَنْ عَمَلِ عَامِلٍ ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ ، سَوَاءً كَانَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا ؛ فَإِنَّهُ سَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قَالَ الطَّبْرِيُّ : وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿ بَصِيرٌ ﴾ فَإِنَّهُ مُبْصِرٌ ، صُرِفَ إِلَى بَصِيرٍ ، كَمَا صُرِفَ مُبْدِعٌ إِلَى « بَدِيع » ، وَمُؤْمِلٌ إِلَى « أَلِيم » ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٣﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٥﴾

يَبِينُ تَعَالَى اغْتِرَارَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ بِمَا هُمْ فِيهِ ؛ حَيْثُ إِدْعَتْ كُلُّ طَائِفَةٍ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ : أَنَّهُ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِلَّتِهَا ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ ﴾ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، بِمَا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَلَوْ كَانُوا كَمَا ادَّعَوْا لَمَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، وَكَمَا تَقَدَّمَ

مِنْ دَعْوَاهُمْ : أَنَّهُ لَنْ تَمْسَهُمُ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، ثُمَّ يَنْتَقِلُونَ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ - تَعَالَى - فِي ذَلِكَ ، وَهَكَذَا قَالَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى الَّتِي ادَّعَوْهَا بِلَا دَلِيلٍ ، وَلَا حُجَّةٍ ، وَلَا بَيِّنَةٍ ، فَقَالَ : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ تَمَنُّوْهَا عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ، ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حُجَّتْكُمْ ، وَبَيِّتْكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا تَدْعُونَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ : مَنْ أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِلَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ [ آل عمران : ٢٠ ] ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ ﴾ : أَخْلَصَ ﴿ وَجْهَهُ ﴾ ، قَالَ : دِينَهُ ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَيُّ : اتَّبَعَ فِيهِ الرَّسُولَ ﷺ .

فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَحَدَهُ ، وَالْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَمَتَى كَانَ خَالِصًا ، وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَتَقَبَّلْ ؛ وَهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) .

فَعَمَلُ الرَّهْبَانِ وَمَنْ شَابَهُمْ - وَإِنْ فَرَضَ أَتَمُّهُمْ مُخْلِصُونَ فِيهِ لِلَّهِ - فَإِنَّهُ لَا يَتَقَبَّلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مُتَابِعًا لِلرَّسُولِ ﷺ الْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ وَإِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، وَفِيهِمْ وَأَمثَالُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [ الفرقان : ٢٣ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [ النور : ٣٩ ] .

وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْعَمَلُ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَخْلُصْ عَامِلُهُ الْقَصْدَ لِلَّهِ ، فَهُوَ أَيْضًا مَرْدُودٌ عَلَى فَاعِلِهِ ، وَهَذَا حَالُ الْمُرَائِنِ وَالْمُنَافِقِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ النساء : ١٤٢ ] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [ الكهف : ١١٠ ] ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلهَ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهٖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ صَمِنَ لَهُمْ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ تَحْصِيلُ الْأُجُورِ ، وَأَمَنَّهُمْ مِمَّا يَخَافُونَهُ مِنَ الْمَحْذُورِ ف : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فِيهَا يَسْتَقْبِلُونَهُ ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ عَلَى مَا مَضَى مِمَّا يَتْرُكُونَهُ . كَمَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ف : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يَعْنِي : فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يَعْنِي : لَا يَحْزَنُونَ لِلْمَوْتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ بَيَّنَّ بِهِ تَعَالَى تَنَاقُضَهُمْ ، وَتَبَاغُضَهُمْ ، وَتَعَادِيَهُمْ ، وَتَعَانُدَهُمْ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ قَالَ : بَلَى قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا وَتَفَرَّقُوا ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ قَالَ : بَلَى ، قَدْ كَانَتْ أَوَائِلُ الْيَهُودِ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَكِنَّهُمْ ابْتَدَعُوا وَتَفَرَّقُوا . وَعَنْهُ رَوَايَةٌ أُخْرَى ؛ كَقَوْلِ أَبِي الْعَالِيَةِ ، وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا الْقَوْلُ يَقْتَضِي أَنَّ كُلًّا مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ صَدَقَتْ فِيهَا رَمَتْ بِهِ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ سِيَاقِ الْآيَةِ يَقْتَضِي ذَمَّهُمْ فِيمَا قَالُوا مِنْ عِلْمِهِمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ أَي : وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كُلُّ مِنْهُمَا قَدْ كَانَتْ مَشْرُوعَةً فِي وَقْتٍ وَلَكِنَّهُمْ تَجَاحَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنَادًا وَكُفْرًا وَمُقَابَلَةً لِلْفَاسِدِ بِالْفَاسِدِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ بَيَّنَّ بِهَذَا جَهْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِيمَا تَقَابَلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيمَا عَنِ بَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، فَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَقَتَادَةُ : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، قَالَا : قَالَتِ النَّصَارَى مِثْلَ قَوْلِ الْيَهُودِ وَقِيلَهُمْ ، وَقَالَ عَطَاءٌ : أُمُّ كَانَتْ قَبْلَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَقِيلَ : هُمُ الْعَرَبُ . قَالُوا : لَيْسَ مُحَمَّدٌ عَلَى شَيْءٍ . وَاخْتَارَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ أَنَّهَا عَامَةٌ تَصْلُحُ لِلْجَمِيعِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أَي : أَنَّهُ تَعَالَى يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْمَعَادِ ، وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِقَضَائِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، وَلَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّيِّئِينَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾

اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ مِنَ الَّذِينَ مَنَعُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ وَسَعَوْا فِي خَرَابِهَا عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدِهِمَا : هُمُ النَّصَارَى ، وَقِيلَ : هُوَ بُخْتَنْصَرُ وَأَصْحَابُهُ ، خَرَبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، وَأَعَانَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ النَّصَارَى . حَمَلَهُمْ بَغْضَ الْيَهُودِ عَلَىٰ أَنْ أَعَانُوا بُخْتَنْصَرَ الْبَابِلِيِّ الْمَجُوسِيِّ عَلَىٰ تَخْرِيْبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ . وَالثَّانِي : هُوَ لِأَيِّ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ حَالُوا بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَبَيَّنَّ أَنْ يَدْخُلُوا مَكَّةَ حَتَّى نَحَرَ هَدْيِهِ بِذِي طُوًى وَهَادَهُمْ .

قُلْتُ : الَّذِي يَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الْقَوْلُ الثَّانِي . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ إِلَّا أَنْ يَعْتَذِرُوا لَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّ تَعَلَّمُوهُمُ أَنْ تَطْفُوهُمُ فَتَضَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٥] ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] ، فَإِذَا كَانَ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ مَطْرُودًا مِنْهَا مَصْدُودًا عَنْهَا ، فَأَيُّ خَرَابٍ لَهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ؟ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِعِمَارَتِهَا زُخْرَفَتِهَا وَإِقَامَةِ صُورَتِهَا فَقَطْ ، إِنَّمَا عِمَارَتُهَا بِذِكْرِ اللَّهِ فِيهَا ،

وَإِقَامَةِ شَرْعِهِ فِيهَا ، وَرَفَعَهَا عَنِ الدَّنَسِ وَالشُّرْكِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ هَذَا خَبْرٌ مَعْنَاهُ  
 الطَّلَبُ ، أَي : لَا تُتَكَّنُوا هَؤُلَاءِ إِذَا قَدَرْتُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ دُخُولِهَا إِلَّا تَحْتَ الْهُدْنَةِ وَالْجِزْيَةِ .  
 وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ إِلَّا خَائِفِينَ عَلَى حَالِ  
 التَّهَيُّبِ ، وَازْتِعَادِ الْفَرَائِصِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ فَضْلًا أَنْ يَسْتَوْلُوا عَلَيْهَا  
 وَيَمْنَعُوا الْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا . ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ عَلَى مَا انْتَهَكُوا مِنْ حُرْمَةِ  
 الْبَيْتِ وَامْتَنَعُوهُ مِنْ نَصَبِ الْأَضْنَامِ حَوْلَهُ وَدُعَاءِ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَهُ ، وَالطَّوَافِ بِهِ عَرَايَا ،  
 وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَفَاعِيلِهِمُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﷺ .

وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٠﴾

وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ مَكَّةَ ،  
 وَفَارَقُوا مَسْجِدَهُمْ ، وَمُصَلَّاهُمْ ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي بِمَكَّةَ إِلَى بَيْتِ  
 الْمَقْدِسِ وَالْكَعْبَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ وَجَّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا ،  
 أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، ثُمَّ صَرَفَهُ اللَّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدُ<sup>(١)</sup> ، وَهَذَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ  
 الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ قَالَ : أَوَّلُ مَا نُسِخَ لَنَا  
 مِنَ الْقُرْآنِ فِيهَا ذِكْرُ لَنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - شَأْنُ الْقِبْلَةِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ  
 وَالْمَغْرِبُ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى نَحْوَ بَيْتِ  
 الْمَقْدِسِ ، وَتَرَكَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى بَيْتِهِ الْعَتِيقِ وَنَسَخَهَا فَقَالَ : ﴿ وَمِنْ  
 حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ  
 شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٥٠]

وَقَالَ عِكْرَمَةُ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ قَالَ : قِبْلَةُ اللَّهِ أَيُّنَا  
 تَوَجَّهَتْ شَرْقًا أَوْ غَرْبًا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : حَيْثُ كُنْتُمْ ، فَلكُمْ قِبْلَةٌ تَسْتَقْبِلُونَهَا : الْكَعْبَةُ .  
 وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ أَنْ يُفْرَضَ التَّوَجُّهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَقَالَ

آخِرُونَ : بَلْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْنَا مِنْ اللَّهِ أَنْ يُصَلِّيَ الْمُتَطَوِّعُ حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنْ شَرْقٍ أَوْ غَرْبٍ فِي مَسِيرِهِ ، فِي سَفَرِهِ ، وَفِي حَالِ الْمَسَافَةِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ .  
عَنْ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ ، وَيُذَكِّرُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَيَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (١) .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ ، أَنَّهُ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَهَا . ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا قِيَامًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا (٢) . قَالَ نَافِعٌ : وَلَا أَرَى ابْنَ عُمَرَ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ يَسَعُ خَلْقَهُ كُلَّهُمْ بِالْكَفَايَةِ وَالْجُودِ وَالْإِفْضَالِ : وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ ، فَإِنَّهُ يَعْنِي عَلِيمٌ بِأَعْمَالِهِمْ ، مَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ ، بَلْ هُوَ بِجَمِيعِهَا عَلِيمٌ .

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ رَاقِدُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - وَكَذَا مَنْ أَشْبَهُهُمْ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، مِمَّنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ ، فَأَكْذَبَ اللَّهُ جَمِيعَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ ، وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أَيُّ : تَعَالَى ، وَتَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا افْتَرَوْا ، وَإِنَّمَا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِيهِنَّ ، وَهُوَ خَالِقُهُمْ ، وَرَازِقُهُمْ ، وَمَقْدِرُهُمْ وَمَسْخَرُهُمْ ، وَمُسِيرُهُمْ ، وَمُضَرِّفُهُمْ كَمَا يَشَاءُ ، وَالْجَمِيعُ عِبِيدٌ لَهُ ، وَمَلِكٌ لَهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ مِنْهُمْ؟! وَالْوَلَدُ إِنَّمَا يَكُونُ مُتَوَلَّدًا مِنْ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ ،

(١) في صحيح مسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه . قال : وفيه نزلت ﴿ فَأَيَّمَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (ص ٣٣٦ حديث ٧٠٠) .

(٢) البخاري (حديث ٤٥٣٥) .

وَلَا مُشَارِكُ فِي عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيائِهِ ، وَلَا صَاحِبَةٌ لَهُ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۗ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٨ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٨٩ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۗ وَمَا يُنْبِئُ لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۗ إِن كُنتُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۗ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۗ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۗ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١

اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۗ ﴾ [سورة الإخلاص] فَقَرَّرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ غَيْرُهُ ، مَخْلُوقَةٌ لَهُ ، مَرْبُوبَةٌ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهَا وَلَدٌ ؟ .

وَلِهَذَا أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْبَقَرَةِ : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ ، فَيَزْعُمُ أَنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : إِنَّ لِي وَلَدًا ، فَسُبْحَانِي أَنْ اتَّخَذَ صَاحِبَةً ، أَوْ وَلَدًا » .<sup>(١)</sup>

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَيَّ أَدَى سَمْعِهِ مِنَ اللَّهِ ؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ ، وَيُعَافِيهِمْ » .<sup>(٢)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ لَّهُ قَنُوتُونَ ﴾ قِيلَ : مُصَلُّونَ . وَقِيلَ : مُقَرَّبُونَ لَهُ بِالْعِبُودِيَّةِ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ﴿ كُلُّ لَّهُ قَنُوتُونَ ﴾ يَقُولُ : الْإِخْلَاصُ ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : يَقُولُ : ﴿ كُلُّ لَّهُ قَنُوتُونَ ﴾ أَيُّ : قَائِمٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَقِيلَ : مُطِيعُونَ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ يَقُولُ : طَاعَةُ الْكَافِرِ فِي سُجُودِ ظِلِّهِ وَهُوَ كَارِهِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ مُجَاهِدٍ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا وَهُوَ الْقُنُوتُ وَالطَّاعَةُ ، وَالْإِسْتِكَانَةُ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ شَرْعِيٌّ وَقَدْرِيٌّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمًا لَهُمْ بِالْعُذُوقِ

وَالْأَصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥]

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٨٢) .

(٢) البخاري بلفظ قريب (حديث ٦٠٩٩) ، ومسلم (٢٨٠٤) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ سَبْقٍ . قَالَ جَاهِدٌ وَالسُّدِّيُّ : وَهُوَ مُقْتَضَى اللَّغَةِ وَمِنْهُ يُقَالُ لِلشَّيْءِ الْمُحَدَّثِ بَدْعَةٌ كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ « فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ »<sup>(١)</sup> ، وَتَارَةً تَكُونُ بَدْعَةٌ لِعَوِيَّةٍ كَقَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ<sup>(٢)</sup> عَنْ جَمْعِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ وَاسْتَمْرَارِهِمْ : نِعَمَتِ الْبَدْعَةِ هَذِهِ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مُبْدِعُهَا وَإِنَّمَا هُوَ مَفْعَلٌ فَصُرِفَ إِلَى فَعِيلٍ كَمَا صُرِفَ الْمُؤَلَّمُ إِلَى الْأَلِيمِ ، وَالْمُسْمَعُ إِلَى السَّمِيعِ ، وَمَعْنَى الْمُبْدِعِ : الْمُنشِئُ وَالْمُحَدَّثُ مَا لَا يَسْبِقُهُ إِلَى إِنْشَاءِ مِثْلِهِ وَإِحْدَاثِهِ أَحَدٌ . قَالَ : وَلِلذَلِكَ سُمِّيَ الْمُبْتَدِعُ فِي الدِّينِ : مُبْتَدِعًا لِإِحْدَاثِهِ فِيهِ مَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهِ غَيْرُهُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : فَمَعْنَى الْكَلَامِ ؛ سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، وَهُوَ مَالِكٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، تَشْهَدُ لَهُ جَمِيعُهَا بِدَلَالَتِهَا عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَتُقَرُّ لَهُ بِالطَّاعَةِ ، وَهُوَ بَارِئُهَا وَخَالِقُهَا وَمَوْجِدُهَا مِنْ غَيْرِ أَصْلِ ، وَلَا مِثَالٍ اخْتَدَاهَا عَلَيْهِ ، وَهَذَا إِعْلَامٌ مِنْ اللَّهِ لِعِبَادِهِ أَنَّ مَنْ يَشْهَدُ لَهُ بِذَلِكَ الْمَسِيحِ ، الَّذِي أَضَافُوا إِلَى اللَّهِ بُنُوْتَهُ ، وَإِخْبَارٌ مِنْهُ لَهُمْ أَنَّ الَّذِي ابْتَدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْ غَيْرِ أَصْلِ وَعَلَى غَيْرِ مِثَالٍ هُوَ الَّذِي ابْتَدَعَ الْمَسِيحَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ وَالِدٍ بِقُدْرَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ ابْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَلَامٌ جَيِّدٌ وَعِبَارَةٌ صَحِيحَةٌ : وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يُبَيِّنُ بِذَلِكَ تَعَالَى كَمَا لَقْدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ ، وَأَنَّهُ إِذَا قَدَّرَ أَمْرًا وَأَرَادَ كَوْنَهُ ، فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ ، أَي : مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَيَكُونُ ، أَي : فَيُوجَدُ عَلَى وَفْقِ مَا أَرَادَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلُهُ فَيَكُونُ

وَبَنَى بِذَلِكَ أَيْضًا عَلَى أَنَّ خَلْقَ عِيسَى بِكَلِمَةِ « كُنْ » فَكَانَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩]

(١) مسلم (١٦٧) .

(٢) البخاري (٢٠١٠) .



وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلًا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ ﴾ أَي : يُخَاطِبُنَا بِبُيُوتِكَ يَا مُحَمَّدٌ . قُلْتُ : وَهُوَ  
ظَاهِرُ السِّيَاقِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : هَذَا قَوْلُ كُفَّارِ الْعَرَبِ  
﴿ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾ قَالُوا : هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ،  
وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ ، أَنَّ الْقَائِلِينَ ذَلِكَ هُمُ مُشْرِكُو الْعَرَبِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ  
آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [ الأنعام : ١٢٤ ] الْآيَةُ ، وَقَوْلُهُ  
تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلْتِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾  
[ الفرقان : ٢١ ] الْآيَةُ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كُفْرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ،  
وَعُتُوهُمْ ، وَعِنَادِهِمْ وَسَوَالِهِمْ مَا لَا حَاجَةَ لَهُمْ بِهِ ، إِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ وَالْمُعَانَدَةُ ، كَمَا قَالَ  
مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ الْحَالِيَةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِينَ وَغَيْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُكَ  
أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا  
أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [ النساء : ١٥٣ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أَي : أَشْبَهَتْ قُلُوبُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ قُلُوبَ  
مَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالْعُتُوِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ  
قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ ﴿ أَتَوَصَّوْا بِهِ ﴾ [ الذاريات : ٥٢-٥٣ ]  
الْآيَةُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَي : قَدْ أَوْضَحْنَا الدَّلَالَاتِ  
عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ بِمَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهَا إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ ، وَزِيَادَةَ أُخْرَى لِمَنْ أَيَقِنَ  
وَصَدَّقَ وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ وَفَهُمَ مَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَأَمَّا مَنْ خَتَمَ اللَّهُ  
عَلَى قَلْبِهِ وَسَمِعِهِ ، وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَأُولَئِكَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ  
حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١١﴾

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ قَالَ : بَشِيرًا بِالْجَنَّةِ ، وَنَذِيرًا مِنَ النَّارِ .  
قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ أَي : لَا نَسْأَلُكَ عَنْ كُفْرٍ مَنْ كَفَرَ بِكَ  
كَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ  
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١٠﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٢] الْآيَةَ ، وَأَشْبَاهَهُ  
ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ فَقُلْتُ : أَخْبِرْنِي  
عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ ، فَقَالَ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ  
بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ؛ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَنَذِيرًا وَحِرْزًا  
لِلْأُمِّيِّينَ ، وَأَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكَّلَ ، لَا فَظًّا ، وَلَا غَلِيظًا ، وَلَا  
صَخَّابَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَعْفِرُ ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ  
حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعُوجَاءَ ، بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَيَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ،  
وَأَذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا <sup>(١)</sup> .

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ  
هُوَ الْهُدَىٰ وَلَنْ أَتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ  
مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٢﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءَأُولَئِكَ  
يُؤْمِنُونَ بِهِ ءَوَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ءَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٣﴾

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِي بِقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ  
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ ، وَكَيْسَتْ الْيَهُودُ - يَا مُحَمَّدٌ - وَلَا النَّصَارَىٰ بِرَاضِيَةٍ عَنْكَ أَبَدًا ، فَدَعُ  
طَلَبَ مَا يُرْضِيهِمْ وَيُؤَافِقُهُمْ وَأَقْبَلَ عَلَى طَلَبِ رِضَا اللَّهِ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى مَا بَعَثَكَ اللَّهُ بِهِ  
مِنَ الْحَقِّ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ﴾ أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدٌ : إِنَّ هُدَىٰ

(١) صحيح إلى عبد الله بن عمرو - رضي الله عنها - والأثر أخرجه أحمد ( ١٧٤ / ٢ ) ، وانظر أيضا البخاري ( حديث ٢١٢٥ ) .

اللَّهُ الَّذِي بَعَثَنِي بِهِ هُوَ الْهُدَى ، يَعْنِي هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الشَّامِلُ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ  
 وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلْأُمَّةِ عَنِ اتِّبَاعِ طَرَائِقِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ،  
 بَعْدَ مَا عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْخُطَابَ مَعَ الرَّسُولِ  
 وَالْأَمْرَ لِأُمَّتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ هُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .  
 وَقِيلَ : هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ حَقَّ  
 تِلَاوَتِهِ أَنْ يُجِلَّ حَلَالُهُ وَيُحْرَمَ حَرَامُهُ ، وَيَقْرَأَهُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ ، وَلَا يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ  
 مَوَاضِعِهِ ، وَلَا يَتَأَوَّلُ مِنْهُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ » ، وَقِيلَ : ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾  
 يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ خَبَرٌ عَنْ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ  
 تِلَاوَتِهِ ﴾ أَي : مَنْ أَقَامَ كِتَابَهُ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ حَقَّ  
 إِقَامَتِهِ ، آمَنَ بِمَا أُرْسَلْتَكَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ  
 وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ ﴾ [ المائدة : ٦٦ ] الْآيَةَ . وَقَالَ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى  
 شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ رَبِّكُمْ ﴾ [ المائدة : ٦٨ ] أَي : إِذَا  
 أَقَمْتُمُوهَا حَقَّ الإِقَامَةِ ، وَأَمْسَمْتُمْ بِهَا حَقَّ الإِيْمَانِ ، وَصَدَقْتُمْ مَا فِيهَا مِنَ الإِخْبَارِ  
 بِمَبْعَثِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَنَعْتِهِ ، وَصِفَتِهِ ، وَالْأَمْرَ بِاتِّبَاعِهِ ، وَنَصْرِهِ ، وَمُوازَرَّتِهِ فَادْكُمُ ذَلِكَ  
 إِلَى الْحَقِّ ، وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ  
 النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَخْدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [ الأعراف : ١٥٧ ]  
 الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا  
 يُتْلَى عَلَيْهِمْ تَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا  
 لَمَفْعُولًا ﴾ [ الإسراء : ١٠٧ - ١٠٨ ] أَي : إِنْ كَانَ مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ شَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَوَاقِعًا ،  
 وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا  
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [ آل عمران : ٢٠ ] ، وَهَذَا قَالَ

تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْنَا مَوْعِدَهُ ﴾ [هود : ٢٧] ، وَفِي الصَّحِيحِ « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ »<sup>(١)</sup>.

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٣٢﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي صَدْرِ السُّورَةِ ، وَكُرِّرَتْ هَاهُنَا ، لِلتَّأْكِيدِ ، وَالْحَثِّ عَلَى إِتِّبَاعِ الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، الَّذِي يَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي كُتُبِهِمْ ، وَنَعْتِهِ ، وَاسْمِهِ ، وَأَمْرِهِ ، وَأُمَّتِهِ ، يَحَذِّرُهُمْ مِنْ كَيْتَانِ هَذَا ، وَكَيْتَانِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، مِنَ النِّعَمِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ ، وَلَا يَحْسُدُوا بَنِي عَمَّتِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ الْخَاتَمِ مِنْهُمْ ، وَلَا يَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ الْحَسَدُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ ، وَتَكْذِيبِهِ ، وَالْحَيْدِ عَنْ مُوَافَقَتِهِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۗ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يُقُولُ تَعَالَى مُنْبَهَا عَلَى شَرَفِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِهِ ﷺ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ إِمَامًا لِلنَّاسِ يُقْتَدَى بِهِ فِي التَّوْحِيدِ ، حِينَ قَامَ بِنَا كَلْفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أَي : وَادَّكَّرَ يَا مُحَمَّدُ ، هُوَ لِأَيِّ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَلَيْسُوا عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا الَّذِي هُوَ عَلَيْهَا مُسْتَقِيمٌ ، فَأَنْتَ وَالَّذِينَ مَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اذْكُرْ هُوَ لِأَيِّ ابْتِلَاءِ اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٥٣) ولفظه : «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» ، وهذا يشير إلى أن الحافظ ابن كثير - رحمه الله - يروي الأحاديث بالمعنى .

إِبْرَاهِيمَ ، أَي : اِخْتِبَارُهُ لَهُ بِمَا كَلَّفَهُ بِهِ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ﴿ فَاتَّمَّهُنَّ ﴾ أَي : قَامَ بِهِنَّ كُلَّهِنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ أَي : وَفَّى جَمِيعَ مَا شَرَعَ لَهُ ؛ فَعَمِلَ بِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَنَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ النحل : ١٢٠ - ١٢٣ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ آل عمران : ٦٧-٦٨ ]

**وَقَوْلُهُ تَعَالَى :** ﴿ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أَي : بِشَرَائِعَ ، وَأَوَامِرَ ، وَنَوَاهٍ ، فَإِنَّ الْكَلِمَاتِ تُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الْكَلِمَاتُ الْقَدْرِيَّةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿ وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ ﴾ [ التَّحْرِيم : ١٢ ] ، وَتُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهَا الشَّرْعِيَّةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ ، أَي : كَلِمَاتُهُ الشَّرْعِيَّةُ ، وَهِيَ إِمَّا خَبْرٌ صِدْقٍ ، وَإِمَّا طَلْبُ عَدْلٍ إِنْ كَانَ أَمْرًا أَوْ نَهْيًا ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَّمَّهُنَّ ﴾ أَي : قَامَ بِهِنَّ قَالَ : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ أَي : جَزَاءً عَلَى مَا فَعَلَ ، كَمَا قَامَ بِالْأَوَامِرِ ، وَتَرَكَ الزَّوْاجِرَ ، جَعَلَهُ اللَّهُ لِلنَّاسِ قُدْوَةً ، وَإِمَامًا يُقْتَدَى بِهِ ، وَيُخْتَدَى حَذْوُهُ .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ فِي تَعْيِينِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي اخْتَبَرَ اللَّهُ بِهَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ : اِبْتَلَاهُ اللَّهُ بِالْمَنَاسِكِ . وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ قَالَ اِبْتَلَاهُ بِالطَّهَارَةِ : حَمْسٌ فِي الرَّأْسِ ، وَحَمْسٌ فِي الْجَسَدِ ؛ فِي الرَّأْسِ قَصُّ الشَّارِبِ ، وَالْمُضْمَضَّةُ ، وَالِاسْتِنْشَاقُ ، وَالسُّوَاكُ ، وَفَرَقَ الرَّأْسِ . وَفِي الْجَسَدِ : تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ ، وَالْحِثَانُ ، وَنَتْفُ الْإِبْطِ ، وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ . وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ( الْفِطْرَةُ حَمْسٌ : الْحِثَانُ ،

وَالِاسْتِحْدَادُ، وَقَصُّ الشَّارِبِ، وَتَقْلِيمُ الْأَطْفَارِ، وَتَنْفُؤُ الْإِبْطِ» (١).

وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ : أَي : وَاللَّهِ لَقَدْ ابْتَلَاهُ بِأَمْرِ فَصَبَرَ عَلَيْهِ - ابْتَلَاهُ بِالْكُوكَبِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، فَأَحْسَنَ فِي ذَلِكَ ، وَعَرَفَ أَنَّ رَبَّهُ دَائِمٌ لَا يَزُولُ ، فَوَجَّهَ وَجْهَهُ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِالْهَجْرَةِ فَخَرَجَ مِنْ بِلَادِهِ وَقَوْمِهِ حَتَّى لَحِقَ بِالسَّامِ ، مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ ابْتَلَاهُ بِالنَّارِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ ، فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ ، وَابْتَلَاهُ اللَّهُ بِذَبْحِ ابْنِهِ وَالْحَتَّانِ ، فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ .

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ مَا حَاصِلُهُ : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْكَلِمَاتِ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ ذَلِكَ ، وَلَا يَجُوزُ الْجُزْمُ بِشَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهُ الْمُرَادُ عَلَى التَّعْيِينِ ؛ إِلَّا بِحَدِيثٍ ، أَوْ إِجْمَاعٍ . قَالَ : وَلَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ بِنَقْلِ الْوَاحِدِ ، وَلَا بِنَقْلِ الْجَمَاعَةِ الَّذِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ : لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا ، سَأَلَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ الْأَيْمَةَ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ظَالِمُونَ ، وَأَنَّهُ لَا يَنَاهُهُمْ عَهْدُ اللَّهِ ، وَلَا يَكُونُونَ أَيْمَةً فَلَا يُقْتَدَى بِهِمْ . وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ أُجِيبَ إِلَى طَلْبَتِهِ ، قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ فَكُلُّ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللَّهُ ، وَكُلُّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ ، فَفِي ذُرِّيَّتِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

مَضْمُونٌ مَا فَسَّرَ بِهِ الْأَيْمَةَ هَذِهِ الْآيَةَ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ شَرَفَ الْبَيْتِ ، وَمَا جَعَلَهُ مَوْصُوفًا بِهِ شَرْعًا وَقَدْرًا ؛ مِنْ كَوْنِهِ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ، أَي : جَعَلَهُ مَحَلًّا تَشْتَاتُقُ إِلَيْهِ الْأَرْوَاحُ ، وَتَحْنُ إِلَيْهِ ، وَلَا تَقْضِي مِنْهُ وَطْرًا ، وَلَوْ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ كُلَّ عَامٍ ،

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٨٨٩)، ومسلم (حديث ٢٥٧).

اِسْتَجَابَةَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِدُعَاءِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنْ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ ﴾ ، وَيَصِفُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَعَلَهُ آمِنًا ؛ مَنْ دَخَلَهُ آمِنٌ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، ثُمَّ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ وَأَخِيهِ فِيهِ فَلَا يَعْرِضُ لَهُ ، كَمَا وَصَفَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧] أَي : يَدْفَعُ عَنْهُمْ بِسَبَبِ تَعْظِيمِهَا الشُّوَاءَ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ نَبَّهَ عَلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ . فَقَالَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه وَاقْتَرْتُ رَبِّي صلى الله عليه وسلم فِي ثَلَاثٍ ؛ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! لَوْ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ؟ فَتَزَلَّتْ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِنْ نِسَاءُكَ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِنَّ الْبُرِّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أَمُرْتَهُنَّ أَنْ يَحْتَجِبْنَ ؟ فَتَزَلَّتْ آيَةُ الْحِجَابِ . وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نِسَاءُهُ فِي الْغَيْرَةِ ، فَقُلْتُ لَهُنَّ : ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ [التحریم: ٥] ، فَتَزَلَّتْ كَذَلِكَ <sup>(١)</sup> . وَرَوَاهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ عُمَرَ قَالَ : وَاقْتَرْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ : فِي الْحِجَابِ ، وَفِي أُسَارَى بَدْرِ ، وَفِي مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ <sup>(٢)</sup> .

الْمُرَادُ بِالْمَقَامِ : إِنَّمَا هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي كَانَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام يَقُومُ عَلَيْهِ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، لَمَّا اِرْتَفَعَ الْجُدَارُ أَتَاهُ إِسْمَاعِيلُ عليه السلام بِهِ لِيَقُومَ فَوْقَهُ ، وَيُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، فَيَضَعُهَا بِيَدِهِ لِرَفْعِ الْجُدَارِ ، وَكُلَّمَا كَمَّلَ نَاحِيَةً اِنْتَقَلَ إِلَى النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى يَطُوفُ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ ، كُلَّمَا فَرَّغَ مِنْ جِدَارٍ نَقَلَهُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، وَهَكَذَا حَتَّى تَمَّ جُدْرَانُ الْكَعْبَةِ ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ فِي بِنَاءِ الْبَيْتِ ، وَكَانَتْ آثَارُ قَدَمَيْهِ ظَاهِرَةً فِيهِ ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا مَعْرُوفٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا ؛ وَهَذَا قَالَ : أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ اللَّامِيَّةِ :

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

(١) أحد في المسند (٢٤/١) ، والبخاري (حديث ٤٠٢) .

(٢) مسلم (حديث ١٧٦٣) .

وَقَدْ أَدْرَكَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ فِيهِ أَيضًا . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : رَأَيْتُ الْمَقَامَ فِيهِ  
 أَصَابِعُهُ الطَّيِّبِ وَأَخْضَصُ قَدَمَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ .  
 وَعَنْ قَتَادَةَ ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، إِنَّمَا أَمَرُوا أَنْ يُصَلُّوا عِنْدَهُ وَلَمْ  
 يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ . وَقَدْ تَكَلَّفَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ شَيْئًا مَا تَكَلَّفَتْهُ الْأُمَّمُ قَبْلَهَا ، وَلَقَدْ ذَكَرَ لَنَا  
 مَنْ رَأَى أَثَرَ عَقْبِهِ ، وَأَصَابِعِهِ فِيهِ ، فَمَا زَالَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ يَمَسِّحُونَهُ حَتَّى اخْتَلَوْا قِيَامَهُ  
 وَإِنَّمَحَى .

قُلْتُ : وَقَدْ كَانَ هَذَا الْمَقَامُ مُلصَقًا بِجِدَارِ الْكَعْبَةِ قَدِيمًا ، وَمَكَانُهُ مَعْرُوفٌ الْيَوْمَ  
 إِلَى جَانِبِ الْبَابِ مِمَّا يَلِي الْحَجَرَ يَمَنَةَ الدَّخِيلِ مِنَ الْبَابِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُسْتَقَلَّةِ هُنَاكَ ،  
 وَكَانَ الْحَلِيلُ الطَّيِّبِ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَضَعَهُ إِلَى جِدَارِ الْكَعْبَةِ ، أَوْ أَنَّهُ انْتَهَى  
 عِنْدَهُ الْبِنَاءُ فَتَرَكَهُ هُنَاكَ ؛ وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ هُنَاكَ عِنْدَ الْفِرَاقِ مِنَ  
 الطَّوَافِ ، وَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ حَيْثُ انْتَهَى بِنَاءُ الْكَعْبَةِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا  
 آخَرُهُ عَنْ جِدَارِ الْكَعْبَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه - أَحَدُ الْأَيْمَةِ الْمَهْدِيِّينَ ،  
 وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الَّذِينَ أَمَرْنَا بِاتِّبَاعِهِمْ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ الْقُرْآنَ بِوَفَاقِهِ فِي الصَّلَاةِ  
 عِنْدَهُ - وَهَذَا لَمْ يُنَكِّرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - . قَالَ  
 الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : قَوْلُهُ ﴿ وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ قَالَ : أَمَرَهُمَا اللَّهُ أَنْ  
 يُطَهِّرَاهُ مِنَ الْأَدَى وَالنَّجَسِ ، وَلَا يُصِيبَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ :  
﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ قَالَ : مِنَ الْأَوْثَانِ . وَقِيلَ ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾  
 أَيُّ : بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنَ الشُّرْكِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ فَالطَّوَافُ بِالْبَيْتِ  
 مَعْرُوفٌ . ﴿ وَالْعَاكِفِينَ ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ قَالَ :  
 إِذَا كَانَ مُصَلِّيًا فَهُوَ مِنَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : فَمَعْنَى الْآيَةِ ، وَأَمَرْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِتَطْهِيرِ  
 بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ، وَالتَّطْهِيرُ الَّذِي أَمَرَهُمَا بِهِ فِي الْبَيْتِ هُوَ : تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَصْنَامِ ،  
 وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فِيهِ ، وَمِنَ الشُّرْكِ ، ثُمَّ أوردَ سُؤَالَ فَقَالَ : فَإِنْ قِيلَ : فَهَلْ كَانَ قَبْلَ  
 بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عِنْدَ الْبَيْتِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي أَمَرَ بِتَطْهِيرِهِ مِنْهُ ؟ وَأَجَابَ بِوَجْهَيْنِ :



أَحَدَهُمَا : أَنَّهُ أَمَرَهُمَا بِتَطْهِيرِهِ بِمَا كَانَ يُعْبَدُ عِنْدَهُ زَمَانَ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ الْأَصْنَامِ ،  
وَالْأَوْثَانِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ سُنَّةً لِمَنْ بَعْدَهُمَا ؛ إِذْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ إِبْرَاهِيمَ إِمَامًا  
يُقْتَدَى بِهِ كَمَا قَالَ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾ قَالَ : مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي  
يُعْبَدُونَ ، الَّتِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُعْظَمُونَهَا . قُلْتُ : وَهَذَا الْجَوَابُ مُفْرَعٌ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُعْبَدُ  
عِنْدَهُ أَصْنَامٌ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَيَحْتَاجُ إِثْبَاتٌ هَذَا إِلَى دَلِيلٍ عَنِ الْمَعْصُومِ مُحَمَّدٍ عليه السلام .

وَالْجَوَابُ الثَّانِي : أَنَّهُ أَمَرَهُمَا أَنْ يُخْلِصَا فِي بِنَائِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَيُنْبِئُهُ  
مُطَهَّرًا مِنَ الشَّرِكِ وَالرَّيْبِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى  
مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ ﴾ [التوبة : ١٠٩] قَالَ :  
فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾ أَيُّ : إِبْنَائِهِ عَلَى  
طَهْرٍ مِنَ الشَّرِكِ فِي وَالرَّيْبِ ، كَمَا قَالَ السُّدِّيُّ : ﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي ﴾ إِبْنِيَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ .  
وَمُلَخَّصٌ هَذَا الْجَوَابِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -  
أَنْ يَبْنِيَا الْكَعْبَةَ عَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لِلطَّائِفِينَ بِهِ وَالْعَاكِفِينَ عِنْدَهُ ،  
وَالْمُصَلِّينَ إِلَيْهِ مِنَ الرُّكْعِ السُّجُودِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ  
الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾  
[الحج : ٢٦]

وَتَطْهِيرُ الْمَسَاجِدِ مَأْخُودٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِي بُيُوتٍ  
أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] ،  
وَمِنَ السُّنَّةِ ، مِنْ أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ ، مِنْ الْأَمْرِ بِتَطْهِيرِهَا ، وَتَطْيِيبِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ  
صِيَائِهَا مِنَ الْأَذَى وَالنَّجَاسَاتِ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَهَذَا قَالَ عليه السلام : (( إِنَّمَا بُنِيََتْ  
الْمَسَاجِدُ لِأَنَّ بَيْتَ لَهُ ))<sup>(١)</sup> .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ  
ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى  
عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٥٦٩) .

وَاسْمَعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي طَلْحَةَ : « ( التَّمَسُّ لِي غُلَامًا مِنْ غِلْمَانِكُمْ يَخْدُمُنِي ) » فَخَرَجَ بِي أَبُو طَلْحَةَ يُرِدُنِي وَرَاءَهُ ، فَكُنْتُ أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُلَّمَا نَزَلَ ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ : ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لَهُ أَحَدٌ قَالَ : « هَذَا جَبَلٌ يُحِينُنَا وَنُحِبُهُ » فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَحْرَمُ مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا ، مِثْلُ مَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَدِينِهِمْ وَصَاعِيهِمْ »<sup>(١)</sup> وَأَيْضًا عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَهُ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ »<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ فَجَعَلَهَا حَرَمًا ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ حَرَامًا مَا بَيْنَ مَا زَمِنَهَا أَنْ لَا يُهْرَاقَ فِيهَا دَمٌ ، وَلَا يُحْمَلُ فِيهَا سِلَاحٌ لِقِتَالٍ ، وَلَا تُحْبَطُ فِيهَا شَجَرَةٌ إِلَّا لِعَلْفٍ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا ، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدَنَّا ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ »<sup>(٣)</sup> .  
وَالْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْمَدِينَةِ كَثِيرَةٌ ، وَإِنَّمَا أوردْنَا مِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِتَحْرِيمِ إِبْرَاهِيمَ ؑ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ مُطَابَقَةِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ مَكَّةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٤)</sup> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ،

(١) انظر البخاري (٢٨٩٣) ، ومسلم (١٣٦٥) .

(٢) البخاري (١٨٨٥) ، ومسلم (١٣٦٩) .

(٣) مسلم (حديث ١٣٧٤) .

(٤) البخاري (حديث ١٥٨٧) ، ومسلم (١٣٢٣) .

وَلَمْ يَحِلُّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ؛ وَلَا يُتَفَرَّ صَيْدُهُ ، وَلَا يُلْتَقَطُ لِقَطْعَتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يُحْتَلَى خَلَاهَا » فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! إِلَّا الْإِدْخِرَ ؛ فَإِنَّهُ لَعَيْنِهِمْ ، وَلِيَبُوتِهِمْ ، فَقَالَ : « إِلَّا الْإِدْخِرَ » وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ .

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ : ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أُحَدِّثَكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ الْفَتْحِ ، سَمِعْتُهُ أُذْنَايَ ، وَوَعَاهُ قَلْبِي ، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ ، إِنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ ، فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يَوْمَ مِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، وَلَا يُعْضَدَ بِهَا شَجَرَةٌ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُولُوا : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ ﷺ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ؛ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ » فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ : مَا قَالَ لَكَ عَمْرٍو ؟ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ ، إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا ، وَلَا فَارًّا بِدَمٍ ، وَلَا فَارًّا بِخَزْيَةٍ <sup>(١)</sup> .

فَإِذَا عَلِمَ هَذَا فَلَا مُتَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَبَيْنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حَرَّمَهَا ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَلَّغَ عَنِ اللَّهِ حُكْمَهُ فِيهَا ، وَتَحْرِيمُهُ إِيَّاهَا ، وَأَنَّهَا لَمْ تَزَلْ بَلَدًا حَرَامًا عِنْدَ اللَّهِ قَبْلَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لَهَا كَمَا أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَ اللَّهِ حَاتَمَ النَّبِيِّينَ ؛ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجِدِلٍ فِي طَيْبَتِهِ ، وَمَعَ هَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ ،

وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِمَا سَقَى فِي عِلْمِهِ وَقَدْرِهِ . وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَخْبَرْنَا عَنْ بَدءِ أَمْرِكَ . فَقَالَ : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ، وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَرَأَتْ أُمِّي كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » <sup>(٢)</sup> أَيُّ : أَخْبَرْنَا عَنْ بَدءِ ظَهْوَرِ أَمْرِكَ ، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٠٤) ، ومسلم (حديث ١٣٥٤) .

(٢) حسن لشواهدة : أخرجه أحمد (٢٦٢/٥) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ قَالَ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أَي : مِنْ  
 الْخَوْفِ ، لَا يُرْعَبُ أَهْلُهُ ، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدْرًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ  
 دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ  
 حَوْلِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : ٦٧ ] ، وَقَدْ تَقَدَّمَتِ الْأَحَادِيثُ فِي تَحْرِيمِ الْقِتَالِ فِيهَا ، وَفِي  
 صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَجِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْمَلَ بِمَكَّةَ  
 السَّلَاحَ »<sup>(١)</sup> وَقَالَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ أَي : اجْعَلْ هَذِهِ  
 الْبُقْعَةَ بَلَدًا ءَامِنًا ، وَنَاسَبَ هَذَا ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ بِنَاءِ الْكَعْبَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ  
 ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ ، وَنَاسَبَ هَذَا هُنَاكَ لِأَنَّهُ - وَاللَّهُ  
 أَعْلَمُ - كَانَتْ وَقَعَ دُعَاءُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ وَاسْتِقْرَارِ أَهْلِهِ بِهِ ، وَبَعْدَ مَوْلِدِ  
 إِسْحَاقَ الَّذِي هُوَ أَصْغَرُ سِنًا مِنْ إِسْمَاعِيلَ بِثَلَاثِ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَهَذَا قَالَ فِي آخِرِ  
 الدُّعَاءِ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ  
 الدُّعَاءِ ﴾ [ إبراهيم : ٣٩ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ  
 وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ عَنْ أَبِي بِنِ  
 كَعْبٍ ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾  
 قَالَ : هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعِكْرَمَةَ ، وَهُوَ الَّذِي صَوَّبَهُ ابْنُ جَرِيرٍ  
 - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ : وَقَرَأَ آخَرُونَ ﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ  
 عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ فَجَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تَمَامِ دُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ ابْنُ  
 عَبَّاسٍ يَقُولُ : ذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ ، يَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا . وَعَنْ مُجَاهِدٍ :  
 ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ﴾ يَقُولُ : وَمَنْ كَفَرَ ، فَأَرْزُقُهُ رِزْقًا قَلِيلًا أَيضًا ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ  
 إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : لَمَّا عَزَلَ إِبْرَاهِيمَ الدَّعْوَةَ عَلَىٰ مَنْ أَبِي اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ  
 الْوِلَايَةَ انْقِطَاعًا إِلَى اللَّهِ وَحُبِّيهِ ، وَفِرَاقًا لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ دُرِّيَّتِهِ ، حِينَ

عَرَفَ أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْهُمْ ظَالِمٌ ؛ لَا يَنَالُهُ عَهْدُهُ بِخَيْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ فَإِنِّي أَرْزُقُ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ ، وَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَحْجُرُهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ النَّاسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أَيْضًا أَرْزُقُهُمْ كَمَا أَرْزُقُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَلْخَلَقَ خَلْقًا لَا أَرْزُقُهُمْ ؟ أُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ، ثُمَّ أَضْطَرَّهُمْ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، ثُمَّ قرأ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَتُولًا ۖ وَهَتُولًا ۖ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٠] ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١١﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿ يونس : ٦٩-٧٠ ﴾

وَقَوْلُهُ : ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : ثُمَّ أُلْحِثُهُ بَعْدَ مَتَاعِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَبَسَطْنَا عَلَيْهِ مِنْ ظِلِّهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْظِرُهُمْ وَيُمَهِّلُهُمْ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [الحج : ٤٨] ، وَفِي الصَّحِيحِينَ : « لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا ، وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ » ﴿١٢﴾ ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا : « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » ثُمَّ قرأ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿١٣﴾ [هود : ١٠٢]

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿١٤﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ ﴿ فَالْقَوَاعِدُ : جَمْعُ قَاعِدَةٍ ، هِيَ : السَّارِيَةُ وَالْأَسَاسُ يَقُولُ تَعَالَى : وَادْكُرْ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلِ -

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٠٩٩) ، ومسلم (حديث ٢٨٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٦٨٦) ، ومسلم (حديث ٢٥٨٣) .

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - الْبَيْتُ ، وَرَفَعَهُمَا الْقَوَاعِدَ مِنْهُ ، وَهُمَا يَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

عَنْ وَهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ ، ثُمَّ يَكْبِي وَيَقُولُ : يَا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ تَرْفَعُ قَوَائِمَ بَيْتِ الرَّحْمَنِ ، وَأَنْتَ مُسْفِقٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْكَ . وَهَذَا كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُلَصِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ أَي : يُعْطُونَ مَا أُعْطُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ وَالْقَرَابَاتِ ﴿ وَقَلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ ﴾ أَي : خَائِفَةٌ أَنْ لَا يَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(١)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطِقَ مِنْ قَبْلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - اتَّخَذَتْ مِنْطِقًا ؛ لِتُعْفِيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةِ ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ، وَبَابِنَهَا إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَهِيَ تُرْضِعُهُ ، حَتَّى وَضَعَهَا عِنْدَ الْبَيْتِ ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ ، وَكَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ ، وَكَيْسَ بِهَا مَاءٌ ، فَوَضَعَهَا هُنَاكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعْتُهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ : يَا إِبْرَاهِيمُ ! أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ أُنَيْسٌ ؟ وَلَا شَيْءٌ ، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَقَالَتْ : اللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ . قَالَتْ : إِذَا لَا يُضَيِّعُنَا ، ثُمَّ رَجَعَتْ ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام ، حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بِهِدِهِ الدَّعَوَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] حَتَّى بَلَغَ : ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ ، وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا نَفَدَ مَا فِي السَّقَاءِ عَطِشَتْ ، وَعَطِشَ ابْنُهَا ، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى - أَوْ قَالَ : يَتَلَبَّطُ - فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةً أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَوَجَدَتْ الصِّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الْأَرْضِ يَلِيهَا ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْ الْوَادِي تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَهَبَطَتْ مِنَ الصِّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْوَادِي رَفَعَتْ طَرْفَ دِرْعِهَا ، ثُمَّ سَعَتْ

(١) أخرجه البخاري ( حديث ٣٣٦٤ ) .

سَعَى الْإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِي ، ثُمَّ آتَتِ الْمَرْوَةَ ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا ، فَظَنَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَلِذَلِكَ سَعَى النَّاسُ بَيْنَهُمَا » . فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا فَقَالَتْ : « صَهٍ » - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ فَسَمِعَتْ أَيضًا فَقَالَتْ : قَدْ أَسَمِعْتُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلِكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ ، فَبَحَثَ بِعَقْبِهِ ، أَوْ قَالَ بِجَنَاحِهِ حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ ، فَجَعَلَتْ مُحْوِضَهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا ، وَجَعَلَتْ تَعْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَمَا تَعْرِفُ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَوْ قَالَ لَوْ لَمْ تَعْرِفْ مِنَ الْمَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا » قَالَ فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا ، فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ : لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتًا لِلَّهِ يَنْبِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ . وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ ، أَوْ أَهْلَ بَيْتِ مِنْ جُرْهُمَ ، مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِدًا ، فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَيْنِ ، فَإِذَا هُمُ بِالْمَاءِ ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ ، فَأَقْبَلُوا ، قَالَ : وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ ، فَقَالُوا : أَتَأْذِينِ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ . وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ عِنْدَنَا ، قَالُوا : نَعَمْ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ ، وَهِيَ تُحِبُّ الْأَنْسَ » فَنَزَلُوا ، وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ وَشَبَّ الْغُلَامُ ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ ، وَأَنْفَسَهُمْ ، وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوْجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرْكَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ ، فَقَالَتْ : نَحْنُ بِشَرٍّ ، نَحْنُ فِي ضَيْقٍ وَشِدَّةٍ ، وَشَكَتْ إِلَيْهِ ، قَالَ : فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكَ فَأَقْرِئِي عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَقُولِي لَهُ : يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا

جاء إسماعيلُ كأنه أنس شيئًا ، فقال : هل جاءكم من أحدٍ ؟ ، قالت : نعم ، جاءنا شيخٌ كذا وكذا ، فسألنا عنك ، فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا في جهدٍ وشدةٍ ، قال : فهل أوصاك بشيءٍ ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غيرَ عتبه بابك ، قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ، فالحقني بأهلك ، وطلقها ، وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم فلم يجدوه ، فدخل على امرأته فسألتها عنه ، فقالت : خرج يتبعني لنا ، قال : كيف أنتم ؟ وسألتها عن عيشتهم وهيتهم ؟ فقالت : نحن بخيرٍ وسعةٍ ، وأنت على الله عز وجل ، قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شربكم ؟ قالت : الماء . قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبي ﷺ : « ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم لدعاهم فيه » قال : فهما لا يخلو عليهما أحدٌ بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فأقرني عليه السلام ومريه يثبت عتبه بابي . فلما جاء إسماعيلُ ، قال : هل أتاكم من أحدٍ ؟ قالت : نعم أنا شيخٌ حسن الهيئة ، وأنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخيرٍ قال : فأوصاك بشيءٍ ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرُك أن تثبت عتبه بابك ، قال : ذاك أبي ، وأنت العتبه ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيلُ يبزي نبلاً له تحت دوحه قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعاً كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيلُ إن الله أمرني بأمرٍ قال : فاصنع ما أمرُك ربك ، قال : وتعينني . قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمةٍ مرتفعةٍ على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيمُ يبني ، حتى إذا ارتفع البناءُ جاء بهذا الحجرِ فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني وإسماعيلُ يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قال : فجعلوا بينانٍ حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .



وَفِي الْبُحَارِيِّ أَيْضًا<sup>(١)</sup> : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا كَانَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْنَ أَهْلِهِ مَا كَانَ ، خَرَجَ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إِسْمَاعِيلَ ، وَمَعَهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ فَيَدِرُّ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا ، حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ فَوَضَعَهَا تَحْتَ دَوْحَةٍ ثُمَّ رَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى أَهْلِهِ ، فَاتَّبَعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ حَتَّى بَلَغُوا كَدَاءً ، نَادَتْهُ مِنْ وَرَاءِهِ : يَا إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَنْ تَتْرُكُنَا ؟ قَالَ : إِلَى اللَّهِ ، قَالَتْ : رَضِيتُ بِاللَّهِ . قَالَ : فَارْجِعِي ، فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ ، وَيَدِرُّ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا ، حَتَّى لَمَّا فَنِي الْمَاءَ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَفَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسَسُ أَحَدًا ، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا ، فَفَنَظَرَتْ هَلْ لِحُسُّ أَحَدًا ، فَلَمْ تُحْسِ أَحَدًا ، فَلَمَّا بَلَغَتِ الْوَادِي سَعَتْ حَتَّى أَتَتْ الْمَرْوَةَ ، وَفَعَلَتْ ذَلِكَ أَشْوَاطًا ، حَتَّى أَمَّتْ سَبْعًا ، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَفَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ الصَّبِيُّ ، فَذَهَبَتْ فَفَنَظَرَتْ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ ، كَأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلْمَوْتِ ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا فَقَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَفَنَظَرْتُ لَعَلِّي أَحْسَسُ أَحَدًا ، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتْ الصَّفَا فَفَنَظَرْتُ وَنَظَرْتُ ، فَلَمْ تُحْسِ أَحَدًا حَتَّى أَمَّتْ سَبْعًا ، ثُمَّ قَالَتْ : لَوْ ذَهَبْتُ فَفَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ ، فَإِذَا هِيَ بِصَوْتِ فَقَالَتْ : أَغَثُ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خَيْرٌ ، فَإِذَا جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : فَقَالَ بَعْقِبِهِ هَكَذَا ، وَغَمَزَ عَقِبَهُ عَلَى الْأَرْضِ ، قَالَ فَانْبَثَقَ الْمَاءُ ، فَدَهَشَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ ، فَجَعَلَتْ تَحْفِرُ قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ « لَوْ تَرَكْتَهُ لَكَانَ الْمَاءُ ظَاهِرًا » قَالَ فَجَعَلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ وَيَدِرُّ لَبْنُهَا عَلَى صَبِيهَا ، قَالَ : فَمَرَّ نَاسٌ مِنْ جُرْهُمَ يَبْطِنُ الْوَادِي ، فَإِذَا هُمْ بِطَيْرٍ ، كَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ وَقَالُوا : مَا يَكُونُ الطَّيْرُ إِلَّا عَلَى مَاءٍ ، فَبَعَثُوا رَسُولَهُمْ ، فَفَنَظَرَ فَإِذَا هُوَ بِالْمَاءِ ، فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ ، فَأَتَوْا إِلَيْهَا ، فَقَالُوا : يَا أُمَّ إِسْمَاعِيلَ أَتَأْذِنِينَ لَنَا أَنْ نَكُونَ مَعَكَ وَنَسْكُنَ مَعَكَ ؟ فَبَلَغَ ابْنُهَا وَنَكَحَ مِنْهُمْ امْرَأَةً ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِأَهْلِهِ : إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي ، قَالَ : فَجَاءَ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ قَالَتْ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، قَالَ : فَوَلِي لَهُ إِذَا جَاءَ غَيْرَ عَتَبَةَ بَابِكَ ، فَلَمَّا أَخْبَرْتَهُ قَالَ : أَنْتِ ذَاكَ فَادْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكْتِي ، قَالَ : فَجَاءَ ، فَقَالَ : أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ ؟ فَقَالَتْ

امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، فَقَالَتْ : أَلَا تَنْزِلَ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ ، فَقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : طَعَامُنَا اللَّحْمُ وَشَرَابُنَا الْمَاءُ ، قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ ، قَالَ : فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ « بَرَكَتُهُ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ » ، قَالَ : ثُمَّ إِنَّهُ بَدَأَ لِإِبْرَاهِيمَ ﷺ ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ إِنِّي مُطَّلِعٌ تَرَكِّي ، فَجَاءَ فَوَافِقَ إِسْمَاعِيلَ مِنْ وَرَاءِ رَمَزَمٍ يُضِلِّحُ نَبْلًا لَهُ ، فَقَالَ : يَا إِسْمَاعِيلُ ، إِنَّ رَبَّكَ ﷻ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا ، فَقَالَ : أَطْعِمْ رَبَّكَ ﷻ ، قَالَ : إِنَّهُ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ تُعِينَنِي عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِذْنُ أَفْعَلُ - أَوْ كَمَا قَالَ - قَالَ فَقَامَ فَجَعَلَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ وَيَقُولَانِ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ قَالَ : حَتَّى ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ وَضَعَفَ الشَّيْخُ عَنْ نَقْلِ الْحِجَارَةِ ، فَقَامَ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ ، فَجَعَلَ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ ، وَيَقُولَانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ الْقَوَاعِدُ : أَسَاسُهُ ، وَاحِدُهَا قَاعِدَةٌ ، وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ وَاحِدُهَا قَاعِدَةٌ .  
عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلَمْ تَرِي أَنَّ قَوْمَكَ حِينَ بَنَوْا الْبَيْتَ افْتَضَرُّوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ؟ قَالَ : « لَوْلَا حَدِيثَانِ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ » فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : لَيْتَنِي كَانَتْ عَائِشَةُ سَمِعَتْ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ اسْتِئْلَامَ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ يَلِيَانِ الْحِجْرَ إِلَّا أَنَّ الْبَيْتَ لَمْ يُتَمَّمْ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدِ بَجَاهِلِيَّةٍ - أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ - لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالْأَرْضِ ، وَلَأَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ »<sup>(٢)</sup> .

وَعَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ : قَالَ لِي ابْنُ الزُّبَيْرِ كَانَتْ عَائِشَةُ تُسِرُّ إِلَيْكَ حَدِيثًا كَثِيرًا فَمَا حَدَّثْتِكَ فِي الْكَعْبَةِ قَالَ : قُلْتُ : قَالَتْ لِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمَكَ

(١) البخاري (حديث ٣٣٦٨) ، ومسلم (حديث ١٣٣٣) .

(٢) انظر هذه المرويات في روايات مسلم (حديث ١٣٣٣) .

حَدِيثُ عَهْدِهِمْ - فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِكُفْرٍ - لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ ، فَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ ، بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ » فَفَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ .

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْلَا حَدَائِئُهُ عَهْدِ قَوْمِكِ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ وَجَعَلْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا حِينَ بَنَتِ الْبَيْتَ اسْتَقْصَرَتْ ، وَجَعَلْتُ لَهَا خَلْفًا » وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ يَقُولُ : حَدَّثَنِي خَالَتِي يَعْنِي عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا عَائِشَةُ لَوْلَا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدِ بِشْرِكِ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا ، وَزِدْتُ فِيهَا سِتَّةَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحَجَرِ ، فَإِنَّ قُرَيْشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتِ الْكَعْبَةَ » انْفَرَدَ بِهِ أَيْضًا .

قُلْتُ : وَلَمْ تَزَلْ عَلَى بِنَاءِ قُرَيْشٍ حَتَّى احْتَرَقَتْ فِي أَوَّلِ إِمَارَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بَعْدَ سَنَةِ سِتِّينَ ، وَفِي آخِرِ وِلَايَةِ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، لَمَّا حَاصَرُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَحِينَئِذٍ نَقَضَهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَبَنَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَدْخَلَ فِيهَا الْحَجَرَ ، وَجَعَلَ لَهَا بَابًا شَرْقِيًّا وَبَابًا غَرْبِيًّا مُلصَقَيْنِ بِالْأَرْضِ ، كَمَا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ خَالَتِهِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ تَزَلْ كَذَلِكَ مُدَّةَ إِمَارَتِهِ ، حَتَّى قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ ، فَرَدَّهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِأَمْرِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَهُ بِذَلِكَ . أَخْرَجَ مُسْلِمٌ بَنُ الْحَجَّاجِ فِي صَحِيحِهِ <sup>(١)</sup> . عَنْ عَطَاءٍ قَالَ : لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ ، يُرِيدُ أَنْ يَجْزِبَهُمْ أَوْ يُجْرِئَهُمْ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ قَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ ، أَنْقَضُهَا ثُمَّ أَنْبِي بِنَاءَهَا ، أَوْ أَصْلِحْ مَا وَهِيَ مِنْهَا ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّهُ قَدْ فَرَّقَ لِي رَأْيِي فِيهَا : أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهِيَ مِنْهَا ، وَتَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا ، وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : لَوْ كَانَ أَحَدُهُمْ احْتَرَقَ بَيْتَهُ مَا رَضِيَ حَتَّى يُجَدِّدَهُ ، فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ ﷺ ، إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا ، ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي ، فَلَمَّا مَضَتْ ثَلَاثٌ ، أَجْمَعَ

رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا ، فَتَحَامَاهَا النَّاسُ أَنْ يُنْزَلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَضَعُدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً ، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ ، تَتَابَعُوا فَتَقَضُّوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الْأَرْضَ ، فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمَدَةً يَسْتُرُ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ .

وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَقُولُ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ بِكُفْرٍ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يَقْوِينِي عَلَى بِنَائِهِ ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعَ ، وَلَجَعَلْتُ لَهُ بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ ، وَبَابًا يُخْرَجُونَ مِنْهُ » قَالَ فَأَنَا أَجِدُ مَا أَنْفَقُ ، وَكُنْتُ أَخَافُ النَّاسَ ، قَالَ : فَزَادَ فِيهِ خَمْسَةَ أَذْرُعَ مِنَ الْحِجْرِ حَتَّى أَبْدَى لَهُ أَسًّا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَبَنَى عَلَيْهِ الْبِنَاءَ ، وَكَانَ طُولُ الْكَعْبَةِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا ، فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ فَزَادَ فِي طُولِهِ عَشْرَةَ أَذْرُعَ ، وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ أَحَدَهُمَا يَدْخُلُ مِنْهُ ، وَالْآخَرَ يُخْرَجُ مِنْهُ ، فَلَمَّا قَتَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ كَتَبَ الْحِجَاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ يَسْتَجِيزُهُ بِذَلِكَ ، وَيُنَجِّرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أَسِّ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيفِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ ، أَمَا مَا زَادَهُ فِي طُولِهِ فَأَقْرَهُ وَأَمَا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ ، وَسَدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ فَتَقَضُّهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ .

وَعِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup> أَيْضًا وَقَدْ الْحَارِثُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي خِلَافَتِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : مَا أَظُنُّ أَبَا حُبَيْبٍ - يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ - سَمِعَ مِنْ عَائِشَةَ مَا كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَهُ مِنْهَا ، قَالَ الْحَارِثُ : بَلَى أَنَا سَمِعْتُهُ مِنْهَا ، قَالَ : سَمِعْتَهَا تَقُولُ مَاذَا ؟ قَالَ : قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ قَوْمَكَ اسْتَقْصَرُوا مِنْ بُنْيَانِ الْبَيْتِ ، وَلَوْلَا حَدَاثَةُ عَهْدِهِمْ بِالشَّرْكِ أَعَدْتُ مَا تَرَكُوا مِنْهُ ، فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ فَهَلُمَّي لِأَرِيكَ مَا تَرَكُوا مِنْهُ » فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرُعَ .

وَعَنْ أَبِي قُرَعَةَ<sup>(٢)</sup> أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ بَيْنَمَا هُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ إِذْ قَالَ : قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الزُّبَيْرِ حَيْثُ يَكْذِبُ عَلَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ سَمِعْتَهَا تَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

(١) انظر مسلم (حديث ١٣٣٣) .

(٢) مسلم (حديث ١٣٣٣) .

(( يَا عَائِشَةُ لَوْلَا حَدِثَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ حَتَّى أَزِيدَ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ ، فَإِنَّ قَوْمَكَ قَصَّرُوا فِي الْبِنَاءِ )) فَقَالَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ : لَا تَقُلْ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مُحَدِّثُ هَذَا . قَالَ لَوْ كُنْتُ سَمِعْتَهُ قَبْلَ أَنْ أَهْدِمَهُ لَتَرَكْتُهُ عَلَى مَا بَنَى ابْنُ الزُّبَيْرِ .

فَهَذَا الْحَدِيثُ كَالْمَقْطُوعِ بِهِ إِلَى عَائِشَةَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهَا مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدٍ وَالْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى صَوَابِ مَا فَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، فَلَوْ تَرَكَ لَكَانَ جَيِّدًا ، وَلَكِنْ بَعْدَ مَا رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى هَذَا الْحَالِ ، فَقَدْ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْ يُغَيَّرَ عَنْ حَالِهِ كَمَا ذُكِرَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَارُونَ الرَّشِيدِ ، أَوْ أَبِيهِ الْمُهَدَّبِيِّ ، أَنَّهُ سَأَلَ الْإِمَامَ مَالِكًا عَنْ هَدْمِ الْكَعْبَةِ وَرَدِّهَا إِلَى مَا فَعَلَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ ، فَقَالَ لَهُ مَالِكٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَجْعَلْ كَعْبَةَ اللَّهِ مَلْعَبَةً لِلْمُلُوكِ ، لَا يَشَاءُ أَحَدٌ أَنْ يَهْدِمَهَا إِلَّا هَدَمَهَا ، فَتَرَكَ ذَلِكَ الرَّشِيدُ ، نَقَلَهُ عِيَاضُ وَالنَّوَوِيُّ . وَلَا تَزَالُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - هَكَذَا إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ إِلَى أَنْ يُجَرَّبَهَا ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (( يُجَرَّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الْحَبَشَةِ ))<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (( كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدٌ أَفْحَجٌ ، يَقْلَعُهَا حَجْرًا حَجْرًا ))<sup>(٢)</sup>. وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، لِمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( لَيُحْجَنَ الْبَيْتُ وَلَيُعْتَمَرَنَّ بَعْدَ خُرُوجِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ))<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةَ لِدُعَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ ﴾ .

(١) البخاري (حديث ١٥٩١)، ومسلم (حديث ٢٩٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٥٩٥).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ١٥٩٣).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَعْنِيَانِ بِذَلِكَ وَاجْعَلْنَا مُسْتَسْلِمِينَ لِأَمْرِكَ خَاضِعِينَ لِطَاعَتِكَ ، لَا نُشْرِكُ مَعَكَ فِي الطَّاعَةِ أَحَدًا سِوَاكَ ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ غَيْرَكَ . وَهَذَا الدُّعَاءُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - كَمَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [ الفرقان : ٧٤ ] ، وَهَذَا الْقَدْرُ مَرْغُوبٌ فِيهِ شَرْعًا ، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُحِبَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قَالَ : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [ إبراهيم : ٣٥ ]

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ ، صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »<sup>(١)</sup> . ﴿ وَأَرَانَا مَنَاسِكَنَا ﴾ عَنْ عَطَاءٍ : أَخْرَجَهَا لَنَا وَعَلَّمْنَاهَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ أَرَانَا مَنَاسِكَنَا ﴾ مَذَابِحَنَا .

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٦٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ تَمَامِ دَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَهْلِ الْحَرَمِ : أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَيُّ : مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَدْ وَافَقَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ الْمُسْتَجَابَةُ قَدَرَ اللَّهِ السَّابِقِ فِي تَعْيِينِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - رَسُولًا فِي الْأُمِّيِّينَ إِلَيْهِمْ وَإِلَى سَائِرِ الْأَعْجَمِيِّينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلَ بَدْءِ أَمْرِكَ ؟ قَالَ صلى الله عليه وسلم : « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ »<sup>(٢)</sup> . وَالْمُرَادُ : أَنَّ أَوَّلَ مَنْ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ وَشَهَرَهُ فِي النَّاسِ إِبْرَاهِيمُ ، عليه السلام وَلَمْ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٦٣١) .

(٢) حسن : وقد تقدم .

يَزَلْ ذِكْرُهُ فِي النَّاسِ مَذْكُورًا مَشْهُورًا سَائِرًا حَتَّى أَفْصَحَ بِاسْمِهِ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ نَسَبًا وَهُوَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ الطَّلِيلُ ، حَيْثُ قَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ خَطِيئًا وَقَالَ : ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] ، وَهَذَا قَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ « دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبُشْرَى عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ » . وَقَوْلُهُ : « وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورَ الشَّامِ » قِيلَ : كَانَ مَنَامًا رَأَتْهُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ ، وَقَصَّتْهُ عَلَى قَوْمِهَا فَشَاعَ فِيهِمْ وَاشْتَهَرَ بَيْنَهُمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ تَوَظُّعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ، يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يَعْنِي : السُّنَّةَ ، وَقِيلَ : الْفَهْمَ فِي الدِّينِ ، وَلَا مَنَافَاةَ ، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : يَعْنِي طَاعَةَ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصَ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ قَالَ : يُعَلِّمُهُمُ الْخَيْرَ فَيَفْعَلُوهُ وَالشَّرَّ فَيَتَّقُوهُ ، وَيُخْبِرُهُمْ بِرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ ، إِذَا أَطَاعُوهُ لَيْسَتْ كَثِيرًا مِنْ طَاعَتِهِ ، وَيَجْتَنِبُوا مَا يُسْخِطُهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أَي : الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْحَكِيمُ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ ، فَيَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَالِّهَا ؛ لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ .

وَمَنْ يَرْعُبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ آصَطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ آصَطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَى الْكُفَّارِ فِيمَا ابْتَدَعُوهُ وَأَحَدْتُوهُ مِنَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ الْمُخَالَفِ لِلْمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، إِمَامِ الْخُنْفَاءِ ؛ فَإِنَّهُ جَرَّدَ تَوْحِيدَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَلَمْ يَدْعُ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَلَا أَشْرَكَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَتَبَرَّأَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ ، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ قَوْمِهِ ، حَتَّى تَبَرَّأَ مِنْ أَبِيهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١١٨﴾

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام: ٧٨-٧٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤] ، وَهَذَا وَأَمْثَالِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أَي : ظَلَمَ نَفْسَهُ بِسَفَهِهِ وَسُوءِ تَدْبِيرِهِ بِتَرْكِهِ الْحَقَّ إِلَى الضَّلَالِ ، حَيْثُ خَالَفَ طَرِيقَ مَنْ اصْطَفَى فِي الدُّنْيَا لِلْهُدَايَةِ وَالرَّشَادِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهِ ، إِلَى أَنْ اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الصَّالِحِينَ السُّعَدَاءِ ، فَمَنْ تَرَكَ طَرِيقَهُ هَذَا وَمَسَلَكَهُ وَمِلَّتَهُ ، وَاتَّبَعَ طُرُقَ الضَّلَالَةِ وَالغَيِّ فَأَيُّ سَفَهٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا ؟ أَمْ أَيُّ ظَلَمٍ أَكْبَرَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِخْلَاصِ وَالِاسْتِسْلَامِ وَالْإِنْقِيَادِ ، فَأَجَابَ إِلَى ذَلِكَ شَرْعًا وَقَدْرًا .

وقوله : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبَ ﴾ أَي : وَصَّى بِهِذِهِ الْمِلَّةِ - وَهِيَ الْإِسْلَامُ اللَّهُ - أَوْ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَى الْكَلِمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لِحُرْصِهِمْ عَلَيْهَا وَمَحَبَّتِهِمْ لَهَا حَافِظُوا عَلَيْهَا إِلَى حِينِ الْوَفَاةِ ، وَوَصَّوْا أَبْنَاءَهُمْ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ .

وقوله : ﴿ يَبْنَئِي إِنْ اللَّهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : أَحْسِنُوا فِي حَالِ الْحَيَاةِ وَالزَّمُومَا هَذَا لِيَرْزُقَكُمْ اللَّهُ الْوَفَاةَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَيُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَجْرَى اللَّهُ الْكَرِيمُ عَادَتَهُ بِأَنَّ مَنْ قَصَدَ الْخَيْرَ وَفَقَّ لَهُ وَيَسَّرَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَوَى صَالِحًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحْتَجًّا عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَبْنَاءِ إِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي



إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - بِأَنَّ يَعْقُوبَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَصَّى بَيْنَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ لِأَنَّ إِسْمَاعِيلَ عُمُهُ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَالْعَرَبُ تُسَمِّي الْعَمَّ أَبَا ، نَقَلَهُ الْقُرْطُبِيُّ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ جَعَلَ الْجَدَّ أَبَا وَحَجَبَ بِهِ الْإِخْوَةَ ، كَمَا هُوَ قَوْلُ الصِّدِّيقِ ، حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ ، ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ : وَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَتْ عَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَآحْمَدُ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ أَنَّهُ يُقَاسِمُ الْإِخْوَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ أَي : نُوحِدُهُ بِالْأَلُوْهِيَّةِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا غَيْرَهُ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [ آل عمران : ٨٣ ] ، وَالْإِسْلَامُ هُوَ مِلَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَاطِبَةً ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ شَرَائِعُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ مَنَاهِجُهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [ الأنبياء : ٢٥ ] ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ وَالْأَحَادِيثُ ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ ﷺ : « نَحْنُ مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ ، أَوْلَادُ عَلَاتٍ دِينَنَا وَاحِدٌ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَي : مَضَتْ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَي : إِنَّ السَّلَفَ الْمَاضِينَ مِنْ آبَائِكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا يَنْفَعُكُمْ انْتِسَابُكُمْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا خَيْرًا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ لَهُمْ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَهَذَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ : « مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسِرَّعَ بِهِ نَسْبُهُ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى يَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا

(١) انظر البخاري (حديث ٣٤٤٢) ، (حديث ٣٤٤٣) .

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٩٩) .

كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿ قُلْ بَلْ مَلَأَ بَرَهِمَ حَنِيفًا ﴾ أَي : لَا تُرِيدُ مَا دَعَوْمُونَا إِلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، بَلْ تَتَّبِعُ ﴿ مَلَأَ بَرَهِمَ حَنِيفًا ﴾ أَي : مُسْتَقِيمًا . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : الْحَنِيفُ : الَّذِي يَسْتَقْبِلُ الْبَيْتَ بِصَلَاتِهِ ، وَيَرَى أَنَّ حَجَّهُ عَلَيْهِ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٧٦﴾

أَرَشَدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَةِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مُفَصَّلًا ، وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ مُجْمَلًا ، وَنَصَّ عَلَىٰ أَعْيَانٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَجْمَلَ ذِكْرَ بَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَنَّ لَا يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، بَلْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ كُلَّهُمْ ، وَلَا يَكُونُوا كَمَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ ﴿١٧٦﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿ [النساء : ١٥٠] ﴾

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَ ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ ﴾ » ﴿١٧٧﴾ .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَكْثَرَ مَا يُصَلِّي الرَّكَعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ بِ ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الْآيَةِ ، وَالْأُخْرَىٰ بِ ﴿ ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿١٧٨﴾ . وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ وَقَتَادَةُ : الْأَسْبَاطُ : بَنُو يَعْقُوبَ إِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَلَدَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ ، فَسَمُّوا الْأَسْبَاطَ . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : الْأَسْبَاطُ :

(١) البخاري (حديث ٤٤٨٥) ، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٨٧) .

(٢) انظر مسلم (حديث ٧٢٧) ، وفي بعض الروايات (عند مسلم أيضًا) كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ ، والتي في آل عمران ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

قَبَائِلٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَسْبَاطِ هَاهُنَا شُعُوبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْمَوْجُودِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا قَالَ مُوسَى لَهُمْ ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠] ، وَقَالَ فَتَادَةُ : أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُصَدِّقُوا بِكِتَابِهِ كُلِّهَا وَبِرُسُلِهِ .

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ آهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى فَإِنْ ءَامَنُوا ، يَعْنِي : الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعَٰغِيْرِهِمْ ، بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ - يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴿ فَقَدْ آهْتَدُوا ﴾ أَي : فَقَدْ أَصَابُوا الْحَقَّ وَأُرْسِدُوا إِلَيْهِ ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَي : عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أَي : فَسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ وَيُظْفِرُكَ بِهِمْ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ أَي : دِينَ اللَّهِ ، وَانْتِصَابُ صِبْغَةَ اللَّهِ : إِمَّا عَلَى الْإِغْرَاءِ كَقَوْلِهِ ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ ﴾ أَي : الزَّمُوا ذَلِكَ عَلَيْكُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ ﴿ مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٢٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهِيدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُرْشِدًا نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ إِلَى دَرِّءِ مُجَادَلَةِ الْمُشْرِكِينَ :

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ أَي : تُنَاطِرُونَنَا فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْإِخْلَاصِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ وَاتِّبَاعِ أَوْامِرِهِ ، وَتَرْكِ زَوَاجِرِهِ ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ الْمُنْصَرِّفُ فِينَا وَفِيكُمْ ، الْمُسْتَحِقُّ لِإِخْلَاصِ الْإِلَهِيَّةِ لَهُ وَخَدِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴿ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ ﴾ أَي : نَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ ، وَأَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ٤١] ، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُونِي فِي اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٨٠] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾

[البقرة : ٢٥٨]

وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ أَي : نَحْنُ بُرَاءٌ مِنْكُمْ كَمَا أَنْتُمْ بُرَاءٌ مِنَّا ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أَي فِي الْعِبَادَةِ وَالتَّوَجُّهِ . ثُمَّ أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ : أَنَّ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ ذُكِرَ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا عَلَى مِلَّتِهِمْ ، إِمَّا الْيَهُودِيَّةَ وَإِمَّا النَّصْرَانِيَّةَ فَقَالَ : ﴿ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ يَعْنِي : بَلِ اللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا هُودًا وَلَا نَصَارَى ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧] الْآيَةَ وَالتِّي بَعْدَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كَانُوا يَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أَنَاهُمْ ، إِنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامُ وَإِنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا بُرَاءً مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، فَشَهِدُوا لِلَّهِ بِذَلِكَ ، وَأَقْرَأُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ اللَّهُ ، فَكَتَمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ شَدِيدٌ ، أَي أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِعَمَلِكُمْ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾ أَي : قَدْ مَضَتْ ﴿ هَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَي : هُمْ أَعْمَاهُمْ وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ ﴿ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وَلَيْسَ يُغْنِي عَنْكُمْ انْتِسَابِكُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ مُتَابَعَةٍ مِنْكُمْ لَهُمْ ، وَلَا نَعْتَرُوا بِمُجَرَّدِ النَّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى تَكُونُوا مُنْقَادِينَ مِثْلَهُمْ لِأَوْامِرِ اللَّهِ وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ،

الَّذِينَ بُعِثُوا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ وَاحِدٍ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الرُّسُلِ وَلَا سِيَّامَا بِسَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ ، وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَعَلَى سَائِرِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ .

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

قِيلَ : الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هَاهُنَا : مُشْرِكُو الْعَرَبِ ، وَقِيلَ : أَحْبَابُ يَهُودَ ، وَقِيلَ : الْمُنَافِقُونَ ، وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

عَنِ الْبَرَاءِ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبَلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَإِنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فَقَالَ أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ ، فَذَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَكَانَ الَّذِي قَدْ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالًا قَتَلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ <sup>(٢)</sup> : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَيُكَبِّرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَتَنَظَّرُ أَمْرَ اللَّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : وَدِدْنَا لَوْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٤٨٦) ، ومسلم (حديث ٥٢٥) .

(٢) انظر مسلم : المصدر السابق .

عَلِمْنَا مَنْ مَاتَ مِنَّا قَبْلَ أَنْ نُصْرَفَ إِلَى الْقِبْلَةِ ، وَكَيْفَ بِصَلَاتِنَا نَحْوَ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ ، وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ - وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ - : مَا وَلَاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ .

وَحَاصِلُ الْأَمْرِ : أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ وَهُوَ مُسْتَقْبِلُ صَخْرَةِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَدَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ بَعْدَ مَقْدِمِهِ ﷺ الْمَدِينَةَ ، وَاسْتَمَرَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ بِضِعْفَةِ عَشْرٍ شَهْرًا ، وَكَانَ يُكْثِرُ الدُّعَاءَ وَالِابْتِهَالَ أَنْ يُوجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ فَأَجِيبَ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، فَخَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ فَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ وَكَانَ أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّىهَا إِلَيْهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ .

وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ النَّقَاقِ وَالرَّيْبِ ، وَالْكَفْرَةِ مِنَ الْيَهُودِ ، إِرْتِيَابٌ وَرِزْغٌ عَنِ الْهُدَى ، وَتَحْطِيطٌ وَشَكٌّ ، وَقَالُوا : ﴿ مَا وَلَّنُهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ أَي : قَالُوا مَا لَهُوْلَاءِ تَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، وَتَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ أَي : الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴿ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ [ البقرة : ١١٥ ] وَ ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ [ البقرة : ١٧٧ ] أَي : الشَّانُ كُلُّهُ فِي امْتِثَالِ أَوْامِرِ اللَّهِ ، فَحَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا ، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَلَوْ وَجَّهْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، فَحَنُّ عَبِيدِهِ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَخُدَامِهِ حَيْثُمَا وَجَّهْنَا تَوَجَّهْنَا ، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَأَمَّتِهِ عِنَايَةً عَظِيمَةً ، إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ - خَلِيلِ الرَّحْمَنِ - وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمُنْبِيَةِ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، أَشْرَفَ بَيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ  
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يَقُولُ تَعَالَى إِنَّمَا حَوَّلْنَاكُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ الطَّيِّبَةَ وَاخْتَرْنَاهَا  
لَكُمْ لِنَجْعَلَكُمْ خِيَارَ الْأُمَّةِ ، لِتَكُونُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُهَدَاءَ عَلَى الْأُمَّةِ ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ  
مُعْتَرِفُونَ لَكُمْ بِالْفَضْلِ ، وَالْوَسْطُ هَاهُنَا : الْحَيَارُ وَالْأَجُودُ ، كَمَا يُقَالُ : قُرَيْشُ  
أَوْسَطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا ، أَيِ خَيْرُهَا .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ ، أَيِ : أَشْرَفُهُمْ نَسَبًا ، وَمِنْهُ الصَّلَاةُ  
الْوَسْطَى الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَهِيَ الْعَصْرُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا ،  
وَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا ، خَصَّهَا بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاجِحِ وَأَوْضَحِ  
الْمَذَاهِبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةً  
أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ  
وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ لَهُ :  
هَلْ بَلَّغْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ ، فَيَقَالُ لَهُمْ : هَلْ بَلَّغْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : مَا  
آتَانَا مِنْ نَذِيرٍ ، وَمَا آتَانَا مِنْ أَحَدٍ ، فَيَقَالُ لِنُوحٍ : مَنْ يَشْهَدُ لَكَ ؟ فَيَقُولُ : مُحَمَّدٌ  
وَأُمَّتُهُ ، قَالَ : فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قَالَ : وَالْوَسْطُ : الْعَدْلُ ،  
فَتُدْعَوْنَ فَتَشْهَدُونَ لَهُ بِالْبَلَاغِ ، ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ ))<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ أَنَّهُ قَالَ : أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ فَوَافَقْتُهَا وَقَدِ وَقَعَ بِهَا مَرَضٌ ، فَهُمْ يَمُوتُونَ  
مَوْتًا ذَرِيعًا فَجَلَسْتُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَمَرَّتْ بِهِ جِنَازَةٌ فَأُثِنِي عَلَى صَاحِبِهَا  
خَيْرًا فَقَالَ : وَجِبْتَ ثُمَّ مَرَّ بِأُخْرَى ، فَأُثِنِي عَلَيْهَا شَرًّا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَجِبْتَ ، فَقَالَ  
أَبُو الْأَسْوَدِ مَا وَجِبْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : قُلْتُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( أَيُّهَا  
مُسْلِمُ شَهِدْ لَهُ أَرْبَعَةٌ بِخَيْرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ )) قَالَ : فَقُلْنَا : وَثَلَاثَةٌ ، قَالَ : فَقَالَ :  
(( وَثَلَاثَةٌ )) قَالَ : فَقُلْنَا وَاثْنَانِ . قَالَ : (( وَاثْنَانِ )) ثُمَّ لَمْ نَسْأَلْهُ عَنِ الْوَاحِدِ<sup>(٢)</sup>.

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣/٣٢) ، والبخاري بنحوه (٤٤٨٧)

(٢) أخرجه أحمد (١/٢٢) ، والبخاري (حديث ١٣٦٨) وله علة ، ولحن له شاهد في الصحيحين من  
حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً . (البخاري مع الفتح ٣/٢٢٨ حديث ١٣٦٧) ، ومسلم (مع النووي ٩٤٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: إِنَّهَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهَ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ صَرَفْنَاكَ عَنْهُ إِلَى الْكَعْبَةِ ، لِيُظْهَرَ حَالُ مَنْ يَتَّبِعُكَ وَيُطِيعُكَ وَيَسْتَقْبِلُ مَعَكَ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ، أَي: مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴾ أَي: هَذِهِ الْفَعْلَةُ ، وَهُوَ صَرَفُ التَّوَجُّهِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ ، أَي: وَإِنْ كَانَ هَذَا الْأَمْرَ عَظِيمًا فِي النُّفُوسِ إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَأَيَقَنُوا بِتَصْدِيقِ الرَّسُولِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَةَ فِيهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ، فَلَهُ أَنْ يُكَلِّفَ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ وَيَنْسَخُ مَا يَشَاءُ ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ التَّامَّةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، بِخِلَافِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؛ فَإِنَّهُ كَلَّمَا حَدَّثَ أَمْرًا أَحَدَثَ لَهُمْ شَكًّا ، كَمَا يَحْصُلُ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِيقَانٌ وَتَصْدِيقٌ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَايَتُهُ هِدَايَتَنَا ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَنُنزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢] ، وَهَذَا كَانَ مَنْ ثَبَتَ عَلَى تَصْدِيقِ الرَّسُولِ ﷺ وَاتَّبَاعِهِ فِي ذَلِكَ ، وَتَوَجَّهَ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ ، مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: بَيْنَا النَّاسُ يُصَلُّونَ الصُّبْحَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: قَدْ أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ قُرْآنٌ ، وَقَدْ أَمَرَ أَنْ يَسْتَقْبَلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا ، فَتَوَجَّهُوا إِلَى الْكَعْبَةِ<sup>(١)</sup> . وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا رُكُوعًا فَاسْتَدَارُوا كَمَا هُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ وَهُمْ رُكُوعٌ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ طَاعَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَأَنْقِيَادِهِمْ لِأَوَامِرِ اللَّهِ ﷻ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أَي: صَلَاتِكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَبْلَ ذَلِكَ ،



مَا كَانَ يُضِيعُ ثَوَابَهَا عِنْدَ اللَّهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : مَاتَ قَوْمٌ كَانُوا يُصَلُّونَ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؟ فَقَالَ النَّاسُ : مَا حَالُهُمْ فِي ذَلِكَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ قَدْ فُرِّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا ، فَجَعَلَتْ كُلَّمَا وَجَدَتْ صَبِيًّا مِنَ السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا ، وَهِيَ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا ، فَلَمَّا وَجَدَتْهُ ضَمَّتْهُ إِلَيْهَا وَأَلْقَمَتْهُ ثَدْيِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَوَلَدَهَا فِي النَّارِ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « فَوَاللَّهِ لَأَرْحَمَ بَعْبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » <sup>(٢)</sup> .

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

عَنِ الْبَرَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى قَبْلَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا وَكَانَ يُعْجِبُهُ قِبْلَتُهُ قَبْلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يُصَلِّي مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قَبْلَ الْبَيْتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ أَمَرَ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْكُعْبَةِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْأَرْضِ ، شَرْقًا وَعَرْبًا وَشِمَالًا وَجَنُوبًا ، وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ هَذَا شَيْءٌ سِوَى النَّافِلَةِ فِي حَالِ السَّفَرِ ، فَإِنَّهُ يُصَلِّيهَا حَيْثُمَا تَوَجَّهَ قَائِلُهُ وَقَلْبُهُ نَحْوَ الْكُعْبَةِ ، وَكَذَا فِي حَالِ الْمَسَافِقَةِ فِي الْقِتَالِ يُصَلِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَكَذَا مَنْ جَهَلَ جِهَةَ الْقِبْلَةِ يُصَلِّي بِاجْتِهَادِهِ ، وَإِنْ كَانَ مُحْطِطًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أَيُّ : وَالْيَهُودُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا اسْتِقْبَالَكُمْ الْكُعْبَةَ ، وَأَنْصَرَفِكُمْ عَنِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ

(١) البخاري (حديث ٤٤٨٦) .

(٢) البخاري (حديث ٥٩٩٩) ، ومسلم (حديث ٢٧٥٤) .

تَعَالَى سُبُوغَهُكَ إِلَيْهَا بِمَا فِي كُتُبِهِمْ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ النَّعْتِ وَالصِّفَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأُمَّتِهِ ، وَمَا خَصَّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ وَشَرَّفَهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْكِتَابِ يَتَكَاثَمُونَ ذَلِكَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا وَكُفْرًا وَعِنَادًا ، وَهَذَا تَهْدَدُهُمْ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَلَيْنَ أُتِيَتْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٤﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ ، مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ شَأْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَوْ أَقَامَ عَلَيْهِمْ كُلُّ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ ، لَمَا اتَّبَعُوهُ وَتَرَكُوا أَهْوَاءَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ هَاهُنَا : ﴿ وَلَيْنَ أُتِيَتْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ﴾ إِخْبَارٌ عَنْ شِدَّةِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَأَنَّهُ كَمَا هُمْ مُسْتَمْسِكُونَ بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، فَهُوَ أَيْضًا مُسْتَمْسِكٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ مَرْضَاتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَلَا كَوْنُهُ مُتَوَجِّهًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ لِكَوْنِهَا قِبْلَةَ الْيَهُودِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ حَذَرَ تَعَالَى عَنْ مُخَالَفَةِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ الْعَالِمُ إِلَى الْهَوَى ؛ فَإِنَّ الْعَالِمَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ أَقْوَمٌ مِنْ غَيْرِهِ ، وَهَذَا قَالَ مُحَاطِبًا لِلرَّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ ﴿ وَلَيْنَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ عَلَمَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْرِفُونَ صِحَّةَ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ كَمَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمْ وَلَدَهُ ، وَالْعَرَبُ كَانَتْ تَضْرِبُ الْمَثَلَ فِي صِحَّةِ الشَّيْءِ بِهَذَا .

قُلْتُ : وَقَدْ يَكُونُ الْمَرَادُ ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ مِنْ بَيْنِ أَبْنَاءِ النَّاسِ كُلِّهِمْ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ مَعَ هَذَا التَّحَقُّقِ وَالْإِتْقَانِ الْعِلْمِيِّ ﴿ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ﴾ أَي : لِيَكْتُمُونَ النَّاسَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ثُمَّ ثَبَّتَ تَعَالَى نَبِيَّهٖ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، فَقَالَ : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٤﴾

لِلْيَهُودِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا ، وَلِلنَّصْرَانِيِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا ، وَهَذَاكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأُمَّةُ إِلَى الْقِبْلَةِ الَّتِي هِيَ الْقِبْلَةُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ ، وَقَالَ هَاهُنَا ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : هُوَ قَادِرٌ عَلَى جَمْعِكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ أَجْسَادُكُمْ وَأَبْدَانُكُمْ .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٥﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٨٦﴾

هَذَا أَمْرٌ نَالَتْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِاسْتِقْبَالِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي حِكْمَةِ هَذَا التَّكْرَارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَقِيلَ : تَأْكِيدٌ لِأَنَّهُ أَوَّلُ نَاسِخٍ وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ عَلَى مَا نَصَّ عَلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ مُنْزَلٌ عَلَى أَحْوَالٍ ، فَالْأَمْرُ الْأَوَّلُ : لِمَنْ هُوَ مُشَاهِدٌ الْكَعْبَةَ ، وَالثَّانِي : لِمَنْ هُوَ فِي مَكَّةَ غَائِبًا عَنْهَا ، وَالثَّلَاثُ : لِمَنْ هُوَ فِي بَقِيَّةِ الْبُلْدَانِ ، هَكَذَا وَجَّهَهُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي .

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : الْأَوَّلُ : لِمَنْ هُوَ بِمَكَّةَ ، وَالثَّانِي : لِمَنْ هُوَ فِي بَقِيَّةِ الْأَمْصَارِ ، وَالثَّلَاثُ : لِمَنْ خَرَجَ فِي الْأَسْفَارِ ، وَرَجَعَ هَذَا الْجَوَابَ الْقُرْطُبِيُّ . وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْأَجْوِبَةِ عَنْ حِكْمَةِ التَّكْرَارِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَعَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ﴾ أَي : أَهْلَ الْكِتَابِ ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ صِفَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوَجُّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، فَإِذَا فَقَدُوا ذَلِكَ مِنْ صِفَتِهَا رَبِّهَا اخْتَجَّوْا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَلِئَلَّا يَخْتَجُّوا بِمُوَافَقَةِ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاهُمْ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَهَذَا أَظْهَرَ .

وَوَجَّهَ بَعْضُهُمْ حُجَّةَ الظَّلْمَةِ وَهِيَ دَاحِضَةٌ ، أَنْ قَالُوا : إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يَزْعُمُ أَنَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ ، فَإِنْ كَانَ تَوَجُّهُهُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ فَلِمَ رَجَعَ عَنْهُ ، وَالْجَوَابُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى اخْتَارَ لَهُ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَوَّلًا ، لِمَا لَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، فَاطَّاعَ رَبَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ، ثُمَّ صَرَفَهُ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ الْكَعْبَةُ ، فَاثْتَمَلَ أَمْرَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، فَهُوَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - مُطِيعٌ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، لَا يَخْرُجُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، وَأُمَّتُهُ تَبِعَتْ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ أَي : لَا تَخْشَوْا شُبَهَ الظَّلْمَةِ الْمُتَعَتِّينَ وَأَفْرِدُوا الْحَشِيَّةَ لِي ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُخْشَى مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ ﴾ عَطْفٌ عَلَى لِنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ ، أَي : لِأَنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعْتُ لَكُمْ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ لِتَكْمُلَ لَكُمْ الشَّرِيعَةُ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا ﴿ وَاعْلَمْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أَي : إِلَى مَا ضَلَّتْ عَنْهُ الْأُمَّةُ هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ وَحَصَصْنَاكُمْ بِهِ ، وَهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفَ الْأُمَّةِ وَأَفْضَلَهَا .

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٥١﴾  
فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿٥٢﴾

يُذَكِّرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعَثَةِ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَيْهِمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أَي : يُطَهِّرُهُمْ مِنْ رَذَائِلِ الْأَخْلَاقِ

وَدَنَسِ النَّفُوسِ وَأَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَيُعَلِّمُهُمُ  
 الْكِتَابَ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةَ : وَهِيَ السُّنَّةُ ، وَيُعَلِّمُهُمُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ ،  
 فَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْجُهْلَاءِ يُسَفَّهُونَ بِالْعُقُولِ الْغُرَاءِ ، فَانْتَقَلُوا بِرِكَاتِهِ رِسَالَتِهِ وَيُؤْمِنُ  
 سِفَارَتِهِ إِلَى حَالِ الْأَوْلِيَاءِ وَسَجَايَا الْعُلَمَاءِ ، فَصَارُوا أَعَمَقَ النَّاسِ عِلْمًا ، وَأَبْرَهُمْ  
 قُلُوبًا ، وَأَقْلَهُمْ تَكَلُّفًا ، وَأَصْدَقَهُمْ هُجَّةً ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ  
 بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ ۖ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [ آل عمران : ١٦٤ ] ،  
 وَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَدَرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ  
 اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [ إبراهيم : ٢٨ ] قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي بِنِعْمَةِ اللَّهِ  
 مُحَمَّدًا ﷺ ، وَهَذَا نَدَبَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْإِعْتِرَافِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَمُقَابَلَتِهَا بِذِكْرِه  
 وَشُكْرِه . فَقَالَ : ﴿ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّ اللَّهَ يَذْكُرُ مَنْ ذَكَرَهُ ، وَيَزِيدُ مَنْ شَكَرَهُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ  
 كَفَرَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : (( مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي  
 نَفْسِي ، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ ))<sup>(١)</sup> .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِشُكْرِه ، وَوَعَدَ عَلَى  
 شُكْرِه بِمَزِيدِ الْخَيْرِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَا  
 تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتُوا بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿٧٤﴾

لَمَّا فَرَعَ تَعَالَى مِنْ بَيَانِ الْأَمْرِ بِالشُّكْرِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الصَّبْرِ وَالْإِرْشَادِ وَالِاسْتِعَانَةِ  
 بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا مَا أَنْ يَكُونَ فِي نِعْمَةٍ فَيَشْكُرُ عَلَيْهَا ، أَوْ فِي نِقْمَةٍ فَيَصْبِرُ  
 عَلَيْهَا ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : (( عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا  
 لَهُ : إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ ))<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه البخاري بلفظ قريب (حديث ٧٤٠٥) ، ومسلم (حديث ٢٦٧٥) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٩) لكن لفظه : (( عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا  
 لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ )) .

وَيَبِّنَ تَعَالَى أَنْ أَجُودَ مَا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى تَحْمُلِ الْمَصَائِبِ : الصَّبْرُ وَالصَّلَاةُ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ، وَالصَّبْرُ صَبْرَانِ : فَصَبْرٌ عَلَى تَرْكِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ، وَصَبْرٌ عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ، وَالثَّانِي : أَكْثَرُ ثَوَابًا ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ ، وَأَمَّا الصَّبْرُ الثَّلَاثُ : وَهُوَ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَالتَّوَابِتِ فَذَلِكَ أَيْضًا وَاجِبٌ ، كَالِاسْتِغْفَارِ مِنَ الْمَعَائِبِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : الصَّبْرُ فِي بَابَيْنِ : الصَّبْرُ لِلَّهِ بِمَا أَحَبَّ وَإِنْ ثَقُلَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ ، وَالصَّبْرُ لِلَّهِ عَمَّا كَرِهَ وَإِنْ نَارَعَتْ إِلَيْهِ الْأَهْوَاءُ ، فَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ الشُّهَدَاءَ فِي بَرَزِحِهِمْ أحيَاءٌ يُرْزَقُونَ ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١) « إِنْ أَرَوَّاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ ، تَسْرَحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مُعَلَّقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ إِطْلَاعَةً ، فَقَالَ : مَاذَا تَبْعُونَ ؟ فَقَالُوا يَا رَبَّنَا وَآيَ شَيْءٍ نَبْعِي ، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟ ثُمَّ عَادَ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ هَذَا ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يَتْرُكُونَ مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا ، قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَتَقَاتِلَ فِي سَبِيلِكَ حَتَّى نُقْتَلَ فِيكَ مَرَّةً أُخْرَى - لِمَا يَرُونَ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ - فَيَقُولُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ : « إِنْ كَتَبْتُ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ » .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ ﴿ ١٥٥ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿ ١٥٦ ﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنَ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ ١٥٧ ﴾

أَخْبَرَنَا تَعَالَى أَنَّهُ يَبْتَلِي عِبَادَهُ : أَيَّ يَخْتَبِرُهُمْ وَيَمْتَحِنُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ

(١) أخرجه مسلم بلفظ قريب (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال :

« أَرَوَّاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ .. »

حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ [محمد: ٣١] فَتَارَةً بِالسَّرَّاءِ وَتَارَةً  
بِالضَّرَّاءِ مِنْ خَوْفٍ وَجُوعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾  
[النحل: ١١٢] فَإِنَّ الْجَائِعَ وَالْحَائِفَ كُلُّ مِنْهُمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لِبَاسِ  
الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ أَي : بِقَلِيلٍ مِّنْ ذَلِكَ  
﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ ﴾ أَي : ذَهَابٍ بَعْضُهَا ﴿ وَالْأَنْفُسِ ﴾ كَمَوْتِ الْأَصْحَابِ  
وَالْأَقَارِبِ وَالْأَحْبَابِ ﴿ وَالشَّمْرَتِ ﴾ أَي : لَا تَعْلُ الْحَدَائِقَ وَالْمَزَارِعَ كَعَادَتِهَا .  
قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : فَكَانَتْ بَعْضُ النَّخِيلِ لَا تُشْمَرُ غَيْرَ وَاحِدَةٍ ، وَكُلُّ هَذَا  
وَأَمْثَالِهِ مِمَّا يُجْتَبَرُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ فَمَنْ صَبَرَ أَنَابَهُ ، وَمَنْ قَنَطَ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ ، وَهَذَا قَالَ  
تَعَالَى : ﴿ وَشِئْرَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى : مِنَ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ شَكَرَهُمْ ؟ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ  
مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أَي : تَسَلَّوْا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ ، وَعَلِمُوا  
أَنَّهُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ ، فَأَحَدَثَ هُمْ ذَلِكَ إِعْتِرَافُهُمْ بِأَنَّهُمْ عِبِيدُهُ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ  
الْآخِرَةِ . لِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ  
رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أَي : ثَنَاءً مِّنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ .

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ <sup>(١)</sup> : أَي أَمَنَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ . قَالَ  
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : نِعَمَ الْعَدْلَانِ وَنِعَمَتِ الْعِلَاوَةِ ، ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ  
صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ . فَهَذَانِ الْعَدْلَانِ ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ فَهَذِهِ  
الْعِلَاوَةُ ، وَهِيَ مَا تَوْضَعُ بَيْنَ الْعَدْلَيْنِ ، وَهِيَ زِيَادَةُ فِي الْحَمْلِ ، فَكَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ  
أَعْطَاوْا ثَوَابَهُمْ وَزَيْدُوا أَيْضًا .

وَقَدْ وَرَدَ فِي ثَوَابِ الْإِسْتِرْجَاعِ وَهُوَ قَوْلُ : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ عِنْدَ  
الْمَصَائِبِ أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ ، فَمِنْ ذَلِكَ .  
عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : أَنَانِي أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : لَقَدْ سَمِعْتُ

(١) رواه البخاري معلقا (مع الفتح ٣/٢٠٥) .

مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا سُرِّرَتْ بِهِ قَالَ : « لَا يُصِيبُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُصِيبَةٌ ، فَيَسْتَرْجِعُ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا فِعْلَ ذَلِكَ بِهِ » قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : فَحَفِظْتُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا تُوِّفِيَ أَبُو سَلَمَةَ اسْتَرْجَعْتُ وَقُلْتُ : اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي ، فَقُلْتُ : مِنْ أَيْنَ لِي خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ ؟ فَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتِي اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَنَا أُذْبِغُ إِهَابًا لِي ، فغَسَلْتُ يَدَيَّ مِنَ الْفَرْطِ وَأَذْبْتُ لَهُ ، فَوَضَعْتُ لَهُ وَسَادَةَ أَدَمٍ حَشْوَهَا لَيْفٌ ، فَقَعَدَ عَلَيْهَا ، فَخَطَبَنِي إِلَى نَفْسِي ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ مَقَالَتِهِ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا بِي أَنْ لَا يَكُونُ بِكَ الرَّغْبَةُ فِيَّ ، وَلَكِنِّي امْرَأَةٌ فِيَّ غَيْرَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَأَخَافُ أَنْ تَرَى مِنِّي شَيْئًا يُعَذِّبُنِي اللَّهُ بِهِ ، وَأَنَا امْرَأَةٌ قَدْ دَخَلْتُ فِي السَّنِّ ، وَأَنَا ذَاتُ عِيَالٍ ، فَقَالَ : « أَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْغَيْرَةِ فَسَوْفَ يُذْهِبُهَا اللَّهُ ﷻ عَنْكَ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ السَّنِّ فَقَدْ أَصَابَنِي مِثْلُ الَّذِي أَصَابَكَ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتِ مِنَ الْعِيَالِ فَإِنَّمَا عِيَالُكَ عِيَالِي » قَالَتْ : فَقَدْ سَلَّمْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ بَعْدَ : أَبْدَلَنِي اللَّهُ بِأبي سَلَمَةَ خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .<sup>(١)</sup>

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ نُصِيبُهُ مُصِيبَةً فَيَقُولُ ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا ، إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ ، وَاخْلُفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا » قَالَتْ فَلَمَّا تُوِّفِيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .<sup>(٢)</sup>

✽ إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ <sup>ط</sup> فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ <sup>(٣)</sup> : قُلْتُ : أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرَوَةَ

(١) إسناده حسن : وقد أخرجه أحمد (٢٧/٤) من طريق المطلب عن أم سلمة بنحوه ، وقد تكلم البعض في سماع المطلب من أم سلمة . ولكن للحديث شاهد عند مسلم (حديث ٩١٨) .

(٢) مسلم (حديث ٩١٨) .

(٣) أحمد (المسند ١٤٤/٦) ، وانظر أيضًا البخاري (١٦٤٣) ، ومسلم (١٢٧٧) .



مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۖ قُلْتُ : فَوَاللَّهِ مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحَ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : بِئْسَمَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي ، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عَلَى مَا أَوْلَتْهَا عَلَيْهِ ، كَانَتْ : فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَلَكِنَّهَا إِنَّمَا أَنْزَلْتَ لِأَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا يَهْلُونَ لِمَنَاءِ الطَّاعِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِهَا يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، فَسَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۖ قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ قَدْ سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الطَّوَّافَ بِهِمَا ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدَعَ الطَّوَّافَ بِهِمَا .

وَفِي رِوَايَةٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ (١) أَنَّهُ قَالَ : فَحَدَّثْتُ بِهِذَا الْحَدِيثِ أَبَا بَكْرٍ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنَ الْخَارِثِ بْنَ هِشَامٍ ، فَقَالَ إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُونَ : إِنَّ النَّاسَ - إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عَائِشَةُ - كَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ طَوَّافَنَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَجْرَيْنِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ : إِنَّمَا أَمَرَكَ بِالطَّوَّافِ بِالْبَيْتِ ، وَلَمْ تُؤْمَرْ بِالطَّوَّافِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : فَلَعَلَّهَا نَزَلَتْ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . وَعَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ (٢) : سَأَلْتُ أَنَسًا عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ؟ قَالَ : كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ الطَّوِيلِ وَفِيهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَرَغَ مِنْ طَوَّافِهِ بِالْبَيْتِ عَادَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَابِ الصَّفَا وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ ثُمَّ قَالَ : (( أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ )) (٣) . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا ۖ قِيلَ : زَادَ فِي طَوَّافِهِ بَيْنَهُمَا عَلَى قَدْرِ الْوَاجِبِ ثَامِنَةً

(١) المصدر السابق .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٦٤٨) ، ومسلم (١٢٧٨) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨) .

وَتَأْسَعَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ ، وَقِيلَ يَطُوفُ بَيْنَهُمَا فِي حَجَّةٍ تَطَوُّعٌ ، أَوْ عُمْرَةٍ تَطَوُّعٌ ، وَقِيلَ :  
الْمُرَادُ تَطَوُّعٌ خَيْرًا فِي سَائِرِ الْعِبَادَاتِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالكَثِيرِ ، عَلِيمٌ بِقَدْرِ  
الْجَزَاءِ ، فَلَا يَبْخُسُ أَحَدًا ثَوَابَهُ ﴿ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ  
مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ  
فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٠٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا  
وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ  
﴿١١١﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١١٢﴾

هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ كَتَمَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الدَّلَالَاتِ الْبَيِّنَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ  
الصَّحِيحَةِ وَاهْتَدَى النَّافِعَ لِلْقُلُوبِ ، مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي كُتُبِهِ الَّتِي  
أَنْزَلَهَا عَلَى رُسُلِهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ (١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُ أَحَدًا  
شَيْئًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ ﴾ الْآيَةُ ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ  
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ قِيلَ : دَوَابُّ الْأَرْضِ وَالْبَهَائِمُ . وَقِيلَ : كُلُّ ذَابَّةٍ وَالْحِنُّ  
وَالْإِنْسُ . وَقِيلَ : تَلْعَنُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَجَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ كَاتِمَ الْعِلْمِ  
يَلْعَنُهُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ ، وَاللَّاعِنُونَ أَيضًا ، وَهُمْ كُلُّ فَصِيحٍ وَأَعْجَمِيٍّ ،  
إِمَّا بِلِسَانِ الْمَقَالِ أَوْ الْحَالِ ، أَوْ كُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا  
وَبَيَّنَّا ﴾ أَي : رَجَعُوا عَمَّا كَانُوا فِيهِ ، وَأَصْلَحُوا أَعْمَاهُمْ ، وَبَيَّنَّا لِلنَّاسِ مَا كَانُوا  
يَكْتُمُونَهُ ﴿ فَاوْلَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ

الدَّاعِيَةَ إِلَى كُفْرٍ أَوْ بِدْعَةٍ ، إِذَا تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّنْ كَفَرَ بِهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ الْحَالُ إِلَى مَمَاتِهِ بِأَنَّ ﴿ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَتِيكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ١٣ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴿ أَيُّ : فِي اللَّعْنَةِ التَّابِعَةِ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ الْمَصَاحِبَةُ لَهُمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي ﴿ لَا تَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ﴾ فِيهَا ، أَيُّ : لَا يُنْقِصُ عَمَّا هُمْ فِيهِ ﴿ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَيُّ : لَا يُغَيَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَفْتَرُ ، بَلْ هُوَ مُتَوَاصِلٌ دَائِمٌ ، فَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

فَصَلُّ : لَا خِلَافَ فِي جَوَازِ لَعْنِ الْكُفَّارِ ، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؓ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ يَلْعَنُونَ الْكُفْرَةَ فِي الْقُنُوتِ وَغَيْرِهِ ، فَأَمَّا الْكَافِرُ الْمُعَيَّنُ ، فَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُلْعَنُ لِأَنَّا لَا نَدْرِي بِمَا يَحْتِمُ اللَّهُ لَهُ ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِالْآيَةِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَتِيكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى : بَلْ يَجُوزُ لَعْنُ الْكَافِرِ الْمُعَيَّنِ ، وَاسْتَدَلَّ لَهُ بِقَوْلِهِ ﷺ فِي قِصَّةِ الَّذِي كَانَ يُؤْتَى بِهِ سَكْرَانٌ فَيُحْدِثُهُ ، فَقَالَ رَجُلٌ لَعْنَهُ اللَّهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَلْعَنُوهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ » ١٤ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَنْ لَا يُحِبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ يُلْعَنُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَاللَّهُ كَرِيمٌ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ ، وَإِنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا عَدِيلَ لَهُ ، بَلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ هَذَيْنِ الْإِسْمَيْنِ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهَا وَمَا يَبْنِي ذَلِكَ ، بِمَا ذَرَأَ وَبَرَأَ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِأَيِّتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تِلْكَ فِي إِزْتِفَاعِهَا وَلَطَافَتِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَكَوَاكِبِهَا السِّيَّارَةِ وَالثَّوَابِتِ وَدَوْرَانَ فُلُكَيْهَا - وَهَذِهِ الْأَرْضُ فِي كَثَافَتِهَا وَأَنْخِفَاضِهَا وَجِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَقَفَارِهَا وَوَهَادِهَا وَعِمْرَانِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، هَذَا يَجِيءُ ثُمَّ يَذْهَبُ وَيُخْلَفُهُ الْآخَرُ وَيَعْقِبُهُ ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ لِحِظَّةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] وَتَارَةٌ يَطُولُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، وَتَارَةٌ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا ثُمَّ يَتَعَاوَضَانِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [الحديد : ٦] أَي : يَزِيدُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا ، وَمِنْ هَذَا فِي هَذَا ﴿ وَالْفُلُكُ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ﴾ أَي : فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ بِحَمْلِ السُّفُنِ مِنْ جَانِبِ إِلَى جَانِبِ لِمَعَايِشِ النَّاسِ ، وَالِإِنْتِفَاعِ بِمَا عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ ، وَنَقَلَ هَذَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَا عِنْدَ أَوْلِيائِكَ إِلَى هَؤُلَاءِ ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَايَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٣-٣٦] ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أَي : عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَالْوَانِهَا وَمَنَافِعِهَا وَصِغَرِهَا وَكِبَرِهَا ، وَهُوَ يَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيَرْزُقُهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] ﴿ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ﴾ أَي : فَتَارَةٌ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ ، وَتَارَةٌ تَأْتِي بِالْعَذَابِ ، وَتَارَةٌ تَأْتِي مُبَسَّرَةً بَيْنَ يَدَيِ السَّحَابِ ، وَتَارَةٌ تَسُوِّفُهُ ، وَتَارَةٌ تَجْمَعُهُ ، وَتَارَةٌ تُفَرِّقُهُ ، وَتَارَةٌ تُصَرِّفُهُ ، ثُمَّ تَارَةٌ تَأْتِي مِنَ الْجَنُوبِ وَهِيَ الشَّامِيَّةُ ، وَتَارَةٌ تَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الِیْمَنِ ، وَتَارَةٌ صَبَا وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ الَّتِي تَصْدِمُ وَجْهَ الْكَعْبَةِ ، وَتَارَةٌ دَبُورًا وَهِيَ غَرْبِيَّةٌ تَنْفُذُ مِنْ نَاحِيَةِ دُبُرِ الْكَعْبَةِ .

وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ فِي الرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ وَالْأَنْوَاءِ كُتُبًا كَثِيرَةً ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِلُغَاتِهَا وَأَحْكَامِهَا

وَبَسُطُ ذَلِكَ يَطُولُ هَاهُنَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: سَائِرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُسَخَّرٌ إِلَى مَا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ وَالْأَمَاكِنِ كَمَا يُصَرِّفُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي: فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَالَاتٌ بَيِّنَةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ١١٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١١٠ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١١١ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لِنَأْكُلُ كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١١٢

يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَ الْمُشْرِكِينَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، حَيْثُ جَعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا، أَيِ أَمْثَالًا وَنُظْرَاءً، يَعْبُدُونَهُمْ مَعَهُ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ، هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا ضِدَّ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، وَلَا شَرِيكَ مَعَهُ. فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» (١).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾، وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ وَتَمَامُ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَتَوْحِيدِهِمْ لَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا، بَلْ يَعْبُدُونَهُ وَحْدَهُ، وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِ وَيَلْجَأُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ. ثُمَّ تَوَعَّدَ تَعَالَى الْمُشْرِكِينَ بِهِ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: تَقْدِيرُ الْكَلَامِ لَوْ عَايَنُوا الْعَذَابَ لَعَلِمُوا حَيْثُئِذٍ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا أَي: أَنَّ

الْحُكْمَ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَحْتَ قَهْرِهِ وَعَلَيْتِهِ وَسُلْطَانِهِ ، ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ أَحَدٌ ﴾ [ الفجر : ٢٥ - ٢٦ ] يَقُولُ : لَوْ يَعْلَمُونَ مَا يُعَايِنُونَهُ هُنَاكَ ، وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ الْمُنْكَرِ الْهَائِلِ عَلَى شَرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، لَأَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ كُفْرِهِمْ بِأَوْثَانِهِمْ وَتَبَرُّي الْمَتَّبِعِينَ مِنَ التَّابِعِينَ ، فَقَالَ : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ تَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا ، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ وَيَقُولُونَ : ﴿ قَالُوا سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [ سبأ : ٤١ ] ، وَالْجِنَّ أَيْضًا تَبَرَّأَ مِنْهُمْ وَيَتَّصِلُونَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غٰفِلُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كٰفِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : ٥ - ٦ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عَزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [ مريم : ٨١ - ٨٢ ]

وَقَالَ الْخَلِيلُ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوٰنُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نٰصِرِينَ ﴾ [ العنكبوت : ٢٥ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطٰنُ لِمَا أُقْسِيهِ الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنَ سُلْطٰنٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْوَأ أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ إبراهيم : ٢٢ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ أَي : عَايَنُوا عَذَابَ اللَّهِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْحِيلُ وَأَسْبَابُ الْخَلَاصِ ، وَلَمْ يَجِدُوا عَنِ النَّارِ مَعْدَلًا وَلَا مَصْرِفًا . ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ الْمَوَدَّةُ ، وَقِيلَ : تَقَطَّعَتِ الْمَوَدَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ﴾ أَي : لَوْ أَنَّ

لَنَا عَوْدَةٌ إِلَى الدَّارِ الدُّنْيَا حَتَّى نُنَبِّرًا مِنْ هُوْلَاءِ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ فَلَا نَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ ، بَلْ نُوحِدُ اللَّهَ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ : وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا بَلْ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِذَلِكَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : تَذَهَبُ وَتَضْمَحِلُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [ الفرقان : ٢٣ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً ﴾ [ النور : ٣٩ ] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ .

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١١٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١٩﴾

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَقِيلُ بِالْخَلْقِ ، شَرَعَ يُبَيِّنُ أَنَّهُ الرَّزَاقُ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، فَذَكَرَ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ : أَنَّهُ أَبَاحَ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ، فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا مِنَ اللَّهِ طَيِّبًا أَي : مُسْتَطَابًا فِي نَفْسِهِ غَيْرَ ضَارٍ لِلْأَبْدَانِ وَلَا لِلْعُقُولِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ ، وَهِيَ طَرَائِقُهُ وَمَسَالِكُهُ فِيمَا أَضَلَّ أَتْبَاعَهُ فِيهِ ، مِنْ تَحْرِيمِ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَابِغِ وَالْوَصَائِلِ وَنَحْوِهَا ، مِمَّا كَانَ زِينَةً لَهُمْ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ ؛ كَمَا فِي حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّ كُلَّ مَالٍ مَنَحْتُهُ عِبَادِي فَهُوَ لَهُمْ حَلَالٌ - وَفِيهِ - وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ تَنْفِيرٌ عَنْهُ وَتَحْذِيرٌ مِنْهُ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ افْتَحِدْهُنَّ أُولِيئَهُنَّ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [ الكهف : ٥٠ ]

(١) أخرجه مسلم ( حديث ٢٨٦٥ ) ، ولفظه « ... كُلِّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنْفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمْتُ عَلَيْهِمْ مَا أَخَلَّتْ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ... »

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ قِيلَ : كُلُّ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِيهِ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَقِيلَ : هِيَ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَقِيلَ : خُطَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ عَدُوُّكُمْ الشَّيْطَانُ بِالْأَفْعَالِ السَّيِّئَةِ ، وَأَعْلَظَ مِنْهَا الْفَاحِشَةُ كَالزَّنَا وَنَحْوِهِ ، وَأَعْلَظَ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْقَوْلُ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ ، فَيَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ كَافِرٍ وَكُلُّ مُبْتَدِعٍ أَيْضًا .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَتْ ءِآبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لَهُوَلَاءِ الْكُفْرَةَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاتْرَكُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ وَالْجُهْلِ ، قَالُوا فِي جَوَابِ ذَلِكَ : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا ﴾ أَي : مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا ، أَي : مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ أُولَئِكَ ءِآبَاؤُهُمْ ﴾ أَي : الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِمْ وَيَقْتَفُونَ أَثْرَهُمْ ﴿ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ فَهْمٌ وَلَا هِدَايَةٌ .

ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ تَعَالَى مَثَلًا - كَمَا قَالَ تَعَالَى - ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ ﴾ [النحل : ٦٠] فَقَالَ : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ وَالْجُهْلِ ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ كَالدَّوَابِّ السَّارِحَةِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ مَا يُقَالُ لَهَا ، بَلْ إِذَا نَعَقَ بِهَا رَاعِيهَا أَي دَعَاهَا إِلَى مَا يُرْسِدُهَا لَا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ وَلَا تَفْهَمُهُ ، بَلْ إِنَّمَا تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَقَطُّ . وَقِيلَ : إِنَّمَا هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَ لَهُمْ فِي دُعَائِهِمُ الْأَصْنَامَ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَعْقِلُ شَيْئًا ، اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى لِأَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا وَلَا تَعْقِلُهُ وَلَا تُبْصِرُهُ ، وَلَا بَطْشَ لَهَا وَلَا حَيَاةَ فِيهَا . ﴿ صُمُّ بِكُمْ عُمَى ﴾ أَي : صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ، بِكُمْ لَا يَتَّقَوْهُونَ بِهِ ،



عُمِّي عَنْ رُؤْيِي طَرِيقَهُ وَمَسْلَكَهُ ﴿ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَفْهَمُونَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ تَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [ الأنعام : ٣٩ ]

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرِ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَكْلِ مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ تَعَالَى ، وَأَنْ يَشْكُرُوهُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ إِنْ كَانُوا عِبِيدَهُ ، وَالْأَكْلُ مِنَ الْحَلَائِلِ سَبَبٌ لِتَقْبُلِ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ ، كَمَا أَنَّ الْأَكْلَ مِنَ الْحَرَامِ يَمْنَعُ قَبُولَ الدُّعَاءِ وَالْعِبَادَةِ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [ المؤمنون : ٥١ ] ، وَقَالَ : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟ ))<sup>(١)</sup> .

وَلَمَّا أَمَنَّ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِرِزْقِهِ ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى الْأَكْلِ مِنْ طَيِّبِهِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يُحْرَمْ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمَيْتَةَ وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ حَتْفَ أَنْفِهَا مِنْ غَيْرِ تَذَكِّيَةٍ ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ مُنْخَقَةً ، أَوْ مَوْقُودَةً ، أَوْ مُتْرَدِيَةً ، أَوْ نَطِيحَةً ، أَوْ عَدَا عَلَيْهَا السَّبْعُ ، وَقَدْ خَصَّصَ الْجُمْهُورُ مِنْ ذَلِكَ مَيْتَةَ الْبَحْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾ عَلَى مَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَحَدِيثُ الْعَنْبَرِيِّ فِي الصَّحِيحِ وَفِي الْمُسْنَدِ وَالْمَوْطَأِ وَالسُّنَنِ قَوْلُهُ ﷺ فِي الْبَحْرِ (( هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ ))<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠١٥) .

(٢) صحيح : أخرجه عددٌ كبير من الأئمة ، منهم أبو داود (حديث ٨٣) ، والترمذي (٦٩) وغيرهما .

ثُمَّ أَبَاحَ تَعَالَى تَنَاوُلَ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّرُورَةِ وَالِاحْتِيَاجِ إِلَيْهَا عِنْدَ فَقْدِ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ فَقَالَ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أَي: فِي غَيْرِ بَغْيٍ وَلَا عُدْوَانٍ، وَهُوَ مُجَاوِزَةٌ الْحُدِّ، فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ أَي: فِي أَكْلِ ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ قَاطِعًا لِلسَّبِيلِ، أَوْ مُفَارِقًا لِلْأُمَّةِ، أَوْ خَارِجًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلَهُ الرُّخْصَةُ، وَمَنْ خَرَجَ بَاغِيًّا أَوْ عَادِيًّا أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا رُخْصَةَ لَهُ، وَإِنْ أَضْطَرَّ إِلَيْهِ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا عَادٍ﴾ يَقُولُ: لَا يَعْدُو بِهِ الْحَلَالَ، وَقِيلَ: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ فِي الْمَيْتَةِ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ فِي أَكْلِهِ.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: الْيَهُودُ الَّذِينَ كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي كُتُبِهِمُ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ، مِمَّا تَشْهَدُ لَهُ بِالرَّسَالَةِ وَالنَّبُوءَةِ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ لِئَلَّا تَذْهَبَ رِيَّاسَتُهُمْ، وَمَا كَانُوا يَأْخُذُونَهُ مِنَ الْعَرَبِ، مِنْ الْهُدَايَا وَالتُّحْفِ عَلَى تَعْظِيمِهِمْ آبَاءَهُمْ، فَخَشُوا لِعَنَتِهِمْ اللَّهُ إِنْ أَظْهَرُوا ذَلِكَ أَنْ يَتَّبِعَهُ النَّاسُ وَيَتْرُكُوهُمْ، فَكَتَمُوا ذَلِكَ إِنْقَاءً عَلَى مَا كَانَ يَحْضُلُّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ نَزْرٌ يَسِيرٌ، فَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ، وَاعْتَصَمُوا عَنِ الْهُدَى، وَاتَّبَعَ الْحَقُّ، وَتَصَدَّقَ الرَّسُولُ، وَالْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ بِذَلِكَ النَّزْرِ الْيَسِيرِ، فَخَابُوا وَخَسِرُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ لِعِبَادِهِ صِدْقَ رَسُولِهِ بِمَا نَصَبَهُ وَجَعَلَهُ مَعَهُ مِنَ الْآيَاتِ الظَّاهِرَاتِ وَالِدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ، فَصَدَّقَهُ الَّذِينَ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَتَّبِعُوهُ، وَصَارُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى قِتَالِهِمْ وَبَاءُوا بِغَضَبِ عَلَى غَضَبٍ، وَذَمُّهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

الْكِتَابِ وَبَشَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴿١٠٠﴾ ، وَهُوَ عَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَأَوْلَيْكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ، أَي : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ مَا يَأْكُلُونَهُ فِي مُقَابَلَةِ كِتَابِ الْحَقِّ نَارًا تَأْجَجُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنْ لَدِي يَأْكُلُ أَوْ يَشْرَبُ فِي آيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، إِنَّمَا يَجْرُجُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى غَضِبَانٌ عَلَيْهِمْ ، لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا وَقَدْ عَلِمُوا ، فَاسْتَحَقُّوا الْغَضَبَ ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، أَي يُثْنِي عَلَيْهِمْ وَيَمْدَحُهُمْ ، بَلْ يُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، شَيْخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » (٢) .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ﴾ أَي : اعْتَاضُوا عَنِ الْهُدَى وَهُوَ نَشْرُ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ الرَّسُولِ ، وَذَكَرَ مَبْعَثِهِ وَالْبَشَارَةَ بِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَاتَّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ ، اسْتَدَلُّوا عَنْ ذَلِكَ وَاعْتَاضُوا عَنْهُ الضَّلَالََةَ وَهُوَ تَكْذِيبُهُ وَالْكَفْرُ بِهِ وَكِتَابَانِ صِفَاتِهِ فِي كُتُبِهِمْ ﴿ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ أَي : اعْتَاضُوا عَنِ الْمَغْفِرَةِ بِالْعَذَابِ ، وَهُوَ مَا تَعَاطَوْهُ مِنْ أَسْبَابِهِ الْمَذْكُورَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ فِي عَذَابٍ شَدِيدٍ عَظِيمٍ هَائِلٍ ، يَتَعَجَّبُ مَنْ رَأَاهُمْ فِيهَا مِنْ صَبْرِهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، مَعَ شِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالْأَعْلَالِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ أَي : فَمَا أَدْوَمَهُمْ لِعَمَلِ الْمَعَاصِي الَّتِي تُفْضِي بِهِمْ إِلَى النَّارِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : إِنَّمَا اسْتَحَقُّوا هَذَا الْعَذَابَ

(١) أخرج البخاري (٥٦٣٤) ، ومسلم (٢٠٦٥) من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : « الذي يشرب في آية الفضة إنما يجر جرج في بطنه نار جهنم » أما لفظه الأكل ، وكذا زيادة « آية الذهب » فقد أخرجه مسلم عقب الرواية المذكورة ، وفيها نظر من ناحية الرواية ، أي من ناحية السند ففيها كلام ، والأقرب عدم ثبوتها إلا أنه من ناحية الأقيسة فلقبوها وجه قوي جدا .

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٠٧) .

الشَّدِيدَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كُتُبَهُ بِتَحْقِيقِ الْحَقِّ وَإِبْطَالِ الْبَاطِلِ ، وَهَؤُلَاءِ اخْتَدُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُؤًا ، فَكِتَابَهُمْ يَأْمُرُهُمْ بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَنَشْرِهِ ، فَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ ، وَهَذَا الرَّسُولُ الْخَاتَمُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَهُمْ يُكَذِّبُونَهُ وَيُخَالِفُونَهُ وَيُجْحَدُونَهُ ، وَيَكْتُمُونَ صِفَتَهُ ، فَاسْتَهْزَؤُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الْمُنزَّلَةِ عَلَى رَسُولِهِ ، فَلِهَذَا اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ وَالنَّكَالَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ ذَلِكِ بَأْسٌ اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ .

❖ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

وَأَمَّا الْكَلَامُ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَّلًا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ حَوَّاهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى نَفُوسِ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانَ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ إِنَّهَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ ﷻ وَأَمْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَالتَّوَجُّهِ حَيْثُمَا وَجَّهَ ، وَاتَّبَاعَ مَا شَرَعَ ، فَهَذَا هُوَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَىٰ وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ ، وَلَيْسَ فِي لُزُومِ التَّوَجُّهِ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ بَرٌّ وَلَا طَاعَةٌ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ الْآيَةِ ، كَمَا قَالَ فِي الْأَضْحَىٰ وَاهْدَايَا ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ﴾ [الحج : ٣٧]

قَالَ الثَّوْرِيُّ : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ الْآيَةِ ، قَالَ : هَذِهِ أَنْوَاعُ الْبِرِّ كُلِّهَا ، وَصَدَقَ - رِجْهَهُ اللَّهُ - فَإِنَّ مَنْ اتَّصَفَ بِهِذِهِ الْآيَةِ فَقَدْ دَخَلَ فِي عُرَى الْإِسْلَامِ كُلِّهَا ،

وَأَخَذَ بِمِجَامِعِ الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَصَدَقَ بِوُجُودِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ سَفَرَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ﴿ وَالْكِتَابِ ﴾ وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَشْمَلُ الْكِتَابَ الْمُنزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، حَتَّى خُتِمَتْ بِأَشْرَفِهَا وَهُوَ الْقُرْآنُ ، الْمُهَيَّمُنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ ، الَّذِي انْتَهَى إِلَيْهِ كُلُّ خَيْرٍ ، وَاشْتَمَلَ عَلَى كُلِّ سَعَادَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَنُسِخَ بِهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْكِتَابِ قَبْلَهُ ، ﴿ وَالنَّبِيِّنَ ﴾ وَآمَنَ بِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوْلِهِمْ إِلَى خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَءَاتَى الْأَمْوَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾ أَي : أَخْرَجَهُ وَهُوَ مُجِبٌّ لَهُ رَاغِبٌ فِيهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا « أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ صَاحِبٌ ، تَأْمَلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ »<sup>(١)</sup> .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لِيُوجِبَ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ [الإنسان : ٨-٩] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] نَمَطٌ آخَرَ أَرْفَعُ مِنْ هَذَا ، وَهُوَ أَنَّهُمْ آثَرُوا بِهَا هُمْ مُضْطَرُونَ إِلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ أَعْطُوا وَأَطْعَمُوا مَا هُمْ مُجِبُونَ لَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ، وَهُمْ قَرَابَاتُ الرَّجُلِ ، وَهُمْ أَوْلَىٰ مَنْ أَعْطَىٰ مِنَ الصَّدَقَةِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ »<sup>(٢)</sup> فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِكَ ، بِبِرِّكَ وَإِعْطَائِكَ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ . ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ هُمُ الَّذِينَ لَا كَاسِبَ لَهُمْ ، وَقَدْ مَاتَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ ضِعْفَاءُ صِغَارٌ دُونَ الْبُلُوغِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى التَّكْسِبِ . ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ فِي قُوَّتِهِمْ وَكِسْوَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ ، فَيُعْطُونَ مَا تُسَدُّ بِهِ حَاجَتَهُمْ وَخَلَّتْهُمْ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ،

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

(٢) إسناده صحيح : أخرجه الترمذي (٦٥٨) وغيره ، وله شواهد في الصحيحين وغيرهما . البخاري

(حديث ١٤٦٦) ، ومسلم (حديث ٩٩٩) .

وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنَى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»<sup>(١)</sup>. ﴿وَأَبْنُ السَّبِيلِ﴾ وَهُوَ الْمَسَافِرُ الْمُجْتَازُ الَّذِي قَدْ فَرَعَتْ نَفَقَتُهُ ، فَيُعْطَى مَا يُوَصِّلُهُ إِلَى بَلَدِهِ ، وَكَذَا الَّذِي يُرِيدُ سَفْرًا فِي طَاعَةٍ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَإِيَابِهِ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الضَّيْفُ . ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ لِلطَّلَبِ فَيُعْطُونَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ . ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ ، وَهُمْ الْمُكَاتِبُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُؤَدُّونَهُ فِي كِتَابَتِهِمْ . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أَي : وَأَتَمَّ أَفْعَالَ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا بِرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا ، وَطَمَأْنِينَتِهَا وَخُشُوعِهَا عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ الْمَرْضِيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ زَكَاةُ النَّفْسِ وَتَحْلِيصُهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ الرَّذِيلَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿وَقَدْ حَاطَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس : ٩-١٠] ، وَقَوْلُ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ : ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَهُ﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النَّازِعَاتِ : ١٨-١٩] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْمَالِ ، وَيَكُونُ الْمَذْكُورُ مِنْ إِعْطَاءِ هَذِهِ الْجِهَاتِ وَالْأَصْنَافِ الْمَذْكُورِينَ ، إِنَّمَا هُوَ التَّطَوُّعُ وَالْبِرُّ وَالصَّلَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَهْدَ﴾ ، وَعَكْسُ هَذِهِ الصِّفَةِ النَّفَاقُ كَمَا صَحَّ الْحَدِيثُ «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»<sup>(٢)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أَي : فِي حَالِ الْفَقْرِ ، وَهُوَ الْبَأْسَاءُ ، وَفِي حَالِ الْمَرَضِ وَالْأَسْقَامِ وَهُوَ الصَّرَاءُ ، ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أَي : فِي حَالِ الْقِتَالِ وَالنِّقَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَإِنَّمَا نَصَبَ ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ عَلَى الْمَدْحِ وَالْحَثِّ عَلَى الصَّبْرِ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ لِشِدَّتِهِ وَصُعُوبَتِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ أَي : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ هُمْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٤٧٩) ، ومسلم (حديث ١٠٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٣) ، ومسلم (حديث ٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٤) ، ومسلم (حديث ٥٩) .

الَّذِينَ صَدَقُوا فِي إِيْمَانِهِمْ لَا تَنْهَمُ حَقَّقُوا الْإِيْمَانَ الْقَلْبِيَّ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴿ وَأَوْلَاتِكُمْ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ ، لَأَنْتُمْ أَنْتَقُوا الْمَحَارِمَ وَفَعَلُوا الطَّاعَاتِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّ إِِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَدَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْعَدْلُ فِي الْقِصَاصِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ، حُرِّكُمْ بِحُرِّكُمْ ، وَعَبْدُكُمْ بِعَبْدُكُمْ ، وَأُنْثَاكُمْ بِأُنْثَاكُمْ ، وَلَا تَتَجَاوَزُوا وَتَعْتَدُوا ، كَمَا أَعْتَدَى مَنْ قَبْلَكُمْ ، وَغَيَّرُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ قَرِيطَةُ وَالنَّضِيرُ ، كَانَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَدْ غَزَتْ قَرِيطَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفَهَرُوهُمْ ، فَكَانَ إِذَا قَتَلَ النَّضِيرِيُّ الْقُرْظِيَّ لَا يُقْتَلُ بِهِ بَلْ يُفَادَى بِهَاةٍ وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ ، وَإِذَا قَتَلَ الْقُرْظِيُّ النَّضِيرِيَّ قُتِلَ ، وَإِنْ فَادَوْهُ فِدْوُهُ بِهَاتِي وَسَقَى مِنَ التَّمْرِ ، ضِعْفُ دِيَّةِ الْقُرْظِيَّ ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ فِي الْقِصَاصِ ، وَلَا يُتَّبَعُ سَبِيلُ الْمُفْسِدِينَ الْمُحَرِّفِينَ لِأَحْكَامِ اللَّهِ فِيهِمْ ، كُفْرًا وَبَغْيًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ ﴾ .

مَسْأَلَةٌ : ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّ الْحُرَّ يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ ؛ لِغُضْمِ آيَةِ الْمَائِدَةِ ، وَخَالَفَهُمُ الْجُمْهُورُ فَقَالُوا : لَا يُقْتَلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ سِلْعَةٌ لَوْ قُتِلَ خَطَأً لَمْ يَجِبْ فِيهِ دِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا تَجِبُ فِيهِ قِيَمَتُهُ ، وَلَا تَأْتِيهِ لَا يُقَادُ بِطَرَفِهِ ، فَنَفْسُ بَطْرِيقِ الْأُولَى . وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ لَا يُقْتَلُ بِالْكَافِرِ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »<sup>(١)</sup> ، وَلَا يَصِحُّ حَدِيثٌ وَلَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ هَذَا ، وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ بِهِ لِغُضْمِ آيَةِ الْمَائِدَةِ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ : لَا يُقْتَلُ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَخَالَفَهُمُ الْجُمْهُورُ لِآيَةِ الْمَائِدَةِ ، وَلِقَوْلِهِ ﷺ « ( الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ) »<sup>(٢)</sup> .

(١) البخاري (حديث ١١١) .

(٢) صحيح لشواهده : أخرجه أبو داود (٤٥٣٠ ، ٤٥٣١) وغيره .

مَسْأَلَةٌ : وَمَذَهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْجُمْهُورِ أَنَّ الْجَمَاعَةَ يُقْتَلُونَ بِالْوَاحِدِ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ عَنِ  
 ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : فَالْعَفْوُ أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَّةَ فِي الْعَمْدِ ، وَعَنْهُ أَيْضًا : فَمَنْ تَرَكَ لَهُ مِنْ  
 أَخِيهِ ﴿ شَيْءٌ ﴾ يَعْنِي : أَخَذَ الدِّيَّةَ بَعْدَ اسْتِحْقَاقِ الدَّمِ ، وَذَلِكَ الْعَفْوُ ﴿ فَاتَّبَاعٌ  
 بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يَقُولُ : فَعَلَى الطَّالِبِ اتِّبَاعُ الْمَعْرُوفِ إِذَا قَبِلَ الدِّيَّةَ ﴿ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ  
 بِإِحْسَانٍ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْقَاتِلِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ وَلَا مَعَكِ ، يَعْنِي : الْمُدَافَعَةَ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ أَخْذَ  
 الدِّيَّةِ فِي الْعَمْدِ تَخْفِيفًا مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ ، مِمَّا كَانَ مَحْتَمًا عَلَى الْأُمَّمِ قَبْلَكُمْ  
 مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْعَفْوِ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُتِبَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ  
 الْعَفْوُ ، فَقَالَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ  
 بِالْعَبْدِ وَالْأَتَى بِالْأَتَى ﴾ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴿ فَالْعَفْوُ : أَنْ يَقْبَلَ الدِّيَّةَ فِي الْعَمْدِ ،  
 ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِمَّا كُتِبَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ﴾ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴿ .  
 وَقَالَ قَتَادَةُ : ﴿ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ رَحِمَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، وَأَطْعَمَهُمُ الدِّيَّةَ ،  
 وَلَمْ تَحِلْ لِأَحَدٍ قَبْلَهُمْ ، فَكَانَ أَهْلُ التَّوْرَةِ : إِنَّمَا هُوَ الْقِصَاصُ وَعَفْوٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ  
 أَرْضٌ ، وَكَانَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ : إِنَّمَا هُوَ عَفْوٌ أَمْرًا بِهِ ، وَجُعِلَ هَذِهِ الْأُمَّةُ الْقِصَاصُ  
 وَالْعَفْوُ وَالْأَرْضُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى  
 فَمَنْ قَتَلَ بَعْدَ أَخْذِ الدِّيَّةِ أَوْ قَبُولِهَا فَلَهُ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ أَلِيمٌ مُّوجِعٌ شَدِيدٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : وَفِي شَرَعِ الْقِصَاصِ لَكُمْ ، وَهُوَ  
 قَتْلُ الْقَاتِلِ حِكْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهِيَ بَقَاءُ الْمُهْجِ وَصَوْنُهَا ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ الْقَاتِلُ أَنَّهُ يُقْتَلُ  
 انْكَفَى عَنْ صَنْعِهِ ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ حَيَاةٌ لِلنَّفُوسِ ، وَفِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ : الْقَتْلُ أَنْفَى  
 لِلْقَتْلِ ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْعِبَارَةُ فِي الْقُرْآنِ أَفْصَحَ وَأَبْلَغَ وَأَوْجَزَ . ﴿ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ  
 تَتَّقُونَ ﴾ يَقُولُ : يَا أُولِي الْعُقُولِ ، وَالْأَفْهَامِ ، وَالنُّهَى ، لَعَلَّكُمْ تَنْزَجُرُونَ وَتَتْرَكُونَ  
 مُحَارِمَ اللَّهِ ، وَمَأْتِمِهِ ، وَالتَّقْوَى : اسْمٌ جَامِعٌ لِفِعْلِ الطَّاعَاتِ ، وَتَرَكَ الْمُنْكَرَاتِ .



كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ  
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا  
إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا  
أَوْ إِيثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

اِسْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأَمْرِ بِالْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَقَدْ كَانَ  
ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى أَصْحَابِ الْقَوْلَيْنِ قَبْلَ نُزُولِ آيَةِ الْمَوَارِيثِ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْفَرَائِضِ  
نَسَخَتْ هَذِهِ ، وَصَارَتِ الْمَوَارِيثُ الْمَقْدَرَةُ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ يَأْخُذُهَا أَهْلُهَا حَتْمًا مِنْ  
غَيْرِ وَصِيَّةٍ ، وَلَا تَحْمُلُ مِنَ الْمَوْصِي ، وَهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ عَمْرٍو بْنِ خَارِجَةَ  
قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ  
حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لِمَوَارِيثٍ » (١) .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ : جَلَسَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى آتَى هَذِهِ  
الْآيَةَ ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ ، فَقَالَ نُسِخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .  
فَالآيَةُ : مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ ، كَمَا قَالَهُ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ وَالْمُعْتَبَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ ،  
فَإِنَّ وُجُوبَ الْوَصِيَّةِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ الْمَوَارِيثِ مَنْسُوخٌ بِالْإِجْمَاعِ ، بَلْ مَنْهِيٌّ عَنْهُ  
لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ « إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، فَلَا وَصِيَّةَ لِمَوَارِيثٍ » فَآيَةُ  
الْمِيرَاثِ حُكْمٌ مُسْتَقِلٌّ وَوُجُوبٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِأَهْلِ الْفُرُوضِ وَالْعَصَبَاتِ ، يَرْفَعُ بِهَا  
حُكْمَ هَذِهِ بِالْكُلِّيَّةِ .

بَقِيَ الْأَقْرَبُ الَّذِينَ لَا مِيرَاثَ لَهُمْ : يُسْتَحَبُّ لَهُ أَنْ يُوصِيَهُمْ مِنَ الثُّلُثِ  
اِسْتِثْنَاءً بِآيَةِ الْوَصِيَّةِ وَشُمُوهَا ، وَلَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ (٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ ، يَبِيْتُ لِيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتَهُ  
مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ » ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيْلَةٌ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٢١) ، وقال هذا حديث حسن صحيح ، وأخرجه غير الترمذي كذلك ، وله

طرق لا تخلو من مقال ، لكن أهل العلم على العمل بهذا الحديث .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٨) ، ومسلم (حديث ١٦٢٧) .

ذَلِكَ إِلَّا وَعِنْدِي وَصِيَّتِي . وَالآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ بِالْأَمْرِ بِبِرِّ الْأَقْرَابِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ كَثِيرَةٌ جَدًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أَي : مَا لَا ، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْوَصِيَّةُ مَشْرُوعَةٌ سِوَاءَ قَلِّ الْمَالِ أَوْ كَثْرِهِ كَالْوَرَاثَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ إِنَّمَا يُوصِي إِذَا تَرَكَ مَا لَا جَزِيلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : بِالرَّفْقِ وَالْإِحْسَانِ . وَالْمُرَادُ بِالْمَعْرُوفِ أَنْ يُوصِيَ لِأَقْرَبِيهِ وَصِيَّةً لَا تُجْحِفُ بَوْرَثَتَهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا تَقْتِيرٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ سَعْدًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالًا ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَتِي لِي ، أَفَأُوصِي بِثُلثِي مَالِي ؟ قَالَ « لَا » قَالَ فَبِالشُّطْرِ ؟ قَالَ : « لَا » قَالَ فَالثُّلُثُ ؟ قَالَ : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ » (١) ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرَّبْعِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ » (٢) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . يَقُولُ تَعَالَى فَمَنْ بَدَّلَ الْوَصِيَّةَ وَحَرَّفَهَا فَغَيَّرَ حُكْمَهَا وَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْكَيْفَانُ لَهَا بِطَرِيقِ الْأُولَى ﴿ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : وَقَدْ وَقَعَ أَجْرُ الْمَيْتِ عَلَى اللَّهِ وَتَعَلَّقَ الْإِثْمُ بِالَّذِينَ بَدَّلُوا ذَلِكَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : قَدْ اطَّلَعَ عَلَى مَا أَوْصَى بِهِ الْمَيْتُ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَلِكَ ، وَبِمَا بَدَّلَهُ الْمُوصَى إِلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا ﴾ الْآيَةُ ، الْجَنَفُ : الْخَطَأُ . وَهَذَا يَشْمَلُ أَنْوَاعَ الْخَطَأِ كُلِّهَا ، بِأَنْ زَادُوا وَارْتَابُوا بِوَاسِطَةٍ أَوْ وَسِيلَةٍ ، كَمَا إِذَا أَوْصَى بِبَيْعَةِ الشَّيْءِ الْفُلَانِيَّ مُحَابَاةً ، أَوْ أَوْصَى لِابْنِ ابْنَتِهِ لِيزِيدَ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْوَسَائِلِ ، إِذَا مَخْطِئًا غَيْرَ عَامِدٍ بَلَّ بِطَبْعِهِ وَقُوَّةِ شَفَقَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَبْصُرٍ ، أَوْ مُتَعَمِّدًا آتِيًا فِي ذَلِكَ ، فَلِلْوَصِيِّ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - أَنْ يُصْلِحَ الْقَضِيَّةَ وَيَعْدِلُ فِي الْوَصِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ

(١) البخاري (حديث ٣٩٣٦) ، ومسلم (حديث ١٦٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٣) ، ومسلم (حديث ١٦٢٩) .

الشَّرْعِيِّ ، وَيَعْدِلُ عَنِ الَّذِي أَوْصَى بِهِ الْمَيْتَ إِلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُ الْأُمُورِ بِهِ ، جَمْعًا بَيْنَ مَقْصُودِ الْمُوصِي وَالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ ، وَهَذَا الْإِصْلَاحُ وَالتَّوْفِيقُ لَيْسَ مِنَ التَّبْدِيلِ فِي شَيْءٍ ، وَهَذَا عَطْفٌ هَذَا فَبَيَّنَهُ عَلَى النَّهْيِ عَنِ ذَلِكَ ، لِيَعْلَمَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بِسَبِيلٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَمْرًا لَهُمْ بِالصِّيَامِ ، وَهُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالْوِقَاعِ بِنِيَّةِ خَالِصَةِ اللَّهِ ﷻ ، لِمَا فِيهِ مِنْ زَكَاةِ النُّفُوسِ وَطَهَارَتِهَا وَتَنْفِيتِهَا مِنَ الْأَخْلَاطِ الرَّدِيئَةِ وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ كَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ أَوْجَبَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ ، فَلَهُمْ فِيهِ أُسُوءَةٌ حَسَنَةٌ ، وَلِيَجْتَهِدَ هُوَ لَا فِي آدَاءِ هَذَا الْفَرَضِ أَكْمَلَ مِمَّا فَعَلَهُ أَوْلِيكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [ المائدة : ٤٨ ] ، وَهَذَا قَالَ هَاهُنَا ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ لِأَنَّ الصَّوْمَ فِيهِ تَرْكِيَةٌ لِلْبَدَنِ ، وَتَضْيِيقٌ لِمَسَالِكِ الشَّيْطَانِ ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ »<sup>(١)</sup> ثُمَّ بَيَّنَّ مِقْدَارَ الصَّوْمِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَى النُّفُوسِ فَتَضَعُفُ عَنْ حَمْلِهِ وَأَدَائِهِ ، بَلْ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ . ثُمَّ بَيَّنَّ حُكْمَ الصِّيَامِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أَيُّ : الْمَرِيضُ وَالْمُسَافِرُ لَا يَصُومَانِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَشَقَّةِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠٥) ، ومسلم (حديث ١٤٠٠) .

عَلَيْهِمَا ، بَلْ يُفْطِرَانِ وَيَقْضِيَانِ بَعْدَهُ ذَلِكَ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرٍ ، وَأَمَّا الصَّحِيحُ الْمُقِيمُ الَّذِي يُطِيقُ الصِّيَامَ فَقَدْ كَانَ مُحَيَّرًا بَيْنَ الصِّيَامِ وَبَيْنَ الإِطْعَامِ ، إِنْ شَاءَ صَامَ وَإِنْ شَاءَ أَفْطَرَ وَأَطْعَمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مَسْكِينًا ، فَإِنْ أَطْعَمَ أَكْثَرَ مِنْ مَسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ فَهُوَ خَيْرٌ ، وَإِنْ صَامَ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الإِطْعَامِ ، قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ السَّلَفِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وَأَمَّا أَحْوَالُ الصِّيَامِ : فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَجَعَلَ يَصُومُ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، وَصَامَ عَاشُورَاءَ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِ الصِّيَامَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ ، فَكَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَطْعَمَ مَسْكِينًا ، فَأَجْزَأُ ذَلِكَ عَنْهُ ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ أَنْزَلَ الآيَةَ الأُخْرَى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، فَأَثَبَتِ اللَّهُ صِيَامَهُ عَلَى الْمُقِيمِ الصَّحِيحِ ، وَرَخَّصَ فِيهِ لِلْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ ، وَثَبَّتِ الإِطْعَامَ لِلْكَبِيرِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ ، فَهَذَانِ حَالَانِ .

وَكَانُوا يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَأْتُونَ النِّسَاءَ مَا لَمْ يَنَامُوا ، فَإِذَا نَامُوا امْتَنَعُوا ، ثُمَّ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ صِرْمَةٌ كَانَ يَعْمَلُ صَائِمًا حَتَّى أَمْسَى ، فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ ثُمَّ نَامَ فَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَشْرَبْ حَتَّى أَصْبَحَ ، فَأَصْبَحَ صَائِمًا فَرَأَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ جَهَدَ جَهْدًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : « مَا لِي أَرَاكَ قَدْ جَهَدْتَ جَهْدًا شَدِيدًا ؟ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي عَمِلْتُ أَمْسَ فَجِئْتُ حِينَ جِئْتُ فَأَلْقَيْتُ نَفْسِي فَنِمْتُ ، فَأَصْبَحْتُ حِينَ أَصْبَحْتُ صَائِمًا ، وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَصَابَ مِنَ النِّسَاءِ بَعْدَ مَا نَامَ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ <sup>(١)</sup> عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ عَاشُورَاءَ يُصَامُ ، فَلَمَّا نَزَلَ فَرَضَ رَمَضَانَ كَانَ مَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ .

(١) البخاري (حديث ٤٥٠٢)، ومسلم (حديث ١١٢٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ﴾ ، عَنْ سَلَمَةَ بِنِ الْأَكْوَعِ أَنَّهُ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ ﴾ كَانَ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ يَفْتَدِي حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا فَسَخَتْهَا<sup>(١)</sup> ، وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ<sup>(٢)</sup> .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَتْ مَنْسُوخَةٌ ، هُوَ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرَأَةُ الْكَبِيرَةُ ، لَا يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا ، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا<sup>(٣)</sup> .

فَحَاصِلُ الْأَمْرِ أَنَّ النَّسْخَ ثَابِتٌ فِي حَقِّ الصَّحِيحِ الْمُقِيمِ بِإِجَابِ الصِّيَامِ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ ، وَأَمَّا الشَّيْخُ الْفَانِي الْهَرَمِيُّ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ ، فَلَهُ أَنْ يُفْطِرَ وَلَا قَضَاءَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ يَصِيرُ إِلَيْهَا يَتِمَّكُنُ فِيهَا مِنَ الْقَضَاءِ ، وَلَكِنْ هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ إِذَا أَفْطَرَ أَنْ يُطْعِمَ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا إِذَا كَانَ ذَا حِدَةٍ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَجِبُ عَلَيْهِ إِطْعَامٌ لِأَنَّهُ ضَعِيفٌ عَنْهُ لَيْسَتْهُ فَلَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ كَالصَّيْبِيِّ ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ . وَالثَّانِي : وَهُوَ الصَّحِيحُ وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ فِدْيَةٌ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ ، كَمَا فَسَّرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ ﴾ أَي : يَتَجَشَّمُونَهُ ، كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الْبُخَارِيِّ ، فَإِنَّهُ قَالَ : وَأَمَّا الشَّيْخُ الْكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِيقِ الصِّيَامَ ، فَقَدْ أَطْعَمَ أَنْسَ بَعْدَ مَا كَبَرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ ، عَنْ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا خُبْرًا وَلَحْمًا وَأَفْطَرَ .

وَمِمَّا يَلْتَحِقُ بِهَذَا الْمَعْنَى الْحَامِلُ وَالْمُرْضِعُ إِذَا خَافَتَا عَلَى أَنْفُسِهِمَا أَوْ وَلَدَيْهِمَا ، ففِيهِمَا خِلَافٌ كَثِيرٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يُفْطِرَانِ وَيَفْدِيَانِ وَيَقْضِيَانِ ، وَقِيلَ : يَفْدِيَانِ فَقَطْ وَلَا قَضَاءَ ، وَقِيلَ : يَجِبُ الْقَضَاءُ بِلَا فِدْيَةٍ ، وَقِيلَ : يُفْطِرَانِ وَلَا فِدْيَةَ وَلَا قَضَاءَ ، وَقَدْ بَسَطْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مُسْتَقْصَاةً فِي كِتَابِ الصِّيَامِ الَّذِي أَفْرَدْنَاهُ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٠٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٠٥) ، وكان ابن عباس يقرأها « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ » .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى  
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ  
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا  
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢١٥﴾

يَمْدُحُ تَعَالَى شَهْرَ الصِّيَامِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الشُّهُورِ ، بِأَنِ اخْتَارَهُ مِنْ بَيْنِهِنَّ لِإِنزَالِ  
الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِيهِ ، وَكَمَا اخْتَصَّهُ بِذَلِكَ قَدْ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِأَنَّهُ الشَّهْرُ الَّذِي كَانَتْ  
الْكِتَابُ الْإِلَهِيَّةُ تَنْزِلُ فِيهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَأَمَّا الصُّحُفُ وَالتَّوْرَةُ وَالزَّبُورُ وَالْإِنْجِيلُ  
فَنَزَلَتْ كُلُّ مِنْهَا عَلَى النَّبِيِّ الَّذِي أُنزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَإِنَّمَا نَزَلَ جُمْلَةً  
وَاحِدَةً إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ  
مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ ﴾  
ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَهُ مُفْرَقًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ هَذَا مَدْحٌ لِّلْقُرْآنِ الَّذِي  
أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى لِّقُلُوبِ الْعِبَادِ يَمُنُّ بِهٖ وَصَدَقَهُ وَاتَّبَعَهُ ﴿ وَبَيِّنَاتٍ ﴾ أَي : وَدَلَالِئُلْ  
وَحُجَجٌ بَيِّنَةٌ وَأَصْحَةٌ جَلِيَّةٌ لِمَنْ فَهَمَهَا وَتَدَبَّرَهَا ، دَالَّةٌ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهٖ مِنْ  
الْهُدَى الْمُنَافِي لِلضَّلَالِ ، وَالرُّشْدِ الْمُخَالِفِ لِلغَيِّ ، وَمُفْرَقًا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ  
وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ : أَنَّهُ كَرِهَ أَنْ يُقَالَ إِلَّا شَهْرُ رَمَضَانَ ،  
وَلَا يُقَالُ رَمَضَانَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ هَذَا إِجْبَابٌ حَتَمٌ عَلَى مَنْ شَهِدَ  
إِسْتِهْلَالَ الشَّهْرِ ، أَي كَانَ مُقِيمًا فِي الْبَلَدِ حِينَ دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ ، وَهُوَ صَحِيحٌ فِي  
بَدَنِهِ ، أَنْ يَصُومَ لَا مَحَالَةَ ، وَنَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةَ ، الْإِبَاحَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِمَنْ كَانَ صَحِيحًا  
مُقِيمًا أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْدِي ، وَيَبْطِئَ مَسْكِينٍ عَنْ كُلِّ يَوْمٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَلَمَّا حَتَمَ  
الصِّيَامَ أَعَادَ ذِكْرَ الرُّخْصَةِ لِلْمَرِيضِ وَلِلْمُسَافِرِ فِي الْإِفْطَارِ بِشَرْطِ الْقَضَاءِ ، فَقَالَ :  
﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ مَعْنَاهُ : وَمَنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ  
فِي بَدَنِهِ يَشُقُّ عَلَيْهِ الصِّيَامُ مَعَهُ أَوْ يُؤْذِيهِ ، أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ ، أَي فِي حَالِ السَّفَرِ ، فَلَهُ

أَنْ يُفْطِرَ ، فَإِذَا أَفْطَرَ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مَّا أَفْطَرَهُ فِي السَّفَرِ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ أَي : إِنَّمَا رَخَّصَ لَكُمْ فِي الْفِطْرِ فِي حَالِ الْمَرَضِ ، وَفِي السَّفَرِ مَعَ تَحْتُمِهِ فِي حَقِّ الْمَقِيمِ الصَّحِيحِ ، تَيْسِيرًا عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ . وَهَاهُنَا مَسَائِلُ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ : ذَهَبَ فَرِيقٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ إِلَى وَجُوبِ الْإِفْطَارِ فِي السَّفَرِ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ ، وَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ عَلَى التَّخْيِيرِ وَلَيْسَ بِحَتْمٍ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، قَالَ : فَمِنَّا الصَّائِمُ وَمِنَّا الْمَفْطِرُ ، فَلَمْ يَعْجَبِ الصَّائِمُ عَلَى الْمَفْطِرِ ، وَلَا الْمَفْطِرُ عَلَى الصَّائِمِ ، فَلَوْ كَانَ الْإِفْطَارُ هُوَ الْوَاجِبُ لَأَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامَ ، بَلِ الَّذِي ثَبَتَ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ صَائِمًا ، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، حَتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لِيَضَعُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَمَا فِينَا صَائِمٌ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ<sup>(١)</sup> .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الشَّافِعِيُّ : الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ أَفْضَلُ مِنَ الْإِفْطَارِ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : بَلِ الْإِفْطَارُ أَفْضَلُ أَخْذًا بِالرُّخْصَةِ ، وَلِمَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ فَقَالَ : « مَنْ أَفْطَرَ فَحَسَنٌ ، وَمَنْ صَامَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ »<sup>(٢)</sup> وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : هُمَا سَوَاءٌ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّ حَمْرَةَ بِنَ عَمْرِو الْأَسْلَمِيِّ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كَثِيرُ الصِّيَامِ أَفَأَصُومُ فِي السَّفَرِ ؟ فَقَالَ : « إِنْ شِئْتَ فَصُمْ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ »<sup>(٣)</sup> ، وَقِيلَ : إِنْ شَقَّ الصِّيَامُ فَالْإِفْطَارُ أَفْضَلُ ؛ لِحَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا قَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ فَقَالَ : « مَا هَذَا » قَالُوا : صَائِمٌ ، فَقَالَ : « لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ »<sup>(٤)</sup> فَأَمَّا إِنْ رَغِبَ عَنِ السُّنَّةِ وَرَأَى أَنَّ الْفِطْرَ مَكْرُوهٌ إِلَيْهِ فَهَذَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ الْإِفْطَارُ ، وَيَجْرُمُ عَلَيْهِ الصِّيَامُ وَالْحَالَةُ هَذِهِ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩٤٥)، ومسلم (حديث ١١٢٢) .

(٢) مسلم (في طرق حديث ١١٢١) بلفظ : « هي رخصة من الله فمن أخذها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » .

(٣) البخاري (حديث ١٩٤٣)، ومسلم (حديث ١١٢١) .

(٤) البخاري (حديث ١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥) .

الْقَضَاءُ: هَلْ يَجِبُ مُتَابِعًا، أَوْ يَجُوزُ فِيهِ التَّفْرِيقُ؟ فِيهِ قَوْلَانِ: «أَحَدُهُمَا» أَنَّهُ يَجِبُ التَّتَابُعُ؛ لِأَنَّ الْقَضَاءَ يَحْكِي الْأَدَاءَ، وَالثَّانِي: لَا يَجِبُ التَّتَابُعُ بَلْ إِنْ شَاءَ تَابَعَ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ، وَعَلَيْهِ ثَبَتَ الدَّلَائِلُ؛ لِأَنَّ التَّتَابُعَ إِنَّمَا وَجِبَ فِي الشَّهْرِ، لِضُرُورَةِ أَدَائِهِ فِي الشَّهْرِ، فَأَمَّا بَعْدَ انْقِضَاءِ رَمَضَانَ، فَلَمَّا رَأَى صِيَامَ أَيَّامِ عِدَّةٍ مَا أَفْطَرَ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِمُعَاذٍ وَأَبِي مُوسَى حِينَ بَعَثَهُمَا إِلَى الْيَمَنِ: «بَشْرًا وَلَا تُنْفَرَا، وَيَسْرًا وَلَا تُعْسِرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا»<sup>(١)</sup>.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ﴾ أَي: إِنَّمَا أُرْحِصُ لَكُمْ فِي الْإِفْطَارِ لِلْمَرِيضِ وَالسَّفِيرِ وَنَحْوَهُمَا مِنَ الْأَعْدَارِ، لِإِرَادَتِهِ بِكُمْ الْيُسْرَ، وَإِنَّمَا أَمَرَكُمْ بِالْقَضَاءِ لِتُكْمَلُوا عِدَّةَ شَهْرِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَانَكُمْ﴾ أَي: وَلِتَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ انْقِضَاءِ عِبَادَتِكُمْ كَمَا قَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْنَسِكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وَقَالَ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاتْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ وَاتَّبَعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وَهَذَا جَاءَتْ السُّنَّةُ بِاسْتِحْبَابِ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّكْبِيرِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَاتِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا كُنَّا نَعْرِفُ انْقِضَاءَ صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا بِالتَّكْبِيرِ<sup>(٢)</sup>، وَهَذَا أَخَذَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَشْرُوعِيَّةَ التَّكْبِيرِ فِي عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلِتُكْمَلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَانَكُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أَي: إِذَا فُتِمْتُمْ بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَتَرْكِ مَحَارِمِهِ، وَحِفْظِ حُدُودِهِ، فَلَعَلَّكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الشَّاكِرِينَ بِذَلِكَ.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَىٰ وَلِيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ



(١) أخرجه البخاري (٤٣٤١، ٤٣٤٢، ٤٣٤٣، ٤٣٤٤)، ومسلم (١٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٨٤٢)، ومسلم (حديث ٥٨٣) واللفظ لمسلم.



عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرْفًا وَلَا نَعْلُو شَرْفًا وَلَا مَهْبُطًا وَإِدْيَا إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ، قَالَ فَدَنَا مِنَّا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»<sup>(٢)</sup>.

قُلْتُ: وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وَقَوْلُهُ لِمُوسَى وَهَارُونَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَصَمُّ وَأَرَى﴾، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يُحِبُّ دُعَاءَ دَاعٍ، وَلَا يَشْغَلُهُ عَنْهُ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَفِيهِ تَرْغِيبٌ فِي الدُّعَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يَضِيعُ لَدَيْهِ. عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَتْخِي أَنْ يَسْطَطَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدِيهِ يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ»<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو اللَّهَ ﷻ بِدَعْوَةٍ، لَيْسَ فِيهَا إِيْتِمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْأُخْرَى، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشُّؤْمِ مِثْلَهَا»<sup>(٤)</sup> قَالُوا: إِذَا نُكِّرْتُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يُعَجَّلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»<sup>(٥)</sup> وَعَنْهُ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِيْتِمٍ، أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ، مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ»<sup>(٦)</sup> قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرِ يُسْتَجَابْ لِي، فَيَسْتَحْسِرُ

(١) أخرجه أحمد (٤٠٢/٤)، ومسلم في طرق (٢٧٠٤).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٢١٠/٣).

(٣) إسناده حسن: وقد أخرجه الترمذي (مع التحفة ٥٤٤/٩).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٨/٣)، وسنده حسن.

(٥) أخرجه البخاري (حديث ٦٣٤٠)، ومسلم (حديث ٢٧٣٥).

(٦) مسلم (حديث ٢٧٣٥).

عِنْدَ ذَلِكَ ، وَيَدْعُ الدُّعَاءَ » .

وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى الدُّعَاءِ مُتَخَلِّلَةً بَيْنَ أَحْكَامِ الصِّيَامِ ، إِرْشَادًا إِلَى الْإِجْتِهَادِ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ إِكْمَالِ الْعِدَّةِ ، بَلْ وَعِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ .  
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لِلصَّائِمِ عِنْدَ إِفْطَارِهِ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ » (١) فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِذَا أَفْطَرَ دَعَا أَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَدَعَا .

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْعَنَ بِشِرْوَهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ وَرَفَعَ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُهُمْ إِنَّمَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالْجَمَاعُ إِلَى صَلَاةِ الْعِشَاءِ ، أَوْ يَنَامُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَمَتَى نَامَ أَوْ صَلَّى الْعِشَاءَ حَرَّمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجَمَاعُ إِلَى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ ، فَوَجَدُوا مِنْ ذَلِكَ مَشَقَّةً كَبِيرَةً ، وَالرَّفْتُ هُنَا هُوَ الْجَمَاعُ .

وَقَوْلُهُ : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لِهِنَّ » يَعْنِي : هُنَّ سَكَنٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَنٌ لِهِنَّ ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : هُنَّ لِحَافٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِحَافٌ لِهِنَّ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ كُلُّ مِنْهُمَا يُحَالِطُ الْآخَرَ وَيُمَاسِسُهُ وَيُضَاجِعُهُ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُمْ فِي الْمَجَامَعَةِ فِي لَيْلِ رَمَضَانَ لِئَلَّا يَشُقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَيُخْرِجُوا ، قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَنَى جِيدَهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا

عَنِ السَّرَاءِ بْنِ عَازِبٍ (٢) قَالَ : كَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَنَامَ

(١) أخرجه الطيالسي رقم (٢٢٦٢) ، وقد أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم ... » ابن ماجه (١٧٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١٩١٥) .

قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ إِلَى مِثْلِهَا ، وَأَنَّ فَيْسَ بِنِ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ صَائِمًا ، وَكَانَ يَوْمُهُ ذَلِكَ يَعْمَلُ فِي أَرْضِهِ فَلَمَّا حَصَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ : هَلْ عِنْدَكَ طَعَامٌ ؟ قَالَتْ : لَا وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ ، فَعَلَبْتُهُ عَيْنُهُ فَنَامَ ، وَجَاءَتِ امْرَأَتُهُ فَلَمَّا رَأَتْهُ نَائِمًا قَالَتْ : خِيْبَةٌ لَكَ أَنْمَتَ ؟ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُيْبِي عَلَيْهِ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ فَفَرَحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ أَبَاحَ تَعَالَى الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ مَعَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِبَاحَةِ الْجَمَاعِ فِي أَيِّ اللَّيْلِ شَاءَ الصَّائِمُ ، إِلَى أَنْ يَتَبَيَّنَ ضِيَاءَ الصَّبَاحِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ ، وَعَبَّرَ عَنِ ذَلِكَ بِالْخَيْطِ الْأَبْيَضِ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ وَرَفَعَ اللَّبْسَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : أَنْزَلَتْ ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ ، وَلَمْ يَنْزَلْ ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ، وَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدَهُمْ فِي رِجْلَيْهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ فَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ ، فَعَلِمُوا أَنَّهَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ عَمَدَتْ إِلَى عِقَالَيْنِ أَحَدُهُمَا أَسْوَدُ وَالْآخَرُ أَبْيَضُ ، قَالَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتِ وَسَادَتِي ، قَالَ فَجَعَلْتُ أَنْظُرَ إِلَيْهِمَا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِي الْأَبْيَضُ مِنَ الْأَسْوَدِ أَمْسَكْتُ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي صَنَعْتُ ، فَقَالَ : « إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ إِنَّمَا ذَلِكَ بِيَاضِ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ »<sup>(٢)</sup> . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : إِنَّ وَسَادَكَ إِذَا لَعَرِيضٌ ، أَيُّ : إِنْ كَانَ لِيَسْعُ الْخَيْطَيْنِ الْخَيْطُ الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ الْمُرَادَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ تَحْتَهَا ، فَإِنَّهَا بِيَاضِ النَّهَارِ وَسَوَادِ اللَّيْلِ ، فَيَقْتَضِي

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥١١) .

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣٧٧/٤) ، وانظر أيضًا البخاري (١٩١٦) .

أَنْ يَكُونَ بِعَرَضِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

وَفِي إِبَاحَتِهِ تَعَالَى جَوَازَ الْأَكْلِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ السُّحُورِ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الرُّحْصَةِ وَالْأَخْذُ بِهَا مَحْبُوبٌ ، وَهَذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْحَثِّ عَلَى السُّحُورِ ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَسَحَّرُوا ، فَإِنَّ فِي السُّحُورِ بَرَكَهٌ »<sup>(١)</sup> ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ فَضْلَ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَكْلَةُ السَّحْرِ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ يَقْتَضِي الْإِفْطَارَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ حُكْمًا شَرْعِيًّا كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا ، وَعَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »<sup>(٣)</sup> ، وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ »<sup>(٤)</sup> .

وَهَذَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّهْيُ عَنِ الْوِصَالِ ، وَهُوَ أَنْ يَصِلَ يَوْمًا بِيَوْمٍ آخَرَ وَلَا يَأْكُلُ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُوَاصِلُوا » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تُوَاصِلُ ، قَالَ : « فَإِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ ، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي » ، قَالَ : فَلَمْ يَنْتَهُوا عَنِ الْوِصَالِ ، فَوَاصَلَ بِهِمُ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ ، ثُمَّ رَأَوْا الْهَلَالَ ، فَقَالَ : « لَوْ تَأَخَّرَ الْهَلَالُ لَزِدْتُمْ » كَمَا نَكَّلَ بِهِمْ<sup>(٥)</sup> .

فَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ ، وَثَبَتَ أَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ كَانَ يَقْوَى عَلَى ذَلِكَ وَيَعَانُ ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فِي حَقِّهِ إِنَّمَا كَانَ مَعْنَوِيًّا لَا حِسِّيًّا ، وَإِلَّا فَلَا يَكُونُ مُوَاصِلًا مَعَ الْحِسِّيِّ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لَهَا أَحَادِيثٌ مِنْ ذِكْرِكَ تَشْغَلُهَا  
عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيَهَا عَنِ الزَّادِ

(١) البخاري (حديث ١٩٢٣) ، ومسلم (حديث ١٠٩٥) .

(٢) مسلم (حديث ١٠٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ١٩٥٤) ، ومسلم (حديث ١١٠٠) .

(٤) البخاري (١٩٥٧) ، ومسلم (١٠٩٨) .

(٥) انظر البخاري (حديث ١٩٦٥) ، ومسلم (حديث ١١٠٥) .

وَأَمَّا مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُمْسِكَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى وَقْتِ السَّحَرِ فَلَهُ ذَلِكَ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « لَا تُوَاصِلُوا ، فَإِيَّكُمْ أَرَادَ أَنْ يُوَاصِلَ فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ » قَالُوا : فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « إِيَّيْ لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ ، إِيَّيْ آيَةُ لِي مُطْعَمٌ يُطْعِمُنِي ، وَسَاقٍ يَسْقِينِي »<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَعِزْرِهِ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُوَاصِلُونَ الْأَيَّامَ الْمُتَعَدَّةَ ، وَحَمَلَهُ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ رِيَاضَةً لِأَنْفُسِهِمْ ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَهُ عِبَادَةً - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنَ النَّهْيِ أَنَّهُ إِزْشَادٌ مِنْ بَابِ الشَّفَقَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ : « رَحْمَةٌ لَهُ » ، فَكَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُهُ عَامِرٌ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ يَتَجَشَّمُونَ ذَلِكَ ، وَيَفْعَلُونَهُ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجِدُونَ قُوَّةَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ ۖ وَاتُّمَدَّ عَنكَفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴾ لَا يَقْرُبُهَا وَهُوَ مُعْتَكِفٌ ، وَهَذَا هُوَ الْأَمْرُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْمُعْتَكِفَ يَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّسَاءُ مَا دَامَ مُعْتَكِفًا فِي مَسْجِدِهِ ، وَلَوْ ذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ لِحَاجَةٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهَا ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْبُتَ فِيهِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ مَا يَفْرُغُ مِنْ حَاجَتِهِ تِلْكَ ، مِنْ قَضَاءِ الْغَائِطِ أَوْ الْأَكْلِ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ امْرَأَتَهُ وَلَا أَنْ يَضُمَّهَا إِلَيْهِ وَلَا يَشْتَغَلَ بِشَيْءٍ سِوَى اعْتِكَافِهِ ، وَلَا يَعُودَ الْمَرِيضُ لَكِنْ يَسْأَلُ عَنْهُ وَهُوَ مَارٌّ فِي طَرِيقِهِ .

وَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى الْإِعْتِكَافَ بَعْدَ الصِّيَامِ إِزْشَادٌ وَتَنْبِيهُ عَلَى الْإِعْتِكَافِ فِي الصِّيَامِ أَوْ فِي آخِرِ شَهْرِ الصِّيَامِ ، كَمَا ثَبَتَتِ السُّنَّةُ<sup>(٢)</sup> عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَرْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٣)</sup> أَنَّ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ كَانَتْ تَزُورُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً ، ثُمَّ قَامَتْ لِتَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهَا وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلًا ، فَقَامَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِيَمْشِيَ مَعَهَا حَتَّى تَبْلُغَ دَارَهَا ، وَكَانَ مَنْزِلُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فِي

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩٦٣) .

(٢) البخاري (٢٠٢٦) ، ومسلم (١١٧٢) .

(٣) انظر البخاري (حديث ٢٠٣٥) ، ومسلم (حديث ٢١٧٥) .

جَانِبِ الْمَدِينَةِ ، فَلَمَّا كَانَ بَعْضُ الطَّرِيقِ لَقِيَهُ رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ  
 أَسْرَعَا ، وَفِي رِوَايَةٍ تَوَارِيَا أَيَّ حَيَاءٍ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ لِكُونَ أَهْلِهِ مَعَهُ ، فَقَالَ هُمَا ﷺ :  
 « عَلَى رِسْلِكُمَا ، إِنَّمَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَمِيٍّ » أَي : لَا تُسْرَعَا وَعَالِمًا أَنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حَمِيٍّ ،  
 أَي زَوْجَتِي ، فَقَالَا : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ ﷺ : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ  
 ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَفْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا - أَوْ قَالَ - شَرًّا » .  
 قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : أَرَادَ ﷺ أَنْ يُعَلِّمَ أُمَّتَهُ التَّبَرِّيَّ مِنَ التُّهْمَةِ فِي مَحَلِّهَا ،  
 لِئَلَّا يَقَعَا فِي مَحْذُورٍ وَهُمَا كَانَا أَتَقَى اللَّهُ مِنْ أَنْ يَطْنَأَ بِالنَّبِيِّ ﷺ شَيْئًا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .  
 ثُمَّ الْمُرَادُ بِالْمُبَاشَرَةِ إِنَّمَا هُوَ الْجَمَاعُ وَدَوَاعِيهِ مِنْ تَقْيِيلٍ وَمُعَانَقَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فَأَمَّا  
 مُعَاطَاةُ الشَّيْءِ وَنَحْوِهِ فَلَا بَأْسَ بِهِ ، فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ  
 اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأَرْجِلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ ،  
 وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَقَدْ كَانَ الْمَرِيضُ يَكُونُ  
 فِي الْبَيْتِ فَمَا أَسْأَلُ عَنْهُ إِلَّا وَأَنَا مَارَةٌ <sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ وَفَرَضْنَاهُ وَحَدَدْنَاهُ مِنَ الصِّيَامِ  
 وَأَحْكَامِهِ ، وَمَا أَبْحَنَّا فِيهِ وَمَا حَرَّمْنَا ، وَذَكَرْنَا غَايَاتِهِ وَرُخْصَهُ وَعَزَائِمَهُ ﴿ حُدُودُ  
 اللَّهِ ﴾ أَي : شَرَعَهَا اللَّهُ وَبَيَّنَّاهَا بِنَفْسِهِ ﴿ فَلَا تَقْرُبُوهَا ﴾ أَي : لَا تُجَاوِزُوهَا وَتَتَعَدَّوهَا ﴿  
 كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ ﴾ أَي : كَمَا بَيَّنَّ الصِّيَامَ وَأَحْكَامَهُ وَشَرَائِعَهُ  
 وَتَفَاصِيلَهُ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ سَائِرَ الْأَحْكَامِ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ لِلنَّاسِ  
 لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أَي : يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَهْتَدُونَ وَكَيْفَ يُطِيعُونَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ  
 بِكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الحديد : ٩ ]

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا  
 فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٠٢٩) ، ومسلم (حديث ٢٩٧) .

(٢) صحيح : مسلم (ص ٢٤٤ عقب حديث ٢٩٧) .

هَذَا فِي الرَّجُلِ يَكُونُ عَلَيْهِ مَالٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ فِيهِ بَيِّنَةٌ ، فَيَجْحَدُ الْمَالَ وَيُحَاصِمُ إِلَى الْحُكَّامِ ، وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَثِمٌ أَكَلَ الْحَرَامَ ، وَقِيلَ : لَا تُحَاصِمَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخِصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِي لَهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا » (١) .

فَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ ، عَلَى أَنَّ حُكْمَ الْحَاكِمِ لَا يُغَيِّرُ الشَّيْءَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَلَا يُجِلُّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ حَرَامًا هُوَ حَرَامٌ ، وَلَا يُجَرِّمُ حَلَالًا هُوَ حَلَالٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُلْزِمٌ فِي الظَّاهِرِ ، فَإِنْ طَابَقَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَذَاكَ ، وَإِلَّا فَلِلْحَاكِمِ أَجْرُهُ وَعَلَى الْمُحْتَالِ وَرِزُّهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : تَعْلَمُونَ بَطْلَانَ مَا تَدْعُونَهُ وَتُرَوِّجُونَهُ فِي كَلَامِكُمْ ، قَالَ قَتَادَةُ : اِعْلَمْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّ قَضَاءَ الْقَاضِي لَا يُجِلُّ لَكَ حَرَامًا ، وَلَا يُحِقُّ لَكَ بَاطِلًا وَإِنَّمَا يَقْضِي الْقَاضِي بِنَحْوِ مَا يَرَى وَتَشْهَدُ بِهِ الشُّهُودُ ، وَالْقَاضِي بَشَرٌ يُحْطِئُ وَيُصِيبُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ مَنْ قَضَى لَهُ بِبَاطِلٍ أَنْ خُصِمْتَهُ لَمْ تَنْقُضِ حَتَّى يَجْمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَقْضِي عَلَى الْمُبْطِلِ لِلْمُحَقِّ بِأَجُودَ مِمَّا قَضَى بِهِ لِلْمُبْطِلِ عَلَى الْمُحَقِّ فِي الدُّنْيَا .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ۗ وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٨٩)

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ ﴾ جَعَلَهَا اللَّهُ مَوَاقِيتَ لِصَوْمِ الْمُسْلِمِينَ وَإِفْطَارِهِمْ ، وَعِدَّةِ نِسَائِهِمْ وَمَحَلِّ دِينِهِمْ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ۗ وَاتُّوا ﴾

(١) انظر البخاري (حديث ٢٤٥٨) ، وهناك أطراف هذا الحديث ، ومسلم (حديث ١٧١٣) .

الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴿ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : كَانُوا إِذَا أَحْرَمُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَتَوْا الْبَيْتَ مِنْ ظَهْرِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ (١) وَفِي رِوَايَةٍ : عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرِهِمْ لَمْ يَدْخُلِ الرَّجُلُ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ (٢) .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ أَي : اتَّقُوا اللَّهَ فافعلوا مَا أَمَرَكُمْ بِهِ ، وَاتْرَكُوا مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ غَدًا إِذَا وَقَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَى النَّهْمِ وَالْكَفَالِ .

وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿ فَإِنْ أَنتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿ وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿

﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ ﴾ تَهَيِّجُ وَإِعْرَاءُ بِالْأَعْدَاءِ الَّذِينَ هَمَّتْهُمْ قِتَالُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، أَي كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ أَنْتُمْ كَمَا قَالَ ﴿ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً ﴿ [ التوبة : ٣٦ ] ، وَلِهَذَا قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ أَي : لِتَكُونَ هَمَّتْكُمْ مُبْعَثَةً عَلَى قِتَالِهِمْ ، كَمَا أَنَّ هَمَّتْهُمْ مُبْعَثَةً عَلَى قِتَالِكُمْ ، وَعَلَى إِخْرَاجِهِمْ مِنْ بِلَادِهِمُ الَّتِي أَخْرَجُوكُمْ مِنْهَا ، قِصَاصًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿ أَي : قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا فِي ذَلِكَ ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ إِزْتِكَابُ الْمَنَاهِي مِنَ الْمُثَلَّةِ ، وَالْغُلُولِ ، وَقَتْلِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥١٢) .

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (حديث ٧١٧) .



النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ وَالشُّيُوخِ ، الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالٌ فِيهِمْ ، وَالرُّهْبَانَ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ ، وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ ، وَقَتْلِ الْحَيَّوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ ، وَهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ <sup>(١)</sup> عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « أُعْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ أُعْزُوا ، وَلَا تَعْلُوا ، وَلَا تَعْدِرُوا ، وَلَا تَمْتَلُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا الْوَلِيدَ ، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ » .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : وَجَدْتُ امْرَأَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي النَّبِيِّ ﷺ مَقْتُولَةً فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ <sup>(٢)</sup> .

وَمَا كَانَ الْجِهَادَ فِيهِ إِزْهَاقَ النُّفُوسِ وَقَتْلَ الرِّجَالِ ، نَبَّهَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَا هُمْ مُسْتَمِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالشَّرْكِ بِهِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِهِ ، أَبْلَغُ وَأَشَدُّ وَأَعْظَمُ وَأَطْمٌ مِنَ الْقَتْلِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ ﴾ قَالَ أَبُو مَالِكٍ : أَيُّ : مَا أَنْتُمْ مُقِيمُونَ عَلَيْهِ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ . وَقِيلَ : الشَّرْكَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حَرَمٌ لِلَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَمْ يَحِلَّ إِلَّا سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ ، وَإِنَّمَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَجَرُهُ ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ أَدِنَ لِرَسُولِهِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ » <sup>(٣)</sup> يَعْنِي : بِذَلِكَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - قِتَالُهُ أَهْلَهُ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، فَإِنَّهُ فَتَحَهَا عَنُوءَةً ، وَقُتِلَتْ رِجَالٌ مِنْهُمْ عِنْدَ الْحُنْدَمَةِ ، وَقِيلَ : صَلْحًا لِقَوْلِهِ : « مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ » <sup>(٤)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ ﴾ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ يَقُولُ تَعَالَى : وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَبْدُؤَكُمْ بِالْقِتَالِ فِيهِ ، فَلَكُمْ

(١) هو عند مسلم بلفظ قريب ( حديث ١٧٣١ ) .

(٢) أخرجه البخاري ( حديث ٣٠١٤ ) ، ومسلم ( حديث ١٧٤٤ ) .

(٣) انظر البخاري ( حديث ١٨٣٤ ) ، ومسلم ( ١٣٥٣ ) .

(٤) عند مسلم ( حديث ١٧٨٠ ) ، واللفظ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » .

حِيْبِد قِتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ دَفْعًا لِلصَّائِلِ ، كَمَا بَايَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْقِتَالِ ، لَمَّا تَأَلَّيْتُ عَلَيْهِ بَطُونُ قُرَيْشٍ ، وَمَنْ وَالَاهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ ثَقِيفٍ ، وَالْأَحَابِيشِ ، عَامِدٍ ، ثُمَّ كَفَّ اللَّهُ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتَصِيْبُكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : فَإِنْ تَرَكُوا الْقِتَالَ فِي الْحَرَمِ ، وَأَنَابُوا إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْبَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ذُنُوبَهُمْ ، وَلَوْ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا الْمُسْلِمِينَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاطَمُهُ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ ، لِمَنْ تَابَ مِنْهُ إِلَيْهِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أَي : شُرْكٌ . ﴿ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ ﴾ أَي : يَكُونَ دِينُ اللَّهِ هُوَ الظَّاهِرُ الْعَالِي عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شُجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةً اللَّهُ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(١)</sup> . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُواهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَإِنْ أَنْتَهَوْا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الشُّرْكِ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَفُّوا عَنْهُمْ ، فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ ظَالِمٌ ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ، أَوْ يَكُونُ تَقْدِيرُهُ : فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَقَدْ تَخَلَّصُوا مِنَ الظُّلْمِ وَهُوَ الشُّرْكُ ، فَلَا عُدْوَانَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَالْمُرَادُ بِالْعُدْوَانِ هَاهُنَا : الْمُعَاقَبَةُ وَالْمُقَاتَلَةُ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾

[ البقرة : ١٩٤ ] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ [ الشورى : ٤٠ ]

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٨١٠) ، ومسلم (حديث ١٩٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٢٥) ، ومسلم (حديث ٢٢) .

وَذَكَرَ الْبُخَارِيُّ<sup>(١)</sup> عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ الْآيَةَ: أَثَرًا عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: أَنَاهُ رَجُلَانِ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَالَا: إِنَّ النَّاسَ ضَيَعُوا، وَأَنْتَ ابْنُ عُمَرَ وَصَاحِبُ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ فَقَالَ: يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ دَمَ أَخِي، قَالَا: أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ ﷻ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ؟ فَقَالَ: قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَحَتَّى يَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ<sup>٢</sup> فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ<sup>٣</sup> وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ<sup>(١)</sup>: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُوا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى، أَوْ يُغْزَوْا، فَإِذَا حَضَرَهُ أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ. وَهَذَا لَمَّا بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ مُحِيمٌ بِالْحُدَيْبِيَّةِ أَنَّ عُمَانَ قُتِلَ وَكَانَ قَدْ بَعَثَهُ فِي رِسَالَةٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، بَايَعَ أَصْحَابَهُ وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعِمِائَةً تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ عُمَانَ لَمْ يُقْتَلْ كَفَّ عَنِ ذَلِكَ، وَجَنَحَ إِلَى الْمُسْلِمَةِ وَالْمُصَالِحَةِ فَكَانَ مَا كَانَ<sup>(٢)</sup>.

وَكَذَلِكَ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ قِتَالِ هَوَازِنَ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَتَحَصَّنَ فَهُمُ بِالطَّائِفِ عَدَلَ إِلَيْهَا، فَحَاصَرَهَا وَدَخَلَ ذُو الْقَعْدَةِ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لَهَا بِالْمُنَجَّبِ، وَاسْتَمَرَ عَلَيْهَا إِلَى كَمَالِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ، فَلَمَّا كَثُرَ الْقَتْلُ فِي أَصْحَابِهِ انْصَرَفَ عَنْهَا، وَلَمْ تَفْتَحْ ثُمَّ كَرَّرَ رَاجِعًا إِلَى مَكَّةَ وَاعْتَمَرَ مِنَ الْجِعْرَانَةِ حَيْثُ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ. وَكَانَتْ عُمُرَتُهُ هَذِهِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ أَيضًا عَامَ ثَمَانَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أَمَرَ بِالْعَدْلِ حَتَّى فِي الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾،

(١) أخرجه البخاري (٤٥١٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣/٣٤٥) بإسناد حسن.

(٣) انظر قصة ذلك في البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في قصة صلح الحديبية.

(٤) انظر صحيح مسلم (١٠٥٩)، وما بعده، وكذا البخاري (٣١٤٧).

وَقَالَ: ﴿ وَحَزَرُوا سَيِّعَةَ سَيِّعَةٍ مِّثْلَهَا ﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَمْرٌ لَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ ، وَإِخْبَارٌ بِأَنَّهُ تَعَالَى مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِالنُّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥﴾

عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ . وَعَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ : كُنَّا بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَعَلَى أَهْلِ مِصْرٍ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ، وَعَلَى أَهْلِ الشَّامِ رَجُلٌ - يَرِيدُ فَضَالَةَ بَنِ عُبَيْدٍ - فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ ، فَصَفَفْنَا لَهُمْ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا ، فَصَاحَ النَّاسُ إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : سُبْحَانَ اللَّهِ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَالَ أَبُو أَيُّوبَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ لَتَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى غَيْرِ التَّأْوِيلِ ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِيْنَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ قُلْنَا فِيمَا بَيْنَنَا : لَوْ أَقْبَلْنَا عَلَى أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَاهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ (١٥) . وَقِيلَ : أَنَّ يُذْنِبَ الرَّجُلُ الذَّنْبَ فَيَقُولُ : لَا يَغْفِرُ لِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَمَضْمُونُ الْآيَةِ : الْأَمْرُ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي سَائِرِ وُجُوهِ الْقُرْبَاتِ ، وَوُجُوهِ الطَّاعَاتِ ، وَخَاصَّةً صَرْفُ الْأَمْوَالِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، وَبَذْلُهَا فِيمَا يَقْوَى بِهِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَالْإِخْبَارُ عَنْ تَرْكِ فِعْلِ ذَلِكَ ، بِأَنَّهُ هَلَاكٌ وَدَمَارٌ لِمَنْ لَزِمَهُ وَاعْتَادَهُ ، ثُمَّ عَطَفَ بِالْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ ، وَهُوَ أَعْلَى مَقَامَاتِ الطَّاعَةِ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وَأْتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى

الْحَجَّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَحْكَامَ الصِّيَامِ وَعَطَفَ بِذِكْرِ الْجِهَادِ ، شَرَعَ فِي بَيَانِ الْمُنَاسِكَ ، فَأَمَرَ بِإِتْمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، وَظَاهَرَ السِّيَاقِ إِكْمَالَ أَفْعَالِهِمَا بَعْدَ الشُّرُوعِ فِيهِمَا . وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ ﴾ أَي : صُدِدْتُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَمُنْعَتُمْ مِنْ إِتْمَامِهِمَا ، وَهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الشُّرُوعَ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مُلْزِمٌ سَوَاءً قِيلَ بِوُجُوبِ الْعُمْرَةِ أَوْ بِاسْتِحْبَابِهَا ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ قِيلَ : أَنَّ تَحْرِيمَ مَنْ دُوَيْرَةَ أَهْلِكَ . وَقِيلَ : إِتْمَامُهُمَا أَنْ تُحْرَمَ مَنْ أَهْلِكَ لَا تُرِيدُ إِلَّا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَتَهَلُّ مِنَ الْمِيقَاتِ ، لَيْسَ أَنْ تَخْرُجَ لِتِجَارَةٍ وَلَا لِحَاجَةٍ ، حَتَّى إِذَا كُنْتَ قَرِيبًا مِنْ مَكَّةَ قُلْتَ : لَوْ حَاجَجْتُ أَوْ اعْتَمَرْتُ ، وَذَلِكَ يُجْزِئُ وَلَكِنَّ التَّمَامَ أَنْ تَخْرُجَ لَهُ وَلَا تَخْرُجَ لِغَيْرِهِ . وَقِيلَ : إِتْمَامُهُمَا إِنِ شَاءُوهُمَا جَمِيعًا مِنَ الْمِيقَاتِ . وَقِيلَ : ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ أَي : أَقِيمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنْ أَنَسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَمَعَ فِي إِحْرَامِهِ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ .

وَبُتِّ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : « مَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيُهْلِلْ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ »<sup>(١)</sup> .

وَقَالَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا « دَخَلَتْ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ذَكَرُوا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي سَنَةِ سِتِّ أَيْ عَامِ الْحَدِيثِيَّةِ ، حِينَ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَيْتِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ سُورَةَ الْفَتْحِ بِكَمَا هِيَ ، وَأَنْزَلَ لَهُمْ رُخْصَةً أَنْ يَذْبَحُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْهَدْيِ ، وَكَانَ سَبْعِينَ بَدَنَةً وَأَنْ يَخْلُقُوا رُءُوسَهُمْ ، وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا مِنْ إِحْرَامِهِمْ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَهُمُ ﷺ بِأَنْ يَخْلُقُوا رُءُوسَهُمْ وَأَنْ يَتَحَلَّلُوا ، فَلَمْ يَفْعَلُوا ،

(١) انظر صحيح مسلم في طرق (حديث ١٢٤٠) .

(٢) انظر صحيح مسلم (حديث ١٢١٨) .

إِنْتَظَارًا لِلنَّسْخِ حَتَّى خَرَجَ فَحَلَقَ رَأْسَهُ ، فَفَعَلَ النَّاسُ ، وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَرَ رَأْسَهُ  
وَلَمْ يَحْلِقْهُ فَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ » قَالُوا : وَالْمُقَصِّرِينَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟  
فَقَالَ : فِي الثَّالِثَةِ « وَالْمُقَصِّرِينَ »<sup>(١)</sup> وَقَدْ كَانُوا اشْتَرَكُوا فِي هَدْيِهِمْ ذَلِكَ كُلُّ سَبْعَةٍ فِي  
بَدَنَةٍ ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ ، وَكَانَ مِنْهُمْ بِالْحُدَيْبِيَّةِ خَارِجَ الْحَرَمِ ، وَقِيلَ : بَلْ  
كَانُوا عَلَى طَرَفِ الْحَرَمِ - فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَهَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ يَخْتَصُّ الْحَضْرُ بِالْعَدْوِ ، فَلَا يَتَحَلَّلُ إِلَّا مَنْ حَصَرَهُ  
عَدُوٌّ لَا مَرَضٌ وَلَا غَيْرُهُ عَلَى قَوْلَيْنِ . قَالَ الثَّوْرِيُّ : الإِخْصَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ آذَاهُ .  
وَبُتِّ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ عَلَى ضَبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ بْنِ  
عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ الْحَجَّ ، وَأَنَا شَاكِيَةٌ ، فَقَالَ : « حُجِّي  
وَاشْتَرِطِي ، أَنْ مَحَلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي »<sup>(٢)</sup> فَذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى صِحَّةِ  
الإِشْتِرَاطِ فِي الْحَجِّ هَذَا الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ : « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْهَدْيُ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَّةِ  
مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، وَالْمَعْزِ ، وَالضَّأْنِ . وَقِيلَ : « فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » : شَاءٌ .  
وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَالِدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْقَوْلِ : أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ ذَبْحَ مَا اسْتَيْسَرَ  
مِنَ الْهَدْيِ ، أَي مَهْمَا تَيْسَرَ مِمَّا يُسَمَّى هَدْيًا ، وَالْهَدْيُ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، وَهِيَ الْإِبِلُ  
وَالْبَقَرُ وَالْعَنَمُ . كَمَا قَالَهُ الْحَبْرُ الْبَحْرُ تُرْجَمَانُ الْقُرْآنِ وَابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَقَدْ  
بُتِّ فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : أَهْدَى النَّبِيُّ ﷺ  
مَرَّةً عَنَّا<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : « وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ » مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ :  
« وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » ، وَلَيْسَ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ : « فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ  
مِنَ الْهَدْيِ » ، كَمَا زَعَمَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَامٌ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٧٢٨) ، ومسلم (حديث ١٣٠٢) من حديث أبي هريرة ؓ ، وله طرق  
آخر عن رسول الله ﷺ

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨٩) ، ومسلم (حديث ١٢٠٧) .

(٣) هو عند مسلم في طرق (حديث ١٣٢١) .

الْحُدْيَةِ لَمَّا حَصَرَهُمْ كُفَارٌ قُرَيْشٍ عَنِ الدُّخُولِ إِلَى الْحَرَمِ حَلَقُوا وَذَبَحُوا هَدْيَهُمْ خَارِجَ الْحَرَمِ ، فَأَمَّا فِي حَالِ الأَمْنِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْحَرَمِ فَلَا يُجُوزُ الحَلْقُ ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَهْدَى مَجَلَّهُ ﴾ ، وَيَفْرُغُ النَّاسُكَ مِنَ أَفْعَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، إِنْ كَانَ قَارِنًا ، أَوْ مِنْ فِعْلٍ أَحَدِهِمَا إِنْ كَانَ مُفْرَدًا أَوْ مُتَمِّعًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ حَفْصَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا شَأْنُ النَّاسِ حَلُّوا مِنَ الْعُمْرَةِ وَلَمْ يُحَلِّ أَنْتَ مِنْ عُمْرَتِكَ ؟ فَقَالَ : « إِيَّيْ لَبَدْتُ رَأْسِي ، وَقَلَدْتُ هَدْيِي ، فَلَا أُحِلُّ حَتَّى أَنْحَرُ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِنْ رَأْسِهِ ففِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ﴾ . عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ<sup>(٢)</sup> : حَمَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْقَمْلُ يَتَنَاءَثِرُ عَلَى وَجْهِي فَقَالَ : « مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الجَهْدَ قَدْ بَلَغَ بِكَ هَذَا ، أَمَا مَجْدُ شَاءةٍ » قُلْتُ : لَا . قَالَ : « صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ ، وَاحْلِقْ رَأْسَكَ » فَانزَلَتْ فِي خَاصَّةٍ وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ .

قُلْتُ : مَذْهَبُ الأئِمَّةِ الأَرْبَعَةِ وَعَامَّةُ العُلَمَاءِ أَنَّهُ يُجِيزُ فِي هَذَا المَقَامِ إِنْ شَاءَ صَامٌ ، وَإِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِفَرَقٍ وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَصْعٍ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ وَهُوَ مُدَّانٍ ، وَإِنْ شَاءَ ذَبَحَ شَاءةً وَتَصَدَّقَ بِهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ ، أَيْ ذَلِكَ فِعْلٌ أَجْزَأُهُ ، وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ القُرْآنِ فِي بَيَانِ الرُّخْصَةِ بِالأَسْهَلِ فَالأَسْهَلُ ﴿ ففِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ ﴾ ، وَلَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ بِذَلِكَ أَرْشَدَهُ إِلَى الأَفْضَلِ فَالأَفْضَلُ ، فَقَالَ : « أَنْسُكَ شَاءةً ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ ، أَوْ صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » فَكُلُّ حَسَنٌ فِي مَقَامِهِ ، وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ أَهْدَى ﴾ أَيْ : فَإِذَا تَمَكَّنْتُمْ مِنْ أَدَاءِ المُنَاسِكَ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَمِّعًا بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ وَهُوَ يَشْمَلُ مَنْ أَحْرَمَ بِهَا أَوْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ أَوَّلًا ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهَا أَحْرَمَ بِالْحَجِّ ، وَهَذَا هُوَ التَّمَتُّعُ الخَاصُّ ، وَهُوَ المَعْرُوفُ فِي كَلَامِ الفُقَهَاءِ ، وَالتَّمَتُّعُ العَامُّ يَشْمَلُ القِسْمَيْنِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الأَحَادِيثُ الصَّحَاحُ ، فَإِنَّ مِنَ الرُّوَاةِ مَنْ يَقُولُ : تَمَتَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَآخَرُ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٧٢٥) ، ومسلم (حديث ١٢٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٥١٧) .

يَقُولُ : قَرَنَ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُ سَاقٌ هَدِيًّا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ أَي : فَلْيَذْبَحْ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْهَدْيِ ، وَأَقْلَهُ شَاءَ ، وَكَهْ أَنْ يَذْبَحَ الْبَقْرَ ، لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَبَحَ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقْرَ <sup>(١)</sup> .

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ التَّمَتُّعِ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : نَزَلَتْ آيَةُ التَّمَتُّعِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَفَعَلْنَاهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ لَمْ يَنْزَلْ قُرْآنٌ يُحَرِّمُهَا ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْهَا حَتَّى مَاتَ ، قَالَ رَجُلٌ بَرَأِيَهُ مَا شَاءَ <sup>(٢)</sup> . قَالَ الْبُخَارِيُّ : يُقَالُ إِنَّهُ عَمْرٌ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْبُخَارِيُّ قَدْ جَاءَ مُصَرِّحًا بِهِ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَنْهَى النَّاسَ عَنِ التَّمَتُّعِ ، وَيَقُولُ : إِنْ نَأَخَذَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالتَّمَامِ ، يَعْنِي قَوْلَهُ : ﴿ وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعِمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، وَفِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَمْ يَكُنْ عَمْرٌ ﷺ يَنْهَى عَنْهَا مُحَرَّمًا لَهَا ، إِنَّمَا كَانَ يَنْهَى عَنْهَا لِيَكْثُرَ قَصْدُ النَّاسِ لِلْبَيْتِ حَاجِينَ وَمُعْتَمِرِينَ ، كَمَا قَدْ صَرَّحَ بِهِ ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى : فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدِيًّا ، فَلْيَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ ، أَي : فِي أَيَّامِ الْمُنَاسِكِ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَالْأَوَّلَى أَنْ يَصُومَهَا قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ فِي الْعَشْرِ ، قَالَهُ عَطَاءٌ ، أَوْ مِنْ حِينَ يُحْرَمُ ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ لِقَوْلِهِ : ﴿ فِي الْحَجِّ ﴾ ، وَقِيلَ : يُجُوزُ صِيَامُهَا مِنْ أَوَّلِ سُؤَالٍ ، وَجُوزَ الْبَعْضُ صِيَامَ يَوْمِ عَرَفَةَ وَقَبْلَهُ يَوْمَيْنِ . وَقِيلَ : إِذَا لَمْ يَجِدْ هَدِيًّا فَعَلَيْهِ صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ قَبْلَ يَوْمِ عَرَفَةَ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ الثَّالِثَ فَقَدَتْ صَوْمُهُ ، وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ .

فَلَوْ لَمْ يَصُمْهَا أَوْ بَعْضَهَا قَبْلَ الْعِيدِ فَهَلْ يُجُوزُ أَنْ يَصُومَهَا فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ : وَهُمَا لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ أَيضًا ، الْقَدِيمُ مِنْهُمَا : أَنَّهُ يُجُوزُ لَهُ صِيَامُهَا لِقَوْلِ عَائِشَةَ ، وَابْنِ عُمَرَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ <sup>(٣)</sup> لَمْ يُرْحَضْ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَنْ يُصَمْنَ إِلَّا لِمَنْ لَا يَجِدُ الْهَدْيَ . وَالْجَدِيدُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ أَنَّهُ لَا يُجُوزُ صِيَامُهَا أَيَّامَ

(١) أخرج ذلك البخاري (١٧٠٩) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٥١٨) ، ومسلم (حديث ١٢٢٦) .

(٣) البخاري (١٩٩٧) .



التَّشْرِيقِ ، لِمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ نُبَيْشَةَ الْهَدَلِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامٌ أَكَلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ عز وجل » (١).

وَقَوْلُهُ : « وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ » . عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ » قَالَ : إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ . وَحَكَى عَلَى ذَلِكَ ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ .

وَفِي الْبُحَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ قَالَ لِلنَّاسِ : « مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْدَى فَإِنَّهُ لَا يُجِلُّ لِشَيْءٍ حَرَّمَ مِنْهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَجَّهُ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَهْدَى فَلْيُطْفِئْ بِالْبَيْتِ ، وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ ، وَلْيُقْصِرْ وَلْيُحْلِلْ ، ثُمَّ لِيُهَلِّ بِالْحَجِّ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَدْيًا فَلْيُصِمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ » (٢) . وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

وَقَوْلُهُ : « تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ » قِيلَ : تَأْكِيدٌ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : رَأَيْتُ بَعَيْنِي ، وَسَمِعْتُ بِأُذُنِي ، وَكَتَبْتُ بِيَدِي ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَا طَطِيرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » [الأنعام : ٣٨] ، وَقَالَ : « وَلَا تَحْطُطُهُ بِمِيمِنِكَ » [العنكبوت : ٤٨] ، وَقَالَ : « وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ

لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » [الأعراف : ١٤٢]

وَقَوْلُهُ : « ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِيمَنْ عَنِيَ بِذَلِكَ بَعْدَ إِجْمَاعِ جَمِيعِهِمْ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْحَرَمِ مَعْنِيُونَ بِهِ ، وَأَنَّهُ لَا مُنْعَةَ لَهُمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : عَنِيَ بِذَلِكَ أَهْلُ الْحَرَمِ خَاصَّةً دُونَ غَيْرِهِمْ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ ، وَمَنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَوَاقِيتِ .

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُمْ أَهْلُ الْحَرَمِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُ عَلَى مَسَافَةٍ لَا يَقْصُرُ فِيهَا الصَّلَاةَ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ يُعَدُّ حَاضِرًا لَا مُسَافِرًا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : « وَاتَّقُوا اللَّهَ » أَي : فِيمَا أَمَرَكُمْ وَنَهَاكُمْ « وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » أَي : لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَازْتَكَبَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُ .

(١) أخرجه مسلم في طرق (حديث ١١٤١) .

(٢) أخرجه البخاري (١٦٩١) ، ومسلم (١٢٢٧) .

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٢٧﴾

اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : تَقْدِيرُهُ الْحَجُّ حَجٌّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٍ ، فَعَلَىٰ هَذَا التَّقْدِيرُ يَكُونُ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ فِيهَا أَكْمَلَ مِنَ الْإِحْرَامِ فِيهَا عَدَاهَا ، وَإِنْ كَانَ ذَاكَ صَحِيحًا ، وَالْقَوْلُ بِصِحَّةِ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ . وَاحْتَجَّ هُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۞ ، وَبِأَنَّهُ أَحَدُ النُّسُكَيْنِ ، فَصَحَّ الْإِحْرَامُ بِهِ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ كَالْعُمْرَةِ . وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَىٰ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْإِحْرَامُ بِالْحَجِّ إِلَّا فِي أَشْهُرِهِ ، فَلَوْ أَحْرَمَ بِهِ قَبْلَهَا لَمْ يَتَعَقَّدْ إِحْرَامُهُ بِهِ . وَالِدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾ وَظَاهِرُهُ التَّقْدِيرُ الْآخِرُ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ النَّحَاةُ ، وَهُوَ أَنَّ وَقْتَ الْحَجِّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ، فَخَصَّصَهُ بِهَا مِنْ بَيْنِ سَائِرِ شُهُورِ السَّنَةِ ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ قَبْلَهَا كَمِيقَاتِ الصَّلَاةِ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ ﴾ قَالَ : سُؤَالَ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرٌ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ ﴾ أَي : أَوْجَبَ بِإِحْرَامِهِ حَجًّا - فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ لُزُومِ الْإِحْرَامِ بِالْحَجِّ وَالْمُضِيِّ فِيهِ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْفَرَضِ هَاهُنَا الْإِجَابُ وَالْإِلْزَامُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ أَي : مَنْ أَحْرَمَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ فَلْيَجْتَنِبِ الرَّفَثَ وَهُوَ الْجَمَاعُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ﴾ ، وَكَذَلِكَ يُحْرَمُ تَعَاطِي دَوَاعِيهِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالتَّقْبِيلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ التَّكَلُّمُ بِهِ بِحَضْرَةِ النِّسَاءِ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ كَانَ يَقُولُ : الرَّفَثُ : إِثْيَانُ النِّسَاءِ وَالتَّكَلُّمُ بِذَلِكَ لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا ذَكَرُوا ذَلِكَ بِأَفْوَاهِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ الْفُسُوقُ : هَاهُنَا السَّبَابُ . لَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : « سَبَابُ

المُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»<sup>(١)</sup> . وَالَّذِينَ قَالُوا الْفُسُوقُ هَاهُنَا هُوَ جَمِيعُ الْمَعَاصِي ، الصَّوَابُ مَعَهُمْ . كَمَا نَهَى تَعَالَى عَنِ الظُّلْمِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ ، وَإِنْ كَانَ فِي جَمِيعِ السَّنَةِ مِنْهَا عَنْهُ ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ أَكْثَرُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وَقَالَ فِي الْحُرْمِ :

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْعِمْرِ ﴾ [الحج : ٢٥]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : وَلَا مُجَادَلَةَ فِي وَقْتِ الْحَجِّ فِي مَنَاسِكِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّهُ اللَّهُ أَتَمَّ بَيَانٍ ، وَوَضَّحَهُ أَكْمَلَ إِضْحَاحٍ .  
وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجِدَالِ هَاهُنَا الْمُخَاصَمَةُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ لَمَّا نَهَاهُمْ عَنْ إِثْبَانِ الْقَيْحِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، حَثَّهُمْ عَلَى فِعْلِ الْجَمِيلِ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ عَالِمٌ بِهِ وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجُزْءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾<sup>(٢)</sup> . فَلَمَّا أَمَرَهُمْ بِالزَّادِ لِلسَّفَرِ فِي الدُّنْيَا أَرْشَدَهُمْ إِلَى زَادِ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ اسْتِصْحَابُ التَّقْوَى إِلَيْهَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] لَمَّا ذَكَرَ اللَّبَّاسَ الْحَسِيَّ نَبَّهُ مُرْشِدًا إِلَى اللَّبَّاسِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَهُوَ الْخُشُوعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّقْوَى ، وَذَكَرَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَنْفَعُ . قَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ يَعْنِي زَادَ الْآخِرَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا بَنَاتِي بِأَفْوَاهٍ أَلَّيْبٍ ﴾ : وَاتَّقُوا عِقَابِي وَنَكَالِي وَعَذَابِي لِمَنْ خَالَفَنِي ، وَلَمْ يَأْتُمْرَ بِأَمْرِي ، يَا ذَوِي الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٨) ، ومسلم (حديث ٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري (١٥٢٣) ، وقد اختلف في وصله وإرساله .

هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَتْ عُكَاظٌ وَجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَأًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَتَأْتُمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي الْمَوْسِمِ ، فَنَزَلَتْ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِمَّن رَزَقَكُمْ ﴾ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ ١٩٨ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ إِنَّمَا صَرَفَ عَرَفَاتٍ وَإِنْ كَانَ عَلِمًا عَلَى مُؤَنَّثٍ ، لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ جَمْعٌ ، كَمُسْلِمَاتٍ وَمُؤْمِنَاتٍ ، سُمِّيَ بِهِ بُقْعَةٌ مُعَيَّنَةٌ فَرُوعِيَ فِيهِ الْأَصْلُ فَصُرِفَ ، إِخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ .

وَعَرَفَةٌ : مَوْضِعُ الْوُقُوفِ فِي الْحَجِّ وَهِيَ عُمْدَةٌ أَفْعَالِ الْحَجِّ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْحَجُّ عَرَفَاتُ » - ثَلَاثًا - فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرَ فَقَدْ أَدْرَكَ ، وَأَيَّامٌ مِنِّي ثَلَاثَةٌ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ١٩٩ .

وَوَقْتُ الْوُقُوفِ : مِنَ الزَّوَالِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ الثَّانِي مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ إِلَى أَنْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَقَالَ : « لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ » ٢٠٠ وَقَالَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ : « فَمَنْ أَدْرَكَ عَرَفَةَ قَبْلَ أَنْ

يَطْلُعَ الْفَجْرَ فَقَدْ أَدْرَكَ » وَهَذَا مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ .

وَذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ إِلَى أَنَّ وَقْتَ الْوُقُوفِ : مِنْ أَوَّلِ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ مَصْرَسٍ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَامِ الطَّائِي قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِالْمُزْدَلِفَةِ حِينَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي جِئْتُ مِنْ جَبَلِي طَيِّئٍ أَكَلْتُ رَاحِلَتِي وَأَتَعَبْتُ نَفْسِي ، وَاللَّهِ مَا تَرَكْتُ مِنْ جَبَلٍ إِلَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ ، فَهَلْ لِي مِنْ حَجٍّ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ شَهِدَ صَلَاتَنَا هَذِهِ ، فَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَقَدْ تَمَّ حَجُّهُ ، وَقَضَى تَفَنَّهُ » ٢٠١ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥١٩) .

(٢) صحيح : وقد أخرجه عدد من أهل العلم من أصحاب السنن وغيرهم ، منهم أبو داود (١٩٤٩) .

(٣) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٢٩٧) .

(٤) صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ١٩٥٠) وغيره .

وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ<sup>(١)</sup> الطَّوِيلِ الَّذِي فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَالَ فِيهِ : - فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا يَعْنِي بَعْرَفَةَ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَبَدَتِ الصُّفْرَةَ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ ، وَأَرْدَفَ أَسَامَةَ خَلْفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقُضْوَاءِ الزَّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لِيُصِيبُ مَوْرَكَ رَحْلِهِ ، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيَمْنَى : « أَيُّهَا النَّاسُ : السَّكِينَةُ ، السَّكِينَةُ » كُلَّمَا أَتَى جَبَلًا مِنْ الْجِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصْعَدَ ، حَتَّى أَتَى الْمُرْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ ، فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ ، ثُمَّ رَكِبَ الْقُضْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ، فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَدَعَا اللَّهَ وَكَبَّرَهُ ، وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جَدًّا ، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ . قُلْتُ : وَالْمَشَاعِرُ :

هِيَ الْمَعَالِمُ الظَّاهِرَةُ وَإِنَّهَا سُمِّيَتْ الْمُرْدَلِفَةُ الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ ؛ لِأَنَّهَا دَاخِلُ الْحَرَمِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَادْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ ﴾ تَنْبِيهُ لَهُمْ عَلَى مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْهُدَايَةِ ، وَالْبَيَانِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَشَاعِرِ الْحَجِّ ، عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَايَةِ لِإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ﷺ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ ﴾ قِيلَ : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْهُدْيِ ، وَقِيلَ : الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : الرَّسُولُ ، وَالْكُلُّ مُتْقَارِبٌ وَمُتَلَازِمٌ وَصَحِيحٌ .

ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ هَاهُنَا لِعَطْفِ خَيْرٍ عَلَى خَيْرٍ وَتَرْتِيبِهِ عَلَيْهِ ، كَأَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْوَاقِفَ بِعَرَفَاتٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى الْمُرْدَلِفَةِ لِيَذْكُرَ اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرَ الْحَرَامِ ، وَأَمْرَهُ أَنْ يَكُونَ وَقُوفُهُ مَعَ جُمْهُورِ النَّاسِ بِعَرَفَاتٍ كَمَا كَانَ جُمْهُورُ النَّاسِ يَصْنَعُونَ ، يَقِفُونَ بِهَا إِلَّا قُرَيْشًا ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَخْرُجُونَ مِنَ الْحَرَمِ يَقِفُونَ فِي طَرَفِ الْحَرَمِ عِنْدَ أَدْنَى الْحِلِّ ، وَيَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ اللَّهِ فِي بَلَدَتِهِ وَقَطَانَ بَيْتِهِ .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ<sup>(٢)</sup> : كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُرْدَلِفَةِ وَكَانُوا يُسَمُّونَ الْحُمْسُ ، وَسَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامَ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨) .

(٢) أخرجه البخاري (أثر ٤٥٢٠) .

أَنْ يَأْتِي عَرَافَاتَ ، ثُمَّ يَفْبُهَا ، ثُمَّ يُفِيضُ مِنْهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَحَكَى عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ كَثِيرًا مَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِذِكْرِهِ ، بَعْدَ قَضَاءِ الْعِبَادَاتِ ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ ، يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ثَلَاثًا . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(٢)</sup> : أَنَّهُ نَدَبَ إِلَى التَّسْبِيحِ ، وَالتَّحْمِيدِ ، وَالتَّكْبِيرِ ، ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ . وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ الْعَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، مَنْ قَالَهَا فِي لَيْلَةٍ ، فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ قَالَهَا فِي نَوْمِهِ فَمَاتَ ، دَخَلَ الْجَنَّةَ » <sup>(٣)</sup> . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي فَقَالَ : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » <sup>(٤)</sup> . وَالْأَحَادِيثُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ كَثِيرَةٌ .

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَسِكَكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا  
فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ  
وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا  
عَذَابَ النَّارِ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٢﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ وَالْإِكْتَارِ مِنْهُ بَعْدَ قَضَاءِ الْمَنَاسِكِ وَفَرَاغِهَا وَقَوْلُهُ ﴿ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ ، عَنْ عَطَاءٍ : هُوَ كَقَوْلِ الصَّبِيِّ : أَبُؤُ امَّةَ ، يَعْنِي كَمَا

(١) مسلم (حديث ٥٩١) .

(٢) روى من عدة وجوه وطرق عن النبي ﷺ . انظر منها (البخاري حديث ٨٤٣) ، ومسلم (حديث ٥٩٥) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٦) .

(٤) أخرجه البخاري (٧٣٨٧) ، ومسلم (حديث ٢٧٠٥) .

يَلْهَجُ الصَّبِيُّ بِذِكْرِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ ، فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ ، فَالْهَجُوا بِذِكْرِ اللَّهِ بَعْدَ قَضَاءِ النَّسْكِ .  
وَالْمَقْصُودُ مِنْهُ : الْحُثُّ عَلَى كَثْرَةِ الذِّكْرِ لِلَّهِ ﷻ وَهَذَا كَانَ انْتِصَابُ قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ  
أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ عَلَى التَّمْيِيزِ ، تَقْدِيرُهُ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ ، أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، وَ « أَوْ »  
هَاهُنَا لِتَحْقِيقِ الْمِثَالَةِ فِي الْخَبَرِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً ﴾ ، وَقَوْلِهِ :  
﴿ تَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ ، ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾  
﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ فَلَيْسَتْ هَاهُنَا لِلشَّكِّ قَطْعًا ، وَإِنَّمَا هِيَ لِتَحْقِيقِ الْمُخْبِرِ  
عَنْهُ ، كَذَلِكَ أَوْ أَزِيدَ مِنْهُ . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَرْشَدَ إِلَى دُعَائِهِ بَعْدَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، فَإِنَّهُ مِظَنَّةُ  
الْإِجَابَةِ ، وَذَمٌّ مَنْ لَا يَسْأَلُهُ إِلَّا فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ ، وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْ أُخْرَاهُ ، فَقَالَ :  
﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴾ أَي :  
مِنْ نَصِيبٍ وَلَا حِظٍّ ، وَتَضَمَّنَ هَذَا الدَّمُّ وَالتَّنْفِيرُ عَنِ الشَّبْهِ بِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ ،  
وَهَذَا مَدْحٌ مَنْ يَسْأَلُهُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، فَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا  
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ، فَجَمَعَتْ هَذِهِ الدَّعْوَةُ كُلَّ خَيْرٍ فِي  
الدُّنْيَا ، وَصَرَفَتْ كُلَّ شَرٍّ ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ فِي الدُّنْيَا تَشْمَلُ كُلَّ مَطْلُوبٍ دُنْيَوِيٍّ ، مِنْ  
عَافِيَةٍ ، وَدَارٍ رَحْبَةٍ ، وَرَوْجَةٍ حَسَنَةٍ ، وَرِزْقٍ وَاسِعٍ ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ ، وَعَمَلٍ صَالِحٍ ،  
وَمَرْكَبٍ هَيِّئٍ ، وَتِنَائٍ جَمِيلٍ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ عِبَارَاتُ الْمُفْسِّرِينَ ، وَلَا  
مُنَافَاةَ بَيْنَهَا ؛ فَإِنَّهَا كُلُّهَا مُنْدرِجَةٌ فِي الْحَسَنَةِ فِي الدُّنْيَا . وَأَمَّا الْحَسَنَةُ فِي الْآخِرَةِ فَأَعْلَى  
ذَلِكَ دُخُولُ الْجَنَّةِ ، وَتَوَابِعُهُ مِنَ الْأَمْنِ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ فِي الْعَرَصَاتِ ، وَتَيْسِيرُ  
الْحِسَابِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ الصَّالِحَةِ . وَأَمَّا النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ فَهُوَ يَفْتَضِي  
تَيْسِيرُ أَسْبَابِهِ فِي الدُّنْيَا ، مِنْ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ وَالْآثَامِ ، وَتَرْكِ الشُّبُهَاتِ وَالْحَرَامِ .  
وَهَذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالترَّغِيبِ فِي هَذَا الدُّعَاءِ . وَقَدْ سَأَلَ قَتَادَةُ أَنَسًا : أَيُّ دَعْوَةٍ كَانَ  
أَكْثَرَ مَا يَدْعُوهَا النَّبِيُّ ﷺ ؟ قَالَ : يَقُولُ : « اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي  
الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ »<sup>(١)</sup> وَكَانَ أَنَسٌ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا ،  
وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ بِدَعْوَةٍ دَعَا بِهَا فِيهِ .

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٦٩٠) ، وانظر أيضًا البخاري (حديث ٦٣٨٩) .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلْ تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ » قَالَ : نَعَمْ ، كُنْتُ أَقُولُ : اللَّهُمَّ مَا كُنْتُ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجَّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ لَا تَطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ ، فَهَلَّا قُلْتَ : رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » قَالَ فَدَعَا اللَّهَ فَشَفَاهُ<sup>(١)</sup> .

❖ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٢﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : أَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، وَالْأَيَّامُ الْمَعْلُومَاتُ : أَيَّامُ الْعَشْرِ . وَقَالَ عِكْرِمَةُ : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ يَعْنِي التَّكْبِيرَ فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ النَّحْرِ ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ ، عِيدُنَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ »<sup>(٢)</sup> .

عَنْ نُبَيْشَةَ الْهَلَبِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ ، وَشُرْبٍ ، وَذِكْرِ اللَّهِ »<sup>(٣)</sup> .

وَقِيلَ : الْأَيَّامُ الْمَعْدُودَاتُ : أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ : يَوْمُ النَّحْرِ وَثَلَاثَةٌ بَعْدَهُ ، وَيَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ ذِكْرُ اللَّهِ عَلَى الْأَصَاحِي ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الرَّاجِحَ فِي ذَلِكَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَهُوَ أَنَّ وَقْتَ الْأُضْحِيَّةِ مِنْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِ أَيْضًا الذِّكْرُ الْمُؤَقَّتُ خَلْفَ الصَّلَوَاتِ ، وَالْمُطْلَقُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَفِي وَقْتِهِ أَقْوَالٌ لِلْعُلَمَاءِ ، أَشْهَرُهَا الَّذِي عَلَيْهِ الْعَمَلُ : أَنَّهُ مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ مِنْ آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ ، وَهُوَ آخِرُ النَّفْرِ الْآخِرِ . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ كَانَ يُكَبِّرُ فِي

(١) مسلم (حديث ٢٦٨٨) بنحوه .

(٢) صحيح : أخرجه أحمد (١٥٢/٤) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١١٤١) .



قَبِيهِ ، فَيَكْبُرُ أَهْلُ السُّوقِ بِتَكْبِيرِهِ ، حَتَّى تَرْتَجَّ مِنِّي تَكْبِيرًا ، وَيَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ أَيْضًا التَّكْبِيرُ وَذَكَرَ اللَّهُ عِنْدَ رَمِي الْجَمْرَاتِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ .

وَلَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى النَّفَرَ الْأَوَّلَ وَالثَّانِي ، وَهُوَ تَفَرُّقُ النَّاسِ مِنْ مَوْسِمِ الْحَجِّ إِلَى سَائِرِ الْأَقَالِيمِ وَالْأَفَاقِ ، بَعْدَ اجْتِمَاعِهِمْ فِي الْمَشَاعِرِ وَالْمَوَاقِفِ ، قَالَ : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَّمُوا أُنُكْمَ إِلَيْهِ مُحْشَرُونَ ﴾ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ مُحْشَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٩]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٧﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَمَّا نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَقِيلَ : بَلْ ذَلِكَ عَامٌّ فِي الْمُنَافِقِينَ كُلِّهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا وَإِنْ أَظْهَرَ لَكُمْ الْحِيلَ لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مِنْ قَلْبِهِ الْقَبِيحَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١]

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ يُظْهِرُ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ وَيُبَارِزُ اللَّهَ بِمَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ﴾ [النساء : ١٠٨]

وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُ إِذَا أَظْهَرَ لِلنَّاسِ الْإِسْلَامَ حَلَفَ وَأَشْهَدَ اللَّهُ لَهُمْ أَنَّ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مُوَافِقٌ لِللِّسَانِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ الْأَلْدُ فِي اللُّغَةِ : الْأَعْوَجُ ﴿ وَتُنذَرُ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ أَي : عَوْجًا وَهَكَذَا الْمُنَافِقُ فِي حَالِ خُصُومَتِهِ يَكْذِبُ وَيَزُورُ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ ، بَلْ يَفْتَرِي وَيَفْجُرُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (( آيَةُ

الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» (١) .  
 وَعَنْ عَائِشَةَ تَرْفَعُهُ قَالَ : «إِنَّ أَبْغَضَ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَكْذُ الْخَصِيمُ» (٢) .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ﴾ أَي :  
 هُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ سَيِّئُ الْفِعَالِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ، وَهَذَا فِعْلُهُ ، كَلَامُهُ كَذِبٌ ، وَاعْتِقَادُهُ  
 فَاسِدٌ ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ ، وَالسَّعْيُ هَاهُنَا هُوَ : الْقَصْدُ ، كَمَا قَالَ إِخْبَارًا عَنْ فِرْعَوْنَ :  
 ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴾ (٣) فَحَشَرَ فَنَادَى (٤) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٥) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ  
 الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿ [ النازعات : ٢٢-٢٥ ] ، فَهَذَا الْمُنَافِقُ لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفَسَادَ فِي  
 الْأَرْضِ ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ : وَهُوَ مَحَلُّ نَمَاءِ الزُّرُوعِ وَالنَّمَارِ ، وَالنَّسْلُ : وَهُوَ نِتَاجُ  
 الْحَيَوَانَاتِ الَّذِينَ لَا قِوَامَ لِلنَّاسِ إِلَّا بِهِمَا . ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ أَي : لَا يُحِبُّ مَنْ  
 هَذِهِ صِفَتُهُ وَلَا مَنْ يَصْدُرُ مِنْهُ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ﴾ أَي : إِذَا وُعِظَ هَذَا الْفَاجِرُ فِي  
 مَقَالِهِ وَفِعَالِهِ ، وَقِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللَّهَ وَانزِعْ عَنْ قَوْلِكَ وَفِعْلِكَ ، وَارْجِعْ إِلَى الْحَقِّ ، ائْتِنِعْ  
 وَابِي وَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَالغَضَبُ بِالْإِثْمِ ، أَي بِسَبَبِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ ، وَهَذِهِ  
 الْآيَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تُلْتِ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُ  
 بِشْرٍ مِّنْ ذِكْرِكُمْ أَلْتَارُوا وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَتَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ [ الحج : ٧٢ ] ، وَهَذَا  
 قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمَهَادُ ﴾ أَي : هِيَ كَافِيَتُهُ عُقُوبَةٌ فِي ذَلِكَ .  
 وَلَمَّا أَخْبَرَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِصِفَاتِهِمُ الدَّمِيمَةِ ، ذَكَرَ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَمِيدَةَ فَقَالَ :  
 ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : نَزَلَتْ فِي صُهَيْبِ بْنِ سِنَانِ الرَّومِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ  
 بِمَكَّةَ ، وَأَرَادَ الْهَجْرَةَ مَعَهُ النَّاسُ أَنْ يَهَاجِرَ بِمَالِهِ ، وَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَجَرَّدَ مِنْهُ وَيَهَاجِرَ  
 فَعَلَّ ، فَتَخَلَّصَ مِنْهُمْ وَأَعْطَاهُمْ مَالَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ ، فَتَلَقَاهُ عُمَرُ بْنُ  
 الْخَطَّابِ وَجَمَاعَةٌ إِلَى طَرَفِ الْحَرَّةِ ، فَقَالُوا لَهُ : رَيْحَ الْبَيْعِ ، فَقَالَ : وَأَنْتُمْ فَلَا أَخْسَرَ

(١) صحيح ، وقد تقدم .

(٢) أخرجه البخاري ( حديث ٤٥٢٣ ) .

اللَّهُ تِجَارَتِكُمْ ، وَمَا ذَاكَ ؟ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ . وَيُرْوَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ « رِبْحُ الْبَيْعِ صُهَيْبٌ » .

وَأَمَّا الْأَكْثَرُونَ فَحَمَلُوا ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُلِّ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١]

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٩﴾

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى آمِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ الْمُصَدِّقِينَ بِرَسُولِهِ ، أَنْ يَأْخُذُوا بِجَمِيعِ عُرَى الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ ، وَالْعَمَلِ بِجَمِيعِ أَوَامِرِهِ ، وَتَرْكِ جَمِيعِ زَوَاجِرِهِ ، مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ ذَلِكَ . ﴿ ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ ﴾ يَعْنِي : الْإِسْلَامَ . وَقِيلَ : الطَّاعَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَافَّةً ﴾ : جَمِيعًا ، وَقِيلَ : اِعْمَلُوا بِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ . وَمَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ ، وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ ، وَهُوَ : أَتَمُّ أُمُورًا كُلُّهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِجَمِيعِ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا مَا اسْتَطَاعُوا مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أَي : اِعْمَلُوا بِالطَّاعَاتِ ، وَاجْتَنِبُوا مَا يَأْمُرُكُم بِهِ الشَّيْطَانُ فَ ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَ ﴿ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، وَهَذَا قَالَ ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ قَالَ مُطَرِّفٌ : أَعَشُّ عِبَادِ اللَّهِ لِعَبِيدِ اللَّهِ ، الشَّيْطَانُ ؟ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أَي : عَدَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ مَا قَامَتْ عَلَيْكُمْ الْحُجُجُ ، فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ، أَي فِي إِنْتِقَامِهِ ، لَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ ، وَلَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ ، حَكِيمٌ فِي أَحْكَامِهِ ، وَنَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ ، وَهَذَا قَالُوا : عَزِيزٌ

فِي نِقْمَتِهِ ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُهَدِّدًا لِلْكَافِرِينَ بِمُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٦﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٧﴾ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ [الفجر: ٢٦-٢٣]

سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا شَاهَدُوا مَعَ مُوسَى مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ أَيْ : حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ بِصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، كَيْدِهِ وَعَصَاهُ ، وَفَلَقَهُ الْبَحْرَ وَضَرَبَهُ الْحَجَرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَظْلِيلِ الْغَمَامِ عَلَيْهِمْ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَمَنْ أَنْزَلَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَاتِ عَلَى وُجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ، وَصِدْقِ مَنْ جَرَتْ هَذِهِ الْحَوَارِقُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَعَ هَذَا أَعْرَضَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْهَا ، وَبَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ، أَيْ اسْتَبَدَّلُوا بِالْإِيمَانِ بِهَا ، الْكُفْرَ بِهَا وَالْإِعْرَاضَ عَنْهَا ، ﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ كُفَارِ قَرِيشٍ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبَسَّسَ الْقَرَارُ ﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩]

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَرْبِيئِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَضَوْا بِهَا ، وَاطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهَا ،

وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ وَمَنْعُوهَا عَنْ مَصَارِفِهَا الَّتِي أَمَرُوا بِهَا ، مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ عَنْهُمْ ،  
 وَسَخَرُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَأَنْفَقُوا مَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْهَا فِي  
 طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، وَبَذَلُوهُ إِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فَلِهَذَا فَازُوا بِالْمَقَامِ الْأَسْعَدِ ، وَالْحِظُّ الْأَوْفَرِ ،  
 يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، فَكَانُوا فَوْقَ أَوْلِيكَ فِي مَحْشَرِهِمْ وَمَنْشَرِهِمْ وَمَسِيرِهِمْ وَمَأْوَاهُمْ ،  
 فَاسْتَقَرُّوا فِي الدَّرَجَاتِ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَخُلِدَ أَوْلِيكَ فِي الدَّرَكَاتِ فِي أَسْفَلِ  
 سَافِلِينَ ؟ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَي : يَرْزُقُ مَنْ  
 يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَيُعْطِيهِ عَطَاءً كَثِيرًا جَزِيلاً ، بِلَا حَضْرٍ وَلَا تَعْدَادٍ فِي الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِبْنُ آدَمَ أَنْفَقَ ، أَنْفَقَ عَلَيْكَ » وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا  
 أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ ، وَفِي الصَّحِيحِ : « أَنْ مَلَكَئِن يَنْزِلَانِ مِنَ السَّمَاءِ  
 صَبِيحَةَ كُلِّ يَوْمٍ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلْفًا ، وَيَقُولُ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ  
 أَعْطِ مُنْسِكًا تَلْفًا » (٣).

وَفِي الصَّحِيحِ « يَقُولُ ابْنُ آدَمَ : مَالِي ، مَالِي ، وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتُ  
 فَأَنْتَيْتَ ، وَمَا لَبَسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، وَمَا تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَذَاهِبْ  
 وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ » (٣).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ  
 مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ  
 إِلَّا الَّذِينَ أوتوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا لِمَا اختلفوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ

مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشْرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ ،  
 فَاختلفوا ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ، قَالَ : وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٦٨٤) ، ومسلم (حديث ٩٩٣) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٤٤٢) ، ومسلم (حديث ١٠١٠) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢٩٥٨) .

الله (( كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا )) ، وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ كَانُوا عَلَى الْهُدَى جَمِيعًا فَاخْتَلَفُوا ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ وَقِيلَ : كَانُوا كُفَّارًا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا عَلَى مِلَّةِ آدَمَ حَتَّى عَبَدُوا الْأَصْنَامَ فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أَي : مِنْ بَعْدِ مَا قَامَتِ الْحُجُجُ عَلَيْهِمْ ، وَمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا الْبَغْيُ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (( نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ، بَيِّنَاتُهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ ، فَغَدَا لِلْيَهُودِ ، وَبَعْدُ غَدٍ لِلنَّصَارَى )) (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أَي : بِعِلْمِهِ بِهِمْ ، وَيَبَيِّنُ هِدَايَتَهُمْ لَهُ . ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : مِنْ خَلْقِهِ ﴿ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَي : وَهُوَ الْحِكْمَةُ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّيَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢٤٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ قَبْلَ أَنْ تُبْتَلَوْا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا كَمَا فُعِلَ بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّيَهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ﴾ وَهِيَ الْأَمْرَاضُ ، وَالْأَسْقَامُ ، وَالْأَلَامُ ، وَالْمَصَائِبُ ، وَالنَّوَائِبُ . ﴿ الْبَاسَاءُ ﴾ : الْفَقْرُ ﴿ وَالضَّرَّاءُ ﴾ : السَّقَمُ ﴿ وَزُلْزَلُوا ﴾ : خَوْفُوا مِنَ الْأَعْدَاءِ زَلْزَالَ شَدِيدًا وَامْتَحَنُوا امْتِحَانًا عَظِيمًا ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٨٦) ، ومسلم (حديث ٨٥٥) بنحوه .

خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَنْصِرَ لَنَا ، أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا ؟ فَقَالَ : « إِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، كَانَ أَحَدُهُمْ يُوَضِّعُ الْمِشْأَرُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيَخْلُصُ إِلَى قَدَمَيْهِ ، لَا يَضِرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيَمْسُطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا بَيْنَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، لَا يَضِرُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ » ثُمَّ قَالَ : « وَاللَّهِ ، لَيُتَمَنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاَكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ ، وَالذُّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ قَوْمٌ تَسْتَعْجِلُونَ »<sup>(١)</sup> ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الْم ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿ [ العنكبوت : ١-٣ ] ، وَقَدْ حَصَلَ مِنْ هَذَا جَانِبٌ عَظِيمٌ لِلصَّحَابَةِ ﴿ فِي يَوْمِ الْأَحْزَابِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَاءَ وَكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿ [ الأحزاب : ١٠-١٢ ] . وَلَمَّا سَأَلَ هِرْقُلُ أَبَا سُفْيَانَ<sup>(٢)</sup> : هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : فَكَيْفَ كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ ؟ قَالَ : سَجَالًا ، يُدَالُ عَلَيْنَا وَنُدَالُ عَلَيْهِ . قَالَ : كَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْتَلَى ، ثُمَّ تَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿ أَيُّ : سُنَّتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَهْلَكْنَا

أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿ [ الزخرف : ٨ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ﴿ أَيُّ : يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، وَيَدْعُونَ بِقُرْبِ الْفَرْجِ ، وَالْمَخْرَجِ عِنْدَ ضَيْقِ الْحَالِ وَالشَّدَّةِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿ ، كَمَا قَالَ ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿ [ الشرح : ٥-٦ ] ، وَكَمَا تَكُونُ الشَّدَّةُ يَنْزِلُ مِنَ النَّصْرِ مِثْلَهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ وَاللَّذِينَ وَاللَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٦١٢) ، وفي غير موطن من الصحيح بنحوه .

(٢) البخاري (٧) من حديث ابن عباس .

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وَمَعْنَى الْآيَةِ : يَسْأَلُونَكَ كَيْفَ يُنْفِقُونَ ؟ فَبَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ أَي : اضْرِبْ فُوهَا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، وَتَلَا مَيْمُونُ بْنُ مَهْرَانَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ مَوَاضِعُ النَّفَقَةِ مَا ذَكَرَ فِيهَا ، طَبَلًا ، وَلَا مِزْمَارًا ، وَلَا تَصَاوِيرَ الْحَشَبِ ، وَلَا كِسْوَةَ الْجِطَّانِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ أَي : مَهْمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنْ فِعْلٍ مَعْرُوفٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ، وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، فَإِنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾

هَذَا إِجَابٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْجِهَادِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، أَنْ يَكْفُوا شَرَّ الْأَعْدَاءِ عَنْ حَوَازَةِ الْإِسْلَامِ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : الْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ غَزَا أَوْ قَعَدَ ، فَالْقَاعِدُ عَلَيْهِ إِذَا أُسْتُعِينَ أَنْ يُعِينَ ، وَإِذَا أُسْتُعِيثَ أَنْ يُغِيثَ ، وَإِذَا أُسْتُنْفِرَ أَنْ يَنْفِرَ ، وَإِنْ لَمْ يُجْتَنَحْ إِلَيْهِ قَعَدَ .

قُلْتُ : وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَنْزُرْ ، وَلَمْ يَحْدُثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً » (١) وَقَالَ عليه السلام يَوْمَ الْفَتْحِ « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ ، وَإِذَا أُسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » (٢) وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ أَي : شَدِيدٌ عَلَيْكُمْ وَمَشَقَّةٌ ، وَهُوَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِمَّا أَنْ يُقْتَلَ أَوْ يُجْرَحَ مَعَ مَشَقَّةِ السَّفَرِ ، وَمَجَالِدَةِ الْأَعْدَاءِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أَي : لِأَنَّ الْقِتَالَ يَعْقِبُهُ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالِاسْتِيْلَاءُ عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ ، وَذَرَارِيهِمْ ، وَأَوْلَادِهِمْ ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ ، وَهَذَا عَامٌّ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا ، قَدْ يُحِبُّ الْمَرْءُ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ خَيْرَةٌ وَلَا مَصْلَحَةٌ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْقُعُودُ عَنِ الْقِتَالِ ، قَدْ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٩١٠) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٨٣٤) ، ومسلم (حديث ١٣٥٣) .



يَعْقِبُهُ اسْتِيْلَاءُ الْعَدُوِّ عَلَى الْبِلَادِ وَالْحُكْمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : هُوَ أَعْلَمُ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ مِنْكُمْ ، وَأَخْبَرَ بِمَا فِيهِ صِلَا حُكْمٍ فِي دُنْيَاكُمْ وَأَخْرَاكُمْ ، فَاسْتَجِيبُوا لَهُ ، وَانْقَادُوا لِأَمْرِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَرْشُدُونَ .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ (١)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ﴾ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٧﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٨﴾

عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ (٢) : لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْحَمْرِ قَالَ : اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْحَمْرِ بَيِّنَاتٌ شَافِيَا ، فَزَكَتْ هَذِهِ الْآيَةُ .

فَقَوْلُهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ أَمَّا « الْحَمْرُ » فَكَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (٣) : إِنَّهُ كُلُّ مَا حَاَمَرَ الْعَقْلَ ، « وَالْمَيْسِرُ » وَهُوَ الْقِمَارُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾ أَمَّا إِثْمُهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ ، وَأَمَّا

(١) أورد الحافظ ابن كثير آثارًا عند تفسير هذه الآيات لا تخلو من مقال

(٢) أخرجه أحد في المسند (١/٥٣) ، والترمذي (٣٠٤٩) ، وأبو داود (٣٦٧٠) .

(٣) البخاري (٥٥٨٨) .

الْمَنَافِعُ فَدُنْيَوِيَّةٌ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِيهَا نَفْعُ الْبَدَنِ ، وَتَهْضِيمُ الطَّعَامِ ، وَإِخْرَاجُ  
 الْفَضَلَاتِ ، وَتَشْحِيدُ بَعْضِ الْأَذْهَانِ ، وَلَذَّةُ الشَّدَّةِ الْمُطْرَبَةِ ، وَكَذَا بَيْعُهَا وَالْإِنْتِفَاعُ  
 بِشِمَنِهَا ، وَكَانَ يَقْمُشُهُ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمَيْسِرِ فَيَنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ ، وَلَكِنْ هَذِهِ  
 الْمَصَالِحُ لَا تُوَازِي مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحَةُ ، لِتَعَلُّقِهَا بِالْعَقْلِ وَالذِّينِ ، وَهَذَا قَالَ  
 اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ ، وَهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُمَهَّدَةً لِتَحْرِيمِ  
 الْحُمْرِ عَلَى الْبَنَاتِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَضَرَّةً بَلْ مُعَرِّضَةً وَهَذَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه لَمَّا قُرِئَتْ عَلَيْهِ :  
 اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْحُمْرِ بَيِّنَاتًا شَافِيًا ، حَتَّى نَزَلَ التَّضْرِيحُ بِتَحْرِيمِهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ  
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِمَّنْ عَمِلَ  
 الشَّيْطَانُ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ  
 وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿  
 [المائدة: ٩٠-٩١] وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثَّقَةُ .  
 ﴿ وَسَلُّوْكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَا يُفْضَلُ عَنْ أَهْلِكَ .  
 وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ يَعْنِي : الْفَضْلُ ، وَعَنِ الْحَسَنِ قَالَ : ذَلِكَ أَنْ  
 لَا يُجْهَدَ مَالُكَ ثُمَّ تَقْعُدَ تَسْأَلُ النَّاسَ ، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ  
 لِرَجُلٍ : « إِبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ  
 عَنْ أَهْلِكَ فَلِذِي قَرَابَتِكَ ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا ، وَهَكَذَا » (٢) .  
 وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ  
 غِنَى ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ » (٣) وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا « ابْنُ  
 آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تَبَدَّلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَإِنْ تَمَسَّكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلَا تَلَامُ عَلَى كَفَافٍ » (٤) .  
 ثُمَّ قَدْ قِيلَ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ . وَقِيلَ : مُبَيَّنَةٌ بِآيَةِ الزَّكَاةِ ، وَهُوَ أَوْجَهُ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿  
 أَيُّ : كَمَا فَضَّلَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامَ وَبَيَّنَّهَا وَأَوْضَحَهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ سَائِرَ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٩٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ١٤٢٦) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٠٣٦) .

الآياتِ فِي أَحْكَامِهِ ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ يَعْنِي : فِي زَوَالِ الدُّنْيَا وَفِنَائِهَا وَإِقْبَالَ الْآخِرَةِ وَبَقَائِهَا ، لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهَا ، لِيَعْلَمَ أَنَّ الدُّنْيَا دَارٌ بَلَاءٍ ثُمَّ دَارٌ فَنَاءٍ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّ الْآخِرَةَ دَارٌ جَزَاءٍ ثُمَّ دَارٌ بَقَاءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ ﴾ الآية . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (١) : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] وَ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ ، مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَابَهُ مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ لَهُ الشَّيْءَ مِنْ طَعَامِهِ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتِيمِ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ ﴾ فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ . فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ أَي : عَلَى حِدَةٍ ﴿ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ ﴾ أَي : وَإِنْ خَلَطْتُمْ طَعَامَكُمْ بِطَعَامِهِمْ ، وَشَرَابَكُمْ بِشَرَابِهِمْ ، فَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ ، لِأَنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ أَي : يَعْلَمُ مَنْ قَصَدَهُ وَبَيَّتَهُ الْإِفْسَادُ أَوِ الْإِصْلَاحُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَي : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَصَيَّقَ عَلَيْكُمْ وَأَحْرَجَكُمْ ، وَلَكِنَّهُ وَسَّعَ عَلَيْكُمْ ، وَخَفَّفَ عَنْكُمْ ، وَأَبَاحَ لَكُمْ مُحَالِطَتِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ بَلْ جَوَزَ الْأَكْلَ مِنْهُ لِلْفَقِيرِ بِالْمَعْرُوفِ ، إِمَّا بِشَرْطِ ضَمَانِ الْبَدَلِ لِمَنْ أَيْسَرَ أَوْ مَجَانًا ، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ .

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧١) ، والنسائي (٢٥٦/٦) ، والطبري (٤١٨٢ ، ٤١٨٣ ، ٤١٨٩) ، وغيرهم ، وفي إسناده عطاء بن السائب مختلط ، لكن أورد له الطبري طرقاً أخرى ، وإن كانت لا تخلو من مقال إلا أنها تصلح لتقويته ، والله تعالى أعلم .

أَعَجَبْتُمْ<sup>١</sup> وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا<sup>٢</sup> وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ  
وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ<sup>٣</sup> أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ  
بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾

هَذَا تَحْرِيمٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَزَوَّجُوا الْمُشْرِكَاتِ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، ثُمَّ  
إِنْ كَانَ عُمُومُهَا مُرَادًا ، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا كُلُّ مُشْرِكَةٍ مِنْ كِتَابِيَّةٍ وَوَثِيئَةٍ ، فَقَدْ خَصَّ مِنْ  
ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ  
أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ [ المائدة : ٥ ]  
فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ نِسَاءَ أَهْلِ  
الْكِتَابِ ، وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ عِبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، وَلَمْ يُرَدْ أَهْلُ الْكِتَابِ  
بِالْكَلِمَةِ ، وَالْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَالَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ حِكَايَتِهِ الْإِجْمَاعَ عَلَى إِبَاحَةِ تَزْوِيجِ  
الْكِتَابِيَّاتِ : وَإِنَّا كَرِهَ عُمَرُ ذَلِكَ لِئَلَّا يَزْهَدَ النَّاسُ فِي الْمُسْلِمَاتِ ، أَوْ لِعَبْرِ ذَلِكَ مِنَ  
الْمَعَانِي ، وَعَنْ شَقِيقٍ قَالَ : تَزَوَّجَ حُدَيْفَةُ يَهُودِيَّةً فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : خَلِّ سَبِيلَهَا ،  
فَكَتَبَ إِلَيْهِ : أَتَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ فَأَخْلِي سَبِيلَهَا ؟ فَقَالَ : لَا أَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ ، وَلَكِنِّي  
أَخَافُ أَنْ تَعَاطُوا الْمُؤْمَسَاتِ مِنْهُنَّ<sup>(١)</sup> .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تُنْكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعِ :  
لِمَالِهَا وَلِحَسْبِهَا ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَظَفَرُ بَدَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ »<sup>(٢)</sup> ، وَعَنْ ابْنِ  
عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا : الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ »<sup>(٣)</sup> .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ أَي : لَا تَزَوَّجُوا الرِّجَالَ  
الْمُشْرِكِينَ النَّسَاءَ الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ .  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعَجَبَكُمْ ﴾ أَي : وَلَكَرَجُلٌ مُّؤْمِنٌ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٧١٦) بسند صحيح .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٩٠) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٤٦٧) .

وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ، وَإِنْ كَانَ رَئِيسًا سَرِيًّا ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أَي : مُعَاشِرَتِهِمْ وَمُحَالَطَتَهُمْ تَبَعْتُ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا ، وَاقْتِنَائِهَا وَإِثَارِهَا عَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ وَخِيْمَةٌ ، ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ أَي : بِشَرِّعِهِ ، وَمَا أَمَرَ بِهِ ، وَمَا نَهَى عَنْهُ ، ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١٣٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرِّثَ لَكُمْ فَاتُوا حَرِّثَكُمْ أَنِّي شِعْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَدَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾

عَنْ أَنَسٍ : أَنَّ الْيَهُودَ كَانَتْ إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُنَّ لَمْ يُوَكِّلُوها ، وَلَمْ يُجَامِعُوها فِي الْبُيُوتِ ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ ، إِلَّا النِّكَاحَ » فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ فَقَالُوا : مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَّعِ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفْنَا فِيهِ ؟ ، فَجَاءَ أُسَيْدُ ابْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَادُ بْنُ بَشِيرٍ ، فَقَالَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنَّ الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا ، أَفَلَا نُجَامِعُهُنَّ ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَّنَا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا ، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا ، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا <sup>(١)</sup> .

فَقَوْلُهُ : ﴿ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾ يَعْنِي الْفَرْجَ ؛ لِقَوْلِهِ : « إِصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ » ، وَهَذَا ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَوْ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَنَّهُ يُجُوزُ مُبَاشَرَةُ الْحَائِضِ فِيمَا عَدَا الْفَرْجَ .

عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ مِنَ الْحَائِضِ شَيْئًا ، أَلْقَى عَلَى فَرْجِهَا ثَوْبًا<sup>(١)</sup> .  
وَعَنْ مَسْرُوقٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ مَا يَحِلُّ لِلرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ إِذَا كَانَتْ حَائِضًا ؟  
قَالَتْ : كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْجِمَاعَ<sup>(٢)</sup> .

قُلْتُ : وَيَحِلُّ مُضَاجَعَتُهَا وَمُوَاطَأَتُهَا ، بِلَا خِلَافٍ . قَالَتْ عَائِشَةُ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُنِي فَأَغْسِلَ رَأْسَهُ وَأَنَا حَائِضٌ ، وَكَانَ يَتَكَبَّرُ فِي حِجْرِي وَأَنَا حَائِضٌ ، فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهَا قَالَتْ : كُنْتُ أَتَعَرَّقُ الْعَرَقَ وَأَنَا حَائِضٌ ، فَأَعْطِيَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي وَضَعْتُ فَمِي فِيهِ ، وَأَشْرَبُ الشَّرَابَ فَأَنَاوِلُهُ فَيَضَعُ فَمَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كُنْتُ أَشْرَبُ مِنْهُ<sup>(٣)</sup> .

وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّمَا تَحِلُّ لَهُ مُبَاشَرَتُهَا ، فِيمَا عَدَا مَا تَحْتَ الْإِزَارِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْهَلَالِيَّةِ قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُبَاشِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ أَمَرَهَا فَاتَزَرَّتْ وَهِيَ حَائِضٌ<sup>(٤)</sup> .

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ وَمَا شَابَهَا حُجَّةٌ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ يَحِلُّ مَا فَوْقَ الْإِزَارِ مِنْهَا ، وَهُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الَّذِي رَجَّحَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْعِرَاقِيِّينَ وَعَظِيمُهُمْ ، وَمَأْخِذُهُمْ أَنَّهُ حَرِيمُ الْفَرْجِ ، فَهُوَ حَرَامٌ ، لِئَلَّا يَتَوَصَّلَ إِلَى تَعَاطِي مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ ، الَّذِي أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَهُوَ الْمُبَاشَرَةُ فِي الْفَرْجِ ، ثُمَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ أَثَمَ ، فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهُ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ . وَهَلْ يُلْزَمُهُ مَعَ ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَمْ لَا ؟ فِيهِ قَوْلَانِ . الصَّحِيحُ : الْجَدِيدُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ : أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي ذَلِكَ بَلْ يَسْتَغْفِرُ اللَّهُ ﷻ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُمْ رَفْعُ الْحَدِيثِ ، فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ مَرْفُوعًا ، وَمَوْقُوفًا وَهُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أُمَّةِ الْحَدِيثِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا

(١) أخرجه أبو داود في سننه (حديث ٢٧٢) بسند صحيح .

(٢) أخرجه الطبري (٣٧٨/٤) بسند صحيح .

(٣) كل ذلك صحيح ، وانظر هذه المصادر ( البخاري ٢٠٣٠ ، ١/٤٠٣ مع الفتح ، ٧٥٤٩ ) ، ومسلم ( حديث ٣٠٠ ، وص ٢٤٢ ، ٢٤٦ ) ، والبخاري أيضًا (٢٩٦) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٣) ، ومسلم (٢٩٤) .

تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴿ تَفْسِيرُ لِقَوْلِهِ ﴾ فَاعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴿ ، وَنَهَى عَنْ قُرْبَانِهِنَّ بِالْجَمَاعِ ، مَا دَامَ الْحَيْضُ مَوْجُودًا ، وَمَفْهُومُهُ حَلُّهُ إِذَا انْقَطَعَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ فِيهِ نَدْبٌ وَإِرْشَادٌ إِلَى غَشْيَانِهِنَّ بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ . وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا انْقَطَعَ حَيْضُهَا لَا تَحِلُّ حَتَّى تَغْتَسِلَ بِالْمَاءِ أَوْ تَتَيَّمَّ إِنْ تَعَدَّرَ عَلَيْهَا بِشَرَطِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى يَطْهَرْنَ ﴾ أَي : مِنَ الدَّمِ ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾ أَي : بِالْمَاءِ . ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ : يَعْنِي الْفَرْجَ ، وَقِيلَ : أَنَّ تَعْتَرَلُوهُنَّ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ حِينَئِذٍ عَلَى تَحْرِيمِ الْوَطْءِ فِي الدُّبْرِ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ أَي : مِنَ الذَّنْبِ وَإِنْ تَكَرَّرَ غَشْيَانُهُ ، ﴿ وَسُحِبَ الْمَتَطَهَّرِينَ ﴾ أَي : الْمُتَنَزِّهِينَ عَنِ الْأَقْدَارِ وَالْأَذَى ، وَهُوَ مَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ إِيْتَانِ الْحَائِضِ ، أَوْ فِي غَيْرِ الْمَاتَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْحَرْثُ : مَوْضِعُ الْوَلَدِ ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أَي : كَيْفَ شِئْتُمْ مُقْبَلَةٌ وَمُدْبِرَةٌ فِي صِهَامٍ وَاحِدٍ ، كَمَا ثَبَتَ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثِ . عَنْ ابْنِ الْمُنْكَدِرِ قَالَ : سَمِعْتُ جَابِرًا قَالَ : كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ : إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلُ ، فَزَلَّتْ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ (١) .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَابِطٍ قَالَ (٢) : دَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ فَقُلْتُ إِنِّي لَسَائِلُكَ عَنْ أَمْرٍ ، وَأَنَا أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ ، قَالَتْ : فَلَا تَسْتَحْيِي يَا ابْنَ أَخِي ، قَالَ عَنْ إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ ، قَالَتْ : حَدَّثْتِي أُمُّ سَلَمَةَ أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يُجِبُّونَ النِّسَاءَ ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ : إِنَّهُ مَنْ أَجَبَى امْرَأَتَهُ كَانَ وَلَدُهُ أَحْوَلُ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ نَكَحُوا فِي نِسَاءِ الْأَنْصَارِ فَجَبُّوهُنَّ فَأَبَتْ امْرَأَةٌ أَنْ تُطِيعَ زَوْجَهَا ، وَقَالَتْ : لَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَدَخَلْتُ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ فَذَكَرْتُ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ : اجْلِسِي حَتَّى يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اسْتَحَتْ الْأَنْصَارِيَّةُ أَنْ تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَخَرَجَتْ فَسَأَلَتْهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَقَالَ : ((أُدْعِي الْأَنْصَارِيَّةَ)) فَدَعَتْهَا ، فَتَلَا عَلَيْهَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٢٨) ، ومسلم (١٤٣٥) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٣٠٥/٦) ، والترمذي (٢٩٧٩) .

أَنِّي سِعْتُمْ ﴿ صِهَامًا وَاحِدًا .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ<sup>(١)</sup> : إِنَّ ابْنَ عُمَرَ - وَاللَّهِ يَغْفِرُ لَهُ - أَوْهَمَ ، إِنَّهَا كَانَ أَهْلُ هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُمْ أَهْلٌ وَثِنٍ مَعَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ يَهُودٍ ، وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ ، وَكَانُوا يَرُونَ هُمْ فَضْلًا عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ ، فَكَانُوا يَقْتَدُونَ كَثِيرًا مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَأْتُونَ النِّسَاءَ إِلَّا عَلَى حَرْفٍ ، وَذَلِكَ أَسْتَرٌ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ ، فَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ أَخَذُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ قُرَيْشٍ يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ شَرْحًا مُنْكَرًا ، وَيَتَلَذَّذُونَ بِهِنَّ مُقْبِلَاتٍ وَمُذْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَذَهَبَ يَصْنَعُ بِهَا ذَلِكَ فَانْكَرْتُهُ عَلَيْهِ ، وَقَالَتْ : إِنَّهَا كُنَّا نُؤْتَى عَلَى حَرْفٍ فَاصْنَعِ ذَلِكَ ، وَإِلَّا فَاجْتَنِبْنِي فَسَرَى أَمْرُهُمَا ، فَبَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سِعْتُمْ ﴾ أَي : مُقْبِلَاتٍ ، وَمُذْبِرَاتٍ ، وَمُسْتَلْقِيَاتٍ ، يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْضِعَ الْوَالِدِ .

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ<sup>(٢)</sup> : كَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَتَكَلَّمْ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهُ ، فَأَخَذْتُ عَنْهُ يَوْمًا فَقَرَأَ سُورَةَ الْبَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَكَانٍ ، قَالَ : أَتَدْرِي فِيْمَ أَنْزَلْتُ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : أَنْزَلْتُ فِي كَذَا وَكَذَا ثُمَّ مَضَى .

عَنْ نَافِعٍ قَالَ<sup>(٣)</sup> : قَرَأْتُ ذَاتَ يَوْمٍ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سِعْتُمْ ﴾ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : أَتَدْرِي فِيْمَ نَزَلَتْ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : نَزَلَتْ فِي إِيْتَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبْرِهَا فَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ وَجْدًا شَدِيدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سِعْتُمْ ﴾ . وَهَذَا الْحَدِيثُ مَحْمُولٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَأْتِيهَا فِي قُبُلِهَا مِنْ دُبْرِهَا .

(١) أبو داود (٢١٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٦) .

(٣) إسناده صحيح : وقد أخرجه الطبري (٤٠٢/٤) .

تنبيه هام : إتيان النساء في أدبارهن حرام ، وما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما إباحة ذلك إما أنه منسوخ أو موجه ، أو أنه اجتهد في ذلك وجاءه الصواب ، وجهاهير العلماء على تحريم إتيان النساء في الدبر ، وبهذا نتدين .



وَعَنْ طَاوُسٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنِ اثْنَانِ الْمَرْأَةِ فِي دُبْرِهَا ، قَالَ : تَسْأَلْنِي  
عَنِ الْكُفْرِ ؟ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

وَعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ : كُنْتُ آتِي أَهْلِي فِي دُبْرِهَا ،  
وَسَمِعْتُ قَوْلَ اللَّهِ ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ فَظَنَنْتُ أَنَّ ذَلِكَ لِي  
حَلَالٌ فَقَالَ : يَا لَكُوعٍ إِنَّمَا قَوْلُهُ : ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ قَائِمَةٌ ، وَقَاعِدَةٌ ، وَمُقْبِلَةٌ ،  
وَمُدْبِرَةٌ فِي أَقْبَالِهِنَّ ، لَا تَعْدُوا ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ . وَرَوَى مَعْمَرُ بْنُ عِيسَى عَنْ مَالِكٍ :  
أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ .

فَهَذَا هُوَ الثَّابِتُ عَنْهُ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ  
وَأَصْحَابِهِمْ قَاطِبَةً ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي سَلَمَةَ وَعِكْرِمَةَ وَطَاوُسٍ  
وَعَطَاءٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ وَمُجَاهِدِ بْنِ جَبْرِ وَالْحَسَنَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ  
السَّلَفِ أَتَمُّهُمْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُطْلِقُ عَلَى فِعْلِهِ الْكُفْرَ وَهُوَ  
مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أَي : مِنْ فِعْلِ الطَّاعَاتِ مَعَ امْتِنَالِ مَا أَنْهَاكُمْ  
عَنْهُ مِنْ تَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ ﴾ أَي :  
فِيحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ جَمِيعَهَا . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ فِيمَا  
أَمَرَهُمُ التَّارِكِينَ مَا عَنْهُ زَجَرَهُمْ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ  
قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرَ بَيْنَهُمَا  
وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَصُرْهُ الشَّيْطَانُ أَبَدًا » (١) .

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ  
النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ  
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥١٦٥) ، ومسلم (حديث ١٠٥٨) .

يَقُولُ تَعَالَى لَا تَجْعَلُوا آيَاتِنَا كَمَا بِاللَّهِ تَعَالَى مَانِعَةً لَكُمْ مِنَ الْبِرِّ وَصَلَةَ الرَّحْمِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَى تَرْكِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَّا تَحْتُوجَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢] ، فَالِاسْتِمْرَارُ عَلَى الْيَمِينِ أَيْ لِمَا حَلَفْتُمْ مِنْ الْخُرُوجِ مِنْهَا بِالتَّكْفِيرِ ، كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « وَاللَّهِ لَأَنْ يَلِجَ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ أَثْمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ » (١) . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ اسْتَلَجَّ فِي أَهْلِهِ بِيَمِينٍ فَهُوَ أَعْظَمُ إِثْمًا ، لَيْسَ تُغْنِيهِ الْكَفَّارَةُ » (٢) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَا تَجْعَلَنَّ عُرْضَةً لِيَمِينِكَ أَنْ لَا تَصْنَعَ الْخَيْرَ وَلَكِنْ كَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ وَاصْنَعِ الْخَيْرَ ، وَهَذَا رَأْيُ الْجُمْهُورِ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا » (٣) وَثَبَتَ فِيهَا أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ : « يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيَتْهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيَتْهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتِ إِلَيْهَا ، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَاتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَّرْ عَنْ يَمِينِكَ » (٤) . وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا ، فَلْيُكْفِرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ » (٥) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ أَي : لَا يُعَاقِبُكُمْ وَلَا يُلْزِمُكُمْ بِمَا صَدَرَ مِنْكُمْ مِنَ الْآيَاتِ اللَّغْوِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي لَا يَقْصِدُهَا الْحَالِفُ بَلْ تَجْرِي عَلَى لِسَانِهِ عَادَةً مِنْ غَيْرِ تَعْقِيدٍ وَلَا تَأْكِيدٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي

(١) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٦٦٢٥)، ومسلم (حديث ١٦٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩).

(٤) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (حديث ١٦٥٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٦٥٠).

هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ : بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى ، فَلْيُقْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ »<sup>(١)</sup> ، فَهَذَا قَالَهُ لِقَوْمِ حَدِيثِي عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ قَدْ أَسْلَمُوا وَأَلْسِنَتُهُمْ قَدْ أَلْفَتْ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ بِاللَّاتِ ، مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، فَأَمُرُوا أَنْ يَتَلَفَّظُوا بِكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ ، كَمَا تَلَفَّظُوا بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، لِتَكُونَ هَذِهِ بِهَذِهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الْآيَةَ ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ ﴾ [المائدة : ٨٩]

عَنْ عَائِشَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ ، وَبَلَى وَاللَّهِ ، وَعِنَهَا أَيْضًا قَالَتْ : هُمُ الْقَوْمُ يَتَدَارَعُونَ فِي الْأَمْرِ فَيَقُولُ هَذَا : لَا وَاللَّهِ وَبَلَى وَاللَّهِ ، وَكَلَّا وَاللَّهِ ، يَتَدَارَعُونَ فِي الْأَمْرِ لَا تَعْقِدُ عَلَيْهِ قُلُوبُهُمْ<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : هُوَ أَنْ يَخْلَفَ عَلَى الشَّيْءِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَاذِبٌ ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ : وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ الْآيَةَ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَي : غَفُورٌ لِعِبَادِهِ حَلِيمٌ عَلَيْهِمْ .

لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ<sup>٣</sup> فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣٣﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣٤﴾

الْإِبْلَاءُ : الْحَلْفُ ، فَإِذَا حَلَفَ الرَّجُلُ أَنْ لَا يُجَامِعَ زَوْجَتَهُ مُدَّةً ، فَلَا يَحُلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْهَا ، فَإِنْ كَانَتْ أَقَلَّ فَلَهُ أَنْ يَنْتَظِرَ انْقِضَاءَ الْمُدَّةِ ثُمَّ يُجَامِعُ امْرَأَتَهُ ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَصْبِرَ وَلَيْسَ لَهَا مُطَالَبَتُهُ بِالْفَيْئَةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ ، وَهَذَا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ آتَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا ، فَنَزَلَ لِتَسْعَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٨٦٠) ، ومسلم (١٦٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٦١٣) من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : أنزلت هذه الآية ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ في قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، أما قولها هم القوم يتدارعون ... فصحيح الإسناد أيضًا . هذا ، ومن العلماء من حمل لغو اليمين على اليمين التي أقسمها صاحبها ، وهو يوقن بصحة ما أقسم عليه ثم تبين له خطؤه ، ومنهم من قال : هي يمين الناسي ، والأكثر على أنها قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، بدون تعقيد للقلب عليها ، والله تعالى أعلم .

وَعِشْرِينَ وَقَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ»<sup>(١)</sup>، فَأَمَّا إِنْ زَادَتْ الْمُدَّةُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَلِلزَّوْجَةِ مُطَالَبَةُ الزَّوْجِ عِنْدَ انْقِضَاءِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، إِمَّا أَنْ يَفِيءَ - أَيْ: يُجَامِعُ - وَإِمَّا أَنْ يُطَلِّقَ، فَيَجْبِرُهُ الْحَاكِمُ عَلَى هَذَا، وَهَذَا لِئَلَّا يَضُرَّ بِهَا، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أَيْ: يَخْلِفُونَ عَلَى تَرْكِ الْجَمَاعِ مِنْ نِسَائِهِمْ، فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْإِبْلَاءَ يَخْتَصُّ بِالزَّوْجَاتِ دُونَ الْإِمَاءِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ ﴿تَرْتَبِعُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أَيْ: يَنْتَظِرُ الزَّوْجُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ مِنْ حِينَ الْحَلْفِ، ثُمَّ يُوقِفُ وَيُطَالِبُ بِالْفَيْئَةِ أَوْ الطَّلَاقِ وَهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أَيْ: رَجَعُوا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ: لِمَا سَلَفَ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِمْ بِسَبَبِ الْيَمِينِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَقَعُ بِمُجَرَّدِ مُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرِ، كَقَوْلِ الْجُمْهُورِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ، وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ يَقَعُ بِمُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ تَطْلِيقَةً. ثُمَّ قِيلَ: إِنَّمَا تُطَلَّقُ بِمُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرِ طَلْقَةً رَجْعِيَّةً، فَكُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّمَا تُطَلَّقُ بِمُضِيِّ الْأَرْبَعَةِ أَشْهُرِ أَوْجَبَ عَلَيْهَا الْعِدَّةَ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ أَنْ يُوقِفَ<sup>(٢)</sup> فَيُطَالِبُ إِمَّا بِهَذَا وَإِمَّا بِهَذَا، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهَا بِمُجَرَّدِ مُضِيِّهَا طَلَاقًا، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا آلَى الرَّجُلُ مِنْ امْرَأَتِهِ لَمْ يَقَعْ عَلَيْهَا طَلَاقٌ وَإِنْ مَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ حَتَّى يُوقِفَ؛ فِيمَا أَنْ يُطَلَّقَ وَإِمَّا أَنْ يَفِيءَ. وَعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: أَدْرَكْتُ بَعْضَةَ عَشَرَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ كُلُّهُمْ يُوقِفُ الْمُؤَلِي. قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَأَقْلُ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا تَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنْنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لِلْمُطَلَّقَاتِ الْمُدْخُولِ بِهِنَّ مِنْ ذَوَاتِ الْأَقْرَاءِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٨٣)، ولهذا الحديث عدة طرق عن النبي ﷺ.

(٢) يوقف، أي: يجلس.

بِأَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، أَي : بِأَنْ تَمَكَّثَ إِحْدَاهُنَّ بَعْدَ طَلَاقِ زَوْجِهَا لَهَا ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ثُمَّ تَتَزَوَّجَ إِنْ شَاءَتْ . وَقَدْ اِخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلْفُ وَالْأَيْمَّةُ فِي الْمُرَادِ بِالْأَقْرَاءِ مَا هُوَ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْأَطْهَارُ . الْقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْأَقْرَاءِ الْحَيْضُ ، فَلَا تَنْقُضِي الْعِدَّةَ حَتَّى تَطْهَرِي مِنَ الْحَيْضَةِ الثَّلَاثَةَ ، زَادَ آخَرُونَ : وَتَغْتَسِلَ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ ﴾ أَي : مِنْ حَبْلِ أَوْ حَيْضٍ . وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُنَّ عَلَى قَوْلٍ خِلَافِ الْحَقِّ ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الْمَرْجِعَ فِي هَذَا إِلَيْهِنَّ ، لِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُعْلَمُ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِنَّ وَيَتَعَدَّرُ إِقَامَةُ الْبَيِّنَةِ غَالِبًا عَلَى ذَلِكَ ، فَردَّ الْأَمْرَ إِلَيْهِنَّ ، وَتَوَعَّدَنَ فِيهِ لئَلَّا يُخْبِرَنَّ بغيرِ الْحَقِّ ، إِمَّا اسْتِعْجَالًا مِنْهَا لِانْقِضَاءِ الْعِدَّةِ ، أَوْ رَغْبَةً مِنْهَا فِي تَطْوِيلِهَا لِمَا لَهَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، فَأَمَرَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِالْحَقِّ فِي ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ أَي : وَزَوْجُهَا الَّذِي طَلَّقَهَا أَحَقُّ بِرَدِّهَا مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا ، إِذَا كَانَ مُرَادُهُ بِرَدِّهَا إِصْلَاحَ وَالْحَيْرَ ، وَهَذَا فِي الرَّجْعِيَّاتِ فَأَمَّا الْمُطَلَّقَاتُ الْبَوَائِنُ فَلَمْ يَكُنْ حَالُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُطَلَّقَةً بَائِنٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لَمَّا حُصِرُوا فِي الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ فَأَمَّا حَالُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ . فَكَانَ الرَّجُلُ أَحَقَّ بِرَجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ ، فَلَمَّا قُصِرُوا فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا عَلَى ثَلَاثِ تَطْلِيقَاتٍ ، صَارَ لِلنَّاسِ مُطَلَّقَةً بَائِنٌ ، وَغَيْرُ بَائِنٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : وَهُنَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ مَا لِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ ، فَلْيُؤَدَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى الْآخِرِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : « فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمُ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلَنَّ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ ، وَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (١)

وَفِي حَدِيثِ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ الْقَشِيرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ زَوْجَةٍ أَحَدِنَا ؟ قَالَ : « أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تُضْرِبَ الْوَجْهَ وَلَا تُفَبِّحَ ، وَلَا تَهْجُرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ » (١) .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أَي : فِي الْفَضِيلَةِ فِي الْخَلْقِ ، وَالْخَلْقِ ، وَالْمَنْزَلَةِ ، وَطَاعَةِ الْأَمْرِ ، وَالْإِنْفَاقِ ، وَالْقِيَامِ بِالْمَصَالِحِ ، وَالْفَضْلِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَي : عَزِيزٌ فِي إِنْتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ ، حَكِيمٌ فِي أَمْرِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ .

الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ وَلَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٦﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٢٧﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ رَافِعَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ أَحَقُّ بِرِجْعَةِ امْرَأَتِهِ وَإِنْ طَلَّقَهَا مِائَةَ مَرَّةٍ ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا فِيهِ ضَرَرٌ عَلَى الزَّوْجَاتِ ، قَصَرَهُمُ اللَّهُ ﷻ إِلَى ثَلَاثِ طُلُقَاتٍ ، وَأَبَاحَ الرَّجْعَةَ فِي الْمَرَّةِ وَالثَّنِينَ ، وَأَبَانَهَا بِالْكُلِّيَّةِ فِي الثَّلَاثَةِ ، فَقَالَ : ﴿ الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ﴾ .

قَوْلُهُ : ﴿ فِيمَا سَكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ﴾ أَي : إِذَا طَلَّقَهَا وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ ،

فَأَنْتَ مُخَيَّرٌ فِيهَا مَا دَامَتْ عِدَّتُهَا بَاقِيَةً ، بَيْنَ أَنْ تَرُدَّهَا إِلَيْكَ نَاقِيًا إِصْلَاحَ بِهَا ،  
وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهَا ، وَبَيْنَ أَنْ تَتْرُكَهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا ، فَتَبِينَ مِنْكَ ، وَتُطَلِّقَ  
سَرَاحَهَا مُحْسِنًا إِلَيْهَا ، لَا تَظْلِمَهَا مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا ، وَلَا تُضَارَّ بِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ  
تُضَاجِرُوهُنَّ ، وَتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، لِیَقْتَدِينَ مِنْكُمْ بِمَا أُعْطِيْتُمُوهُنَّ مِنَ الْأُصْدِيقَةِ أَوْ  
بِبَعْضِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ  
بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾ [النساء : ١٩] . فَأَمَّا إِنْ وَهَبْتُهُ الْمَرْأَةُ شَيْئًا عَنْ طِيبِ نَفْسٍ مِنْهَا ، فَقَدْ  
قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ [النساء : ٤] ،  
وَأَمَّا إِذَا تَشَاقَقَ الزَّوْجَانِ ، وَلَمْ تَقْمِ الْمَرْأَةُ بِحُقُوقِ الرَّجُلِ ، وَأَبْغَضْتُهُ ، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى  
مُعَاشَرَتِهِ ، فَلَهَا أَنْ تَقْتَدِيَ مِنْهُ بِمَا أُعْطَاهَا ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْهَا فِي بَذْلِهَا لَهُ ، وَلَا حَرَجَ  
عَلَيْهِ فِي قَبُولِ ذَلِكَ مِنْهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا  
آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا  
جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيمَا أَفْتَدْتُم بِهِ ﴾ الآية .

فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُدْرٌ وَسَأَلَتْ الْإِفْتِدَاءَ مِنْهُ فَقَدْ وَرَدَ : عَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
ﷺ قَالَ : « أَيُّهَا امْرَأَةُ سَأَلْتَ زَوْجَهَا طَلَاقَهَا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ  
الْجَنَّةِ » (١) . ثُمَّ قَدْ قَالَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَأُئِمَّةِ الْخَلْفِ : إِنَّهُ لَا يَجُوزُ الْخُلْعُ إِلَّا  
أَنْ يَكُونَ الشَّقَاقُ وَالنُّشُوزُ مِنْ جَانِبِ الْمَرْأَةِ ، فَيَجُوزُ لِلرَّجُلِ حِينَئِذٍ قَبُولَ الْفِدْيَةِ ،  
وَاحْتِجَاؤَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ  
يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ قَالُوا : فَلَمْ يَشْرَعْ الْخُلْعُ إِلَّا فِي هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَلَا يَجُوزُ فِي  
غَيْرِهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ ، وَالْأَصْلُ عَدَمُهُ ، وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَطَاوُسٌ وَإِبْرَاهِيمُ  
وَعَطَاءٌ وَالْحَسَنُ وَالْجُمْهُورُ حَتَّى قَالَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ : لَوْ أَخَذَ مِنْهَا شَيْئًا وَهُوَ  
مُضَارٌّ لَهَا وَجَبَ رُدُّهُ إِلَيْهَا ، وَكَانَ الطَّلَاقُ رَجْعِيًّا ، قَالَ مَالِكٌ : وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي  
أَدْرَكْتُ النَّاسَ عَلَيْهِ ، وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى أَنَّهُ يَجُوزُ الْخُلْعُ فِي حَالِ

(١) إسناده معلول : أخرجه أبو داود ( حديث ٢٢٢٦ ) .

الشَّقَاقِ ، وَعِنْدَ الْإِتِّفَاقِ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى ، وَهَذَا قَوْلُ جَمِيعِ أَصْحَابِهِ قَاطِبَةً .  
 عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلٍ الْأَنْصَارِيِّ أُمِّهَا كَانَتْ تَحْتُ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَأَنَّ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى الصُّبْحِ ، فَوَجَدَ حَبِيبَةَ بِنْتَ سَهْلٍ عِنْدَ بَابِهِ فِي الْغَلَسِ ، فَقَالَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » قُلْتُ : أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ ، فَقَالَ : « مَا شَأْنُكَ »  
 فَقَالَتْ : لَا أَنَا وَلَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ - لِزَوْجِهَا - فَلَمَّا جَاءَ زَوْجُهَا ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ قَالَ  
 لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذِهِ حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ قَدْ ذَكَرْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَذْكَرَ » ،  
 فَقَالَتْ حَبِيبَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلِّ مَا أَعْطَانِي عِنْدِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خُذْ  
 مِنْهَا » فَأَخَذَ مِنْهَا ، وَجَلَسَتْ فِي أَهْلِهَا <sup>(١)</sup> .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ أَتَتْ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ : مَا أَعِيبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقِي وَلَا دِينِي ، وَلَكِنْ أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ » قَالَتْ : نَعَمْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ائْتِي  
 الْحَدِيثَ ، وَطَلَّقْهَا تَطْلِيقَةً » <sup>(٢)</sup> .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي أَنَّهُ هَلْ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يُفَادِيَهَا بِأَكْثَرِ مِمَّا  
 أَعْطَاهَا ، فَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى جَوَازِ ذَلِكَ ، لِغُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا  
 فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ عَنْ كَثِيرٍ مَوْلَى ابْنِ سَمُرَةَ أَنَّ عَمَرَ أْتِيَ بِامْرَأَةٍ نَاشِزٍ فَأَمَرَ بِهَا إِلَى  
 بَيْتِ كَثِيرِ الزُّبُلِ ، ثُمَّ دَعَا بِهَا ، فَقَالَ : كَيْفَ وَجَدْتِ ؟ فَقَالَتْ : مَا وَجَدْتُ رَاحَةً  
 مُنْذُ كُنْتُ عِنْدَهُ ، إِلَّا هَذِهِ اللَّيْلَةُ الَّتِي كُنْتُ حَبَسْتَنِي ، فَقَالَ لِزَوْجِهَا : اِخْلَعْهَا وَلَوْ  
 مِنْ قُرْطِهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ « وَلَوْ عِقَاصِهَا » . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا كُلَّ مَا  
 بِيَدِهَا مِنْ قَلِيلٍ وَكَثِيرٍ وَلَا يَتْرُكُ لَهَا سِوَى عِقَاصِ شَعْرِهَا .

وَقَالَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ : إِنْ كَانَ الْإِضْرَارُ مِنْ قِبَلِهَا ، جَازَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا  
 أَعْطَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ زِدَادَ جَازَ فِي الْقَضَاءِ ، وَإِنْ كَانَ الْإِضْرَارُ مِنْ  
 جِهَتِهِ لَمْ يَجْزَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَإِنْ أَخَذَ جَازَ فِي الْقَضَاءِ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو  
 عُبَيْدٍ وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَاهَا .

(١) سنده صحيح : وقد أخرجه مالك في الموطأ (٢/٥٦٤) ، وأبو داود (٢٢٢٧) ، وغيرهما .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٢٧٣) .



قُلْتُ : وَيُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قِصَّةِ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا الْحَدِيثَةَ وَلَا يَزِدَادَ<sup>(١)</sup>.

فَصَلُّ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : اِخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي الْخُلْعِ ، وَذَكَرَ أَثَرًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَجُلٍ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَتَيْنِ ، ثُمَّ اِخْتَلَعَتْ مِنْهُ بَعْدُ ، يَتَزَوَّجُهَا إِنْ شَاءَ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ اَلطَّلَقَ مَرَّتَانِ ﴾ قَرَأَ إِلَى : ﴿ اَنْ يَتَرَاجَعَا ﴾<sup>(٢)</sup> قَالَ الشَّافِعِيُّ : وَعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : كُلُّ شَيْءٍ اَجَازَهُ الْمَالُ فَلَيْسَ بِطَّلَاقٍ<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : اَنَّ اِبْرَاهِيْمَ بْنَ سَعْدِ بْنِ اَبِي وَقَاصٍ سَأَلَهُ فَقَالَ : رَجُلٌ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ تَطْلِيقَتَيْنِ ثُمَّ اِخْتَلَعَتْ مِنْهُ اَيْتَزَوَّجُهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَيْسَ الْخُلْعُ بِطَّلَاقٍ ، ذَكَرَ اللَّهُ الطَّلَاقَ فِي اَوَّلِ الْآيَةِ وَآخِرَهَا ، وَالْخُلْعُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ فَلَيْسَ الْخُلْعُ بِشَيْءٍ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ اَلطَّلَقَ مَرَّتَانِ فَاِمَسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ اَوْ تَسْرِيحٌ بِاِحْسَانٍ ﴾ ، وَقَرَأَ : ﴿ فَاِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهٗ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ ، وَهَذَا الَّذِي ذَهَبَ اِلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مِنْ اَنَّ الْخُلْعَ لَيْسَ بِطَّلَاقٍ وَاِنَّمَا هُوَ فَسْخٌ ، هُوَ رِوَايَةٌ عَنْ اَمِيْرِ الْمُؤْمِنِيْنَ عُمَرَ بْنِ عَفَّانٍ وَابْنِ عُمَرَ وَهُوَ قَوْلُ طَاوُسٍ وَعِكْرِمَةَ ، وَبِهِ يَقُولُ اَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَاِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ وَابُو ثَوْرٍ وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الطَّاهِرِيُّ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فِي الْقَدِيمِ وَهُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيْمَةِ ، وَالْقَوْلُ الثَّانِي فِي الْخُلْعِ : اِنَّهُ طَّلَاقٌ بَائِنٌ اِلَّا اَنْ يَنْوِيْ اَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ<sup>(٤)</sup>.

مَسْأَلَةٌ : وَذَهَبَ مَالِكٌ وَابُو حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيُّ وَاحْمَدُ وَاِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوِيَةَ فِي رِوَايَةٍ عَنْهَا وَهِيَ الْمَشْهُورَةُ اِلَى اَنَّ الْمُخْتَلَعَةَ عِدَّتُهَا عِدَّةُ الْمُطَلَّقَةِ ، بِثَلَاثَةِ قُرُوءٍ ، اِنْ كَانَتْ مِمَّنْ نَحِيضٌ . وَمَأْخُذُهُمْ فِي هَذَا اَنَّ الْخُلْعَ طَّلَاقٌ ، فَتَعْتَدُ كَسَائِرِ الْمُطَلَّقاتِ .  
وَالْقَوْلُ الثَّانِي : اَنَّهَا تَعْتَدُ بِحَيْضَةٍ وَاَحِدَةٍ تَسْتَبْرِئُ بِهَا رَحِمَهَا ، عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ اَنَّ الرُّبِيْعَ اِخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا فَاتَى عَمَّهَا عُمَرَ بْنَ اَحْمَدَ فَقَالَ تَعْتَدُ بِحَيْضَةٍ ، قَالَ :

(١) لفظه «ولا يزداد» فيها مقال .

(٢) صحيح : عن ابن عباس . انظر مصنف عبد الرزاق (٦/٤٨٧) .

(٣) صحيح : عن عكرمة . انظر مصنف عبد الرزاق (١١٧٦٨) .

(٤) راجع هذا المبحث إن شئت في كتابي جامع أحكام النساء فيه استفاضة لمن أراد المزيد .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ نَعْتَدُ ثَلَاثَ حِيضٍ حَتَّى قَالَ هَذَا عُثْمَانُ ، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُفْتِي بِهِ وَيَقُولُ : عُثْمَانُ خَيْرُنَا وَأَعْلَمُنَا . وَرَوَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : عِدَّةُ الْمُخْتَلِعَةِ حِيضَةٌ <sup>(١)</sup> . وَعَنِ الرَّبِيعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ ابْنِ عَفْرَاءَ أَنَّهَا اخْتَلَعَتْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ أَوْ أَمَرَتْ أَنْ تَعْتَدَ بِحِيضَةٍ <sup>(٢)</sup> .

مَسْأَلَةٌ : وَلَيْسَ لِلْمُخَالَعِ أَنْ يُرَاجِعَ الْمُخْتَلِعَةَ فِي الْعِدَّةِ بِغَيْرِ رِضَاهَا ، عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، لِأَنَّهَا قَدْ مَلَكَتْ نَفْسَهَا ، بِهَا بَدَلَتْ لَهُ مِنَ الْعَطَاءِ . مَسْأَلَةٌ : وَهَلْ لَهُ أَنْ يُوقَعَ عَلَيْهَا طَلًا قًا آخَرَ فِي الْعِدَّةِ ؟ .

فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ مَلَكَتْ نَفْسَهَا ، وَبَانَتْ مِنْهُ وَبِهِ . وَالثَّانِي : قَالَ مَالِكٌ : إِنْ أَتَبَعَ الْخُلْعَ طَلًا قًا مِنْ غَيْرِ سُكُوتٍ بَيْنَهُمَا ، لَمْ يَقَعْ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ يَقَعْ عَلَيْهَا الطَّلَاقُ بِكُلِّ حَالٍ ، مَا دَامَتْ فِي الْعِدَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أَي : هَذِهِ الشَّرَائِعُ الَّتِي شَرَعَهَا لَكُمْ هِيَ حُدُودُهُ ، فَلَا تَتَجَاوَزُوهَا ، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ جَمْعَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثُ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ حَرَامٌ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْمَالِكِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ ، وَإِنَّمَا السُّنَّةُ عِنْدَهُمْ أَنْ يُطَلَّقَ وَاحِدَةً لِقَوْلِهِ : ﴿ اَلطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ أَي : أَنَّهُ إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلَقَةً ثَالِثَةً ، بَعْدَ مَا أَرْسَلَ عَلَيْهَا الطَّلَاقَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنَّهَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ أَي : حَتَّى يَطَّأَهَا زَوْجٌ آخَرَ فِي نِكَاحٍ صَحِيحٍ ، فَلَوْ وَطَّئَهَا وَاطْمَأَنَّ فِي غَيْرِ نِكَاحٍ وَلَوْ فِي مَلِكِ الْيَمِينِ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِزَوْجٍ ، وَهَكَذَا لَوْ تَزَوَّجَتْ ، وَلَكِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا الزَّوْجُ لَمْ تَحِلَّ لِلأَوَّلِ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٢٢٣٠) .

(٢) ضعيف بهذا السياق ، والصواب أنها أمرت أن تعتد بحیضة ، وليس فيه أن النبي ﷺ هو الذي أمرها هذا الذي صوبه الترمذي والبيهقي - رحمهما الله - انظر الترمذي ( حديث ١١٨٥ ) ، والبيهقي ( السنن الكبرى ٤٥٠ / ٧ ) .

اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : دَخَلَتْ إِمْرَأَةً رِفَاعَةَ الْقُرْطُظِيَّ وَأَنَا وَأَبُو بَكْرٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ :  
 إِنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَنِي الْبَتَّةَ ، وَإِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزُّبَيْرِ تَزَوَّجَنِي ، وَإِنَّمَا عِنْدَهُ مِثْلُ الْهُدْيَةِ ،  
 وَأَخَذْتُ هُدْبَةً مِنْ جِلْبَابِهَا ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ بِالْبَابِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ ،  
 فَقَالَ يَا أَبَا بَكْرٍ : أَلَا تَنْهِي هَذِهِ عَمَّا تَجْهَرُ بِهِ بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَا زَادَ رَسُولُ اللَّهِ  
 ﷺ عَنِ التَّبَسُّمِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَأَنَّكَ تُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَيَّ رِفَاعَةَ ، لَا ،  
 حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ » (١).

فصل : وَالْمَقْصُودُ مِنَ الزَّوْجِ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ رَاغِبًا فِي الْمَرْأَةِ ، قَاصِدًا لِدَوَامِ  
 عِشْرَتِهَا ، كَمَا هُوَ الْمَشْرُوعُ مِنَ التَّزْوِيجِ . وَاشْتَرَطَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ أَنْ يُنْزَلَ الزَّوْجُ  
 الثَّانِي ؛ وَكَأَنَّهُ تَمَسَّكَ بِهَا فَهَمَّهُ مِنْ قَوْلِهِ ﷺ « حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ »  
 وَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا أَنْ تُنْزَلَ الْمَرْأَةُ أَيْضًا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْعُسَيْلَةِ الْمَنِيِّ ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ  
 الثَّانِي إِنَّمَا قَصَدَهُ أَنْ يُجْلِبَهَا لِلْأَوَّلِ ، فَهَذَا هُوَ الْمُحَلَّلُ ، الَّذِي وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذِمَّةِ  
 وَلَعْنِهِ ، وَمَتَى صَرَّحَ بِمَقْصُودِهِ فِي الْعَقْدِ بَطَلَ النِّكَاحُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْأَيْمَّةِ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُحِلَّ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ » (٢) .  
 وَقَوْلُهُ : « فَإِنْ طَلَّقَهَا » أَي : الزَّوْجُ الثَّانِي بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا « فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا  
 أَنْ يَتَرَاجَعَا » أَي : الْمَرْأَةُ وَالزَّوْجُ الْأَوَّلُ « إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » أَي :  
 يَتَعَاشَرَا بِالْمَعْرُوفِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : إِنْ ظَنَّا أَنْ نِكَاحَهُمَا عَلَى غَيْرِ دُلْسَةٍ « وَتِلْكَ حُدُودُ  
 اللَّهِ » أَي : شَرَائِعُهُ وَأَحْكَامُهُ « يُبَيِّنُهَا » أَي : يُوضِّحُهَا « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » .  
 وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْأَيْمَّةُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِيمَا إِذَا طَلَّقَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً أَوْ طَلْقَتَيْنِ ،  
 وَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، ثُمَّ تَزَوَّجَتْ بِآخِرٍ ، فَدَخَلَ بِهَا ثُمَّ طَلَّقَهَا فَانْقَضَتْ  
 عِدَّتُهَا ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا الْأَوَّلُ ، هَلْ تَعُودُ إِلَيْهِ بِمَا بَقِيَ مِنَ الثَّلَاثِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ  
 وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَهُوَ قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ ، أَوْ أَنْ يَكُونَ الزَّوْجُ  
 الثَّانِي قَدْ هَدَمَ مَا قَبْلَهُ مِنَ الطَّلَاقِ ، فَإِذَا عَادَتْ إِلَى الْأَوَّلِ تَعُودُ بِمَجْمُوعِ الثَّلَاثِ ،  
 كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - وَحُجَّتُهُمْ أَنَّ الزَّوْجَ الثَّانِي إِذَا هَدَمَ

(١) انظر البخاري (٢٦٣٩) ، ومسلم (١٤٣٣) .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (حديث ١١٢٠) .

الثَّالِثَ ، فَلَا نَ يَهْدِمَ مَا دُونَهَا بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ، وَلَا تَتَّخِذُوا آيَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ لِلرِّجَالِ ، إِذَا طَلَّقَ أَحَدُهُمُ الْمَرْأَةَ طَلَاقًا لَهُ عَلَيْهَا فِيهِ رَجْعَةٌ ، أَنْ يُحْسِنَ فِي أَمْرِهَا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا مِقْدَارٌ مَا يُمَكِّنُهُ فِيهِ رَجْعَتُهَا ، فَإِذَا أَنْ يُمَسِّكَهَا أَيُّ يَرْجِعُهَا إِلَى عِصْمَةِ نِكَاحِهِ بِمَعْرُوفٍ ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى رَجْعَتِهَا وَيَبْنِي عَشْرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ أَوْ يُسَرِّحَهَا أَيُّ يَتْرُكُهَا حَتَّى تَنْقُضِي عِدَّتَهَا ، وَيُخْرِجُهَا مِنْ مَنْزِلِهِ بِالتَّيِّبِ هِيَ أَحْسَنُ ، مِنْ غَيْرِ شِقَاقٍ ، وَلَا مُحَاصِمَةٍ وَلَا تَقَابُحٍ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : كَانَ الرَّجُلُ يُطَلِّقُ الْمَرْأَةَ فَإِذَا قَارَبَتْ انْقِضَاءَ الْعِدَّةِ رَاجِعَهَا ضِرَارًا لِئَلَّا تَذْهَبَ إِلَى غَيْرِهِ ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا فَتَعْتَدُ فَإِذَا شَارَفَتْ عَلَى انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ طَلَّقَ لِيَطْوَلَ عَلَيْهَا الْعِدَّةُ ، فَنَهَاهُمْ اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ وَتَوَعَّدَهُمْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أَيُّ : بِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي إِزْسَالِهِ الرَّسُولَ بِالْهُدَى وَالْبَيِّنَاتِ إِلَيْكُمْ ﴿ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ أَيُّ : السُّنَّةِ ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أَيُّ : بِأَمْرِكُمْ وَيَنْهَاكُمْ وَيَتَوَعَّدُكُمْ عَلَى إِزْتِكَابِ الْمَحَارِمِ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَيُّ : فِيمَا تَأْتُونَ وَفِيمَا تَذَرُونَ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمُ السَّرِّيَّةِ وَالْجَهْرِيَّةِ وَسَيُجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَمُ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الرَّجُلِ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ طَلْقَةً أَوْ طَلْقَتَيْنِ فَتَنْقُضِي عِدَّتَهَا ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا وَأَنْ يَرَا جَعَهَا ، وَتُرِيدُ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ ، فَيَمْنَعُهَا أَوْلِيَاؤُهَا مِنْ ذَلِكَ ، فَهِيَ اللَّهُ أَنْ يَمْنَعُوهَا . وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ . وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَمْلِكُ أَنْ تُزَوِّجَ نَفْسَهَا ، وَأَنَّهَ لَا بُدَّ فِي النِّكَاحِ مِنْ وَلِيٍّ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ »<sup>(١)</sup> .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مَعْقِلِ بْنِ يَسَارِ الْمَزْنِيِّ وَأُخْتِهِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ<sup>(٢)</sup> : أَنَّهُ زَوَّجَ أُخْتَهُ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَتْ عِنْدَهُ مَا كَانَتْ ، ثُمَّ طَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً لَمْ يَرَا جَعَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتَهَا ، فَهَوِيَهَا وَهَوَيْتُهُ ، ثُمَّ خَطَبَهَا مَعَ الْخُطَّابِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا لُكْعَ بْنَ لُكْعِ أَكْرَمْتُكَ بِهَا وَزَوَّجْتُكَهَا فَطَلَّقْتُهَا ، وَاللَّهِ لَا تَرْجِعْ إِلَيْكَ أَبَدًا آخِرَ مَا عَلَيْكَ ، قَالَ : فَعَلِمَ اللَّهُ حَاجَتَهُ إِلَيْهَا وَحَاجَتَهَا إِلَى بَعْلِهَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجْلَهُنَّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فَلَمَّا سَمِعَهَا مَعْقِلٌ قَالَ : سَمِعَا لِرَبِّي وَطَاعَةً ، ثُمَّ دَعَاهُ ، فَقَالَ : أَرْوِّجْكَ وَأَكْرِمْكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي نَهَيْتَنَاكُمْ عَنْهُ مِنْ مَنَعَ الْوَلَايَا أَنْ يَتَزَوَّجَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ، يَأْتُمِّرُ بِهِ وَيَتَعِظُ بِهِ وَيَنْفَعِلُ لَهُ ، مَنْ كَانَ مِنْكُمْ أَهْلِ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أَي يُؤْمِنُ بِشَرَعِ اللَّهِ ، وَيَخَافُ وَعِيدَ اللَّهِ ، وَعَذَابَهُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ ﴿ ذَلِكَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ أَي : اتَّبَاعُكُمْ شَرَعَ اللَّهُ فِي رَدِّ الْمَوْلِيَّاتِ إِلَى أَرْوَاجِهِنَّ ، وَتَرْكُ الْحِمِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، أَرْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أَي : مِنَ الْمَصَالِحِ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : الْخَيْرَةُ فِيمَا تَأْتُونَ وَلَا فِيمَا تَذَرُونَ .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٠٨٥) .

(٢) انظر صحيح البخاري (حديث ٥١٣٠) ، وسنن أبي داود (٢٠٨٧) ، والترمذي (٣٩٨١) ، وغيرهم .

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٦﴾

هَذَا إِزْشَادٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْوَالِدَاتِ أَنْ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ كَمَا لِرِضَاعَةِ، وَهِيَ سِتْنَانٍ فَلَا إِعْتِبَارَ بِالرِّضَاعَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَذَا قَالَ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾، وَذَهَبَ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ إِلَى أَنَّهُ لَا يُحْرِمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، فَلَوْ إِرْتَضَعَ الْمَوْلُودُ وَعُمُرُهُ فَوْقَهُمَا لَمْ يُحْرَمَ. عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُحْرَمُ مِنَ الرَّضَاعِ، إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ، وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ» (١)، وَالْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَغَيْرِهِمْ: أَنَّ الرَّضَاعَةَ لَا تُحْرَمُ إِلَّا مَا كَانَ دُونَ الْحَوْلَيْنِ، وَمَا كَانَ بَعْدَ الْحَوْلَيْنِ الْكَامِلَيْنِ، فَإِنَّهُ لَا يُحْرَمُ شَيْئًا، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: «إِلَّا مَا كَانَ فِي الثَّدْيِ» أَي: فِي مَحَلِّ الرَّضَاعَةِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ.

وَقَدْ رُوِيَ فِي الصَّحِيحِ (٢) عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا كَانَتْ تَرَى رِضَاعَ الْكَبِيرِ يُؤْتَرُ فِي التَّحْرِيمِ، وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَأْمُرُ بِمَنْ تَخْتَارُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهَا مِنَ الرِّجَالِ بِبَعْضِ نِسَائِهَا فَتَرْضِعُهُ، وَتَحْتَجُّ فِي ذَلِكَ بِحَدِيثِ سَالِمِ مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ حَيْثُ أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ امْرَأَةَ أَبِي حُدَيْفَةَ أَنْ تَرْضِعَهُ، وَكَانَ كَبِيرًا، فَكَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا بِتِلْكَ الرَّضَاعَةِ، وَأَبَى ذَلِكَ سَائِرُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ وَرَأَيْنَ ذَلِكَ مِنَ الْخِصَائِصِ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَحُجَّةُ الْجُمْهُورِ وَهُمْ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَالْفُقَهَاءُ السَّبْعَةُ وَالْأَكَابِرُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَسَائِرُ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِوَى عَائِشَةَ، مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَنْظُرْنَ

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٦٢)، وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) انظر صحيح مسلم (حديث ١٤٥٤)، وسنن النسائي (١٠٦/٦)، ومسلم أيضًا ص (١٠٧٧)، وأحمد (١٧٤/٦).

مَنْ إِخْوَانُكُمْ ، فَإِنَّهَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ » (١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : وَعَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ نَفَقَةُ الْوَالِدَاتِ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، أَي بِمَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ أُمَّتَاهُنَّ فِي بَلَدِهِنَّ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا إِقْتَارٍ ، بِحَسَبِ قُدْرَتِهِ فِي يَسَارِهِ وَتَوَسُّطِهِ وَإِقْتَارِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُفِيقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا ﴾ أَي : بِأَن تَدْفَعَهُ عَنْهَا لِتَضُرَّ أَبَاهُ بِتَرْبِيَّتِهِ ، وَلَكِن لَيْسَ لَهَا دَفْعُهُ إِذَا وَلَدَتْهُ حَتَّى تَسْقِيَهُ اللَّبْنَ ، الَّذِي لَا يَعِيشُ بَدُونِ تَنَاوُلِهِ غَالِبًا ، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا لَهَا دَفْعُهُ عَنْهَا إِذَا شَاءَتْ ، وَلَكِن إِنْ كَانَتْ مُضَارَّةً لِأَبِيهِ فَلَا يَحِلُّ لَهَا ذَلِكَ ، كَمَا لَا يَحِلُّ لَهُ إِتِزَاعُهُ مِنْهَا لِجَرْدِ الضَّرَارِ لَهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ ﴾ أَي : بِأَن يُرِيدَ أَنْ يَنْتَزِعَ الْوَالِدُ مِنْهَا إِضْرَارًا بِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ قِيلَ : فِي عَدَمِ الضَّرَارِ لِقَرِيْبِهِ ، وَقِيلَ : عَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَى وَالِدِ الطِّفْلِ مِنَ الْإِنْفَاقِ عَلَى وَالِدَةِ الطِّفْلِ ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهَا وَعَدَمِ الْإِضْرَارِ بِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ أَي : فَإِنْ اتَّفَقَ وَالِدَا الطِّفْلِ عَلَى فِصَالِهِ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ ، وَرَأْيَا فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لَهُ ، وَتَشَاوُرًا فِي ذَلِكَ ، وَاجْتِمَاعًا عَلَيْهِ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَيُؤْخَذُ مِنْهُ إِنْ انفردَ أَحَدُهُمَا بِذَلِكَ دُونَ الْآخِرِ لَا يَكْفِي ، وَلَا يَجُوزُ لِوَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنْ يَسْتَبِدَّ بِذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ مُشَاوَرَةِ الْآخِرِ . قَالَهُ الثَّوْرِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَهَذَا فِيهِ إِحْتِيَاطٌ لِلطِّفْلِ وَإِلْزَامٌ لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِهِ وَهُوَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ حَجَرَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ فِي تَرْبِيَةِ طِفْلِهِمَا ، وَأَرْشَدَهُمَا إِلَى مَا يُصْلِحُهُمَا وَيُصْلِحُهُ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَوَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَنْتُمْ وَأَبْنَاكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَسَرِّضْ لَهُ رَأْحَى ﴾ [ الطلاق : ٦ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : إِذَا اتَّفَقَتِ الْوَالِدَةُ وَالْوَالِدُ عَلَى أَنْ يَسْتَلِمَ مِنْهَا الْوَلَدُ ، إِمَّا لِعُدْرٍ مِنْهَا أَوْ لِعُدْرٍ لَهُ ، فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِي بَدْلِهِ وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا إِذَا سَلَّمَهَا أُجْرَتَهَا الْمَاضِيَةَ ، بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَاسْتَرْضَعَ لَوْلَدِهِ غَيْرَهَا بِالْأَجْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ، ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَي : فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ .

وَالَّذِينَ يُتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٧﴾

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لِلنِّسَاءِ اللَّاتِي يُتَوَقَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ ، أَنْ يَعْتَدِدْنَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَ لَيَالٍ ، وَهَذَا الْحُكْمُ يَشْمَلُ الزَّوْجَاتِ الْمَدْخُولِ بَيْنَ ، وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ بَيْنَ بِالْإِجْمَاعِ وَمُسْتَنْدَهُ فِي غَيْرِ الْمَدْخُولِ بِهَا عُمُومُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً فَمَاتَ عَنْهَا وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا ، وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا ، فَتَرَدَّدُوا إِلَيْهِ مَرَارًا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَقُولُ فِيهَا بِرَأْيِي فَإِنْ يَكُ صَوَابًا فَمِنَ اللَّهِ وَإِنْ يَكُ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيئَانِ مِنْهُ : لَهَا الصَّدَاقُ كَامِلًا ، وَفِي لَفْظِ لَهَا صَدَاقٌ مِثْلُهَا لَا وَكَسَ وَلَا شَطَطَ ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ ، فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِهِ فِي بَرُوعِ بِنْتِ وَاشِقِ ، فَقَرَحَ عَبْدُ اللَّهِ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا ، وَفِي رِوَايَةٍ : فَقَامَ رِجَالٌ مِنْ أَشْجَعٍ فَقَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِهِ فِي بَرُوعِ بِنْتِ وَاشِقِ ﴿١﴾ .

وَلَا يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْمُتَوَقَّى عَنْهَا زَوْجَهَا وَهِيَ حَامِلٌ فَإِنَّ عِدَّتَهَا بَوْضِعَ الْحَمْلِ ، وَلَوْ لَمْ تَمُكِّتْ بَعْدَهُ سِوَى حَظَّةٍ ، لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّ عَلَيْهَا أَنْ تَتَرَبَّصَ بِأَبْعَدِ الْأَجَلَيْنِ مِنَ الْوَضْعِ أَوْ



أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ ، وَهَذَا مَا خَذُ جَيْدٌ وَمَسْلُكٌ قَوِيٌّ ، لَوْلَا مَا ثَبَّتَ بِهِ الشُّنَّةُ فِي حَدِيثِ سُبَيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ <sup>(١)</sup> ، أَنَّهُا تُوْفِي عَنْهَا زَوْجَهَا سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ وَهِيَ حَامِلٌ ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَفِي رِوَايَةٍ ، فَوَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَهُ بِلَيْالٍ ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا ، تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكِكَ فَقَالَ لَهَا : مَا لِي أَرَاكَ مُتَجَمِّلَةً لَعَلَّكَ تَرْجِينَ النِّكَاحَ ؟ وَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِنَاكِحٍ حَتَّى يَمُرَّ عَلَيْكَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا . قَالَتْ سُبَيْعَةُ : فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أُمْسَيْتُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَفْتَانِي بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي ، وَأَمَرَنِي بِالْتَّرْوِيجِ إِنْ بَدَأَ لِي .

قَالَ أَبُو عَمْرٍو ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ سُبَيْعَةَ ، يَعْنِي لَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بِهِ ، قَالَ : وَيُصَحِّحُ ذَلِكَ عَنْهُ أَنَّ أَصْحَابَهُ أَفْتَوْا بِحَدِيثِ سُبَيْعَةَ ، كَمَا هُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَاطِبَةً . وَكَذَلِكَ يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ : الزَّوْجَةُ إِذَا كَانَتْ أُمَّةً ، فَإِنَّ عِدَّتَهَا عَلَى النِّصْفِ مِنْ عِدَّةِ الْحُرَّةِ ، شَهْرَانِ وَخَمْسَ لَيَالٍ ، عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ ، لِأَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ عَلَى النِّصْفِ مِنَ الْحُرَّةِ فِي الْحَدِّ ، فَكَذَلِكَ فَلْتَكُنْ عَلَى النِّصْفِ مِنْهَا فِي الْعِدَّةِ . وَمِنَ الْعُلَمَاءِ كَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ، وَبَعْضِ الظَّاهِرِيَّةِ ، مَنْ يُسَوِّي بَيْنَ الزَّوْجَاتِ الْحُرَّاتِ وَالْإِمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، لِعُمُومِ الْآيَةِ . وَلِأَنَّ الْعِدَّةَ مِنْ بَابِ الْأُمُورِ الْجَبَلِيَّةِ الَّتِي تَسْتَوِي فِيهَا الْحَلِيقَةُ .

وَقَدْ ذَكَرَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيْبِ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَغَيْرُهُمَا أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِ عِدَّةِ الْوَفَاةِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ، لِاحْتِمَالِ إِشْتِمَالِ الرَّجْمِ عَلَى حَمْلِ ، فَإِذَا أَنْتَظَرَ بِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ ظَهَرَ إِنْ كَانَ مَوْجُودًا ، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا : « إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، نُطْفَةٌ ، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً ، مِثْلُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلَكُ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ » <sup>(٢)</sup> .

فَهَذِهِ ثَلَاثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا بِأَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَالْإِحْتِيَاظُ بِعَشْرِ بَعْدَهَا ، لِأَنَّ قَدْ يَنْقُصُ بَعْضُ الشُّهُورِ ثُمَّ لَيُظْهِرُ الْحُرْكَةَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٩٩١)، ومسلم (حديث ١٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٢٠٥)، وفي غير موطن من صحيحه .

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يُسْتَفَادُ مِنْ هَذَا وَجُوبُ الإِحْدَادِ عَلَى الْمُتَوَقِّفِ عَنْهَا زَوْجَهَا مُدَّةَ عِدَّتِهَا، لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ وَزَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشِ أُمِّي الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُوَمِّنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup> أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ ابْتَدَى تُوَفِّي عَنْهَا زَوْجَهَا، وَقَدِ اشْتَكَّتْ عَيْنَهَا أَفَنُكِّحُهَا؟ فَقَالَ: «لَا» كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: لَا، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وَقَدِ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَمُكُّثُ سَنَةً».

قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ: كَانَتْ الْمَرْأَةُ إِذَا تُوَفِّي عَنْهَا زَوْجَهَا دَخَلَتْ حِفْشًا، وَلَبَسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طَيْبًا، وَلَا شَيْئًا، حَتَّى تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَى بَعْرَةَ فَرَمِي بِهَا، ثُمَّ تُؤْتَى بِدَائِيَةِ حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَيْرٍ، فَتَقْتَضُ بِهِ فَقَلَمًا فَتَقْتَضُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ.

وَمِنْ هَاهُنَا ذَهَبَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِلْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ الْآيَةَ. كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ وَفِي هَذَا نَظَرٌ كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ.

وَالغَرَضُ: أَنَّ الإِحْدَادَ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْكِ الزَّيْنَةِ مِنَ الطَّيِّبِ، وَلُبْسِ مَا يَدْعُوهَا إِلَى الأَزْوَاجِ مِنْ ثِيَابٍ وَحُلِيِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ وَاجِبٌ فِي عِدَّةِ الوَفَاةِ قَوْلًا وَاحِدًا، وَلَا يَجِبُ فِي عِدَّةِ الرَّجْعِيَّةِ قَوْلًا وَاحِدًا، وَهَلْ يَجِبُ فِي عِدَّةِ البَائِنِ فِيهِ قَوْلَانِ، وَيَجِبُ الإِحْدَادُ عَلَى جَمِيعِ الزَّوْجَاتِ الْمُتَوَقِّفِ عَنْهُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ، سَوَاءً فِي ذَلِكَ الصَّغِيرَةُ، وَالْأَيْسَةُ، وَالْحُرَّةُ، وَالْأَمَةُ، وَالْمُسْلِمَةُ، وَالْكَافِرَةُ، لِعُمُومِ الْآيَةِ. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: لَا إِحْدَادَ عَلَى الْكَافِرَةِ، وَبِهِ يَقُولُ أَشْهُبُ وَابْنُ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٣٣٤، ٥٣٣٥، ٥٣٣٦)، ومسلم (١٤٨٦، ١٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٣٣٨)، ومسلم (حديث ١٤٨٨).

نَافِعٍ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ ، وَحُجَّةٌ قَائِلٌ هَذِهِ الْمَقَالَةَ قَوْلُهُ ﷺ : « لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ تُوْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، أَنْ تُحَدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا »<sup>(١)</sup> قَالُوا : فَجَعَلَهُ تَعَبْدًا ، وَأَلْحَقَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ وَالثَّوْرِيُّ الصَّغِيرَةَ بِهَا ، لِعَدَمِ التَّكْلِيفِ ، وَأَلْحَقَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ الْأُمَّةَ الْمُسْلِمَةَ ، لِنَقْصِهَا ، وَمَحَلُّ تَقْرِيرِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي كُتُبِ الْأَحْكَامِ وَالْفُرُوعِ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ ﴾ أَي : انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ قَالَ الرَّهْرِيُّ : أَي عَلَى أَوْلِيَائِهَا ﴿ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يَعْنِي : النَّسَاءَ اللَّاتِي انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ، وَقِيلَ : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ هُوَ النِّكَاحُ الطَّيِّبُ .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرُزُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ<sup>٢</sup> وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ<sup>٣</sup> وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَنْ تُعَرِّضُوا بِخِطْبَةِ النِّسَاءِ فِي عِدَّتِهِنَّ ، مِنْ وَفَاةٍ أَرْوَاهُنَّ ، مِنْ غَيْرِ تَضْرِيحٍ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ قَالَ : التَّعْرِيفُ ، أَنْ يَقُولَ إِنِّي أُرِيدُ التَّزْوِيجَ ، إِنِّي أَحِبُّ امْرَأَةً مِنْ أَمْرِهَا وَمِنْ أَمْرِهَا ، يُعَرِّضُ لَهَا بِالْقَوْلِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : وَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ رَزَقَنِي امْرَأَةً وَنَحْوَ هَذَا ، وَلَا يَنْتَصِبُ لِلْخِطْبَةِ ، وَفِي رِوَايَةٍ : إِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ غَيْرِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوِودِدْتُ أَنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً صَالِحَةً ، وَلَا يَنْتَصِبُ لَهَا مَا دَامَتْ فِي عِدَّتِهَا .

وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ : فِي التَّعْرِيفِ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجُهَا مِنْ غَيْرِ تَضْرِيحٍ لَهَا بِالْخِطْبَةِ ، وَهَكَذَا حُكْمُ الْمُطَلَّاقَةِ الْمَبْتُوتَةِ يَجُوزُ التَّعْرِيفُ

لَهَا ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم ، وقال لها : « فإذا حلت فاذنيني »<sup>(١)</sup> فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه ، فزوجها إياه ، فأما المطلقة الرجعية فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ، ولا التعريض لها - والله أعلم - .

وقوله : ﴿ أَوْ أَكُنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي : أضمرتم في أنفسكم من خطبتن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [ الفصص : ٦٨ ] ، وكقوله : ﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ﴾ [ المتحنة : ١ ] ، ولهذا قال : ﴿ عِلْمُ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ ﴾ أي : في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ . يعني : الزنا ، واختاره ابن جرير ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ لا تقل لها إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ، ونحو هذا . وقيل : هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره ، وقال ابن زيد : ﴿ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا ﴾ هو أن يتزوجها في العدة سرا ، فإذا حلت أظهر ذلك ، وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ يعني به : ما تقدم من إباحة التعريض ، كقوله : إني فيك لراغب ونحو ذلك .  
وقوله : ﴿ وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ يعني ولا تعقدوا العقد بالنيكاح حتى تنقضي العدة .

وقد أجمع العلماء على أنه : لا يصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدها فدخل بها ، فإنه يفرق بينهما ، وهل تحرم عليه أبداً ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه ، بل له أن يحطبها إذا انقضت عدها .

وقوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ، ولم يقنطهم من عائدته ، فقال : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً  
وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى  
الْحَسَنِينَ ﴿٣٣﴾

أَبَاحَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَاقَ الْمَرْأَةِ بَعْدَ الْعَقْدِ عَلَيْهَا وَقَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا . وَالْمَسُّ :  
النِّكَاحُ ، بَلْ يَجُوزُ أَنْ يُطَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا ، وَالْفَرَضُ لَهَا إِنْ كَانَتْ مُفَوَّضَةً ،  
وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا انْكِسَارٌ لِقَلْبِهَا ، وَهَذَا أَمَرَ تَعَالَى بِامْتَاعِهَا ، وَهُوَ تَعْوِضُهَا عَمَّا فَاتَهَا  
بِسَبْيِ تَعْطَاهُ مِنْ زَوْجِهَا ، بِحَسَبِ حَالِهِ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ ، وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ .  
وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا هَلْ تَحِبُّ الْمُتَعَةُ لِكُلِّ مُطَلَّاقَةٍ أَوْ إِنَّمَا تَحِبُّ الْمُتَعَةُ لِغَيْرِ  
الْمُدْخُولِ بِهَا الَّتِي لَمْ يُفْرَضْ لَهَا ؟ عَلَى أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهَا تَحِبُّ الْمُتَعَةَ لِكُلِّ مُطَلَّاقَةٍ  
لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِلْمُطَلَّاقَاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وَلِقَوْلِهِ  
تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِأَزْوَاجِكِ إِنْ كُنْتِ تَرْضَيْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ  
أُمْتِعَنَّ وَأَسْرَحَنَّ سَرَاخًا جَمِيلًا ﴾ [ الأَحْزَابُ : ٢٨ ] ، وَقَدْ كُنَّ مَفْرُوضًا لَهُنَّ  
وَمَدْخُولًا بِهِنَّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّهَا تَحِبُّ لِلْمُطَلَّاقَةِ إِذَا طُلِّقَتْ قَبْلَ الْمَيْسِرِ وَإِنْ كَانَتْ مَفْرُوضًا  
لَهَا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ  
أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاخًا جَمِيلًا ﴾  
[ الأَحْزَابُ : ٤٩ ] ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْأَحْزَابِ  
الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ وَأَبِي أُسَيْدٍ  
أَنَّهَا قَالَا : تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُمَيْمَةَ بِنْتَ شُرْحَيْلٍ ، فَلَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ بَسَطَ يَدَهُ  
إِلَيْهَا ، فَكَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ ، فَأَمَرَ أَبَا أُسَيْدٍ أَنْ يُجَهِّزَهَا ، وَيَكْسُوَهَا ثَوْبَيْنِ أَرْزَقَيْنِ<sup>(١)</sup> .

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُتَعَةَ إِنَّمَا تَحِبُّ لِلْمُطَلَّاقَةِ إِذَا لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ، وَلَمْ يُفْرَضْ لَهَا ، فَإِنْ  
كَانَ قَدْ دَخَلَ بِهَا وَجَبَ لَهَا مَهْرٌ مِثْلِهَا ، إِذَا كَانَتْ مُفَوَّضَةً ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَضَ لَهَا ،  
وَطَلَّقَهَا قَبْلَ الدُّخُولِ ، وَجَبَ لَهَا عَلَيْهِ شَطْرُهُ ، فَإِنْ دَخَلَ بِهَا اسْتَقَرَّ الْجَمِيعُ ، وَكَانَ

(١) أخرجه البخاري معلقاً (حديث ٥٢٥٦، ٥٢٥٧)، وانظر البخاري أيضاً (٥٢٥٥).

ذَلِكَ عِوَضًا لَهَا عَنِ الْمُتَعَةِ ، وَإِنَّمَا الْمَصَابَةُ الَّتِي لَمْ يُفْرَضْ لَهَا ، وَلَمْ يَدْخُلْ بِهَا ، فَهَذِهِ الَّتِي دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى وُجُوبِ مُتَعَتِهَا ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ ، وَجِبَاهِدٍ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنِ اسْتَحَبَّهَا لِكُلِّ مُطْلَقَةٍ مِمَّنْ عَدَا الْمُؤَوَّضَةَ الْمُفَارِقَةَ قَبْلَ الدُّخُولِ ، وَهَذَا لَيْسَ بِمَنْكُورٍ ، وَعَلَيْهِ تُحْمَلُ آيَةُ التَّخْيِيرِ فِي الْأَحْزَابِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلَى الْاَلْوَسَعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْاَلْحَسَنِينَ ﴾ ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَقُولُ إِنَّهَا مُسْتَحَبَّةٌ مُطْلَقًا .

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧٧﴾

وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِهَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْأُولَى ، حَيْثُ إِنَّمَا أَوْجَبَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نِصْفَ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ إِذَا طَلَّقَ الزَّوْجُ قَبْلَ الدُّخُولِ ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ ثُمَّ وَاجِبٌ آخَرَ مِنْ مُتَعَةٍ لَبَيَّنَهَا لَا سِيَّامَا وَقَدْ قَرَّبَهَا بِهَا قَبْلَهَا مِنْ اخْتِصَاصِ الْمُتَعَةِ بِتِلْكَ الْآيَةِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - . وَتَشْطِيرُ الصَّدَاقِ وَالْحَالَةُ هَذِهِ ، أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ، لَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مَتَى كَانَ قَدْ سَمِيَ هَا صَدَاقًا ثُمَّ فَارَقَهَا قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا ، فَإِنَّهُ يَجِبُ لَهَا نِصْفُ مَا سَمِيَ مِنَ الصَّدَاقِ ، إِلَّا أَنَّ عِنْدَ الثَّلَاثَةِ : أَنَّهُ يَجِبُ جَمِيعُ الصَّدَاقِ إِذَا خَلَا بِهَا الزَّوْجُ ، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ، وَبِهِ حَكَمَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ أَي : النِّسَاءُ عَمَّا وَجَبَ لَهَا عَلَى زَوْجِهَا ، فَلَا يَجِبُ لَهَا عَلَيْهِ شَيْءٌ . ﴿ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ هُوَ : الزَّوْجُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ذَلِكَ أَبُوهَا أَوْ أَخُوهَا ، أَوْ مَنْ لَا تُنْكَحُ الزَّوْجَةُ إِلَّا بِإِذْنِهِ . ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : قَالَ بَعْضُهُمْ : حُوطِبَ بِهِ الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : أَقْرَبُهَا لِلتَّقْوَى الَّذِي يَعْفُو . وَقِيلَ : الْفَضْلُ هَاهُنَا أَنْ تَعْفُو الْمَرْأَةَ عَنْ شَطْرِهَا ، أَوْ إِتِمَامِ الرَّجُلِ الصَّدَاقَ لَهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أَي : الْإِحْسَانَ . وَقِيلَ : الْمَعْرُوفُ ،

يَعْنِي : لَا تَهْمَلُوهُ بَلِ اسْتَعْمَلُوهُ بَيْنَكُمْ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَي : لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِكُمْ ، وَأَحْوَالِكُمْ ، وَسَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرَجَلًا أَوْ زُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِالمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَحِفْظِ حُدُودِهَا ، وَأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « بِرِّ الوَالِدَيْنِ » قَالَ : حَدَّثَنِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي .

وَخَصَّ تَعَالَى مِنْ بَيْنَهَا بِمَزِيدِ التَّكْيِيدِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى ، وَقَدْ اخْتَلَفَ السَّلَفُ وَالْخَلْفُ فِيهَا ، أَيُّ صَلَاةٍ هِيَ ؟ فَقِيلَ : إِنَّهَا الصُّبْحُ . وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُحْتَجًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ، وَالْقُنُوتُ عِنْدَهُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هِيَ وَسْطَى بِاعْتِبَارِ أَنَّهَا لَا تُقْصَرُ ، وَهِيَ بَيْنَ صَلَاتَيْنِ رُبَاعِيَّتَيْنِ مَقْصُورَتَيْنِ ، وَتَرِدُ الْمَغْرِبَ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهَا بَيْنَ صَلَاتِي لَيْلِ جَهْرِيَّتَيْنِ ، وَصَلَاتِي نَهَارِ سِرِّيَّتَيْنِ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ . عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ : « شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى ، صَلَاةِ الْعَصْرِ ، مَلَأَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَيُوتِيهِمْ نَارًا »<sup>(٢)</sup> ثُمَّ صَلَّى بَيْنَ الْعِشَاءِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ ، وَحَدِيثُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ وَشَغَلَ الْمُشْرِكِينَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ عَنْ آدَاءِ صَلَاةِ الْعَصْرِ يَوْمَئِذٍ مَرْوِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ يَطُولُ ذِكْرُهُمْ<sup>(٣)</sup> ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ رِوَايَةٌ مِنْ نَصِّ مِنْهُمْ فِي رِوَايَتِهِ أَنَّ الصَّلَاةَ الْوُسْطَى هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٢٧)، ومسلم (حديث ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في طرق (حديث ٦٢٧).

(٣) انظر هذه الروايات في صحيح مسلم وغيره.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا « شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةَ الْعَصْرِ »<sup>(١)</sup> الْحَدِيثُ ، فَهَذِهِ نُصُوصٌ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا تَحْتَمِلُ شَيْئًا ، وَيُؤَكِّدُ ذَلِكَ الْأَمْرَ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا ، وَقَوْلُهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، فَكَأْتَهَا وَتَرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ »<sup>(٢)</sup> ، وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « بَكَرُوا بِالصَّلَاةِ فِي يَوْمِ الْعَيْمِ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ »<sup>(٣)</sup> .  
قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي شَأْنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى : وَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّهَا الْعَصْرُ فَتَعَيَّنَ الْمَصِيرُ إِلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ أَي : خَاشِعِينَ ، ذَلِيلِينَ ، مُسْتَكِينِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُسْتَلْزِمٌ تَرَكَ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ ، لِمُنَافَاتِهِ إِيَّاهَا ، وَهَذَا لِمَا اِمْتَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الرَّدِّ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ حِينَ سَلَّمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ ، اِعْتَدَرَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنْ فِي الصَّلَاةِ لَشَغْلًا »<sup>(٤)</sup> وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ حِينَ تَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ : « إِنْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هِيَ التَّسْبِيحُ ، وَالتَّكْبِيرُ ، وَذِكْرُ اللَّهِ »<sup>(٥)</sup> .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يُكَلِّمُ صَاحِبَهُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَاجَةِ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ<sup>(٦)</sup> .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الْبِصْلَوَاتِ ، وَالْقِيَامِ بِحُدُودِهَا ، وَشَدَّدَ الْأَمْرَ بِتَأْكِيدِهَا ، ذَكَرَ الْحَالِ الَّذِي يَسْتَعْمَلُ الشَّخْصُ فِيهَا عَنْ أَدَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ ، وَهِيَ حَالُ الْقِتَالِ ، وَالنِّحَامِ الْحَرْبِ ، فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ أَي : فَصَلُّوا عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ ، رِجَالًا ، أَوْ رُكْبَانًا يَعْنِي

(١) مسلم (حديث ٦٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٢) ، ومسلم (٦٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٥٣) .

(٤) أخرجه البخاري (حديث ١١٩٩) ، ومسلم (حديث ٥٣٨) .

(٥) مسلم (حديث ٥٣٧) .

(٦) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٣٤) ، ومسلم (حديث ٥٣٩) .



مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا ، كَمَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ : أَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ إِذَا سُئِلَ عَنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصَفَهَا ، ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ صَلَّوْا رِجَالًا عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، أَوْ رُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا قَالَ نَافِعٌ : لَا أَرَى عَبْدَ اللَّهِ ذَكَرَ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : فَإِنْ كَانَ خَوْفٌ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ فَصَلَّ رَاكِبًا ، أَوْ قَائِمًا تُومِيءُ إِيَّاهُ<sup>(٢)</sup> . وَعَلَى ذَلِكَ يُنْزَلُ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا ، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ أَي : أَقِيمُوا صَلَاتِكُمْ كَمَا أُمِرْتُمْ فَأَتَمُّوا رُكُوعَهَا ، وَسُجُودَهَا ، وَقِيَامَهَا ، وَقُعُودَهَا ، وَخُشُوعَهَا ، وَهُجُودَهَا ﴿ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : مِثْلَ مَا أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ، وَهَدَاكُمْ لِلْإِيْمَانِ ، وَعَلَّمَكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَابِلُوهُ بِالشُّكْرِ وَالذِّكْرِ ، كَقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ صَلَاةِ الْخَوْفِ ﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ [ النساء : ١٠٣ ] ، وَسَتَأْتِي الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ وَصِفَاتِهَا فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ [ النساء : ١٠٢ ]

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٤﴾ وَاللَّمْطَلَقَتْ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٦٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾

قَالَ الْأَكْثَرُونَ : هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ يَتَرَضَّنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ .

قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾

(١) أخرجه البخاري (مطولاً ٤٥٣٥) ، ومسلم (٨٣٩) .

(٢) عند مسلم عقب (٨٣٩) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٦٨٧) .

قَدْ نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى ، فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدَعُهَا ؟ قَالَ : يَا ابْنَ أَحْيَى لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ<sup>(١)</sup> وَمَعْنَى هَذَا الْإِشْكَالِ الَّذِي قَالَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ لِعُثْمَانَ : إِذَا كَانَ حُكْمُهَا قَدْ نُسِخَ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ ، فَمَا الْحِكْمَةُ فِي إِبْقَاءِ رَسْمِهَا مَعَ زَوَالِ حُكْمِهَا ، وَبِقَاءِ رَسْمِهَا بَعْدَ التِّي نَسَخْتَهَا يُؤْهِمُ بَقَاءَ حُكْمِهَا ؟ فَأَجَابَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ : بِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ تَوْقِيفِيٌّ ، وَأَنَا وَجَدْتُهَا مُثَبَّتَةً فِي الْمَصْحَفِ كَذَلِكَ بَعْدَهَا فَأَثْبَتْتُهَا حَيْثُ وَجَدْتُهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ ﴾ أَي : يُوصِيكُمُ اللهُ بِهِنَّ وَصِيَّةً كَقَوْلِهِ : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ ﴾ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا انْتَصَبَ عَلَى مَعْنَى فَلْتَوْصُوا بِهِنَّ وَصِيَّةً ، وَلَا يُمْنَعَنَّ مِنْ ذَلِكَ ، لِقَوْلِهِ ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ ، فَأَمَّا إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ بِالْأَرْبَعَةِ الْأَشْهُرِ وَالْعَشْرِ ، أَوْ بَوَاضِعِ الْحَمْلِ ، وَاخْتَرَنَ الْخُرُوجَ وَالْإِنْتِقَالَ مِنْ ذَلِكَ الْمَنْزِلِ فَأَيُّهُنَّ لَا يُمْنَعَنَّ مِنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهِذِهِ الْآيَةَ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ الْمُتَّعَةِ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ سِوَاءِ كَانَتْ مُفَوَّضَةً ، أَوْ مَفْرُوضًا لَهَا ، أَوْ مُطَلَّقَةً قَبْلَ الْمَيْسِيسِ ، أَوْ مَدْخُولًا بِهَا ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَإِلَيْهِ ذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَمَنْ لَمْ يُوجِبْهَا مُطَلَّقًا ، يُخَصِّصُ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ مَفْهُومَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرَضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرَهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وَأَجَابَ الْأَوَّلُونَ : بِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ ذِكْرِ بَعْضِ أَفْرَادِ الْعُمُومِ ، فَلَا تُخَصِّصُ عَلَى الْمَشْهُورِ الْمَنْصُوصِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴾ أَي : فِي إِحْلَالِهِ ، وَتَحْرِيمِهِ ، وَفُرُوضِهِ ، وَحُدُودِهِ ، فِيمَا أَمَرَكُمُ بِهِ وَنَهَاكُمُ عَنْهُ ، بَيْنَهُ ، وَوَضَحَهُ ، وَفَسَّرَهُ ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ مُجْمَلًا فِي وَقْتِ احْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أَي : تَفْهَمُونَ وَتَتَدَبَّرُونَ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ

اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٨﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قَالَ : كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الطَّاعُونَ ، قَالُوا : نَأْتِي أَرْضًا لَيْسَ بِهَا مَوْتٌ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِمَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ اللَّهُ لَهُمْ : ﴿ مُوتُوا ﴾ فَمَاتُوا ، فَمَرَّ عَلَيْهِمْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحْيِيَهُمْ ، فَأَحْيَاهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ الآية .

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ <sup>(١)</sup> : أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ كَانُوا أَهْلَ بَلَدَةٍ فِي زَمَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَوْحَمُوا أَرْضَهُمْ ، وَأَصَابَهُمْ بِهَا وَبَاءٌ شَدِيدٌ ، فَخَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ هَارِبِينَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ ، فَتَزَلُّوا وَادِيًا أَفِيحًا ، فَمَلَكُوا مَا بَيْنَ عُدُوتَيْهِ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ مَلَائِكِينَ ، أَحَدُهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي ، وَالْآخَرُ مِنْ أَعْلَاهُ ، فَصَاحَا بِهِمْ صَیْحَةً وَاحِدَةً ، فَمَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، مَوْتَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، فَحَبِزُوا إِلَى حَظَائِرِ ، وَبُنِيَ عَلَيْهِمْ جُدْرَانٌ ، وَفُنُوا ، وَتَمَرَّقُوا ، وَتَفَرَّقُوا ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ دَهْرٍ ، مَرَّ بِهِمْ نَبِيٌّ مِنَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ : حَزْقِيلُ ، فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُحْيِيَهُمْ عَلَى يَدَيْهِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ : أَيُّهَا الْعِظَامُ الْبَالِيَّةُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَجْتَمِعِي ، فَاجْتَمَعَ عِظَامُ كُلِّ جَسَدٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى : أَيُّهَا الْعِظَامُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِأَنْ تَكْتَسِبِي لَحْمًا وَعَصَبًا وَجِلْدًا ، فَكَانَ ذَلِكَ وَهُوَ يُشَاهِدُهُ ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَنَادَى : أَيُّهَا الْأَرْوَاحُ ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَرْجِعَ كُلُّ رُوحٍ إِلَى الْجَسَدِ الَّذِي كَانَتْ تَعْمُرُهُ ، فَقَامُوا أَحْيَاءَ يَنْظُرُونَ ، فَذَ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ بَعْدَ رَفْدَتِهِم الطَّوِيلَةَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : سُبْحَانَكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، وَكَانَ فِي إِحْيَائِهِمْ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ الْجُسْمَانِيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ أَيُّ : فِيمَا يُرِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ ،

(١) هذه الأخبار كما ترى غير مسنده إلى رسول الله ﷺ وأصحابه .

وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ ، وَالذَّلَالَاتِ الدَّامِغَةِ ، ﴿ وَلَيْكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾  
 أَي : لَا يَقُومُونَ بِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ .  
 وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عِبْرَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَنْ يُغْنِيَ حَذْرٌ مِنْ قَدْرِ ، وَأَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنْ  
 اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا فِرَارًا مِنَ الْوَبَاءِ طَلَبًا لِطُولِ الْحَيَاةِ ، فَعُومِلُوا  
 بِنَفِيضِ قَضِيهِمْ ، وَجَاءَهُمُ الْمَوْتُ سَرِيعًا فِي آتٍ وَاحِدٍ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ  
 الصَّحِيحُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ ، حَتَّى إِذَا  
 كَانَ بِسَرِغَ لَقِيَهُ أَمْرَاءُ الْأَجْنَادِ ، أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ  
 قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، فَجَاءَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا لِبَعْضِ  
 حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا كَانَ  
 بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا ، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ ، فَلَا تَقْدُمُوا عَلَيْهِ »  
 فَحَمِدَ اللَّهُ عُمَرَ ثُمَّ أَنْصَرَفَ <sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : كَمَا أَنَّ الْحَذْرَ لَا  
 يُغْنِي مِنَ الْقَدْرِ ، كَذَلِكَ الْفِرَارُ مِنَ الْجِهَادِ ، وَتَجَنُّبُهُ لَا يُقَرِّبُ أَجَلًا ، وَلَا يُبْعِدُهُ ، بَلِ  
 الْأَجَلُ الْمَحْتُمُ ، وَالرِّزْقُ الْمَقْسُومُ مُقَدَّرٌ مُقَنَّ ، لَا يَزَادُ فِيهِ ، وَلَا يُنْقُصُ مِنْهُ ، كَمَا  
 قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَن  
 أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [ آل عمران : ١٦٨ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا  
 لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ  
 لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تظَلْمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ  
 مُشِيدَةٍ ﴾ [ النساء : ٧٧-٧٨ ] ، وَرَوَيْنَا عَنْ أَمِيرِ الْجَيْوشِ ، وَمُقَدِّمِ الْعَسَاكِرِ ، وَحَامِي  
 حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ ، وَسَيْفِ اللَّهِ الْمَسْلُوبِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، أَبِي سُلَيْمَانَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ رضي الله عنه  
 أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ : لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِفًا ، وَمَا مِنْ عَضْوٍ مِنْ  
 أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمِيَّةٌ ، أَوْ طَعْنَةٌ ، أَوْ ضَرْبَةٌ ، وَهَذَا أَنَا ذَا أَمُوتٍ عَلَى فِرَاشِي كَمَا  
 يَمُوتُ الْعَيْرُ - فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبْنَاءِ - يَعْنِي أَنَّهُ يَتَأَلَّمُ لِكَوْنِهِ مَا مَاتَ قَتِيلًا فِي الْحَرْبِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٧٢٩) ، ومسلم (٢٢١٩) .

وَيَتَأَسَّفُ عَلَى ذَلِكَ ، وَيَتَأَلَّمُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾  
يُحِثُّ تَعَالَى عِبَادَهُ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَدْ كَرَّرَ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ  
فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَفِي حَدِيثِ النَّزُولِ : « مَن يُقْرِضْ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ » .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا  
فَيُضَعِفُهُ لَهُ ﴾ قَالَ أَبُو الدَّحْدَاحِ الْأَنْصَارِيُّ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيُرِيدُ مِنَّا  
الْقَرْضَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ يَا أَبَا الدَّحْدَاحِ » قَالَ أَرِنِي يَدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : فَتَأَوَّلُهُ  
يَدُهُ ، قَالَ : فَإِنِّي قَدْ أَقْرَضْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ حَائِطِي قَالَ : وَحَائِطُ لَهُ فِيهِ سِتْمِائَةُ نَخْلَةٍ ، وَأُمُّ  
الدَّحْدَاحِ فِيهِ وَعِيَالُهَا ، قَالَ : فَجَاءَ أَبُو الدَّحْدَاحِ فَنَادَاهَا : يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ ، قَالَتْ :  
لَبَيْكَ ، قَالَ : أَخْرُجِي ، فَقَدْ أَقْرَضْتَهُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قِيلَ : هُوَ النَّفَقَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : هُوَ النَّفَقَةُ عَلَى  
الْعِيَالِ ، وَقِيلَ : هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّقْدِيرُ ، ﴿ فَيُضَعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُبْذِرُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ  
فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ الْآيَةَ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ ﴾ أَي : أَنْفَقُوا ، وَلَا تُبَالُوا ، فَاللَّهُ هُوَ الرَّزَّاقُ  
يُضِيقُ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فِي الرِّزْقِ ، وَيُوسِّعُهُ عَلَى آخَرِينَ ، لَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ  
فِي ذَلِكَ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءُوا إِسْرَاءَ إِذْ قَالَوا لِنَبِيِّهِمْ هُمْ أَرْبَعَةٌ  
لَنَا مَلِكًا نُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ  
أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا  
وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا  
قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةً مِّنْ

الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أَيُّ : لَمَّا طَلَبُوا مِنْ نَبِيِّهِمْ أَنْ يُعَيِّنَ لَهُمْ مَلِكًا مِنْهُمْ فَعَيَّنَ لَهُمْ طَالُوتَ ، وَكَانَ رَجُلًا مِنْ أَجْنَادِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ فِيهِمْ ﴿ أُنِّي يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا ﴾ أَيُّ : كَيْفَ يَكُونُ مَلِكًا عَلَيْنَا ؟ ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ أَيُّ : ثُمَّ هُوَ مَعَ هَذَا فَقِيرٌ لَا مَالَ لَهُ يَقُومُ بِالْمَلِكِ ، وَهَذَا اعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَتَعَنَّتْ ، وَكَانَ الْأَوْلَى بِهِمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، ثُمَّ قَدْ أَجَابَهُمُ النَّبِيُّ قَائِلًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : اخْتَارَهُ لَكُمْ مِنْ بَيْنِكُمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكُمْ ، يَقُولُ : لَسْتُ أَنَا الَّذِي عَيَّنْتُهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ، بَلِ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِ ، لَمَّا طَلَبْتُمْ مِنِّي ذَلِكَ ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ أَيُّ : وَهُوَ مَعَ هَذَا أَعْلَمُ مِنْكُمْ وَأَنْبَلُ ، وَأَشْكَلُ مِنْكُمْ ، وَأَشَدُّ قُوَّةً ، وَصَبْرًا فِي الْحَرْبِ ، وَمَعْرِفَةٌ فِيهَا ، أَيُّ : أَنْتُمْ عَلِمَاءُ وَقَامَةٌ مِنْكُمْ ، وَمِنْ هَاهُنَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْمَلِكُ ذَا عِلْمٍ ، وَشَكْلٍ حَسَنٍ ، وَقُوَّةٍ شَدِيدَةٍ فِي بَدَنِهِ وَنَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَن يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْحَاكِمُ الَّذِي مَا شَاءَ فَعَلَ ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ ، لِعِلْمِهِ ، وَحِكْمَتِهِ ، وَرَأْفَتِهِ بِخَلْقِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ، عَلِيمٌ بِمَن يَسْتَحِقُّ الْمَلِكَ ، مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

يَقُولُ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ عِلْمَهُ بَرَكَةٌ مُلْكٌ طَالُوتَ عَلَيْكُمْ ، أَنْ يُرَدَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ التَّابُوتَ الَّذِي كَانَ آخِذًا مِنْكُمْ ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ، قِيلَ : مَعْنَاهُ فِيهِ وَقَارٌ وَجَلَالَةٌ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَالُ هَارُونَ ﴾ . عَصَاهُ وَرُضَاصُ الْأَلْوَابِ . وَقِيلَ : يَعْنِي عَصَا مُوسَى ، وَعَصَا هَارُونَ ، وَلَوْحَيْنِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْمَنِّ ، ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ : جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ تَحْمِلُ التَّابُوتَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى وَضَعَتْهُ بَيْنَ

يَدِّي طَالُوتَ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ ﴾ أَي : عَلَى صِدْقٍ فِيمَا جِئْتُمْ بِهِ مِنَ النُّبُوَّةِ  
وَفِيمَا أَمَرْتُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ طَالُوتَ ﴿ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ  
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا  
مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا  
الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَم مِّن  
فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ طَالُوتَ مَلِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حِينَ خَرَجَ فِي جُنُودِهِ ، وَمَنْ  
أَطَاعَهُ مِنْ مَلَائِكَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ ﴾ أَي : مُخْتَبِرِكُمْ بِنَهَرٍ  
﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أَي : فَلَا يَصْحَبُنِي الْيَوْمَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ﴿ وَمَنْ لَمْ  
يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ أَي : فَلَا بَأْسَ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :  
﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَتَحَدَّثُ أَنْ عِدَّةَ  
أَصْحَابِ بَدْرِ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهْرَ ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ  
إِلَّا مَوْمِنٌ بَضْعَةُ عَشْرٍ وَثَلَاثُمِائَةٍ<sup>(١)</sup> ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ أَي : اسْتَقَلُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ  
لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ فَشَجَعَهُمْ عَلَمَاؤُهُمُ الْعَالَمُونَ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَإِنَّ النَّصْرَ  
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَيْسَ عَنْ كَثْرَةِ عَدَدٍ وَلَا عِدَّةٍ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ  
غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا  
وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦١٥﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ

جَالُوتَ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ  
بِعَضِّهِمْ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾  
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٢﴾

أَيُّ : لَمَّا وَاجَهَ حِزْبُ الْإِيمَانِ وَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ أَصْحَابِ طَالُوتَ ، لِعُدُوِّهِمْ  
أَصْحَابِ جَالُوتَ وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ أَيُّ : أَنْزَلَ عَلَيْنَا  
صَبْرًا مِنْ عِنْدِكَ ﴿ وَثَبَّتْ أقدامَنَا ﴾ أَيُّ : فِي لِقَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَجَنَّبَنَا الْفِرَارَ وَالْعَجْزَ  
﴿ وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾  
أَيُّ : غَلَبُوهُمْ وَقَهَرُوهُمْ بِنَصْرِ اللَّهِ هُمْ ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ ثُمَّ آلَ الْمَلِكُ إِلَى  
دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ مَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ وَهَذَا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ الَّذِي كَانَ بِيَدِ طَالُوتَ ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أَيُّ :  
النَّبُوَّةُ ﴿ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : مِمَّا يَشَاءُ اللَّهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِهِ ﷺ .  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضِّهِمْ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ أَيُّ :  
لَوْلَا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنْ قَوْمٍ بِآخِرِينَ ، كَمَا دَفَعَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمُقَاتَلَةِ طَالُوتَ  
وَشَجَاعَةِ دَاوُدَ لَهْلُكُوا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بِعَضِّهِمْ لَفَسَدَتِ  
الْأَرْضُ ﴾ [الحج : ٤٠] هُدِمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أَيُّ : مَنْ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَةٌ بِهِمْ  
يَدْفَعُ عَنْهُ بِيَعُضِّهِمْ بَعْضًا وَلَهُ الْحُكْمُ ، وَالْحِكْمَةُ ، وَالْحُجَّةُ عَلَى خَلْقِهِ ، فِي جَمِيعِ  
أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ  
الْمُرْسَلِينَ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ الَّتِي فَصَّصْنَاهَا عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِ الَّذِينَ ذَكَرْنَاهُمْ  
بِالْحَقِّ أَيُّ : بِالْوَاقِعِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الْمُطَابِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ  
الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أَيُّ : يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ،  
وَهَذَا تَوْكِيدٌ وَتَوْطِئَةٌ لِلتَّقْسِمِ .

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ



دَرَجَاتٍ وَعَآئِنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيْنَتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَن ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٠٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَى بَعْضٍ وَعَآئِنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿تَلَكِ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ يَعْنِي: مُوسَى وَمُحَمَّدًا ﷺ وَكَذَلِكَ آدَمَ ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ حِينَ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ الْأَنْبِيَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ بِحَسَبِ تَفَاوُتِ مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(١)</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ فِي قَسَمٍ يُقْسِمُهُ: لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ فَلَطَمَ بِهَا وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَقَالَ: أَيُّ خَيْثُ، وَعَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَجَاءَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاشْتَكَى عَلَى الْمُسْلِمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِقَائِمَةِ الْعَرْشِ، فَلَا أَذْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِي بِصَعْقَةِ الطَّوْرِ؟ فَلَا تُفْضَلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ» وَفِي رِوَايَةٍ «لَا تُفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ».

فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهِهِ: أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِالتَّفْضِيلِ وَفِي هَذَا نَظَرٌ. الثَّانِي: أَنَّ هَذَا قَالَهُ مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ.

الثَّلَاثُ: أَنَّ هَذَا نَهَى عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَحَاكَمُوا فِيهَا عِنْدَ الشَّجَرِ الرَّابِعُ: لَا تُفْضَلُوا بِمُجَرَّدِ الْأَرَءِ وَالْعَصَبِيَّةِ.

الخَامِسُ: لَيْسَ مَقَامُ التَّفْضِيلِ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَعَلَيْكُمْ الْإِنْقِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ وَالإِيَانُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَآئِنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ أَيُّ: الْحُجَجِ، وَالدَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ،

عَلَى صِحَّةٍ مَا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ﴿ وَأَيَّدَنَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ أَيَّدَهُ بِجِبْرِيلَ عليه السلام ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا ﴾ أَي : كُلُّ ذَلِكَ عَنْ قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠١﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ فِي سَبِيلِهِ ، سَبِيلِ الْخَيْرِ ، لِيَدَّخِرُوا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَلَائِكِهِمْ ، وَلِيُبَادِرُوا إِلَى ذَلِكَ ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ﴾ أَي : لَا يُبَاعُ أَحَدٌ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُفَادَى بِمَالٍ لَوْ بَدَلَهُ وَلَوْ جَاءَ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، وَلَا تَنْفَعُهُ خُلَّةٌ أَحَدٌ ، يَعْنِي صِدَاقَتُهُ ، بَلْ وَلَا نَسَابَتُهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [ المؤمنون : ١٠١ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا شَفْعَةٌ ﴾ أَي : وَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ، ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ مُبْتَدَأٌ مَحْضُورٌ فِي خَبَرِهِ ، أَي : وَلَا ظَالِمٌ أَظْلَمَ مِمَّنْ وَاقَى اللَّهُ يَوْمَئِذٍ كَافِرًا .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٠٢﴾

هَذِهِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَلَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهَا أَفْضَلُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ . عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَأَلَهُ : أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، ثُمَّ قَالَ : آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، قَالَ : « لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا

الْمُنذِرِ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتَهُ وَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاَجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ ، قَالَ : فَخَلَيْتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، شَكَا حَاجَةَ شَدِيدَةً ، وَعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ ، وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ ، وَسَيَعُودُ » فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ سَيَعُودُ ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَخْتُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاَجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، لَا أَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ وَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةَ ، وَعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : « أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ ، وَسَيَعُودُ » فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ ، فَجَاءَ يَخْتُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فَقُلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ ، أَنْكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ، ثُمَّ تَعُودُ ، فَقَالَ : دَعْنِي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا ، قُلْتُ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا ، فَخَلَيْتُ سَبِيلَهُ ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ وَقَالَ لِي : لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، وَكَأَنُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْحَيْرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَمَا إِنَّهُ صَدَقَكَ ، وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ مَخَاطِبُ مُدَّ ثَلَاثَ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : « ذَاكَ شَيْطَانٌ »<sup>(٢)</sup>.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى عَشْرِ جُمَلٍ مُسْتَقِلَّةٍ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إِخْبَارٌ

(١) أخرجه مسلم (٨١٠) .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً (٢٣١١) .

بِأَنَّهُ الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ ﴿ أَلْحَى الْقَيُّومُ ﴾ أَي : الْحَيِّ فِي نَفْسِهِ ، الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا ، الْقَيِّمُ لِعَيْرِهِ ، وَكَانَ عُمُرُ يَفْرَأُ الْقِيَامَ ، فَجَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا ، وَلَا قِيَامَ لَهَا بِدُونِ أَمْرِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ أَي : لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ ، وَلَا غَفْلَةٌ ، وَلَا ذَهْوُلٌ عَنِ خَلْقِهِ ، بَلْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، شَهِيدٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَمِنْ تَمَامِ الْقَيُّومِيَّةِ ، أَنَّهُ لَا يَعْتَرِيهِ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ، فَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ ﴾ أَي : لَا تَغْلِبُهُ سِنَّةٌ وَهِيَ : الْوَسْنُ وَالنُّعَاسُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا نَوْمٌ ﴾ لِأَنَّهُ أَقْوَى مِنَ السَّنَةِ ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ ، قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، أَوْ النَّارُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ إِنْجَابًا بِأَنَّ الْجَمِيعَ عَيْدُهُ ، وَفِي مُلْكِهِ ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ ، وَسُلْطَانِهِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٦﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿١٧﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [ مريم : ٩٣ - ٩٥ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [ النجم : ٢٦ ] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْتَضَى ﴾ ، وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ ﷻ ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسَرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : « آتَى تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرَجَ سَاجِدًا ، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ، ثُمَّ يُقَالُ : اِرْزُقْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ تُسْمَعُ ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ، قَالَ : فَيَحْدُ لِي حَدًّا ، فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ » (٢) .

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٧٩) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٧٥١٠) ، ومسلم (حديث ١٩٣) .

وَقَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، مَاضِيهَا ، وَحَاضِرَهَا وَمُسْتَقْبَلِهَا ، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَي: لَا يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ ﷻ ، وَأَطَّلَعَهُ عَلَيْهِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ لَا يُطَّلِعُونَ أَحَدًا عَلَى شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، إِلَّا بِمَا أَطَّلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ عِلْمُهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ: الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُعْودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ أَي: لَا يُثْقَلُهُ ، وَلَا يَكْتَرِبُهُ ، حِفْظُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ فِيهِمَا ، وَمَنْ بَيْنَهُمَا ، بَلْ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، يَسِيرٌ لَدَيْهِ ، وَهُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، الرَّقِيبُ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، فَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا حَقِيرَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مُتَوَاضِعَةٌ ذَلِيلَةٌ صَغِيرَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ ، مُتَحَاجَةٌ فَاقِرَةٌ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، الْمَعَالِمُ لِمَا يُرِيدُ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَهُوَ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْحَسِيبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الرَّقِيبُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، فَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ، كَقَوْلِهِ: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ ، الْأَجُودِ فِيهَا طَرِيقَةُ السَّلَفِ الصَّالِحِ: أَمْرُهَا كَمَا جَاءَتْ ، مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ ، وَلَا تَشْبِيهِ .

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أَي: لَا تُكْرَهُوا أَحَدًا عَلَى الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ بَيِّنٌ وَاضِحٌ جَلِيٌّ دَلِيلٌ وَبَرَاهِينُهُ ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُكْرَهَ أَحَدًا عَلَى

(١) والقائلون بأن الكرسي موضع القدمين هم الأكثرون .

الدُّخُولِ فِيهِ ، بَلْ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَشَرَحَ صَدْرَهُ ، وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ ، دَخَلَ فِيهِ عَلَى بَيْتِهِ ، وَمَنْ أَعْمَى اللَّهُ قَلْبَهُ ، وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُفِيدُهُ الدُّخُولُ فِي الدِّينِ مُكْرَهَا مَقْسُورًا .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (١) : كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَكُونُ مِقْلَاةً (٢) ، فَتَجْعَلُ عَلَى نَفْسِهَا إِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ ، أَنْ تَهُودَهُ ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ ، كَانَ فِيهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ ، فَقَالُوا : لَا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ .

وَقَدْ ذَهَبَ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ هَذِهِ مُحْمُولَةٌ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي دِينِهِمْ قَبْلَ النَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ ، إِذَا بَدَلُوا الْجُزْيَةَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ هِيَ مَسْخُوحَةٌ بِأَيَّةِ الْقِتَالِ ، وَأَنَّهُ يُجِبُّ أَنْ يُدْعَى جَمِيعُ الْأُمَّمِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ الْحَنِيفِ دِينَ الْإِسْلَامِ ، فَإِنْ أَبِي أَحَدٌ مِنْهُمْ الدُّخُولَ ، وَلَمْ يَنْقُدْ لَهُ ، أَوْ يَبْدُلِ الْجُزْيَةَ ، قُوتِلَ حَتَّى يُقْتَلَ ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿ لَا إِكْرَاهَ ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَ مِنْهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ [ الفتح : ١٦ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [ التوبة : ٧٣ ] ، وَفِي الصَّحِيحِ : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ ، يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ » (٣) يَعْنِي : الْأَسَارَى الَّذِينَ يُقَدَّمُ بِهِمْ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فِي الْوَثَائِقِ ، وَالْأَغْلَالِ ، وَالْقَيْودِ ، وَالْأَكْبَالِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُسْلِمُونَ وَتَصْلُحُ أَعْمَالُهُمْ ، وَسَرَائِرُهُمْ ، فَيَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَي : مَنْ خَلَعَ الْأَنْدَادَ ، وَالْأَوْثَانَ ، وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَوَحَدَ اللَّهُ ، فَعَبَدَهُ وَحْدَهُ ، وَشَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ أَي : فَقَدِ ثَبَتَ فِي أَمْرِهِ وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ .

وَالْقَوْلُ فِي الطَّاغُوتِ : « إِنَّهُ الشَّيْطَانُ » قَوِيٌّ جِدًّا ، فَإِنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ شَرٍّ كَانَ عَلَيْهِ

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - (٥٨١٢) .

(٢) المقلاة : هي التي لا يعيش لها ولد .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٠١٠) بنحوه .

أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا ، وَالِاسْتِنصَارِ بِهَا .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ أَي : فَقَدِ اسْتَمْسَكَ مِنَ  
 الدِّينِ بِأَقْوَى سَبَبٍ ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي لَا تَنْفِصُمُ ، فَهِيَ فِي نَفْسِهَا  
 مُحْكَمَةٌ مُبْرَمَةٌ قَوِيَّةٌ ، وَرَبَطُهَا قَوِيٌّ شَدِيدٌ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ  
 الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ الآية . قِيلَ : العُرْوَةُ الْوُثْقَى يَعْنِي : الإِيمَانُ ، وَقِيلَ : هُوَ  
 الإِسْلَامُ ، وَقِيلَ : يَعْنِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَقِيلَ : العُرْوَةُ الْوُثْقَى : الْقُرْآنُ ، وَقِيلَ : هُوَ  
 الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ وَلَا تَنَافِي بَيْنَهَا ، وَقَالَ  
 بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ أَي : لَا انْقِطَاعَ لَهَا دُونَ دُخُولِ الْجَنَّةِ .

عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ : كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ ،  
 فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ أَوْجَزَ فِيهِمَا ، فَقَالَ الْقَوْمُ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا خَرَجَ اتَّبَعْتُهُ  
 حَتَّى دَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ ، فَحَدَّثَنِي ، فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ ، قُلْتُ لَهُ : إِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا  
 دَخَلَتِ الْمَسْجِدَ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لَا  
 يَعْلَمُ ، وَسَأَحَدُكَ لَمْ : إِنِّي رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ ، رَأَيْتُ  
 كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ ، فَذَكَرَ مِنْ خُضْرَتِهَا وَسَعَتِهَا - وَفِي وَسَطِهَا  
 عَمُودٌ حَدِيدٌ أَسْفَلُهُ فِي الْأَرْضِ ، وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ ، فَقِيلَ لِي : إِضْعُدْ  
 عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ ، فَجَاءَنِي مُنْصِيفٌ - قَالَ ابْنُ عَوْنٍ هُوَ الْوَصِيفُ - فَرَفَعَ  
 ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي ، فَقَالَ : إِضْعُدْ ، فَضَعَدْتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ ، فَقَالَ : اسْتَمْسَكَ  
 بِالْعُرْوَةِ ، فَاسْتَيْقِظْتُ ، وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ ، فَقَالَ :  
 (( أَمَّا الرَّوْضَةُ فَرَوْضَةُ الإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْعَمُودُ فَعَمُودُ الإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْعُرْوَةُ فَهِيَ  
 الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى ، أَنْتَ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ )) (١) .

وَعَنْ خُرَشَةَ بْنِ الْحُرِّ قَالَ (٢) : قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ فَجَلَسْتُ إِلَى مَشِيخَةٍ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ  
 ﷺ فَجَاءَ شَيْخٌ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا لَهُ ، فَقَالَ الْقَوْمُ : مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ  
 الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا ، فَقَامَ خَلْفَ سَارِيَةِ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، فَقُلْتُ لَهُ : قَالَ بَعْضُ

(١) أخرجه البخاري (٣٨١٣) ، ومسلم (٢٤٨٤) .

(٢) أخرجه مسلم (عقب حديث ٢٤٨٤) .

الْقَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ : الْجَنَّةُ لِلَّهِ يُدْخِلُهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَإِنِّي رَأَيْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رُؤْيَا كَانَ رَجُلًا أَتَانِي فَقَالَ انْطَلِقْ ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَسَلَكَ بِي مِنْهَجًا عَظِيمًا ، فَعَرَضْتُ لِي طَرِيقٌ عَنْ يَسَارِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَسْلُكَهَا فَقَالَ : إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا ، ثُمَّ عَرَضْتُ لِي طَرِيقٌ عَنْ يَمِينِي فَسَلَكَتُهَا ، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى جَبَلٍ زَلِقٍ فَأَخَذَ بِيَدَيَّ فَدَحَا بِي ، فَإِذَا أَنَا عَلَى ذُرْوَتِهِ فَلَمْ أَتَقَارَّ وَلَمْ أَتَمَسَّكَ ، فَإِذَا عَمُودٌ حَدِيدٌ فِي ذُرْوَتِهِ حَلْقَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَأَخَذَ بِيَدَيَّ ، فَدَحَا بِي حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقَالَ : اسْتَمْسِكْ ، فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَضَرَبَ الْعَمُودَ بِرِجْلِهِ فَاسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ فَكَصَصْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : «رَأَيْتُ خَيْرًا ، أَمَّا الْمَنْهَجُ الْعَظِيمُ فَالْمَحْشَرُ ، وَأَمَّا الطَّرِيقُ الَّتِي عَرَضْتُ عَنْ يَسَارِكَ فَطَرِيقُ أَهْلِ النَّارِ ، وَلَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا ، وَأَمَّا الطَّرِيقُ الَّتِي عَرَضْتُ عَنْ يَمِينِكَ فَطَرِيقُ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الْجَبَلُ الزَّلِقُ فَمَنْزِلُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَمَّا الْعُرْوَةُ الَّتِي اسْتَمْسَكْتَ بِهَا فَعُرْوَةُ الْإِسْلَامِ ، فَاسْتَمْسِكْ بِهَا حَتَّى تَمُوتَ » قَالَ : فَإِنَّمَا أَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . قَالَ : وَإِذَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى أَنَّهُ يَهْدِي مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ فَيُخْرِجُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشُّكِّ وَالرَّيْبِ ، إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ الْمُبِينِ السَّهْلِ الْمُنِيرِ ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ إِنَّمَا وَلِيُّهُمْ الشَّيْطَانُ ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْجَهَالَاتِ وَالضَّلَالَاتِ ، وَيُخْرِجُونَهُمْ ، وَيَحِيدُونَ بِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ إِلَى الْكُفْرِ وَالْإِفْكَ ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وَهَذَا وَحَدَّ تَعَالَى لَفْظِ النُّورِ وَجَمَعَ الظُّلُمَاتِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ ، وَالْكَفْرَ أَجْنَاسٌ كَثِيرَةٌ ، وَكُلُّهَا بَاطِلَةٌ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَلَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [ الأنعام : ١٥٣ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِي لَفْظِهَا إِشْعَارُ



بِتَفَرُّدِ الْحَقِّ ، وَانْتِشَارِ الْبَاطِلِ ، وَتَفَرُّدِهِ وَتَشَعُّبِهِ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ  
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ  
فإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي  
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أَي : بِقَلْبِكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾  
أَي : وَجُودِ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ ثَمَّ إِلَهٌ غَيْرُهُ ، كَمَا قَالَ بَعْدَهُ فِرْعَوْنُ لِمَلِكِهِ  
﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [الفصل : ٣٨] ، وَمَا حَمَلَهُ عَلَى هَذَا الطُّغْيَانِ ،  
وَالْكُفْرِ الْعَلِيظِ ، وَالْمَعَانِدَةِ الشَّدِيدَةِ ، إِلَّا تَجَبُّرُهُ وَطُولُ مُدَّتِهِ فِي الْمُلْكِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ  
يُقَالُ إِنَّهُ مَكَثَ أَرْبَعِمِائَةَ سَنَةٍ فِي مُلْكِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ ءَاتَهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ ، وَكَانَ  
طَلَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ دَلِيلًا عَلَى وَجُودِ الرَّبِّ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿ رَبِّي  
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَي : إِنَّمَا الدَّلِيلُ عَلَى وَجُودِهِ حُدُوثُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، الْمَشَاهِدَةُ  
بَعْدَ عَدَمِهَا ، وَعَدَمُهَا بَعْدَ وَجُودِهَا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى وَجُودِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ ضَرُورَةً ،  
لَأَنَّهَا لَمْ تَحْدُثْ بِنَفْسِهَا ، فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مُوجِدٍ أَوْجَدَهَا ، وَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي أَدْعُو إِلَى  
عِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ الْمُحَاجُّ وَهُوَ النُّمْرُودُ : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ .  
وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ مَا أَرَادَ هَذَا لِأَنَّهُ لَيْسَ جَوَابًا لِمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ، وَلَا فِي  
مَعْنَاهُ ، لِأَنَّهُ مَانِعٌ لَوْجُودِ الصَّانِعِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَقَامَ عِنَادًا  
وَمُكَابَرَةً ، وَيُوهِمُ أَنَّهُ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، كَمَا اقْتَدَى بِهِ  
فِرْعَوْنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ ، وَهَذَا قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا  
إِدَّعَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾  
أَي : إِذَا كُنْتَ كَمَا تَدَّعِي مِنْ أَنَّكَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَالَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ هُوَ الَّذِي  
يَتَصَرَّفُ فِي الْوُجُودِ ، فِي خَلْقِ ذَوَاتِهِ ، وَتَسْخِيرِ كَوَاكِبِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، فَهَذِهِ الشَّمْسُ  
تَبْدُو كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَإِنْ كُنْتَ إِلهًا كَمَا ادَّعَيْتَ تُحْيِي وَتُمِيتُ فَأْتِ بِهَا مِنْ

المغرب؟ فلما علم عجزه، وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت، أي: أحرص، فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة.

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: لا يُلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد. وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني، انتقل من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة رديئة وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبين بطلان ما ادعاه مُروذ في الأول والثاني، والله الحمد والمنة.

أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴿٧١﴾

تقدم قوله تعالى: ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه؟ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿ أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ﴾ اختلفوا في هذا المار من هو؟ فقيل: هو عزيز. وهذا القول هو المشهور. وقال آخرون: هو رجل من بني إسرائيل، وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس، مرَّ عليها بعد تحريب بختنصر لها، وقتل أهلها ﴿ وهي خاوية ﴾ أي: ليس فيها أحد، من قولهم خوت الدار نخوي خويًا. ﴿ على عروشها ﴾ أي: ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتهما، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه، بعد العماراة العظيمة، ﴿ قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ وذلك لما رأى من دثورها، وشدة خرابها، وبعدها عن العودة إلى ما كانت عليه، قال الله

تَعَالَى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ قَالَ وَعُمِّرَتِ الْبَلَدَةُ بَعْدَ مُضِيِّ سَبْعِينَ سَنَةً مِنْ مَوْتِهِ ، وَتَكَامَلُ سَاكِنُوهَا ، وَتَرَاجَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ ﷻ بَعْدَ مَوْتِهِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ أَحْيَا اللَّهُ فِيهِ عَيْنِيهِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا إِلَى صُنْعِ اللَّهِ فِيهِ ، كَيْفَ يُحْيِي بَدَنَهُ ، فَلَمَّا اسْتَقَلَّ سَوِيًّا ، قَالَ اللَّهُ لَهُ : أَيُّ بَوَاسِطَةِ الْمَلِكِ ﴿ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قَالَ : وَذَلِكَ أَنَّهُ مَاتَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي آخِرِ النَّهَارِ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَاقِيَةً ظَنَّ أَنَّهَا شَمْسُ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَقَالَ : ﴿ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُ فِيمَا ذَكَرَ عِنَبٌ وَتِينٌ وَعَصِيرٌ ، فَوَجَدَهُ كَمَا تَقَدَّمَ لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ ، لَا الْعَصِيرُ اسْتَحَالَ ، وَلَا التِّينُ حُمُضٌ وَلَا أَتْنَنٌ ، وَلَا الْعِنَبُ نَقْصٌ ﴿ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ ﴾ أَيُّ : كَيْفَ يُحْيِيهِ اللَّهُ ﷻ وَأَنْتَ تَنْظُرُ ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ أَيُّ : دَلِيلًا عَلَى الْمَعَادِ ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ﴾ أَيُّ : نَرْفَعُهَا فَيَرْكَبُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾

ذَكَرُوا لِسُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ أَسْبَابًا ، مِنْهَا : أَنَّهُ لَمَّا قَالَ لِنُورِدَ : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أَحَبَّ أَنْ يَتَرَقَّى مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ بِذَلِكَ ، إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ وَأَنْ يَرَى ذَلِكَ مُشَاهِدَةً ، فَقَالَ : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَحْنُ أَحَقُّ بِالشُّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ قَالَ : رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ، قَالَ : أُولِمُ تُوْمِنُ ؟ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » (١) ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ هَاهُنَا بِالشُّكِّ مَا قَدْ يَفْهَمُهُ مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ بِلَا خِلَافٍ ، وَقَدْ أُجِيبَ عَنْ

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ، ومسلم (١٥١) .

هَذَا الْحَدِيثُ بِأَجْوِبَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَي : وَقَطَّعَهُنَّ ، وَقِيلَ : ﴿ فَصْرَهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أَوْثَقَهُنَّ ، فَلَمَّا أَوْثَقَهُنَّ ذَبَحَهُنَّ ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُوَهُنَّ فَدَعَاهُنَّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ﷻ فَآتَوْنَ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ ثُمَّ أَدْعُوهُنَّ يَا تَيْنَكَ سَعِيًّا ﴿ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَي : عَزِيزٌ لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ ، حَكِيمٌ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَشَرَعِهِ وَقَدْرِهِ .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٦﴾

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِمَنْ أَنْفَقَ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، وَإِنَّ الْحَسَنَةَ تُضَاعَفُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، فَقَالَ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : يَعْنِي فِي طَاعَةِ اللَّهِ ، وَقَالَ مَكْحُولٌ : يَعْنِي بِهِ الْإِنْفَاقُ فِي الْجِهَادِ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ، وَإِعْدَادِ السَّلَاحِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَهَذَا الْمَثَلُ أْبْلَغُ فِي النَّفُوسِ مِنْ ذِكْرِ عَدَدِ السَّبْعِمِائَةِ ، فَإِنَّ هَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ يُنَمِّيها اللَّهُ ﷻ لِأَصْحَابِهَا ، كَمَا يُنَمِّي الزَّرْعَ لِمَنْ بَدَرَهُ فِي الْأَرْضِ الطَّيِّبَةِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِتَضْعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ : عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ » ، وَجَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ : « لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ » (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ ، إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ ، يَقُولُ اللَّهُ : إِلَّا الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي ، بِهِ يَدْعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِي ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ ، فَرَحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرَحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ، وَلِخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ، الصَّوْمُ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٩٢) .

جَنَّةٌ ، الصَّوْمُ جُنَّةٌ» (١).

وَقَوْلُهُ هَاهُنَا : ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَي : بِحَسَبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أَي : فَضْلُهُ وَاسِعٌ كَثِيرٌ ، أَكْثَرُ مِنْ خَلْقِهِ ، عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ ، سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٧﴾  
 قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾  
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٩﴾

يَمْدَحُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِهِ ، ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَنًّا عَلَى مَنْ أَعْطَوْهُ ، فَلَا يَمْنُونُ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَمْنُونَ بِهِ لَا بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا أَذًى﴾ أَي : لَا يَفْعَلُونَ مَعَ مَنْ أَحْسَنُوا إِلَيْهِ مَكْرُوهًا ، يُحِيطُونَ بِهِ مَا سَلَفَ مِنَ الْإِحْسَانِ ، ثُمَّ وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿هُم أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَي : ثَوَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ لَا عَلَى أَحَدٍ سِوَاهُ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أَي : فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أَي : عَلَى مَا خَلَّفُوهُ مِنَ الْأَوْلَادِ ، وَلَا مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، لَا يَأْسَفُونَ عَلَيْهَا ، لِأَنَّهُمْ قَدْ صَارُوا إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَي : مِنْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَدُعَاءٍ لِمُسْلِمٍ ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أَي : عَفْوٌ ، وَعَفْرٌ عَنْ ظُلْمٍ قَوْلِيٌّ أَوْ فِعْلِيٌّ ﴿خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى﴾ .  
 وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالنَّهْيِ عَنِ الْمَنِّ فِي الصَّدَقَةِ : عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

﴿ : «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : الْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ ، وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ» (١) .  
 وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾  
 فَأَخْبَرَ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَبْطُلُ بِمَا يَتَّبَعُهَا مِنَ الْمَنِّ وَالْأَذَى ، فَمَا بَقِيَ ثَوَابُ الصَّدَقَةِ ،  
 بِخَطِيئَةِ الْمَنِّ ، وَالْأَذَى ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَأَلَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ أَي : لَا  
 تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَمَا تَبْطُلُ صَدَقَةٌ مَنْ رَأَى بِهَا النَّاسَ ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ  
 أَنَّهُ يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ مَدْحُ النَّاسِ لَهُ أَوْ شُهْرَتُهُ بِالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ ،  
 لِيُشْكِرَ بَيْنَ النَّاسِ ، أَوْ يُقَالَ إِنَّهُ كَرِيمٌ ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ قَطْعِ  
 نَظَرِهِ عَنِ مُعَامَلَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ  
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ثُمَّ صَرَبَ تَعَالَى مِثْلُ ذَلِكَ الْمُرَائِي بِإِنْفَاقِهِ - قَالَ الضَّحَّاكُ :  
 وَالَّذِي يُتَّبَعُ نَفَقَتَهُ مَنَّا أَوْ أَدَى - فَقَالَ : ﴿ فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ صَفْوَانٍ ﴾ ، وَهُوَ جَمْعُ صَفْوَانَةٍ ،  
 فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ الصَّفْوَانُ يُسْتَعْمَلُ مُفْرَدًا أَيْضًا وَهُوَ الصِّفَا وَهُوَ الصَّخْرُ الْأَمْلَسُ  
 ﴿ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ ﴾ هُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ ﴿ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ أَي : فَتَرَكَ  
 الْوَابِلَ ذَلِكَ الصَّفْوَانَ صَلْدًا ، أَي أَمْلَسَ يَابِسًا ، أَي لَا شَيْءَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ ،  
 بَلْ قَدْ ذَهَبَ كُلُّهُ ، أَي وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْمُرَائِينَ تَذْهَبُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَ اللَّهِ ، وَإِنْ ظَهَرَ  
 لَهُمْ أَعْمَالٌ فِيمَا يَرَى النَّاسُ كَالتُّرَابِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا  
 كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ  
 أَنفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةٍ بَرْتَوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ  
 يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٦٥﴾

وَهَذَا مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ أَمْوَالَهُمْ إِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿ وَتَثْبِيتًا  
 مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَي : وَهُمْ مُتَحَقِّقُونَ وَمُتَثَبِّتُونَ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٦) ، ولفظه «... المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب» .

الجزء ، وَنَظِيرُ هَذَا فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ ﷺ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا » (١) ،  
أَيُّ : يُؤْمِنُ أَنَّ اللَّهَ شَرَعَهُ ، وَيَحْتَسِبُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَهُ .

قَالَ الشَّعْبِيُّ : ﴿ وَتَشَبَّهَتْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أَيُّ : تَصْدِيقًا وَيَقِينًا ، قَالَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ،  
وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ : أَيُّ يَتَشَبَّهُونَ أَيَّنَ يَصْعُقُونَ صَدَقَاتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ أَيُّ : كَمَثَلِ بُسْتَانٍ بِرَبْوَةٍ ، وَهُوَ عِنْدَ الْجُمْهُورِ  
الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ مِنَ الْأَرْضِ . ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ ، وَهُوَ الْمَطَرُ الشَّدِيدُ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿ فَفَاتَتْ  
أَكْلَهَا ﴾ أَيُّ : ثَمَرَتَهَا ﴿ ضِعْفَيْنِ ﴾ أَيُّ : بِالنَّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْجِنَانِ ﴿ فَإِنْ لَمْ  
يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ : هُوَ الرَّذَاذُ ، وَهُوَ اللَّيْنُ مِنَ الْمَطَرِ ، أَيُّ هَذِهِ الْجَنَّةُ  
بِهَذِهِ الرَّبْوَةِ لَا تَمُحُلُ أَبَدًا ، لِأَنَّهَا إِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كِفَايَتُهَا ،  
وَكَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ لَا يَبُورُ أَبَدًا ، بَلْ يَتَقَبَّلُهُ اللَّهُ وَيُكثِرُهُ وَيُنْمِيهِ ، كُلُّ عَامِلٍ بِحَسَبِهِ ،  
وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَيُّ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ عِبَادِهِ شَيْءٌ .

أَيُّوْدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ  
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١١١﴾

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ : فِيمَنْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ ؟  
﴿ أَيُّوْدُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ قَالُوا : اللَّهُ أَعْلَمُ ، فَغَضِبَ عُمَرُ  
فَقَالَ : قُولُوا نَعْلَمُ ، أَوْ لَا لِعَلَّمُ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،  
فَقَالَ عُمَرُ : يَا ابْنَ أَخِي ، قُلْ وَلَا تَحْقِرْ نَفْسَكَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - :  
ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ ، قَالَ عُمَرُ : أَيُّ عَمَلٍ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لِعَمَلٍ . قَالَ عُمَرُ : لِرَجُلٍ  
غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي ، حَتَّى أَعْرَقَ أَعْمَالَهُ (٢) .  
وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ كِفَايَةٌ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَتَبْيِينُ مَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ بِعَمَلٍ مَنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ١٩٠١) ، ومسلم (حديث ٧٥٩) ، وله عدة طرق عن النبي ﷺ .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٣٨) .

أَحْسَنَ الْعَمَلِ أَوْلَا ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ اِنْعَكَسَ سَيْرُهُ ، فَبَدَّلَ الْحَسَنَاتِ بِالسَّيِّئَاتِ - عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - فَأَبْطَلَ بِعَمَلِهِ الثَّانِي مَا أَسْلَفَهُ فِيهَا تَقَدَّمَ مِنَ الصَّالِحِ ، وَاجْتِنَابِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ فِي أَضْيَاقِ الْأَحْوَالِ فَلَمْ يَحْضُلْ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَخَانَهُ أَحْوَجُ مَا كَانَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾ ، وَهُوَ الرِّيحُ الشَّدِيدُ ﴿ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ أَي : أَحْرَقَ نَارَهَا ، وَأَبَادَ أَشْجَارَهَا ، فَأَيُّ حَالٍ يَكُونُ حَالُهُ ؟ ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أَي : تَعْتَبِرُونَ وَتَفْهَمُونَ الْأَمْثَالَ ، وَالْمَعَانِي ، وَتَنْزِلُونَهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٢٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٢٩﴾

يَأْمُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِنْفَاقِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصَّدَقَةُ هَاهُنَا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي اِكْتَسَبُوهَا بِتَيْسِيرِهِ إِيَّاهَا هُمْ ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا ﴾ أَي : تَقْصِدُوا ﴿ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ ﴾ أَي : لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ مَا أَخَذْتُمُوهُ إِلَّا أَنْ تَتَغَاصُوا فِيهِ ، فَاللَّهُ أَعْنَى عَنْهُ مِنْكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ مَا تَكْرَهُونَ ، وَقِيلَ : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ أَي : لَا تَعْدِلُوا عَنِ الْمَالِ الْحَلَالِ ، وَتَقْصِدُوا إِلَى الْحَرَامِ ، فَتَجْعَلُوا نَفَقَتَكُمْ مِنْهُ . ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ لَوْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ حَقٌّ فَجَاءَكُمْ بِحَقِّ دُونَ حَقِّكُمْ ، لَمْ تَأْخُذُوهُ بِحِسَابِ الْجِدِّ حَتَّى تُنْقِصُوهُ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ فَكَيْفَ تَرْضَوْنَ لِي مَا لَا تَرْضَوْنَ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَحَقِّي عَلَيْكُمْ مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ؟



وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَي: وَإِنْ أَمَرَكُم بِالصَّدَقَاتِ وَبِالطَّيِّبِ مِنْهَا، فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ يُسَاوِيَ الْغَنِيَّ الْفَقِيرَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَجَمِيعِ خَلْقِهِ فَقَرَاءٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ وَاسِعُ الْفَضْلِ لَا يَنْفَدُ مَا لَدَيْهِ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّبٍ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ وَاسِعُ الْعَطَاءِ، كَرِيمٌ جَوَادٌ، وَسَيَجْزِيهِ بِهَا وَيُضَاعِفُهَا لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً، مَنْ يُقْرَضُ غَيْرَ عَدِيمٍ وَلَا ظَلُومٍ، وَهُوَ الْحَمِيدُ أَي: الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَعْيَانِهِ، وَأَفْوَالِهِ، وَشَرَعِهِ، وَقَدْرِهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ أَي: يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ، لِتُمْسِكُوا مَا بَأَيْدِيكُمْ، فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَي: مَعَ تَهْنِئَةٍ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشِيَّةِ الْإِمْلَاقِ، يَأْمُرُكُم بِالْمَعَاصِي، وَالْمَأْتِمِ، وَالْمَحَارِمِ، وَمُخَالَفَةِ الْخَلْقِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُمُ الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ ﴿وَفَضْلًا﴾ أَي: فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفُكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْحِكْمَةَ - كَمَا قَالَهُ الْجُمْهُورُ - لَا تَحْتَصُّ بِالنُّبُوَّةِ بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِنْهَا، وَأَعْلَاهَا النُّبُوَّةُ، وَالرِّسَالَةُ أَحْصُ، وَلَكِنْ لِاتِّبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ حِطٌّ مِنَ الْخَيْرِ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ، رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَي: وَمَا يَنْتَفِعُ بِالْمَوْعِظَةِ وَالتَّذْكَارِ إِلَّا مَنْ لَهُ لُبٌّ وَعَقْلٌ، يَعْنِي بِهِ الْخُطَابَ وَمَعْنَى الْكَلَامِ.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا<sup>ط</sup> وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ تَبَدَّوْا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُوتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

## تَعْمَلُونَ خَيْرٌ

يُخْبِرُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ الْعَامِلُونَ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، مِنَ النَّفَقَاتِ وَالْمَنْدُورَاتِ ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ مَجَازَاتَهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ، لِلْعَامِلِينَ لِذَلِكَ ، ابْتِغَاءً وَجْهَهُ وَرَجَاءَ مَوْعُودِهِ ، وَتَوَعَّدَ مَنْ لَا يَعْمَلُ بِطَاعَتِهِ بَلْ خَالَفَ أَمْرَهُ ، وَكَذَّبَ خَبْرَهُ ، وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، فَقَالَ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنْقَذُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَنَقَمَتِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَبِعَمَّا هِيَ ﴾ أَي : إِنْ أَظْهَرْتُمُوهَا فَبِعَمَّا هِيَ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ إِسْرَارَ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ مِنْ إِظْهَارِهَا ، لِأَنَّهُ أَبْعَدُ عَنِ الرِّيَاءِ ، إِلَّا أَنْ يَتَرْتَّبَ عَلَى الْإِظْهَارِ مَصْلَحَةٌ رَاجِحَةٌ مِنْ إِفْتِدَاءِ النَّاسِ بِهِ ، فَيَكُونُ أَفْضَلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيْثِيَّةِ .  
وَالْأَصْلُ أَنَّ الْإِسْرَارَ أَفْضَلُ لِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَلَمَّا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ )) (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُكْفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أَي : بَدَلَ الصَّدَقَاتِ ، وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَتْ سِرًّا يَحْضُلُ لَكُمْ الْخَيْرُ فِي رَفْعِ الدَّرَجَاتِ ، وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ السَّيِّئَاتِ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَي : لَا يُخْفَى عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

خَيْرِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴿١٧٦﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ  
 أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحَافًا  
 وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ  
 أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ  
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٨﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (١) : كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
 فَسَأَلُوا ، فَرَحَّصَ هُمْ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ  
 يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ  
 اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بَأَنْ لَا يُتَصَدَّقَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ  
 حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهَا ، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا  
 عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ ، وَسَيَأْتِي عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّهَنَكُمُ اللَّهُ عَنِ  
 الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ تُخْرِجُوهُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ﴾ [ الممتحنة : ٨ ] حَدِيثُ أَسْمَاءَ  
 بِنْتِ الصَّدِيقِ فِي ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا  
 فَلِنَفْسِهِ ﴾ وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : نَفَقَةُ الْمُؤْمِنِ  
 لِنَفْسِهِ ، وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ - إِذَا أَنْفَقَ - إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ . وَقَالَ عَطَاءُ الْخُرَّاسَانِيُّ :  
 يَعْنِي إِذَا أُعْطِيَ لِوَجْهِ اللَّهِ ، فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ ، وَهَذَا مَعْنَى حَسَنٍ ، وَحَاصِلُهُ  
 أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ  
 الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ الْأَبْرَّ ، أَوْ فَاجِرٍ ، أَوْ مُسْتَحِقٍّ ، أَوْ غَيْرِهِ ، وَهُوَ مُثَابٌ عَلَى قَصْدِهِ ،  
 وَمُسْتَنْدٌ هَذَا تَمَامُ الْآيَةِ ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ ﴾ .

(١) أخرجه الطبري (بنحوه) بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (٦٢٠٢) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ : لَا تُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ عَلَيَّ زَانِيَةٍ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَيَّ زَانِيَةٍ ، لَا تُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيِّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَيَّ غَنِيٌّ ، قَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَيَّ غَنِيٌّ ، لَا تُصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصَدِّقُ اللَّيْلَةَ عَلَيَّ سَارِقٌ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَيَّ زَانِيَةٍ ، وَعَلَيَّ غَنِيٌّ ، وَعَلَيَّ سَارِقٍ ، فَأُتِيَ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا صَدَقْتِكَ فَقَدْ قِيلَتْ ، وَأَمَا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا ، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيَنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ قَدِ انْقَطَعُوا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَبَبٌ يَرُدُّونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَا يُغْنِيهِمْ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ يَعْنِي سَفَرًا لِلتَّسَبُّبِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ : هُوَ السَّفَرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ [النساء : ١٠١] .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ أَي : الْجَاهِلُ بِأَمْرِهِمْ وَحَالِهِمْ ، يَحَسَّبُهُمْ أَغْنِيَاءَ مِنْ تَعَفُّفِهِمْ فِي لِبَاسِهِمْ وَحَالِهِمْ ، وَمَقَالِهِمْ ، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيْسَ الْمُسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَالتُّقْمَةُ وَالتُّقْمَتَانِ ، وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمُسْكِينِ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنِيَّ يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَّصِقُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا » (٢) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ﴾ أَي : بِمَا يَظْهَرُ لِذَوِي الْأَلْبَابِ مِنْ صِفَاتِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا ﴾ أَي : لَا يَلِجُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، فَقَدْ أَحْفَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ .

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٤) ، ومسلم (١٠٢٢) .

(٢) البخاري (حديث ١٤٧٩) ، ومسلم (١٠٣٩) ، وعند البخاري (٤٥٣٩) نحوه ، وفيه « ... إنها المسكين الذي يتعفف » اقرءوا إن شئتم يعني قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا ﴾ ، والذي يبدو ، والله أعلم أن قوله : « اقرءوا إن شئتم » ليس من كلام النبي ﷺ إنما هي مدرجة .

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَارِنَ اللَّهُ بِهِ عَالِمٌ ﴾ أَي: لَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ وَأَمَّةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هَذَا مَدْحٌ مِنْهُ تَعَالَى لِلْمُنْفِقِينَ فِي سَبِيلِهِ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ، مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَالْأَحْوَالِ مِنْ سِرٍّ وَجَهَارٍ ، حَتَّى إِنَّ النَّفَقَةَ عَلَى الْأَهْلِ تَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ حِينَ عَادَهُ مَرِيضًا عَامَ الْفَتْحِ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (( وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ ، إِلَّا أُرِدَدَتْ بِهَا دَرَجَةٌ وَرِفْعَةٌ ، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي إِمْرَانِكَ ))<sup>(١)</sup> . وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (( إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا ، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً ))<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا فَعَلُوا مِنَ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَاتِ ﴿ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٥﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى الْأَبْرَارَ الْمُؤَدِّينَ النَّفَقَاتِ ، الْمُخْرِجِينَ الزَّكَاةِ ، الْمُتَفَضِّلِينَ بِالرِّبِّ وَالصَّدَقَاتِ لِذَوِي الْحَاجَاتِ وَالْقَرَابَاتِ ، فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَالْأَوْقَاتِ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ أَكَلَةِ الرِّبَا وَأَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَأَنْوَاعِ الشُّبُهَاتِ ، فَأَخْبَرَ عَنْهُمْ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَقِيَامِهِمْ مِنْهَا ، إِلَى بَعْثِهِمْ وَنُشُورِهِمْ ، فَقَالَ: ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ أَي: لَا يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْمَضْرُوعُ حَالَ صَرَعِهِ ، وَتَحَبُّطِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٦)، ومسلم (حديث ١٦٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٥)، ومسلم (حديث ١٠٠٢).

الشَّيْطَانِ لَهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَقُومُ قِيَامًا مُنْكَرًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَكَلَ الرَّبَا يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْنُونًا يُخْنَقُ .

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ يَعْنِي : لَا يَقُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ<sup>(١)</sup> عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ فِي حَدِيثِ الْمَنَامِ الطَّوِيلِ : « فَاتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ - حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَحْمَرٌ ، مِثْلُ الدَّمِ - وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ الْحِجَارَةَ عِنْدَهُ ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهٌ ، فَيُلْقِمُهُ حَجْرًا » وَذَكَرَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ أَكَلَ الرَّبَا .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴿ أَي : إِنَّمَا جُوزُوا بِذَلِكَ لِإِعْتِرَاضِهِمْ عَلَى أَحْكَامِ اللَّهِ فِي شَرْعِهِ ، وَلَيْسَ هَذَا قِيَاسًا مِنْهُمْ لِلرِّبَا عَلَى الْبَيْعِ ، لِأَنَّ الْمُسْرِكِينَ لَا يَعْتَرِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّةِ أَصْلِ الْبَيْعِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَوْ كَانَ هَذَا مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ لَقَالُوا : إِنَّمَا الرِّبَا مِثْلُ الْبَيْعِ ، وَإِنَّمَا قَالُوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ أَي : هُوَ نَظِيرُهُ ، فَلِمَ حَرَّمَ هَذَا وَأَبِيحَ هَذَا ؟ وَهَذَا إِعْتِرَاضٌ مِنْهُمْ عَلَى الشَّرْعِ ، أَي هَذَا مِثْلُ هَذَا ، وَقَدْ أَحَلَّ هَذَا وَحَرَّمَ هَذَا .

قوله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ رَدًّا عَلَيْهِمْ ، أَي عَلَى مَا قَالُوهُ مِنَ الْإِعْتِرَاضِ ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِتَفْرِيقِ اللَّهِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا حُكْمًا ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، الَّذِي لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَهُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا ، وَمَا يَنْفَعُ عِبَادَهُ فَيُبَيِّحُهُ لَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّهُمْ فَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا الطِّفْلِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أَي : مَنْ بَلَغَهُ نَهْيُ اللَّهِ عَنِ الرِّبَا ، فَانْتَهَى حَالٌ وَصُولِ الشَّرْعِ إِلَيْهِ ، فَلَهُ مَا سَلَفَ مِنَ الْمُعَامَلَةِ لِقَوْلِهِ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ ، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ « وَكُلُّ رِبَا فِي

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٠٤٧).

الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيْ هَاتَيْنِ ، وَأَوَّلُ رَبِّمَا أَضْعُ رَبِّمَا الْعَبَّاسُ «<sup>(١)</sup>» ، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِرَدِّ الزِّيَادَاتِ الْمَأْخُودَةِ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، بَلْ عَفَا عَمَّا سَلَفَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَ لَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالسُّدِّيُّ : ﴿ فَ لَهُ مَا سَلَفَ ﴾ أَي : مَا كَانَ أَكْلَ مِنَ الرَّبَا قَبْلَ التَّحْرِيمِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ عَادَ ﴾ أَي : إِلَى الرَّبَا ، فَفَعَلَهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ نَهْيِ اللَّهِ عَنْهُ فَقَدِ اسْتَوْجَبَ الْعُقُوبَةَ ، وَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَأَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وَبَابُ الرَّبَا مِنْ أَشْكَالِ الْأَبْوَابِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَقَدْ قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ <sup>(٢)</sup> : ثَلَاثٌ وَوَدِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهَدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نَنْتَهِي إِلَيْهِ : الْجُدُّ ، وَالْكَلاَلَةُ ، وَأَبْوَابٌ مِنَ أَبْوَابِ الرَّبَا - يَعْنِي بِذَلِكَ بَعْضَ الْمَسَائِلِ الَّتِي فِيهَا شَائِبَةُ الرَّبَا ، وَالشَّرِيعَةُ شَاهِدَةٌ بِأَنَّ كُلَّ حَرَامٍ فَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ مِثْلُهُ ، لِأَنَّ مَا أَفْضَى إِلَى الْحَرَامِ حَرَامٌ ، كَمَا أَنَّ مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ الْحَلَالَ بَيْنَ وَالْحَرَامِ بَيْنٌ ، وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ »<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « دَعُ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ »<sup>(٤)</sup> وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : « الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَتْ فِيهِ النَّفْسُ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » ، وَفِي رِوَايَةٍ « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ »<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٢١٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٨٨) ، ومسلم (٣٠٣٢) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

(٤) صحيح : أخرجه الترمذي (حديث ٢٥١٨) .

(٥) صحيح لشواهده : وقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٥٣) من حديث نواس بن سمعان ﷺ مرفوعاً

« البرُّ حَسَنُ الْخَلْقِ ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : آخِرُ مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ آيَةُ الرَّبَا<sup>(١)</sup> .  
 وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ وَهُوَ تَحْرِيمُ الْوَسَائِلِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمُحْرَمَاتِ : عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ :  
 لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرَّبَا قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ  
 حَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ<sup>(٢)</sup> . قَالَ بَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْأُئِمَّةِ : لَمَّا حَرَّمَ  
 الرَّبَا وَوَسَائِلَهُ ، حَرَّمَ الْخَمْرَ وَمَا يُفْضِي إِلَيْهِ مِنْ تِجَارَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ الطَّبْطَبَالِيُّ « لَعَنَ  
 اللَّهُ الْيَهُودَ ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ ، فَجَمَلُوهَا ، فَبَاعُوهَا ، وَأَكَلُوا أَثْمَانَهَا »<sup>(٣)</sup> ،  
 وَقَالَ عَلِيٌّ : « لَعَنَ اللَّهُ أَكِلَ الرَّبَا ، وَمُوكِلَهُ ، وَشَاهِدِيهِ وَكَاتِبَهُ »<sup>(٤)</sup> .

قَالُوا : وَمَا يَشْهَدُ عَلَيْهِ وَيَكْتَبُ إِلَّا إِذَا أُظْهِرَ فِي صُورَةٍ عَقْدٍ شَرْعِيٍّ وَيَكُونُ  
 دَاخِلُهُ فَايِدًا ، فَالِإِعْتِبَارُ بِمَعْنَاهُ لَا بِصُورَتِهِ ، لِأَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ ، وَفِي الصَّحِيحِ<sup>(٥)</sup>  
 « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورَتِكُمْ وَلَا إِلَى أَمْوَالِكُمْ وَإِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » .

يَمَحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرَبِّي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٧١﴾ إِنَّ  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ  
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٢﴾

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَمَحَقُ الرَّبَا ، أَي يَذْهَبُهُ ، إِمَّا بِأَنْ يَذْهَبَهُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ يَدِ صَاحِبِهِ ،  
 أَوْ يُحْرِمُهُ بَرَكَةِ مَالِهِ ، فَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ ، بَلْ يُعَذِّبُهُ بِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعَاقِبُهُ عَلَيْهِ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ﴾  
 [ المائدة : ١٠٠ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرُكُمُهُ جَمِيعًا  
 فَيَجْعَلُهُمْ فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنفال : ٣٧ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرَبِّي الصَّدَقَاتِ ﴾ قُرِئَ بِضَمِّ الْبَاءِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ رَبَا الشَّيْءِ ، يَرْبُو ،

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٠) ، ومسلم (١٥٨٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٤) ، ومسلم (١٥٨٣) ، وله طرق عن النبي ﷺ .

(٤) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعًا .

(٥) أخرجه مسلم عقب حديث (٢٥٦٤) ، ولفظه « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ ، وَلَكِنْ  
 يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ » .



وَأَرْبَاهُ ، يُرْبِيهِ ، أَي : كَثْرَهُ ، وَتَمَّاهُ ، يُنَمِّيهِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :  
 « مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا  
 بِمِثْنَيْهِ ثُمَّ يُرْبِيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرْبِي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ ، حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ » (١).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أَي : لَا يُحِبُّ كَفُورَ الْقَلْبِ ، أَثِيمَ الْقَوْلِ ،  
 وَالْفِعْلِ . وَلَا بُدَّ مِنْ مُنَاسَبَةٍ فِي خَتْمِ هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَهِيَ : أَنَّ الْمُرَابِي لَا  
 يَرْضَى بِهَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْحَلَالِ ، وَلَا يَكْتَفِي بِهَا شَرَعَ لَهُ مِنَ التَّكْسِبِ الْمُبَاحِ ، فَهُوَ  
 يَسْعَى فِي أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الْحَيِثُ ، فَهُوَ جُحُودٌ لِمَا عَلَيْهِ  
 مِنَ النِّعْمَةِ ، ظُلُومٌ أَثِيمٌ ، يَأْكُلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، مَا دِحًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِرَبِّهِمْ ، الْمُطِيعِينَ أَمْرَهُ ، الْمُؤَدِّينَ شُكْرَهُ ،  
 الْمُحْسِنِينَ إِلَى خَلْقِهِ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، مُخْبِرًا عَمَّا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ ،  
 وَأَتَمَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ التَّبَعَاتِ آمِنُونَ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ  
 وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ  
 مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٤﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ  
 فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٥﴾ وَإِن كَانَتْ  
 ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ  
 ﴿٢٧٦﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ  
 وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ ، نَاهِيًا لَهُمْ عَمَّا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى سَخَطِهِ ،  
 وَيُبْعِدُهُمْ عَنْ رِضَاةِ ، فَقَالَ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : خَافُوهُ  
 وَرَاقِبُوهُ فِيمَا تَفْعَلُونَ ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ أَي : ائْتَرَكُوا مَا لَكُمْ عَلَى النَّاسِ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٤٣٠) ، ومسلم (١٠١٤) .

الزِّيَادَةَ عَلَى رُءُوسِ الْأَمْوَالِ بَعْدَ هَذَا الْإِنذَارِ ﴿ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : بِمَا سَرَعَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْبَيْعِ ، وَتَحْرِيمِ الرِّبَا وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَ عَلَى تَعَاطِي الرِّبَا بَعْدَ الْإِنذَارِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ ﴾ أَي : اسْتَيْقِنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَكْلِ الرِّبَا خُذْ سِلَاحَكَ لِلْحَرْبِ ، ثُمَّ قَرَأْ ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴾ أَي : بِأَخْذِ الزِّيَادَةِ ﴿ وَلَا تَظْلُمُونَ ﴾ أَي : بِوَضْعِ رُءُوسِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا ، بَلْ لَكُمْ مَا بَدَلْتُمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ ، وَلَا نَقْصٍ مِنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يَا مُرَّ تَعَالَى بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُعْسِرِ الَّذِي لَا يَجِدُ وَفَاءً فَقَالَ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾ لَا كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُ أَحَدُهُمْ لِمَدِينِهِ إِذَا حَلَّ عَلَيْهِ الدَّيْنُ : إِمَّا أَنْ تَقْضِي وَإِمَّا أَنْ تُرَبِّي . ثُمَّ يَنْدُبُ إِلَى الْوَضْعِ عَنْهُ وَيَعِدُّ عَلَى ذَلِكَ الْخَيْرَ وَالثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، فَقَالَ : ﴿ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : وَإِنْ تَتْرَكُوا رَأْسَ الْمَالِ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَضَعُوهُ عَنِ الْمَدِينِ . وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ مِنْ طُرُقٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ .

عَنْ بُرَيْدَةَ<sup>(١)</sup> قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ » . قَالَ : ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » قُلْتُ سَمِعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَقُولُ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » قَالَ : « لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ ، فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَهُ صَدَقَةٌ » .

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْحَارِثِ بْنِ رَبِيعٍ الْأَنْصَارِيِّ كَانَ لَهُ دَيْنٌ عَلَى رَجُلٍ ، وَكَانَ يَأْتِيهِ بِتَقَاضَاهُ فَيَخْتَبِي مِنْهُ ، فَجَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ فَخَرَجَ صَبِيٌّ فَسَأَلَهُ عَنْهُ فَقَالَ : نَعَمْ هُوَ فِي

(١) أخرجه أحمد (٣٦٠/٥) بسند حسن .

الْبَيْتِ يَأْكُلُ خَزِيرَةَ ، فَنَادَاهُ ، فَقَالَ : يَا فُلَانُ ، أُخْرِجْ ، فَقَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّكَ هَاهُنَا ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا يُعْيِيكَ عَنِّي ؟ فَقَالَ : إِنِّي مُعْسِرٌ ، وَلَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ ، قَالَ : اللَّهُ ، إِنَّكَ مُعْسِرٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَبَكَى أَبُو قَتَادَةَ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « ( مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ ، أَوْ مَحَا عَنْهُ ، كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ) »<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ( كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ : إِذَا آتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا . قَالَ : فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ ) »<sup>(٢)</sup> . وَعَنْ حُدَيْفَةَ « ( أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِهِ اللَّهُ ﷻ فَقَالَ : مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : مَا عَمِلْتُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ ، فَقَالَ لَهُ ثَلَاثًا ، وَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ : إِنِّي كُنْتُ أَعْطَيْتَنِي فَضْلًا مِنَ الْمَالِ فِي الدُّنْيَا فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ ، فَكُنْتُ أُيسِّرُ عَلَى الْمُوسِرِ ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : نَحْنُ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْكَ ، فَتَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي ، فَغَفَرَ لَهُ ) »<sup>(٣)</sup> .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ<sup>(٤)</sup> فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبَادِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُوا ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسْرِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَمَعَهُ غُلَامٌ لَهُ مَعَهُ صِبَاةٌ مِنْ صُحُفٍ ، وَعَلَى أَبِي الْيَسْرِ بُرْدَةٌ وَمَعَاظِرِي ، وَعَلَى غُلَامِهِ بُرْدَةٌ وَمَعَاظِرِي ، فَقَالَ لَهُ أَبِي : يَا عَمَّ : إِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ سَفْعَةً مِنْ غَضَبٍ ، قَالَ : أَجَلٌ ، كَانَ لِي عَلَى فُلَانِ ابْنِ فُلَانِ الرَّامِي مَالٌ ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمْتُ فَقُلْتُ : أَيْمٌ هُوَ ؟ قَالُوا : لَا ، فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنُ لَهُ جَفْرٌ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ أَبُوكَ ؟ فَقَالَ : سَمِعَ صَوْتِكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي ، فَقُلْتُ : أَخْرِجْ إِلَيَّ ، فَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ أَنْتَ ، فَخَرَجَ ، فَقُلْتُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ إِخْتَبَأْتَ مِنِّي ؟ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أُحَدِّثُكَ ، ثُمَّ لَا أَكْذِبُكَ ، خَشِيتُ وَاللَّهِ أَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبُكَ ، أَوْ أَعِدَّكَ فَأُخْلِفُكَ ، وَكُنْتُ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكُنْتُ وَاللَّهِ مُعْسِرًا ،

(١) صحيح لشواهد : وقد أخرج مسلم نحوه (حديث ١٥٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٧٨) ، ومسلم (حديث ١٥٦٢) .

(٣) انظر مسلمًا (حديث ١٥٦٠) ، والبخاري (٣٤٥١) .

(٤) أخرجه مسلم (حديث ٣٠٠٦) .

قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُ ؟ قَالَ : اللَّهُ ، قُلْتُ : اللَّهُ ؟ قَالَ : اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : فَأَتَى بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاها بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي ، وَإِلَّا فَأَنْتَ فِي حِلٍّ ، فَأَشْهَدُ بِصُرِّ عَيْنِي هَاتَيْنِ - وَوَضَعَ أُصْبُعِيهِ عَلَى عَيْنَيْهِ - وَسَمِعَ أُذُنِي هَاتَيْنِ وَوَعَاةَ قَلْبِي هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مَنَاطِ قَلْبِهِ - رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَمَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ » وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، يَعِظُ عِبَادَهُ وَيُذَكِّرُهُمْ زَوَالَ الدُّنْيَا ، وَفَنَاءَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا ، وَإِتْيَانِ الْآخِرَةِ ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَمُحَاسِنَتِهِ تَعَالَى خَلْقَهُ عَلَى مَا عَمِلُوا وَمَجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَيُحَذِّرُهُمْ عُقُوبَتَهُ : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : آخِرُ شَيْءٍ نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١) .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ<sup>ج</sup> وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا

(١) أخرج البخاري (٤٥٤٤) نحوه، وأخرجه الطبري (٦٣١١، ٦٣١٢) .

يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ<sup>ط</sup> وَاتَّقُوا اللَّهَ<sup>ط</sup>  
وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢٢﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَطْوَلُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ .

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَآكْتُبُوهُ﴾  
هَذَا إِرْشَادٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِذَا تَعَامَلُوا بِمُعَامَلَاتٍ مُّوَجَّلَةٍ أَنْ يَكْتُبُوهَا ،  
لِيَكُونَ ذَلِكَ أَحْفَظَ لِمَقْدَارِهَا وَمِيقَاتِهَا ، وَأَضْبَطَ لِلشَّاهِدِ فِيهَا ، وَقَدْ نَبَّهَ عَلَىٰ هَذَا فِي  
آخِرِ الْآيَةِ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ السَّلْفَ الْمَضْمُونُ إِلَىٰ أَجَلٍ  
مُّسَمًّى ، أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّهُ ، وَأَذِنَ فِيهِ ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ  
أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾<sup>(١)</sup> . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُسَلِّقُونَ فِي الثَّارِ  
السَّنَةَ وَالسَّتَيْنِ ، وَالثَّلَاثَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ أَسْلَفَ فَلْيُسَلِّفْ فِي كَيْلِ  
مَعْلُومٍ ، وَوَزْنِ مَعْلُومٍ ، وَأَجَلِ مَعْلُومٍ»<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ: ﴿فَآكْتُبُوهُ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَىٰ بِالْكِتَابَةِ لِلتَّوَثُّقِ وَالْحِفْظِ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ  
الْعِلْمِ : كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا ثُمَّ نُسِخَ بِقَوْلِهِ : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي  
أَوْثَمِنَ أَمْنَتَهُ﴾ ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا الْحَدِيثُ الَّذِي حُكِيَ عَنْ شَرَعٍ مَنْ قَبَلْنَا  
مُقَرَّرًا فِي شَرَعِنَا وَلَمْ يُنْكَرْ عَدَمُ الْكِتَابَةِ وَالْإِشْهَادِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(٣)</sup> عَنْ رَسُولِ اللَّهِ  
ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ «أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ  
دِينَارٍ ، فَقَالَ : ائْتِنِي بِشُهَدَاءَ أَشْهَدُهُمْ ، قَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ، قَالَ : ائْتِنِي بِكَفِيلٍ ،  
قَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا ، قَالَ : صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَخَرَجَ فِي  
الْبَحْرِ فَفَضَىٰ حَاجَتَهُ ، ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَلُهُ فَلَمْ يَجِدْ  
مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ، وَصَحِيفَةً مَعَهَا إِلَىٰ صَاحِبِهَا ،  
ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا الْبَحَرَ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ أَنِّي

(١) أخرجه الشافعي في الأم (٣/ ١٣٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (١٤٠٦٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٣٩) ، ومسلم (١٦٠٤) .

(٣) صحيح : أخرجه البخاري معلقا (١٤٩٨) ، (٢٢٩١) .

اسْتَسَلَفْتُ فَلَا تَأَلَّفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا ، فَقُلْتُ : كَفَى بِاللَّهِ كَفِيلًا فَرَضِي بِذَلِكَ ،  
 وَسَأَلَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْتُ : كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، فَرَضِي بِذَلِكَ ، وَإِنِّي قَدْ جَهَدْتُ أَنْ  
 أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ بِهَا إِلَيْهِ بِالَّذِي أُعْطَانِي ، فَلَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا ، وَإِنِّي اسْتَوْدَعْتُكَهَا ،  
 فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ ، حَتَّى وَجَعَتْ فِيهِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَطْلُبُ مَرْكَبًا إِلَى  
 بَلَدِهِ ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا تَجِيءُهُ بِهِ ، فَإِذَا بِالْحَشْبَةِ  
 الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا فَلَمَّا كَسَرَهَا ، وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ  
 الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ ، فَأَتَاهُ بِالْفِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي  
 طَلَبِ مَرْكَبٍ لِأَتِيكَ بِمَالِكَ ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ . قَالَ : هَلْ  
 كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ ؟ قَالَ : أَلَمْ أُخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا الَّذِي جِئْتُ فِيهِ ؟  
 قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ بِهِ فِي الْحَشْبَةِ فَانْصَرَفَ بِالْفِ كَ رَاشِدًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾ أَي : بِالْقِسْطِ وَالْحَقِّ وَلَا يَجْرُ  
 فِي كِتَابَتِهِ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَكْتُبُ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ ، وَلَا نُقْصَانٍ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ أَي : وَلَا يَمْتَنِعُ  
 مَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ إِذَا سُئِلَ أَنْ يَكْتُبَ لِلنَّاسِ ، وَلَا ضُرُورَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَكَمَا  
 عَلَّمَهُ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، فَلْيَتَصَدَّقْ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلْيَكْتُبْ ، كَمَا  
 جَاءَ فِي الْحَدِيثِ « إِنْ مِنْ الصَّدَقَةِ أَنْ تُعِينَ صَانِعًا ، أَوْ تَضَعِ لِأَخْرَقٍ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ أَي : وَلِيُمْلِلِ الْمَدِينُ عَلَى  
 الْكَاتِبِ مَا فِي ذِمَّتِهِ مِنَ الدِّينِ ، وَلِيَتَّقِ اللَّهَ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا  
 يَكْتُمُ مِنْهُ شَيْئًا ﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ مَحْجُورًا عَلَيْهِ ، بِتَبْدِيرِ وَنَحْوِهِ  
 ﴿ أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أَي : صَغِيرًا أَوْ مَجْنُونًا ﴿ أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْمَلَ هُوَ ﴾ إِمَّا لِعِيٍّ أَوْ جَهْلٍ  
 بِمَوْضِعِ صَوَابِ ذَلِكَ مِنْ حَطِّهِ ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيَهُ بِالْعَدْلِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ أَمْرٌ بِالْإِشْهَادِ مَعَ الْكِتَابَةِ لِزِيَادَةِ  
 التَّوَثُّقِ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ ﴾ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْوَالِ ، وَمَا

يَقْصِدُ بِهِ الْمَالَ ، وَإِنَّمَا أُقِيمَتِ الْمَرَاتَانِ مَقَامَ الرَّجُلِ لِنُقْصَانِ عَقْلِ الْمَرْأَةِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الْإِسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ » ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزَلَةٌ : وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ؟ قَالَ : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِدِي لُبًّا مِنْكُنَّ » . قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالذِّينِ قَالَ : « أَمَّا نُقْصَانُ عَقْلِهَا فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ ، وَتَمَكُّتُ اللَّيَالِي لَا تُصَلِّي ، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِمَّنْ تَرَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى إِسْتِرَاطِ الْعَدَالَةِ فِي الشُّهُودِ ، وَهَذَا مُقَيَّدٌ ، حَكَمَ بِهِ الشَّافِعِيُّ عَلَى كُلِّ مُطْلَقٍ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْإِشْهَادِ مِنْ غَيْرِ إِسْتِرَاطٍ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ مَنْ رَدَّ الْمُسْتَوْرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ يَكُونُ الشَّاهِدُ عَدْلًا مَرَضِيًّا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ يَعْنِي : الْمَرَاتَيْنِ إِذَا نَسِيَتِ الشَّهَادَةَ ﴿ فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ أَي : يَحْضُلُ لَهَا ذِكْرُهَا وَقَعَ بِهِ مِنَ الْإِشْهَادِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ قِيلَ : مَعْنَاهُ إِذَا دُعُوا لِلتَّحْمَلِ فَعَلَيْهِمُ الْإِجَابَةُ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ﴾ ، وَمِنْ هَاهُنَا أُسْتَفِيدُ أَنَّ تَحْمَلَ الشَّهَادَةَ فَرَضٌ كِفَايَةٌ ، قِيلَ : - وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ - الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ لِلدَّاءِ ، لِحَقِيقَةِ قَوْلِهِ الشُّهَدَاءُ وَالشَّاهِدُ حَقِيقَةٌ فَيَمْنُ تَحْمَلُ ، فَإِذَا دُعِيَ لِأَدَائِهَا فَعَلَيْهِ الْإِجَابَةُ إِذَا تَعَيَّنَتْ ، وَإِلَّا فَهُوَ فَرَضٌ كِفَايَةٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : إِذَا دُعِيَتْ لِتَشْهَدَ فَأَنْتَ بِالْخِيَارِ ، وَإِذَا شَهِدْتَ فَدُعِيَتْ فَأَجِبْ . عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ ؟ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسَأَلَ » (٢) . فَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ فِي الصَّحِيحَيْنِ « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ

(١) أخرجه مسلم ( حديث ٧٩ ) ، وانظر البخاري ( حديث ٣٠٤ ) .

(٢) أخرجه مسلم ( حديث ١٧١٩ ) .

الشَّهَدَاءِ؟ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا»<sup>(١)</sup> وَكَذَا قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ تَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ، وَتَسْبِقُ شَهَادَتُهُمْ أَيْمَانُهُمْ»<sup>(٢)</sup>، وَفِي رِوَايَةٍ «ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَشْهَدُونَ، وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ» وَهُوَ لِأَنَّ شُهُودَ الزُّورِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ هَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِرْشَادِ وَهُوَ الْأَمْرُ بِكِتَابَةِ الْحَقِّ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، فَقَالَ: وَلَا تَسَامُوا. أَي: لَا تَمَلُّوا أَنْ تَكْتُبُوا الْحَقَّ عَلَىٰ أَيِّ حَالٍ كَانَ مِنَ الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ إِلَىٰ أَجَلِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. أَي: هَذَا الَّذِي أَمَرْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِلْحَقِّ، إِذَا كَانَ مُوجِبًا، هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، أَي: أَعْدَلُ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ، أَي: أَثْبَتٌ لِلشَّاهِدِ إِذَا وَضَعَ خَطَّهُ ثُمَّ رَأَهُ تَذَكَّرَ بِهِ الشَّهَادَةَ، لِإِحْتِمَالِ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ أَنْ يَنْسَاهُ، كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ غَالِبًا ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾، وَأَقْرَبُ إِلَىٰ عَدَمِ الرِّيْبَةِ بَلْ تَرْجِعُونَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَىٰ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُمُوهُ، فَيَفْصِلُ بَيْنَكُمْ بِلَا رِيْبَةٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ أَي: إِذَا كَانَ الْبَيْعُ بِالْحَاضِرِ يَدًا بِيَدٍ فَلَا بَأْسَ بِعَدَمِ الْكِتَابَةِ، لِإِنْتِفَاءِ الْمَحْذُورِ فِي تَرْكِهَا. فَأَمَّا الْإِشْهَادُ عَلَىٰ الْبَيْعِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: يَعْنِي: أَشْهَدُوا عَلَىٰ حَقِّكُمْ إِذَا كَانَ فِيهِ أَجَلٌ، أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَجَلٌ فَأَشْهَدُوا عَلَىٰ حَقِّكُمْ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: هَذَا الْأَمْرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ﴾، وَهَذَا الْأَمْرُ مَحْمُولٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ عَلَىٰ الْإِرْشَادِ وَالنَّذْبِ، لَا عَلَىٰ الْوُجُوبِ، وَالذَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ حَدِيثُ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتِاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ فَاسْتَبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَاسْرَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبْطَأَ الْأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الْأَعْرَابِيَّ، فَيَسْأَلُونَهُ بِالْفَرَسِ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتِاعَهُ، حَتَّى زَادَ بَعْضُهُمُ الْأَعْرَابِيَّ فِي السَّوْمِ عَلَىٰ ثَمَنِ الْفَرَسِ الَّذِي

(١) البخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) بمعناه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٢٨، ٦٤٢٩)، ومسلم (٢٥٣٣)، وله طرق عن النبي ﷺ.



إِتْبَاعَهُ النَّبِيِّ ﷺ ، فَنَادَى الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ مُبْتِاعًا هَذَا الْفَرَسَ فَابْتِعْهُ وَإِلَّا بَعْتَهُ ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ : « أَوْلَيْسَ قَدْ ابْتِغْتَهُ مِنْكَ ؟ » قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : لَا وَاللَّهِ مَا بَعْتُكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَلْ قَدْ ابْتِغْتَهُ مِنْكَ » فَطَفَّقَ النَّاسُ يُلَوِّذُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْأَعْرَابِيِّ ، وَهُمَا يَتَرَا جَعَانِ ، فَطَفَّقَ الْأَعْرَابِيُّ يَقُولُ : هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ ، فَمَنْ جَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : وَيَلَيْكَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَقُولُ إِلَّا حَقًّا ، حَتَّى جَاءَ خُزَيْمَةُ فَاسْتَمَعَ لِمُرَاجَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَمُرَاجَعَةِ الْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : هَلُمَّ شَهِيدًا يَشْهَدُ أَنِّي بَايَعْتُكَ ، قَالَ خُزَيْمَةُ : أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ ، فَقَالَ : « بِمِ تَشْهَدُ ؟ » فَقَالَ بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : لَا يُضَارُّ الْكَاتِبُ وَلَا الشَّاهِدُ ، فَيَكْتُبُ هَذَا خِلَافَ مَا يُمْلِي ، وَيَشْهَدُ هَذَا بِخِلَافِ مَا سَمِعَ ، أَوْ يَكْتُمُهَا بِالْكَلْبِيَّةِ ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ : لَا يَضُرُّ بَهُمَا ، وَإِيضًا هُكَمَا جَاءَ عَنْ عَدَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَأْتِي الرَّجُلُ فَيَدْعُوهُمَا إِلَى الْكِتَابِ وَالشَّهَادَةِ ، فَيَقُولَانِ : إِنَّا عَلَى حَاجَةٍ ، فَيَقُولُ : إِنَّكُمَا قَدْ أَمَرْتُمَا أَنْ نُجِيبَا ، فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُضَارَّهُمَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ﴾ أَي : إِنْ خَالَفْتُمْ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ، أَوْ فَعَلْتُمْ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ ، فَإِنَّهُ فُسُوقٌ كَاتِبٌ بِكُمْ ، أَي لَازِمٌ لَكُمْ لَا يُحِيدُونَ عَنْهُ ، وَلَا تَنْفَكُونَ عَنْهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : خَافُوهُ ، وَرَاقِبُوهُ ، وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ ، وَاتْرُكُوا زَجْرَهُ ، ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾

[ الأنفال : ٢٩ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : هُوَ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ ، وَمَصَالِحِهَا ، وَعَوَاقِبِهَا ، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ .

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ

(١) صحيح : أخرجه أحمد في المسند (٢١٥/٥) ، وأبو داود (٣٦٠٧) ، والنسائي (٣٠١/٧) .

بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْثَمِنَ أَمْنَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۖ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۗ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ أَي : مُسَافِرِينَ ، وَتَدَايَيْتُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴿ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا ﴾ يَكْتُبُ لَكُمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَوْ وَجَدُوهُ وَلَمْ يَجِدُوا قِرْطَاسًا ، أَوْ دَوَاةً ، أَوْ قَلَمًا ، فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، أَي : فَلْيَكُنْ بَدَلُ الْكِتَابَةِ رِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، أَي : فِي يَدِ صَاحِبِ الْحَقِّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوِّفِيَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَقًا مِنْ شَعِيرٍ ، رَهْنَهَا قُوتًا لِأَهْلِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤدِّ الَّذِي أَوْثَمِنَ أَمْنَتَهُ ﴾ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : هَذِهِ نَسَخَتْ مَا قَبْلَهَا ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : إِذَا ائْتَمَنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَا بَأْسَ أَنْ لَا تَكْتُبُوا ، أَوْ لَا تُشْهَدُوا . ﴿ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ يُعْنَى : الْمُؤْتَمِنَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ أَي : لَا تُخْفُوهَا ، وَتُغْلُوهَا ، وَلَا تُظْهِرُوهَا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : شَهَادَةُ الزُّورِ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ وَكِتَابَتُهَا كَذَلِكَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : يَعْنِي : فَاجْرُ قَلْبُهُ ، وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّهَا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينِ ﴾ [المائدة : ١٠٦]

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۗ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا فِيهِنَّ ، وَمَا بَيْنَهُنَّ ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ ، لَا تُخْفَى عَلَيْهِ الظُّوَاهِرُ ، وَلَا السَّرَائِرُ ، وَالضَّاهِرُ ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيُحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ ، وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبَدُّوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٩] . وَقَالَ : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ ،

(١) انظر البخاري (حديث ٢٥٠٨، ٢٥٠٩، ٢٥١٣)، وكذا مسلم (حديث ١٦٠٣).

وَالآيَاتِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ وَهُوَ الْمَحَاسِبَةُ عَلَى ذَلِكَ وَهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اِشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ ، وَخَافُوا مِنْهَا ، وَمِنْ مُحَاسِبَةِ اللَّهِ هُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَحَقِيرِهَا ، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيْمَانِهِمْ وَإِقْيَانِهِمْ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ <sup>(١)</sup> : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اِشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاتَّوَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ جَثَوْا عَلَى الرُّكْبِ وَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ ، الصَّلَاةَ ، وَالصِّيَامَ ، وَالْجِهَادَ ، وَالصَّدَقَةَ ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نَطِيقُهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا ، كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » . فَلَمَّا أَقْرَبَ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ إِلَى آخِرِهِ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(٢)</sup> قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ قَالَ : دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ ، قَالَ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قُولُوا : سَمِعْنَا ، وَأَطَعْنَا ، وَسَلَّمْنَا » فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيْمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ، وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَزَادَ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٢٦) .

الْكُفْرِيِّينَ ﴿ قَالَ : قَدْ فَعَلْتُ .

عَنْ مَرْوَانَ الْأَصْفَرَ<sup>(١)</sup> عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَحْسَبُهُ ابْنَ عُمَرَ ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ ﴾ قَالَ : نَسَخْتُهَا الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَهَكَذَا رَوِيَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالَّتِي بَعْدَهَا .

وَقَدْ ثَبَتَ بِهَا رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ فِي كُتُبِهِمُ السِّيَّةِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : (( إِنْ اللَّهُ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ، مَا لَمْ تَكَلِّمْ ، أَوْ تَعْمَلْ ))<sup>(٢)</sup> .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( قَالَ اللَّهُ إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسِيئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا سَيِّئَةً ، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا فَارْتَبُوهَا حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا عَشْرًا ))<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( قَالَ اللَّهُ : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلَهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَإِذَا هَمَّ بِسِيئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً ))<sup>(٤)</sup> .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً ، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ ، فَقَالَ : أَرْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَايَ ))<sup>(٥)</sup> .

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( إِذَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ ، فَإِنَّ لَهُ بِكُلِّ حَسَنَةٍ يَعْمَلَهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ ﷻ ))<sup>(٦)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً ، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ، ومسلم (حديث ١٢٧) من حديث أبي هريرة ؓ مرفوعاً .

(٣) أخرجه البخاري بنحوه (٧٥٠١) ، ومسلم (حديث ١٢٨) .

(٤) مسلم (١٢٨) .

(٥) مسلم (حديث ١٢٩) .

(٦) أخرجه مسلم (عقب حديث ١٢٩) .

يَعْمَلُهَا لَمْ تُكْتَبْ لَهُ ، وَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ » .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَعَالَى قَالَ : « إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً ، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » (١) . وَفِي زِيَادَةٍ « وَحَاهَا اللَّهُ وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ » . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلُوهُ فَقَالُوا إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ قَالَ : « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : « ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » (٢) . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ قَالَ : « تِلْكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ » (٣) .

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦٨﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِيصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ - مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ - فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » (٤) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَيَّنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ إِذْ سَمِعَ نَفِيضًا فَوْقَهُ ،

(١) مسلم (١٣١) .

(٢) مسلم (حديث ١٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٣٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٠٠٩) ، ومسلم (٨٠٨) .

فَرَفَعَ جِبْرِيْلُ بَصْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ مَا فُتِحَ قَطُّ ، قَالَ : فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لَهُ : أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ قَدْ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَتْهُمَا نَبِيٌّ قَبْلِكَ ، فَانْحَ الْكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ (١) .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إِنْخَابًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عَطْفٌ عَلَى الرَّسُولِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنِ الْجَمِيعِ فَقَالَ : ﴿ كُلُّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ فَردٌ صَمَدٌ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَيُصَدِّقُونَ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ وَالْكِتَابِ الْمُنزَلَةِ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ وَالْأَنْبِيَاءِ ، لَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَيُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ ، وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، بَلِ الْجَمِيعُ عِنْدَهُمْ صَادِقُونَ بَارُونَ رَاشِدُونَ مَهْدِيُونَ هَادُونَ إِلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَنْسُخُ شَرِيعَةَ بَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ ، حَتَّى نُسِخَ الْجَمِيعُ بِشَرَعِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، الَّذِي تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى شَرِيعَتِهِ ، وَلَا تَرَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِهِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ أَي : سَمِعْنَا قَوْلَكَ يَا رَبَّنَا ، وَفَهَمْنَاهُ وَقُمْنَا بِهِ ، وَامْتَثَلْنَا الْعَمَلَ بِمُقْتَضَاهُ ﴿ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا ﴾ سُؤَالَ لِلْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَاللُّطْفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أَي : لَا يُكَلِّفُ أَحَدٌ فَوْقَ طَاقَتِهِ ، وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَهَذِهِ هِيَ النَّاسِخَةُ الرَّافِعَةُ لِمَا كَانَ أَشْفَقَ مِنْهُ الصَّحَابَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْتُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ أَي : هُوَ وَإِنْ حَاسَبَ وَسَأَلَ لَكِنْ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا بِمَا يَمْلِكُ الشَّخْصُ دَفَعَهُ ، فَأَمَّا مَا لَا يَمْلِكُ دَفَعَهُ مِنْ وَسْوَسَةِ النَّفْسِ وَحَدِيثِهَا ، فَهَذَا لَا يُكَلِّفُ بِهِ الْإِنْسَانَ ، وَكَرَاهِيَةُ الْوَسْوَسَةِ السَّيِّئَةِ مِنَ الْإِيمَانِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أَي : مِنْ خَيْرٍ ﴿ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ﴾ أَي : مِنْ شَرٍّ ، وَذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ التَّكْلِيفِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُرْشِدًا عِبَادَهُ إِلَى سُؤَالِهِ ، وَقَدْ تَكَلَّفَ لَهُمْ بِالْإِجَابَةِ ، كَمَا أَرَشَدَهُمْ وَعَلَّمَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَهْطَأْنَا ﴾ أَي : إِنْ تَرَكْنَا فَرَضًا

(١) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس - رضي الله عنها - مرفوعاً (حديث ٨٠٦) .

عَلَى جَهَةِ النَّسِيَانِ ، أَوْ فَعَلْنَا حَرَامًا كَذَلِكَ ، أَوْ أَخْطَأْنَا ، أَي الصَّوَابُ فِي الْعَمَلِ جَهْلًا مِنَّا بِوَجْهِهِ الشَّرْعِيِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَبُو هُرَيْرَةَ : « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ »<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ أَي : لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ الشَّقَاةَ وَإِنِ أَطَقْنَاهَا ، كَمَا شَرَعْتَهُ لِلْأُمَّمِ الْمَاضِيَةِ قَبْلَنَا مِنَ الْأَغْلَالِ وَالْأَصَارِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، الَّتِي بَعَثْتَ نَبِيَّكَ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيَّ الرَّحْمَةِ بِوَضْعِهِ فِي شَرْعِهِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِيِّ السَّهْلِ السَّمْحِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » . وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ أَي : مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمَصَائِبِ وَالْبَلَاءِ لَا تَبْتَلِنَا بِهَا لَا قِبَلَ لَنَا بِهِ ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا ﴾ أَي : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، مِمَّا تَعَلَّمَهُ مِنْ تَقْصِيرِنَا وَزَلَلِنَا ﴿ وَأَغْفِرْ لَنَا ﴾ أَي : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ عِبَادِكَ ، فَلَا تُظْهِرْهُمْ عَلَى مَسَاوِينَا ، وَأَعْمَلِنَا الْقَبِيحَةَ ﴿ وَأَرْحَمْنَا ﴾ أَي : فِيمَا يُسْتَقْبَلُ ، فَلَا تُوقِعْنَا بِتَوْفِيقِكَ فِي ذَنْبٍ آخَرَ ، وَهَذَا قَالُوا : إِنَّ الْمَذْنِبَ مُحْتَاجٌ إِلَى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَنْ يَغْفُو اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، وَأَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ عِبَادِهِ فَلَا يَفْضَحْهُ بِهِ بَيْنَهُمْ ، وَأَنْ يَعْصِمَهُ فَلَا يُوقِعَهُ فِي نَظِيرِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ أَي : أَنْتَ وَلِيُّنَا وَنَاصِرُنَا ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا ، وَأَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ ، وَلَا حَوْلَ لَنَا وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ﴿ فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي : الَّذِينَ جَحَدُوا دِينَكَ ، وَأَنْكَرُوا وَحَدَانِيَّتَكَ ، وَرَسَالَةَ نَبِيِّكَ ، وَعَبَدُوا غَيْرَكَ ، وَأَشْرَكُوا مَعَكَ مِنْ عِبَادِكَ ، فَانصُرْنَا عَلَيْهِمْ ، وَاجْعَلْ لَنَا الْعَاقِبَةَ عَلَيْهِمْ ، فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ « قَالَ اللَّهُ : نَعَمْ » وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ « قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْتُ »<sup>(٢)</sup>.

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَاللَّهُ تَعَالَى الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ وَالْعِصْمَةُ ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .

(١) صحيح : وقد تقدم ، وكذا الذي قبله .

(٢) صحيح : قد تقدم .

## تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْم ﴾ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَا أَعْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ ، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ (١) . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يَعْنِي : نَزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ يَا مُحَمَّدُ بِالْحَقِّ أَي : لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ ، بَلْ هُوَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﷻ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أَي : مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ قَبْلَهُ مِنَ السَّمَاءِ ، عَلَى عِبَادِ اللَّهِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَهِيَ تُصَدِّقُهُ بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ ، وَبَشَّرَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ ، وَهُوَ يُصَدِّقُهَا ؛ لِأَنَّهُ طَابَقَ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ وَبَشَّرَتْ مِنَ الْوَعْدِ مِنَ اللَّهِ بِإِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَإِنْزَالِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ ﴾ أَي : عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ﴿ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أَي : عَلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ أَي : فِي زَمَانِهِمَا ﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وَهُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْغَيِّ وَالرَّشَادِ ، بِمَا يَذْكُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ، وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ ، وَالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَاتِ ، وَيُبَيِّنُهُ وَيُوضِّحُهُ وَيُفَسِّرُهُ وَيَقَرِّرُهُ وَيُرْشِدُ إِلَيْهِ وَيُنَبِّئُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ .



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أَي: جَحَدُوا بِهَا وَأَنْكَرُوهَا وَرَدُّوهَا بِالْبَاطِلِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أَي: مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ أَي: مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيَاءَهُ الْعِظَامَ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَي: يَخْلُقُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَمَا يَشَاءُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَحَسَنٍ وَقَبِيحٍ وَشَقِيٍّ وَسَعِيدٍ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أَي: هُوَ الَّذِي خَلَقَ وَهُوَ الْمُسْتَحَقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا تُرَامُ، وَالْحِكْمَةُ وَالْأَحْكَامُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْرِيفُ بَلِّ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَبْدٌ مَخْلُوقٌ كَمَا خَلَقَ اللَّهُ سَائِرَ الْبَشَرِ، لِأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ فِي الرَّحِمِ وَخَلَقَهُ كَيْفَ يَشَاءُ، فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا كَمَا زَعَمْتَهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - وَقَدْ تَقَلَّبَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَتَنَقَّلَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَةٍ ثَلَاثٍ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ، أَي: بَيِّنَاتٌ وَاضِحَاتٌ الدَّلَالَةَ لَا الْبِتَّاسَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخْرُ فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ

أَوْ بَعْضِهِمْ ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ وَحَكَمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ فَقَدْ اهْتَدَى وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أَي : أَصْلُهُ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْاِشْتِبَاهِ ﴿ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَةٌ ﴾ أَي : تَحْتَمِلُ دَلَالَتَهَا مُوَافَقَةَ الْمُحْكَمِ ، وَقَدْ تَحْتَمِلُ شَيْئًا آخَرَ مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَالتَّرْكِيبِ لَا مِنْ حَيْثُ الْمُرَادِ .

وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي الْمُحْكَمِ وَالتَّمْثَالِ : فَرُوِيَ عَنِ السَّلَفِ عِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُحْكَمَاتُ : نَاسِخُهُ ، وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ ، وَأَحْكَامُهُ ، وَحُدُودُهُ وَفَرَائِضُهُ ، مَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ . وَقِيلَ : الْمُحْكَمَاتُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [ الأنعام : ١٥١ ] ، وَالْآيَاتُ بَعْدَهَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [ الإسراء : ٢٣ ] إِلَى ثَلَاثِ آيَاتٍ بَعْدَهَا .

وَقِيلَ فِي التَّمْثَالِ : الْمَنْسُوخَةُ وَالْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ وَالْأَمْثَالُ فِيهِ وَالْأَقْسَامُ وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ ، وَقِيلَ : هِيَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّورِ .  
فَالْمُتَشَابِهُ : هُوَ الَّذِي يُقَابِلُ الْمُحْكَمَ ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ ، هُوَ : الَّذِي قَدَّمْنَا وَهُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَقَ بْنِ يَسَارٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَيْثُ قَالَ : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ فَهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ ، وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ ، وَدَفْعُ الْخُصُومِ وَالتَّبَاطُلِ ، لَيْسَ هُنَّ تَصْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ . قَالَ : وَالتَّمْثَالِ فِي الصِّدْقِ لَيْسَ هُنَّ تَصْرِيفٌ وَتَحْرِيفٌ وَتَأْوِيلٌ ، ابْتَلَى اللَّهُ فِيهِنَّ الْعِبَادَ كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالتَّحْرِيمِ ، أَلَّا يُضْرَفْنَ إِلَى التَّبَاطُلِ وَلَا يُحْرَفْنَ عَنِ الْحَقِّ .

وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ أَي : ضَلَالٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْحَقِّ إِلَى التَّبَاطُلِ ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مِنْهُ بِالتَّمْثَالِ الَّذِي يُمَكِّنُهُمْ أَنْ يُحْرَفُوا إِلَى مَقَاصِدِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَيُنْزَلُوهُ عَلَيْهَا لِاحْتِمَالِ لَفْظِهِ لِمَا يَضُرُّونَهُ ، فَأَمَّا الْمُحْكَمُ فَلَا نَصِيبَ لَهُ فِيهِ لِأَنَّهُ دَافِعٌ لَهُمْ وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَبْغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ أَي : الإِضْلَالِ لِاتِّبَاعِهِمْ ، إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى

بَدَعْتَهُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَا هُمْ ، كَمَا لَوْ اِحتَجَّ النَّصَارَى بِأَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ نَطَقَ بِأَنَّ عِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَتَرَكُوا اِحتِجَاجَ بِقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ وَيَقُولُهُ : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُحْكِمَةِ الْمَصْرُوحَةِ بِأَنَّهُ خَلَقَ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ، وَعَبْدٌ وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَتَّبَعْنَا تَأْوِيلَهُ ﴾ أَي : تَحْرِيفُهُ عَلَى مَا يُرِيدُونَ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ( فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاخْذَرُوهُمْ ) »<sup>(١)</sup> . لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ اِخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي الْوَقْفِ هَهُنَا ، فَقِيلَ : عَلَى الْجَلَالَةِ ، وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ وَتَبِعَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلُ الْأُصُولِ ، وَقَالُوا : الْخِطَابُ بِهَا لَا يُفْهَمُ بَعِيدٌ . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا لَابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ : « اللَّهُمَّ فَتِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّأْوِيلَ »<sup>(٢)</sup> ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ فَصَّلَ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقَالَ : التَّأْوِيلُ يُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : التَّأْوِيلُ بِمَعْنَى حَقِيقَةِ الشَّيْءِ وَمَا يُتَوَلَّى أَمْرُهُ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف : ٥٣] أَي : حَقِيقَةُ مَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ الْمَعَادِ ، فَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا فَالْوَقْفُ عَلَى الْجَلَالَةِ ، لِأَنَّ حَقَائِقَ الْأُمُورِ وَكُنْهَهَا لَا يَعْلَمُهَا عَلَى الْجَلِيلَةِ إِلَّا اللَّهُ ﷻ ، وَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ مُبْتَدَأً وَ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ ﴾ خَبْرُهُ ، وَأَمَّا إِنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الْآخَرَ وَهُوَ التَّفْسِيرُ وَالْبَيَانُ وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الشَّيْءِ كَقَوْلِهِ : ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أَي : بِتَفْسِيرِهِ فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى فَالْوَقْفُ عَلَى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) البخاري (حديث ٤٥٤٧) ، ومسلم (حديث ٢٦٦٥) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١/٣٢٨ ، ٣٣٥) وبنحوه أخرجه البخاري (١٤٣) ، ومسلم (٢٤٧٧) .

وَيَفْهَمُونَ مَا حُوطِبُوا بِهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ ، وَإِنْ لَمْ يُحِيطُوا عِلْمًا بِحَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ عَلَى كُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ يَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِهِ ﴾ حَالٌ مِنْهُمْ .

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : ﴿ ءَأَمَنَّا بِهِ ﴾ أَي : بِالْمُتَشَابِهِ ، ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مِنَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُصَدِّقُ الْآخَرَ وَيَشْهَدُ لَهُ لِأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِمُخْتَلِفٍ وَلَا مُتَضَادٍّ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أَي : إِنَّمَا يَفْهَمُ وَيَعْقِلُ وَيَتَذَكَّرُ الْمَعَانِي عَلَى وَجْهِهَا أُولُو الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفُهُومِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَوْمًا يَتَذَكَّرُونَ ، فَقَالَ : « إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا ، ضَرَبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللَّهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَلَا تُكذِّبُوا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا بِهِ ، وَمَا جَهَلْتُمْ فَكَلِمَةُ إِلَى عَالِمِهِ » (١) .

وَعَنْ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ : يُقَالُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ : الْمُتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ ، الْمُتَذَلِّلُونَ لِلَّهِ فِي مَرَضَاتِهِ لَا يَتَعَاطَمُونَ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ وَلَا يُحَقِّرُونَ مَنْ دُونَهُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُمْ دَعَوْا رَبَّهُمْ قَائِلِينَ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أَي : لَا تَمِلْهَا عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ أَقَمْتَهَا عَلَيْهِ وَلَا تَجْعَلْنَا كَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَلَكِنْ ثَبَّتْنَا عَلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ وَدِينِكَ الْقَوِيمِ ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ ثَبَّتْ بِهَا قُلُوبَنَا وَتَجَمَّعَ بِهَا شَمَلْنَا وَتَزِيدْنَا بِهَا إِيمَانًا وَإِيقَانًا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أَي : يَقُولُونَ فِي دُعَائِهِمْ : إِنَّكَ يَا رَبَّنَا سَتَجْمَعُ بَيْنَ خَلْقِكَ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، وَتَفْصِلُ بَيْنَهُمْ وَتَحْكُمُ فِيهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَتَجْزِي كُلًّا بِعَمَلِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

(١) إسناده حسن : أخرجه أحمد (١٨٥/٢) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا  
وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠٤﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا  
بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠٥﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ بِأَتَمِّمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ  
الَلْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [ غافر : ٥٢ ] ، وَلَيْسَ مَا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَمْوَالِ  
وَالْأَوْلَادِ بِنَافِعِ هُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَا بِمُنْجِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ وَأَلِيمِ عِقَابِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى :  
﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [ التوبة : ٥٥ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَغْرُنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ [ ممتنع قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَخَالَفُوا كِتَابَهُ ، وَلَمْ يَتَنَفَعُوا  
بِوَحْيِهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ  
وَقُودُ النَّارِ ﴾ أَي : حَطْبُهَا الَّذِي تُسَجَّرُ بِهِ وَتُوقَدُ بِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء : ٩٨ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : كَصَنِيعِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ :  
كُسَيْتَةِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَفَعَلِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَكَسْبِهِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَالْأَلْفَاظُ مُتَقَارِبَةٌ . وَالذَّابُّ  
بِالتَّسْكِينِ وَالتَّحْرِيكِ أَيْضًا كَنَهْرٍ وَنَهْرٌ : هُوَ الصَّنِيعُ وَالْحَالُ وَالشَّانُ وَالْأَمْرُ وَالْعَادَةُ .  
وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ : أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ الْأَمْوَالُ وَلَا الْأَوْلَادُ ، بَلْ يَهْلِكُونَ  
وَيُعَذَّبُونَ ، كَمَا جَرَى لِآلِ فِرْعَوْنَ وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُكذِّبِينَ لِلرُّسُلِ فِيمَا جَاءُوا مِنْ  
آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَجِهِ ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أَي شَدِيدُ الْأَخْذِ ، أَلِيمُ الْعَذَابِ ، لَا  
يَمْتَنِعُ مِنْهُ أَحَدٌ ، وَلَا يَقْتُوهُ شَيْءٌ ، بَلْ هُوَ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ ، الَّذِي قَدْ غَلَبَ كُلَّ شَيْءٍ ،  
وَذَلَّ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ  
﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّتِي قَاتَا فِئَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلْكَافِرِينَ سَتُغْلَبُونَ، أَي: فِي الدُّنْيَا، وَتُحْشَرُونَ، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَهَادِ. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أَي: قَدْ كَانَ لَكُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ الْقَائِلُونَ مَا قُلْتُمْ آيَةٌ، أَي: دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ مُعَزِّدٌ دِينِهِ، وَنَاصِرٌ رَّسُولِهِ، وَمُظْهِرٌ كَلِمَتِهِ، وَمُعَلِّمٌ أَمْرِهِ ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾ أَي: طَائِفَتَيْنِ ﴿الَّتَقَتَا﴾ أَي: لِلْقِتَالِ ﴿فِعْتَةٌ تَقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ وَهُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِيمَا حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ: يَرَى الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ الْمُسْلِمِينَ مِثْلِيهِمْ فِي الْعَدَدِ رَأَى أَعْيُنِهِمْ، أَي: جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ فِيمَا رَأَوْهُ سَبَبًا لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا لَا إِشْكَالَ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ: أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بَعَثُوا عُمَرَ بْنَ سَعْدٍ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ الْقِتَالِ يَحْزِرُ لَهُمُ الْمُسْلِمِينَ، فَأَخْبَرَهُمْ بِأَتَمِّ ثَلَاثِيَةِ يَزِيدُونَ قَلِيلًا أَوْ يَنْقُصُونَ قَلِيلًا وَهَكَذَا كَانَ الْأَمْرُ. كَانُوا ثَلَاثِيَةَ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الْقِتَالُ أَمَدَّهُمُ اللَّهُ بِالْأَلْفِ مِنْ خَوَاصِّ الْمَلَائِكَةِ وَسَادَاتِهِمْ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ أَي: يَرَى الْفِئْتَةُ الْمُسْلِمَةُ الْفِئْتَةَ الْكَافِرَةَ مِثْلِيهِمْ، أَي: ضِعْفِيهِمْ فِي الْعَدَدِ، وَمَعَ هَذَا نَصَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

وَالْمَشْهُورُ: أَنَّهُمْ كَانُوا مَا بَيْنَ السَّبْعِيَّةِ إِلَى الْأَلْفِ، وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَقَدْ كَانُوا ثَلَاثَةَ أَمْثَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى هَذَا فَيُشْكَلُ هَذَا الْقَوْلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -.

لَكِنْ وَجَّهَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا وَجَعَلَهُ صَحِيحًا، كَمَا تَقُولُ عِنْدِي أَلْفٌ وَأَنَا مُحْتَاجٌ إِلَى مِثْلِيهَا، وَتَكُونُ مُحْتَاجًا إِلَى ثَلَاثَةِ آلَافٍ وَكَذَا قَالَ، وَعَلَى هَذَا فَلَا إِشْكَالَ. لَكِنْ بَقِيَ سُؤَالَ آخَرَ وَهُوَ وَارِدٌ عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَهُوَ: أَنَّ يُقَالُ مَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِصَّةِ بَدْرٍ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤] فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا كَانَ

فِي حَالَةٍ وَالْآخِرَ كَانَ فِي حَالَةٍ أُخْرَى . فَعِنْدَمَا عَايَنَ كُلَّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ رَأَى الْمُسْلِمُونَ الْمُشْرِكِينَ مِثْلِيهِمْ ، أَيْ : أَكْثَرَ مِنْهُمْ بِالضَّعْفِ ، لِيَتَوَكَّلُوا وَيَتَوَجَّهُوا وَيَطْلُبُوا الْإِعَانَةَ مِنْ رَبِّهِمْ ﷻ وَرَأَى الْمُشْرِكُونَ الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الرُّعْبُ وَالْخَوْفُ وَالْجَزَعُ وَالْهَلَعُ ، ثُمَّ لَمَّا حَصَلَ التَّصَافُ وَالتَّقَى الْفَرِيقَانِ قَلَّلَ اللَّهُ هَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَوْلًا ، وَهَوْلًا فِي أَعْيُنِ هَوْلًا لِيُقَدِّمَ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرَ ﴿ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ أَيْ : لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَيُظْهِرَ كَلِمَةَ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، وَيُعِزَّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُذِلَّ الْكَافِرِينَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ أَيْ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن لَهُ بَصِيرَةٌ وَفَهْمٌ لِيَهْتَدِيَ بِهِ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَقَدْرِهِ الْجَارِي بِنَصْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ .

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرِثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿٥١﴾ قُلْ أُوْنِتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا زَيْنَ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ أَنْوَاعِ الْمَلَاذِّ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ فَبَدَأَ بِالنِّسَاءِ لِأَنَّ الْفِتْنَةَ بَيْنَهُنَّ أَشَدُّ ، كَمَا نَبَتْ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بَيْنَ الْإِعْفَافِ وَكَثْرَةِ الْأَوْلَادِ فَهَذَا مَطْلُوبٌ مَرْغُوبٌ فِيهِ مَدْنُوبٌ إِلَيْهِ ، كَمَا وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِالرَّغِيبِ فِي التَّرْوِيجِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْهُ ، وَإِنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ كَانَ أَكْثَرَهَا نِسَاءً ، وَقَوْلُهُ ﷺ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » (٢) إِنَّ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرْتَهُ ، وَإِنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٠٩٦) ، ومسلم (٢٧٤٠) .

(٢) أخرج هذا القدر مسلم في صحيحه (حديث ١٤٦٧) .

أَمْرَهَا أَطَاعَتْهُ ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا حَفِظَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ «<sup>(١)</sup>» ، وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : « حُبُّ الْبَيْنِ تَارَةٌ يَكُونُ لِلتَّقَاخِرِ وَالزَّيْنَةِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهَذَا مُحَمَّدٌ مَمْدُوحٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »<sup>(٢)</sup>» .

وَحُبُّ الْبَيْنِ تَارَةٌ يَكُونُ لِلتَّقَاخِرِ وَالزَّيْنَةِ ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِتَكْثِيرِ النَّسْلِ وَتَكْثِيرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِمَّنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَهَذَا مُحَمَّدٌ مَمْدُوحٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ « تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ ، فَإِنِّي مُكَاتِرٌ بِكُمْ الْأُمَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »<sup>(٣)</sup> .

وَحُبُّ الْمَالِ كَذَلِكَ تَارَةٌ يَكُونُ لِلْفَخْرِ وَالْحَيْلَاءِ وَالتَّكَبُّرِ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَالتَّجَبُّرِ عَلَى الْفُقَرَاءِ فَهَذَا مَدْمُومٌ ، وَتَارَةٌ يَكُونُ لِلنَّفَقَةِ فِي الْقُرْبَاتِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَالْقَرَابَاتِ وَوُجُوهِ الْبِرِّ وَالطَّاعَاتِ ، فَهَذَا مَمْدُوحٌ مُحَمَّدٌ شَرَعًا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مِقْدَارِ الْقِنْطَارِ عَلَى أَقْوَالٍ وَحَاصِلُهَا أَنَّهُ الْمَالُ الْجَزِيلُ .

وَحُبُّ الْخَيْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : تَارَةٌ يَكُونُ رَبِطُهَا أَصْحَابَهَا مُعَدَّةً لِسَبِيلِ اللَّهِ مَتَى احتاجوا إِلَيْهَا غَزَوْا عَلَيْهَا فَهَؤُلَاءِ يُثَابُونَ ، وَتَارَةٌ تُرَبِّطُ فَحْرًا وَنَوَاءً لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَهَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَزَر ، وَتَارَةٌ لِلتَّعَفُّفِ وَاقْتِنَاءِ نَسْلِهَا وَلَمْ يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا فَهَذِهِ لِصَاحِبِهَا سِتْرٌ كَمَا سَيَأْتِي الْحَدِيثُ بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وَأَمَّا الْمُسَوِّمَةُ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْمُسَوِّمَةُ : الرَّاعِيَةُ وَالْمُطَهَّمَةُ الْحِسَانُ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُسَوِّمَةُ : الْغُرَّةُ وَالتَّحْجِيلُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يَعْنِي : الْإِبِلَ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمَ ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ يَعْنِي : الْأَرْضَ الْمُتَخَذَةَ لِلْغِرَاسِ وَالزَّرَاعَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أَي : إِنَّمَا هَذَا زَهْرَةٌ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتُهَا الْفَانِيَةُ الرَّائِلَةُ ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ﴾ أَي : حُسْنُ الْمَرْجِعِ وَالثَّوَابِ ﴿ قُلْ أُوْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ دَلِكُمْ ﴾ أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ : أَوْخِرْكُمْ بِخَيْرٍ

(١) هذا القدر أخرجه النسائي في سننه (٦٨/٢) من طريق الليث عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة مرفوعاً، وفي رواية ابن عجلان عن سعيد عن أبي هريرة مرفوعاً بعض الكلام لكن للحدِيث شواهد .

(٢) في إسناده كلام ، وقد أخرجه أحمد في المسند (٢٨٥/٣) ، وقد فصلت الكلام في هذا في جامع أحكام النساء (١٣/٣) .

(٣) صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ٢٠٥٠) .



مَّا زُيِّنَ لِلنَّاسِ : فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ زَهْرَتِهَا وَنَعِيمِهَا الَّذِي هُوَ زَائِلٌ لَا مَحَالَةَ ؟  
 ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾  
 أَي : تَنْخَرِقُ بَيْنَ جَوَانِبِهَا وَأَرْجَائِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَشْرِبَةِ مِنَ الْعَسَلِ وَاللَّبَنِ  
 وَالْحَمْرِ وَالْمَاءِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ  
 بَشَرٍ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : مَا كَثِيرِينَ فِيهَا أَبَدَ الْأَبَادِ ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿ وَأَزْوَاجٌ  
 مُطَهَّرَةٌ ﴾ أَي : مِنَ الدَّنَسِ وَالْحَبَثِ وَالْأَذَى وَالْحَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْتَرِي  
 نِسَاءَ الدُّنْيَا ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ ﴾ أَي : يَحُلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانُهُ فَلَا يَسْحَطُ عَلَيْهِمْ  
 بَعْدَهُ أَبَدًا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي فِي بَرَاءَةِ ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنْ رَبِّ اللَّهِ  
 أَكْبَرُ ﴾ [ التوبة : ٧٢ ] أَي : أَعْظَمُ مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ الْمُقِيمِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ ﴾ أَي : يُعْطِي كُلًّا بِحَسَبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْعَطَاءِ .

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾  
 الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ  
 بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

يَصِفُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ ، فَقَالَ تَعَالَى :  
 ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أَي : بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾  
 أَي : بِإِيَابِنَا بِكَ ، وَبِمَا شَرَعْتَهُ لَنَا ، فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، وَتَقْصِرْنَا مِنْ أَمْرِنَا بِفَضْلِكَ  
 وَرَحْمَتِكَ ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : فِي قِيَامِهِمْ بِالطَّاعَاتِ  
 وَتَرْكِهِمُ الْمُحَرَّمَاتِ ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ مِنْ إِيَابِهِمْ بِمَا يَلْتَزِمُونَهُ مِنْ  
 الْأَعْمَالِ الشَّقَاةِ ﴿ وَالْقَانِتِينَ ﴾ وَالْقَنُوتِ : الطَّاعَةَ وَالْحُضُوعَ ﴿ وَالْمُنْفِقِينَ ﴾  
 أَي : مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي جَمِيعِ مَا أَمُرُوا بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَالْقَرَابَاتِ ،  
 وَسَدِّ الْخَلَّاتِ ، وَمُوَاسَاةِ ذَوِي الْحَاجَاتِ ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ دَلَّ عَلَى  
 فَضِيلَةِ الاسْتِغْفَارِ وَقَتِ الْأَسْحَارِ . وَبَيَّنَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (( يَنْزِلُ اللَّهُ  
 تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ فَيَقُولُ : هَلْ

مَنْ سَأَلَ فَأَعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَاسْتَجِيبَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَعْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ (١)،  
وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: مِنْ كُلِّ اللَّيْلِ قَدْ أَوْتَرَ  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَوْلِيهِ، وَأَوْسَطِهِ، وَأَخْرَجَهُ، فَانْتَهَى وَتَرَهُ إِلَى السَّحْرِ (٢).

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٠﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا  
اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ  
وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧١﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ  
أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ  
ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ  
وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٧٢﴾

شَهِدَ تَعَالَى وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ وَأَعَدَّهُمْ وَأَصْدَقُ الْقَائِلِينَ  
﴿ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أَي: الْمُنْفَرِدُ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْخَلَائِقِ، وَأَنَّ الْجَمِيعَ عِبِيدُهُ  
وَخَلْقُهُ، وَفُقَرَاءُ إِلَيْهِ وَهُوَ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا  
أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦]،  
ثُمَّ قَرَنَ شَهَادَةَ مَلَائِكَتِهِ وَأُولِي الْعِلْمِ بِشَهَادَتِهِ فَقَالَ: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلْعُلَمَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ﴿ قَائِمًا  
بِالْقِسْطِ ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ، وَهُوَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَذَلِكَ ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾  
تَأَكِيدُ لِمَا سَبَقَ ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الْعَزِيزُ: الَّذِي لَا يُرَامُ جَنَابُهُ عَظَمَةً وَكِبْرِيَاءً،  
الْحَكِيمُ: فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ إِخْبَارًا مِنْهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَا دِينَ عِنْدَهُ  
يَقْبَلُهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَهُوَ اتِّبَاعُ الرُّسُلِ فِيمَا بَعَثَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى

(١) صحيح: وقد أخرجه البخاري (حديث ١١٤٥)، ومسلم (حديث ٧٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٩٩٦)، ومسلم (حديث ٧٤٥).

حُتِمُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِي سَدَّ جَمِيعَ الطَّرِيقِ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ  
بَعْدَ بَعْتِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِدِينٍ عَلَى غَيْرِ شَرِيعَتِهِ فَلَيْسَ بِمُتَقَبَّلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ  
غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [ آل عمران : ٨٥ ] .  
وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُخْبِرًا بِانْحِصَارِ الدِّينِ الْمُتَقَبَّلِ مِنْهُ عِنْدَهُ فِي الْإِسْلَامِ ﴿ إِنَّ الدِّينَ  
عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الدِّينَ الْأَوَّلَ أَوْتُوا الْكِتَابَ الْأَوَّلَ إِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَعْدَمَا قَامَتْ عَلَيْهِمُ  
الْحُجَّةُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ  
أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أَي: بَعَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ،  
فَاخْتَلَفُوا فِي الْحَقِّ لِتَحَاسُدِهِمْ وَتَبَاغُضِهِمْ وَتَدَابُرِهِمْ، فَحَمَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْبَعْضِ  
الْآخِرِ عَلَى مُحَالَفَتِهِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ  
يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أَي: مَنْ جَحَدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾  
أَي: فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ وَيُحَاسِبُهُ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَيُعَاقِبُهُ عَلَى مُحَالَفَتِهِ كِتَابَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ ﴾ أَي: جَادَلُوكَ فِي التَّوْحِيدِ ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ  
لِلَّهِ وَمَنْ آتَبَعَنِي ﴾ أَي: فَقُلْ أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي لِلَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نِدْلَهُ، وَلَا  
وَلَدَ، وَلَا صَاحِبَةَ لَهُ ﴿ وَمَنْ آتَبَعَنِي ﴾ أَي: عَلَى دِينِي يَقُولُ كَمَقَالَتِي، كَمَا قَالَ: ﴿ قُلْ  
هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [ يوسف : ١٠٨ ]، ثُمَّ قَالَ  
تَعَالَى أَمْرًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ وَدِينِهِ وَالذُّخُولِ فِي شَرْعِهِ،  
وَمَا بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ: الْكِتَابِيِّينَ مِنَ الْمَلِيِّينَ، وَالْأُمِّيِّينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ  
لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا  
عَلَيْكَ الْبَلْغُ ﴾ أَي: وَاللَّهُ عَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ وَمَأْتَبُهُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَهْدِي  
مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى:  
﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أَي: هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهُدَايَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الضَّلَالَةَ، وَهُوَ  
الَّذِي ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ [ الأنبياء : ٢٣ ]، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِحِكْمَتِهِ  
وَرَحْمَتِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَأَمْثَالُهَا مِنْ أَصْرَحِ الدَّلَالَاتِ عَلَى عُمُومِ بَعْتِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ ضَرُورَةٌ وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ وَحَدِيثٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> وَغَيْرِهِمَا مِمَّا ثَبَتَتْ تَوَاتُرُهُ بِالْوَقَائِعِ الْمُتَعَدِّدَةِ أَنَّهُ ﷺ بَعَثَ كُتْبَهُ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ مُلُوكَ الْأَفَاقِ وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ كِتَابِيَهُمْ وَأُمِّيَهُمْ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِأَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ وَمَاتَ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ »<sup>(٢)</sup> ، وَقَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً »<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَضُوءَهُ ، وَيُنَاوِلُهُ نَعْلَيْهِ ، فَمَرَّصَ ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « يَا فُلَانُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، فَظَنَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَسَكَتَ أَبُوهُ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ ، فَظَنَرَ إِلَى أَبِيهِ ، فَقَالَ أَبُوهُ : أَطْعَمَ أَبَا الْقَاسِمِ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ »<sup>(٤)</sup> .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِغَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٢﴾

هَذَا ذَمٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا ازْتَكَبُوهُ مِنَ الْمَائِمِ وَالْمَحَارِمِ ، فِي تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا الَّتِي بَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهَا الرُّسُلُ ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَعِنَادًا لَهُمْ

(١) انظر البخاري في أطراف (حديث ٦٥) ، ومسلم عقب حديث (٢٠٩٢) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ١٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٥) ، وفي عدة مواطن من صحيحه ، ومسلم (حديث ٥٢١) ، وغيرهما .

(٤) انظر البخاري (حديث ١٣٥٦) .

وَتَعَاظَمُوا عَلَى الْحَقِّ وَاسْتِنكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللَّهِ شُرْعَهُ ، بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيْمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ إِلَّا لِيَكُونَهُمْ دَعْوَاهُمْ إِلَى الْحَقِّ ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ ، وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْكِبْرِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمْطُ النَّاسِ » (١) . وَهَذَا لَمَّا أَنْ تَكَبَّرُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَاسْتَكْبَرُوا عَلَى الْخَلْقِ ، قَابَلَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِالذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْمُهِينِ فِي الْآخِرَةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أَي : مُوجِعٍ مُهِينٍ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرَضُونَ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْمُتَمَسِّكِينَ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - بِكِتَابِهِمْ اللَّذِينَ بِأَيْدِيهِمْ وَهُمَا التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ، وَإِذَا دُعُوا إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى مَا فِيهِمَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِيهِمَا ، مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرَضُونَ عَنْهُمَا ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنْ ذَمِّهِمْ وَالتَّنْوِيهِ بِذِكْرِهِمْ بِالْمُخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أَي : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ وَجَرَائِهِمْ عَلَى مُخَالَفَةِ الْحَقِّ افْتِرَائُهُمْ عَلَى اللَّهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُعَذَّبُونَ فِي النَّارِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَنْ كُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ فِي الدُّنْيَا يَوْمًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أَي : ثَبَّتَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ الْبَاطِلِ مَا خَدَعُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ، مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَمَسُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ افْتَرَوْا هَذَا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَاحْتَلَفُوهُ وَلَمْ يُنْزِلِ اللَّهُ بِهِ سُلْطَانًا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُتَهَدِّدًا لَهُمْ وَمُتَوَعِّدًا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أَي : كَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ وَقَدْ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَهُ وَالْعُلَمَاءَ مِنْ قَوْمِهِمُ الْأَمْرِينَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِينَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى سَائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَحَاكِمٌ عَلَيْهِمْ وَمُجَارِبُهُمْ بِهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أَي : لَا شَكَّ فِي وَقُوعِهِ وَكَوْنِهِ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ مُعْظَمًا لِرَبِّكَ ، وَشَاكِرًا لَهُ ، وَمُفَوِّضًا إِلَيْهِ ، وَمُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ ﴿اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمَلِكِ﴾ أَي : لَكَ الْمَلِكُ كُلُّهُ ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أَي : أَنْتَ الْمُعْطِي وَأَنْتَ الْمَانِعُ ، وَأَنْتَ الَّذِي مَا شِئْتَ كَانَ وَمَا لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ وَإِرْشَادٌ إِلَى شُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهَذِهِ الْأُمَّةُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَوَّلَ النُّبُوَّةَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى النَّبِيِّ الْعَرَبِيِّ الْقُرَشِيِّ الْأُمِّيِّ الْمَكِّيِّ ، خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَرَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مَحَاسِنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ ، وَخَصَّهُ بِخَصَائِصٍ لَمْ يُعْطِهَا نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا رَسُولًا مِنَ الرُّسُلِ ، فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ وَاطِّلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ ، وَكَشْفِهِ لَهُ عَنْ حَقَائِقِ الْأَخْرَةِ وَنَشْرِ أُمَّتِهِ فِي الْأَفَاقِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَشَرْعِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ - فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ - وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكَ الْمَلِكِ﴾ الْآيَةَ ، أَي : أَنْتَ الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِكَ ، الْفَعَّالُ لِمَا تُرِيدُ ، كَمَا رَدَّ تَعَالَى عَلَى

مَنْ يَحْكُمْ عَلَيْهِ فِي أَمْرِهِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] قَالَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] . أَي : نَحْنُ نَتَصَرَّفُ فِيمَا خَلَقْنَا كَمَا نُرِيدُ بِلَا مُنَاجٍ وَلَا مُدَافِعٍ ، وَكُنَّا الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ وَالْحُجَّةَ التَّامَّةَ فِي ذَلِكَ وَهَكَذَا يُعْطِي النُّبُوَّةَ لِمَنْ يُرِيدُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا

بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٢١]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أَي : تَأْخُذُ مِنْ طَوْلِ هَذَا فَتُرِيدُهُ فِي قِصْرِ هَذَا فَيَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ تَأْخُذُ مِنْ هَذَا فِي هَذَا فَيَتَفَاوَتَانِ ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ، وَهَكَذَا فِي فُصُولِ السَّنَةِ رَيْبَعًا وَصَيْفًا وَخَرِيفًا وَشِتَاءً .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أَي : تُخْرِجُ الزَّرْعَ مِنَ الْحَبِّ وَالْحَبَّ مِنَ الزَّرْعِ ، وَالنَّخْلَةَ مِنَ النَّوَاةِ ، وَالنَّوَاةَ مِنَ النَّخْلَةِ ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ ، وَالذَّجَاجَةَ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالْبَيْضَةَ مِنَ الذَّجَاجَةِ . وَمَا جَرَى هَذَا الْمَجْرَى فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أَي : تُعْطِي مَنْ شِئْتَ مِنَ الْمَالِ مَا لَا يَعْذُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِحْصَائِهِ ، وَتَقْتَرُ عَلَىٰ آخِرِينَ ، لِمَا لَكَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ وَالْعَدْلِ .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

نَهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَىٰ ذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أَي : وَمَنْ يَرْتَكِبْ نَهْيَ اللَّهِ فِي هَذَا فَقَدْ بَرَىٰ مِنَ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَّأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ ﴾ - إِلَىٰ أَنْ قَالَ - ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَّأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴿ [ المائدة : ٥١ ] ، وَقَالَ سُبْحَانَهُ  
وَتَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْرَابِ ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿ [ الأنفال : ٧٣ ]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً ﴾ أَي : مَنْ خَافَ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ  
وَالْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ بِظَاهِرِهِ لَا بِبَاطِنِهِ وَنَيْتِهِ ﴿ وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ  
نَفْسَهُ ﴾ أَي : يُحَذِّرُكُمْ نَفْسَتَهُ فِي مُحَالَفَتِهِ وَسَطْوَتِهِ وَعَذَابِهِ ، لَنْ وَالِي أَعْدَاءَهُ وَعَادَى  
أَوْلِيَاءَهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ لِيَجَازِيَ  
كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمَ مَا فِي  
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ يَوْمَ تَجِدُ  
كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ  
بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٧﴾

يُخْبِرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ أَنَّهُ يَعْلَمُ السَّرَائِرَ وَالضَّمَائِرَ وَالظَّوَاهِرَ ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَى  
عَلَيْهِ مِنْهُمْ خَافِيَةٌ ، بَلْ عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِهِمْ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَالْأَزْمَانِ ، وَالْأَيَّامِ ،  
وَاللَّحْظَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَجَمِيعِ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ  
مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَالْبِحَارِ وَالْجِبَالِ ﴿ وَاللَّهُ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : وَقُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، وَهَذَا تَنْبِيهُ مِنْهُ لِعِبَادِهِ  
عَلَى خَوْفِهِ وَخَشْيَتِهِ ، لِئَلَّا يَرْتَكِبُوا مَا نَهَى عَنْهُ وَمَا يُبْغِضُهُ مِنْهُمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِجَمِيعِ  
أُمُورِهِمْ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مُعَاجَلَتِهِمْ بِالْعُقُوبَةِ ، وَإِنْ أَنْظَرَ مَنْ أَنْظَرَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يُمْهَلُ  
ثُمَّ يَأْخُذُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ . وَهَذَا قَالَ بَعْدَ هَذَا ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ  
مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ الْآيَةُ . يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحْضَرُ لِلْعَبْدِ جَمِيعُ أَعْمَالِهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [ القيامة : ١٣ ] فَمَا رَأَى مِنْ  
أَعْمَالِهِ حَسَنًا سَرَّهُ ذَلِكَ وَأَفْرَحَهُ ، وَمَا رَأَى مِنْ قَبِيحٍ سَاءَهُ وَغَصَّه ، وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ تَبَرَّأَ



منه ، وَأَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا أَمَدٌ بَعِيدٌ ، كَمَا يَقُولُ لِشَيْطَانِهِ الَّذِي كَانَ مَقْرُونًا بِهِ فِي الدُّنْيَا -  
 وَهُوَ الَّذِي جَرَّاهُ عَلَى فِعْلِ الشُّؤْمِ - : ﴿ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ  
 الْقَرِينُ ﴾ [ الزخرف : ٣٨ ] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُؤَكِّدًا وَمُهَدِّدًا وَمَتَوَعِّدًا ﴿ وَيَحْذَرِكُمْ اللَّهُ  
 نَفْسَهُ ﴾ أَي : يُخَوِّفُكُمْ عِقَابَهُ .

ثُمَّ قَالَ جَلَّ جَلَالُهُ مُرْجِيًا لِعِبَادِهِ لِيَتَلَّ بِبِنَاسُوا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَقْنَطُوا مِنْ لُطْفِهِ ﴿ وَاللَّهُ  
 رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ : مَنْ رَأَفْتِهِ بِهِمْ حَذَرْتَهُمْ نَفْسَهُ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَي رَحِيمٌ  
 بِخَلْقِهِ يُحِبُّ لَهُمْ أَنْ يَسْتَقِيمُوا عَلَى صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَدِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَأَنْ يَتَّبِعُوا  
 رَسُولَهُ الْكَرِيمَ .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ  
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٦﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ  
 الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَوَلَّيَسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ  
 الْمُحَمَّدِيَّةِ ، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالِدِينَ  
 النَّبَوِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ :  
 « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » (١) ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ  
 اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ أَي : يَخْضُلُ لَكُمْ فَوْقَ مَا طَلَبْتُمْ مِنْ مَحَبَّتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَهُوَ  
 مَحَبَّتُهُ إِيَّاكُمْ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ :  
 زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَابْتَلَاهُمْ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : بِاتِّبَاعِكُمُ الرَّسُولَ  
 ﷺ يَخْضُلُ لَكُمْ هَذَا مِنْ بَرَكَةِ سِفَارَتِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِلكُلِّ أَحَدٍ مِنْ خَاصِّ وَعَامٍّ ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ

(١) أخرجه مسلم عقب حديث (١٧١٨) ، وانظر البخاري (٢٦٩٧) فهناك بلفظ « من أحدث في أمرنا

هذا ما ليس منه فهو رد » .

تَوَلَّوْا ﴿٣٤﴾ أَي : تَخَالَفُوا عَنْ أَمْرِهِ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُخَالَفَتَهُ فِي الطَّرِيقَةِ كُفْرٌ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ، وَإِنْ ادَّعَى وَرَزَعَمَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُحِبُّ لِلَّهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ حَتَّى يُتَابِعَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ خَاتَمَ الرُّسُلِ ، وَرَسُولَ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِي لَوْ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ بَلِ الْمُرْسَلُونَ بَلِ أَوْلُو الْعَزْمِ مِنْهُمْ فِي زَمَانِهِ مَا وَسَعَهُمْ إِلَّا اتِّبَاعَهُ وَالِدُخُولِ فِي طَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ ﴾ [ آل عمران : ٨١ ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ اخْتَارَ هَذِهِ الْبُيُوتَ عَلَى سَائِرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَاصْطَفَى آدَمَ عليه السلام خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَسْكَنَهُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَهْبَطَهُ مِنْهَا لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَاصْطَفَى نُوحًا عليه السلام وَجَعَلَهُ أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، لَمَّا عَبَدَ النَّاسُ الْأَوْثَانَ ، وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَانْتَقَمَ لَهُ لَمَّا طَالَتْ مُدَّتُهُ بَيْنَ ظَهْرَانِي قَوْمِهِ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ لَيْلًا وَنَهَارًا سِرًّا وَجَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا فِرَارًا ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ عَنْ آخِرِهِمْ ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَهُ عَلَى دِينِهِ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَاصْطَفَى آلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُ الْبَشَرِ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم وَ « آلَ عِمْرَانَ » وَالْمُرَادُ بِعِمْرَانَ هَذَا : هُوَ وَالِدُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ أُمِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليها السلام .

إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٨﴾

امْرَأَةٌ عِمْرَانَ هَذِهِ هِيَ أُمُّ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَهِيَ حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُودَ . قَالَتْ : يَا رَبِّ ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

أَيُّ : السَّمِيعُ لِدُعَائِي ، الْعَلِيمُ بِنَيْتِي ، وَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مَا فِي بَطْنِهَا أَذْكَرًا أَمْ أُنْثَى . ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ ، ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ﴾ أَيُّ : فِي الْقُوَّةِ وَالْجَلْدِ فِي الْعِبَادَةِ ، وَخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ التَّسْمِيَةِ يَوْمَ الْوِلَادَةِ ، كَمَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنَ السِّيَاقِ ؛ لِأَنَّهُ شَرَعُ مَنْ قَبْلَنَا وَقَدْ حُكِيَ مُفْرَرًا وَبِذَلِكَ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ : « وَوُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَوُلِدَ سَمِّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ »<sup>(١)</sup> ، وَكَذَلِكَ ثَبَتَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ذَهَبَ بِأَخِيهِ حِينَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَحَنَكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ<sup>(٢)</sup> .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(٣)</sup> : أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَوُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ وَوُلِدَ فَمَا أُسْمِيهِ ؟ قَالَ : « سَمِّ ابْنَكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ » ، فَمَا حَدِيثُ سَمْرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كُلُّ غُلَامٍ مَرَّتَيْنِ بَعِيقَتِهِ ، يُدْبِحُ عَنْهُ يَوْمَ السَّابِعِ ، وَيُسَمَّى وَيُحْلَقُ رَأْسُهُ »<sup>(٤)</sup> ، وَرَوَى « وَيُدْمَى » وَهُوَ أَثْبَتٌ وَأَحْفَظُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ إِخْبَارًا عَنْ أُمِّ مَرْيَمَ أَمَّا قَالَتْ : ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أَيُّ : عَوَّذْتُهَا بِاللَّهِ ﷻ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَعَوَّذْتُ ذُرِّيَّتَهَا وَهُوَ وَلَدُهَا عَيْسَى النَّبِيُّ ﷺ فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهَا ذَلِكَ ، كَمَا جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَدُ فَيَسْتَهْلِلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّهِ إِيَّاهُ ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا »<sup>(٥)</sup> ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ إِفْرَعُوا إِن شِئْتُمْ ﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٣١٥) ، وانظر البخاري (حديث ٦١٩٤ ، ٦١٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٧٠) ، ومسلم (حديث ٢١٤٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٦١٨٦) .

(٤) سنده صحيح : أخرجه أبو داود (٢٨٣٨) ، والترمذي (١٥٢٢) ، وغيرهما .

(٥) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٣١) ، ومسلم (٢٣٦٦) .

يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً ، وَأَنَّهُ أَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ، أَيْ : جَعَلَهَا سُكَلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيجًا ، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ الْقُبُولِ ، وَقَرَّمَهَا بِالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، تَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ الْعِلْمَ وَالْخَيْرَ وَالدِّينَ ، فَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بِتَشْدِيدِ الْفَاءِ وَنَصْبِ زَكَرِيَّا عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ ، أَيْ : جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلًا لِسَعَادَتِهَا لِتَقْتَسِمَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا وَعَمَلًا صَالِحًا . قِيلَ : وَلَا تَهُ كَانِ زَوْجُ خَالَتِهَا ، وَقِيلَ : زَوْجُ أُخْتِهَا ، كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ « فَإِذَا بِيحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ » (١) .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سِيَادَتِهَا وَجَلَادَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا فَقَالَ : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ وَجَدَ عِنْدَهَا فَافِكَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، وَفَافِكَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ، وَفِي السُّنَّةِ هَذَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ (٢) فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا ﴿ قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ أَيْ : يَقُولُ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ <sup>ط</sup> قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً <sup>ط</sup> إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١٧٦﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٧٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٧٨﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا <sup>ط</sup> وَأَذْكُرَنَّكَ كَثِيرًا وَسَتِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿١٧٩﴾

لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا <sup>ط</sup> أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ <sup>ط</sup> فَافِكَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَافِكَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ، طَمَعَ حِينَئِذٍ فِي الْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ ضَعُفَ وَوَهَنَ مِنْهُ الْعَظْمُ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ، وَكَانَتْ امْرَأَتُهُ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرَةً وَعَاقِرًا ، لَكِنَّهُ مَعَ هَذَا كُلِّهِ

(١) صحيح : مسلم (حديث ١٦٢) .

(٢) كما في قصة قتل خبيب بن عدي .

سَأَلَ رَبَّهُ وَنَادَاهُ نِدَاءً خَفِيًّا وَقَالَ : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ﴿ أَيُّ : مِنْ عِنْدِكَ ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أَيُّ : وَلَدًا صَالِحًا ﴾ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴾ أَيُّ : خَاطَبَتْهُ الْمَلَائِكَةُ شِفَاهَا خِطَابًا أَسْمَعْتَهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِحْرَابٍ عِبَادَتِهِ ، وَحَمَلٌ خَلْوَتِهِ ، وَمَجْلِسٍ مُنَاجَاتِهِ وَصَلَاتِهِ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا بَشَّرْتَهُ بِهِ الْمَلَائِكَةُ ﴿ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِرَبِّحَى ﴾ أَيُّ : بِوَلَدٍ يُوجَدُ لَكَ مِنْ صُلْبِكَ اسْمُهُ يَحْيَى . ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَيُّ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : هُوَ أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَ بَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ . وَقَالَ قَتَادَةُ : وَعَلَى سُنَّتِهِ وَمِنْهَا جِهَةٌ . ﴿ وَسَيِّدًا ﴾ قِيلَ : الْحَلِيمُ ، وَقِيلَ : سَيِّدًا فِي الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ، وَقِيلَ : هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ . ﴿ وَحَصُورًا ﴾ : هُوَ الَّذِي لَا يَأْتِي النِّسَاءَ .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّهُ مَدْحٌ لِيَحْيَى بِأَنَّهُ حَصُورٌ لَيْسَ أَنَّهُ لَا يَأْتِي النِّسَاءَ ، بَلْ مَعْنَاهُ ، كَمَا قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ : أَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الْفَوَاحِشِ وَالْقَادُورَاتِ ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ تَزْوِيجِهِ بِالنِّسَاءِ الْحَلَالِ وَغَشِيَانِهِنَّ وَإِبْلَادِهِنَّ ، بَلْ قَدْ يُفْهَمُ وَجُودُ النِّسْلِ لَهُ مِنْ دُعَاءِ زَكَرِيَّا الْمُتَقَدِّمِ حَيْثُ قَالَ : ﴿ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ : وَلَدًا لَهُ ذُرِّيَّةً وَنَسْلًا وَعَقِبًا ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هَذِهِ بَشِيرَةٌ ثَانِيَةٌ بِنُبُوَّةِ يَحْيَى بَعْدَ الْبَشِيرَةِ بِوَلَادَتِهِ ، وَهِيَ أَعْلَى مِنَ الْأُولَى كَقَوْلِهِ لِأُمِّ مُوسَى : ﴿ إِنَّا رَأَوْنَاهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنْ أَمْرُسَلِينَ ﴾ [ القصص : ٧ ] فَلَمَّا تَحَقَّقَ زَكَرِيَّا عليه السلام هَذِهِ الْبَشِيرَةَ ، وَأَخَذَ يَتَعَجَّبُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ مِنْهُ بَعْدَ الْكِبَرِ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ﴾ أَيُّ : الْمَلِكُ ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَيُّ : هَكَذَا أَمْرُ اللَّهِ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَلَا يَتَعَاظَمُهُ أَمْرٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أَيُّ : عَلَامَةً أَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى وَجُودِ الْوَلَدِ مِنِّي ﴿ قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾ أَيُّ : إِشَارَةً لَا تَسْتَطِيعُ النُّطْقُ مَعَ أَنَّكَ سَوِيٌّ صَحِيحٌ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ . ثُمَّ أَمْرٌ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْحَالِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ وَسَيَّاتِي طَرْفٌ آخَرٌ فِي بَسْطِ هَذَا الْمَقَامِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ مَرْيَمَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ يَمْرَيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٢٢﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٢٣﴾

هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا خَاطَبَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُمْ بِذَلِكَ ، أَنَّ اللَّهَ قَدِ اصْطَفَاهَا ، أَي : اخْتَارَهَا لِكَثْرَةِ عِبَادَتِهَا وَرَهَادَتِهَا وَشَرَفِهَا وَطَهَارَتِهَا مِنَ الْأَكْذَارِ وَالْوَسَاوِسِ ، وَاصْطَفَاهَا ثَانِيًا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِحِلَالَتِهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ .

كَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ ، أَحَنَاهُ عَلَى وُلْدٍ فِي صِغَرِهِ ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ » (١) « وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ » (٢) ، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » (٣) .

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ » (٤) . وَلَفْظُ الْبَخَارِيِّ « كَمُلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ ، وَإِنْ فَضَلَ عَائِشَةُ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضَلَ الثَّرِيدُ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ » .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ أَمَرُوهَا بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ وَالْخُشُوعِ وَالسُّجُودِ وَالذَّابِّ فِي الْعَمَلِ ، لِمَا يُرِيدُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ ، مِمَّا فِيهِ مِحْنَةٌ لَهَا ، وَرَفْعَةٌ فِي الدَّارَيْنِ ، بِمَا أَظْهَرَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ حَيْثُ خَلَقَ مِنْهَا وَلَدًا مِنْ غَيْرِ أَبِي ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمْرَيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥٠٨٢) ، ومسلم (٢٥٢٧) .

(٢) وقوله ، ولم تركب مريم ... من كلام أبي هريرة ؓ ، انظر البخاري (حديث ٣٤٣٤) .

(٣) البخاري حديث رقم (٣٤٣٢) ، ومسلم حديث رقم (٢٤٣٠) .

(٤) البخاري (حديث رقم ٣٤١١) ، ومسلم (حديث رقم ٢٤٣١) .

(٥) حديث رقم (٣٤١١) .

الرَّكِعِينَ ﴿١١٦﴾ أَمَّا الْقنُوتُ : فَهُوَ الطَّاعَةُ فِي خُشُوعٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنُوتُونَ ﴾ [البقرة: ١١٦] ، وَالْقنُوتُ : هُوَ طَوْلُ الرُّكُوعِ فِي الصَّلَاةِ ، يَعْنِي : امْتِثَالًا لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّكْعِينَ ﴾ أَي : كُونِي مِنْهُمْ .

ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِهِ بَعْدَمَا أَطْلَعَهُ عَلَى جَلِيَّةِ الْأَمْرِ : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ أَي : نَقَضُهُ عَلَيْكَ ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أَي : مَا كُنْتَ عِنْدَهُمْ يَا مُحَمَّدُ فَتُخْبِرَ عَنْهُمْ عَنْ مُعَايِنَةِ عَمَّا جَرَى ، بَلْ أَطْلَعَكَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، كَأَنَّكَ حَاضِرٌ وَشَاهِدٌ لِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ حِينَ اقْتَرَعُوا فِي شَأْنِ مَرْيَمَ أَيُّهُمْ يَكْفُلُهَا ، وَذَلِكَ لِرِغْبَتِهِمْ فِي الْأَجْرِ . قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : أَيُّهُمْ ذَهَبُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ ، وَاقْتَرَعُوا هُنَالِكَ عَلَى أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فَأَيُّهُمْ يَثْبُتُ فِي جَرِيَةِ الْمَاءِ فَهُوَ كَافِلُهَا ، فَالْقُوا أَقْلَامَهُمْ فَاحْتَمَلَهَا الْمَاءُ إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا فَإِنَّهُ ثَبَتَ ، وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ كَبِيرُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَعَالِمُهُمْ وَإِمَامُهُمْ وَنَبِيَّهُمْ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٨﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٩﴾

هَذِهِ بَشَارَةٌ مِنَ الْمَلَأِكَةِ لِمَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - بِأَنْ سَيُوجَدُ مِنْهَا وَلَدٌ عَظِيمٌ لَهُ شَأْنٌ كَبِيرٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أَي : بِوَلَدٍ يَكُونُ وَجُودُهُ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، أَي : يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ، وَهَذَا تَفْسِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ كَمَا ذَكَرَهُ الْجُمْهُورُ عَلَى مَا سَبَقَ بَيَانُهُ ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ أَي : يَكُونُ هَذَا مَشْهُورًا فِي الدُّنْيَا يَعْرِفُهُ الْمُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ . وَسُمِّيَ الْمَسِيحُ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : لِكَثْرَةِ سِيَاحَتِهِ ، وَقِيلَ : لِأَنَّهُ كَانَ مَسِيحَ الْقَدَمَيْنِ

لَا أَخْصَصْهُمَا، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا مَسَحَ أَحَدًا مِنْ ذَوِي الْعَاهَاتِ بَرِيءٌ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ نِسْبَةٌ إِلَى أُمِّهِ حَيْثُ لَا أَبَ لَهُ ﴿وَجِيهًا فِي  
 الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أَي: لَهُ وَجَاهَةٌ وَمَكَانَةٌ عِنْدَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا بِمَا يُوجِبُهُ  
 اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وَيُنزِلُهُ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ بِهِ، وَفِي  
 الدَّارِ الْآخِرَةِ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ فِيمَنْ يَأْذَنُ لَهُ فِيهِ فَيَقْبَلُ مِنْهُ أَسْوَدٌ بِإِخْوَانِهِ مِنْ أُوْلِي  
 الْعَرْمِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

قَوْلُهُ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَي: يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ لَا  
 شَرِيكَ لَهُ فِي حَالِ صِغَرِهِ مُعْجِزَةً وَآيَةً، وَفِي حَالِ كُهُولَتِهِ حِينَ يُوحِي اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿وَمِنَ  
 الصَّالِحِينَ﴾ أَي: فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ لَهُ عِلْمٌ صَحِيحٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ .  
 عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى  
 وَصَبِيٌّ كَانَ فِي زَمَنِ جُرْجِجٍ، وَصَبِيٌّ آخَرٌ»<sup>(١)</sup>.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِشَارَةَ الْمَلَائِكَةِ هَذَا بِذَلِكَ عَنِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ فِي مُنَاجَاتِهَا: ﴿رَبِّ أُنِّي  
 يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ تَقُولُ: كَيْفَ يُوجِدُ هَذَا الْوَلَدَ مِنِّي وَأَنَا لَسْتُ  
 بِذَاتِ زَوْجٍ وَلَا مِنْ عَزْمِي أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَلَسْتُ بِغَيًّا حَاشَا لِلَّهِ، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ عَنِ  
 اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي جَوَابِ ذَلِكَ السُّؤَالِ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أَي: هَكَذَا أَمْرُ  
 اللَّهِ عَظِيمٌ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَصَرَّحَ هَهُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ يَفْعَلُ كَمَا  
 فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا، بَلْ نَصَّ هَهُنَا عَلَى أَنَّهُ يَخْلُقُ لِنَلَّا يَبْقَى لِمُبْطِلِ شُبْهَةٍ، وَأكَّدَ ذَلِكَ  
 بِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَي: فَلَا يَتَأَخَّرُ شَيْئًا، بَلْ يُوجَدُ  
 عَقِيبَ الْأَمْرِ بِلَا مُهْلَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمَجٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]  
 أَي: إِنَّمَا نَأْمُرُ مَرَّةً لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ الشَّيْءُ سَرِيعًا كَلَمَجٍ بِالْبَصَرِ .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٤٦﴾ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي  
 إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِغَايَةِ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ  
 كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ

(١) أخرج البخاري نحوه (حديث ٣٤٣٦)، ومسلم (حديث ٢٥٥٠).



وَالْأَبْرَصَ وَأُخِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ تَمَامِ بَشَارَةِ الْمَلَائِكَةِ لِمَرْيَمَ بِابْنِهَا عِيسَى عليه السلام : إِنَّ اللَّهَ يُعَلِّمُهُ ﴿٥٠﴾ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ . الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ هَاهُنَا : الْكِتَابَةَ ، وَالْحِكْمَةَ : تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ <sup>(١)</sup> . ﴿٥١﴾ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥٢﴾ فَالْتَّوْرَةُ : الْكِتَابُ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ وَالْإِنْجِيلُ : الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَقَدْ كَانَ عِيسَى عليه السلام يَحْفَظُ هَذَا وَهَذَا .

قَوْلُهُ : ﴿٥٣﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٤﴾ قَائِلًا لَهُمْ : ﴿٥٥﴾ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٥٦﴾ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ ، يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ فَيَطِيرُ عَيْنَانَا بِإِذْنِ اللَّهِ عليه السلام ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجَزَةً لَهُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ أَرْسَلَهُ ﴿٥٧﴾ وَأَبْرَىٰ الْأَكْمَةَ ﴿٥٨﴾ قِيلَ : إِنَّهُ الَّذِي يُبْصِرُ نَهَارًا وَلَا يُبْصِرُ لَيْلًا ، وَقِيلَ : بِالْعَكْسِ ، وَقِيلَ : الْأَعْمَى ، وَقِيلَ : الْأَعْمَسُ ، وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي يُوَلِّدُ أَعْمَى وَهُوَ أَشْبَهُ ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الْمُعْجَزَةِ ، وَأَقْوَىٰ فِي التَّحَدِّيِّ ﴿٥٩﴾ وَالْأَبْرَصَ ﴿٦٠﴾ مَعْرُوفٌ ﴿٦١﴾ وَأُخِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : بَعَثَ اللَّهُ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا يُنَاسِبُ أَهْلَ زَمَانِهِ ، فَكَانَ الْغَالِبُ عَلَىٰ زَمَانِ مُوسَىٰ عليه السلام السِّحْرُ وَتَعْظِيمُ السَّحَرَةِ ، فَبَعَثَهُ اللَّهُ بِمُعْجَزَةٍ بَهَرَتِ الْأَبْصَارَ ، وَحَيْرَتِ كُلَّ سَحَّارٍ ، فَلَمَّا اسْتَيْقَنُوا أَنَّهُمْ مِنْ عِنْدِ الْعَظِيمِ الْجَبَّارِ انْقَادُوا لِلْإِسْلَامِ وَصَارُوا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْأَبْرَارِ ، وَأَمَّا عِيسَى عليه السلام فَبُعِثَ فِي زَمَنِ الْأَطْيَاءِ وَأَصْحَابِ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ ، فَجَاءَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ بِمَا لَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُؤَيَّدًا مِنَ الَّذِي شَرَعَ

(١) آية رقم (١٢٩) . قال الحافظ : الحكمة يعني السنة ، وقيل : الفهم في الدين ولا منافاة .

الشريعة ، فَمِنْ أَيْنَ لِلطَّيِّبِ قُدْرَةٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْجَمَادِ ، أَوْ عَلَى مُدَاوَاةِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ ، وَبَعَثَ مَنْ هُوَ فِي قَبْرِهِ رَهِينٌ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .

وَكَذَلِكَ مُحَمَّدٌ ﷺ بُعِثَ فِي زَمَانِ الْفُصْحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ وَتِجَارِيدِ الشُّعْرَاءِ ، فَاتَاهُمْ بِكِتَابٍ مِنَ اللَّهِ ﷻ فَلَوْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ ، أَوْ بِعَشْرِ سُورٍ مِنْ مِثْلِهِ ، أَوْ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَبَدًا ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا أَنْ كَلَامَ الرَّبِّ ﷻ لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَلْقِ أَبَدًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأُنذِرْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ أَي : أُخْبِرْكُمْ بِمَا أَكَلْتُمْ أَحَدَكُمْ الْآنَ ، وَمَا هُوَ مُدْخَرٌ لَهُ فِي بَيْتِهِ لِغَدٍ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أَي : فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ﴿ لآيَةً لَكُمْ ﴾ أَي : عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أَي : مُقَرَّرًا لَهَا وَمُثَبَّتًا ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَسَخَ بَعْضَ شَرِيعَةِ التَّوْرَةِ وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنَ الْقَوْلَيْنِ ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : لَمْ يَنْسَخْ مِنْهَا شَيْئًا وَإِنَّمَا أَحَلَّ لَهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِيهِ فَأَخْطَئُوا ، فَكَشَفَ لَهُمْ عَنِ الْمَغْطَى فِي ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [ الزخرف : ٦٣ ] - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أَي : بِحُجَّةٍ وَدَلَالَةٍ عَلَى صِدْقِي فِيمَا أَقُولُهُ لَكُمْ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﷻ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أَي : أَنَا وَأَنْتُمْ سِوَاءٍ فِي الْعِبَادَةِ لَهُ ، وَالْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ إِلَيْهِ ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ  
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ رَبَّنَا  
ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾  
وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ أَي : اسْتَشْعَرَ مِنْهُمْ التَّصْمِيمَ عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَى الضَّلَالِ قَالَ : ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أَي : مَنْ يَتَّبِعُنِي إِلَى اللَّهِ .

وَالظَّاهِرُ : أَنَّهُ أَرَادَ مَنْ أَنْصَارِي فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ قَبْلَ أَنْ يَهَاجِرَ : « مَنْ رَجُلٌ يُؤَدِّبُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي » (١) حَتَّى وَجَدَ الْأَنْصَارَ فَأَوْوَهُ وَنَصَرُوهُ وَهَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، فَوَاسُوهُ وَمَنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ ﷺ وَأَرْضَاهُمْ . وَهَكَذَا عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ انْتَدَبَ لَهُ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَمَّنُوا بِهِ وَوَارَزُّوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) رَبَّنَا ءَأَمَّنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿ الْحَوَارِيُّونَ : قِيلَ : كَانُوا قَصَارِينَ ، وَقِيلَ : سُمُّوا بِذَلِكَ لِإِيَّاسِ ثِيَابِهِمْ ، وَقِيلَ : صَيَّادِينَ .

وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْحَوَارِيَ النَّاصِرَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرَ ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِي ، وَحَوَارِيَ الزُّبَيْرِ » (٣) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مَلَائِكَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِيمَا هُمُوا بِهِ مِنَ الْفَتَنِ بِعَيْسَى ﷺ وَإِرَادَتِهِ بِالسُّوءِ وَالصَّلْبِ ، حِينَ تَمَالَكُوا عَلَيْهِ وَوَسَّوْا بِهِ إِلَى مَلِكِ ذَلِكَ الزَّمَانِ - وَكَانَ كَافِرًا - أَنَّ هُنَا رَجُلًا يُضِلُّ النَّاسَ ، وَيَصُدُّهُمْ عَنِ طَاعَةِ الْمَلِكِ وَيُفْسِدُ الرَّعَايَا ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَبِّ وَابْنِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ بِمَا تَقَلَّدُوهُ فِي رِقَابِهِمْ وَرَمَوْهُ بِهِ مِنَ الْكُذْبِ وَأَنَّهُ وَلَدُ زَانِيَةٍ حَتَّى اسْتَشَارُوا غَضَبَ الْمَلِكِ فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِ مَنْ يَأْخُذُهُ وَيَصْلُبُهُ وَيُنْكِلُ بِهِ ، فَلَمَّا أَحَاطُوا بِمَنْزِلِهِ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِهِ نَجَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَرَفَعَهُ مِنْ رُوزَنَةِ ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ ، وَأَلْقَى اللَّهُ شَبَهَهُ عَلَى رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ ، فَلَمَّا دَخَلَ أُولَئِكَ اعْتَقَدُوهُ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ عَيْسَى ، فَأَخَذُوهُ وَأَهَانُوهُ وَصَلَبُوهُ وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ الشُّوكَ . وَكَانَ هَذَا مِنْ مَكْرِ اللَّهِ بِهِمْ فَإِنَّهُ نَجَّى نَبِيَّهُ وَرَفَعَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَتَرَكَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ يَعْصَمُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ظَفَرُوا بِطَلَبَتِهِمْ ، وَأَسْكَنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ قَسْوَةً ، وَعِنَادًا لِلْحَقِّ مُلَازِمًا لَهُمْ ،

(١) حسن : أخرجه أحمد (٣/٣٢٢) ، والبيهقي (٩/٩) ، وله شواهد يصح بها ، انظر سنن أبي داود (٤٧٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٧٢٦١) ، ومسلم (٢٤١٥) .

وَأَوْرَثَهُمْ ذَلَّةً لَا تُفَارِقُهُمْ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ۗ ﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره ابني رافعك إلى ﴿ متوفيك ﴾ يعني : بعد ذلك . وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا : النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [ الأنعام : ٦٠ ] . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [ الزمر : ٤٢ ] ، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا »<sup>(١)</sup> الحديث ، وقال تعالى : ﴿ وَبَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴿ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ ﴿٥٧﴾ بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴾ [ النساء : ١٥٦ - ١٥٩ ] وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ عَائِدٌ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَي : وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِعِيسَى ، وَذَلِكَ حِينَ يَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانَهُ<sup>(٢)</sup> ، فَحِينَئِذٍ يُؤْمِنُ بِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ كُلُّهُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَضَعُ الْجِزْيَةَ وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ .

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٢) .

(٢) في تفسير سورة النساء الآيات (١٥٦ - ١٥٩) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي: بِرَفْعِي إِيَّاكَ إِلَى السَّمَاءِ  
﴿ وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ  
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ  
مِن نَّاصِرِينَ ﴾ . وَكَذَلِكَ فَعَلَ بِمَنْ كَفَرَ بِالْمَسِيحِ مِنَ الْيَهُودِ ، أَوْ غَلَا فِيهِ أَوْ أَطْرَاهُ مِنْ  
النَّصَارَى ، عَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَإِزَالَهَ الْأَيْدِي عَنِ الْمَالِكِ ،  
وَفِي الدَّارِ الْآخِرَةِ عَذَابُهُمْ أَشَدُّ وَأَشَقُّ ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ [الرعد: ٣٤]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أَي:  
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الدُّنْيَا بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ ﴿ وَاللَّهُ لَا  
يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ أَي: هَذَا الَّذِي  
قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ فِي أَمْرِ عِيسَى وَمَبْدَأِ مِيلَادِهِ وَكَيْفِيَّةِ أَمْرِهِ ، هُوَ بِمَا قَالَهُ تَعَالَى  
وَأَوْحَاهُ إِلَيْكَ ، وَنَزَّلَهُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَلَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ، ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ  
﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾  
[مريم: ٣٤-٣٥] ، وَهَهُنَا قَالَ تَعَالَى :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ  
كُنْ فَيَكُونُ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ  
فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا  
وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ  
﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

يَقُولُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ

أَبٌ ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ حَيْثُ خَلَقَهُ مِنْ غَيْرِ أَبِي وَلَا أُمٍّ ، بَلْ ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فَالَّذِي خَلَقَ آدَمَ مِنْ غَيْرِ أَبِي قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عِيسَى بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى ، وَإِنْ جَازَ ادَّعَاءَ الْبُتُوَّةِ فِي عِيسَى لِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا مِنْ غَيْرِ أَبِي ، فَجَوَّازٌ ذَلِكَ فِي آدَمَ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى ، وَمَعْلُومٌ بِالِاتِّفَاقِ أَنَّ ذَلِكَ بَاطِلٌ ، فَدَعَاؤُهُ فِي عِيسَى أَشَدُّ بَطْلَانًا وَأَظْهَرُ فَسَادًا ، وَلَكِنَّ الرَّبَّ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ قُدْرَتَهُ لِحَلْفِهِ حِينَ خَلَقَ آدَمَ لَا مِنْ ذَكَرٍ وَلَا مِنْ أُنْثَى ، وَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى ، وَخَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى بِلَا ذَكَرٍ ، كَمَا خَلَقَ بَقِيَّةَ الْبَرِيَّةِ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ : ﴿ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ . أَيُّ : هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْحَقُّ فِي عِيسَى الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا صَاحِبَ سِوَاهُ ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَاهِلَ مَنْ عَانَدَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ عِيسَى بَعْدَ ظُهُورِ الْبَيَانِ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ أَيُّ : نُحْضِرُهُمْ فِي حَالِ الْمُبَاهَلَةِ ﴿ ثُمَّ نَتَّبِعْ ﴾ أَيُّ : نَلْتَعِنُ ﴿ فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ﴾ أَيُّ : مِنَّا وَمِنْكُمْ . وَكَانَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْمُبَاهَلَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هُنَا فِي وَفِدِ نَجْرَانَ : أَنَّ النَّصَارَى لَمَّا قَدِمُوا فَجَعَلُوا يُحَاجُّونَ فِي عِيسَى ، وَيَزْعُمُونَ فِيهِ مَا يَزْعُمُونَ مِنَ الْبُتُوَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ ، فَانزَلَ اللَّهُ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ رَدًّا عَلَيْهِمْ كَمَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ وَغَيْرُهُ .

عَنْ حُدَيْفَةَ ؓ قَالَ : جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ قَالَ : فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَا تَفْعَلْ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَاهُ لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبْنَا مِنْ بَعْدِنَا ، قَالَا : إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا ، فَقَالَ : « لَا بَعْثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ » فَاسْتَشْرَفَ لَهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ » ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ » .<sup>(١)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٠) ، وانظر مسلمًا (٢٤٢٠) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ - فَبَّحَهُ اللَّهُ - إِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ لَا تَيْبَنُهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى رَفَّتَيْهِ ، قَالَ : فَقَالَ : لَوْ فَعَلَ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَيَانًا<sup>(١)</sup> ، وَلَوْ أَنَّ الْيَهُودَ تَمَتُّوا الْمَوْتَ لَمَاتُوا ، وَلَرَأَوْا مَقَاعِدَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وَلَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَالًا وَلَا أَهْلًا .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْصُ الْحَقُّ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي فَصَّصْنَاهُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ فِي شَأْنِ عِيسَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَعْدَلَ عَنْهُ وَلَا مَحِيدَ ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ ٢٤ ﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿ أَي : عَنْ هَذَا إِلَى غَيْرِهِ . ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿ أَي : مَنْ عَدَلَ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ فَهُوَ الْمُفْسِدُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِهِ ، وَسَيَجْزِيهِ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ حُلُولِ نِقْمَتِهِ .

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿ ٢٥ ﴾

هَذَا الْخِطَابُ يُعْمُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمْ ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ﴾ ، وَالْكَلِمَةُ تَطْلُقُ عَلَى الْجُمْلَةِ الْمُفِيدَةِ ، كَمَا قَالَ هَهُنَا ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ أَي : عَدْلٌ وَنِصْفٌ نَسْتَوِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا ، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ لَا وَثْنَا وَلَا صَلِيبًا وَلَا صَنًا وَلَا طَاغُوتًا وَلَا نَارًا وَلَا شَيْئًا بَلْ نُفْرِدُ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذِهِ دَعْوَةٌ جَمِيعِ الرُّسُلِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [ الأنبياء : ٢٥ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [ النحل : ٣٦ ] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي : يُطِيعُ بَعْضُنَا بَعْضًا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ . وَقِيلَ : يَسْجُدُ

(١) أخرج هذا القدر البخاري (٤٩٥٨) معلقًا .

بَعْضُنَا لِبَعْضٍ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ هَذَا النِّصْفِ وَهَذِهِ الدَّعْوَةَ فَاشْهَدُوا أَنْتُمْ عَلَى اسْتِمْرَارِكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ الَّذِي شَرَعَهُ اللَّهُ لَكُمْ .

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ عِنْدَ رِوَايَتِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِي سُفْيَانَ <sup>(١)</sup> فِي قِصَّتِهِ حِينَ دَخَلَ عَلَى قَيْصَرَ فَسَأَلَهُ عَنْ نَسَبِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ صِفَتِهِ وَنَعْتِهِ وَمَا يَدْعُو إِلَيْهِ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ : ثُمَّ جِيءَ بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ فَإِذَا فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرْقَلِ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ : فَأَسْلِمِ تَسْلِمًا ، وَأَسْلِمِ يُؤْتِكَ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ وَ ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ <sup>(٢)</sup> أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ هَتَأْتُمْ هَتَوْلَاءَ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

يُنَكِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي مُحَاجَّتِهِمْ فِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ <sup>(١٤)</sup> وَدَعَايَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ مِنْهُمْ ﴿ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الْآيَةُ ، أَي : كَيْفَ تَدْعُونَ أَيُّهَا الْيَهُودُ أَنَّهُ كَانَ يَهُودِيًّا ، وَقَدْ كَانَ زَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ، وَكَيْفَ تَدْعُونَ أَيُّهَا النَّصَارَى أَنَّهُ كَانَ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا حَدَّثَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بَعْدَ زَمَانِهِ بِدَهْرِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿هَاتِئْتُمْ هُنَّ لَأَن نَّحْجَبَنَّ عَنْكُم مَّا عَرَفْتُمْ لِكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ الآية . هَذَا إِنكَارٌ عَلَى مَنْ يُحَاجُّ فِيمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى تَحَاجُّوا فِي إِبْرَاهِيمَ بِلَا عِلْمٍ وَلَوْ تَحَاجُّوا فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْهُ عِلْمٌ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِأَيْدِيَانِهِمُ الَّتِي شَرَعَتْ لَهُمْ إِلَى حِينِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ لَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمُوا فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ ، فَأَنكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَهُمْ بِرَدِّ مَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الَّذِي يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى حَقَائِقِهَا وَجَلِيَّاتِهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ أَي: مُتَحَنِّنًا عَنِ الشَّرْكِ قَاصِدًا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ كَالَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى يَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] ثَمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: أَحَقُّ النَّاسِ بِمُتَابَعَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَى دِينِهِ ، وَهَذَا النَّبِيُّ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بَعْدَهُمْ .

وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ يَتَّهَلُّوا بِالْكِتَابِ لَمْ يَكْفُرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٢﴾ يَتَّهَلُّوا بِالْكِتَابِ لَمْ يَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٤﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ حَسَدِ الْيَهُودِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَبَغْيِهِمْ إِيَّاهُمْ بِالْإِضْلَالِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ وَبَالَ

ذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ أَنَّهُمْ مَمْكُورٌ بِهِمْ .

قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ أَي : تَعْلَمُونَ صِدْقَهَا وَتَحَقِّقُونَ حَقَّهَا . ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أَي : تَكْتُمُونَ مَا فِي كُتُبِكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَتَحَقِّقُونَهُ . ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . هَذِهِ مَكِيدَةٌ أَرَادُوهَا لِيَلْبِسُوا عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنَ النَّاسِ أَمْرَ دِينِهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اشْتَوَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يُظْهِرُوا الْإِيمَانَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَيُصَلُّوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، فَإِذَا جَاءَ آخِرُ النَّهَارِ ازْتَدُوا إِلَى دِينِهِمْ ؛ لِيَقُولَ الْجَهْلَةُ مِنَ النَّاسِ إِنَّمَا رَدَّاهُمْ إِلَى دِينِهِمْ إِطْلَاعُهُمْ عَلَى نَقِيصَةِ وَعَيْبِ فِي دِينِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : إِذَا لَقِيتُمْ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهَارِ فَاْمِنُوا ، وَإِذَا كَانَ آخِرَهُ فَصَلُّوا صَلَاتَكُمْ لَعَلَّهُمْ يَقُولُونَ : هَؤُلَاءِ أَهْلُ الْكِتَابِ وَهُمْ أَعْلَمُ مِنَّا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ﴾ أَي : تَطْمَئِنُّوا وَتُظْهِرُوا سِرَّكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ، وَلَا تُظْهِرُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَحْتَجُّوا بِهِ عَلَيْكُمْ . ﴿ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ ﴾ أَي : هُوَ الَّذِي يَهْدِي قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِمَا يُنَزِّلُهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ الْآيَاتِ السِّنَاتِ ، وَالذَّلَائِلِ الْقَاطِعَاتِ ، وَالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ ، وَإِنْ كَتَمْتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ مَا بِأَيْدِيكُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ فِي كُتُبِكُمْ الَّتِي نَقَلْتُمُوهَا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ﴾ يَقُولُونَ لَا تُظْهِرُوا مَا عِنْدَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ لِلْمُسْلِمِينَ فَيَتَعَلَّمُوهُ مِنْكُمْ وَيَسْأَلُوكُمْ فِيهِ وَيَمْتَارُونَ بِهِ عَلَيْكُمْ ، لِشِدَّةِ الْإِيمَانِ بِهِ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَي : يَتَّخِذُوهُ حُجَّةً عَلَيْكُمْ بِمَا فِي أَيْدِيكُمْ فَتَقُومُ بِهِ عَلَيْكُمْ الدَّلَالَةُ ، وَتُرْتَكَبُ الْحُجَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ أَلْفُضِلْ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : الْأُمُورُ كُلُّهَا تَحْتَ تَصَرُّفِهِ ، وَهُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِالْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَرُّفِ التَّامِّ ،

وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، فَيُعْمِي بَصَرَهُ وَبَصِيرَتَهُ ، وَيَخْتِمُ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَيَجْعَلُ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، وَ لَهُ الْحُجَّةُ التَّامَّةُ وَالْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ . ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٧٦) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿ أَيُّ : اخْتَصَّكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ الْفَضْلِ بِهَا لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ ، بِمَا شَرَّفَ بِهِ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَهَذَاكُمْ بِهِ إِلَى أَكْمَلِ الشَّرَائِعِ .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّ مِنْهُمْ الْخَوَاتِمَ ، وَيَحذِّرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْاِغْتِرَارِ بِهِمْ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ ﴿ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْمَالِ ﴿ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ أَيُّ : وَمَا دُونَهُ بِطَرِيقِ الْأُولَىٰ أَنْ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴿ أَيُّ : بِالْمَطَالَبَةِ وَالْمُلَازِمَةِ ، وَالْإِلْحَاحِ فِي اسْتِخْلَاصِ حَقِّكَ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا صَنِيعُهُ فِي الدِّينَارِ فَمَا فَوْقَهُ أَوْلَىٰ أَنْ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسَلِّفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ : ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أَشْهَدُهُمْ ، فَقَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا فَقَالَ : ائْتِنِي بِالْكَفِيلِ ، قَالَ : كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا قَالَ : صَدَقْتَ ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَىٰ حَاجَتَهُ ثُمَّ التَّمَسَّ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا لِيَقْدَمَ عَلَيْهِ فِي الْأَجَلِ الَّذِي أَجَلَهُ فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَىٰ صَاحِبِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَتَىٰ بِهَا إِلَىٰ الْبَحْرِ ، فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَسَلَفْتُ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي شَهِيدًا ، فَقُلْتُ : كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ، وَسَأَلَنِي كَفِيلًا ، فَقُلْتُ : كَفَىٰ بِاللَّهِ كَفِيلًا ، فَرَضِي بِكَ وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ ، وَإِنِّي اسْتَوَدَعْتُكَهَا ، فَرَمَىٰ بِهَا فِي الْبَحْرِ حَتَّىٰ وَجَلَتْ فِيهِ ثُمَّ انصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَىٰ بَلَدِهِ فَخَرَجَ

الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ سَلَفُهُ لِيَنْظُرَ لَعَلَّ مَرْكَبًا يَجِيئُهُ بِإِلَهِ ، فَإِذَا بِالْخَشْبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطْبًا ، فَلَمَّا كَسَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ ، ثُمَّ قَدِمَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ تَسَلَّفَ مِنْهُ فَاتَّاهُ بِالْفِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لَأَتِيكَ بِإِلَهِكَ فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ ، قَالَ : هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَى شَيْءٍ ؟ قَالَ : أَلَمْ أَخْبِرْكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ هَذَا ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشْبَةِ ، فَانصَرَفَ بِالْفِ دِينَارٍ رَاشِدًا <sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ أَي : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى جُحُودِ الْحَقِّ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي دِينِنَا حَرَجٌ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْأُمِّيِّينَ وَهُمْ الْعَرَبُ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّهَا لَنَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : وَقَدْ اخْتَلَقُوا هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَاتَّفَكُّوْهَا بِهَذِهِ الضَّلَالَةِ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ الْأَمْوَالِ إِلَّا بِحَقِّهَا ، وَإِنَّمَا هُمْ قَوْمٌ بَهْتٌ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى ﴾ أَي : لَكِنْ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى مِنْكُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِي عَاهَدَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا بُعِثَ ، كَمَا أَخَذَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَّهَاتِهِمْ بِذَلِكَ ، وَاتَّقَى مَحَارِمَ اللَّهِ ، وَاتَّبَعَ طَاعَتَهُ وَشَرِيْعَتَهُ الَّتِي بَعَثَ بِهَا خَاتَمَ رُسُلِهِ وَسَيِّدِهِمْ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأٰخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَاضُونَ عَمَّا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرِ صِفَتِهِ لِلنَّاسِ وَبَيَّانِ أَمْرِهِ ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةَ الْفَاجِرَةَ الْآيْمَةَ بِالْأَثْمَانِ الْقَلِيلَةِ الزَّهِيْدَةِ ، وَهِيَ عُرُوضٌ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الرَّائِلَةِ ﴿ أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْأٰخِرَةِ ﴾ أَي : لَا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْهَا ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ ﴾ أَي : بِرَحْمَةٍ مِنْهُ هُمْ يَعْنِي لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كَلَامَ لُطْفٍ بِهِمْ ، وَلَا

(١) أخرجه البخاري مُعلَقًا (٢٢٩١) .

يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ الرَّحْمَةِ ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ أَي : مِنَ الذُّنُوبِ وَالْأَدْنَسِ ، بَلْ يَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ تَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلْنَذَكُرْ مَا تيسَّرَ مِنْهَا .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَنْ هُمْ ؟ حَسِرُوا وَخَابُوا ، قَالَ : وَأَعَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، قَالَ : « الْمُسْبِلُ وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ ، وَالْمَنَانُ »<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لِقِيِ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانُ » فَقَالَ الْأَشْعَثُ : فِيَّ وَاللَّهِ كَانَ ذَلِكَ ، كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ فَجَحَدَنِي أَرْضِي ، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَكِ بَيْتَةٌ ؟ » قُلْتُ : لَا . فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ : « احْلِفْ » . فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَا يَحْلِفُ فَيَذْهَبُ مَالِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ الْآيَةَ<sup>(٢)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ مَنَعَ ابْنَ السَّبِيلِ فَضْلَ مَاءٍ عِنْدَهُ ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ يَعْنِي كَاذِبًا ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا فَإِنْ أَعْطَاهُ وَفَى لَهُ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ لَمْ يَفِ لَهُ »<sup>(٣)</sup> .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - أَنَّ مِنْهُمْ فَرِيقًا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٤٩ ، ٤٥٥٠) بنحوه ، ومسلم (١٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري بنحوه (حديث ٢٦٧٢) ، ومسلم (حديث ١٠٨) .

مَوَاضِعِهِ وَيُبَدِّلُونَ كَلَامَ اللَّهِ ، وَيُزِيلُونَهُ عَنِ الْمَرَادِ بِهِ لِيُوْهِمُوا الْجَهْلَةَ أَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، كَذَلِكَ وَيَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَهُوَ كَذِبٌ عَلَى اللَّهِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا وَافْتَرَوْا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ يُحَرِّفُونَهُ ، وَلا يَسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُزِيلُ لَفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ ، لَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ وَيَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٦﴾ وَلا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٧﴾

مَا يَنْبَغِي لِشَرِّ آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنَّبُوءَةَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ أُعْبُدُونِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَيْ : مَعَ اللَّهِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يَصْلُحُ لِنَبِيِّ وَلَا لِمُرْسَلٍ فَلَأَنْ لَا يَصْلُحَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَوَّلَى وَالْآخَرَى ، وَهَذَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : لَا يَنْبَغِي هَذَا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ بِعِبَادَتِهِ . قَالَ : ذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ يَعْْبُدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - يَعْنِي أَهْلَ الْكِتَابِ - كَانُوا يَعْْبُدُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [ التوبة : ٣١ ] ، فَالْجَهْلَةُ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ وَمَشَائِخِ الضَّلَالِ يَدْخُلُونَ فِي هَذَا الذَّمِّ وَالتَّوْبِيخِ ، بِخِلَافِ الرُّسُلِ وَاتَّبَاعِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِمَا يَأْمُرُ اللَّهُ بِهِ ، وَبَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامُ ، وَإِنَّمَا يَنْهَوْنَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَبَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهُ رُسُلُهُ الْكَرَامُ . فَالرُّسُلُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - هُمْ السُّفْرَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي آدَاءِ مَا حُمِّلُوهُ مِنَ الرِّسَالَةِ وَإِبْلَاحِ الْأَمَانَةِ ، فَقَامُوا بِذَلِكَ أَنَّهُمُ الْقِيَامُ وَنَصَحُوا الْخَلْقَ وَبَلَّغُوهُمْ الْحَقَّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أَي : وَلَكِنْ يَقُولُ الرَّسُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا رَبَّيْنَ ، أَي : حُكَمَاءَ عُلَمَاءَ حُلَمَاءَ ، وَقِيلَ :

فُقَهَاءَ ، وَقِيلَ : يَعْني أَهْلَ عِبَادَةٍ وَأَهْلَ تَقْوَى . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : حَقٌّ عَلَيَّ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا « تَعْلَمُونَ » أَي : تَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ ، وَقَرِئَ « تَعْلَمُونَ » بِالتَّشْدِيدِ مِنَ التَّعْلِيمِ ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تَحْفَظُونَ الْفَاطَةَ .

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴾ أَي : وَلَا يَأْمُرُكُمْ بِعِبَادَةِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ ، لَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ ، وَلَا مَلِكٍ مُقَرَّبٍ ﴿ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : لَا يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِنَّمَا يَأْمُرُونَ بِالْإِيمَانِ ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِيثَاقَ كُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِمَهْمَا آتَى اللَّهُ أَحَدَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، وَبَلَغَ أَيُّ مَبْلَغٍ ، ثُمَّ جَاءَ رَسُولٌ مِنْ بَعْدِهِ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرُنَّهُ وَلَا يَمْنَعَهُ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالنَّبُوءَةِ مِنْ اتِّبَاعٍ مَنْ بُعِثَ بَعْدَهُ وَنُصِرَتُهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ أَي : لِمَهْمَا أُعْطِيتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْني عَهْدِي ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ إِصْرِي ﴾ أَي : ثِقْلُ مَا حَمَلْتُمْ مِنْ عَهْدِي ، أَي : مِيثَاقِي الشَّدِيدُ ، ﴿ قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿٨٢﴾ . أَي : عَنْ هَذَا الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَابْنُ عَمَّةِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : مَا بَعَثَ اللَّهُ

نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ ، لَئِنْ بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا وَهُوَ حَيٌّ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ ، لَئِنْ بَعَثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءُ لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلِيَنْصُرَنَّهُ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا : أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ أَنْ يُصَدِّقَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهَذَا لَا يُضَادُّ مَا قَالَهُ عَلِيُّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَلَا يَنْفِيهِ بَلْ يَسْتَلْزِمُهُ وَيَقْتَضِيهِ .

فَالرَّسُولُ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ دَائِمًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ الَّذِي لَوْ وُجِدَ فِي أَيِّ عَصْرِ وَوَجِدَ لَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ الطَّاعَةَ ، الْمُقَدَّمُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ ، وَهَذَا كَانَ إِمَامَهُمْ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ لَمَّا اجْتَمَعُوا بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَكَذَلِكَ هُوَ الشَّفِيعُ فِي الْمَحْشَرِ فِي إِثْبَانِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي لَا يَلِيْقُ إِلَّا لَهُ ، وَالَّذِي يَجِيْدُ عَنْهُ أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُلِينَ ، حَتَّى تَنْتَهِيَ النَّوْبَةُ إِلَيْهِ فَيَكُونُ هُوَ الْمُخْصُوصُ بِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ .

أَفْغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُدَّ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُدَّ مُسْلِمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ أَرَادَ دِينًا سِوَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ ، وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَي : اسْتَسْلَمَ لَهُ مَنْ فِيهِمَا طَوْعًا وَكَرْهًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] ، فَالْمُؤْمِنُ مُسْتَسْلِمٌ بِقَلْبِهِ وَقَالِهِ لِلَّهِ ، وَالْكَافِرُ مُسْتَسْلِمٌ لِلَّهِ كَرْهًا ، فَإِنَّهُ تَحْتَ التَّسْخِيرِ ، وَالْقَهْرِ ، وَالسُّلْطَانِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يُخَالَفُ ، وَلَا يُمَانَعُ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ « عَجِبَ رَبُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُفَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ » (١) ، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ لِلآيَةِ أَقْوَى .

(١) أخرجه البخاري (حديث رقم ٣٠١٠) من حديث أبي هريرة ؓ .



عَنْ مُجَاهِدٍ ﴿ وَهُدًى أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قَالَ : هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [ لقمان : ٢٥ ] ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَهُدًى أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قَالَ : حِينَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ . ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي : يَوْمَ الْمَعَادِ فَيَجْازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أَي : مِنَ الصُّحُفِ وَالْوَحْيِ ﴿ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ وَهُمْ بَطُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْمُتَشَعَّبَةِ مِنْ أَوْلَادِ إِسْرَائِيلَ - وَهُوَ يَعْقُوبُ - الْاِثْنَى عَشَرَ ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿ وَالنَّبِيِّاتِ مِنَ رَبِّهِمْ ﴾ وَهَذَا يَعْمُّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ جُمْلَةً ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ فَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ نَبِيٍّ أُرْسِلَ ، وَبِكُلِّ كِتَابٍ أُنزِلَ ، لَا يَكْفُرُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ هُمْ يُصَدِّقُونَ بِمَا أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ الْآيَةُ . أَي : مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا سِوَى مَا شَرَعَهُ اللَّهُ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »<sup>(١)</sup> .

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨١﴾ أَوْلَتِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ خَلْدِينَ فِيهَا لَا تُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٤﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أَي : قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجُجُ وَالْبَرَاهِينُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ

الرَّسُولُ ، وَوَضَحَ لَهُمُ الْأَمْرَ ، ثُمَّ ارْتَدُّوا إِلَى ظُلْمَةِ الشِّرْكِ ، فَكَيْفَ يَسْتَحِقُّ هَؤُلَاءِ الْهُدَايَةَ بَعْدَ مَا تَلَبَّسُوا بِهِ مِنَ الْعِمَايَةِ ؟ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أَي : يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ خَلْقُهُ ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : فِي اللَّعْنَةِ ﴿ لَا تُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ أَي : لَا يُفْتَرَّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ ، وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ سَاعَةً وَاحِدَةً .  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ وَبِرِّهِ وَرَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَائِدَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ ، أَنْ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ آفَتَدَى بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا وَمُهَدِّدًا لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ ثُمَّ أَزْدَادَ كُفْرًا ، أَي : اسْتَمَرَ إِلَى الْمَمَاتِ وَمُخْبِرًا بِأَنَّهُمْ لَنْ يُقْبَلَ لَهُمْ تَوْبَةٌ عِنْدَ الْمَمَاتِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ﴾ [النساء : ١٨] ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ أَي : الْخَارِجُونَ عَنِ الْمَنْهَجِ الْحَقِّ إِلَى طَرِيقِ الْغَيِّ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ آفَتَدَى بِهِمْ ﴾ أَي : مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ خَيْرٌ أَبَدًا ، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَبًا فِيمَا يَرَاهُ قُرْبَةً ، كَمَا سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ ، وَكَانَ يُقْرِئُ الضَّيْفَ وَيَفُكُ الْعَائِي وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، هَلْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « لَا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » (١) ،

وَكَذَلِكَ لَوْ افْتَدَى بِمِلءِ الْأَرْضِ أَيْضًا ذَهَبًا مَا قُبِلَ مِنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ ﴾ [البقرة : ١٢٣] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ ﴾ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴿ [المائدة : ٣٦] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾ فَعَطَفَ ﴿ وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾ عَلَى الْأَوَّلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُهُ .

وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَحْسَنَ مِنْ أَنْ يُقَالَ إِنَّ « الْوَاوِ » زَائِدَةٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ لَا يُنْقِذَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْءٌ ، وَلَوْ كَانَ قَدْ أَنْفَقَ مِثْلَ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، وَلَوْ افْتَدَى نَفْسَهُ مِنَ اللَّهِ بِمِلءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ، بِوَزْنِ جِبَالِهَا وَتِلَافِهَا وَتَرَابِهَا وَرِمَالِهَا وَسَهْلِهَا وَوَعْرِهَا وَبَرِّهَا وَبَحْرِهَا .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ » (١) .

وَعَنْ أَنَسٍ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ ؟ فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ ، خَيْرٌ مَنْزِلٍ فَيَقُولُ : سَلْ وَتَمَنَّ ، فَيَقُولُ : مَا أَسْأَلُ وَلَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ تُرَدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ عَشْرَ مَرَارٍ ، لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ ، وَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ شَرٌّ مَنْزِلٍ ، فَيَقُولُ لَهُ : أَتَفْتَدِي مِنِّي بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ؟ فَيَقُولُ : أَيُّ رَبِّ نَعَمْ ، فَيَقُولُ : كَذَبْتَ ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ ، فَلَمْ تَفْعَلْ ، فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ » (٢) ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ أَيُّ : وَمَا لَهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَلَا يُجِيرُهُمْ مِنْ أَلِيمِ عِقَابِهِ .

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٤) ، ومسلم (٢٨٠٥) ، وغيرهما .

(٢) صحيح : وقد أخرج بعضه أحمد (٣/١٣١ ، ١٣٢) ، مسلم (حديث ٢٨٠٥) .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ « بَيْرُحَاء » ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، قَالَ أَنَسُ : فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قَالَ أَبُو طَلْحَةَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِهَا بَرًّا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَضَعُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « بَخِ بَخِ » ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ » ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفَعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ .

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَاتَوُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ۚ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾

﴿١٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾

قُلْتُ : وَهَذَا السِّيَاقُ مُنَاسِبَتَانِ .

إِحْدَاهُمَا : أَنَّ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ ، وَكَانَ هَذَا سَائِعًا فِي شَرِيْعَتِهِمْ فَلَهُ مُنَاسِبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا ، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ مِمَّا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ وَيَشْتَهِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾

[ الإنسان : ٨ ]

الْمُنَاسِبَةُ الثَّانِيَةُ : لَمَّا تَقَدَّمَ بَيَانُ الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى وَاعْتِقَادِهِمْ الْبَاطِلَ فِي الْمَسِيحِ ، وَتَبْيِينُ زَيْفِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، وَظُهُورُ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ فِي عَيْسَى وَآمِهِ ، كَيْفَ خَلَقَهُ اللَّهُ

بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَبَعَثَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ - قَبْحَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - وَبَيَّنَّ أَنَّ النَّسْخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وَفُوعَهُ وَجَوَازَهُ قَدْ وَقَعَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ ، أَبَاحَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا ، ثُمَّ بَعَدَ هَذَا حَرَمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ لِحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَاقِيَاتِ فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ وَجَاءَتِ التَّوْرَةُ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ ، وَأَشْيَاءَ أُخْرَى زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَ اللَّهُ ﷻ قَدْ أَذِنَ لِأَدَمَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَانَ التَّسْرِي عَلَى الزَّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ فَعَلَهُ إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجِرَ لَمَّا تَسْرَى بِهَا عَلَى سَارَةٍ . وَقَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَةِ عَلَيْهِمْ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْجُمُعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ سَائِعًا ، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَعَ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ثُمَّ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ . وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ عِنْدَهُمْ ، وَهَذَا هُوَ النَّسْخُ بَعِيْنِهِ . فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إِحْلَالِهِ بَعْضَ مَا حَرَّمَ فِي التَّوْرَةِ ، فَمَا بَالُهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ ، بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ ؟ وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَمَلَّةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ فَمَا بَالُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ؟ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ أَي : كَانَ حِلالًا لَهُمْ جَمِيعَ الْأَطْعِمَةِ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ إِسْرَائِيلُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فَإِنَّهَا نَاطِقَةٌ بِمَا قُلْنَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، أَي : فَمَنْ كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ شَرَعَ لَهُمُ السَّبْتَ ، وَالتَّمَسُّكَ بِالتَّوْرَةِ دَائِمًا ، وَإِنَّهُ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا آخَرَ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ ، بَعْدَ هَذَا الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ وَفُوعِ النَّسْخِ وَظُهُورِ مَا ذَكَرْنَا ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ أَي : قُلْ يَا مُحَمَّدُ صَدَقَ اللَّهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَفِيمَا شَرَعَهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أَي : اتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ

وَلَا مَرِيَّةَ ، وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي لَمْ يَأْتِ نَبِيٌّ بِأَكْمَلِ مِنْهَا ، وَلَا أَيْبَنَ وَلَا أَوْضَحَ وَلَا أَتْمَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : ١٦١ ]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَي : لِعُمُومِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهِمْ وَتُسْكِينِهِمْ ، يَطُوفُونَ بِهِ وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ وَيَعْتَكِفُونَ عِنْدَهُ ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ يَعْنِي : الْكَعْبَةَ الَّتِي بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ الْحَلِيلُ عليه السلام الَّذِي يَزْعُمُ كُلُّ مَنْ طَائِفَتِي النَّصَارَى وَالْيَهُودِ أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ وَمَنْهَجِهِ ، وَلَا يَحْجُونَ إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ لَهُ فِي ذَلِكَ وَنَادَى النَّاسَ إِلَى حَجِّهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مُبَارَكًا ﴾ أَي : وُضِعَ مُبَارَكًا ﴿ وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلُ ؟ قَالَ : « الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى » قُلْتُ : كَمْ بَيْنَهُمَا ؟ قَالَ : « أَرْبَعُونَ سَنَةً » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « ثُمَّ حَيْثُ أَدْرَكْتَنكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ بَكَّةٌ مِنْ أَسْمَاءِ مَكَّةَ عَلَى الْمَشْهُورِ . وَقَدْ ذَكَرُوا الْمَكَّةَ أَسْمَاءً كَثِيرَةً : مَكَّةَ ، وَبَكَّةَ ، وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ، وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَالْبَلَدِ الْأَمِينِ ، وَالْمَأْمُونِ ، وَأُمُّ رَحِمٍ ، وَأُمُّ الْقُرَى ، وَصَلَاحَ ، وَالْعَرْشِ عَلَى وَزْنِ بَدْرٍ ، وَالْقَادِسِ ؛ لِأَنَّهَا تُطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ ، وَالْمُقَدَّسَةِ ، وَالنَّاسَةِ بِالنُّونِ وَبِالْبَاءِ أَيْضًا ، وَالْبَاسَةِ ، وَالْحَاطِمَةِ ، وَالرَّاسِ ، وَكَوْنَاءَ ، وَالْبَلَدَةَ ، وَالْبُنْيَةَ ، وَالْكَعْبَةَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ أَي : دَلَالَاتٌ ظَاهِرَةٌ أَنَّهُ مِنْ بِنَاءِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَظَّمَهُ وَشَرَّفَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يَعْنِي : الَّذِي لَمَّا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ اسْتَعَانَ بِهِ عَلَى رَفْعِ الْقَوَاعِدِ مِنْهُ وَالْجُدْرَانِ ، حَيْثُ كَانَ يَقِفُ عَلَيْهِ وَيُنَاوِلُهُ

(١) أخرجه البخاري حديث (٣٣٦٦) ، ومسلم (حديث ٥٢٠) .

وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ ، وَقَدْ كَانَ مُلْتَصِقًا بِجِدَارِ الْبَيْتِ حَتَّى أَخْرَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فِي إِمَارَتِهِ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّرْقِ ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الطُّوَافُ مِنْهُ وَلَا يُشَوِّشُونَ عَلَى الْمُصَلِّينَ عِنْدَهُ بَعْدَ الطُّوَافِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أُنْزِلَ قَدَمَيْهِ فِي الْمَقَامِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ . وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ اللَّامِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ :

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا ﴾ يَعْنِي : حَرَمَ مَكَّةَ إِذَا دَخَلَهُ الْخَائِفُ يَأْمَنُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي حَالِ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ الرَّجُلُ يَقْتُلُ فَيَضَعُ فِي عُنُقِهِ صُوفَةً وَيَدْخُلُ الْحَرَمَ فَيَلْقَاهُ ابْنُ الْمُقْتُولِ فَلَا يُهَيِّجُهُ حَتَّى يُخْرَجَ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [ العنكبوت : ٦٧ ] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [ قريش : ٣-٤ ] ، وَحَتَّى إِنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ تَحْرِيمِهَا حُرْمَةً اضْطِيَادٍ صَيْدِهَا ، وَتَنْفِيرُهَا عَنْ أَوْكَارِهِ ، وَحُرْمَةِ قَطْعِ شَجَرِهَا وَقَلْعِ حَشِيشِهَا ، كَمَا ثَبَتَ الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا . فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلَكِنْ جِهَادٌ ، وَنِيَّةٌ وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا »<sup>(١)</sup> ، وَقَالَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : « إِنْ هَذَا الْبَلَدَ حَرَّمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَمْ يَحِلَّ الْقِتَالُ فِيهِ لِأَحَدٍ قَبْلِي ، وَلَمْ يَحِلَّ لِي إِلَّا فِي سَاعَةٍ مِنْ نَهَارٍ ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ ، وَلَا يُنْفَرُ صَيْدُهُ ، وَلَا تُلْتَقَطُ لِقَطْتُهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا ، وَلَا يُجْتَنَلِي خَلَاهَا » فَقَالَ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْحَرَ فَإِنَّهُ لِيْنِهِمْ وَلِيْبُوتِهِمْ ، فَقَالَ : « إِلَّا الْإِذْحَرَ »<sup>(٢)</sup> . وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْعَدَوِيِّ أَنَّهُ قَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ وَهُوَ يَبْعَثُ الْبُعُوثَ إِلَى مَكَّةَ : ائْذَنْ لِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَنْ أَحَدِّثَكَ قَوْلًا قَامَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْغَدَ مِنْ يَوْمِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٦٤) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

الْفَتْحَ ، سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ ، حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ : أَنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : « إِنْ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ فَلَا يَحِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا ، أَوْ يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً ، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ : إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِنَبِيِّهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدَ الْغَائِبَ » فَقِيلَ لِأَبِي شُرَيْحٍ : مَا قَالَ لَكَ عَمْرُو ؟ قَالَ : أَنَا أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنْكَ يَا أَبَا شُرَيْحٍ ، إِنَّ الْحَرَّمَ لَا يُعِيدُ عَاصِيًا ، وَلَا فَارًّا بَدَمٍ ، وَلَا فَارًّا بِخَرِيَّةٍ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ السَّلَاحَ بِمَكَّةَ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هَذِهِ آيَةٌ وَجُوبِ الْحَجِّ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِأَنَّهُ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَدَعَائِمِهِ وَقَوَاعِيدِهِ ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ذَلِكَ إِجْمَاعًا ضَرُورِيًّا ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ فِي الْعَمْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فُرِضَ عَلَيْكُمُ الْحَجُّ فَحُجُّوا » فَقَالَ رَجُلٌ أَكَلُ عَامَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجِبَتْ ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ » ثُمَّ قَالَ : « ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ »<sup>(٣)</sup> .

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ سُرَّاقَةَ بِنْتِ مَالِكِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مُتَعَتْنَا هَذِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِلْأَبَدِ ؟ قَالَ : « لَا بَلٌ لِلْأَبَدِ » وَفِي رِوَايَةٍ « بَلٌ لِلْأَبَدِ »<sup>(٤)</sup> . وَأَمَّا الْاسْتِطَاعَةُ

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) أخرجه مسلم (١٣٣٧) بنحوه ، وأحمد في المسند (٥٠٨/٢) .

(٤) سؤال سراقَةَ للنبي ﷺ ثابت صحيح في عدة مواطن منها حديث جابر الطويل عند مسلم (١٢١٨) ،

ولكن الحديث ليس في الصحيحين من مسند سراقَةَ ، وإنما هو عند النسائي من مسند سراقَةَ (١٧٩/٥) .



فَأَقْسَامُ تَارَةً يَكُونُ الشَّخْصُ مُسْتَطِيعًا بِنَفْسِهِ ، وَتَارَةً بِيَغْيَرِهِ ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كُتُبِ  
الْأَحْكَامِ .

قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ  
﴿١١٠﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُوهَا  
عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾

هَذَا تَعْنِيفٌ مِّنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ لِلْكَفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَىٰ عِنَادِهِمْ لِلْحَقِّ وَكُفْرِهِمْ  
بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، مَن أَرَادَهُ مِّنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ  
مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ مِّنَ اللَّهِ ، وَبِمَا عِنْدَهُمْ مِّنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ  
الْأَقْدَمِينَ وَالسَّادَةِ الْمُرْسَلِينَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - وَمَا بَشَّرُوا بِهِ  
وَنَوَّهُوا بِهِ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْهَاشِمِيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ ، وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ  
وَرَسُولِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ  
عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ ذَلِكَ بِمَا خَالَفُوا مَا بِيَدَيْهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَمَعَامَلَتِهِمُ الرَّسُولَ الْمُبَشِّرَ بِهِ  
بِالتَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ وَالْعِنَادِ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَيْسَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ، أَيْ  
وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ  
إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١١٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ  
رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١١١﴾

يُحَذِّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَن أَنْ يُطِيعُوا طَائِفَةً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ  
يُحْسِدُونَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَمَا مَنَحَهُمْ مِنْ إِزْسَالِ رَسُولِهِ كَمَا قَالَ  
تَعَالَىٰ : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ  
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [ البقرة : ١٠٩ ] وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾

يَعْنِي : أَنَّ الْكُفْرَ بَعِيدٌ مِنْكُمْ وَحَاشَاكُمْ مِنْهُ ، فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَهُوَ يَتْلُوهَا عَلَيْكُمْ ، وَيُبَلِّغُهَا إِلَيْكُمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَي : وَمَعَ هَذَا فَلَا عِتْصَامَ بِاللَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ هُوَ الْعُمْدَةُ فِي الْهُدَايَةِ ، وَالْعُمْدَةُ فِي مُبَاعَدَةِ الْغَوَايَةِ ، وَالْوَسِيلَةُ إِلَى الرَّشَادِ وَطَرِيقِ السَّدَادِ وَحُصُولِ الْمُرَادِ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٦﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ قَالَ : أَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى ، وَأَنْ يُذَكَّرَ فَلَا يُنْسَى ، وَأَنْ يُشْكَرَ فَلَا يُكْفَرَ . وَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَمْ تُنْسَخْ وَلَكِنْ ﴿ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَيَقُومُوا بِالْقِسْطِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : حَافِظُوا عَلَى الْإِسْلَامِ فِي حَالِ صِحَّتِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ لِتَمُوتُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ قَدْ أَجْرَى عَادَتَهُ بِكَرَمِهِ أَنَّهُ مَنْ عَاشَ عَلَى شَيْءٍ مَاتَ عَلَيْهِ وَمَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بُعِثَ عَلَيْهِ ، فَعِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتَدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ » (١) .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ « لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ ﷻ » (٢) .

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٤٤) .

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٧٧) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَقُولُ اللَّهُ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي »<sup>(١)</sup> .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ قِيلَ : ﴿ بِحَبْلِ اللَّهِ ﴾ أَيُّ :  
 بَعْدِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ  
 وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [ آل عمران : ١١٢ ] أَيُّ : بَعْدِ وَذِمَّةٍ ، وَقِيلَ : ﴿ بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ ﴾  
 يَعْنِي : الْقُرْآنَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ أَمْرُهُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَتَهَاؤُمَ عَنِ التَّفَرُّقَةِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالْأَمْرِ بِالْاجْتِمَاعِ وَالْإِتِّلَافِ  
 فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا وَيَسْخَطُ لَكُمْ  
 ثَلَاثًا ، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا  
 وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنَ وَلَاهَ اللَّهِ أَمْرَكُمْ ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا : قِيلَ وَقَالَ ،  
 وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ »<sup>(٢)</sup> وَقَدْ ضَمِنْتُ لَهُمُ الْعِصْمَةَ عِنْدَ اتِّفَاقِهِمْ مِنَ الْخَطَا ،  
 كَمَا وَرَدَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الْمُتَعَدِّدَةُ أَيْضًا . وَخِيفَ عَلَيْهِمُ الْإِفْتِرَاقُ وَالْإِخْتِلَافُ ،  
 فَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ فَافْتَرَقُوا عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، مِنْهَا فِرْقَةٌ ، نَاجِيَةٌ  
 إِلَى الْجَنَّةِ وَمُسْلِمَةٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، وَهُمْ الَّذِينَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ  
 فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَهَذَا السِّيَاقُ فِي شَأْنِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ،  
 فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ بَيْنَهُمْ حُرُوبٌ كَثِيرَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَعَدَاوَةٌ شَدِيدَةٌ وَضَعَائِنُ وَإِحْنٌ  
 وَذُحُولٌ ، طَالَ بِسَبَبِهَا قِتَالُهُمْ وَالْوَقَائِعُ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَدَخَلَ مَنْ  
 دَخَلَ مِنْهُمْ صَارُوا إِخْوَانًا مُتَحَابِّينَ بِجَلَالِ اللَّهِ ، مُتَوَاصِلِينَ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، مُتَعَاوِينَ  
 عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾  
 وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ  
 اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الأنفال : ٦٢ ] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَكَانُوا عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ  
 بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا ، أَنْ هَدَاهُمْ لِلْإِيمَانِ . وَقَدْ ائْتَنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٥٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥) .

(٢) أخرجه بنحوه (١٧١٥) .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ ، فَعَتَبَ مَنْ عَتَبَ مِنْهُمْ بِمَا فَضَّلَ عَلَيْهِمْ فِي الْقِسْمَةِ ، بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ فَخَطَبَهُمْ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضَلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي ، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلْفَكُمُ اللَّهُ بِي ، وَعَالَةٌ فَأَعَانَاكُمْ اللَّهُ بِي ؟ » فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ . قَالَ شَيْئًا قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنٌ .

وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤٢﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٤٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ مُتَّصِبَةٌ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، قَالَ الضَّحَّاكُ : هُمْ خَاصَّةُ الصَّحَابَةِ وَخَاصَّةُ الرُّوَاةِ يَعْنِي الْمَجَاهِدِينَ وَالْعُلَمَاءَ .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَكُونَ فِرْقَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَّصِدِيَةً لِهَذَا الشَّانِ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بِحَسَبِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ <sup>(١)</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » وَفِي رِوَايَةٍ « وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ » .

(١) انظر ذلك في صحيح البخاري (حديث ٤٣٣٠) ، ومسلم (حديث ١٠٦١) .

(٢) هو عند مسلم (حديث ٤٩) لكن ليس من حديث أبي هريرة <sup>(٢)</sup> بل من حديث أبي سعيد الخدري <sup>(٣)</sup> مرفوعًا ، والزيادة المشار إليها : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » عند مسلم (حديث ٥٠) من حديث آخر ، وهو حديث عبد الله بن مسعود <sup>(٤)</sup> مرفوعًا .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾  
 الآية ، يَنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ أَنْ يَكُونُوا كَالْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ فِي افْتِرَاقِهِمْ  
 وَاخْتِلَافِهِمْ وَتَرْكِهِمْ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .  
 عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ « قَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « ( إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ  
 افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثِ  
 وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلَّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - وَإِنَّهُ  
 سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمُ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ ، لَا يَبْقَى  
 مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ » وَاللَّهُ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيِّكُمْ  
 ﷺ لَنُغَيِّرَنَّكُمْ مِنَ النَّاسِ أُخْرَى أَنْ لَا يَقُومَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ تَبْيَضُّ  
 وُجُوهُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَتَسْوَدُّ وُجُوهُ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَالْفُرْقَةِ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ  
 أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ  
 تَكْفُرُونَ ﴾ وَهَذَا الْوَصْفُ يَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ . ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ  
 اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ مَا كَثُرَتْ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ أَي : هَذِهِ آيَاتُ اللَّهِ وَحُجَجُهُ وَبَيِّنَاتُهُ  
 تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : نَكَشِفُ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ وَمَا  
 اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ أَي : لَيْسَ بِظَالِمٍ لَهُمْ ، بَلْ هُوَ الْحَاكِمُ الْعَدْلُ الَّذِي لَا يُجُورُ ،  
 لِأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يَخْتَاجُ مَعَ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ  
 خَلْقِهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مِلْكٌ  
 لَهُ وَعَبِيدٌ لَهُ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ أَي هُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

(١) أخرجه أبو داود ( حديث ٤٥٩٧ ) بسند فيه كلام إلا أن الحديث له شواهد يرتقي بها إلى التحسين ، وإن  
 نازع منازع في زيادة « ( كلها في النار إلا واحدة ) » ، وحكم بضعفها فله وجه ، وانظر تفصيل ذلك في كتابي  
 الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشرط الساعة .

وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ  
 الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٦﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ  
 يُقْتَلُوا يَكْفُرُوا بِأَنَّهُمْ يُؤْلَوْنَكُمْ أَلَا يُدْبِرُونَ ﴿١٠٧﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا  
 ثَقَفُوا إِلَّا لِيَجْزِيَ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ  
 عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ  
 بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ  
 أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ : « خَيْرُ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي  
 السَّلَاسِلِ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ وَأَنْفَعُ  
 النَّاسِ لِلنَّاسِ ، وَهَذَا قَالَ ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾  
 وَالصَّحِيحُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَّةِ كُلِّ قَرْنٍ بِحَسَبِهِ ، وَخَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ  
 بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوبِنُهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوبِنُهُمْ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ  
 الْأُخْرَى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أَي : خِيَارًا ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى  
 النَّاسِ ﴾ [ البقرة : ١٤٣ ] . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَنْتُمْ تُؤْفِقُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا  
 وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ » ، وَإِنَّمَا حَازَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ قَصَبَ السَّبْقِ إِلَى الْخَيْرَاتِ بِنَبِيِّهَا  
 مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ أَشْرَفُ خَلْقِ اللَّهِ ، وَأَكْرَمُ الرُّسُلِ عَلَى اللَّهِ ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ بِشَرَعٍ كَامِلٍ عَظِيمٍ لَمْ  
 يُعْطِهِ نَبِيٌّ قَبْلَهُ وَلَا رَسُولٌ مِنَ الرُّسُلِ ، فَالْعَمَلُ عَلَى مَنَاجِحِهِ وَسَبِيلِهِ يَقُومُ الْقَلِيلُ مِنْهُ  
 مَا لَا يَقُومُ الْعَمَلُ الْكَثِيرُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ مَقَامَهُ .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي  
 زُمْرَةٌ وَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا ، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ :  
 فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصِنِ الْأَسَدِيِّ يَرْفَعُ نِمْرَةَ عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَدْعُ اللَّهَ أَنْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٥٧) .

(٢) انظر البخاري (حديث ٣٦٥٠) ، ومسلم (حديث ٢٥٣٥) .

(٣) حسن : أخرجه أحمد في المسند (٤/٤٤٧) ، والترمذي (حديث ٣٠٠١) .

يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ مِثْلَهُ ، فَقَالَ : « سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةٌ »<sup>(١)</sup>.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى فَضِيلَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكَرَامَتِهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ وَأَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا تُلْكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ ؟ » فَكَبَّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : « أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا تُلْكَ أَهْلَ الْجَنَّةِ ؟ » فَكَبَّرْنَا ، ثُمَّ قَالَ : « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ »<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، نَحْنُ أَوَّلُ النَّاسِ دُخُولًا الْجَنَّةَ ، بِيَدِ أَيْدِيهِمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأَوْتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، فَهَذَا الْيَوْمَ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ وَلِلنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ »<sup>(٣)</sup>.

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ فَمَنْ اتَّصَفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ دَخَلَ مَعَهُمْ فِي هَذَا الْمَدْحِ ، وَمَنْ لَمْ يَتَّصَفْ بِذَلِكَ أَشْبَهَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ [المائدة : ٧٩] ، وَهَذَا لِمَا مَدَحَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ شَرَعَ فِي ذَمِّ أَهْلِ الْكِتَابِ وَتَأْنِيهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يَأْتُوا بِالْحَسَنَاتِ لَوَسَّخْنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَلْسِنَهُمْ نَسَى وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُؤْمَرُ ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، وَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي : قَلِيلٌ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى الضَّلَالَةِ وَالْكَفْرِ وَالْفُسْقِ وَالْعِصْيَانِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَمُبَشِّرًا لَهُمْ ، أَنَّ النَّصْرَ وَالظَّفْرَ هُمُ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الْكَفْرَةَ الْمُلْحِدِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُواكُمْ يُؤَلُّوكُمْ الْآدَبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَوْمَ خَيْرٍ أَدَّاهُمْ اللَّهُ وَأَرْغَمَ أَنْوْفَهُمْ ، وَكَذَلِكَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ يَهُودِ الْمَدِينَةِ بَنِي قَيْنِقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قُرَيْظَةَ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٤٢) ، ومسلم (٢١٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٨) ، ومسلم (حديث ٢٢١) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٤٨٦) ، ومسلم (حديث ٨٥٥) بنحوه .

كُلُّهُمْ أَذَاهُمْ اللَّهُ . وَكَذَلِكَ النَّصَارَى بِالشَّامِ كَسَرَهُمُ الصَّحَابَةَ فِي غَيْرِ مَا مَوْطِنٍ ،  
وَسَلَبُوهُمْ مُلْكَ الشَّامِ أَبَدَ الْأَبْدِينَ وَدَهَرَ الدَّاهِرِينَ ، وَلَا تَرَالُ عِصَابَةُ الْإِسْلَامِ  
قَائِمَةٌ بِالشَّامِ حَتَّى يَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَهُمْ كَذَلِكَ ، وَيُحْكَمُ بِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ  
وَشَرَعَ مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - فَيُكْسَرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ ،  
وَيَضَعُ الْجُزْيَةَ ، وَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ  
النَّاسِ ﴾ أَي : أَلْزَمَهُمُ اللَّهُ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ أَيْنَمَا كَانُوا ، فَلَا يَأْمَنُونَ ﴿ إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ ﴾  
أَي : بِدِمَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَهُوَ عَقْدُ الذَّمَّةِ لَهُمْ ، وَضَرْبُ الْجُزْيَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالزَّمَامِهِمْ أَحْكَامَ  
الْمِلَّةِ ﴿ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ ﴾ أَي : أَمَانٍ مِنْهُمْ لَهُمْ ، كَمَا فِي الْمُهَادِنِ وَالْمُعَاهِدِ وَالْأَسِيرِ ،  
إِذَا أَمَّنَهُ وَاحِدٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ امْرَأَةً وَكَذَا عَبْدٌ عَلَى أَحَدِ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَاءُ وَبَغْضٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أَي : أُلْزِمُوا فَالْتَزَمُوا بِبَغْضٍ مِّنَ اللَّهِ وَهُمْ  
يَسْتَحِقُّونَهُ ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ﴾ أَي : أُلْزِمُوا قَدْرًا وَشَرْعًا . وَهَذَا قَالَ :  
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ أَي : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ  
عَلَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالْبَغْيُ وَالْحَسَدُ ، فَأَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الذَّلَّةَ وَالصَّغَارَ وَالْمَسْكَنَةَ أَبَدًا  
مُتَّصِلًا بِذَلِكَ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ أَي : إِنَّمَا  
حَمَلَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِ رُسُلِ اللَّهِ ، وَقِيضُوا لِذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكْفِرُونَ  
الْعِصْيَانَ لِأَوْامِرِ اللَّهِ وَالْغَشْيَانَ لِمِعَاصِي اللَّهِ ، وَالْإِعْتِدَاءَ فِي شَرَعِ اللَّهِ ، فَعِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ  
ذَلِكَ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لَيْسُوا سَوَاءً<sup>١١٤</sup> مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِتِنَاءً لِلَّيْلِ  
وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿ ١١٤ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُدْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ  
﴿ ١١٥ ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ<sup>١١٥</sup> وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿ ١١٦ ﴾ إِنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ ١١٦ ﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا



كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا  
ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ قِيلَ : لَا يَسْتَوِي أَهْلُ الْكِتَابِ وَأُمَّةٌ  
مُّحَمَّدٍ ﷺ ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : أَخَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْعِشَاءِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى  
الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ  
أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ » قَالَ : فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ  
أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ  
الْمُفَسِّرِينَ : أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيْمَنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَابِ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ  
سَلَامٍ ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ ، وَتَعْلَبَةَ بْنِ شُعْبَةَ وَغَيْرِهِمْ . أَيَّ لَا يَسْتَوِي مَنْ تَقَدَّمَ  
ذِكْرُهُمْ بِالذِّمِّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْلَمُوا وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسُوا  
سَوَاءً ﴾ أَيَّ : لَيْسُوا كُلُّهُمْ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ ، بَلْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْهُمْ الْمُجْرِمُونَ .

وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ ﴾ أَيَّ : قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُطِيعَةٌ  
لِشَرْعِهِ مُتَّبِعَةٌ نَبِيِّ اللَّهِ ، فَهِيَ قَائِمَةٌ يَعْنِي مُسْتَقِيمَةٌ ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ إِتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ  
يَسْجُدُونَ ﴾ أَيَّ : يُقِيمُونَ اللَّيْلَ وَيُكثِرُونَ التَّهَجُّدَ وَيَتْلُونَ الْقُرْآنَ فِي صَلَوَاتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمَذْكُورُونَ  
فِي آخِرِ السُّورَةِ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ  
إِلَيْهِمْ خَشَعِينَ لِلَّهِ ﴾ [ آل عمران : ١٧٩ ]

ولهذا قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ أَيَّ : لَا يَضِيعُ عِنْدَ  
اللَّهِ بَلْ يُجْزِيهِمْ بِهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أَيَّ : لَا يَخْفَى عَلَيْهِ عَمَلُ  
عَامِلٍ وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ أَجْرٌ مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْكُفْرَةِ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُ : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ  
مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أَيَّ : لَا تَرُدُّ عَنْهُمْ بَأْسَ اللَّهِ وَلَا عَذَابَهُ إِذَا أَرَادَهُ بِهِمْ ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ

(١) سنده حسن : وقد أخرجه أحمد في المسند (١/٣٩٦) ، والنسائي في السنن الكبرى (٦/٣١٣) .

النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٠﴾ . ثُمَّ صَرَبَ مَثَلًا لِمَا يُنْفِقُهُ الْكُفَّارُ فِي هَذِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أَي : بَرْدٌ شَدِيدٌ ، وَقِيلَ : نَارٌ ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْأَوَّلِ ؛ فَإِنَّ الْبَرْدَ الشَّدِيدَ وَلَا سِيَّامَا الْجَلِيدُ يُحْرِقُ الزَّرْوَعَ وَالشَّمَارَ كَمَا يُحْرِقُ الشَّيْءَ بِالنَّارِ ﴿ أَصَابَتْ حَرَّتْ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ﴾ أَي : فَأَحْرَقَتْهُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ : السَّعْفَةَ إِذَا نَزَلَتْ عَلَى حَرِّ قَدْ أَنْ جِذَاهُ أَوْ حَصَادُهُ فَدَمَّرَتْهُ ، وَأَعْدَمَتْ مَا فِيهِ مِنْ ثَمَرٍ أَوْ زَرْعٍ فَذَهَبَتْ بِهِ وَأَفْسَدَتْهُ ، فَعَدَمَهُ صَاحِبُهُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ . فَكَذَلِكَ الْكُفَّارُ يَمَحَقُ اللَّهُ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَثَمَرِهَا ، كَمَا يَذْهَبُ ثَمَرَةٌ هَذَا الْحَرِّ بِذُنُوبِ صَاحِبِهِ . وَكَذَلِكَ هُوَ لِأَنَّ بَنَوَهَا عَلَى غَيْرِ أَصْلِ وَعَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ تَحِبُّونَهُمْ وَلَا تُحِبُّونَهُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٢﴾ إِنْ تَمَسَّسْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنْ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٠٣﴾

يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ ﴿ بِطَانَةٌ ﴾ أَي : يُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَمَا يُضْمِرُونَهُ لِأَعْدَائِهِمْ ، وَالْمُنَافِقُونَ بِجَهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ لَا يَأْلُونَ الْمُؤْمِنِينَ خَبَالًا ، أَي : يَسْعَوْنَ فِي مَخَالَفَتِهِمْ ، وَمَا يَضُرُّهُمْ بِكُلِّ مُمْكِنٍ وَبِمَا يَسْتَطِيعُونَ مِنَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ ، وَيَوَدُّونَ مَا يَعْغِثُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحْرِجُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ ﴾ أَي : مِنْ غَيْرِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ، وَبِطَانَةَ الرَّجُلِ : هُمْ خَاصَّةُ أَهْلِهِ الَّذِينَ يَطَّلِعُونَ عَلَى دَاخِلِ أَمْرِهِ . عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ

بِطَانَتَانِ ، بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالسُّوءِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ ،  
وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ» (١).

فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الذِّمَّةِ لَا يَجُوزُ اسْتِعْمَالُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ الَّتِي فِيهَا اسْتِطَالَةٌ  
عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَاطَّلَاعٌ عَلَى دَوَاحِلِ أُمُورِهِمُ الَّتِي يُحْشَى أَنْ يُفْشَوْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ  
مِنْ أَهْلِ الْحَرْبِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنِتُّمْ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ أَي :  
قَدْ لَاحَ عَلَى صَفَحَاتِ وُجُوهِهِمْ ، وَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ ، مَعَ مَا هُمْ  
مُشْتَمِلُونَ عَلَيْهِ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الْبَغْضَاءِ لِلْإِسْلَامِ ، وَأَهْلِهِ ، مَا لَا يَحْفَى مِثْلُهُ عَلَى  
لَيْبِ عَامِلٍ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ تَحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾ أَي : أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تُحِبُّونَ  
الْمُنَافِقِينَ بِمَا يُظْهِرُونَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، فَتَحِبُّوهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ لَا  
بَاطِنًا وَلَا ظَاهِرًا ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾ أَي : لَيْسَ عِنْدَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ شَكٌّ وَلَا  
رَيْبٌ وَهُمْ عِنْدَهُمُ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَالْحَيْرَةُ ، وَقِيلَ أَيْضًا : ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴾  
أَي : بِكِتَابِكُمْ وَكِتَابِهِمْ ، وَبِمَا مَضَى مِنَ الْكِتَابِ قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِكِتَابِكُمْ ،  
فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْبَغْضَاءِ هُمْ مِنْهُمْ لَكُمْ ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ  
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ، وَالْأَنَامِلُ أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ ، وَهَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ يُظْهِرُونَ  
لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانَ وَالْمُودَّةَ ، وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ بِخِلَافِ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ وَجْهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ مَاتُوا بَغِظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَي : مَهْمَا كُنْتُمْ  
تَحْسُدُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَغِظُكُمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُتِمُّ نِعْمَتِهِ عَلَى عِبَادِهِ  
الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُكَمِّلُ دِينِهِ وَمُعَلِّمُ كَلِمَتِهِ وَمُظْهِرُ دِينِهِ ، فَمَاتُوا أَنْتُمْ بَغِظِكُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَي : هُوَ عَلِيمٌ بِمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُكُمْ ، وَتَكِنُّهُ سَرَائِرُكُمْ  
مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْحَسَدِ وَالغِلِّ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُرِيكُمْ  
خِلَافَ مَا تَأْمَلُونَ ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ فِي النَّارِ الَّتِي أَنْتُمْ خَالِدُونَ فِيهَا ،

لَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا، وَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْهَا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمَ وَإِنْ تَصَبَّحْتُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وَهَذِهِ الْحَالُ دَالَّةٌ عَلَى شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ مِنْهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَصَابَ الْمُؤْمِنِينَ خَضْبٌ وَنَضْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَكَثْرُوا وَعَزَّ أَنْصَارُهُمْ سَاءَ ذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةٌ أَيْ: جَدْبٌ أَوْ أُدْبِيلَ عَلَيْهِمُ الْأَعْدَاءُ لِمَا لَلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ - كَمَا جَرَى يَوْمَ أُحُدٍ - فَرِحَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطَبًا الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ الْآيَةُ، يُرْشِدُهُمْ تَعَالَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفَجَّارِ، بِاسْتِعْمَالِ الصَّبْرِ وَالتَّقْوَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُحِيطٌ بِأَعْدَائِهِمْ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ إِلَّا بِهِ وَهُوَ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ إِلَّا بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ.

ثُمَّ شَرَعَ تَعَالَى فِي ذِكْرِ قِصَّةِ أُحُدٍ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْاِخْتِبَارِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُنَافِقِينَ، وَبَيَانِ الصَّابِرِينَ فَقَالَ تَعَالَى:

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۗ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١٨﴾

المراد بهذه الوقعة يوم أُحُدٍ عند الجُمُهورِ، وَكَانَتْ وَقَعَةٌ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ مِنْ سَوَالِ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ. وَكَانَ سَبَبُهَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ حِينَ قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ وَسَلِمَتِ الْعَيْرُ بِمَا فِيهَا مِنَ التَّجَارَةِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ، قَالَ أَبْنَاءُ مَنْ قُتِلَ وَرُؤُسَاءُ مَنْ بَقِيَ لِأَبِي سُفْيَانَ: أَرُضْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ لِقِتَالِ مُحَمَّدٍ، فَأَنْفَقُوهَا فِي ذَلِكَ فَجَمَعُوا الْجُمُوعَ وَالْأَحَابِيشَ وَأَقْبَلُوا فِي نَحْوِ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ أُحُدٍ تَلْقَاءَ الْمَدِينَةِ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْجُمُعَةَ، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهَا صَلَّى عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ عَمْرٍو، وَاسْتَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

النَّاسَ : أَيْخُرُجُ إِلَيْهِمْ أَمْ يَمْكُثُ بِالْمَدِينَةِ ؟ فَأَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَالْمَقَامِ بِالْمَدِينَةِ فَإِنَّ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَحْبِسٍ ، وَإِنْ دَخَلُوهَا قَاتَلَهُمُ الرَّجَالُ فِي وُجُوهِهِمْ وَرَمَاهُمْ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ ، وَأَشَارَ آخَرُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ يَمَنٌ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَيْسَ لِأُمَّتِهِ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ وَقَدْ نَدِمَ بَعْضُهُمْ ، وَقَالُوا : لَعَلَّنَا اسْتَكْرَهْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ شِئْتَ أَنْ نَمُكِّثَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَيْسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لَهُ » (١) فَسَارَ ﷺ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا كَانُوا بِالشُّوْطِ رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَثْلَةَ الْجَيْشِ مُغْضَبًا ؛ لِكُونِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَى قَوْلِهِ ، وَقَالَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ : لَوْ نَعْلَمُ الْيَوْمَ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ وَلَكِنَّا لَا نَرَاكُمْ تُقَاتِلُونَ . وَاسْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبَ مِنْ أُحُدٍ فِي عُدْوَةِ الْوَادِي : وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَقَالَ : « لَا يُقَاتِلَنَّ أَحَدٌ حَتَّى نَأْمُرَهُ بِالْقِتَالِ » (٢) وَتَهَيَّأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْقِتَالِ وَهُوَ فِي سَبْعِمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . وَأَمَرَ عَلَى الرُّمَاءِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ . وَالرُّمَاءُ يَوْمَئِذٍ خَمْسُونَ رَجُلًا فَقَالَ لَهُمْ : « انْضَحُوا الْخَيْلَ عَنَّا ، وَلَا نُؤْتِيَنَّ مِنْ قِبَلِكُمْ ، وَالزَّمُوا مَكَانَكُمْ إِنْ كَانَتِ النَّوْبَةُ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا تَحْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ » (٣) وَظَاهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ دِرْعَيْنِ . وَأَعْطَى اللِّوَاءَ مُضْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ أَخَا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ . وَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْضَ الْعِلْمَانِ يَوْمَئِذٍ ، وَأَخَّرَ آخَرِينَ حَتَّى أَمْضَاهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ بِقَرِيبٍ مِنْ سِتِّينَ . وَتَهَيَّأَتْ قُرَيْشٌ وَهُمْ ثَلَاثَةُ آلَافٍ . وَمَعَهُمْ مِائَةٌ فَرَسٍ قَدْ جَنَّبُوهَا . فَجَعَلُوا عَلَى مَيْمَنَةِ الْخَيْلِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ . وَدَفَعُوا اللِّوَاءَ إِلَى بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَا سَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ

(١) صحيح لشواهده : أخرجه أحمد (٣/٣٥١) ، وهذه الفقرة شواهد تصحح بها .

(٢) انظر البخاري (٣٠٣٩) فهناك بعض ذلك والسياق برتمه وطوله لم أقف عليه مسندًا ، إنها هي فقرات منه ، والله أعلم .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٠٣٩) .

الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ ﴿١٠﴾ أَي : تُنَزِّلُهُمْ مَنَازِلَهُمْ وَتَجْعَلُهُمْ مَيْمَنَةً وَمَيْسِرَةً وَحَيْثُ أَمَرْتَهُمْ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ أَي : سَمِيعٌ لِمَا تَقُولُونَ عَلِيمٌ بِضَمَائِرِكُمْ .  
عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : فِينَا نَزَلَتْ ﴿١٣﴾ إِذْ هَمَّتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا ﴿١٤﴾ الْآيَةَ . قَالَ : نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلَمَةَ وَمَا نُحِبُّ - أَوْ قَالَ وَمَا يَسُرُّنِي - أَتَاهَا لَمْ تَنْزِلْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ﴿١٦﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ﴿١٨﴾ أَي : يَوْمَ بَدْرٍ وَكَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وَافَقَ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ الْفُرْقَانِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ فِيهِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَدَمَعَ فِيهِ الشُّرْكَ وَخَرَّبَ مَحَلَّهُ وَحَزَبَهُ ، هَذَا مَعَ قَلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَإِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثِيئَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا ، فِيهِمْ فَارِسَانِ وَسَبْعُونَ بَعِيرًا وَالْبَاقُونَ مُشَاهَةٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الْعَدَدِ جَمِيعٌ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ . وَكَانَ الْعَدُوُّ يَوْمَئِذٍ مَا بَيْنَ التَّسْعِمَائَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي سَوَابِغِ الْحَدِيدِ وَالْبَيْضِ ، وَالْعُدَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحَيُولُ الْمُسَوِّمَةُ وَالْحُلِيِّ الزَّائِدِ ، فَأَعَزَّ اللَّهُ رَسُولَهُ وَأَظْهَرَ وَحْيَهُ وَتَنْزِيلَهُ ، وَبَيَّضَ وَجْهَ النَّبِيِّ وَقَبِيلَهُ ، وَأَخْرَجَ الشَّيْطَانَ وَجِيلَهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى مُمْتَنًا عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَزَبِهِ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴿٢٠﴾ أَي : قَلِيلٌ عَدَدُكُمْ ، لِتَعَلَّمُوا أَنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، لَا بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴿٢٢﴾ - إِلَى - ﴿٢٣﴾ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٤﴾ [التوبة : ٢٥ - ٢٧]

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ ، عَنْ سَيِّدِكُمْ (٢٥) قَالَ : سَمِعْتُ عِيَاضَ الْأَشْعَرِيَّ قَالَ : شَهِدْتُ الزَّيْمُوكَ وَعَلَيْنَا حَمْسَةُ أَمْرَاءَ : أَبُو عُبَيْدَةَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَابْنُ حَسَنَةَ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعِيَاضُ - وَلَيْسَ عِيَاضُ هَذَا الَّذِي حَدَّثَ سَيَّاكًا - قَالَ : وَقَالَ عُمَرُ : إِذَا كَانَ قِتَالًا فَعَلَيْكُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ قَالَ : فَكَتَبْنَا إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ جَاشَ إِلَيْنَا الْمَوْتُ وَاسْتَمَدَدْنَا ، فَكَتَبَ إِلَيْنَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ نِي كِتَابِكُمْ تَسْتَمِدُّونِي ، وَإِنِّي أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ نَصْرًا وَأَحْصَنُ جُنْدًا : اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَاسْتَنْصَرُوهُ ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ نُصِرَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ فِي أَقَلِّ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٥١) ، ومسلم (٢٥٠٥) .

(٢) سنده صحيح : أخرجه أحمد (٤٩/١) .

عَدَّتْكُمْ ، فَإِذَا جَاءَكُمْ كِتَابِي هَذَا فَقَاتِلُوهُمْ وَلَا تَرَاجِعُونِي . قَالَ : فَقَاتَلْنَاهُمْ فَهَزَمْنَاهُمْ  
أَرْبَعَ فَرَاسِخَ ، قَالَ : وَأَصَبْنَا أَمْوَالًا ، فَتَشَاوَرْنَا فَأَشَارَ عَلَيْنَا عِيَاضُ أَنْ نُعْطِيَ عَنْ كُلِّ  
ذِي رَأْسٍ عَشْرَةً ، قَالَ : وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : مَنْ يَرَاهِنَنِي ؟ فَقَالَ شَابٌّ أَنَا إِنْ لَمْ تَغْضَبْ ،  
قَالَ : فَسَبَّهُ فَرَأَيْتُ عَقِيصَتِي أَبِي عُبَيْدَةَ يَنْفِرَانِ وَهُوَ خَلْفُهُ عَلَى فَرَسٍ أَعْرَابِيٍّ .

وَبَدْرٌ مَحَلَّةٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ تُعْرَفُ بِبَيْرِهَا ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى رَجُلٍ حَفَرَهَا ، يُقَالُ لَهُ  
بَدْرُ بَنِي النَّارِينِ ، قَالَ الشَّعْبِيُّ : بَدْرٌ بَيْرٌ لِرَجُلٍ يُسَمَّى بَدْرًا .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَي : تَقَوْمُونَ بِطَاعَتِهِ .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ  
الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا  
يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا  
بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ  
الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾  
لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾  
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ  
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

اِخْتَلَفَ الْمَفْسُورُونَ فِي هَذَا الْوَعْدِ هَلْ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ أَوْ يَوْمَ أُحُدٍ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ :  
أَحَدُهُمَا : أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ ﴾ .  
فَإِنْ قِيلَ : فَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَبَيْنَ قَوْلِهِ فِي قِصَّةِ بَدْرِ : ﴿ إِذْ  
تَسْتَعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ - إِلَى  
قَوْلِهِ - ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٩ - ١٠] ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ التَّنْصِيفَ عَلَى  
الْآلِفِ هَهُنَا لَا يُنَافِي الثَّلَاثَةَ الْآلَافَ فَمَا فَوْقَهَا لِقَوْلِهِ ﴿ مُرَدِّفِينَ ﴾ بِمَعْنَى : يُرَدِّفُهُمْ  
غَيْرُهُمْ وَيَتَّبِعُهُمْ أَلُوفٌ أُخْرُ مِثْلُهُمْ . وَهَذَا السِّيَاقُ شَبِيهُ هَذَا السِّيَاقِ فِي سُورَةِ آلِ  
عِمْرَانَ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ أَنَّ قِتَالَ الْمَلَائِكَةِ ، إِنَّمَا

كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ هَذَا الْوَعْدَ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ ، وَذَلِكَ يَوْمٌ أَحَدٌ . لَكِنْ قَالُوا : لَمْ يَحْضُرِ الْإِمْدَادُ بِالْخُمْسَةِ الْأَلْفِ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ فَرُّوا يَوْمَئِذٍ ، زَادَ عِكْرِمَةُ : وَلَا بِالثَّلَاثَةِ الْأَلْفِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ فَلَمْ يَصْبِرُوا ، بَلْ فَرُّوا فَلَمْ يُمَدُّوا بِمَلَكٍ وَاحِدٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلَى إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ يَعْنِي : تَصَبَرُوا عَلَى مُصَابِرَةِ عَدُوِّكُمْ ، وَتَتَّقُونِي وَتَطِيعُوا أَمْرِي . ﴿ وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا ﴾ أَي : مَنْ وَجَّهَهُمْ هَذَا . وَقِيلَ : أَي مِنْ غَضَبِهِمْ هَذَا ، وَقِيلَ : مِنْ غَضَبِهِمْ وَوَجَّهَهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخُمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ أَي : مُعَلِّمِينَ بِالسِّيَا . ﴿ مُسَوِّمِينَ ﴾ أَي : بِسَيِّمَا الْقِتَالِ . وَقِيلَ : مُعَلِّمِينَ : أَي بِعَلَامَاتِ الْقِتَالِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ أَي : وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ وَأَعْلَمَكُمْ بِإِنْزَاهِمُ إِلَّا بِشَارَةَ لَكُمْ ، وَتَطْمَئِنَّا لِقُلُوبِكُمْ وَتَطْمَئِنَّا ، وَإِلَّا فَأِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، الَّذِي لَوْ شَاءَ لَأَنْتَصَرَ مِنْ أَعْدَائِهِ بِدُونِكُمْ ، وَمَنْ غَيْرَ أَحْتِيَاجَ إِلَى قِتَالِكُمْ هُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى بَعْدَ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَهْلِهِمْ ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ [ محمد : ٤ - ٦ ] ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أَي : هُوَ ذُو الْعِزَّةِ الَّتِي لَا تَرَامُ ، وَالْحِكْمَةِ فِي قَدْرِهِ وَالْإِحْكَامِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : أَمْرَكُمْ بِالْجِهَادِ وَالْجَلَاءِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كُلِّ تَقْدِيرٍ ، وَهَذَا ذَكَرَ جَمِيعَ الْأَقْسَامِ الْمُمَكِّنَةِ فِي الْكُفَّارِ الْمُجَاهِدِينَ فَقَالَ : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا ﴾ أَي : لِيُهْلِكَ أُمَّةً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ أَي : يُخْزِيهِمْ وَيُرَدِّدُهُمْ بِغَيْظِهِمْ لِمَا يَنَالُوا مِنْكُمْ مَا أَرَادُوا ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ﴾ أَي : يَرْجِعُوا ﴿ حَاطِبِينَ ﴾ أَي : لَمْ يَحْضُرُوا عَلَى مَا أَمَلُوا . ثُمَّ اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْحُكْمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَقَالَ تَعَالَى :



﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أَي : بَلِ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وَقَالَ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِن كَانَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]

ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَّةَ الْأَقْسَامِ فَقَالَ : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أَي : بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ فَيَهْدِيهِمْ بَعْدَ الصَّلَاةِ ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَلِمُوا ﴾ أَي : يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ . عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْفَجْرِ : « اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا » بَعْدَ مَا يَقُولُ : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ » فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الْآيَةَ (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ ، أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ فَتَبَعَهُ الرُّكُوعَ ، وَرَبَّيَا قَالَ إِذَا قَالَ : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ : اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبِيعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . اللَّهُمَّ أَشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ » يَجْهَرُ بِذَلِكَ . وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ « اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا » لِأَحْيَاءٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الْآيَةَ (٢) .

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَشَجَّ فِي وَجْهِهِ حَتَّى سَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَقَالَ : « كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ﷻ ؟ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَلِمُوا ﴾ (٣) .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَبَلِّغْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةَ . أَيِ الْجَمِيعِ مِلْكٌ لَهُ وَأَهْلُهَا عِبِيدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فَلَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٠) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث رقم ١٧٩١) .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٢﴾ \* وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَالِينَ وَالْعَالِيْنَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ مُجِيبُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتُ جَرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الرِّبَا ، وَأَكْلِهِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ، كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ : إِذَا حَلَّ أَجَلُ الدِّينِ إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِي ، فَإِنْ قَضَاهُ وَإِلَّا زَادَهُ فِي الْمُدَّةِ وَزَادَهُ الْآخَرَ فِي الْقَدْرِ ، وَهَكَذَا كُلُّ عَامٍ قُرْبًا تَضَاعَفَ الْقَلِيلُ حَتَّى يَصِيرَ كَثِيرًا مُضَاعَفًا ، وَأَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ بِالتَّقْوَى لَعَلَّهُمْ يَفْلِحُونَ فِي الْأُولَى وَفِي الْآخِرَةِ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُم بِالنَّارِ وَحَذَّرَهُمْ مِنْهَا ، فَقَالَ تَعَالَى . ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٠﴾ .

ثُمَّ نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُبَادَرَةِ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَى نَيْلِ الْقُرْبَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : كَمَا أُعِدَّتِ النَّارُ لِلْكَافِرِينَ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تَنْبِيهَا عَلَى اتِّسَاعِ طُولِهَا ، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ فُرْشِ الْجَنَّةِ ﴿ بَطَّأْنَهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أَي : فَمَا ظَنُّكَ بِالظَّهَائِرِ ، وَقِيلَ : بَلْ عَرْضُهَا كَطُولِهَا ، لِأَنَّهَا قُبَّةٌ تَحْتَ الْعَرْشِ ، وَالسَّيِّءُ الْمُقْبَبُ وَالْمُسْتَدِيرُ عَرْضُهُ كَطُولِهِ ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ( إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ

تَفَجَّرَ أَنهَارُ الْجَنَّةِ ، وَسَقَفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﴿٣٠﴾ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ  
﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٢١]  
عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ : أَنَّ نَاسًا مِّنَ الْيَهُودِ سَأَلُوا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَنِ جَنَّةِ  
عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فَأَيُّنَ النَّارُ؟ فَقَالَ لَهُمْ عُمَرُ: أَرَأَيْتُمْ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَيْنَ  
اللَّيْلِ؟ وَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ أَيْنَ النَّهَارِ؟ فَقَالُوا: لَقَدْ نَزَعَتْ مِثْلَهَا مِنَ التُّورَةِ ﴿٣١﴾. وَهَذَا  
يَحْتَمِلُ مَعْنَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ يَكُونُ الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ مُشَاهَدَتِنَا  
اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ أَنْ لَا يَكُونُ فِي مَكَانٍ وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْلَمُهُ. وَكَذَلِكَ النَّارُ تَكُونُ  
حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ﷻ وَهَذَا أَظْهَرُ.

الثَّانِي: أَنَّ يَكُونُ الْمَعْنَى أَنَّ النَّهَارَ إِذَا تَعَشَّى وَجَهَ الْعَالَمِ مِنْ هَذَا الْجَانِبِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ  
يَكُونُ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرَ، فَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ تَحْتَ الْعَرْشِ  
وَعَرْضُهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وَالنَّارُ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ  
فَلَا تَنَافِي بَيْنَ كَوْنِهَا كَعَرْضِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَ وُجُودِ النَّارِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .  
ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ أَي: فِي  
فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ وَالْمُنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَالصَّحَّةِ وَالْمَرَضِ. وَفِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، كَمَا قَالَ:  
﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [البقرة: ٢٧٤] ، وَالْمَعْنَى:  
أَنَّهُمْ لَا يَشْغَلُهُمْ أَمْرٌ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنْفَاقِ فِي مَرَضِيهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى  
خَلْقِهِ مِنْ قَرَابَاتِهِمْ وَغَيْرِهِمْ بِأَنْوَاعِ الْبِرِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أَي: إِذَا ثَارَ بِهِمْ  
الْغَيْظُ كَظَمُوهُ بِمَعْنَى: كَتَمُوهُ فَلَمْ يُعْمَلُوهُ، وَعَفَوْا مَعَ ذَلِكَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (( لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرْعَةِ وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ  
الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ )) ﴿٣٢﴾.

وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ: (( لَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٧٤٢٣).

(٢) صحيح: أخرجه الطبري (٧٨٣٢) في بعده.

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (حديث ٢٦٠٩).

تَعْصَبُ» قَالَ الرَّجُلُ : فَفَكَرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ ، فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ<sup>(١)</sup>.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْكَظِيمِ الْعَظِيمِ ﴾ أَي : لَا يَعْمَلُونَ غَضَبَهُمْ فِي النَّاسِ ، بَلْ يَكْفُونَ عَنْهُمْ شَرَّهُمْ وَيَحْتَسِبُونَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ أَي : مَعَ كَفِّ الشَّرِّ يَعْفُونَ عَمَّنْ ظَلَمَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَا يَبْقَى فِي أَنْفُسِهِمْ مَوْجِدَةٌ عَلَى أَحَدٍ وَهَذَا أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ مُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . فَهَذَا مِنْ مَقَامَاتِ الْإِحْسَانِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ »<sup>(٢)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أَي : إِذَا صَدَرَ مِنْهُمْ ذَنْبٌ أَتَّبَعُوهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنْ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَمِلَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ ، وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ عَمِلَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ : رَبِّ إِنِّي عَمِلْتُ ذَنْبًا فَاعْفِرْهُ لِي ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي عَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، أَشْهَدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ »<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أَي : لَا يَغْفِرُهَا أَحَدٌ سِوَاهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَي : تَابُوا مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَرَجَعُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ قَرِيبٍ ، وَلَمْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْمَعْصِيَةِ وَيُصِرُّوا عَلَيْهَا غَيْرَ مُقْلَعِينَ عَنْهَا ، وَلَوْ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ الذَّنْبُ تَابُوا مِنْهُ ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ،

(١) صحيح : أخرجه أحمد (٣٤/٥).

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٧٥٠٧) ، مسلم (٢٧٥٨).

وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أَي : جَزَاءُهُمْ عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَاتِ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : مَا كَثُرَتْ فِيهَا ﴿ وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ يَمْدُحُ تَعَالَى الْجَنَّةَ .

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٧٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ۗ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٨٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٨١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٨٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٨٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُصِيبُوا يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ أَي : قَدْ جَرَى نَحْوُ هَذَا عَلَى الْأُمَّمِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ وَالِدَائِرَةُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ فِيهِ بَيَانٌ الْأُمُورِ عَلَى جَلِيلَتِهَا ، وَكَيْفَ كَانَ الْأُمَّمُ الْأَقْدَمُونَ مَعَ أَعْدَائِهِمْ ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنُ فِيهِ خَبْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَهُدًى لِقُلُوبِكُمْ ﴿ وَمَوْعِظَةٌ ﴾ أَي : زَاجِرٌ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أَي : لَا تَضَعُفُوا بِسَبَبِ مَا جَرَى ﴿ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ .

﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ أَي : إِنْ كُنْتُمْ قَدْ أَصَابَتْكُمْ جِرَاحٌ ، وَ قُتِلَ مِنْكُمْ طَائِفَةٌ ، فَقَدْ أَصَابَ أَعْدَاءَكُمْ قَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَتْلِ وَ جِرَاحٍ ﴿ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أَي : نُدِيلُ عَلَيْكُمْ الْأَعْدَاءُ تَارَةً ، وَ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَاقِبَةُ لِمَا لَنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَ هَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فِي مِثْلِ هَذَا لِنَرَى مَنْ يَصِيرُ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ ﴿ وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ يَعْنِي : يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ وَ يَبْدُلُونَ مُهْجَهُمْ فِي مَرْضَاتِهِ ﴿ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿ وَ لِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَي : يَكْفُرُ عَنْهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِنْ كَانَتْ لَهُمْ ذُنُوبٌ ، وَ إِلَّا رَفَعَ لَهُمْ فِي دَرَجَاتِهِمْ بِحَسَبِ مَا أُصِيبُوا بِهِ .

وَ قَوْلُهُ : ﴿ وَ يَمَحَقَ الْكُفْرِينَ ﴾ أَي : فَإِنَّهُمْ إِذَا ظَفَرُوا بَعُغُوا وَ بَطَرُوا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبُ دِمَارِهِمْ وَ هَلَاكِهِمْ وَ مَحْفِهِمْ وَ فَنَائِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ تُبْتَلُوا بِالْقِتَالِ وَ الشَّدَائِدِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْبِهِمْ أَلَسْتُمْ الْبَاسَاءُ وَ الصَّرَاءُ وَ زُلْزَلُوا ﴾ [البقرة : ٤١٢] . وَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴾ [العنكبوت : ١-٢]

وَ هَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ ﴾ أَي : لَا يَحْضُلُ لَكُمْ دُخُولُ الْجَنَّةِ حَتَّى تُبْتَلُوا ، وَ يَرَى اللَّهُ مِنْكُمْ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ وَ الصَّابِرِينَ عَلَى مُقَاوَمَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَ قَوْلُهُ : ﴿ وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ أَي قَدْ كُنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ تَمَنَّوْنَ لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَ تَحْتَرِقُونَ عَلَيْهِ ، وَ تَوَدُّونَ مُنَاجَزَتَهُمْ وَ مُصَابَرَتَهُمْ فَهَا قَدْ حَصَلَ لَكُمْ الَّذِي تَمَنَيْتُمُوهُ وَ طَلَبْتُمُوهُ ، فَدُونَكُمْ فَقَاتِلُوا وَ صَابِرُوا . وَ قَدْ بَتَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَ سَلُّوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ ، فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَ اعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٨١٨) ، ومسلم (حديث ١٧٤٢) .

تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ » . وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ﴾ يَعْنِي : الْمَوْتَ ،  
شَاهِدْتُمُوهُ وَقَتَّ حِدَّ الْأَسِنَّةِ ، وَاشْتَبَاكَ الرَّمَاحَ ، وَصُفُوفِ الرَّجَالِ لِلْقِتَالِ .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ  
أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا  
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ  
كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ  
نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ  
فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ  
الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا  
فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَعَاتَبَهُمُ اللَّهُ  
ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ﴿١٤٨﴾

لَمَّا انْهَزَمَ مَا انْهَزَمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْهُمْ ، نَادَى الشَّيْطَانُ :  
أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، وَرَجَعَ ابْنُ قَمِيئَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ لَهُمْ : قَتَلْتُ مُحَمَّدًا وَإِنَّمَا  
كَانَ قَدْ ضَرَبَ رَسُولَ اللَّهِ فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ ، فَوَقَعَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ ،  
وَاعْتَقَدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ ، وَجَوَّزُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ ، كَمَا قَدْ قَصَّ اللَّهُ عَنْ كَثِيرٍ  
مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فَحَصَلَ ضَعْفٌ وَوَهْنٌ وَتَأَخَّرَ عَنِ الْقِتَالِ ، فَفِي  
ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أَي : لَهُ  
أَسْوَةٌ بِهِمْ فِي الرِّسَالَةِ وَفِي جَوَازِ الْقِتْلِ عَلَيْهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ ضَعْفٌ ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى  
أَعْقَابِكُمْ ﴾ أَي : رَجَعْتُمْ الْقَهْقَرَى ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا  
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ أَي : الَّذِينَ قَامُوا بِطَاعَتِهِ وَقَاتَلُوا عَنْ دِينِهِ وَاتَّبَعُوا  
رَسُولَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا . وَكَذَلِكَ ثَبَّتَ أَنَّ الصِّدِّيقَ ﷺ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

فَقَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ<sup>(١)</sup> بِسَنَدِهِ إِلَى أَبِي سَلَمَةَ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَخْبَرَتْهُ أَنَّ  
 أَبَا بَكْرٍ ﷺ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكِنِهِ بِالسُّنْحِ ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ  
 النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ ، فَتِيمَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُغَطَّى بِثَوْبٍ حَبْرَةٍ ،  
 فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ وَقَبَّلَهُ وَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، وَاللَّهِ لَا  
 يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ ، أَمَا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مِتَّهَا . ثُمَّ قَالَ الْبُخَارِيُّ : قَالَ  
 الزُّهْرِيُّ : وَحَدَّثَنِي أَبُو سَلَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ يُكَلِّمُ النَّاسَ  
 وَقَالَ : اجْلِسْ يَا عُمَرُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَا بَعْدُ ، مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ  
 مَاتَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا  
 رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ قَالَ :  
 فَوَاللَّهِ لَكَانَ النَّاسُ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ ،  
 فَتَلَاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا . وَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ  
 الْمُسَيْبِ أَنَّ عُمَرَ قَالَ : وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَرَفْتُ حَتَّى مَا  
 تُقَلِّبُنِي رِجْلَايَ وَحَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ أَي : لَا  
 يَمُوتُ أَحَدٌ إِلَّا بِقَدْرِ اللَّهِ ، وَحَتَّى يَسْتَوْفِيَ الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللَّهُ لَهُ ، وَهَذَا قَالَ :  
 ﴿ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾  
 [ فاطر : ١١ ] ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَشْجِيعٌ لِلْجَبْنَاءِ وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ الْإِقْدَامَ  
 وَالْإِحْجَامَ لَا يُنْقَصُ مِنَ الْعُمُرِ وَلَا يُزِيدُ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾  
 أَي : مَنْ كَانَ عَمَلُهُ لِلدُّنْيَا فَقَدْ نَالَ مِنْهَا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ  
 نَصِيبٍ ، وَمَنْ قَصَدَ بِعَمَلِهِ الدَّارَ الْآخِرَةَ أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْهَا مَعَ مَا قَسَمَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ  
 حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [ الشورى : ٢٠ ]



وَلِهَذَا قَالَ هَهُنَا : ﴿ وَسَجَزَى الشَّاكِرِينَ ﴾ أَي : سَنُعْطِيهِمْ مِنْ فَضْلِنَا وَرَحْمَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَسَبِ شُكْرِهِمْ وَعَمَلِهِمْ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَمَّا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِمْ يَوْمَ أُحُدٍ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ قِيلَ : مَعَنَاهُ كَم مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ كَثِيرٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ : وَأَمَّا الَّذِينَ قَرَأُوا « قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ » فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّمَا عَنَى بِالْقَتْلِ النَّبِيَّ وَبَعْضَ مَنْ مَعَهُ مِنَ الرَّبِّيِّينَ دُونَ جَمِيعِهِمْ ، وَإِنَّمَا نَفَى الْوَهْنَ وَالضَّعْفَ عَمَّنْ بَقِيَ مِنَ الرَّبِّيِّينَ مِمَّنْ لَمْ يُقْتَلْ قَالَ : وَمَنْ قَرَأَ ﴿ قَاتَلَ ﴾ فَإِنَّهُ اخْتَارَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ قَالَ : لَوْ قَاتَلُوا لَمْ يَكُنْ لِقَوْلِ اللَّهِ ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ وَجَهٌ مَّعْرُوفٌ ، لِأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُوصَفُوا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَهِنُوا وَلَمْ يَضْعُفُوا بَعْدَ مَا قَاتَلُوا ، ثُمَّ اخْتَارَ قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ « قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ » لِأَنَّ اللَّهَ عَاتَبَ بِهِذِهِ الْآيَاتِ وَالَّتِي قَبْلَهَا مِنْ امْتَرَمَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَوا الْقِتَالَ ، لَمَّا سَمِعُوا الصَّائِحَ يَصِيحُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قَاتَلَ ، فَعَدَّهُمُ اللَّهُ عَلَى فِرَارِهِمْ وَتَرْكِهِمُ الْقِتَالَ ، فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ أَفَأَينَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ارْتَدَدْتُمْ عَن دِينِكُمْ وَ ﴿ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ، وَقِيلَ : وَكَم مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَصْحَابِهِ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ .

وَكَلَامُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي السِّيَرَةِ يَقْتَضِي قَوْلًا آخَرَ ، فَإِنَّهُ قَالَ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ أَصَابَهُ الْقَتْلُ وَمَعَهُ رِبِّيُونَ ، أَي : جَمَاعَاتٌ ، فَمَا وَهَنُوا بَعْدَ نَبِيِّهِمْ وَمَا ضَعُفُوا عَن عَدُوِّهِمْ وَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي الْجِهَادِ عَنِ اللَّهِ وَعَن دِينِهِمْ وَذَلِكَ الصَّبْرُ ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ .

﴿ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ ﴾ قِيلَ : جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ : أَلُوفٌ . وَقِيلَ : عَلَمَاءٌ كَثِيرٌ . وَقِيلَ : عَلَمَاءُ صَبْرٌ ، أَي : أَبْرَارٌ أَتَقِيَاءٌ ، وَقِيلَ : الرَّبِّيُونَ : الْأَتْبَاعُ ، وَالرَّعِيَّةُ ، وَالرَّبَّانِيُّونَ : الْوَلَاةُ ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ مَا ضَعُفُوا بِقَتْلِ نَبِيِّهِمْ ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ يَقُولُ : فَمَا ارْتَدُّوا عَن نُّصْرَتِهِمْ وَلَا عَن دِينِهِمْ أَنْ قَاتَلُوا عَلَى مَا قَاتَلَ عَلَيْهِ نَبِيُّ اللَّهِ حَتَّى لِحَقُوا بِاللَّهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ : وَمَا ذَلُّوا لِعَدُوِّهِمْ . أَي : مَا أَصَابَهُمْ ذَلِكَ حِينَ قُتِلَ نَبِيُّهُمْ . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبَّتْ أقدامنا

وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَي : لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَجِيرَى إِلَّا ذَلِكَ ﴿ فَاتَنَّهُمُ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا ﴾ أَي : النَّصْرُ وَالظَّفَرُ وَالْعَاقِبَةُ ﴿ وَحَسَنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ أَي : جَمَعَ لَهُمْ ذَلِكَ مَعَ هَذَا ﴿ وَاللَّهُ حُبُّ الْحَسَنِ ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَسْرِينَ ﴿١٤١﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٢﴾ سَنَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٣﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٤﴾ \* إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُودُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتَيْتُمُ غَمًّا بِيْغَمٍّ لِّكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾

يُحذِّرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، فَإِنَّ طَاعَتَهُمْ تُورِثُ الرَّدَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا حَسْرِينَ ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَمَوَالَاتِهِ ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ ، وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ثُمَّ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِمُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ وَالذَّلَّةَ لَهُمْ ، بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَشُرْكِهِمْ ، مَعَ مَا أَدَّخَرَهُ لَهُمْ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ ، فَقَالَ : ﴿ سَنَلِقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنبياءِ قَبْلِي ، نَصَرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ

شَهْرٍ ، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهْرًا ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»<sup>(١)</sup> .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَعَدَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ ، وَقَدْ يُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴾ بَلَى إِنَّ تَصَبُّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿ [ آل عمران : ١٢٤ ] أَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ لِأَنَّ عَدُوَّهُمْ كَانَ ثَلَاثَةَ آَلْفٍ مُقَاتِلٍ ، فَلَمَّا وَاجَهُوهُمْ كَانَ الظَّفَرُ وَالنَّصْرُ أَوَّلَ النَّهَارِ لِلْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا حَصَلَ مَا حَصَلَ مِنْ عِصْيَانِ الرِّمَاءِ وَفَشَلَ بَعْضُ الْمُقَاتِلَةِ تَأَخَّرَ نُوْعُدُ الَّذِي كَانَ مَشْرُوطًا بِالثَّبَاتِ وَالطَّاعَةِ . قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ﴾ أَي : أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿ إِذْ تَحُسُونَهُمْ ﴾ أَي : تَقْتُلُونَهُمْ ﴿ بِإِذْنِهِ ﴾ أَي : بِتَسْلِيطِهِ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿ حَتَّى إِذَا فِشَلْتُمْ ﴾ الْفِشَلُ : الْجُبْنُ ﴿ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ ﴾ ، كَمَا وَقَعَ لِلرِّمَاءِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ وَهُوَ الظَّفَرُ بِهِمْ ﴿ مِنْكُمْ ﴾ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَهُمْ الَّذِينَ رَغِبُوا فِي الْمَغْنَمِ حِينَ رَأَوْا الْهَرِيمَةَ ﴿ وَمِنْكُمْ ﴾ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴿ ثُمَّ آدَاهُمْ عَلَيْكُمْ لِيُخْتَبِرَكُمْ وَيَمْتَحِنَكُمْ ﴾ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴿ أَي : غَفَرَ لَكُمْ ذَلِكَ الصَّنِيعَ ، وَذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِكَثْرَةِ عُدَدِ الْعَدُوِّ وَعَدَدِهِمْ ، وَقَلَّةِ عُدَدِ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَدِهِمْ ﴾ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ﴿ لَمْ يَسْتَأْصِلْكُمْ ﴾ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ<sup>(٢)</sup> : لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرِّمَاءِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَالَ : « لَا تَبْرَحُوا ، إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا » . فَلَمَّا لَقِينَاهُمْ هَرَبُوا ، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَسْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ وَقَدْ بَدَتْ خَلَاجِلَهُنَّ ، فَأَخَذُوا يَقُولُونَ : الْغَنِيمَةُ الْغَنِيمَةُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ : عَهْدٌ إِلَيَّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا ، فَلَمَّا أَبَوْا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٥)، ومسلم (حديث ٥٢١).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٤٣).

صَرَفَ وُجُوهُهُمْ فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَبِيلًا ، فَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ : أَيْ الْقَوْمَ مُحَمَّدٌ ؟  
 فَقَالَ : « لَا تُجِيبُوهُ » فَقَالَ : أَيْ الْقَوْمَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ قَالَ : « لَا تُجِيبُوهُ » فَقَالَ :  
 أَيْ الْقَوْمَ ابْنَ الْحَطَّابِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ قَتَلُوا قَتْلُوا كَانُوا أَحْيَاءَ لِأَجَابُوا ، فَلَمْ يَمْلِكْ  
 عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ لَهُ : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ لَكَ مَا يَجْزِيكَ ، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ :  
 أَعْلَى هُبَلٌ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَجِيبُوهُ » قَالُوا : مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللَّهُ أَعْلَى  
 وَأَجَلٌ » قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : لَنَا الْعَزَى وَلَا عَزَى لَكُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَجِيبُوهُ » قَالُوا :  
 مَا نَقُولُ ؟ قَالَ : « قُولُوا : اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ » قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمَ بِيَوْمِ  
 بَدْرٍ ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ ، وَسَتَجِدُونَ مِثْلَهُ لَمْ أَمْرَ بِهَا وَلَمْ تَسْؤُنِي .

وَعَنْ عَائِشَةَ<sup>(١)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ هُزِمَ الْمُشْرِكِينَ فَصَرَخَ  
 إِبْلِيسُ : أَيَّ عِبَادَ اللَّهِ أُخْرَأْتُمْ ، فَرَجَعَتْ أَوْلَاهُمْ فَاجْتَلَدَتْ هِيَ وَأَخْرَاهُمْ ، فَبَصَرَ  
 حُذَيْفَةَ فَإِذَا هُوَ بِأَبِيهِ الْيَمَانَ فَقَالَ : أَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ، أَبِي أَبِي . قَالَ قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا  
 احْتَجَزُوا حَتَّى قَتَلُوهُ فَقَالَ حُذَيْفَةُ : يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، قَالَ عُرْوَةُ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَتْ فِي  
 حُذَيْفَةَ بَقِيَّةٌ خَيْرٌ حَتَّى لِحَقَّ بِاللَّهِ ﷻ .

وَعَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ<sup>(٢)</sup> قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتَنِي أَنْظَرُ إِلَى خَدَمِ هِنْدٍ وَصَوَاحِبَاتِهَا  
 مُشَمَّرَاتٍ هَوَارِبٍ مَا دُونَ أَخْذِهِنَّ كَثِيرٌ وَلَا قَلِيلٌ ، وَمَالَتِ الرُّمَاهُ إِلَى الْعَسْكَرِ حِينَ  
 كَشَفْنَا الْقَوْمَ عَنْهُ يُرِيدُونَ النَّهْبَ ، وَخَلَوْا ظُهُورَنَا لِلْخَيْلِ ، فَأَوْتَيْنَا مِنْ أَدْبَارِنَا  
 وَصَرَخَ صَارِخٌ إِلَّا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاثْكَفَانَا ، وَانْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصَبْنَا  
 أَصْحَابَ اللَّوَاءِ حَتَّى مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ<sup>(٣)</sup> : أَنَّ عَمَّهُ يَعْنِي أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ غَابَ عَنْ بَدْرٍ فَقَالَ : غِيبْتُ  
 عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ لَبِنٌ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيَرَيْنَ اللَّهُ مَا أَجِدُ ، فَلَقِي  
 يَوْمَ أُحُدٍ فَهَزَمَ النَّاسُ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَدْتُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي  
 الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ ، فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فَلَقِي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ ،

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٦٥) .

(٢) إسناده حسن .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٤٨) .

فَقَالَ: أَيَنْ يَا سَعْدُ؟ إِنْ أجدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أَحَدٍ، فَمَضَى فُقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفْتَهُ أُخْتَهُ بِشَامَةِ أَوْ بِنَانِهِ، وَبِهِ بَضْعٌ وَتَمَائُونٌ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمِيَّةٍ بِسَهْمٍ.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَضَعُدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أَي: صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ إِذْ تَضَعُدُونَ أَي فِي الْجَبَلِ هَارِبِينَ مِنْ أَعْدَائِكُمْ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: «(إِذْ تَضَعُدُونَ)»  
 أَي: فِي الْجَبَلِ، ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾ أَي: وَأَنْتُمْ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْخَوْفِ وَالرُّعْبِ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ﴾ أَي: وَهُوَ قَدْ خَلَفْتُمُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، يَدْعُوكُمْ إِلَى تَرْكِ الْفِرَارِ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَإِلَى الرَّجْعَةِ وَالْعُودَةِ وَالْكَرَّةِ.

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرِّمَاءِ يَوْمَ أَحَدٍ - وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا - عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ قَالَ: وَوَضَعَهُمْ مَوْضِعًا وَقَالَ: «(إِنْ رَأَيْتُمُونَا نَحْطِفْنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَأَوْطَأْنَا هُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسَلَ إِلَيْكُمْ)» قَالَ: فَهَزَمُوهُمْ، قَالَ: فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ عَلَى الْجَبَلِ وَقَدْ بَدَتْ أَسْوَفُهُنَّ وَخَلَا خِلْفُهُنَّ، رَافِعَاتٌ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ: الْغَنِيْمَةُ، أَي قَوْمَ الْغَنِيْمَةِ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْظُرُونَ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنْسَيْتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالُوا: إِنَّا وَاللَّهِ لَنَاتِيَنَّ النَّاسَ فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيْمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ، صَرَفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَرِمِينَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُوهُمْ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ. فَلَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ رَجُلًا.

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ سَلَاءً وَقَى بِهَا النَّبِيَّ ﷺ يَعْنِي يَوْمَ أَحَدٍ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ أَبِي عُمَرَ النَّهْدِيِّ قَالَ: لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ الَّتِي قَاتَلَ فِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدُ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ: نَثَلَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِنَانَتَهُ يَوْمَ أَحَدٍ وَقَالَ: «(إِزْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي)»<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح: وقد أخرجه أحمد (٢٩٣/٤)، وقد تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦٠، ٤٠٦١)، ومسلم (٢٤١٤).

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٥٥).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ قَالَ : رَأَيْتُ يَوْمَ أُحُدَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَنْ يَسَارِهِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ يَقَاتِلَانِ عَنْهُ أَشَدَّ الْقِتَالِ ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَا بَعْدَهُ<sup>(١)</sup> : يَعْنِي جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اِشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ فَعَلُوا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ - وَهُوَ حِينَئِذٍ يُشِيرُ إِلَى رَبَاعِيَّتِهِ - وَاشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى رَجُلٍ يَقْتُلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(٢)</sup> .

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ جُرْحِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : جُرِحَ وَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ وَهُسِمَتْ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ ﷺ ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَغْسِلُ الدَّمَ وَكَانَ عَلِيٌّ يَسْكُبُ عَلَيْهِ الْمَاءَ بِالْمَجْنِّ ، فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أَنَّ الْمَاءَ لَا يَزِيدُ الدَّمَ إِلَّا كَثْرَةً ، أَخَذَتْ قِطْعَةً مِنْ حَصِيرٍ فَأَحْرَقَتْهَا حَتَّى إِذَا صَارَتْ رَمَادًا أَلْصَقَتْهُ بِالْجُرْحِ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبِعْكُمُ غَمًّا بِغَمٍّ ﴾ أَي : فَجَزَاكُمْ غَمًّا عَلَى غَمٍّ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : نَزَلَتْ بِنِي فُلَانٍ وَنَزَلَتْ عَلَى بَنِي فُلَانٍ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَكَذَا قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا أَصْلَبْتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ ﴾ أَي : عَلَى جُدُوعِ النَّخْلِ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : الْغَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ الْهَرِيمَةِ وَحِينَ قِيلَ : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَالثَّانِي حِينَ عَلَاهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَوْقَ الْجَبَلِ ، وَقِيلَ : الْغَمُّ الْأَوَّلُ بِسَبَبِ مَا فَاتَهُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَتْحِ ، وَالثَّانِي : بِإِشْرَافِ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ . وَقِيلَ : كَرَبًا بَعْدَ كَرَبٍ ، قُتِلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ إِخْوَانِكُمْ ، وَعَلُوْ عَدُوِّكُمْ عَلَيْكُمْ ، وَمَا وَقَعَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ قَوْلٍ : قُتِلَ نَبِيُّكُمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ مُتَّابِعًا عَلَيْكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أَي : عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالظَّفَرِ بَعْدَ وُكُومِكُمْ ﴿ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْقَتْلِ ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ جَلَّ وَعَلَا .

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥٤) ، ومسلم (حديث ٢٣٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٣) ، ومسلم (حديث ١٧٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٥) ، ومسلم (حديث ١٧٩٠) .

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّو كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُّمْتَنًّا عَلَى عِبَادِهِ فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِم مِّنَ السَّكِينَةِ وَالْأَمَنَةِ ، وَهُوَ النَّعَاسُ الَّذِي غَشِيَهُمْ وَهُمْ مُسْتَمِلُونَ السَّلَاحِ فِي حَالِ هَمِّهِمْ وَغَمِّهِمْ ، وَالنَّعَاسُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ دَلِيلٌ عَلَى الْأَمَانِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمْ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِّنَهُ ﴾ الْآيَةُ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : النَّعَاسُ فِي الْقِتَالِ مِنَ اللَّهِ وَفِي الصَّلَاةِ مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَعَنْ أَبِي طَلْحَةَ قَالَ : غَشِينَا النَّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِنَا يَوْمَ أُحُدٍ ، قَالَ : فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَأَخَذَهُ وَيَسْقُطُ وَأَخَذَهُ <sup>(١)</sup> .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ ﴾ يَعْنِي : أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ وَالثَّبَاتِ وَالتَّوَكُّلِ الصَّادِقِ ، وَهُمْ الْجَازِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ ﷻ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَيُنْجِزُ لَهُ مَأْمُولَهُ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يَعْنِي : لَا يَغْشَاهُمْ النَّعَاسُ مِنَ الْقَلِقِ وَالْجَزَعِ وَالْخَوْفِ ﴿ يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ [ الفتح : ١٢ ] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، وَهَكَذَا هُوَ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا ظَهَرُوا تِلْكَ السَّاعَةَ أَتَمَّهَا الْفَيْصَلَةُ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ بَادَ وَأَهْلُهُ ، وَهَذَا شَأْنُ أَهْلِ

الرَّيْبِ وَالشَّكِّ إِذَا حَصَلَ أَمْرٌ مِنَ الْأُمُورِ الْفَظِيْعَةِ تَحْصُلُ لَهُمْ هَذِهِ الطُّنُونُ الشَّنِيْعَةُ .  
 ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ يَقُولُونَ ﴾ فِي تِلْكَ الْحَالِ ﴿ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ مَا أَخْفَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾ أَيُّ : يُسِرُّونَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : قَالَ الزُّبَيْرُ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ اشْتَدَّ الْخَوْفُ عَلَيْنَا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا النَّوْمَ ، فَمَا مِنَّا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا ذُقْنُهُ فِي صَدْرِهِ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ قَوْلَ مُعْتَبِ بْنِ قُشَيْرٍ مَا أَسْمَعُهُ إِلَّا كَأَحْلُمٍ يَقُولُ : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾ فَحَفِظْتُهَا مِنْهُ وَفِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا ﴾ لِقَوْلِ مُعْتَبِ (١) .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أَيُّ : هَذَا قَدْرٌ قَدَرَهُ اللَّهُ ﷻ وَحُكْمٌ حَتَمٌ لَا مَحِيدَ عَنْهُ وَلَا مَنَاصَ مِنْهُ . ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أَيُّ : يُخْتَبِرُكُمْ بِمَا جَرَى عَلَيْكُمْ لِيَمَيِّزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيُظْهِرَ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمُنَافِقِ لِلنَّاسِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أَيُّ : بِمَا يَخْتَلِجُ فِي الصُّدُورِ مِنَ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ أَيُّ : بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمُ السَّالِفَةِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : إِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحُسْنَةِ الْحَسَنَةَ بَعْدَهَا ، وَإِنْ مِنْ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ بَعْدَهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أَيُّ : عَمَّا كَانَ مِنْهُمْ مِنَ الْفِرَارِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أَيُّ : يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَحْلُمُ عَنْ خَلْقِهِ ، وَيَتَجَاوَزُ عَنْهُمْ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ تَعَالَى عَزِيزٌ ذَلِيلٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٦٦﴾



وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمَ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا  
تَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَيْنَ مُتُّمَ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ فِي اعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ ، الدَّالُّ عَلَيْهِ  
قَوْلُهُمْ عَنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْأَسْفَارِ وَالْحُرُوبِ : لَوْ كَانُوا تَرَكَوْا ذَلِكَ لَمَا  
أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا  
لِإِخْوَانِهِمْ ﴾ أَي : عَنْ إِخْوَانِهِمْ ﴿ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : سَافَرُوا لِلتَّجَارَةِ  
وَنَحْوَهَا ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًى ﴾ أَي : كَانُوا فِي الْغَزْوِ ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا ﴾ أَي : فِي الْبَلَدِ  
﴿ مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ أَي : مَا مَاتُوا فِي السَّفَرِ وَمَا قُتِلُوا فِي الْغَزْوِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أَي : خَلَقَ هَذَا الْاِعْتِقَادَ فِي  
نُفُوسِهِمْ لِيُرَادُوا حَسْرَةً عَلَى مَوْتَاهُمْ وَقَتْلَاهُمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿ وَاللَّهُ  
تَجِيءُ وَيُمِيتُ ﴾ أَي : بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ ، وَلَا يَحْيَا أَحَدٌ وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ  
إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْرِهِ ، وَلَا يُزَادُ فِي عُمُرِ أَحَدٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدْرِهِ  
﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ أَي : عِلْمُهُ وَبَصَرُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ خَلْقِهِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ  
مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمَ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا  
تَجْمَعُونَ ﴾ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ الْقَتْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَوْتَ أَيْضًا وَسَيْلَةً إِلَى نَيْلِ رَحْمَةِ  
اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْبَقَاءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمِيعِ حُطَامِهَا الْفَانِي .  
ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَيَجْزِيهِ  
بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَيْنَ مُتُّمَ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ  
تُحْشَرُونَ ﴾ .

فِيمَا رَحِمَةً مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ  
حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ  
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّ الْأَمْتَوَكِلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ

تَحَذِّلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١٧﴾ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَلَهُ جَهَنَّمَ ۗ وَبئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١١٨﴾ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١٩﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٢٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاظِبًا رَسُولَهُ ﷺ مُمْتَنًا عَلَيْهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فِيمَا أَلَانَ بِهِ قَلْبَهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، الْمُتَّبِعِينَ لِأَمْرِهِ التَّارِكِينَ لِزَجْرِهِ ، وَأَطَابَ لَهُمْ لَفْظُهُ ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أَي : بِأَيِّ شَيْءٍ جَعَلْتَ اللَّهُ لَهُمْ لَيْتًا لَوْلَا رَحْمَةُ اللَّهِ بِكَ وَبِهِمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : فَبِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ « مَا » صِلَةٌ ، وَالْعَرَبُ تَصِلُهَا بِالْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ وَبِالنَّكِرَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ ﴾ ، وَهَكَذَا هَهُنَا قَالَ : ﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أَي : بِرَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : هَذَا خُلِقَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعَثَهُ اللَّهُ بِهِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ شَبِيهَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [ التوبة : ١٢٨ ] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وَالْفُظُّ الْغَلِيظُ : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا غَلِيظُ الْكَلَامِ لِقَوْلِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ غَلِيظَ الْقَلْبِ ﴾ أَي : لَوْ كُنْتَ سَيِّئَ الْكَلَامِ قَاسِي الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ لَأَنْفَضُوا عَنْكَ وَتَرَكُوكَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَمَعَهُمْ عَلَيْكَ ، وَالْآنَ جَانِبَكَ لَهُمْ تَأْلِيْفًا لِقُلُوبِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو إِنِّي أَرَى صِفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّهُ : لَيْسَ بِفُظٍّ وَلَا غَلِيظٍ ، وَلَا صَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَصْفَحُ <sup>(١)</sup> . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . وَلِذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُشَاوِرُ

أَصْحَابَهُ فِي الْأَمْرِ إِذَا حَدَّثَ ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ ، لِيَكُونَ أَنْشَطَ هُمْ فِيهَا يَفْعَلُونَهُ ، كَمَا شَاوَرَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الذَّهَابِ إِلَى الْعِيرِ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا عَرَضَ الْبَحْرِ لَقَطَعْنَاكَ مَعَكَ ، وَلَوْ سَرَتْ بِنَا إِلَى بَرِكِ الْعِمَادِ لَسَرْنَا مَعَكَ ، وَلَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى : اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ نَقُولُ : اذْهَبْ فَنَحْنُ مَعَكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ مُقَاتِلُونَ<sup>(١)</sup> .

وَشَاوَرَهُمْ أَيْضًا أَيْنَ يَكُونُ الْمَنْزِلُ ؟ حَتَّى أَشَارَ الْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو بِالتَّقَدُّمِ أَمَامَ الْقَوْمِ .

وَشَاوَرَهُمْ فِي أَحَدٍ فِي أَنْ يَقْعُدَ فِي الْمَدِينَةِ أَوْ يُخْرَجَ إِلَى الْعَدُوِّ ، فَأَشَارَ جُمْهُورُهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِمْ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ . وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحَنْدَقِ فِي مَصَالِحَةِ الْأَحْزَابِ بِثُلْثِ ثَمَارِ الْمَدِينَةِ عَامِيذَ ، فَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْهِ السَّعْدَانُ : سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَتَرَكَ ذَلِكَ .

وَشَاوَرَهُمْ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ فِي أَنْ يَمِيلَ عَلَى ذَرَارِيِّ الْمُشْرِكِينَ ؟ فَقَالَ لَهُ الصَّدِيقُ : إِنَّا لَمْ نَجِءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ ، فَأَجَابَهُ إِلَى مَا قَالَ : وَقَالَ ﷺ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ : « أَشِيرُوا عَلَيَّ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، فِي قَوْمِ أَبْنَاءِ أَهْلِي وَرَمَوْهُمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ وَأَبْنَوْهُمْ بِمَنْ ؟ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا » وَاسْتَشَارَ عَلِيًّا وَأَسَامَةَ فِي فِرَاقِ عَائِشَةَ<sup>(٢)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فَكَانَ ﷺ يُشَاوِرُهُمْ فِي الْخُرُوبِ وَنَحْوِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَيُّ : إِذَا شَاوَرْتَهُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَزَمْتَ عَلَيْهِ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِيهِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَهَذِهِ آيَةٌ ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فَقَالَ : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : مَا يَتَّبِعِي لِنَبِيِّ أَنْ يُجُونَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْلَلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، وَقَدْ وَرَدَتْ السُّنَّةُ بِالنَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا فِي أَحَادِيثَ مُتَعَدِّدَةٍ :

(١) انظر البخاري (٣٩٥٢) .

(٢) صحيح : وسيأتي في حديث الإفك إن شاء الله .

عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ : اسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ يُقَالُ لَهُ ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَجَاءَ فَقَالَ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِي لِي ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ : « مَا بَالُ الْعَامِلِ تَبَعْتَهُ عَلَى عَمَلٍ فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِي لِي : أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَيْهَدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَأْتِي أَحَدُكُمْ مِنْهَا بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِذْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا حَوَارٌ ، أَوْ شَاةٌ تَبْعِرُ » ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عَفْرَةَ إِبْطِيهِ : ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ » ثَلَاثًا <sup>(١)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ ثُمَّ قَالَ : « لَا أَلْفَيْنَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي ، فَأَقُولُ : لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُكَ ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهَا حَمْحَمَةٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي . فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُكَ ، لَا أَلْفَيْنَ أَحَدُكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ فَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اغْنِنِي . فَأَقُولُ لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا قَدْ بَلَغْتُكَ » <sup>(٢)</sup> .

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ عَمِلَ لَنَا مِنْكُمْ عَمَلًا ، فَكَتَمْنَا مِنْهُ مَخِيطًا فَمَا فَوْقَهُ ، فَهُوَ غُلٌّ يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قَالَ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْوَدٌ - قَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْبَلَ عَنِّي عَمَلُكَ ، قَالَ « وَمَا ذَاكَ ؟ » قَالَ : سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا ، قَالَ : « وَأَنَا أَقُولُ ذَلِكَ الْآنَ ، مَنْ اسْتَعْمَلَنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلْبِلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَهُ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى » <sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ <sup>(٤)</sup> حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : فُلَانٌ شَهِيدٌ ، وَفُلَانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى اتَّوَا عَلَى

(١) البخاري (حديث ٢٥٩٧) ، ومسلم (١٨٣٢) ، والرغاء : صوت الإبل ، وشاة تبعر : أي تصيح .

(٢) البخاري (حديث ٣٠٧٣) ، ومسلم (حديث ١٨٣١) ، والحمحة : صوت الفرس دون الصهيل ،

والصامت : يعني الذهب والفضة ، وهو خلاف الناطق وهو الحيوان . انظر النهاية (٧٧٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ١٨٣٣) .

(٤) أخرجه مسلم (حديث ١١٤) .

رَجُلٌ فَقَالُوا : فَلَانُ شَهِيدٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَلَّا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَوْ عَبَاءَةٍ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَذْهَبُ فَنَادِي فِي النَّاسِ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ » قَالَ : فَخَرَجْتُ فَنَادَيْتُ إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوِلُهُ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعَ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : لَا يَسْتَوِي مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ فِيمَا شَرَعَهُ فَاسْتَحَقَّ رِضْوَانَ اللَّهِ وَجَزِيلَ ثَوَابِهِ وَأَجِيرٍ مِّنْ وَبِيلِ عِقَابِهِ ، وَمَنِ اسْتَحَقَّ غَضَبَ اللَّهِ وَالزِّمَّ بِهِ ، فَلَا مَحِيدَ لَهُ عَنْهُ ، وَمَأْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعُ الْمَصِيرَ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا نَظَائِرٌ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾

[الرعد: ١٩]

ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : يَعْنِي أَهْلَ الْخَيْرِ وَأَهْلَ الشَّرِّ دَرَجَاتٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ : مَنَازِلٌ : يَعْنِي مُتَفَاوِثُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَدَرَكَاتِهِمْ فِي النَّارِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٣٢] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي : وَسَيُوفِّيهِمْ إِيَّاهَا لَا يَظْلِمُهُمْ خَيْرًا وَلَا يَزِيدُهُمْ شَرًّا بَلْ يُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ أَي : مِّنْ جِنْسِهِمْ لِيَتِمَّ كُنُوزُهُمْ مِّنْ مَّخَاطَبَتِهِ وَسُؤَالِهِ وَمُجَالَسَتِهِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم: ٢١] أَي : مِّنْ جِنْسِكُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [فصلت: ٦] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَمَعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ، فَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْإِمْتِنَانِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُلُ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ بِحَيْثُ يُمَكِّنُهُمْ مَخَاطَبَتَهُ وَمُرَاجَعَتَهُ فِي فَهْمِ الْكَلَامِ عَنْهُ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أَي : يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لِتَزَكُّوْا نَفْسَهُمْ وَتَطْهَّرَ مِنَ الدَّنَسِ وَالْحَبْثِ ، الَّذِي كَانُوا مُتَلَبِّسِينَ بِهِ فِي حَالِ شُرْكِهِمْ وَجَاهِلِيَّتِهِمْ ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ هَذَا الرَّسُولِ ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أَي : لَفِي غَيٍّ وَجَهْلٍ

ظَاهِرٍ ، حَلِيٍّ بَيْنَ لِكُلِّ أَحَدٍ .

أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ  
 أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ  
 فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا  
 قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ  
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ  
 أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١١٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا  
 قُلْ فَادْرَأْهُمَا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ﴾ وَهِيَ مَا أَصَابَ مِنْهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ قَتْلِ  
 السَّبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ﴾ يَعْنِي : يَوْمَ بَدْرٍ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ  
 سَبْعِينَ قَتِيلًا وَأَسْرُوا سَبْعِينَ أَسِيرًا ﴿ قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا ﴾ أَيِ مِنْ أَيْنَ جَرَى عَلَيْنَا هَذَا  
 ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ .

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ عَوْقِبُوا بِمَا صَنَعُوا  
 يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ وَفَرَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْهُ .  
 وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ ، وَهَشَّمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿  
 أَوْلَمَّا أَصَبَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾  
 بِأَخْذِكُمُ الْفِدَاءِ (١) . وَقِيلَ : بِسَبَبِ عِصْيَانِكُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَمَرَكُمْ أَنْ لَا  
 تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ فَعَصَيْتُمْ ، يَعْنِي بِذَلِكَ الرُّمَاءُ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أَيِ :  
 يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيُحْكُمُ مَا يُرِيدُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أَيِ : فِرَارِكُمْ بَيْنَ يَدَيْ  
 عَدُوِّكُمْ وَقَتْلِهِمْ لِجَمَاعَةٍ مِنْكُمْ ، وَجِرَاحَتِهِمْ لِأَخْرِينِ ، كَانَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدْرِهِ ، وَلَهُ  
 الْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَيِ : الَّذِينَ صَبَرُوا وَثَبَّتُوا وَلَمْ يَتَرَلْزَمُوا .

(١) انظر نحوه في مسلم (حديث ١٧٦٣) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَكُمْ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولِ الَّذِينَ رَجَعُوا مَعَهُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَاتَّبَعَهُمْ رِجَالٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْقِتَالِ وَالْمُسَاعَدَةِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ ادْفَعُوا ﴾ يَعْنِي : كَثُرُوا سَوَادَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقِيلَ : ادْفَعُوا بِالِدُّعَاءِ ، وَقِيلَ : رَابَطُوا ، فَتَعَلَّلُوا قَائِلِينَ : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَكُمْ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنُونَ لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تَلْفُونَ حَرْبًا لِحُنَّاكُمْ ، وَلَكِنْ لَا تَلْقُونَ قِتَالًا .

قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَنَقَّلَ بِهِ الْأَحْوَالُ فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْكُفْرِ ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَكُمْ ﴾ فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ يَتَحَرِّقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أُصِيبَ مِنْ أَشْرَافِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالًا لَا مَحَالَةَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ أَي : لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَي : إِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ ، فَيَنْبَغِي أَنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٦﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَدَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴿١٦٦﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٨﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٢﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِ انْتِقَامِ اللَّهِ يَوْمَ يُخْرِجُ الْمَوْتِمِينَ ﴿١٧٤﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنِ الشُّهَدَاءِ بِأَتَمِّهِمْ وَإِنْ قُتِلُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ فَإِنَّ أَرْوَاحَهُمْ حَيَّةٌ مَّرْزُوقَةٌ فِي دَارِ الْقَرَارِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ <sup>(١)</sup> فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ أُرْسِلَهُمْ نَبِيُّ اللَّهِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ مَعُونَةَ قَالَ : لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ ، وَعَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْجَعْفَرِيُّ ، فَخَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَوْا غَارًا مُشْرِفًا عَلَى الْمَاءِ فَعَعِدُوا فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَيُّكُمْ يُبَلِّغُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَهْلَ هَذَا الْمَاءِ فَقَالَ - أَرَاهُ أَبُو مِلْحَانَ الْأَنْصَارِيُّ : أَنَا أُبَلِّغُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى حَوْلَ بَيْتِهِمْ فَاجْتَنَى أَمَامَ الْبُيُوتِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ بَيْتِ مَعُونَةَ ، إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ كَسْرِ الْبَيْتِ بِرُمَحٍ فَضْرَبَهُ فِي جَنْبِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشَّقِّ الْأَخْرَ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ فُزْتُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ، فَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى أَتَوْا أَصْحَابَهُ فِي الْغَارِ فَقَتَلَهُمْ أَجْمَعِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ .

وَقَالَ إِسْحَاقُ حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِيهِمْ قُرْآنًا « بَلِّغُوا عَنَّا قَوْمَنَا أَنَا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ » ثُمَّ نُسِخَتْ فَرَفِعَتْ بَعْدَ مَا قَرَأْنَاهَا زَمَانًا ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَقَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : « أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ حُضِرَ لَهَا قَنَادِيلٌ تَحْتَ الْعَرْشِ » .

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ <sup>(٢)</sup> : إِنَّا سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ . ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فَقَالَ : أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ

(١) إسناده حسن : وقد أخرجه الطبري (٧/ ٨٢٢٤) .

(٢) مسلم (حديث ١٨٨٧) .



رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَرَوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ إِطْلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟ فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يَسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرَكُّوا».

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ، يَسُرُّهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَا أَنْ لَهَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إِلَّا الشَّهِيدُ فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرَى، مِمَّا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: لَمَّا قُتِلَ أَبِي جَعَلْتُ أَبْكِي وَأَكْشِفُ الثُّوبَ عَن وَجْهِهِ فَجَعَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَنْهَوْنِي وَالنَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَنْهَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَبْكِيهِ - أَوْ مَا تَبْكِيهِ - مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رُفِعَ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَدْ رُوِينَا فِي مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ حَدِيثًا فِيهِ الْبَشَارَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ بَأَنَّ رُوحَهُ تَكُونُ فِي الْجَنَّةِ تَسْرُحُ أَيْضًا فِيهَا، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَرِهَا، وَتَرَى مَا فِيهَا مِنَ النَّصْرَةِ وَالشُّرُورِ وَتُشَاهِدُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهَا مِنَ الْكِرَامَةِ، وَهُوَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَزِيزٍ عَظِيمٍ اجْتَمَعَ فِيهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ الْمُتَّبَعَةِ فَإِنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَعْبٍ بْنِ مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»<sup>(٣)</sup> قَوْلُهُ: «يَعْلُقُ» أَي: يَأْكُلُ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ: إِنَّ رُوحَ الْمُؤْمِنِ تَكُونُ عَلَى شَكْلِ طَائِرٍ فِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فَكَمَا تَقَدَّمَ فِي حَوَاصِلِ طَيْرِ خَضِرٍ فَهِيَ كَالْكَوَاكِبِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهَا تَطِيرُ بِأَنْفُسِهَا، فَسَأَلُ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٠٨٠)، ومسلم (حديث ٢٤٧١).

(٣) صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (١/٢٤٠).

اللَّهُ الْكَرِيمَ الْمَنَّانَ أَنْ يُمِيتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - وَدَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أَي : الشُّهَدَاءُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ فَرِحُونَ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْغِنَى ، وَدَسْتَبْشِرُونَ بِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ بَعْدَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَنَّهُمْ يَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ وَأَتَمُّهُمْ لَا يَخَافُونَ مِمَّا أَمَامَهُمْ ، وَلَا يَحْزَنُونَ عَلَى مَا تَرَكُوهُ وَرَاءَهُمْ ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ . وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : ﴿ وَدَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أَي : وَيُسْرُونَ بِلُحُوقِ مَنْ لِحَقَهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمْ ، عَلَى مَا مَضُوا عَلَيْهِ مِنْ جِهَادِهِمْ لِيُسْرِكُوهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَاهُمْ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ بَيْرُ مَعُونَةَ السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَتَّ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَدْعُو عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ وَيَلْعَنُهُمْ ، قَالَ أَنَسٌ : وَنَزَلَ فِيهِمْ قُرْآنٌ قَرَأَهُ حَتَّى رُفِعَ : « أَنْ بَلَّغُوا عَنَّا قَوْمًا أَنَا قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِي عَنَّا وَأَرْضَانَا »<sup>(١)</sup> .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ : اسْتَبْشَرُوا أَي : سُرُوا لِمَا عَانُوا مِنْ وِفَاءِ الْمُؤْعُودِ ، وَجَزِيلِ الثَّوَابِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ . هَذَا كَانَ يَوْمَ حَمْرَاءِ الْأَسَدِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَرُّوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلَادِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَمَرُّوا فِي سَيْرِهِمْ نَدِمُوا لِمَ لَا تَمَمُّوا عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَجَعَلُوهَا الْفَيْصَلَةَ ، فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَدَبَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الذَّهَابِ وَرَاءَهُمْ لِيُرِعِيَهُمْ وَيُرِيَهُمْ أَنَّ بِهِمْ قُوَّةً وَجَلْدًا ، وَلَمْ يَأْذَنَ لِأَحَدٍ سِوَى مَنْ حَضَرَ الْوَقْعَةَ يَوْمَ أُحُدٍ سِوَى جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه لِمَا سَنَدَكَرُهُ ، فَانْتَدَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْإِثْحَانِ طَاعَةَ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم .

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ الْآيَةُ . قُلْتُ لِعُرْوَةَ : يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبُوكَ مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمَّا أَصَابَ نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَصَابَهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا ، فَقَالَ :

(١) انظر البخاري (٤٠٩٠) ، ومسلم (٦٧٧) .

« مَنْ يَرْجِعْ فِي أَثَرِهِمْ » فانتدب منهم سبعمون رجلاً فيهم أبو بكر والزبير - رضي الله عنهما -<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا ﴾ الآية أي: الذين توعدتهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما أكثرثوا لذلك، بل توكلوا على الله واستعانوا به ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾.

عن ابن عباس ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين ﴿ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾<sup>(٢)</sup>. قال تعالى: ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ ﴾ أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ وَفَضِّلَ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ ﴾ بما أضمر لهم عدوهم ﴿ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي: يخوفكم أوليائه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي: إذا سؤل لكم وأوهمكم فتوكلوا على والجتوا إلي، فإنني كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَخَوْفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٨]، وقال تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

ولا تحزنك الذين يسرعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ﴿٧٦﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴿٧٧﴾ ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴿٧٨﴾ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى

(١) البخاري (حديث ٤٠٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

يَمِيزَ الْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۖ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي مِنْ رُسُلِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٧٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ وَلَا تَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ وَذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حِرْصِهِ عَلَى النَّاسِ ، كَانَ يَحْزُنُهُ مُبَادَرَةُ الْكُفَّارِ إِلَى الْمَخَالَفَةِ وَالْعِنَادِ وَالشَّقَاقِ ، فَقَالَ تَعَالَى : وَلَا يَحْزُنْكَ ذَلِكَ ﴿ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطَاءً فِي الْآخِرَةِ ﴾ أَي : حِكْمَتُهُ فِيهِمْ أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَنْ لَا يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيبًا فِي الْآخِرَةِ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ ذَلِكَ إِخْبَارًا مُقَرَّرًا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ أَي : اسْتَبَدَّلُوا هَذَا بِهَذَا ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ أَي : وَلَكِنْ يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرًا لَأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٧١﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۗ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [ المؤمنون : ٥٥-٥٦ ] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [ التوبة : ٨٥ ]

ذَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أَي : لَا بُدَّ أَنْ يُعْقَدَ شَيْءٌ مِنَ الْمِحْنَةِ يُظْهَرُ فِيهِ وَليُّهُ وَيُفْتَضَّحُ بِهِ عَدُوُّهُ ، يُعْرَفُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّابِرُ وَالْمُنَافِقُ الْفَاجِرُ ، يَعْنِي بِذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ الَّذِي امْتَحَنَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَذَكَرَ بِهِ إِيْمَانَهُمْ وَصَبْرَهُمْ وَجَلَدَهُمْ وَثَبَاتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَهَتَكَ بِهِ أَسْتَارَ الْمُنَافِقِينَ فَظَهَرَ مُحَالَفَتُهُمْ وَنُكُوبُهُمْ عَنِ الْجِهَادِ وَحَيَاتِهِمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ

يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿ قَالَ مُجَاهِدٌ : مَيَّزَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : مَيَّزَ بَيْنَهُمْ بِالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : قَالُوا إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا فَلْيُخْبِرْنَا عَمَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ مِنَّا وَمَنْ يَكْفُرُ بِهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ أَيُّ : حَتَّىٰ يُخْرِجَ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطَّلِعَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ أَيُّ : أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ غَيْبَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ لَكُمْ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْمُنَافِقِ ، لَوْلَا مَا يَعْقِدُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْكَاشِفَةِ عَنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي مِنْ رُسُلِهِ مِنْ يَشَاءُ ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا ﴿ [ الجن : ٢٦-٢٧ ] ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أَيُّ : أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاتَّبِعُوهُ فِيمَا شَرَعَ لَكُمْ ﴿ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ أَيُّ : لَا يَحْسَبَنَّ الْبَخِيلُ أَنَّ جَمْعَهُ الْمَالِ يَنْفَعُهُ بَلْ هُوَ مَضْرَّةٌ عَلَيْهِ فِي دِينِهِ ، وَرَبِّمَا كَانَ فِي دُنْيَاهُ . ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَالِ أَمْرِ مَالِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ ، مِثْلَ لَهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَيْبَتَانِ ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَأْخُذُ بِلَهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - يَقُولُ : أَنَا مَالِكٌ ، أَنَا كَنْزُكَ » ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : فَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَقَدِّمُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ يَوْمَ مَعَادِكُمْ ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : بِنِيَّاتِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ .

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا تُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٢٧﴾

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] قَالَتِ الْيَهُودُ : يَا مُحَمَّدُ : افْتَقَرَ رَبُّكَ فَسَأَلَ عِبَادَهُ الْقَرْضَ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنْ اللَّهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ؛ وَهَذَا قَرْنُهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ﴾ أَي : هَذَا قَوْلُهُمْ فِي اللَّهِ ، وَهَذِهِ مُعَامَلَتُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ، وَسَيَجْزِيهِمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ شَرَّ الْجَزَاءِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿ أَي : يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ تَقْرِيحًا وَتَوْبِيحًا وَتَحْقِيرًا وَتَضْعِيرًا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنْ اللَّهُ عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى تَكْذِيبًا لِهَوْلَاءِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْهِمْ فِي كُتُبِهِمْ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا لِرَسُولٍ حَتَّى يَكُونَ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ أَنْ مَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ مِنْ أُمَّتِهِ فَتَقَبَّلَتْ مِنْهُ أَنْ تَنْزَلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تَأْكُلُهَا . قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ﴿ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ أَي : وَبِنَارٍ تَأْكُلُ الْقُرَابِينَ الْمُتَقَبَّلَةَ ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ ﴾ أَي : فَلِمَ قَابَلْتُمُوهُمْ بِالتَّكْذِيبِ وَالمُخَالَفَةِ وَالمُعَانَدَةِ وَقَتْلْتُمُوهُمْ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أَنْ كُنْتُمْ تَتَّبِعُونَ الْحَقَّ وَتَتَّقَادُونَ لِلرُّسُلِ .

قَالَ تَعَالَى مُسَلِّيًا لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أَي : لَا يُوْهِنُكَ تَكْذِيبُ هَوْلَاءِ لَكَ فَلَاكَ أُسْوَةٌ بِمَنْ قَبْلَكَ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِينَ كَذَّبُوا مَعَ مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهِيَ الْحُجَجُ وَالْبَرَاهِينُ الْقَاطِعَةُ ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ وَهِيَ الْكُتُبُ الْمُتَلَقَّاءُ مِنَ السَّمَاءِ كَالصُّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى

الْمُرْسَلِينَ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أَي الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ .

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ \* لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَامًّا يَعْمُ جَمِيعَ الْخَلِيقَةِ بِأَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١٨٥﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] فَهُوَ تَعَالَى وَحْدَهُ الَّذِي ، لَا يَمُوتُ ، وَالْحَيُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ الْعَرْشِ ، وَيَنْفَرُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْقَهَّارُ بِالْدَيْمُومَةِ وَالْبَقَاءِ ، فَيَكُونُ آخِرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَغْزِيَةٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ حَتَّى يَمُوتَ فَإِذَا انْقَضَتِ الْعِدَّةُ وَفَرَعَتِ النُّطْقَةَ الَّتِي قَدَّرَ اللَّهُ وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَمَ ، وَانْتَهتِ الْبَرِيَّةُ أَقَامَ اللَّهُ الْقِيَامَةَ وَجَارَى الْخَلَائِقِ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، قَلِيلِهَا وَكَثِيرِهَا ، كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا ، فَلَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أَي : مَنْ جُنِبَ النَّارُ وَنَجَا مِنْهَا وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ كُلُّ الْفَوْزِ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، إِفْرَءُوا إِن شِئْتُمْ : ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾»<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ ، فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَلِيَأْتِيَ إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»<sup>(٢)</sup> .

(١) إسناده حسن : وقد أخرجه الترمذي (٣٠١٣) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ تَصْغِيرٌ لِشَأْنِ الدُّنْيَا وَتَحْقِيرٌ لِأَمْرِهَا ، وَأَنَّهَا دَنِيئَةٌ فَانِيَةٌ قَلِيلَةٌ زَائِلَةٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [ الأعلیٰ : ١٦ - ١٧ ] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [ القصص : ٦٠ ] . وَفِي الْحَدِيثِ : « وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَغْمِسُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ فِي الِئِيمِ فَلْيَنْظُرْ بِمِ تَرْجِعُ إِلَيْهِ »<sup>(١)</sup> ، وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ قَالَ : هِيَ مَتَاعٌ مَثْرُوكَةٌ أَوْ شَكْتُ وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَنْ تَضْمَحَلَّ عَنْ أَهْلِهَا ، فَخَذُوا مِنْ هَذَا الْمَتَاعِ طَاعَةَ اللَّهِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ [ البقرة : ١٥٥ ] إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ . أَي : لَا بُدَّ أَنْ يُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ فِي شَيْءٍ مِنْ مَالِهِ أَوْ نَفْسِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ أَهْلِهِ ، وَيُبْتَلَى الْمُؤْمِنُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ مَقْدَمِهِمُ الْمَدِينَةَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ مُسَلِّبًا لَهُمْ عَمَّا يَنْهَاهُمْ مِنَ الْأَذَى مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَأَمْرًا لَهُمْ بِالصَّفْحِ وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ ، حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ . عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ<sup>(٢)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى جِمَارٍ عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَذَكِيَّةٌ ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ يَعُودُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بِنِي الْحَارِثِ بْنِ الْحَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ ، حَتَّى مَرَّ عَلَى مَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ ابْنُ أَبِي ، وَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَأَهْلَ الْكِتَابِ الْيَهُودَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ حَمَّرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ : لَا تُعَبِّرُوا عَلَيْنَا ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لَا

(١) أخرجه مسلم (حديث ٢٨٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٥٤) ، ومسلم (١٧٩٨) .



أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا ، فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا ، اِرْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْضُصْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رضي الله عنه : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاغْشِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَشَاوَرُونَ ، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا ، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : « يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَيَّ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ » يُرِيدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : « قَالَ : كَذَا وَكَذَا » فَقَالَ سَعْدُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أُعْفُ عَنْهُ وَأَصْفَحْ ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْكَ ، وَلَقَدْ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبَحِيرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّوهُ فَيَعْصِبُوهُ بِالْعِصَابَةِ ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ ، شَرِقَ بِذَلِكَ ، فَذَلِكَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ ، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ الْآيَةُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ الْآيَةُ .  
وَكَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَأَوَّلُ فِي الْعَفْوِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ لَهُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَدْرًا ، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صِنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبْدَةَ الْأَوْثَانَ : هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَبَايَعُوا وَأَسْلَمُوا . فَكُلُّ مَنْ قَامَ بِحَقِّ أَوْ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى ، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي اللَّهِ ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِاللَّهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ صلى الله عليه وسلم .

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَتُحِبُّونَ أَنْ تُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا

تَحَسَّبْتُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٩﴾

هَذَا تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَهْدِيدٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ  
الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَنْ يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ فِي النَّاسِ ، فَيَكُونُوا عَلَىٰ أُهْبَةٍ مِنْ  
أَمْرِهِ ، فَإِذَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَابِعُوهُ ، فَكْتُمُوا ذَلِكَ وَتَعَوَّضُوا عَمَّا وَعَدُوا عَلَيْهِ مِنَ الْخَيْرِ فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِالذُّونِ الطَّيْفِ وَالْحِطِّ الدُّنْيَوِيِّ السَّخِيفِ ، فَبَسَّ الصَّفْقَةَ صَفَقَتُهُمْ ،  
وَبَسَّ الْبَيْعَةَ بَيْعَتُهُمْ . وَفِي هَذَا تَحْذِيرٌ لِلْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْلُكُوا مَسْلِكَهُمْ فَيُصِيبَهُمْ مَا  
أَصَابَهُمْ ، وَيَسْلُكُ بِهِمْ مَسْلِكَهُمْ ، فَعَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يَبْذُلُوا مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ  
الدَّالِّ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَلَا يَكْتُمُوا مِنْهُ شَيْئًا فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ  
أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ سُئِلَ عَنِ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ ، أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » (١) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَتُحِبُّونَ أَنْ تَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾  
الآيَةَ . يَعْنِي بِذَلِكَ : الْمُرَائِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ بِمَا لَمْ يُعْطُوا ، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ  
النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةٍ لِيَتَكَبَّرَ بِهَا ، لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلَّا قَلَّةً » (٢) وَفِي الصَّحِيحَيْنِ  
أَيْضًا « الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبِي زُورٍ » (٣) .

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ : أَنَّ مَرْوَانَ قَالَ : إِذْ هَبَّ يَا رَافِعُ - لِبَوَائِهِ -  
إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلَّ : لَيْتَن كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا آتَى ، وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ  
يَفْعَلْ ، مُعَذَّبًا ، لِنُعَذِّبَنَّ أَجْمَعُونَ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا لَكُمْ وَهَذِهِ ، إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ  
فِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ  
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا قَلِيلًا فَبَسَّ مَا  
يَشْتَرُونَ ﴾ ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَتُحِبُّونَ أَنْ  
تَحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ﴾ الْآيَةَ (٤) . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ فَكْتَمُوهُ

(١) في كل طرق هذا الحديث مقال .

(٢) أخرجه مسلم في طرق حديث (١١٠) .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٥٢١٩) ، ومسلم (حديث ٢١٢٩) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦٨) ، ومسلم (٢٧٧٨) .

إِيَّاهُ ، وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ ،  
وَأَسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ ، وَفَرِحُوا بِمَا أُوْتُوا مِنْ كِتْمَانِهِمْ مَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانُوا  
إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْعَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ  
صلى الله عليه وسلم ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْعَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا ، وَأَحْبَبُوا أَنْ يُحْمَدُوا  
بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَزَلْتُ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ  
يَفْعَلُوا ﴾ الْآيَةَ <sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ يُقْرَأُ بِالنَّاءِ عَلَى مُحَاطَبَةِ الْمَفْرَدِ ،  
وَبِالنِّيَاءِ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنْهُمْ ، أَيُّ : لَا تَحْسَبُ أَنَّهُمْ نَاجُونَ مِنَ الْعَذَابِ ، بَلْ لَا بُدَّ لَهُمْ  
مِنْهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَيُّ : هُوَ  
مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَالْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ، فَهَابُوهُ وَلَا تُخَالِفُوهُ  
وَاحْذَرُوا غَضَبَهُ وَنِقْمَتَهُ ، فَإِنَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا أَعْظَمَ مِنْهُ ، الْقَدِيرُ الَّذِي لَا أَقْدَرَ مِنْهُ .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي  
الْأَلْبَابِ ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ  
فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا  
عَذَابَ النَّارِ ﴿١٠١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَحْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن  
أَنْصَارٍ ﴿١٠٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا  
رَبَّنَا فَاعْفُ رْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٠٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا  
مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٠٤﴾

وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : هَذِهِ  
فِي إِزْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا ، وَهَذِهِ فِي انْخِفَاضِهَا وَكِنَافَتِهَا وَاتِّضَاعِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنْ

الآياتِ المشاهدةِ العظيمةِ من كواكبِ سيارَاتِ وَثوابِ وَبِحَارِ وَجِبَالِ وَقَفَارِ  
 وَأَشْجَارِ وَنَبَاتِ وَزُرُوعِ وَثَمَارِ وَحَيَوَانِ وَمَعَادِنِ وَمَنَافِعِ مُخْتَلِفَةِ الْأَلْوَانِ وَالطُّعُومِ  
 وَالرَّوَائِحِ وَالْحَوَاصِّ ﴿ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أَي : تَعَاقَبُهَا وَتَقَارُضُهَا الطُّوْلَ  
 وَالْقَصْرَ . فَتَارَةً يَطْوِلُ هَذَا وَيَقْصُرُ هَذَا ، ثُمَّ يَعْتَدِلَانِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ هَذَا مِنْ هَذَا  
 فَيَطْوِلُ الَّذِي كَانَ قَصِيرًا ، وَيَقْصُرُ الَّذِي كَانَ طَوِيلًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ  
 الْعَلِيمِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذُ لِدُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أَي : الْعُقُولِ التَّامَّةِ الزَّكِيَّةِ الَّتِي  
 تُدْرِكُ الْأَشْيَاءَ بِحَقَائِقِهَا عَلَى جَلِيَّاتِهَا . وَلَيْسُوا كَالصَّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ،  
 الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ  
 عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (١) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿ [يوسف : ١٠٥-١٠٦]

وَصَفَّ تَعَالَى أُولِي الْأَلْبَابِ فَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى  
 جُنُوبِهِمْ ﴾ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :  
 « صَلِّ قَائِمًا ، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا ، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبِكَ » (٢) أَي : لَا يَقْطَعُونَ  
 ذِكْرَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بِسَرَائِرِهِمْ وَضَمَائِرِهِمْ وَالسَّتِيهِمْ ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : يَفْهَمُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْحِكْمِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ  
 وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ لَا يَعْتَبِرُ بِمَخْلُوقَاتِهِ ، الدَّالَّةِ عَلَى ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَشَرْعِهِ  
 وَقُدْرَتِهِ وَأَيَاتِهِ فَقَالَ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ  
 عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٣) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿ ، وَمَدَحَ عِبَادَهُ  
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قَائِلِينَ ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا ﴾ أَي : مَا خَلَقْتَ هَذَا  
 الْخَلْقَ عَبَثًا بَلْ بِالْحَقِّ لِتَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَتَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا  
 بِالْحُسْنَى ، ثُمَّ نَزَّهُوهُ عَنِ الْعَبَثِ وَخَلَقَ الْبَاطِلَ فَقَالُوا : ﴿ سُبْحٰنَكَ ﴾ أَي : عَنْ أَنْ  
 تَخْلُقَ شَيْئًا بَاطِلًا ﴿ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ أَي : يَا مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، يَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ١١١٧) .

مَنْ هُوَ مُنْزَعٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعَيْبِ وَالْعَبَثِ ، قَنَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ،  
وَقِيضْنَا لِأَعْمَالٍ تَرْضَى بِهَا عَنَا ، وَوَفَّقْنَا لِعَمَلٍ صَالِحٍ تَهْدِينَا بِهِ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ  
وَمُخْبِرِنَا بِهِ مِنْ عَذَابِكَ الْأَلِيمِ .

قَالُوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ ﴾ أَي : أَهْنَتْهُ وَأَظْهَرْتَ خِزْيَهُ  
لِأَهْلِ الْجَمْعِ ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْكَ ، وَلَا  
مُجِدَّ لَهُمْ عَمَّا أَرَدْتَ بِهِمْ . ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ ﴾ أَي : دَاعِيًا  
يَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ وَهُوَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا ﴾ أَي : يَقُولُ آمِنُوا  
بِرَبِّكُمْ فءَامِنَّا ، أَي : فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَاتَّبَعْنَاهُ ﴿ رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ أَي : بِإِيْمَانِنَا  
وَإِتِّبَاعِنَا نَبِيَّكَ أَي : أَسْرَهَا ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ أَي : فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ﴿ وَتَوَفَّنَا  
مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ أَي : أَحْلِقْنَا بِالصَّالِحِينَ . ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ قِيلَ :  
مَعْنَاهُ عَلَى الْإِيمَانِ بِرُسُلِكَ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ وَهَذَا أَظْهَرَ . ﴿ وَلَا  
تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أَي : عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿ إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ أَي : لَا بُدَّ  
مِنَ الْوَعْدِ الَّذِي أَخْبَرْتَ عَنْهُ رُسُلُكَ وَهُوَ الْقِيَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ .

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَشْرَ مِنْ آخِرِ آلِ عِمْرَانَ إِذَا  
قَامَ مِنَ اللَّيْلِ لِتَهَجُّدِهِ . عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(١)</sup> أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ  
حَالَتُهُ قَالَ : فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوَسَادَةِ وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي  
طُوبَاهَا فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ ،  
اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَنَامِهِ ، فَجَعَلَ يَمْسُحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ  
آيَاتِ الْحَوَاتِيمِ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّْ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ  
وُضُوءَهُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا  
صَنَعَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِي  
وَأَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى فَفَتَلَهَا ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ ،  
ثُمَّ رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوْتَرْتُ ثُمَّ اضْطَجَعْتُ حَتَّى جَاءَهُ الْمُؤَدُّنُ فَقَامَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ

(١) البخاري (حديث ٤٥٦٩) ، ومسلم (حديث ٧٦٣) .

خَفِيفَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ .

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ ط  
بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي  
وَقَتَلُوا وَقْتَلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أَي : فَأَجَابَهُمْ رَبُّهُمْ ، وَمَعْنَى الْآيَةِ : أَنَّ  
الْمُؤْمِنِينَ ذَوِي الْأَلْبَابِ لَمَّا سَأَلُوا مَا سَأَلُوا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَقِبَ  
ذَلِكَ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ  
دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦]  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ ﴾ هَذَا تَفْسِيرٌ  
لِلْإِجَابَةِ ، أَي : قَالَ لَهُمْ مُخْبِرًا أَنَّهُ لَا يُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ لَدَيْهِ ، بَلْ يُؤْفِي كُلَّ  
عَامِلٍ بِقِسْطِ عَمَلِهِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ أَي : جَمِيعُكُمْ فِي ثَوَابِي سَوَاءٌ ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾  
أَي : تَرَكُوا دَارَ الشُّرْكِ وَأَتُوا إِلَى دَارِ الْإِيمَانِ وَفَارَقُوا الْأَحْبَابَ وَالْإِخْوَانَ وَالْخِلَانَ  
وَالْجِيرَانَ ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ أَي : ضَاقَتْهُمْ الْمَشْرُكُونَ بِالْأَذَى حَتَّى اجْتَوَوْهُمْ  
إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ بَيْنِ أَطْهَرِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي ﴾ أَي : إِنَّمَا كَانَ ذَنْبُهُمْ  
إِلَى النَّاسِ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ تُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ  
تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [المتحنة : ١] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَتَلُوا وَقْتَلُوا ﴾ ، وَهَذَا أَعْلَى الْمَقَامَاتِ أَنْ يُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
فَيَعْفَرَ جَوَادُهُ ، وَيَعْفَرَ وَجْهَهُ بِدَمِهِ وَتُرَابِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَجُلًا قَالَ :  
يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، مُقْبِلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ ، أَيْكُفَّرُ

اللَّهُ عَنِّي خَطِيئَاتِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ قُلْتَ؟»، فَأَعَادَ عَلَيْهِ مَا قَالَ، فَقَالَ: «نَعَمْ، إِلَّا الدِّينَ قَالَهُ لِي جَبْرِيلُ أَنفًا»، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْتَهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: تَجْرِي فِي خِلَالِهَا الْأَنْهَارُ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَشَارِبِ مِنْ لَبَنٍ وَعَسَلٍ وَخَمْرٍ وَمَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطَى إِلَّا جَزِيلاً كَثِيراً كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يُعَذِّبُ يَكُنْ غَرَامًا وَإِنْ يُعْطِ جَزِيلاً فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أَي: عِنْدَهُ حُسْنُ الْجَزَاءِ لِمَنْ عَمَلَ صَالِحًا.

لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٣١﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٣٢﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴿١٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا هُوَ لِأَنَّ الْكُفَّارِ مُتَرَفُونَ فِيهِ مِنَ النَّعْمَةِ وَالْغِنَةِ وَالشُّرُورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيُصْبِحُونَ مُرْتَمِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ. فَإِنَّمَا نَمُدُّ هُمْ فِيهَا هُمْ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا تَجَدُّدُ فِي آيَةِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٤﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُنذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٣٥﴾ [يونس: ٦٩-٧٠]

وَهَكَذَا لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا وَذَكَرَ أَنَّ مَا لَهُمُ النَّارَ، قَالَ بَعْدَهُ: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٣﴾

يُخْرِجُ تَعَالَى عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ حَقَّ الْإِيمَانِ ، وَيُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ مَعَ مَا هُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمَتَّقِمَةِ ، أَنَّهُمْ خَاشِعُونَ لِلَّهِ ، أَيُّ : مُطِيعُونَ لَهُ ، خَاضِعُونَ مُتَدَلِّلُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أَيُّ : لَا يَكْتُمُونَ مَا بَأَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِشَارَةِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَذَكَرَ صِفَتِهِ وَنَعْتَهُ وَمَبْعَثِهِ وَصِفَةَ أُمَّتِهِ ، وَهَؤُلَاءِ هُمْ خَيْرَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَصَفْوَتِهِمْ سَوَاءً كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [ الفصص ٥٢-٥٤ ] . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ءُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [ البقرة : ١٢١ ] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ ءَامَنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٣٤﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿٣٥﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [ الإسراء : ١٠٧-١٠٩ ] ، وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تُوَجَدُ فِي الْيَهُودِ ، وَلَكِنْ قَلِيلًا كَمَا وَجَدَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَمْثَالِهِ مِمَّنْ آمَنَ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ ، وَلَمْ يَبْلُغُوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ ، وَأَمَّا النَّصَارَى مِنْهُمْ يَهْتَدُونَ وَيَتَقَادُونَ لِلْحَقِّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۗ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبِعْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [ المائدة : ٨٢-٨٥ ] . وَهَكَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الْآيَةُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ لَمَّا قَرَأَ سُورَةَ «كَهيعص» بِحَضْرَةِ النَّجَاشِيِّ - مَلِكِ الْحَبَشَةِ - وَعِنْدَهُ الْبَطَارِكَةُ وَالْقَسَاوِسَةُ بَكَى



وَبَكُوا مَعَهُ حَتَّىٰ أَخَصَبُوا لِحَاهُمُ<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» فَذَكَرَ مِنْهُمْ : «رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي»<sup>(٢)</sup>.  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أَي : لَا يَكْتُمُونَ مَا بَأْيَدِيهِمْ مِنْ الْعِلْمِ كَمَا فَعَلَهُ الطَّائِفَةُ الْمُرْذُولَةُ مِنْهُمْ بَلْ يَبْذُلُونَ ذَلِكَ مَجَانًا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى :  
 ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ أَمْرُوا أَنْ يَصْبِرُوا عَلَىٰ دِينِهِمُ الَّذِي إِزْتَضَاهُ اللَّهُ لَهُمْ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ، فَلَا يَدْعُوهُ لِسَرَاءٍ وَلَا لِضَرَاءٍ وَلَا لِشِدَّةٍ وَلَا لِرِخَاءٍ ، حَتَّى يَمُوتُوا مُسْلِمِينَ ، وَأَنْ يُصَابِرُوا الْأَعْدَاءَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ دِينَهُمْ ، وَأَمَّا الْمُرَابِطَةُ : فَهِيَ الْمُدَاوِمَةُ فِي مَكَانِ الْعِبَادَةِ وَالثَّبَاتِ ، وَقِيلَ : انْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْنَحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ، إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَى إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ ، فَذَلِكُمُ الرَّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرَّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرَّبَاطُ»<sup>(٣)</sup>.  
 وَقِيلَ الْمُرَادُ بِالْمُرَابِطَةِ هَهُنَا : مُرَابِطَةُ الْغَزْوِ فِي نَحْوِ الْعَدُوِّ وَحِفْظُ ثُغُورِ الْإِسْلَامِ وَصِيَانَتِهَا عَنْ دُخُولِ الْأَعْدَاءِ إِلَى حَوْزَةِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ بِالْتَرغِيبِ فِي ذَلِكَ وَذِكْرِ كَثْرَةِ الثَّوَابِ ، فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :  
 «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»<sup>(٤)</sup>. وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الْفِتَانَ»<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر مسند الإمام أحمد (٥ / ٢٩٠) فقد روي هناك بسند حسن .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٩٧) ، ومسلم (حديث ١٥٤) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢٥١) بنحوه .

(٤) أخرجه البخاري (حديث ٢٨٩٢) .

(٥) أخرجه مسلم (حديث ١٩١٣) .

عن فضالة بن عبيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَلُّ مَيِّتٍ يُحْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الَّذِي مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَيَأْمَنُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ »<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَسَ ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخَذَ بَعَنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشَعَثَ رَأْسَهُ ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ »<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ وَأَحْوَالِكُمْ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

آخِرُ تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ  
نَسْأَلُهُ الْمَوْتَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، آمِينَ

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ٢٥٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٧) .

## تفسيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ وَهِيَ مَدِينَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا  
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ  
وَالْأَرْحَامَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا خَلَقَهُ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَمُنَبِّهًا هُمْ عَلَى  
قُدْرَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ بِهَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ آدَمُ الطَّلْحَاءُ : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾  
وَهِيَ حَوَاءٌ عَلَيْهَا السَّلَامُ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ ،  
وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإِنْ اسْتَمْتَعَتْ بِهَا  
اسْتَمْتَعَتْ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ أَي : وَذَرَأَ مِنْهُمَا ، أَي : مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ  
رِجَالًا كَثِيرًا نِسَاءً ، وَنَشَرَهُمْ فِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ عَلَى إِخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ  
وَالْوَانِهِمْ ، وَلُغَاتِهِمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعَادُ وَالْمَحْشَرُ .  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ أَي : وَاتَّقُوا اللَّهَ  
بِطَاعَتِكُمْ إِيَّاهُ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾ أَي : كَمَا يُقَالُ : أَسْأَلُكَ  
بِاللَّهِ وَبِالرَّحِمِ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَعَاقِدُونَ وَتَعَاهِدُونَ بِهِ ، وَاتَّقُوا  
الْأَرْحَامَ أَنْ تَقْطَعُوهَا وَلَكِنْ بَرُّوهَا وَصِلُوهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ أَي : هُوَ مُرَاقِبٌ لِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ،  
كَمَا قَالَ : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٩] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « (أُعْبِدْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٣١) ، ومسلم (حديث ١٤٦٨) .

اللَّهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» (١) وَهَذَا إِرْشَادٌ وَأَمْرٌ بِمُرَاقَبَةِ الرَّقِيبِ .  
وَهَذَا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ أَصْلَ الْخُلُقِ مِنْ أَبِي وَاحِدٍ وَأُمُّ وَاحِدَةٍ لِيُعْطَفَ بَعْضُهُمْ عَلَى  
بَعْضٍ، وَيَحْتُتُّهُمْ عَلَى ضَعْفَائِهِمْ .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (٢) مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ أَوْلِيَاكَ النَّفَرُ مِنْ مُضَرَ وَهُمْ مُجْتَابُوا النَّارِ - أَيُّ مِنْ عُرَيْبِهِمْ  
وَفَقْرِهِمْ - قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ  
اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴿ حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴿ ثُمَّ حَضَّاهُمْ عَلَى الصَّدَقَةِ  
فَقَالَ : ﴿ تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ ، مِنْ دِرْهَمِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ ﴾ .

وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبَدُّوا أَلْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ  
إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى  
فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا  
فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ  
صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴿

يَأْمُرُ تَعَالَى بِدَفْعِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى إِلَيْهِمْ إِذَا بَلَغُوا الْحُلُمَ كَامِلَةً مُوقَرَةً ، وَيَنْهَى عَنْ  
أَكْلِهَا وَضَمِّهَا إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَا تَتَّبَدُّوا أَلْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ ﴾ قَالَ بَعْضُ  
أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا تَعْجَلْ بِالرِّزْقِ الْحَرَامِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ الَّذِي قُدِّرَ لَكَ ،  
وَقِيلَ : لَا تَتَّبَدُّوا الْحَرَامَ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْحَلَالِ مِنْ أَمْوَالِكُمْ يَقُولُ : لَا تُبَدِّرُوا  
أَمْوَالَكُمْ الْحَلَالَ ، وَتَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ الْحَرَامَ ، وَقِيلَ : لَا تُعْطِ مَهْزُولًا وَتَأْخُذَ سَمِينًا .  
وَقِيلَ : لَا تُعْطِ زَائِمًا وَتَأْخُذَ جَيِّدًا . وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ أَحَدُهُمْ يَأْخُذُ الشَّاةَ السَّمِينَةَ

(١) اللفظ «الإحسان .. أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، والحديث قد رواه مسلم (حديث رقم ٨) من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعاً، وأخرجه البخاري (حديث ٥٠)، مسلم (حديث ٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .  
(٢) أخرجه مسلم (حديث ١٠١٧) .

مِنْ غَنَمِ النَّبِيِّ وَيَجْعَلْ مَكَانَهَا الشَّاةَ الْمَهْزُولَةَ وَيَقُولُ : شَاةٌ بِشَاةٍ ، وَيَأْخُذُ الدَّرْهَمَ الْجَيِّدَ وَيَطْرَحُ مَكَانَهُ الزَّيْفَ ، يَقُولُ دِرْهَمٌ بِدِرْهَمٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ﴾ أَيُّ : لَا تَخْلِطُوهَا فَنَأْكُلُوهَا جَمِيعًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ أَيُّ : إِثْمًا عَظِيمًا . وَالْمَعْنَى : إِنَّ أَكْلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ مَعَ أَمْوَالِكُمْ إِثْمٌ عَظِيمٌ وَخَطَأٌ كَبِيرٌ فَاجْتَنِبُوهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ ﴾ أَيُّ : إِذَا كَانَ تَحْتَ حِجْرِ أَحَدِكُمْ يَتِيمَةٌ وَخَافَ أَنْ لَا يُعْطِيَهَا مَهْرَ مِثْلِهَا ، فَلْيُعْدِلْ إِلَىٰ مَا سِوَاهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ كَثِيرٌ وَلَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْهِ .

عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّ رَجُلًا كَانَتْ لَهُ يَتِيمَةٌ فَنَكَحَهَا ، وَكَانَ لَهَا عِذْقٌ وَكَانَ يُنْسِكُهَا عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ ، فَنَزَلَتْ فِيهِ ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا ﴾ أَحْسَبُهُ قَالَ : كَانَتْ شَرِيكَتُهُ فِي ذَلِكَ الْعِذْقِ وَفِي مَالِهِ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ ﴾ قَالَتْ : يَا ابْنَ أُنْتِي هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حِجْرِ وَلِيِّهَا تُشْرِكُهُ فِي مَالِهِ ، وَيُعْجِبُهُ مَا لَهَا وَجَمَالُهَا ، فَيُرِيدُ وَلِيِّهَا أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بَعْدَ أَنْ يُقْسِطَ فِي صَدَاقِهَا فَيُعْطِيهَا مِثْلَ مَا يُعْطِيهَا غَيْرُهُ ، فَهِيَ أَنْ يَنْكِحُوهُنَّ ، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا إِلَيْهِنَّ وَيَبْلُغُوا بَيْنَ أَعْلَىٰ سُنْتِهِنَّ فِي الصَّدَاقِ ، وَأَمُرُوا أَنْ يَنْكِحُوا مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ . قَالَ عُرْوَةُ : قَالَتْ عَائِشَةُ : وَإِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَاسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : وَقَوْلُ اللَّهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوا نِسَاءَهُنَّ ﴾ رَغْبَةٌ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ إِذَا كَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالَ ، فَهِيَ أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَا لَهَا وَجَمَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ ، إِذَا كُنَّ قَلِيلَاتِ الْمَالِ وَالْجَمَالَ<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَثْنَىٰ وَثُلَّةَ وَرُبْعَ ﴾ أَيُّ : إِنَّكِحُوا مَنْ شِئْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهُنَّ إِنْ شَاءَ أَحَدُكُمْ ثِنْتَيْنِ ، وَإِنْ شَاءَ ثَلَاثًا ، وَإِنْ شَاءَ أَرْبَعًا ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجْهٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ :

(١) أخرجه البخاري (٤٥٧٣) ، ومسلم (٣٠١٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٧٤) ، ومسلم (٣٠١٨) .

المَقَامِ مَقَامِ امْتِنَانٍ وَإِبَاحَةٍ فَلَوْ كَانَ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ لَذَكَرَهُ . قَالَ الشَّافِعِيُّ :  
 وَقَدْ دَلَّتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمُبَيَّنَّةُ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ غَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ  
 يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّافِعِيُّ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا  
 مَا حُكِيَ عَنِ طَائِفَةٍ مِنَ الشَّيْخَةِ أَنَّهُ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرٍ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ ، وَقَالَ  
 بَعْضُهُمْ : بِلَا حَضْرٍ ، وَقَدْ يَتَمَسَّكُ بَعْضُهُمْ بِفِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جَمْعِهِ بَيْنَ أَكْثَرٍ  
 مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى تِسْعٍ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ (١) . وَهَذَا عِنْدَ الْعُلَمَاءِ مِنْ خَصَائِصِهِ دُونَ  
 غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أَي : إِنْ خِفْتُمْ  
 مِنْ تَعْدَادِ النِّسَاءِ أَنْ لَا تَعْدِلُوا بَيْنَهُنَّ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا  
 بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقْتَصِرْ عَلَى وَاحِدَةٍ ، أَوْ عَلَى  
 الْجَوَارِي السَّرَارِيِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَجِبُ قَسْمُ بَيْنَهُنَّ ، وَلَكِنْ يُسْتَحَبُّ ، فَمَنْ فَعَلَ فَحَسَنٌ  
 وَمَنْ لَا فَلَا حَرَجَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ لَا تَكْتُرُ عَائِلَتُكُمْ ،  
 وَهُوَ مَا خُوذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أَي : فَقَرًّا ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ  
 مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ [ التوبة : ٢٨ ] ، وَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ      وَمَا يَدْرِي الْغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ  
 وَتَقُولُ الْعَرَبُ : عَالُ الرَّجُلِ ، يَعِيلُ عَيْلَةً إِذَا افْتَقَرَ . وَلَكِنْ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ هَهُنَا  
 نَظَرٌ ، فَإِنَّهُ كَمَا يُخْشَى كَثْرَةُ الْعَائِلَةِ مِنْ تَعْدَادِ الْحَرَائِرِ ، كَذَلِكَ يُخْشَى مِنْ تَعْدَادِ  
 السَّرَارِيِّ أَيْضًا ، وَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ أَي : لَا تَجُورُوا .  
 يُقَالُ : عَالٌ فِي الْحُكْمِ إِذَا قَسَطَ وَظَلَمَ وَجَارَ ، وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي فَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ :

بِمِيزَانٍ قَسَطٍ لَا يُخَيِّسُ شَعِيرَةً      لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ نِحْلَةً : فَرِيضَةً . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ :  
 النِّحْلَةُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الْوَاجِبُ . يَقُولُ : لَا تَنْكِحْهَا إِلَّا بِشَيْءٍ وَاجِبٍ هَا ، وَلَيْسَ

(١) انظر البخاري (حديث ٥٠٦٧) ، ومسلم (حديث ١٤٦٥) .

يُنْبَغِي لِأَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَنْكَحَ امْرَأَةً إِلَّا بِصَدَاقٍ وَاجِبٍ ، وَلَا يُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَسْمِيَةَ الصَّدَاقِ كَذِبًا بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ : أَنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عَلَيْهِ دَفْعُ الصَّدَاقِ إِلَى الْمَرْأَةِ حَتْمًا ، وَأَنْ يَكُونَ طَيِّبَ النَّفْسِ بِذَلِكَ ، كَمَا يَمْنَحُ الْمِنِحَةَ وَيُعْطِي النَّحْلَةَ طَيِّبًا ، كَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ الْمَرْأَةَ صَدَاقَهَا طَيِّبًا بِذَلِكَ ، فَإِنْ طَابَتْ هِيَ لَهُ بِهِ بَعْدَ تَسْمِيَتِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلْيَأْكُلْهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ .

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٦٠﴾ وَابْتَلُوا الَّتِي تَمْنَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦١﴾

يُنْهَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ تَمَكِينِ السُّفَهَاءِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ قِيَمًا ، أَيْ : تَقْوَمُ بِهَا مَعَايِشُهُمْ مِنَ التَّجَارَاتِ وَغَيْرِهَا . وَمَنْ هَهُنَا يُؤْخَذُ الْحَجْرُ عَلَى السُّفَهَاءِ ، وَهُمْ أَقْسَامٌ : فَتَارَةٌ يَكُونُ الْحَجْرُ لِلصَّغِيرِ فَإِنَّ الصَّغِيرَ مَسْلُوبُ الْعِبَارَةِ ، وَتَارَةٌ يَكُونُ الْحَجْرُ لِلجُنُونِ ، وَتَارَةٌ لِسُوءِ التَّصَرُّفِ لِنَقْصِ الْعَقْلِ أَوْ الدِّينِ ، وَتَارَةٌ لِلْفَلَسِ وَهُوَ مَا إِذَا أَحَاطَتِ الدُّيُونُ بِرَجُلٍ وَضَاقَ مَالُهُ عَنْ وَفَائِهَا ، فَإِذَا سَأَلَ الْغُرَمَاءُ الْحَاكِمَ الْحَجْرَ عَلَيْهِ حَجَرَ عَلَيْهِ . ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : هُمْ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ ﴾ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : لَا تَعْمِدْ إِلَى مَالِكَ وَمَا خَوْلَكَ اللَّهُ ، وَجَعَلَهُ لَكَ مَعِيشَةً فَتُعْطِيَهُ امْرَأَتُكَ أَوْ بَنَتُكَ ، ثُمَّ تَنْظُرُ إِلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَلَكِنْ أَمْسِكَ مَالَكَ وَأَصْلِحْهُ ، وَكُنْ أَنْتَ الَّذِي تُنْفِقُ عَلَيْهِمْ مِنْ كِسْوَتِهِمْ وَمُؤْنَتِهِمْ وَرِزْقِهِمْ . ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي فِي الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ . وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَضَمَّنَتْ الْإِحْسَانَ إِلَى الْعَائِلَةِ ، وَمَنْ تَحَتَّ الْحَجْرُ بِالْفِعْلِ مِنْ

الإِنْفَاقِ فِي الْكَسَاوِي وَالْأَرْزَاقِ ، بِالْكَلامِ الطَّيِّبِ وَتَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى ﴾ أَي : اخْتَبِرُوهُمْ ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ ﴾  
 الْحُلْمَ . قَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْبُلُوغُ فِي الْغُلَامِ تَارَةً يَكُونُ بِالْحُلْمِ ، وَهُوَ : أَنْ  
 يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَنْزِلُ بِهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ الْوَلَدُ . عَنْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ  
 الصَّحَابَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ : الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ ، وَعَنِ  
 النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ »<sup>(١)</sup> أَوْ يَسْتَكْمِلَ حَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً  
 وَأَخَذُوا ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الثَّابِتِ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : عُرِضْتُ عَلَى  
 النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ فَلَمْ يُجْزِنِي ، وَعُرِضْتُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْخَنْدَقِ وَأَنَا  
 ابْنُ حَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً فَأَجَازَنِي<sup>(٢)</sup> . فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا بَلَغَهُ هَذَا الْحَدِيثُ إِنَّ  
 هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، وَاخْتَلَفُوا فِي نَبَاتِ الشَّعْرِ الْحَشِينِ حَوْلَ الْفَرْجِ  
 وَهِيَ الشَّعْرَةُ . هَلْ يَدُلُّ عَلَى بُلُوغِ أَمٍّ لَا ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ يُفَرِّقُ فِي الثَّلَاثِ بَيْنَ  
 صِبْيَانِ الْمُسْلِمِينَ وَصِبْيَانِ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا بُلُوغٌ فِي الْجَمِيعِ لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ  
 جِبَلِيٌّ يَسْتَوِي فِيهِ النَّاسُ وَاحْتِمَالُ الْمُعَاجَظَةِ بَعِيدٌ ، ثُمَّ قَدْ دَلَّتِ السُّنَّةُ عَلَى ذَلِكَ فِي  
 الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٣)</sup> عَنْ عَطِيَّةِ الْقُرْظِيِّ ﷺ قَالَ : عُرِضْنَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ  
 يَوْمَ قَرْيَظَةَ فَأَمَرَ مَنْ يَنْظُرُ فَكَانَ مَنْ أَنْبَتَ قَتَلَ ، وَمَنْ لَمْ يُنْبِتْ خُلِّي سَبِيلَهُ ، فَكُنْتُ  
 فِي مَنْ لَمْ يُنْبِتْ ، فَخُلِّي سَبِيلِي . وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ كَانَ قَدْ حَكَمَ  
 فِيهِمْ بِقَتْلِ الْمُقَاتِلَةِ وَسَبْيِ الذَّرِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ ﷺ : ﴿ فَإِنْ أَنْسَمْتُمْ مَتَهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يَعْنِي : صَلَاحًا فِي  
 دِينِهِمْ وَحِفْظًا لِأَمْوَالِهِمْ ، وَهَكَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : مَتَى بَلَغَ الْغُلَامُ مُصْلِحًا لِدِينِهِ وَمَالِهِ  
 أَنْفَكَ الْحَجْرَ عَنْهُ ، فَيَسْلَمُ إِلَيْهِ مَالُهُ الَّذِي تَحْتَ يَدِ وَلِيِّهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا ﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنْ أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى  
 مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ ضَرُورِيَّةٍ ﴿ إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴾ أَي : مُبَادَرَةً قَبْلَ بُلُوغِهِمْ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى :

(١) صحيح لشواهد: وقد أخرجه أبو داود (٤٣٩٨)، وغيره، وله شواهد يصح بها.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (حديث ٤٠٩٧)، ومسلم (١٨٦٨).

(٣) أحمد (٣١٠/٤)، (٣١١/٥).



﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ أَي : مَنْ كَانَ فِي غِنْيَةٍ عَنِ مَالِ الْيَتِيمِ فَلْيَسْتَعْفِفْ عَنْهُ وَلَا يَأْكُلْ مِنْهُ شَيْئًا . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ <sup>(١)</sup> : أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ فِي وَالِي الْيَتِيمِ ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴿ بِقَدْرِ قِيَامِهِ عَلَيْهِ . قَالَ الْفُقَهَاءُ : لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ أَقْلِ الْأَمْرَيْنِ ، أَجْرَةً مِثْلَهُ ، أَوْ قَدْرَ حَاجَتِهِ .

وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَرُدُّ إِذَا أَيْسَرَ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لَا ، لِأَنَّهُ أَكَلَ بِأَجْرَةِ عَمَلِهِ وَكَانَ فَقِيرًا ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ عِنْدَ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ لِأَنَّ الْآيَةَ أَبَاحَتْ الْأَكْلَ مِنَ غَيْرِ بَدَلٍ . عَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : لَيْسَ لِي مَالٌ وَوَلِي يَتِيمٌ ؟ فَقَالَ : (( كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ وَلَا مُبَدِّرٍ وَلَا مُتَأَنِّلٍ مَالًا ، وَمِنْ غَيْرِ أَنْ تَقِي مَالَكَ - أَوْ قَالَ - تَفِدِي مَالَكَ بِمَالِهِ )) <sup>(٢)</sup> شَكَ حُسَيْنٌ .  
وَالثَّانِي : نَعَمْ ، لِأَنَّ مَالَ الْيَتِيمِ عَلَى الْحَظَرِ ، وَإِنَّمَا أُبِيحَ لِلْحَاجَةِ ، فَيُرَدُّ بَدَلُهُ كَأَكْلِ مَالِ الْغَيْرِ لِلْمُضْطَّرِّ لَا عِنْدَ الْحَاجَةِ . عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ : قَالَ لِي عُمَرُ <sup>(٣)</sup> : إِنَّمَا أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ وَالِي الْيَتِيمِ ، إِنْ أَحْتَجْتُ أَخَذْتُ مِنْهُ ، فَإِذَا أَيْسَرْتُ رَدَدْتُهُ ، وَإِنْ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ . إِسْنَادٌ صَحِيحٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ يَعْنِي : مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ﴿ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا ﴾ أَي : مِنْهُمْ ﴿ فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَي : بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] أَي : لَا تَقْرُبُوهُ إِلَّا مُصْلِحِينَ لَهُ ، فَإِنْ أَحْتَجْتُمْ إِلَيْهِ أَكَلْتُمْ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ يَعْنِي : بَعْدَ بُلُوغِهِمُ الْحُلْمَ ، وَإِيْنَا سَكُمُ الرُّشْدَ مِنْهُمْ ، فَحِينَئِذٍ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْأَوْلِيَاءِ أَنْ يُشْهَدُوا عَلَى الْإِيْتَامِ إِذَا بَلَّغُوا الْحُلْمَ ، وَسَلِّمُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ لِكُلِّ يَقَعٍ مِنْ بَعْضِهِمْ جُحُودٌ وَإِنْكَارٌ لِمَا قَبِضَهُ وَتَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ أَي : وَكَفَىٰ بِاللَّهِ مُحَاسِبًا وَشَاهِدًا وَرَقِيبًا عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، فِي

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٢١٢) ، ومسلم (٣٠١٩) ، ولفظه (( أنزلت في والي اليتيم الذي يقيم عليه

ويُصلح في ماله إن كان فقيرًا أكل منه بالمعروف .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨٦/٣) بسند حسن .

حَالِ نَظَرِهِمْ لِلْأَيْتَامِ ، وَحَالِ تَسْلِيمِهِمْ لِأَمْوَالِهِمْ ، هَلْ هِيَ كَامِلَةٌ مُؤَفَّرَةٌ أَوْ مَنْقُوصَةٌ مَبْخُوسَةٌ مُرَوَّجٌ حِسَابُهَا مُدَلَّسٌ أُمُورُهَا ؟ اللَّهُ عَالِمٌ بِذَلِكَ كُلِّهِ . وَهَذَا بُتِّ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِيَّيَ أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإِيَّيَ أَحَبُّ لَكَ مَا أَحَبُّ لِنَفْسِي ، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَيَّ إِثْنَيْنِ وَلَا تَلِينَنَّ مَالَ يَتِيمٍ » (١).

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَليَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ فِيهِ سَوَاءٌ فِي حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى ، يَسْتَوُونَ فِي أَصْلِ الْوَرَاثَةِ ، وَإِنْ تَفَاوَتْ أَوْ بَحَسَبَ مَا فَرَضَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْهُمْ ، بِمَا يُدْلِي بِهِ إِلَى الْمَيِّتِ مِنْ قَرَابَةٍ أَوْ زَوْجِيَّةٍ أَوْ وِلَاءٍ ، فَإِنَّهُ حُمَةٌ كُلُّهُمْ النَّسَبِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ ﴾ . قِيلَ : الْمَرَادُ حَضَرَ قِسْمَةَ الْمِيرَاثِ ذُوو الْقُرْبَىٰ بِمَنْ لَيْسَ بِوَارِثٍ ﴿ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ ﴾ فَلْيُرْضَخْ لَهُمْ مِنَ التَّرِكَةِ نَصِيبٌ ، وَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ وَاجِبًا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَقِيلَ : يُسْتَحَبُّ ، وَاخْتَلَفُوا هَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ : هِيَ مُحْكَمَةٌ وَلَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ (٢) . وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّهَا وَاجِبَةٌ .

وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ وَالْأَئِمَّةِ

(١) أخرجه مسلم (حديث ١٨٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٧٦) .

الْأَرْبَعَةَ وَأَصْحَابِهِمْ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ ﴾ هِيَ قِسْمَةُ الْمِيرَاثِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءُ مِنَ الْقَرَابَةِ الَّذِينَ لَا يَرْتُونَ ، وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ قِسْمَةَ مَالِ جَزِيلٍ ، فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتَوَقَّ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، إِذَا رَأَوْا هَذَا يَأْخُذُ وَهَذَا يَأْخُذُ وَهُمْ يَأْتُسُونَ لِأَشْيَاءٍ يُعْطُونَهُ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى - وَهُوَ الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ - أَنْ يُرْضَخَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْوَسْطِ ، يَكُونُ بَرًّا بِهِمْ وَصَدَقَةً عَلَيْهِمْ ، وَإِحْسَانًا إِلَيْهِمْ وَجَبْرًا لِكُسْرِهِمْ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : ١٤١ ] ، وَذَمَّ الَّذِينَ يَنْقُلُونَ الْمَالَ خِفِيَّةً خَشِيَّةً أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ الْمَحَاوِبُ وَذُووُ الْفَأَقَةِ ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أَي : بِلَيْلٍ . وَقَالَ : ﴿ فَانْطَلِقُوا وَهَمْ يَتَخَفْتُونَ ﴾ ﴿١﴾ أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿ [ القلم : ٢٣-٢٤ ] ف ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ فَمَنْ جَحَدَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ ، عَاقَبَهُ فِي أَعَزِّ مَا يَمْلِكُهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : هَذَا فِي الرَّجُلِ يَحْضُرُهُ الْمَوْتُ فَيَسْمَعُهُ رَجُلٌ يُوصِي بِوَصِيَّةٍ تَضُرُّ بَوْرَثَتِهِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي يَسْمَعُهُ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ وَيُوقِّفَهُ وَيُسَدِّدَهُ لِلصَّوَابِ فَيَنْظُرَ لِبَوْرَثَتِهِ كَمَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يُضْعَعَ بَوْرَثَتِهِ إِذَا خَشِيَ عَلَيْهِمُ الضَّيْعَةَ ، وَثَبَّتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَعُودُهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ذُو مَالٍ وَلَا يَرْتِنِي إِلَّا ابْنَةٌ أَفَاتَصَدَّقُ بِنَثْنِي مَالِي ؟ قَالَ : (( لَا )) قَالَ : فَالْشَطْرُ ؟ قَالَ : (( لَا )) قَالَ : فَالثلث ؟ قَالَ : (( الثلثُ ، وَالثُلُثُ كَثِيرٌ )) ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( إِنَّكَ إِنْ تَدَّرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَّرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ )) ﴿٢﴾ ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَى الرَّبْعِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( الثلثُ وَالثُلُثُ كَثِيرٌ )) ﴿٣﴾ .

قَالَ الْفُقَهَاءُ : إِنْ كَانَ وَرَثَةُ الْمَيِّتِ أُغْنِيَاءَ أُسْتَحَبَّ لِلْمَيِّتِ أَنْ يَسْتَوْفِي فِي وَصِيَّتِهِ الثُّلُثَ ، وَإِنْ كَانُوا فُقَرَاءَ أُسْتَحَبَّ أَنْ يَنْقُصَ الثُّلُثَ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلِيَخْشَ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤٣) ، ومسلم (١٦٢٩) .

الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ﴿١﴾ أَي : فِي مُبَاشَرَةِ  
 أَمْوَالِ الْيَتَامَى ﴿٢﴾ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا ﴿٣﴾ ، وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ يَتَأَيَّدُ بِمَا بَعْدَهُ مِنْ  
 التَّهْدِيدِ فِي أَكْلِ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، أَي : كَمَا نُحِبُّ أَنْ تُعَامَلَ ذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ  
 فَعَامِلِ النَّاسِ فِي ذُرِّيَّاتِهِمْ إِذَا وَلِيَتْهُمْ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَنْ أَكَلَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا  
 فَإِنَّمَا يَأْكُلُ فِي بَطْنِهِ نَارًا . وَهَذَا قَالَ : ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا  
 يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٥﴾ أَي : إِذَا أَكَلُوا أَمْوَالِ الْيَتَامَى بِلَا  
 سَبَبٍ فَإِنَّمَا يَأْكُلُونَ نَارًا تَتَّجِعُ فِي بُطُونِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي  
 هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟  
 قَالَ - الشُّرْكَ بِاللَّهِ ، وَالسَّخَرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ،  
 وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ )) (١) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ  
 الْيَتَامَى ظُلْمًا ﴿٧﴾ الْآيَةَ ، انْطَلَقَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ يَتِيمٌ فَعَزَلَ طَعَامَهُ مِنْ طَعَامِهِ ، وَشَرَّابَهُ  
 مِنْ شَرَابِهِ ، فَجَعَلَ يَفْضُلُ الشَّيْءُ فَيَحْبِسُ لَهُ حَتَّى يَأْكُلَهُ أَوْ يَفْسُدَ ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ  
 عَلَيْهِمْ ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿٨﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ  
 لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِحْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴿٩﴾ [البقرة : ٢٢٠] ،  
 فَخَلَطُوا طَعَامَهُمْ بِطَعَامِهِمْ وَشَرَابَهُمْ بِشَرَابِهِمْ (١٠) .

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ  
 اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا بُوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ  
 مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ  
 فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا  
 أَوْ دِينَ عَابَاءُكُمْ وَأَبَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦) ، ومسلم (حديث ٨٩) .

(٢) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه أبو داود (٢٨٧١) ، والنسائي (٢٥٦/٦) ، والطبري (٤١٨٢) ،

(٣) ، وغيرهم .

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا ، وَالْآيَةُ الَّتِي هِيَ خَاتِمَةُ هَذِهِ السُّورَةِ هُنَّ آيَاتُ عِلْمِ الْفَرَائِضِ وَهُوَ مُسْتَبْطٌ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ مِمَّا هُوَ كَالْتَفْسِيرِ لِذَلِكَ . وَلِنَذَكُرْ مِنْهَا مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِتَفْسِيرِ ذَلِكَ . وَأَمَّا تَقْرِيرُ الْمَسَائِلِ وَنَضْبُ الْخِلَافِ وَالْأَدِلَّةِ وَالْحِجَاجِ بَيْنَ الْأَيِّمَةِ فَمَوْضِعُهُ كُتِبَ الْأَحْكَامِ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : عَادَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلَمَةَ مَا شِئْنَا فَوَجَدَنِي النَّبِيُّ ﷺ لَا أَعْقِلُ شَيْئًا ، فَدَعَا بِإِيٍّ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ فَأَفَقْتُ ، فَقُلْتُ : مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَزَلَّتْ ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ (١) .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ أَي : يَأْمُرُكُمْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ فَإِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَجْعَلُونَ جَمِيعَ الْمِيرَاثِ لِلذَّكَوْرِ دُونَ الْإِنَاثِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ ، وَفَاوَتْ بَيْنَ الصَّنَفَيْنِ فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، وَذَلِكَ لِإِحْتِيَاجِ الرَّجُلِ إِلَى مُؤْنَةِ التَّفَقُّهِ وَالْكُلْفَةِ وَمُعَانَاةِ التَّجَارَةِ وَالتَّكْسُبِ وَتَحْمُلِ الْمَشَاقِّ ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَى ضِعْفِي مَا تَأْخُذُهُ الْأُنْثَى .

وَقَدْ اسْتَبْطَ بَعْضُ الْأَذْكِيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا ، حَيْثُ أَوْصَى الْوَالِدَيْنِ بِأَوْلَادِهِمْ فَعَلِمَ أَنَّهُ أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَقَدْ رَأَى امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ فُرِّقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ وَلَدِهَا ، فَجَعَلَتْ تَدُورُ عَلَى وَلَدِهَا فَلَمَّا وَجَدَتْهُ مِنَ السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِصَدْرِهَا وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ « أَتَرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَوَاللَّهِ ، اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا » (٢) .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ الْمَالُ لِلْوَالِدِ وَكَانَتِ الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ، فَسَخَّ اللَّهُ مِنْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٧٧) ، ومسلم (حديث ١٦١٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٠) .

ذَلِكَ مَا أَحَبَّ ، فَجَعَلَ لِلذَّكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ، وَجَعَلَ لِلْأَبْوَانِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسَ وَالثُّلُثَ ، وَجَعَلَ لِلزَّوْجَةِ الثُّمْنَ وَالرُّبْعَ ، وَلِلزَّوْجِ الشَّطْرَ وَالرُّبْعَ (١) .

وقوله: ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ ﴾ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : قَوْلُهُ فَوْقَ ﴿ زَائِدَةٌ ، وَتَقْدِيرُهُ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً اثْنَتَيْنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ [الأنفال: ١٢] وَهَذَا غَيْرُ مُسَلَّمٍ لَأَهْنَا وَلَا هُنَاكَ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ لَا فَائِدَةٌ فِيهِ ، وَهَذَا مُتَمَنِّعٌ : ثُمَّ قَوْلُهُ: ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مَا تَرَكَ ﴾ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مَا قَالُوهُ لَقَالَ فَلَهُمَا ثُلُثًا مَا تَرَكَ ، وَإِنَّمَا أُسْتَفِيدَ كَوْنُ الثُّلُثَيْنِ لِلْبِتْنَيْنِ مِنْ حُكْمِ الْأُخْتَيْنِ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ فِيهَا لِلأُخْتَيْنِ بِالثُّلُثَيْنِ وَإِذَا وَرِثَ الْأُخْتَانِ الثُّلُثَيْنِ فَلَأَنَّ يَرِثَ الْبِتْنَانِ الثُّلُثَيْنِ بِالطَّرِيقِ الْأُولَى . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ فَلَوْ كَانَ لِلْبِتْنَيْنِ النِّصْفُ لَنَصَّ عَلَيْهِ أَيْضًا ، فَلَمَّا حَكَمَ بِهِ لِلوَاحِدَةِ عَلَى انْفِرَادِهَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْبِتْنَيْنِ فِي حُكْمِ الثَّلَاثِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وقوله تعالى: ﴿ وَلَا أَبْوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ إِلَى آخِرِهِ ، الْأَبْوَانِ لِهَمَا فِي الْإِرْثِ أَحْوَالٌ : أَحَدُهَا : أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتُ وَاحِدَةٌ فَرِضَ لَهَا النِّصْفُ وَلِلْأَبْوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، وَأَخَذَ الْأَبُ السُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ فَيُجْمَعُ لَهُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - بَيْنَ الْفَرَضِ وَالتَّعْصِيبِ .

الحال الثاني: أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبْوَانِ بِالْمِيرَاثِ فَيُفْرَضُ لِلأُمِّ الثُّلُثُ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ الْمُحْضِ ، فَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفِي مَا حَصَلَ لِلأُمِّ وَهُوَ الثُّلُثَانِ ، فَلَوْ كَانَ مَعَهَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ وَيَأْخُذُ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبْعَ . ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ مَاذَا تَأْخُذُ الأُمُّ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

أحدها: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلْثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ ، لِأَنَّ الْبَاقِي كَأَنَّهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلأَبِ ، فَتَأْخُذُ ثُلْثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي ثُلْثِيهِ هَذَا قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ ، وَأَصَحُّ الرَّوَايَتَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ ، وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ

وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ .

وَالثَّانِي : أَتَمَّا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ فَإِنَّ الْآيَةَ أَعْمٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَوْ لَا ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَرَوَى عَنْ عَلِيٍّ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ نَحْوَهُ ، وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ بَلْ هُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ إِنَّهَا هُوَ إِذَا اسْتَبَدَّ بِجَمِيعِ التَّرِكَةِ ، وَأَمَّا هُنَا فَيَأْخُذُ الزَّوْجُ أَوْ الزَّوْجَةُ الْفَرَضَ ، وَيَبْقَى الْبَاقِي كَأَنَّهُ جَمِيعُ التَّرِكَةِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَهُ .

وَالْقَوْلُ الثَّلَاثُ : أَتَمَّا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجَةِ خَاصَّةً فَإِنَّهَا تَأْخُذُ الرُّبْعَ وَهُوَ ثَلَاثَةٌ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ ، وَتَأْخُذُ الْأُمُّ الثُّلُثَ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ فَيَبْقَى خَمْسَةٌ لِلْأَبِ . وَأَمَّا فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي لِثَلَاثًا تَأْخُذُ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ لَوْ أَخَذَتْ ثُلُثَ الْمَالِ ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ سِتَّةٍ : لِلزَّوْجِ النِّصْفُ ثَلَاثَةٌ ، لِلْأُمِّ ثُلُثُ الْبَاقِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ سَهْمٌ ، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ سَهْمَانِ . وَيُحْكَمِي هَذَا عَنِ ابْنِ سِيرِينَ وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ وَهُوَ ضَعِيفٌ أَيْضًا وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَالْحَالُ الثَّلَاثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبْوَيْنِ : وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ سَوَاءً كَانُوا مِنَ الْأَبْوَيْنِ أَوْ مِنَ الْأَبِ أَوْ مِنَ الْأُمِّ فَإِنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَى السُّدُسِ فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ السُّدُسُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَى الْأَبِ أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِي .

وَحُكْمُ الْأَخْوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ . وَقَدْ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ حَارِجَةَ بِنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : الْأَخْوَانُ تُسَمَّى إِخْوَةً ، وَقَدْ أَفْرَدَتْ لَهُذِهِ الْمَسْأَلَةَ جُزْءًا عَلَى حِدَةٍ .

عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ أَضْرُوا بِالْأُمِّ وَلَا يَرِثُونَ وَلَا يَحْجُبُهَا الْأَخُ الْوَاحِدُ عَنِ الثُّلُثِ ، وَيَحْجُبُهَا مَا فَوْقَ ذَلِكَ ، وَكَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا حَجَبُوا أُمَّهُمْ عَنِ الثُّلُثِ أَنَّ آبَاءَهُمْ يَلِي إِنْكَاحَهُمْ وَنَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ دُونَ أُمَّهُمْ . وَهَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ . ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ﴾ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَي : إِنَّمَا فَرَضْنَا لِلْأَبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَسَاوِينَا بَيْنَ الْكُلِّ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَعَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ كَوْنِ الْمَالِ لِلْوَلَدِ وَاللِّأَبْوَيْنِ الْوَصِيَّةَ ، كَمَا تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّمَا نَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَى هَذَا فَفَرَضَ هَهُؤَلَاءَ بِحَسَبِهِمْ ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَأْتِيهِ النَّفْعُ الدُّنْيَوِيُّ أَوْ الْآخِرَوِيُّ أَوْ هُمَا مِنْ أَبِيهِ مَا لَا يَأْتِيهِ مِنْ ابْنِهِ وَقَدْ يَكُونُ بِالْعَكْسِ ، وَلِذَا قَالَ : ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أَي : أَنَّ النَّفْعَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنْ هَذَا ، كَمَا هُوَ مُتَوَقَّعٌ وَمَرْجُوٌّ مِنَ الْآخِرِ ، فَلِهَذَا فَرَضْنَا لِهَذَا وَهَذَا ، وَسَاوِينَا بَيْنَ الْقِسْمَيْنِ فِي أَصْلِ الْمِيرَاثِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْصِيلِ الْمِيرَاثِ وَإِعْطَاءِ بَعْضِ الْوَرَثَةِ أَكْثَرَ مِنْ بَعْضٍ ، هُوَ فَرَضٌ مِنَ اللَّهِ ، حَكَمَ بِهِ وَقَضَاهُ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَجَالِهَا ، وَمُعْطِي كُلِّ مَا يَسْتَحِقُّهُ بِحَسَبِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينَ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةٍ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : وَلَكُمْ أَيُّهَا الرِّجَالُ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِذَا مُتْنَ عَنْ غَيْرِ وَلَدٍ ، فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَ مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ أَوْ الدِّينِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الدِّينَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْوَصِيَّةِ وَبَعْدَهُ الْوَصِيَّةُ ، ثُمَّ الْمِيرَاثُ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُّجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ ،



وَحُكْمُ أَوْلَادِ الْبَيْنِ وَإِنْ سَفَلُوا حُكْمَ أَوْلَادِ الصُّلْبِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَهُبِ الرُّبْعِ مِمَّا تَرَكَتُمْ ﴾ إِلَى آخِرِهِ وَسَوَاءٌ فِي الرُّبْعِ أَوْ الثُّمْنِ الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجَتَانِ الْإِثْنَتَانِ وَالثَّلَاثُ وَالْأَرْبَعُ يَشْتَرِكْنَ فِيهِ ، ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ ﴾ إِلْحَاحُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَالَةً ﴾ الْكَلَالَةُ : مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْكَلِيلِ وَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا : مَنْ يَرِثُهُ مِنْ حَوَاشِيهِ لَا أُصُولِهِ وَلَا فُرُوعِهِ . قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : الْكَلَالَةُ : مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ . وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَالْأَيُّمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ بَلْ جَمِيعُهُمْ وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعُ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ أَي : مِنْ أُمٍّ ، كَمَا هُوَ فِي قِرَاءَةِ بَعْضِ السَّلَفِ مِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَكَذَا فَسَّرَهَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ فِيمَا رَوَاهُ قَتَادَةُ عَنْهُ ﴿ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ ﴾ وَإِخْوَةُ الْأُمِّ يُخَالِفُونَ بَقِيَّةَ الْوَرِثَةِ مِنْ وُجُوهِ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ يَرِثُونَ مَعَ مَنْ أَدَلُّوا بِهِ وَهِيَ الْأُمُّ . وَالثَّانِي : أَنَّ ذُكُورَهُمْ وَإِنَاثُهُمْ فِي الْمِيرَاثِ سَوَاءٌ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلُهُمْ يُورِثُ كَلَالَةً ، فَلَا يَرِثُونَ مَعَ أَبِي وَلَا جَدٍّ وَلَا وَلَدٍ وَلَا وَلَدَ ابْنِ الرَّابِعِ : أَنَّهُمْ لَا يَزَادُونَ عَلَى الثَّلْثِ ، وَإِنْ كَثُرَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ .

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمُشْتَرَكَةِ ، وَهِيَ زَوْجٌ وَأُمٌّ أَوْ جَدَّةٌ وَائْتَانِ مِنْ وَلَدِ الْأُمِّ وَوَاحِدٌ أَوْ أَكْثَرٌ مِنْ وَلَدِ الْأَبَوَيْنِ ، فَعَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ لِلزَّوْجِ النِّصْفُ ، وَلِلْأُمِّ أَوْ الْجَدَّةِ السُّدُسُ ، وَلِلْوَلَدِ الْأُمِّ الثَّلْثُ ، وَيُشَارِكُهُمْ فِيهِ وَلَدُ الْأَبِ وَالْأُمُّ بِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ وَهُوَ أَخْوَةُ الْأُمِّ ، وَقَدْ وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِي زَمَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ فَأَعْطَى الزَّوْجَ النِّصْفَ وَالْأُمَّ السُّدُسَ وَجَعَلَ الثَّلْثَ لِأَوْلَادِ الْأُمِّ ، فَقَالَ لَهُ أَوْلَادُ الْأَبَوَيْنِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَبْ أَنْ أَبَانَا كَانَ حِمَارًا أَلَسْنَا مِنْ أُمَّ وَوَاحِدَةٍ ؟ فَشَرَكَ بَيْنَهُمْ ، وَصَحَّ التَّشْرِيكُ عَنْ عُثْمَانَ وَهُوَ إِحْدَى الرَّوَايَتَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَدِدِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لَا يُشْرِكُ بَيْنَهُمْ بَلْ يَجْعَلُ الثَّلْثَ لِأَوْلَادِ الْأُمِّ وَلَا شَيْءَ لِأَوْلَادِ الْأَبَوَيْنِ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - لِأَنَّ عَصَبَةَ ،

وَهَذَا قَوْلٌ عَدَدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وقوله: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَارٍّ ﴾ أَي : لِتَكُنْ وَصِيَّتُهُ عَلَى الْعَدْلِ لَا عَلَى الْإِضْرَارِ وَالْجُورِ وَالْحَيْفِ ، بَأَنْ يَحْرِمَ بَعْضُ الْوَرَثَةِ أَوْ يُنْقِصَهُ أَوْ يَزِيدَهُ عَلَى مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَمَنْ سَعَى فِي ذَلِكَ كَانَ كَمَنْ ضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ وَشَرَعِهِ .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

أَي : هَذِهِ الْفَرَائِضُ وَالْمَقَادِيرُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِلْوَرَثَةِ بِحَسَبِ قُرْبِهِمْ مِنَ الْمَيْتِ وَاحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ وَفَقْدِهِمْ لَهُ عِنْدَ عَدَمِهِ هِيَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَلَا تُجَاوِزُوهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أَي : فِيهَا فَلَمْ يَزِدْ بَعْضُ الْوَرَثَةِ وَلَمْ يَنْقُصْ بَعْضَهَا بِحِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ بَلْ تَرَكَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَفَرِيضَتِهِ وَقَسَمَتِهِ ﴿ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ أَي : لِكُونِهِ غَيْرَ مَا حَكَّمَ اللَّهُ بِهِ ، وَضَادَّ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصُدُّرُ عَنْ عَدَمِ الرِّضَا بِمَا قَسَمَ اللَّهُ وَحَكَّمَ بِهِ ، وَهَذَا يُجَازِيهِ بِالْإِهَانَةِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْمُقِيمِ .

وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانَ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَاءُذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

كَانَ الْحُكْمُ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا ثَبَّتَ زَنَاهَا بِالْبَيِّنَةِ الْعَادِلَةِ حُسِبَتْ فِي بَيْتٍ فَلَا تُمْكَّنُ مِنَ الْخُرُوجِ مِنْهُ إِلَى أَنْ تَمُوتَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴾ يَعْنِي : الزَّانَا ﴿ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا

فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٠﴾ فَالسَّبِيلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ هُوَ النَّاسِخُ لِذَلِكَ . قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : كَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ النُّورِ فَنَسَخَهَا بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُتَعَقِّقٌ عَلَيْهِ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَفْظُهُ : (( خُذُوا عَنِّي ، خُذُوا عَنِّي ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ، الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جُلْدٌ مِائَةٌ وَتَغْرِيبُ عَامٍ ، وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جُلْدٌ مِائَةٌ وَالرَّجْمُ ))<sup>(١)</sup> . وَقَدْ ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ إِلَى الْقَوْلِ بِمُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ وَهُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْجُلْدِ وَالرَّجْمِ فِي حَقِّ الثَّيْبِ الزَّانِي ، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الثَّيْبَ الزَّانِي إِنَّمَا يُرْجَمُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ جُلْدٍ ، قَالُوا : لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَجَمَ مَاعِزًا وَالْعَامِدِيَّةَ وَالْيَهُودِيَّيْنَ ، وَلَمْ يَجْلِدْهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْجُلْدَ لَيْسَ بِحَتْمٍ بَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ عَلَى قَوْلِهِمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَادَّوهُمَا ﴾ أَي : وَاللَّذَانِ يَفْعَلَانِ الْفَاحِشَةَ فَادَّوهُمَا . أَي : بِالسُّتْمِ وَالتَّعْيِيرِ وَالتَّضْرِبِ بِالنَّعَالِ ، وَكَانَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ حَتَّى نَسَخَهُ اللَّهُ بِالْجُلْدِ أَوْ الرَّجْمِ . ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا ﴾ أَي : أَقْلَعَا وَنَزَعَا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ وَصَلَحَتْ أَعْمَالُهُمَا وَحَسُنَتْ ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ﴾ أَي : لَا تَعْنِفُوهُمَا بِكَلَامٍ قَبِيحٍ بَعْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup> (( إِذَا زَنَتِ أُمَّةٌ أَحَدَكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا )) أَي : لَا يُعَيِّرُهَا بِمَا صَنَعَتْ بَعْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُوَ كَفَّارَةٌ لِمَا صَنَعَتْ .

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ<sup>١</sup> وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْعَنَانَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ<sup>٢</sup> أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٨٣٩) ، ومسلم (١٧٠٣) .

يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ التَّوْبَةَ مِمَّنْ عَمِلَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُ  
وَلَوْ بَعْدَ مُعَايِنَةِ الْمَلِكِ يَقْبِضُ رُوحَهُ قَبْلَ الْغُرْعَةِ . قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : كُلُّ مَنْ عَصَى  
اللَّهَ خَطَأً أَوْ عَمْدًا فَهُوَ جَاهِلٌ حَتَّى يَنْزِعَ عَنِ الذَّنْبِ .

وَقَدْ ذَلَّتِ الْأَحَادِيثُ عَلَى أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَى اللَّهِ ﷻ وَهُوَ يَرْجُو الْحَيَاةَ فَإِنَّ تَوْبَتَهُ  
مَقْبُولَةٌ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ ،  
وَأَمَّا مَنْ وَقَعَ الْإِيَّاسُ مِنَ الْحَيَاةِ ، وَعَايَنَ الْمَلِكَ ، وَحَشَرَ جِثَّ الرُّوحِ فِي الْخَلْقِ ،  
وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ ، وَبَلَغَتِ الْخُلُقُومَ ، وَغَرَّغَتِ النَّفْسُ صَاعِدَةً فِي الْغَلَاصِمِ ،  
فَلَا تَوْبَةَ مَقْبُولَةً حِينَئِذٍ ، وَلَا تَحِينَ مَنَاصٍ .

وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ  
قَالَ إِنِّي تبتُ النَّسْءَ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾  
[ غافر : ٨٤ ] الْآيَتِينَ ، وَكَمَا حَكَمَ تَعَالَى بَعْدَ تَوْبَةِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا عَايَنُوا الشَّمْسَ  
طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا  
لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [ الأنعام : ١٥٨ ]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْكَافِرَ إِذَا مَاتَ عَلَى  
كُفْرِهِ وَشَرِكِهِ لَا يَنْفَعُهُ نَدْمُهُ وَلَا تَوْبَتُهُ ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ فِدْيَةٌ وَلَوْ بِمِلءِ الْأَرْضِ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ  
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ  
بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا  
كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ  
قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ءَاتَاخُذُونَهُ بِهَتْنًا وَإِنَّمَا مِيبِنَا ﴿١٢﴾ وَكَيْفَ  
تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا  
غَلِيظًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ  
سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١٤﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَهًا ﴾ قَالَ : كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقُّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزْوُجَهَا ، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا ، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يَزُوجُوهَا ، فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ<sup>(١)</sup> .  
 وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ ﴾ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَرِثُ امْرَأَةً ذِي قَرَابَتِهِ فَيَعْضُلُهَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَرُدَّ إِلَيْهِ صَدَاقَهَا ، فَأَحْكَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ، أَي نَهَى عَنْ ذَلِكَ<sup>(٢)</sup> . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا : كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا تُوِّفِيَ عَنْهَا زَوْجُهَا فَجَاءَ رَجُلٌ فَأَلْقَى عَلَيْهَا ثَوْبًا كَانَ أَحَقَّ بِهَا ، فَتَزَلَّتْ ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرَهًا ﴾<sup>(٣)</sup> . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ إِذَا مَاتَ وَتَرَكَ جَارِيَةً أَلْقَى عَلَيْهَا حَمِيمَهُ ثَوْبَهُ فَمَنَعَهَا مِنَ النَّاسِ ، فَإِنْ كَانَتْ جَمِيلَةً تَزَوَّجَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ دَمِيمَةً حَبَسَهَا حَتَّى تَمُوتَ فَيَرِثُهَا<sup>(٤)</sup> . قُلْتُ : فَلَايَةُ تَعْمُّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ أَي : لَا تُضَارُوهُنَّ فِي الْعِشْرَةِ لِتَتْرُكَ مَا أَصْدَقْتَهَا أَوْ بَعْضَهُ ، أَوْ حَقًّا مِنْ حُقُوقِهَا عَلَيْكَ ، أَوْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ لَهَا وَالْإِضْرَارِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ يَقُولُ وَلَا تَقْهَرُوهُنَّ ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ يَعْنِي : الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْمَرْأَةُ وَهُوَ كَارِهِةٌ لِصُحْبَتِهَا ، وَلَهَا عَلَيْهِ مَهْرٌ ، فَيَضُرُّهَا لِتَقْتَدِيَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي : إِذَا زَنَتْ فَلكَ أَنْ تَسْتَرْجِعَ مِنْهَا الصَّدَاقَ الَّذِي أُعْطِيَتْهَا ، وَتُضَاجِرُهَا حَتَّى تَتْرُكَهُ لَكَ وَتُخَالِعَهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٤٥٧٩) .

(٢) صحيح لشواهده .

(٣) صحيح لشواهده .

(٤) صحيح لشواهده .

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴿ [البقرة: ٢٢٩] ، وَقَالَ آخَرُونَ : الشُّورُ وَالْعِصْيَانُ ،  
وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ : أَنَّهُ يَعْمُ ذَلِكَ كُلَّهُ الزَّنا وَالْعِصْيَانُ وَالنُّشُورُ وَبَدَاءُ اللِّسَانِ وَعَيْرُ  
ذَلِكَ . يَعْنِي أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يُبِيحُ مُضَاجِرَتَهَا حَتَّى تُبْرِئَهُ مِنْ حَقِّهَا أَوْ بَعْضِهِ وَيُقَارِفَهَا  
وَهَذَا جَيِّدٌ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا سِحْلُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا  
النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفِدْحَةٍ  
مُيَبَّغَةٍ ﴾ قَالَ : وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَرِثُ امْرَأَةً ذِي قَرَابَتِهِ فَيَعْضُلُهَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ  
تَرُدَّ إِلَيْهِ صَدَاقَهَا ، فَأَحْكَمَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، أَيُّ : نَهَى عَنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيُّ : طَيَّبُوا أَقْوَالَكُمْ هُنَّ وَحَسَّنُوا  
أَفْعَالَكُمْ وَهَيَّأَتْكُمْ بِحَسَبِ قُدْرَتِكُمْ ، كَمَا نُحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا فَافْعَلِ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ ، كَمَا  
قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهَنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :  
( ( خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي ) ) (١) .

وَكَانَ مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ أَنَّهُ جَمِيلُ العِشْرَةِ دَائِمُ البِشْرِ ، يُدَاعِبُ أَهْلَهُ ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ ،  
وَيُوسِعُهُمْ نَفَقَةً ، وَيُضَاحِكُ نِسَاءَهُ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُسَاقِبُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهَا - بِتَوَدُّدٍ إِلَيْهَا بِذَلِكَ ، قَالَتْ : سَابَقَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَبَقْتُهُ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ  
أَحْمِلَ اللَّحْمَ ، ثُمَّ سَابَقْتُهُ بَعْدَمَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ فَسَبَقَنِي ، فَقَالَ : (( هَذِهِ بِتِلْكَ )) (٢) .

وَيَجْمَعُ نِسَاءَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ النَّبِيِّ يَبِيتُ عِنْدَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَأْكُلُ مَعَهُنَّ  
العِشَاءَ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ ثُمَّ تَنْصَرِفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ إِلَى مَنْزِلِهَا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :  
﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾  
أَيُّ : فَعَسَى أَنْ يَكُونَ صَبْرُكُمْ فِي إِمْسَاكِهِنَّ مَعَ الكَرَاهَةِ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الآيَةِ : هُوَ أَنْ يَعْطِفَ عَلَيْهَا فَيَرْزَقَ مِنْهَا وَلَدًا  
وَيَكُونَ فِي ذَلِكَ الْوَلَدِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : (( لَا يَفْرَكُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً

(١) صحيح لشوامهده : وقد أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) ، وأعل هنالك بالإرسال . لكن له شواهد يصح بها .

(٢) مسنده صحيح : وقد أخرجه أحد في المسند (٦/٢٦٤) .

إِنْ سَخِطَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴾ أَي : إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ أَنْ يُفَارِقَ امْرَأَةً وَيَسْتَبْدِلَ مَكَانَهَا غَيْرَهَا فَلَا يَأْخُذُ بِمَا كَانَ أَصْدَقَ الْأَوْلَى شَيْئًا ، وَلَوْ كَانَ قِنطَارًا مِنْ مَالٍ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الْإِصْدَاقِ بِالْمَالِ الْجَزِيلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أَي : وَكَيْفَ تَأْخُذُونَ الصَّدَاقَ مِنَ الْمَرْأَةِ وَقَدْ أَفْضَيْتَ إِلَيْهَا وَأَفْضَتْ إِلَيْكَ ، وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَمَاعُ - وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(٢)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلْمُتَلَاعِنِينَ بَعْدَ فَرَاعِيهَا مِنْ تَلَاعُنِيهَا : (( اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ ، فَهَلْ مِنْكُمَا نَائِبٌ )) قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِي - يَعْنِي مَا أَصْدَقَهَا - قَالَ : (( لَا مَالَ لَكَ إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا ، فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا ، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ أَبَعْدُ لَكَ مِنْهَا )) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْعَقْدُ ، وَقَالَ آخَرُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ هُوَ قَوْلُهُ ﷺ : (( أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ )) .

وَعَنْ جَابِرٍ فِي حُطْبَةِ حَجَّةِ الْوَدَاعِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِيهَا : (( وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ))<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ الْآيَةُ ، يُحْرَمُ اللَّهُ تَعَالَى زَوْجَاتِ الْأَبَاءِ تَكْرِمَةً لَهُمْ وَإِعْظَامًا وَاحْتِرَامًا ، أَنْ تُوطَأَ مِنْ بَعْدِهِ ، حَتَّى أَهْبَأَ لَتَحْرُمَ عَلَى الْإِبْنِ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحْرِمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا امْرَأَةَ الْأَبِ وَالْجَمْعَ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ

(١) أخرجه مسلم (٦٥٧/٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٣١٢) ، ومسلم (١٤٩٣) .

(٣) مسلم (حديث ١٢١٨) .

النِّسَاءِ ﴿١﴾ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴿٢﴾ وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَهَوَّ حَرَامٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مُبَشَّعٌ غَايَةَ التَّبَسُّعِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، فَرَادَ هَهُنَا ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أَيُّ : بُغْضًا ، أَيُّ : هُوَ أَمْرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيُؤَدِّي إِلَى مَقْتِ الْإِبْنِ أَبَاهُ بَعْدَ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَمْرَاتِهِ ، فَإِنَّ الْغَالِبَ أَنَّ مَنْ يَتَزَوَّجَ بِأَمْرَأَةٍ يَبْغُضُ مَنْ كَانَ زَوْجَهَا قَبْلَهُ ، وَهَذَا حُرِّمَتْ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْأُمَّةِ لِأَنَّ أُمَّهَاتُ لِكُونِهِنَّ زَوَّجَاتُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَهُوَ كَأَلْبِ بَلِّ حَقُّهُ أَعْظَمُ مِنْ حَقِّ الْأَبَاءِ بِالْإِجْمَاعِ ، بَلِّ حُبُّهُ مُقَدَّمٌ عَلَى حُبِّ النَّفْسِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَقْتًا ﴾ أَيُّ : يَمْقُتُ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : وَيَسُّ طَرِيقًا لَكِنْ سَلَكَهُ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ تَعَاطَاهُ بَعْدَ هَذَا فَقَدْ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ ، فَيُقْتَلُ وَيَصِيرُ مَالُهُ فَيْئًا لِيَتِ الْمَالِ .

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : مَرَّ بِي عَمِّي الْحَارِثُ بْنُ عُمَيْرٍ وَمَعَهُ لِيَوَاءٌ قَدْ عَقَدَهُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ : أَيُّ عَمِّ أَيْنَ بَعَثَكَ النَّبِيُّ ﷺ ؟ قَالَ : بَعَثَنِي إِلَى رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً أَبِيهِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضْرِبَ عُنُقَهُ ﴿٣﴾ .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضْعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّيبَاتُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ

(١) أخرجه الطبري (٨٩٣٨) ، وسنده صحيح .

(٢) صحيح لشواهد : وقد أخرجه أبو داود (٤٤٥٧) .



فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ  
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ هِيَ آيَةُ تَحْرِيمِ الْمَحَارِمِ مِنَ النَّسَبِ ، وَمَا يَتَّبَعُهُ مِنَ الرَّضَاعِ ،  
وَالْمَحَارِمِ بِالصُّهْرِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبًا وَسَبْعُ صُهْرًا ،  
وَقَرَأَ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ ﴾ أَي :  
كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ اللَّاتِي وَلَدْتِكَ ، كَذَلِكَ يَحْرُمُ عَلَيْكَ أُمُّكَ اللَّاتِي أَرْضَعْتِكَ ، وَهَذَا  
ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( إِنَّ الرَّضَاعَةَ مُحْرَّمٌ  
مَا مُحْرَّمُ الْوِلَادَةِ )) <sup>(٢)</sup> ، وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ (( يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ )) ،  
وَقَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ : كُلُّ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ إِلَّا أَرْبَعَ صُورٍ ،  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : سِتُّ صُورٍ هِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كِتَابِ الْفُرُوعِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ لَا يَسْتَشْيُ  
شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُوجَدُ مِثْلَ بَعْضِهَا فِي النَّسَبِ ، وَبَعْضُهَا إِنَّمَا يَحْرُمُ مِنْ جِهَةِ  
الصُّهْرِ ، فَلَا يُرَدُّ عَلَى الْحَدِيثِ شَيْءٌ أَصْلًا الْبَتَّةَ ، وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَبِهِ الثَّقَةُ .

ثُمَّ اِخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي عَدَدِ الرَّضَعَاتِ الْمَحْرَمَةِ فَذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى أَنَّهُ يُحْرَّمُ مُجَرَّدُ  
الرَّضَاعِ لِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يُحْرَّمُ أَقَلُّ مِنْ ثَلَاثِ رَضَعَاتٍ لِمَا ثَبَّتَ  
فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( لَا يُحْرَّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصَّتَانِ ))  
وَفِي لَفْظٍ آخَرَ (( لَا تُحْرَّمُ الْإِمْلَاجَةُ وَلَا الْإِمْلَاجَتَانِ )) <sup>(٣)</sup> . وَقَالَ آخَرُونَ : لَا يُحْرَّمُ أَقَلُّ  
مِنْ خَمْسِ رَضَعَاتٍ . عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : كَانَ فِيهَا أَنْزَلَ مِنْ  
الْقُرْآنِ : عَشْرَ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحْرَمْنَ ، ثُمَّ نَسَخَنَ بِخَمْسِ مَعْلُومَاتٍ ، فَتَوَفَّى  
النَّبِيُّ ﷺ وَهَنَّ فِيهَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ <sup>(٤)</sup> ، ثُمَّ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الرَّضَاعَةُ فِي سِنِّ  
الصَّغَرِ دُونَ الْحَوْلَيْنِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ .

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٥) .

(٢) البخاري (حديث ٥٠٩٩) ، ومسلم (ص ١٠٧٠) .

(٣) مسلم (١٤٥١) .

(٤) مسلم (١٤٥٢) .

ثُمَّ اخْتَلَفُوا هَلْ يُحْرَمُ لَبْنُ الْفَحْلِ؟<sup>(١)</sup>، كَمَا هُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَعَظِيمِهِمْ،  
أَوْ إِنَّمَا يَخْتَصُّ الرَّضَاعُ بِالْأُمَّ فَقَطْ وَلَا يَنْتَشِرُ إِلَى نَاحِيَةِ الْأَبِ كَمَا هُوَ قَوْلُ لِبَعْضِ السَّلَفِ  
عَلَى قَوْلَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّهَتْ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْتِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمْ الَّتِي  
دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أَمَّا أُمُّ الْمَرْأَةِ فَإِنَّهَا  
تَحْرُمُ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ عَلَى بِنْتِهَا سِوَاءَ دَخَلَ بِهَا أَوْ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا.

وَأَمَّا الرَّبِيبَةُ وَهِيَ بِنْتُ الْمَرْأَةِ فَلَا تَحْرُمُ حَتَّى يَدْخُلَ بِأُمِّهَا؛ فَإِن طَلَّقَ الْأُمَّ قَبْلَ  
الدُّخُولِ بِهَا جَازَ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِبِنْتِهَا؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿وَرَبَّيْتِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ  
مِّنْ نِّسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي  
تَرْوِيحِهِنَّ؛ فَهَذَا خَاصٌّ بِالرَّبَائِبِ وَحَدِهِنَّ، وَقَدْ فَهَمَ بَعْضُهُمْ عَوْدَ الضَّمِيرِ إِلَى  
الْأُمَّهَاتِ وَالرَّبَائِبِ، فَقَالَ: لَا تَحْرُمُ وَاحِدَةٌ مِنَ الْأُمَّ وَالْأَبْنَتُ بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ عَلَى  
الْأُخْرَى حَتَّى يَدْخُلَ بِهَا لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ لَا تَحْرُمُ بِالْعَقْدِ عَلَى الْأُمِّ بِخِلَافِ الْأُمِّ فَإِنَّهَا تَحْرُمُ  
بِمَجْرَدِ الْعَقْدِ. وَهَذَا مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَجُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ قَدِيمًا  
وَحَدِيثًا - وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ - قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَالصَّوَابُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: الْأُمُّ مِنَ  
الْمُبَهَّمَاتِ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَشْتَرِطْ مَعَهُنَّ الدُّخُولَ كَمَا اشْتَرَطَهُ مَعَ أُمَّهَاتِ الرَّبَائِبِ، مَعَ أَنَّ  
ذَلِكَ أَيْضًا إِجْمَاعٌ مِنَ الْحُجَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ خِلَافُهَا فِيمَا جَاءَتْ بِهِ مُتَّفَقَةً عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبَّيْتِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ فَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الرَّبِيبَةَ  
حَرَامٌ سِوَاءَ كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ أَوْ لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِهِ. قَالُوا: وَهَذَا الْخِطَابُ خَرَجَ  
مَخْرَجَ الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فَتَيْبَتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنِ أَرَدْنَ  
تَحْصُنًا﴾، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup> أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكِ أُخْتِي بِنْتُ أَبِي  
سُفْيَانَ - وَفِي لَفْظِ لِمُسْلِمٍ - عَزَّةُ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: ((أَوْ تُحْيِيَنَّ ذَلِكَ؟)) قَالَتْ:

(١) وكتصوير اللبن للفحل، رجل تزوج بامرأتين أرضعت إحداهما غلامًا أجنبيًا - ليس بابن الزوج - وأرضعت  
الأخرى جارية أجنبية، فهل يحل لهذا الغلام أن يتزوج الجارية. والذي أراه منع الزواج في هذه الحالة.

(٢) البخاري (٥١٠١)، ومسلم (١٤٤٩).

نَعَمْ ، لَسْتُ بِكَ بِمُخْلِيةٍ وَأَحَبُّ مَنْ شَارَكَنِي فِي خَيْرِ أُخْتِي قَالَ : « فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ لِي » قَالَتْ : فَإِنَّا نَحَدِّثُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَنْكِحَ بِنْتَ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ : « بِنْتُ أُمِّ سَلَمَةَ » قَالَتْ : نَعَمْ قَالَ : « إِنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنْ رَيْبِي فِي حَجْرِي مَا حَلَّتْ لِي إِنَّهَا لَبِنْتُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ ، أَرْضَعْتَنِي وَأَبَا سَلَمَةَ ثُوْبِيَّةُ ، فَلَا تَعْرَضَنَّ عَلَيَّ بِنَاتِكُنَّ وَلَا أَخَوَاتِكُنَّ » .  
وَفِي رِوَايَةِ اللَّبْحَارِيِّ « إِنِّي لَوْ لَمْ أَتَزَوَّجْ أُمَّ سَلَمَةَ مَا حَلَّتْ لِي » فَجَعَلَ الْمَنَاطَ فِي التَّحْرِيمِ مُجَرَّدَ تَزَوُّجِهِ أُمَّ سَلَمَةَ ، وَحَكَمَ بِالتَّحْرِيمِ بِذَلِكَ ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ الْأَيْمَةِ الْأَرْبَعَةِ وَالْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ وَجُمْهُورِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ .

وَقَدْ قِيلَ : بَأَنَّهُ لَا تُحْرَمُ الرَّبِيبَةُ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِي حِجْرِ الرَّجُلِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَا تُحْرَمُ . عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحُدَثَانَ قَالَ : كَانَتْ عِنْدِي امْرَأَةٌ فَنُوفِيَتْ وَقَدْ وُلِدَتْ لِي فَوَجَدْتُ عَلَيْهَا فَلَقَيْتَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : مَا لَكَ ؟ فَقُلْتُ : تُوفِيَتْ الْمَرْأَةُ ، فَقَالَ عَلِيُّ : لَهَا ابْنَةٌ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ وَهِيَ بِالطَّائِفِ قَالَ : كَانَتْ فِي حِجْرِكَ ؟ قُلْتُ : لَا هِيَ بِالطَّائِفِ ، قَالَ : فَانْكِحْهَا ، قُلْتُ : فَأَيْنَ قَوْلُ اللَّهِ : « وَرَبِّبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ » قَالَ : إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي حِجْرِكَ إِنَّمَا ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ فِي حِجْرِكَ . هَذَا إِسْنَادٌ قَوِيٌّ ثَابِتٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَى سَرَطٍ مُسْلِمٍ وَهُوَ قَوْلٌ غَرِيبٌ جِدًّا ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَحَكَاَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الرَّافِعِيُّ عَنْ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَاخْتَارَهُ ابْنُ حَزْمٍ وَحَكَى لِي شَيْخُنَا الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الدَّهَبِيُّ أَنَّهُ عَرَضَ هَذَا عَلَى الشَّيْخِ الْإِمَامِ تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَاسْتَشْكَلَهُ وَتَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِهِ : « الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ » قَالَ : فِي بِيُوتِكُمْ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : « مَنِ نَسَايَكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ » أَيُّ : نَكَحْتُمُوهُنَّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَحَلَّتْ لِي أَبْنَاتِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ » أَيُّ : وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ زَوَاجَاتُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ وَلَدْتُمُوهُنَّ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ، يُخْتَرَزُ بِذَلِكَ عَنِ الْأَدْعِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَبَنُّوهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ

لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجٍ أَدْعِيَآبِهِمْ ﴿ [الأحزاب: ٣٧]   
 قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ مُبْهَمَاتٌ ﴿ وَحَلَّتِلُ أَبْنَاءُكُمْ ﴾ ﴿ وَأَمَهَتْ   
 نِسَائِكُمْ ﴾ . قُلْتُ: مَعْنَى مُبْهَمَاتٍ، أَي: عَامَّةٌ فِي الْمَدْخُولِ بِهَا وَغَيْرِ الْمَدْخُولِ،   
 فَتَحْرُمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْدِ عَلَيْهَا، وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَإِنْ قِيلَ: فَمِنْ أَيْنَ تَحْرُمُ امْرَأَةُ ابْنِهِ   
 مِنَ الرَّضَاعَةِ كَمَا هُوَ قَرْلُ الْجُمْهُورِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْكِيهِ إِجْمَاعًا وَلَيْسَ مِنْ صُلْبِهِ؟   
 فَالْجَوَابُ: مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: (( يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ ))<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ الْآيَةُ . أَي:   
 رَحْرَمَ عَلَيْكُمْ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ مَعًا فِي التَّزْوِيجِ، وَكَذَا فِي مِلْكِ الْيَمِينِ إِلَّا مَا كَانَ   
 مِنْكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ فَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهُ وَعَفَرْنَاهُ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا مَشْنُوءَةَ فِيهَا يُسْتَقْبَلُ،   
 لِأَنَّهُ اسْتَشْنَى مِمَّا سَلَفَ، كَمَا قَالَ: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾   
 [الدخان: ٥٦]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ أَبَدًا، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ مِنَ   
 الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فِي   
 النِّكَاحِ . وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ فِي مِلْكِ الْيَمِينِ فَحَرَامٌ أَيْضًا لِعُمُومِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أَي: وَحَرَّمَ   
 عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَجْنِيَّاتِ الْمُحْصَنَاتِ وَهِيَ الْمُرُوجَاتُ ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾   
 يَعْنِي: إِلَّا مَا مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ وَطُوهُنَّ إِذَا اسْتَبْرَأْتُمُوهُنَّ، فَإِنَّ   
 الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: أَصَبْنَا سَبِيًّا مِنْ سَبْيِ أَوْطَاسٍ وَهُنَّ أَزْوَاجٌ فَكَّرْهُنَا   
 أَنْ تَفْعَ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ أَزْوَاجٌ، فَسَأَلْنَا النَّبِيَّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ   
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فَاسْتَحْلَلْنَا بِهَا فَرُوجَهُنَّ<sup>(٢)</sup>.

ذَهَبَ الْجُمْهُورُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا إِلَى أَنَّ بَيْعَ الْأَمَةِ لَيْسَ طَلَاقًا لَهَا، وَقَدْ قِيلَ: الْمُرَادُ   
 بِقَوْلِهِ: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ يَعْنِي: الْعَقَائِفُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، حَتَّى تَمْلِكُوا   
 عِصْمَتَهُنَّ بِنِكَاحٍ وَشُهُودٍ وَمُهورٍ وَوَلِيٍّ، وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا .

(١) أخرجه البخاري (حديث رقم ٢٦٤٥)، ومسلم (حديث رقم ١٤٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي: هَذَا التَّحْرِيمُ كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ،  
يَعْنِي الْأَرْبَعَ فَالزَّمُوا كِتَابَهُ ، وَلَا تَخْرُجُوا عَنْ حُدُودِهِ وَالزَّمُوا شَرَعَهُ وَمَا فَرَضَهُ .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ أَي: مَا عَدَا مَنْ ذُكِرَ مِنْ الْمَحَارِمِ  
هُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ ، قَالَهُ عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ . وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا  
وَرَاءَ ذَلِكَ ﴾ يَعْنِي: بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِينَ غَيْرِ مُسْفِحِينَ ﴾ أَي: تَحْصِلُوا  
بِأَمْوَالِكُمْ مِنَ الزُّوجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ أَوْ السَّرَارِيِّ مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ ، وَهَذَا قَالَ:  
﴿ مُحْصِينَ غَيْرِ مُسْفِحِينَ ﴾ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ  
أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ أَي: كَمَا تَسْتَمْتِعُونَ بِهِنَّ فَآتُوهُنَّ مُهُورَهُنَّ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ ،  
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٢١] ،  
وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ ، وَقَدْ أُسْتَدِلَّ بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى  
نِكَاحِ الْمُتَعَةِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ مَشْرُوعًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نَسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ .  
وَالْعُمْدَةُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ<sup>(١)</sup> قَالَ:

(( نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ ، وَعَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْرٍ )) .

وَعَنْ سَبْرَةَ بِنِ مَعْبِدِ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: (( يَا  
أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذْنْتُ لَكُمْ فِي الْإِسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى  
يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُحِلِّ سَبِيلَهُ ، وَلَا تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ  
شَيْئًا ))<sup>(٢)</sup> ، وَلَهُ الْفَاطُ مَوْضِعُهَا كِتَابُ الْأَحْكَامِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ مَنْ حَمَلَ  
هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نِكَاحِ الْمُتَعَةِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا انْقَضَى الْأَجَلُ  
أَنْ تَرَاضُوا عَلَى زِيَادَةٍ بِهِ وَزِيَادَةٍ لِلْجُعَلِ . قَالَ السُّدِّيُّ: إِنْ شَاءَ أَرْضَاهَا مِنْ بَعْدِ  
الْفَرِيضَةِ الْأُولَى ، يَعْنِي الْأَجْرَ الَّذِي أُعْطَاهَا عَلَى تَمَتُّعِهَا بِهَا قَبْلَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ بَيْنَهُمَا ،  
فَقَالَ: أَمْتَعُ مِنْكَ أَيْضًا بِكَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ زَادَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَبْرَأَ رَحِمَهَا يَوْمَ تَنْقِضِي الْمُدَّةَ ،

(١) أخرجه البخاري (حديث ٥١١٥) ، ومسلم (١٤٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠٦) .

وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ . قَالَ السُّدِّيُّ : فَإِذَا انْقَضَتِ الْمُدَّةُ فَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهَا سَبِيلٌ وَهِيَ مِنْهُ بَرِيئَةٌ ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَسْتَبْرَأَ مَا فِي رَجْعِهَا ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مِيرَاثٌ ، فَلَا يَرِثُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ الْأَوَّلِ جَعَلَ مَعْنَاهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ الْآيَةَ ، أَيُّ : إِذَا فَرَضْتَ لَهَا صَدَاقًا فَأَبْرَأْتُكَ مِنْهُ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ وَلَا عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ . وَقِيلَ : يَعْنِي إِنْ وَضَعْتَ لَكَ مِنْهُ شَيْئًا فَهُوَ لَكَ سَائِعٌ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فَنَاسَبَ ذِكْرَ هَذَيْنِ الْوُصْفَيْنِ بَعْدَ شَرْعِ هَذِهِ الْمَحَرَّمَاتِ .

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا ﴾ أَيُّ : سَعَةً وَقُدْرَةً ﴿ أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أَيُّ : الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ . ﴿ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أَيُّ : فَتَرَوَّجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ ، ثُمَّ أُعْتِرِضَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ أَيُّ : هُوَ الْعَالِمُ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَسَرَائِرِهَا ، وَإِنَّمَا لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ الظَّاهِرُ مِنَ الْأُمُورِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السَّيِّدَ هُوَ وَلِيُّ أُمَّتِهِ لَا تَرَوِّجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ أَيُّ : وَادْفَعُوا مُهُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، أَيُّ : عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَبْخَسُوا مِنْهُ شَيْئًا اسْتِهَانَةً بِهِنَّ لِكُونِهِنَّ إِمَاءً مَمْلُوكَاتٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ ﴾ أَيُّ : عَفَائِفُ عَنِ الزَّانَا لَا

يَتَعَاظِنَهُ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسْفِحَةٍ ﴾ وَهَنَّ الزَّوَانِي اللَّاتِي لَا يَمْنَعَنَّ مَنْ أَرَادَهُنَّ بِالْفَاحِشَةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ ﴾ يَعْنِي : أَخْلَاءَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا : الْإِسْلَامُ . الثَّانِي : الْمُرَادُ بِهِ هَهُنَا : التَّزْوِيجُ . وَالْأَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَانِ هَهُنَا التَّزْوِيجُ ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَةِ يُدَلُّ عَلَيْهِ ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا أَحْصَنَ ﴾ أَيُّ : تَزَوَّجَنَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ ﴾ أَيُّ : إِنَّمَا يُبَاحُ نِكَاحُ الْإِمَاءِ بِالشَّرْوَطِ الْمُتَقَدِّمَةِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْوُقُوعَ فِي الزَّانَا ، وَشَقَّ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَنِ الْجَمَاعِ ، وَعَنَتَ بِسَبَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَلَهُ حِينِيذٌ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِالْأَمَةِ ، وَإِنْ تَرَكَ تَزَوُّجَهَا وَجَاهَدَ نَفْسَهُ فِي الْكُفِّ عَنِ الزَّانَا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَهَا جَاءَ أَوْلَادُهُ أَرْقَاءً لِسَيِّدِهَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿١٢﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا أَحَلَّ لَكُمْ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ ، بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ﴿ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ يَعْنِي : طَرَائِقَهُمُ الْحَمِيدَةَ وَاتِّبَاعَ شَرَائِعِهِ الَّتِي مُجِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ﴿ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْإِثْمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أَيُّ : فِي شَرْعِهِ وَقَدْرِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ أَيُّ : يُرِيدُ أَتْبَاعَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالزَّنَاتِ ، أَنْ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ مِيلًا عَظِيمًا . ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ تُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴾ أَيُّ : فِي شَرَائِعِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَمَا يُقَدِّرُهُ

لَكُمْ ، وَهَذَا أَبَاحَ الْإِمَاءِ بِشُرُوطٍ ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ ، « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا »  
فَنَاسَبَهُ التَّخْفِيفُ لِضَعْفِهِ فِي نَفْسِهِ وَضَعْفِ عَزْمِهِ وَهَمَّتِهِ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ  
تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ  
رَحِيمًا ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَكَانَ  
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٧﴾ إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُهَوَّنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ  
سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٢٨﴾

يَنْهَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ أَنْ يَأْكُلُوا أَمْوَالَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا  
بِالْبَاطِلِ ، أَيْ بِأَنْوَاعِ الْمَكَاسِبِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ شَرْعِيَّةٍ كَأَنْوَاعِ الرِّبَا وَالْقَهَارِ ، وَمَا  
جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ صُنُوفِ الْحَيْلِ ، وَإِنْ ظَهَرَتْ فِي غَالِبِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ  
مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّ مُتَعَاطِيهَا إِنَّمَا يُرِيدُ الْحَيْلَةَ عَلَى الرِّبَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ » فُرِيءَ « تِجَارَةً » بِالرَّفْعِ  
وَبِالنَّصْبِ وَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : لَا تَتَعَاطُوا الْأَسْبَابَ الْمُحَرَّمََةَ فِي إِحْسَابِ  
الْأَمْوَالِ ، لَكِنِ الْمَتَاجِرِ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي تَكُونُ عَنْ تَرَاضٍ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُشْتَرِي فَافْعَلُوهَا  
وَتَسْبَبُوهَا فِي تَحْصِيلِ الْأَمْوَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا  
بِالْحَقِّ » [ الإسراء : ٣٣ ] . وَمِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ اِحْتِجَّ الشَّافِعِيُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ  
الْبَيْعُ إِلَّا بِالْقَبُولِ ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى التَّرَاضِيِّ نَصًّا ، بِخِلَافِ الْمُعَاطَاةِ فَإِنَّهَا قَدْ لَا تَدُلُّ  
عَلَى الرِّضَا ، وَلَا بَدًّا ، وَخَالَفَ الْجُمْهُورُ فِي ذَلِكَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ فَرَأَوْا أَنَّ  
الْأَقْوَالَ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَى التَّرَاضِيِّ ، وَكَذَلِكَ الْأَفْعَالُ تَدُلُّ فِي بَعْضِ الْمَحَالِّ قَطْعًا ،  
فَصَحَّحُوا بَيْعَ الْمُعَاطَاةِ مُطْلَقًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : يَصِحُّ فِي الْمُحَقَّرَاتِ ، وَفِيمَا يَعُدُّهُ  
النَّاسُ بَيْعًا وَهُوَ اِحْتِيَاطٌ نَظَرَ مِنْ مُحَقِّقِي الْمَذْهَبِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَمِنْ تَمَامِ التَّرَاضِيِّ إِثْبَاتُ خِيَارِ الْمَجْلِسِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ



﴿ قَالَ : (( الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا )) ، وَفِي لَفْظِ الْبُخَارِيِّ : (( إِذَا تَبَاعَ الرَّجُلَانِ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا )) وَذَهَبَ إِلَى الْقَوْلِ بِمُقْتَضَى هَذَا الْحَدِيثِ أَحْمَدُ وَالشَّافِعِيُّ وَأَصْحَابُهَا وَجُمْهُورُ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ ، وَمِنْ ذَلِكَ مَشْرُوعِيَّةُ خِيَارِ الشَّرْطِ بَعْدَ الْعَقْدِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، بِحَسَبِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهِ مَالُ الْبَيْعِ وَلَوْ إِلَى سَنَةٍ فِي الْقَرْيَةِ وَنَحْوَهَا ، كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أَي : بِإِزْتِكَابِ مَحَارِمِ اللَّهِ ، وَتَعَاطِي مَعَاصِيهِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ أَي : فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ .  
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا بَطْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُحَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمْ [ تَرَدَّى بِهِ ] فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، خَالِدًا مُحَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا )) (١) .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ بِهِ جُرْحٌ ، فَأَخَذَ سِكِّينًا نَحَرَ بِهَا يَدَهُ فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ ، قَالَ اللَّهُ ﷻ : عَبْدِي بَادَرَنِي بِنَفْسِهِ ، حَرَمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ )) (٢) . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا ﴾ أَي : وَمَنْ يَتَعَاطَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ مُتَعَدِّيًا فِيهِ ظَالِمًا فِي تَعَاطِيهِ أَي : عَالِمًا بِتَحْرِيمِهِ مُتَجَاسِرًا عَلَى انْتِهَاكِهِ ﴿ فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا ﴾ الْآيَةَ . وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ ، وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ ، فَلْيَحْذَرْ مِنْهُ كُلُّ عَاقِلٍ لَيْسَ ، مِمَّنْ أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ جَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ الْآيَةَ ، أَي : إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كِبَائِرَ الْآثَامِ الَّتِي نَهَيْتُمْ عَنْهَا ، كَفَرْنَا عَنْكُمْ صَغَائِرَ الذُّنُوبِ وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ )) قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : (( الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَالسُّحْرُ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٧٨) ، ومسلم (١٧٥) .

(٢) مسلم (حديث ١١٣) ، والبخاري (٣٤٦٣) بنحوه .

الْغَفَلَاتِ الْمُؤْمَنَاتِ»<sup>(١)</sup>.

فَالنَّصُّ عَلَى هَذِهِ السَّبْعِ بِأَتَمِّ كِبَائِرٍ لَا يَنْفِي مَا عَدَاهُنَّ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ بِمَفْهُومِ اللَّقْبِ وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ عَدَمِ الْقَرِينَةِ ، وَلَا سِيَّيَا عِنْدَ قِيَامِ الدَّلِيلِ بِالْمَنْطُوقِ عَلَى عَدَمِ الْمَفْهُومِ . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْكِبَائِرَ أَوْ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ فَقَالَ : « الشُّرْكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » وَقَالَ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » قُلْنَا : بَلَى قَالَ : « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَقَوْلُ الزُّورِ - أَوْ شَهَادَةُ الزُّورِ »<sup>(٢)</sup> قَالَ شُعْبَةُ : أَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهُ قَالَ : شَهَادَةُ الزُّورِ .

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « أَلَا أُنبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ؟ » قُلْنَا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ » وَكَانَ مُتَكِيًا فَجَلَسَ فَقَالَ : « أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيْتَهُ سَكَتَ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ وَفِي رِوَايَةٍ أَكْبَرُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تُقْتَلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ » ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ : الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، أَوْ قَتْلُ النَّفْسِ - شُعْبَةُ الشَّاكُ - وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ »<sup>(٤)</sup> .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ ، أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ » قَالُوا وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : « يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »<sup>(٥)</sup> .

وَبَتَّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ »<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢٧٦٦) ، ومسلم (حديث ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٥٩٧٧) ، ومسلم (حديث ٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٩١٩) ، ومسلم (حديث ٨٧) .

(٤) البخاري (٦٠٠١) ، ومسلم (حديث ٨٦) .

(٥) البخاري (٦٩٢٠) بنحوه ، وانظر أيضًا (٦٦٧٥) .

(٦) أخرجه البخاري (٥٩٧٣) .

(٧) صحيح : وقد تقدم .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (( بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ ))<sup>(١)</sup>. وَفِي السُّنَنِ مَرْفُوعًا عَنْهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : (( الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ ))<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ : (( مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ ))<sup>(٣)</sup>، وَقَالَ : (( مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، فَكَاتَمَتْهَا وَتَرَّ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ))<sup>(٤)</sup>. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (( ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ يَمْنَعُهُ إِنْ السَّبِيلِ ))<sup>(٥)</sup>، وَذَكَرَ تَمَامَ الْحَدِيثِ .

أَقْوَالُ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ذَلِكَ : عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : ذَكَرُوا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ الْكِبَائِرَ ، فَقَالُوا : هِيَ سَبْعٌ فَقَالَ : أَكْثَرُ مِنْ سَبْعٍ وَسَبْعٍ ، وَعِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ مَا السَّبْعُ الْكِبَائِرُ ؟ قَالَ : هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى السَّبْعِ . وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ أَرَأَيْتَ الْكِبَائِرَ السَّبْعَ الَّتِي ذَكَرَهُنَّ اللَّهُ مَا هُنَّ ؟ قَالَ : هُنَّ إِلَى السَّبْعِينَ أَدْنَى مِنْهُنَّ إِلَى سَبْعٍ .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ فِي حَدِّ الْكَبِيرَةِ قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الرَّافِعِيُّ فِي كِتَابِهِ الشَّرْحِ الْكَبِيرِ الشَّهِيرِ فِي كِتَابِ الشَّهَادَاتِ مِنْهُ : ثُمَّ اِخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ ﷺ فَمَنْ بَعَدَهُمْ فِي الْكِبَائِرِ ، وَفِي الْفَرْقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الصَّغَائِرِ ، وَلِيَعْلَمَ الْأَصْحَابُ فِي تَفْسِيرِ الْكَبِيرَةِ وَجُوهٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الْمَوْجِبَةُ لِلْحَدِّ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي يَلْحَقُ صَاحِبُهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ بِنَصِّ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ وَهَذَا أَكْثَرُ مَا يُوجَدُ لَهُمْ وَإِلَى الْأَوَّلِ أَمِيلٌ ، لَكِنَّ الثَّانِي أَوْفَقُ لِمَا ذَكَرُوهُ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْكِبَائِرِ . وَالثَّلَاثُ : قَالَ إِمَامُ الْحَرَمِيِّ فِي « الْإِرْشَادِ » وَغَيْرِهِ : كُلُّ جَرِيمَةٍ تُنْبِئُ بِقَلَّةِ اِكْتِرَاثِ مُرْتَكِبِهَا بِالذِّينِ وَرِقَّةِ الدِّيَانَةِ فَهِيَ مُبْطَلَةٌ لِلْعَدَالَةِ . وَالرَّابِعُ : ذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو سَعِيدٍ الْهَرَوِيُّ أَنَّ الْكَبِيرَةَ : كُلُّ فِعْلٍ نَصَّ الْكِتَابُ عَلَى تَحْرِيمِهِ ، وَكُلُّ مَعْصِيَةٍ تُوجِبُ فِي جَنْسِهَا حَدًّا مِنْ قَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ ، وَتَرَكَ كُلَّ فَرِيضَةٍ مَأْمُورٍ بِهَا عَلَى الْفُورِ ، وَالْكَذِبُ فِي الشَّهَادَةِ

(١) صحيح : أخرجه مسلم (حديث ٨٢) ، ولفظه «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» .

(٢) إسناده حسن : أخرجه أحمد (٣٤٦/٥) ، والترمذي (٢٦٢١) ، والنسائي (٢٣١/١) ، وغيرهم .

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٣) .

(٤) البخاري (٥٥٢) بنحوه ، ومسلم (٦٢٦) .

(٥) أخرجه البخاري (٢٣٥٨) ، ومسلم (١٠٨) .

وَالرَّوَايَةَ وَالْيَمِينَ ، هَذَا مَا ذَكَرَهُ عَلَى سَبِيلِ الصَّبْرِ ثُمَّ قَالَ : وَفَصَلَ الْقَاضِي  
الرُّوْيَانِي فَقَالَ الْكَبَائِرُ سَبْعٌ : قَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَالزَّانَا ، وَاللَّوْاطِئَةَ ، وَشُرْبُ  
الْحُمْرِ ، وَالسَّرْقَةَ ، وَأَخْذَ الْمَالِ غَضَبًا ، وَالْقَذْفُ ، وَزَادَ فِي الشَّامِلِ عَلَى السَّبْعِ  
الْمَذْكُورَةِ : شَهَادَةُ الزُّورِ . وَأَصَافَ إِلَيْهَا صَاحِبَ الْعِدَّةِ : أَكَلَ الرَّبَا ، وَالْإِفْطَارُ فِي  
رَمَضَانَ بِلا عُدْرِ ، وَالْيَمِينَ الْفَاجِرَةَ ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَالْفِرَاقُ  
مِنَ الزَّحْفِ ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالْحِيَانَةُ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ ، وَتَقْدِيمُ الصَّلَاةِ عَلَى  
وَقْتِهَا وَتَأْخِيرُهَا عَنْ وَقْتِهَا بِلا عُدْرِ ، وَضَرْبُ الْمُسْلِمِ بِلا حَقٍّ ، وَالْكَذِبُ عَلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَمْدًا ، وَسَبُّ أَصْحَابِهِ ، وَكِتْمَانُ الشَّهَادَةِ بِلا عُدْرِ ، وَأَخْذُ الرِّشْوَةِ ،  
وَالْفِيَادَةُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، وَالسَّعَايَةُ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، وَمَنْعُ الزَّكَاةِ ، وَتَرْكُ الْأَمْرِ  
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الْقُدْرَةِ ، وَنَسْيَانُ الْقُرْآنِ بَعْدَ تَعَلُّمِهِ ، وَإِحْرَاقُ  
الْحَيَوَانَاتِ بِالنَّارِ ، وَامْتِنَاعُ الْمَرْأَةِ مِنْ زَوْجِهَا بِلا سَبَبٍ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَالْأَمْنُ  
مِنْ مَكْرِ اللَّهِ وَيُقَالُ الْوَقِيعَةُ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ وَحَمَلَةُ الْقُرْآنِ ، وَمِمَّا يُعَدُّ مِنَ الْكَبَائِرِ :  
الظَّهَارُ ، وَأَكْلُ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَالْمَيْتَةَ إِلَّا عَنْ ضَرُورَةٍ .

ثُمَّ قَالَ الرَّافِعِيُّ : وَلِلتَّوَقُّفِ مَجَالٌ فِي بَعْضِ هَذِهِ الْخِصَالِ قُلْتُ : وَقَدْ صَنَّفَ  
النَّاسُ فِي الْكَبَائِرِ مُصَنَّفَاتٍ مِنْهَا مَا جَمَعَهُ شَيْخُنَا الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الذَّهَبِيُّ الَّذِي  
بَلَغَ نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ كَبِيرَةً ، وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ الْكَبِيرَةَ مَا تَوَعَّدَ عَلَيْهَا الشَّارِعُ بِالنَّارِ  
بِخُصُوصِهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبْرُهُ ، وَتَتَّبَعَ ذَلِكَ ، اجْتَمَعَ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ ، وَإِذَا  
قَالَ : كُلُّ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ فَكَثِيرٌ جَدًّا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا  
اكَتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكَتَسَبْنَ وَسْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١١﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾  
الآيَةِ : وَلَا يَتَمَنَّى الرَّجُلُ يَقُولُ لَيْتَ لَوْ أَنَّ لِي مَالُ فُلَانٍ وَأَهْلِهِ ، فَنَهَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ،  
وَلَكِنْ يَسْأَلُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ . وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ وَلَا يَرُدُّ عَلَى هَذَا مَا ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحُ : « لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَا لَا فِلسَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ ، فَيَقُولُ رَجُلٌ : لَوْ أَنَّ لِي مِثْلَ مَا لِإِفْلَانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَهُ<sup>(١)</sup> فَهِيَ فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ » فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ غَيْرٌ مِمَّا نَهَتْ عَنْهُ الْآيَةُ . وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدِيثَ حَضَّ عَلَى تَمِّيِّ مِثْلِ نِعْمَةِ هَذَا ، وَالْآيَةُ نَهَتْ عَنِ تَمِّيِّ عَيْنِ نِعْمَةِ هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا آكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا آكْتَسَبْنَ ﴾ أَي : كُلُّ لَهُ جِزَاءٌ عَلَى عَمَلِهِ بِحَسَبِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، هَذَا قَوْلُ ابْنِ جَرِيرٍ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ فِي الْمِيرَاثِ ، أَي : كُلُّ يَرِثُ بِحَسَبِهِ . ثُمَّ أَرَشَدَهُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ ، فَقَالَ : ﴿ وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلْنَا بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ مَحْتَمٌ ، أَي : إِنْ التَّمَنَّى لَا يُجِدِي شَيْئًا ، وَلَكِنْ سَلُونِي مِنْ فَضْلِي أُعْطِكُمْ ؛ فَإِنِّي كَرِيمٌ وَهَابٌ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أَي : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الدُّنْيَا فَيُعْطِيهِ مِنْهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْفَقْرَ فَيُفْقِرُهُ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْآخِرَةَ فَيَقِيصُهُ لِأَعْمَالِهَا ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ فَيَخْذَلُهُ عَنِ تَعَاطِي الْخَيْرِ وَأَسْبَابِهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ<sup>٢</sup> وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَعَاتَبْتُم مِّنْهُمْ نَصِيبُهُمْ<sup>٣</sup> إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾ أَي : وَرَثَةٌ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ ، أَي : عَضْبَةٌ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَالْعَرَبُ تُسَمِّي ابْنَ الْعَمِّ مَوْلىً ، كَمَا قَالَ الْفَضْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ :

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا ، مَهْلًا مَوَالِينَا لَا يَظْهَرْنَ بَيْنَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا

قَالَ : وَيَعْنِي بِقَوْلِهِ : ﴿ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ ﴿ مِنْ تَرَكَهَ وَالِدَيْهِ وَأَقْرَبِيهِ مِنْ الْمِيرَاثِ ، فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ : وَلِكُلِّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ جَعَلْنَا عَضْبَةً يَرِثُونَهُ مِمَّا تَرَكَ وَالِدَهُ

(١) أخرج نحوه البخاري (حديث ٧٣، ٥٠٢٥، ٥٠٢٦)، وفي غير موطن عن عدة من الصحابة رضي الله عنهم، وكذا مسلم (حديث ٨١٥، ٨١٦)، وليس عندهما - فيما وقفت عليه - زيادة فيها في الأجر سواء، وهذه الزيادة موجودة في حديث خارج الصحيحين متكلم في سنده، والله تعالى أعلم.

وَأَقْرَبُوهُ مِنْ مِيرَاثِهِمْ لَهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ أَي : وَالَّذِينَ تَحَالَفْتُمْ بِالْأَيْمَانِ الْمَوْكَدَةِ أَنْتُمْ وَهُمْ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ كَمَا وَعَدْتُمُوهُمْ فِي الْأَيْمَانِ الْمُعْلَظَةِ إِنَّ اللَّهَ شَاهِدٌ بَيْنَكُمْ فِي تِلْكَ الْعُهُودِ وَالْمُعَاقَدَاتِ ، وَقَدْ كَانَ هَذَا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ وَأُمِرُوا أَنْ يُوفُوا لِمَنْ عَاقَدُوا ، وَلَا يَنْسُوا بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مُعَاقَدَةً .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾ قَالَ : وَرِثَةً ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ ﴾ كَانَ الْمُهَاجِرُونَ لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ يَرِثُ الْمُهَاجِرِيُّ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ ذَوِي رَحِمِهِ ، لِلْأُخُوَّةِ الَّتِي آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي ﴾ نَسَخَتْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالرَّفَادَةِ وَالنَّصِيْحَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ الْمِيرَاثُ وَيُوصِي لَهُ <sup>(١)</sup> . عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا حِلْفٌ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً )) <sup>(٢)</sup> .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الرَّدِّ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَى التَّوَارِثِ بِالْحِلْفِ الْيَوْمَ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ وَرِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، وَالصَّحِيحُ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ أَي : وَرِثَهُ مِنْ قَرَابَاتِهِ مِنْ أَبِيهِ وَأَقْرَبِيهِ ، وَهُمْ يَرِثُونَهُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( الْحُقُوقُ الْفَرَائِضُ بِأَهْلِهَا فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ )) <sup>(٣)</sup> أَي : إِقْسِمُوا الْمِيرَاثَ عَلَى أَصْحَابِ الْفَرَائِضِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي آيَاتِ الْفَرَائِضِ فَمَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأَعْطُوهُ لِلْعُصْبَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتِ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أَي : قَبْلَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ أَي : مِنَ الْمِيرَاثِ ، فَإِنَّمَا حِلْفٌ عَقِدَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَا تَأْثِيرَ لَهُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ فَاتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ مِنَ النَّصْرَةِ وَالنَّصِيْحَةِ وَالرَّفَادَةِ ، وَيُوصِي لَهُ وَقَدْ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٠) .

(٢) أخرجه مسلم (حديث ٢٥٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٣٢) ، ومسلم (١٦١٥) .

ذَهَبَ الْمِيرَاثُ . وَهَكَذَا نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٦]

وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾ أَي : مِنَ النَّصْرَةِ وَالنَّصِيْحَةِ وَالْمَعْوَنَةِ ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ : فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ حَتَّىٰ تَكُونَ الْآيَةُ مَنْسُوخَةً ، وَلَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ حُكْمًا ثُمَّ نُسِخَ بَلْ إِنَّمَا دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْحَلْفِ بِالْمَعْقُودِ عَلَى النَّصْرَةِ وَالنَّصِيْحَةِ فَقَطْ ، فَهِيَ مُحْكَمَةٌ لَا مَنْسُوخَةٌ ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ فِيهِ نَظَرٌ فَإِنَّ مِنَ الْحَلْفِ مَا كَانَ عَلَى الْمُنَاصَرَةِ وَالْمَعَاوَنَةِ ، وَمِنْهُ مَا كَانَ عَلَى الْإِزْثِ ، كَمَا حَكَاهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَكَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ الْمُهَاجِرِيُّ يَرِثُ الْأَنْصَارِيَّ دُونَ قَرَابَاتِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ حَتَّىٰ نُسِخَ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ يَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّلِحَاتُ قَنِينَاتٌ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَصَاحِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٦٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ أَي : الرَّجُلُ قَيِّمٌ عَلَى الْمَرْأَةِ ، أَي : هُوَ رَيْسُهَا وَكَبِيرُهَا وَالْحَاكِمُ عَلَيْهَا وَمُؤَدِّبُهَا إِذَا إِعْوَجَّتْ ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أَي : لِأَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ وَالرَّجُلُ خَيْرٌ مِنَ الْمَرْأَةِ ، وَهَذَا كَانَتْ النُّبُوَّةُ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ وَكَذَلِكَ الْمَلِكُ الْأَعْظَمُ لِقَوْلِهِ ﷺ : (( لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ ))<sup>(١)</sup> وَكَذَا مَنْصِبُ الْقَضَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ أَي : مِنَ الْمُهَوَّرِ وَالتَّقَاتِ وَالْكَلْفِ الَّتِي أَوْجَبَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُنَّ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَالرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْأَةِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَيْهَا وَالْإِفْضَالُ ، فَنَاسَبَ أَنْ

(١) أخرجه البخاري (٧٠٩٩) .

يَكُونُ قِيًّا عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّذَّالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ ﴾ [ البقرة : ٢٢٨ ] .  
 قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : ﴿ الرِّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ يَعْنِي : أُمَّرَاءٌ عَلَيْهِنَّ ، أَي :  
 نُطِيعُهُ فِيمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ ، وَطَاعَتُهُ أَنْ تَكُونَ مُحْسِنَةً لِأَهْلِهَا حَافِظَةً لِمَالِهِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ ﴾ أَي : مِنَ النِّسَاءِ ﴿ قَنِينَتٌ ﴾ يَعْنِي : مُطِيعَاتٌ  
 لِأَزْوَاجِهِنَّ ﴿ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ ﴾ أَي : تَحْفَظُ زَوْجَهَا فِي غَيْبِهِ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ ، ﴿ بِمَا  
 حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أَي : الْمَحْفُوظُ مَنْ حَفِظَهُ اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ﴾ أَي : وَالنِّسَاءَ اللَّاتِي تَتَخَوَّفُونَ أَنْ  
 يَنْشُزْنَ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، وَالنُّشُوزُ : هُوَ الْإِرْتِفَاعُ ، فَالْمَرْأَةُ النَّاشِزُ هِيَ الْمُرْتَفِعَةُ عَلَى  
 زَوْجِهَا ، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ الْمُعْرِضَةُ عَنْهُ الْمُبْغِضَةُ لَهُ ، فَتَمَّتْ ظَهَرَ لَهُ مِنْهَا أَمَارَاتُ  
 النُّشُوزِ فَلْيَعْظُمَهَا وَلْيَخَوْفَهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي عِضْيَانِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ حَقَّ الزَّوْجِ  
 عَلَيْهَا وَطَاعَتَهُ وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ ، لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْفَضْلِ وَالْإِفْضَالِ ، وَقَدْ قَالَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ كُنْتُ أَمْرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ  
 لِزَوْجِهَا »<sup>(١)</sup> ، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا »<sup>(٢)</sup> .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ  
 فَأَبَتْ عَلَيْهِ ، لَعَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ »<sup>(٣)</sup> وَفِي رِوَايَةٍ : « إِذَا بَاتَتِ الْمَرْأَةُ هَاجِرَةً  
 فِرَاشَ زَوْجِهَا ، لَعَنَّهَا الْمَلَائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ »<sup>(٤)</sup> ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ  
 نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : الْهَجْرُ : هُوَ أَنْ لَا يُجَامِعَهَا  
 وَيُضَاجِعَهَا عَلَى فِرَاشِهَا وَيُوَلِّيَهَا ظَهْرَهُ ، وَزَادَ آخَرُونَ ، وَلَا يَكَلِّمَهَا مَعَ ذَلِكَ وَلَا  
 يُحَدِّثُهَا ، وَقِيلَ : يَعْظُمُهَا فَإِنَّ هِيَ قَبِلَتْ ، وَإِلَّا هَجَرَهَا فِي الْمَضْجَعِ ، وَلَا يَكَلِّمَهَا مِنْ

(١) صحيح بمجموع طرقه ، وقد أخرجه الترمذي ( ١١٥٩ ) ، وابن حبان ( موارد الظمان ١٢٩١ ) ،  
 والبيهقي ( ٢٩١ / ٧ ) .

(٢) هذه الزيادة المذكورة صحيحة بمجموع طرقها أيضًا ، وهي عند البيهقي ، وابن حبان في المصادر المشار  
 إليها .

(٣) أخرجه البخاري ( ٥١٩٣ ) ، ومسلم ( ١٠٦٠ ) .

(٤) أخرجه نحوه البخاري ( ٥١٩٤ ) ، ومسلم ( ١٠٥٩ ) .



غَيْرَ أَنْ يَدَرَ نِكَاحَهَا ، وَذَلِكَ عَلَيْهَا شَدِيدٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْهَجْرُ : هُوَ أَنْ لَا يُصَاحِبَهَا . وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حِنْدَةَ الْقُشَيْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا حَقُّ امْرَأَةٍ أَحَدِنَا عَلَيْهِ ؟ قَالَ : « أَنْ تُطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ ، وَلَا تُضْرَبَ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبَّحَ ، وَلَا تَهْجَرَ إِلَّا فِي الْبَيْتِ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَضْرِبُوهُنَّ ﴾ أَي : إِذَا لَمْ يَزِدْ عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَلَا بِالْمُهْجَرَانِ ، فَلَكُمْ أَنْ تُضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوُدَاعِ : « وَأَتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئَنَّ فُرْشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُوهُنَّ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرَحٍ ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ أَي : إِذَا أَطَاعَتِ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا يُرِيدُهُ مِنْهَا مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ لَهُ ضَرْبُهَا وَلَا هِجْرَانُهَا ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَغَوْا عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيمَ الْكَبِيرَ وَلِيَّهُنَّ ، وَهُوَ مُنْتَقِمٌ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَغَى عَلَيْهِنَّ .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٢٠﴾

قَالَ الْفُقَهَاءُ : إِذَا وَقَعَ الشَّقَاقُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ أَسْكَنْهُمَا الْحَاكِمُ إِلَى جَنْبِ ثِقَةٍ يَنْظُرُ فِي أَمْرِهِمَا ، وَيَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنْهُمَا مِنَ الظُّلْمِ ، فَإِنْ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمَا وَطَالَتْ خُصُومَتُهُمَا ، بَعَثَ الْحَاكِمُ ثِقَةً مِّنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ وَثِقَةً مِّنْ قَوْمِ الرَّجُلِ لِيَجْتَمِعَا فَيَنْظُرَا فِي أَمْرِهِمَا وَيَفْعَلَا مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ مِمَّا يَرِيَانِهِ مِنَ التَّفْرِيقِ أَوْ التَّوْفِيقِ ، وَتَشَوُّفِ الشَّارِعِ إِلَى التَّوْفِيقِ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ . عَنْ عُبَيْدَةَ قَالَ : شَهِدْتُ عَلِيًّا وَجَاءَتْهُ امْرَأَةٌ وَزَوْجُهَا مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِتْنَامٌ مِنَ النَّاسِ ، فَأَخْرَجَ هُوَ لِي حَكَمًا

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٢) بسند صحيح .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) .

وَهُؤُلَاءِ حَكَمًا ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِلْحَكَمَيْنِ : أَتَدْرِيَانِ مَا عَلَيْكُمَا ؟ إِنَّ عَلَيْكُمَا إِنْ رَأَيْتُمَا أَنْ تَجْمَعَا جَمْعَتُمَا ، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : رَضِيتُ بِكِتَابِ اللَّهِ لِي وَعَلَيَّ ، وَقَالَ الزَّوْجُ : أَمَّا الْفُرْقَةُ فَلَا ، فَقَالَ عَلِيٌّ : كَذَبْتَ وَاللَّهِ لَا تَبْرَحَ حَتَّى تَرْضَى بِكِتَابِ اللَّهِ ﷻ لَكَ وَعَلَيْكَ (١) .

وَمَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ هُمَا الْجَمْعُ وَالتَّفْرِقَةُ . وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْحَكَمَانِ يَحْكُمَانِ فِي الْجَمْعِ لَا فِي التَّفْرِقَةِ ، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَبُو ثَوْرٍ وَدَاوُدُ وَمَأْخُذُهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ وَلَمْ يَذْكَرِ التَّفْرِيقَ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَا وَكَيْلَيْنِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجَيْنِ فَإِنَّهُ يَنْفُذُ حُكْمُهُمَا فِي الْجَمْعِ وَالتَّفْرِقَةِ بِلَا خِلَافٍ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي الْحَكَمَيْنِ هَلْ هُمَا مَنْصُوبَانِ مِنْ جِهَةِ الْحَاكِمِ فَيَحْكُمَانِ ، وَإِنْ لَمْ يَرْضِ الزَّوْجَانِ أَوْ هُمَا وَكَيْلَانِ مِنْ جِهَةِ الزَّوْجَيْنِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى الْأَوَّلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاتَّبِعُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ فَسَمَاهُمَا حَكَمَيْنِ وَمِنْ شَأْنِ الْحَكَمِ أَنْ يَحْكُمَ بِغَيْرِ رِضَا الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ وَهَذَا ظَاهِرُ آيَةِ وَالْجَدِيدُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ الثَّانِي مِنْهُمَا يَقُولُ عَلِيٌّ ﷻ لِلزَّوْجِ حِينَ قَالَ : أَمَّا الْفُرْقَةُ فَلَا ، فَقَالَ : كَذَبْتَ حَتَّى تُقَرَّ بِمَا أَقَرْتَ بِهِ ، قَالُوا : فَلَوْ كَانَا حَكَمَيْنِ لَمَا افْتَقَرَ إِلَى إِفْرَارِ الزَّوْجِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَالَ الشَّيْخُ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْحَكَمَيْنِ إِذَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمَا فَلَا عِبْرَةَ بِقَوْلِ الْآخِرِ ، وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ قَوْلَهُمَا نَافِذٌ فِي الْجَمْعِ ، وَإِنْ لَمْ يُوكَّلْهُمَا الزَّوْجَانِ وَاخْتَلَفُوا هَلْ يَنْفُذُ قَوْلُهُمَا فِي التَّفْرِقَةِ ؟ ثُمَّ حُكِيَ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ يَنْفُذُ قَوْلُهُمَا فِيهَا أَيْضًا مِنْ غَيْرِ تَوْكِيلٍ .

✽ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ

مُحْتَلًا فَخُورًا ﴿٦٠﴾

يَأْمُرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ؛ فَإِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ عَلَى خَلْقِهِ فِي جَمِيعِ الْأَنَاتِ وَالْحَالَاتِ ، فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ مِنْهُمْ أَنْ يُوحِدُوهُ ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُغَادِ بْنِ جَبَلٍ : « أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ » قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا » ثُمَّ « أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ » (١).

ثُمَّ أَوْصَى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَهَا سَبَبًا لِحُرُوجِكَ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ عِبَادَتِهِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، كَقَوْلِهِ : « أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ » ، وَكَقَوْلِهِ : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » ثُمَّ عَطَفَ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا الْإِحْسَانَ إِلَى الْقَرَابَاتِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ صَدَقَةٌ وَصَلَةٌ » (٢) ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : « وَالْيَتَامَى » ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ فَقَدُوا مَنْ يَقُومُ بِمَصَالِحِهِمْ وَمَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَالْحَنُوقِ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ قَالَ : « وَالْمَسْكِينِ » وَهُمْ الْمَحَاوِجُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَنْ يَقُومُ بِكِفَايَتِهِمْ ، فَأَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمُسَاعَدَتِهِمْ بِمَا تَتِمُّ بِهِ كِفَايَتُهُمْ ، وَتَزْوُلُ بِهِ ضُرُورَتُهُمْ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الْفَقِيرِ وَالْمَسْكِينِ فِي سُورَةِ بَرَاءةَ .

وَقَوْلُهُ : « وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ » وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى : يَعْنِي الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ : الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ .

وَقَدْ وَرَدَتِ الْأَحَادِيثُ بِالْوَصَايَا بِالْجَارِ ، فَلَنَذْكُرُ مِنْهَا مَا تيسَّرَ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا زَالَ جَبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ » (٣) . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ

(١) صحيح ، وتقدم تحريجه .

(٢) صحيح لشواهده ، وإن كان في سنده بعض الاختلافات ، ولكن له شاهد في الصحيحين في قصة زينب

امرأة عبد الله بن مسعود وصدقتها على زوجها وقرباتها فيه ( لها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة ) .

(٣) أخرجه البخاري ( حديث ٦٠١٤ ) ، ومسلم ( ٢٦٢٤ ) .

لِحَارِهِ»<sup>(١)</sup>. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ » قُلْتُ : ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : « أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ »<sup>(٢)</sup>.  
وَعَنْ عَائِشَةَ أُمَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَلِي أَيْمَاهُمَا أَهْدِي ؟ قَالَ : « إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا »<sup>(٣)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : هِيَ : الْمَرْأَةُ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ . وَأَمَّا ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ قَالَ جَمَاعَةٌ : هُوَ : الضَّيْفُ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ ، وَهَذَا أَظْهَرُ وَإِنْ كَانَ مُرَادُ الْقَائِلِ بِالضَّيْفِ الْمَارُّ فِي الطَّرِيقِ فَهِيَ سَوَاءٌ .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ وَصِيَّةٌ بِالْأَرْقَاءِ لِأَنَّ الرَّفِيقَ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ أَسِيرٌ فِي أَيْدِي النَّاسِ ، فَلِهَذَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَعَلَ يُوصِي أُمَّتَهُ فِي مَرَضِ الْمَوْتِ يَقُولُ : « الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ »<sup>(٤)</sup> فَجَعَلَ يَرُدُّهَا حَتَّى مَا يُفِيضُ بِهَا لِسَانَهُ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ لِقَهْرْمَانَ لَهُ : هَلْ أَعْطَيْتَ الرَّفِيقَ قُوَّتَهُمْ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَانطَلِقْ فَأَعْطِهِمْ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كَفَى الْمَرْءُ إِثْمًا أَنْ يَجْبَسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوَّتَهُمْ »<sup>(٥)</sup> وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ وَكِسْوَتُهُ ، وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ »<sup>(٦)</sup> . وَعَنْهُ ﷺ أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا أَتَى أَحَدُكُمْ خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ فَإِنْ لَمْ يَجْلِسْهُ مَعَهُ فَلْيَسَاوِلْهُ لُقْمَةً أَوْ لُقْمَتَيْنِ ، أَوْ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ ، فَإِنَّهُ وَلِي حَرُّهُ وَعِلَاجُهُ »<sup>(٧)</sup> ، وَلَيْسَلِمَ « فَلْيَقْعِدْهُ مَعَهُ فَلْيَأْكُلْ ، فَإِنْ كَانَ الطَّعَامُ مَشْفُوهًا

(١) حسن : وقد أخرجه عبد بن حميد (٣٤٢) ، والترمذي (ص ٣٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٧٧) ، ومسلم (٨٦) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٠) .

(٤) صحيح لسواهده ، وقد أخرجه ابن ماجه (٢٦٩٧ ، ٢٦٩٨) .

(٥) أخرجه مسلم (٩٩٦) .

(٦) أخرجه مسلم (١٦٦٢) .

(٧) أخرجه البخاري (حديث ٥٤٦٠) .

قَلِيلًا فَلْيَصْغُ فِي يَدِهِ أَكْلَةً أَوْ أَكْلَتَيْنِ»<sup>(١)</sup> وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « هُمْ إِخْوَانُكُمْ حَوْلَكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ »<sup>(٢)</sup> .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ أَي : مُخْتَالًا فِي نَفْسِهِ مُعْجَبًا مُتَكَبِّرًا فَخُورًا عَلَى النَّاسِ ، يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُمْ ، فَهُوَ فِي نَفْسِهِ كَبِيرٌ ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَقِيرٌ ، وَعِنْدَ النَّاسِ بَغِيضٌ . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿ مُخْتَالًا ﴾ يَعْنِي : مُتَكَبِّرًا ﴿ فَخُورًا ﴾ يَعْنِي : يِعُدُّ مَا أُعْطِيَ وَهُوَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى ، يَعْنِي : يَفْخَرُ عَلَى النَّاسِ بِمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ مِنْ نِعَمِهِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ .

الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ<sup>(٣)</sup> وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٧٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى ذَا مَا الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ ، أَنْ يُنْفِقُوهَا فِيمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ بَرِّ الْوَالِدَيْنِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْأَقْرَابِ وَالْيَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينِ ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ ، وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنَ الْأَرْقَاءِ ، وَلَا يَذْفَعُونَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ أَيْضًا ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : « وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ »<sup>(٤)</sup> . وَقَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمُ بِالْقَطِيعَةِ ، فَقَطَّعُوا وَأَمَرَهُمُ بِالْفُجُورِ فَفَجَّرُوا »<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه مسلم (١٦٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٣٠) ، ومسلم (حديث ١٦٦١) .

(٣) سنده صحيح ، وقد أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٧) .

(٤) صحيح لشواهدة : وقد أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٧٨) من حديث جابر رضي الله عنه مرفوعاً « ... واتقوا

الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فَالْبُخِيلُ جَحُودٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ ، وَلَا تَظْهَرُ عَلَيْهِ وَلَا تَبِينُ لَا فِي مَأْكَلِهِ وَلَا فِي مَلْبَسِهِ وَلَا فِي إِعْطَائِهِ وَبَدَلِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦١﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [العاديات : ٦-٧] أَيْ : بِحَالِهِ وَسَمَائِلِهِ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وَهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَالْكَفْرُ : هُوَ السُّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ ، فَالْبُخِيلُ يَسْتُرُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَيَكْتُمُهَا وَيَجْحَدُهَا ، فَهُوَ كَافِرٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ . وَفِي الْحَدِيثِ : (( إِنْ اللَّهُ إِذَا أَنْعَمَ نِعْمَةً عَلَىٰ عَبْدٍ ، أَحَبَّ أَنْ يَظْهَرَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ ))<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ حَمَلَ بَعْضُ السَّلَفِ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَىٰ بُخْلِ الْيَهُودِ ، بِإِظْهَارِ الْعِلْمِ الَّذِي عِنْدَهُمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَيْتَابِهِمْ ذَٰلِكَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآيَةَ مُحْتَمَلَةٌ لِذَٰلِكَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ السِّيَاقَ فِي الْبُخْلِ بِالْمَالِ ، وَإِنْ كَانَ الْبُخْلُ بِالْعِلْمِ دَاخِلًا فِي ذَٰلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَىٰ الْأَقَارِبِ وَالضُّعْفَاءِ وَكَذَٰلِكَ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا . وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ﴾ فَإِنَّهُ ذَكَرَ الْمُسْكِينِ الْمَذْمُومِينَ وَهُمْ الْبُخْلَاءُ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْبَادِلِينَ الْمُرَائِينَ الَّذِي يَقْصِدُونَ بِإِعْطَائِهِمُ السُّمْعَةَ ، وَأَنْ يُمْدَحُوا بِالْكَرَمِ ، وَلَا يُرِيدُونَ بِذَٰلِكَ وَجْهَ اللَّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِيهِ : الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ هُمْ أَوْلُ مَنْ تُسَجَّرُ بِهِمُ النَّارُ<sup>(٢)</sup> ، وَهُمْ الْعَالِمُ وَالْغَازِي وَالْمُنْفِقُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، يَقُولُ صَاحِبُ الْمَالِ : مَا تَرَكْتُ مِنْ شَيْءٍ مُحِبٌّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهِ إِلَّا أَنْفَقْتُ فِي سَبِيلِكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : كَذَبْتَ ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ : أَيْ : فَقَدْ أَخَذَتْ جَزَاءَكَ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الَّذِي أَرَدْتَ بِفِعْلِكَ . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ هَلْ يَنْفَعُهُ إِنْفَاقُهُ وَإِعْتَاقُهُ ؟ فَقَالَ : (( لَا ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ))<sup>(٣)</sup> ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ

(١) صحيح لشواهده : قد أخرج الترمذي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وله شواهد أخر يصح بها .

(٢) انظر صحيح مسلم (حديث ١٩٠٥) .

(٣) أخرجه مسلم (حديث ٢١٤) بنحوه .

الْآخِرُ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا ﴿٤٧﴾ الْآيَةُ ، أَي : إِنَّمَا حَمَلَهُمْ صَنِيعُهُمْ هَذَا الْقَبِيحَ وَعَدَّوْلَهُمْ عَنْ فِعْلِ الطَّاعَةِ عَلَى وَجْهِهَا الشَّيْطَانُ ؛ فَإِنَّهُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ وَقَارَنَهُمْ فَحَسَّنَ لَهُمُ الْقَبَائِحَ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ وَهَذَا قَالَ الشَّاعِرُ :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ  
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ﴾ الْآيَةُ . أَي : وَأَيُّ شَيْءٍ يَصْرُهُمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَسَلَكُوا الطَّرِيقَ الْحَمِيدَةَ ، وَعَدَلُوا عَنِ الرِّيَاءِ إِلَى الْإِحْلَاصِ ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ رَجَاءً مَوْعُودِهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، لِمَنْ يُحْسِنُ عَمَلَهُ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ أَي : وَهُوَ عَلِيمٌ بِنِيَّاتِهِمُ الصَّالِحَةَ وَالْفَاسِدَةَ ، وَعَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ التَّوْفِيقَ مِنْهُمْ فَيُوفِّقُهُ ، وَيُلْهِمُهُ رُشْدَهُ وَيَقَيِّضُهُ لِعِلْمٍ صَالِحٍ يَرْضَى بِهِ عَنْهُ ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْخِذْلَانَ وَالطَّرْدَ عَنِ الْجَنَابِ الْأَعْظَمِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي مَنْ طُرِدَ عَنْ بَابِهِ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٩﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٥٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ وَلَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ يُؤْفِقُهَا لَهُ وَيُضَاعِفُهَا لَهُ إِنْ كَانَتْ حَسَنَةً ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [ الْأَنْبِيَاءُ : ٤٧ ] ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ وَفِيهِ ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ : (( اِرْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ )) وَفِي لَفْظٍ (( أَذْنَى أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ))

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو سَعِيدٍ إِقْرَءُوا إِن شِئْتُمْ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية (١).  
 وفي الحديث الصحيح أَنَّ الْعَبَّاسَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ عَمَّكَ أَبَا طَالِبٍ كَانَ  
 يَحْطُوكَ وَيَنْصُرُكَ ، فَهَلْ نَفَعْتَهُ بِشَيْءٍ ؟ قَالَ : (( نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ،  
 وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ )) (٢). وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :  
 (( إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً ، يُثَابُ عَلَيْهَا الرَّزْقُ فِي الدُّنْيَا ، وَيُجْزَى بِهَا فِي  
 الْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ )) (٣)  
 يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، نَسَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾  
 يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْأَمْرُ  
 وَالْحَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يَعْنِي : الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ -  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ  
 وَالشُّهَدَاءِ ﴾ [ الزمر : ٦٩ ] . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ  
 أَنْفُسِهِمْ ﴾ [ النحل : ٨٩ ]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( اِقْرَأْ عَلَيَّ )) فَقُلْتُ : يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ ، أَقْرَأْ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ ؟ قَالَ : (( نَعَمْ ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ))  
 فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى آتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ  
 وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ فَقَالَ : (( حَسْبُكَ الْآنَ )) فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ (٤) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا  
 يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ أَي : انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم  
 مِنَ الْخِزْيِ وَالْفُضِيحَةِ وَالتَّوْبِيخِ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [ النبا : ٤٠ ]  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ إِخْبَارٌ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِجَمِيعِ مَا فَعَلُوهُ

(١) انظر مسلم (حديث ١٨٣) ، والبخاري (٧٤٣٩) .

(٢) البخاري (٦٢٠٨) ، ومسلم (٢٠٩) .

(٣) مسلم (حديث ٢٨٠٨) .

(٤) البخاري (٤٥٨٣) ، ومسلم (حديث ٨٠٠) .



وَلَا يَكْتُمُونَ مِنْهُ شَيْئًا . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ سَمِعْتُ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ يَعْنِي إِخْبَارًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَتَمُّمْ قَالُوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَمَا قَوْلُهُ : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلَ الْإِسْلَامِ ، قَالُوا : تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدَ فَقَالُوا : ﴿ وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ، فَخَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (١) .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٣٧﴾

يُنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ فِعْلِ الصَّلَاةِ فِي حَالِ السُّكْرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَعَهُ الْمَصْلِي مَا يَقُولُ ، وَعَنْ قُرْبَانٍ مَحَالَهَا الَّتِي هِيَ الْمَسَاجِدُ لِلْجُنُبِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُجْتَازًا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ مِنْ غَيْرِ مُكْتٍ وَقَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْحَمْرِ .

قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : قَالَ وَلَمْ يَتَوَجَّهْ النَّهْيُ إِلَى السَّكَرَانِ الَّذِي لَا يَفْهَمُ الْخُطَابَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ فِي حُكْمِ الْمَجْنُونِ ، وَإِنَّمَا خُوطِبَ بِالنَّهْيِ الشَّمْلِ الَّذِي يَفْهَمُ التَّكْلِيفَ ، وَهَذَا حَاصِلُ مَا قَالَهُ . وَقَدْ ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ ، وَهُوَ : أَنَّ الْخُطَابَ يَتَوَجَّهُ إِلَى مَنْ يَفْهَمُ الْكَلَامَ دُونَ السَّكَرَانِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقَالُ لَهُ ، فَإِنَّ الْفَهْمَ شَرْطُ التَّكْلِيفِ ، وَقَدْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ التَّعْرِيفُ بِالنَّهْيِ عَنِ السُّكْرِ بِالْكُلِّيَّةِ ؛ لِكَوْنِهِمْ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ فِي الْحُمْسَةِ الْأَوْقَاتِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فَلَا يَتِمَكَّنُ شَارِبُ الْحَمْرِ مِنْ أَدَاءِ الصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا دَائِمًا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ، وَهُوَ

(١) سند الطبري المذكور فيه ابن حميد ، وهو محمد بن حميد ضعيف ، لكن انظر صحيح البخاري - كتاب

الْأَمْرُ لَهُمْ بِالتَّهَبِ لِلْمَوْتِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُدَاوَمَةِ عَلَى الطَّاعَةِ لِأَجْلِ ذَلِكَ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ هَذَا أَحْسَنُ مَا يُقَالُ فِي حَدِّ السَّكَرَانِ إِنَّهُ  
 الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَقُولُ ، فَإِنَّ الْمَخْمُورَ فِيهِ تَحْلِيظٌ فِي الْقِرَاءَةِ وَعَدَمَ تَدْبِيرِهِ وَخُشُوعِهِ  
 فِيهَا . عَنْ أَنَسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي  
 فَلْيَنْصَرِفْ وَلَيْتِمَنَّ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ » وَفِي بَعْضِ الْأَفَاطِ الْحَدِيثِ « فَلَعَلَّهُ يَذْهَبُ  
 يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ :  
 لَا تَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ وَأَنْتُمْ جُنْبٌ إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ ، تَمَرُّ بِهِ مَرًّا وَلَا تَجْلِسُ ، وَمِنْ هَذِهِ  
 الْآيَةِ اِحْتِجَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَيْمَةِ عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى الْجُنْبِ الْمَكْتُ فِي الْمَسْجِدِ ، وَيَجُوزُ لَهُ  
 الْمُرُورُ ، وَكَذَا الْحَائِضُ وَالنَّفْسَاءُ أَيْضًا فِي مَعْنَاهُ ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : يَحْرُمُ  
 مُرُورَهُمَا لِاحْتِمَالِ التَّلْوِيثِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنْ أَمِنْتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّلْوِيثَ  
 فِي حَالِ الْمُرُورِ جَازَ لِهَذَا الْمُرُورِ وَإِلَّا فَلَا . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -  
 قَالَتْ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « نَاوليني الخُمرةَ مِنَ الْمَسْجِدِ » ، فَقُلْتُ : إِنِّي  
 حَائِضٌ . فَقَالَ : « إِنْ حَيْضَتِكَ لَيْسَتْ فِي يَدِكَ » (٢) ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ مُرُورِ  
 الْحَائِضِ فِي الْمَسْجِدِ وَالنَّفْسَاءِ فِي مَعْنَاهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ . عَنْ عَلِيٍّ ﷺ ﴿ وَلَا جُنْبًا إِلَّا  
 عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ قَالَ : لَا يَقْرَبُ الصَّلَاةَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُسَافِرًا تُصِيبُهُ الْجَنَابَةُ فَلَا يَجِدُ  
 الْمَاءَ ، فَيُصَلِّي حَتَّى يَجِدَ الْمَاءَ .

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَ حِكَايَتِهِ الْقَوْلَيْنِ : وَالْأَوْلَى قَوْلُ مَنْ قَالَ : ﴿ وَلَا جُنْبًا إِلَّا  
 عَابِرِي سَبِيلٍ ﴾ أَي : إِلَّا مُجْتَازِي طَرِيقٍ فِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ حُكْمَ الْمُسَافِرِ إِذَا  
 عَدِمَ الْمَاءَ ، وَهُوَ جُنْبٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ  
 الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ، فَكَانَ مَعْلُومًا  
 بِذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ لَوْ كَانَ مَعْنِيًّا بِهِ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٢١٢)، ومسلم (٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨).



عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ قَالَ : الْجِمَاعُ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ إِنَّ  
عَبَّاسَ : اللَّمْسُ ، وَالْمَسُّ ، وَالْمُبَاشَرَةُ : الْجِمَاعُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُكْنِي بِمَا يَشَاءُ<sup>(١)</sup> . وَعَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ أَيْضًا قَالَ : الْمَلَامَسَةُ : الْجِمَاعُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُكْنِي بِمَا يَشَاءُ ، وَقَالَ آخَرُونَ :  
عَنِ اللَّهِ تَعَالَى بِذَلِكَ كُلِّ مَنْ لَمَسَ بِيَدٍ أَوْ بغيرِهَا مِنْ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ ، وَأَوْجَبَ  
الْوُضُوءَ عَلَى كُلِّ مَنْ مَسَّ بِشَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ شَيْئًا مِنْ جَسَدِهَا مُفْضِيًا إِلَيْهِ ، وَعَنْ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : اللَّمْسُ : مَا دُونَ الْجِمَاعِ<sup>(٢)</sup> . وَقَالَ أَيْضًا : الْقُبْلَةُ مِنَ الْمَسِّ  
وَفِيهَا الْوُضُوءُ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : قُبْلَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ وَجَسَدُهُ  
بِيَدِهِ مِنَ الْمَلَامَسَةِ ، فَمَنْ قَبَّلَ امْرَأَتَهُ أَوْ جَسَدَهَا بِيَدِهِ فَعَلَيْهِ الْوُضُوءُ<sup>(٣)</sup> .

وَالْقَوْلُ بِوُجُوبِ الْوُضُوءِ مِنَ الْمَسِّ هُوَ : قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَصْحَابِهِ ، وَمَالِكٍ  
وَالْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، قَالَ نَاصِرُو هَذِهِ الْمَقَالَةِ : قَدْ قُرئَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ  
« لَمَسْتُمْ » وَ « لَمَسْتُمْ » وَاللَّمْسُ : يُطْلَقُ فِي الشَّرْعِ عَلَى الْجَسِّ بِالْيَدِ ، قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [ الأنعام : ٧ ] أَيْ :  
جَسَدَهُ ، وَقَالَ ﷺ لِمَاعِزٍ حِينَ أَقْرَبَ الزَّنَا يَعْزُضُ لَهُ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْإِفْرَارِ : « لَعَلَّكَ  
قَبَلْتَ أَوْ لَمَسْتَ »<sup>(٤)</sup> ، وَمِنْهُ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ بَيْعِ  
الْمَلَامَسَةِ<sup>(٥)</sup> وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى الْجَسِّ بِالْيَدِ ، عَلَى كِلَا التَّفْسِيرَيْنِ . قَالُوا : وَيُطْلَقُ فِي  
اللُّغَةِ عَلَى الْجَسِّ بِالْيَدِ كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْجِمَاعِ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوَّلَى الْقَوْلَيْنِ فِي  
ذَلِكَ بِالصَّوَابِ ، قَوْلُ مَنْ قَالَ : عَنِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ : « أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ » الْجِمَاعُ دُونَ  
غَيْرِهِ مِنْ مَعَانِي اللَّمْسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ اسْتَنْبَطَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ  
مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّيْمُّمُ لِعَادِمِ الْمَاءِ إِلَّا بَعْدَ طَلَبِ الْمَاءِ ، فَتَمَّى طَلَبَهُ فَلَمْ  
يَجِدْهُ جَازَ لَهُ حِينَئِذٍ التَّيْمُّمُ . عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَجُلًا

(١) أخرجه الطبري (أثر ٩٥٨١) .

(٢) صحيح : وله طرق ، أخرجه الطبري (٩٦٠٦) .

(٣) الطبري (٩٦١٧) بسند صحيح .

(٤) صحيح : أخرجه عبد بن حميد في المنتخب (٥٦٩) .

(٥) البخاري (٢١٤٤) ، ومسلم (١٥١٢) .

مُعْتَزِلًا لَمْ يُصَلِّ مَعَ الْقَوْمِ فَقَالَ : « يَا فُلَانُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ ، أَلَسْتَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ ؟ » قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَكِنْ أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ . قَالَ : « عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ »<sup>(١)</sup> ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ فَالْتِيَمُّ فِي اللُّغَةِ هُوَ : الْقَصْدُ ، تَقُولُ الْعَرَبُ تَيَمَّمْتُ اللَّهَ بِحِفْظِهِ أَيُّ : قَصَدْتُ ، وَالصَّعِيدُ ، قَيْلٌ : هُوَ كُلُّ مَا صُعِدَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ وَالرَّمْلُ وَالشَّجَرُ وَالْحَجَرُ وَالنَّبَاتُ وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ . وَقِيلَ : مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ التُّرَابِ كَالرَّمْلِ وَالزَّرْنِيخِ وَالنُّورَةِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَقِيلَ : هُوَ التُّرَابُ فَقَطْ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابِهِمَا ، وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَتَصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أَيُّ : تُرَابًا أَمْلَسَ طَيِّبًا ، وَبِمَا ثَبَتَ عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَضَلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُنَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ »<sup>(٢)</sup> ، وَفِي لَفْظٍ « وَجُعِلَ تُرَابُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ » قَالُوا : فَخَصَّصَ الطَّهُورِيَّةَ بِالتُّرَابِ فِي مَقَامِ الْإِمْتِنَانِ ، فَلَوْ كَانَ غَيْرُهُ يَقُومُ مَقَامَهُ لَذَكَرَهُ مَعَهُ . وَالطَّيِّبُ هَهُنَا قَيْلٌ : الْحَلَالُ ، وَقِيلَ : الَّذِي لَيْسَ بِنَجِسٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَاَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ التِّيَمُّ بَدَلٌ عَنِ الْوُضُوءِ فِي التَّطْهِيرِ بِهِ ، لَا أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْهُ فِي جَمِيعِ أَعْضَائِهِ ، بَلْ يَكْفِي مَسْحَ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ فَقَطْ بِالْإِجْمَاعِ ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي كَيْفِيَّةِ التِّيَمُّ عَلَى أَقْوَالٍ أَحَدُهَا : وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ فِي الْجَدِيدِ : أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْسَحَ الْوَجْهَ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، لِأَنَّ لَفْظَ الْيَدَيْنِ يَصُدَّقُ إِطْلَاقُهَا عَلَى مَا يَبْلُغُ الْمَتَكَيْنِ وَعَلَى مَا يَبْلُغُ الْمِرْفَقَيْنِ ، كَمَا فِي آيَةِ الْوُضُوءِ ، وَيُطْلَقُ وَيُرَادُ بِهِمَا مَا يَبْلُغُ الْكَفَّيْنِ ، كَمَا فِي آيَةِ السَّرْقَةِ ﴿ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ قَالُوا : وَحَمَلٌ مَا أُطْلِقَ هَهُنَا عَلَى مَا قِيْدٌ فِي آيَةِ الْوُضُوءِ أَوْلَى لِجَمَاعِ الطَّهُورِيَّةِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : إِنَّهُ يَجِبُ مَسْحُ الْوَجْهِ وَالْيَدَيْنِ إِلَى الْكَفَّيْنِ بِضَرْبَتَيْنِ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي الْقَدِيمِ . وَالثَّلَاثُ : أَنَّهُ يَكْفِي مَسْحَ الْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ .

(١) البخاري (حديث ٣٤٤).

(٢) مسلم (حديث ٥٢٢).

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ فَقَالَ: إِنِّي أَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدْ مَاءً فَقَالَ عُمَرُ: لَا تُصَلِّ، قَالَ عَمَّارٌ: أَمَا تَذْكُرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَنَا وَأَنْتَ فِي سَرِيَّةٍ فَأَجْنَبْنَا، فَلَمْ نَجِدْ مَاءً، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَكْتُ فِي التُّرَابِ فَصَلَّيْتُ فَلَمَّا أَتَيْتَنَا النَّبِيُّ ﷺ ذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ» وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ بِيَدِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا وَمَسَحَ بِهَا وَجْهَهُ وَكَفَّيهِ<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ شَقِيقٍ قَالَ: كُنْتُ قَاعِدًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي مُوسَى فَقَالَ أَبُو مُوسَى لِعَبْدِ اللَّهِ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ لَمْ يُصَلِّ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَا تَذْكُرُ مَا قَالَ عَمَّارٌ لِعُمَرَ: أَلَا تَذْكُرُ إِذْ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَإِيَّاكَ فِي إِبِلٍ، فَأَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ فَتَمَرَّغْتُ فِي التُّرَابِ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرْتُهُ فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ هَكَذَا» وَضَرَبَ بِكَفِّهِ إِلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ مَسَحَ كَفَّيهِ جَمِيعًا وَمَسَحَ وَجْهَهُ مَسْحَةً وَاحِدَةً بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: لَا جَرَمَ مَا رَأَيْتَ عُمَرَ قَنِعَ بِذَلِكَ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَبُو مُوسَى: فَكَيْفَ بِهِذِهِ الْآيَةِ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ قَالَ: فَمَا دَرَى عَبْدُ اللَّهِ مَا يَقُولُ، وَقَالَ: لَوْ رَخَّصْنَا لَهُمْ فِي التَّيَمُّمِ لَأَوْشَكَ أَحَدُهُمْ إِذَا بَرَدَ الْمَاءُ عَلَى جِلْدِهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ<sup>(٢)</sup>.

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أَيُّ: فِي الدِّينِ الَّذِي شَرَعَهُ لَكُمْ ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾، فَلِهَذَا أَبَاحَ لَكُمْ إِنْ لَمْ تَجِدُوا الْمَاءَ أَنْ تَعِدُّوا إِلَى التَّيَمُّمِ بِالصَّعِيدِ ﴿وَلِيَتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مَخْصُوصَةً بِمَشْرُوعِيَّةِ التَّيَمُّمِ دُونَ سَائِرِ الْأُمَمِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ - وَفِي لَفْظٍ: فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وَطَهُورُهُ - وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيَتْ

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٨).

(٢) انظر البخاري (٣٤٧)، ومسلم (٣٦٨).

الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ يُبْعَثُ النَّبِيُّ إِلَى قَوْمِهِ وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»<sup>(١)</sup> ، وَتَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ حُدَيْفَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ : جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَتُرْبَتُهَا طَهُورًا ، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»<sup>(٢)</sup> ، وَقَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا﴾ أَي : وَمِنْ عَفْوِهِ عَنْكُمْ وَغُفْرَانِهِ لَكُمْ أَنْ شَرَعَ لَكُمْ التَّيْمُمَ ، وَأَبَاحَ لَكُمْ فِعْلَ الصَّلَاةِ بِهِ ، إِذَا فَقَدْتُمُ الْمَاءَ تَوْسِعَةً عَلَيْكُمْ وَرُخْصَةً لَكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ فِيهَا تَنْزِيهُ الصَّلَاةِ أَنْ تَفْعَلَ عَلَى هَيْئَةٍ نَاقِصَةٍ مِنْ سُكْرٍ حَتَّى يَصْحُو الْمُكَلَّفُ وَيَعْقِلَ مَا يَقُولُ ، أَوْ جَنَابَةٍ حَتَّى يَغْتَسِلَ ، أَوْ حَدَثٍ حَتَّى يَتَوَضَّأَ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا أَوْ عَادِمًا لِلْمَاءِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَرْخَصَ فِي التَّيْمُمِ - وَالْحَالَةَ هَذِهِ - رَحْمَةً بِعِبَادِهِ ، وَرَأْفَةً بِهِمْ ، وَتَوْسِعَةً عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

### ذِكْرُ سَبَبِ نَزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيْمُمِ

وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا ذَلِكَ هَهُنَا لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ الَّتِي فِي النَّسَاءِ مُتَقَدِّمَةٌ النَّزُولِ عَلَى آيَةِ الْمَائِدَةِ وَبَيَانُهُ أَنَّ هَذِهِ نَزَلَتْ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ ، وَالْخَمْرُ إِنَّمَا حُرِّمَ بَعْدَ أَحَدِ بَيَسِيرٍ فِي مُحَاصِرَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِي النَّضِيرِ ، وَأَمَّا الْمَائِدَةُ فَإِنَّهَا مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ وَلَا سِيَّمَا صَدْرُهَا ، فَنَاسَبَ أَنْ يُذَكَّرَ السَّبَبُ هُنَا وَبِاللَّهِ الثِّقَّةُ .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أَنَّهَا اسْتَعَارَتْ مِنْ أَسْمَاءَ قِلَادَةً فَهَلَكَتْ ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رِجَالًا فِي طَلَبِهَا فَوَجَدُوهَا ، فَأَذْرَكْتَهُمُ الصَّلَاةَ وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَصَلَّوْهَا بِغَيْرِ وُضُوءٍ ، فَشَكَّوْا ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ . فَقَالَ أَسِيدُ بْنُ الْحَضِيرِ لِعَائِشَةَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَوَاللَّهِ مَا نَزَلَ بِكَ أَمْرٌ تَكْرَهِيْنَهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ لِكَ وَالْمُسْلِمِينَ فِيهِ خَيْرًا<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْهَا أَيْضًا قَالَتْ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، حَتَّى إِذَا كُنَّا

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٥)، ومسلم (حديث ٥٢١).

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٦)، ومسلم عقب حديث (٣٦٧).

بِالْبَيْدَاءِ أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ ، انْقَطَعَ عِقْدِي ، فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى التَّمَاسِهِ وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ، فَاتَى النَّاسَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا : أَلَا تَرَى مَا صَنَعَتْ عَائِشَةُ أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِالنَّاسِ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاضْعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ ، فَقَالَ : حَبَسَتْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ، وَجَعَلَ يَطْعَنُ بِيَدِهِ فِي خَاصِرَتِي ، وَلَا يَمْنَعَنِي مِنَ التَّحْرُكِ إِلَّا مَكَانَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى فَخِذِي ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ حِينَ أَصْبَحَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّمِيمِ فَتِيمَّمُوا . فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحُضَيْرِ : مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ . قَالَتْ : فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ<sup>(١)</sup> .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿١٢﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعَّنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٣﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَنَّهُمْ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى ، وَيُعْرِضُونَ عَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ ، وَيَتْرَكُونَ مَا بَأْيَدِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ أَي : يَوَدُّونَ لَوْ تَكْفَرُونَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَتْرَكُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ النَّافِعِ . ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ ﴾ أَي : هُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ وَمَحْدَرُكُمْ مِنْهُمْ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ أَي : كَفَى بِهِ وَلِيًّا لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ وَنَصِيرًا لِمَنْ اسْتَنْصَرَهُ .

(١) أخرجه البخاري (حديث ٣٣٤) ، ومسلم (حديث ٣٦٧) .



ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ « مَنْ » هَذِهِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا  
الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ أَي : يَتَأَوَّلُونَ الْكَلِمَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ،  
وَيُفَسِّرُونَهُ بِغَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ ﷻ قَصْدًا مِنْهُمْ وَافْتِرَاءً ﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أَي  
يَقُولُونَ : سَمِعْنَا مَا قُلْتَهُ يَا مُحَمَّدٌ وَلَا نَطِيعُكَ فِيهِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ ، وَهَذَا أُبْلَغُ فِي  
كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَأَتَمُّهُمْ يَتَوَلَّوْنَ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ بَعْدَ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَا عَلَيْهِمْ  
فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ ، وَقَوْلُهُمْ ﴿ وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ﴾ أَي : اسْمَعْ مَا نَقُولُ لَا  
سَمِعْتَ . قَالَهُ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : وَاسْمَعْ غَيْرَ مَقْبُولٍ مِنْكَ . قَالَ ابْنُ  
جَرِيرٍ : وَالْأَوَّلُ أَصْحَحُ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَهَذَا اسْتِهْزَاءٌ مِنْهُمْ وَاسْتِهْزَاءٌ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ  
اللَّهِ ﴿ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾ أَي : يُوهِمُونَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : رَاعِنَا  
سَمِعَكَ بِقَوْلِهِمْ : رَاعِنَا ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ الرُّعُونَةَ بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى  
هَذَا عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ،  
وَهَذَا قَالَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِكَلَامِهِمْ خِلَافَ مَا يُظْهِرُونَهُ لَيًّا  
بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، يَعْنِي بِسَبِّهِمُ النَّبِيِّ ﷺ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ  
وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَي : قُلُوبُهُمْ مَطْرُودَةٌ عَنِ الْخَيْرِ  
مُبْعَدَةٌ مِنْهُ فَلَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْإِيمَانِ شَيْءٌ نَافِعٌ لَهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى :  
﴿ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِيْمَانًا نَافِعًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ  
نَّظْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ  
وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا أَهْلَ الْكِتَابِ بِالْإِيمَانِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ

الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ تَصْدِيقُ الْأَخْبَارِ الَّتِي بَأْيَدِيهِمْ مِنَ الْبَشَارَاتِ وَمُتَهَدِّدًا هُمْ  
 إِنْ لَمْ يَفْعَلُوا بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ قَبَلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ:  
 مَعْنَاهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا ، فَطْمَسُهَا هُوَ رُدُّهَا إِلَى الْأَدْبَارِ ، وَجَعَلَ  
 أَبْصَارِهِمْ مِنْ وَرَائِهِمْ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَلَا  
 يَبْقَى لَهَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا أَثَرٌ وَمَعَ ذَلِكَ نَرُدُّهَا إِلَى نَاحِيَةِ الْأَدْبَارِ . ﴿فَنَرُدُّهَا عَلَىٰ  
 أَدْبَارِهَا﴾ يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ : نَجْعَلُ وُجُوهَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَقْفِيَّتِهِمْ فَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى  
 وَنَجْعَلُ لِأَحَدِهِمْ عَيْنَيْنِ مِنْ قَفَاهُ ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْعُقُوبَةِ وَالنِّكَالِ ، وَهَذَا مِثْلُ  
 ضَرْبِهِ اللَّهُ لَهُمْ فِي صَرْفِهِمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَرَدَّهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَرُجُوعِهِمْ عَنِ الْمَحَجَّةِ  
 الْبَيْضَاءِ إِلَى سَبِيلِ الضَّلَالَةِ ، يُرْعَوْنَ وَيَمْسُونَ الْقَهْقَرَى عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَهَذَا كَمَا  
 قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ  
 مُقْمَحُونَ﴾ ٨٠ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا  
 يُبْصِرُونَ﴾ [يس : ٨] . أَي : هَذَا مِثْلُ سُوءِ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَمَنْعِهِمْ عَنِ  
 الْهُدَى . قَالَ مُجَاهِدٌ : ﴿مَنْ قَبَلَ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ يَقُولُ : عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ ﴿فَنَرُدُّهَا  
 عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ أَي : فِي الضَّلَالَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ النَّبْتِ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ اعْتَدَوْا فِي سَبْتِهِمْ  
 بِالْحِيلَةِ عَلَى الْإِصْطِيَادِ ، وَقَدْ مَسَّحُوا قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ ، وَسَيَّاتِي بَسَطَ قِصَّتَهُمْ فِي  
 ((سُورَةِ الْأَعْرَافِ)) . ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أَي : إِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ فَإِنَّهُ لَا يُخَالَفُ وَلَا  
 يُمَانَعُ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ﴿لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ أَي : لَا يَغْفِرُ لِعَبْدٍ لَقِيَهُ وَهُوَ  
 مُشْرِكٌ بِهِ ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَي : مِنَ الذُّنُوبِ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَي : مِنْ عِبَادِهِ .

وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فَلَنْذَكُرُ مِنْهَا مَا تيسَّرَ .

عَنِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : ((مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ  
 ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ)) قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : ((وَإِنْ زَنَى  
 وَإِنْ سَرَقَ)) قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ ؟ قَالَ : ((وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ)) ثَلَاثًا . ثُمَّ  
 قَالَ فِي الرَّابِعَةِ : ((عَلَى رَغَمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ)) قَالَ فَخَرَجَ أَبُو ذَرٍّ وَهُوَ يَجُرُّ إِزَارَهُ وَهُوَ  
 يَقُولُ : وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ بِهَذَا بَعْدُ وَيَقُولُ : وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ

أبي ذر<sup>(١)</sup>.

وَعَنْهُ أَيضًا ﷺ قَالَ : كُنْتُ أُمْسِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ عِشَاءً وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَى أَحَدٍ فَقَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ » قُلْتُ : لَيْتَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « مَا أَحَبُّ أَنْ لِي أَحَدًا ذَاكَ عِنْدِي ذَهَبًا ، أُمْسِي ثَالِثَةً وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إِلَّا دِينَارًا أَرْصُدُهُ » يَعْنِي : لِدَيْنٍ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا ، فَحَثًّا عَنْ يَمِينِهِ ، وَعَنْ يَسَارِهِ ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَشِينَا فَقَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقْلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا » فَحَثًّا عَنْ يَمِينِهِ وَمَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَعَنْ يَسَارِهِ ، قَالَ : ثُمَّ مَشِينَا ، فَقَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ كَمَا أَنْتَ حَتَّى آتَيْكَ » قَالَ : فَانْطَلَقَ حَتَّى تَوَارَى عَنِّي قَالَ : فَسَمِعْتُ لَغَطًا فَقُلْتُ لَعَلَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَرَضَ لَهُ ، قَالَ : فَهَمَمْتُ أَنْ أَتْبَعَهُ ، قَالَ : فَذَكَرْتُ قَوْلَهُ : « لَا تَبْرُحْ حَتَّى آتَيْكَ » فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى جَاءَ فَذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي سَمِعْتُ فَقَالَ : « ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَانِي ، فَقَالَ : مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » قُلْتُ : وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ قَالَ : « وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ »<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ ضَمْضَمِ بْنِ جَوْسِ الْيَمَامِيِّ قَالَ : قَالَ لِي أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا يَمَامِيُّ لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ أَبَدًا . قُلْتُ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّ هَذِهِ كَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِأَخِيهِ وَصَاحِبِهِ إِذَا غَضِبَ ، قَالَ : لَا تَقُلْهَا ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ ، أَحَدُهُمَا : مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ ، وَكَانَ الْآخَرُ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَا مُتَاخِضَيْنِ ، وَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لَا يَزَالُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، فَيَقُولُ : يَا هَذَا ، أَقْصِرْ فَيَقُولُ : خَلَّنِي وَرَبِّي أَبْعَثَ عَلَيَّ رَقِيبًا ، إِلَى أَنْ رَأَاهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ اسْتَعْظَمَهُ ، فَقَالَ لَهُ : وَيْحَكَ أَقْصِرْ . قَالَ : خَلَّنِي وَرَبِّي أَبْعَثَ عَلَيَّ رَقِيبًا ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا ، قَالَ : فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِمَا مَلَكًا فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا ، وَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ ، فَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : إِذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ لِلْآخَرِ : أَكُنْتَ عَالِمًا ، أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي فَادِرًا ، إِذْهَبُوا بِهِ إِلَى

(١) البخاري (حديث ٥٨٢٧) ، ومسلم (حديث ٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٦٨) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة (حديث ٩٤) .

النَّارِ ، قَالَ : وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي الْقَاسِمِ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»<sup>(١)</sup> .  
 وَهَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ « تَنْزِيل » مَشْرُوطَةٌ بِالتَّوْبَةِ فَمَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ  
 وَإِنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ  
 لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [ الزمر : ٥٣ ] أَيُّ : بِشَرْطِ  
 التَّوْبَةِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَدَخَلَ الشَّرْكَ فِيهِ ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ حَكَمَ  
 هَهُنَا بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشَّرْكَ ، وَحَكَمَ بِأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا عَدَاهُ لِمَنْ يَشَاءُ ، أَيُّ : وَإِنْ لَمْ يَتَّبِ  
 صَاحِبَهُ فَهَذِهِ أَرْجَىٰ مِنْ تِلْكَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ  
 عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : ١٣ ] ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ : يَا  
 رَسُولَ اللَّهِ . أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : « أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ »<sup>(٢)</sup> .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ ۗ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ  
 فَتِيلًا ﴿١٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾  
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنُوتِ  
 وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ  
 الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٢٢﴾

عَنِ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ قَالَ : أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَخْتَوِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَاحِينَ  
 التُّرَابَ<sup>(٣)</sup> . وَعَنْ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يُنْبِي عَلَى رَجُلٍ فَقَالَ :  
 « وَيَمُكَّ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ » ثُمَّ قَالَ : « إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا  
 مَحَالَةَ ، فَلْيَقُلْ أَحْسَبُهُ كَذًّا ، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا »<sup>(٤)</sup> .

وَسَيَاتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُطَوَّلًا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَا تُرْكُوا أَنفُسَكُمْ ۗ هُوَ أَعْلَمُ

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠١) بسند حسن .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) .

(٤) البخاري (حديث ٢٦٦٢) ، ومسلم (حديث ٣٠٠٠) .

بِمَنْ أَتَقَى ﴿ [النجم: ٣٢] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يُرِيكِي مَن يَشَاءُ ﴾ أَي : الْمَرْجِعُ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ﷻ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِحَقَائِقِ الْأُمُورِ وَغَوَامِضِهَا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ أَي : وَلَا يُتْرَكُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَجْرِ مَا يُوزَنُ مِقْدَارَ الْفَتِيلِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : هُوَ مَا يَكُونُ فِي شَقِّ النَّوَاةِ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مَا فَتَلَتْ بَيْنَ أَصَابِعِكَ ، وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ مُتَقَارِبٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْظَرَ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ أَي : فِي تَزَكِيَّتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى ﴾ [البقرة: ١١١] ، وَقَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠] ، وَاتِّكَاثُهُمْ عَلَى أَعْمَالِ آبَائِهِمُ الصَّالِحَةِ ، وَقَدْ حَكَّمَ اللَّهُ أَنَّ أَعْمَالَ الْآبَاءِ لَا تَحْزِي عَنِ الْآبَاءِ شَيْئًا فِي قَوْلِهِ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤] ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكَفَى بِهِمَ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ، أَي : وَكَفَى بِصَنِيعِهِمْ هَذَا كَذِبًا وَافْتِرَاءً ظَاهِرًا ، وَقَوْلُهُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : الْجِبْتُ : السَّحْرُ ، وَالطَّاغُوتُ : الشَّيْطَانُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْجِبْتُ : الشَّيْطَانُ ، وَقِيلَ : الْأَصْنَافُ ، وَقِيلَ : الْكَاهِنُ ، وَقِيلَ : حَيِّيُّ بْنُ أَحْطَبٍ ، وَقِيلَ : كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ . وَقَالَ الْعَلَّامَةُ أَبُو نَصْرِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ حَمَّادِ الْجَوْهَرِيِّ فِي كِتَابِهِ الصَّحَاحِ : الْجِبْتُ : كَلِمَةٌ تَقَعُ عَلَى الصَّنَمِ ، وَالْكَاهِنِ ، وَالسَّاحِرِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الطَّاغُوتُ : الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ إِنْسَانٍ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ صَاحِبُ أَمْرِهِمْ ، وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ : هُوَ كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّولَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ أَي : يُفَضِّلُونَ الْكُفَّارَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِجَهْلِهِمْ وَقَلَّةِ دِينِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ قَالَتْ قُرَيْشٌ : أَلَا تَرَى هَذَا الصُّنْبُورَ الْمُنْبَرَّ مِنْ قَوْمِهِ يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا ، وَنَحْنُ أَهْلُ الْحَجِيجِ ، وَأَهْلُ السَّدَانَةِ ، وَأَهْلُ السَّقَايَةِ . قَالَ : أَنْتُمْ خَيْرٌ . قَالَ : فَتَنَزَلْتُ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ، وَنَزَلَ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ إِلَى ﴿ نَصِيرًا ﴾ [ آل عمران : ٢٣ ] .  
 وَهَذَا لَعْنُ هُمْ ، وَإِخْبَارٌ بِأَتَمِّهِمْ لَا نَاصِرَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا  
 ذَهَبُوا يَسْتَنْصِرُونَ بِالْمُشْرِكِينَ ، وَإِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ ذَلِكَ لِيَسْتَمِيلُوهُمْ إِلَى نُصْرَتِهِمْ وَقَدْ  
 أَجَابُوهُمْ وَجَاءُوا مَعَهُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ، حَتَّى حَفَرَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَأَصْحَابُهُ حَوْلَ  
 الْمَدِينَةِ الْحَنْدَقِ ، فَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُمْ ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾  
 وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿ [ الأحزاب : ٢٥ ]

أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٦﴾ أَمْ تَحْسُدُونَ  
 النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ  
 وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٧﴾ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ  
 عَنْهُ وَكَفَىٰ نُجْحَهُمْ سَعِيرًا ﴿٥٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِنْفَهُامُ انْكَارٍ ، أَي : لَيْسَ  
 لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ ، ثُمَّ وَصَفَهُمُ بِالْبُخْلِ فَقَالَ : ﴿ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾  
 أَي : لِأَنََّّهُمْ لَوْ كَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْمَلِكِ وَالتَّصَرَّفَ لَمَا أَعْطَوْا أَحَدًا مِّنَ النَّاسِ ، وَلَا  
 سِيًّا مُحَمَّدًا ﷺ شَيْئًا ، وَلَا مَا يَمْلَأُ النَّقِيرَ ، وَهُوَ النُّقْطَةُ الَّتِي فِي النَّوَاةِ فِي قَوْلِ ابْنِ  
 عَبَّاسٍ وَالْأَكْثَرِينَ . وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ  
 رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [ الإسراء : ١٠٠ ] أَي : خَوْفَ أَنْ يَذْهَبَ مَا بِأَيْدِكُمْ  
 مَعَ أَنَّهُ لَا يُتَصَوَّرُ نَفَادُهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ بُخْلِكُمْ وَشَحْكِكُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ  
 الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أَي : بَخِيلًا .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ  
 حَسَدُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النَّبُوءَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمَنْعَهُمْ مِنْ تَصْدِيقِهِمْ إِيَّاهُ  
 حَسَدُهُمْ لَهُ لِكُونِهِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِءٍ ﴾ أَي :  
 بِهَذَا الْإِيْتَاءِ وَهَذَا الْإِنْعَامِ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ أَي : كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ،

وَسَعَى فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ ، وَهُوَ مِنْهُمْ وَمِنْ جِنْسِهِمْ ، أَيُّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَقَدِ  
 اخْتَلَفُوا عَلَيْهِمْ ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدٌ وَلَسْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ . وَقَالَ آخَرُونَ :  
 ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ ﴾ أَيُّ : بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ﴾ فَالْكَفْرَةُ مِنْهُمْ أَشَدُّ  
 تَكْذِيبًا لَكَ وَأَبْعَدُ عَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ الْمُبِينِ ، وَهَذَا قَالَ مُتَوَعِّدًا لَهُمْ :  
 ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ أَيُّ : وَكَفَىٰ بِالنَّارِ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ  
 كُتِبَ اللَّهُ وَرُسُلِهِ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ  
 بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥١﴾  
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا يُعَاقَبُ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ مَنْ كَفَرَ بِآيَاتِهِ وَصَدَّ عَنْ رُسُلِهِ فَقَالَ : ﴿ إِنَّ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا ﴾ الْآيَةُ ، أَيُّ : نُدْخِلُهُمْ فِيهَا دُخُولًا يُحِيطُ  
 بِجَمِيعِ أَجْرَامِهِمْ وَأَجْزَائِهِمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ دَوَامِ عُقُوبَتِهِمْ وَنَكَالِهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ كَلَّمًا  
 نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا  
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هَذَا  
 إِخْبَارٌ عَنْ مَالِ السُّعْدَاءِ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْأَنْهَارُ فِي جَمِيعِ فِجَاجِهَا  
 وَمَحَالِّهَا وَأَرْجَائِهَا ، حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ أَرَادُوا ، وَهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحْوَلُونَ  
 وَلَا يَزُولُونَ وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أَيُّ : مِنَ الْخَيْضِ وَالنَّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ  
 الرَّذِيلَةِ وَالصِّفَاتِ النَّاقِصَةِ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْبَوْلِ وَالْخَيْضِ  
 وَالنُّخَامِ وَالْبِرَاقِ وَالْمَنِيِّ وَالْوَلَدِ . وَقَالَ آخَرُونَ : مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَذَى وَالْمَلَائِمِ وَلَا  
 حَيْضَ وَلَا كَلْفَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ أَيُّ : ظِلًّا عَمِيقًا كَثِيرًا غَزِيرًا طَيِّبًا أُنِيقًا . عَنْ أَبِي

هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجْرَةً يَسِيرُ الرَّاِكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا » - شَجْرَةُ الْخُلْدِ . .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾

يُنْبِئُ تَعَالَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . وَهُوَ يَعِظُ جَمِيعَ الْأَمَانَاتِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ ﷻ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْكَفَّارَاتِ وَالنُّدُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُؤْتَمِّنٌ عَلَيْهِ ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ الْعِبَادُ وَمِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَالْوَدَائِعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُؤْتَمِّنُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ إِطْلَاعِ بَيِّنَةٍ عَلَى ذَلِكَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ ﷻ بِأَدَائِهَا ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا أَخَذَ مِنْهُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوقُ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، حَتَّىٰ يُفْتَضَّ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْنَاءِ » (١) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أَي : يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ ، وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوْامِرِهِ وَشَرَائِعِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّامِلَةِ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ أَي : سَمِيعًا لِأَقْوَالِكُمْ بَصِيرًا بِأَفْعَالِكُمْ .  
قَرَأَ أَبُو هُرَيْرَةَ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، وَيَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى عَيْنِهِ وَيَقُولُ : هَكَذَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا وَيَضَعُ أُصْبُعِيهِ (٢) .

يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) أخرج ذلك البخاري (٣٢٥١) ، ومسلم (٢٨٢٦) وليس عندهما (شجرة الخلد) .

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٤) .

(٣) أخرجه أبو داود بسند صحيح (٤٧٢٨) ، وابن خزيمة في التوحيد (ص ٤٣) .



## ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥١﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(١)</sup> ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قَالَ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَرِيَّةٍ .  
 وَعَنْ عَلِيِّ قَالَ <sup>(٢)</sup> : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَرِيَّةً وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَمَّا خَرَجُوا وَجَدَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ : أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَكُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُطِيعُونِي ؟ قَالُوا بَلَى . قَالَ : فَاجْمَعُوا لِي حَطْبًا . ثُمَّ دَعَا بِنَارٍ فَأَضْرَمَهَا فِيهَا ، ثُمَّ قَالَ : عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَتَدْخُلَنَّهَا . قَالَ : فَقَالَ لَهُمْ شَابٌّ مِنْهُمْ إِنَّمَا فَرَرْتُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ النَّارِ فَلَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَلْقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَإِنْ أَمَرَكُمُ أَنْ تَدْخُلُوهَا فَادْخُلُوهَا ، قَالَ : فَارْجِعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبِرُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : « لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدًا ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيهَا أَحَبُّ وَكَرَهُ ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ » <sup>(٣)</sup> .  
 وَعَنْ عَبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ : بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَشْطِنًا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا ، وَآثَرَةَ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ قَالَ : « إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ » <sup>(٤)</sup> .

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَانَ رَأْسُهُ زَبِيئَةً » <sup>(٥)</sup> .

وَعَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ أُمَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ : « وَلَوْ اسْتَعْمَلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُوذُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ اسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا » رَوَاهُ مُسْلِمٌ <sup>(٦)</sup> ، وَفِي

(١) أخرجه البخاري (٤٥٨٤) ، ومسلم (١٨٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٧١٤٥) ، ومسلم (١٨٤٠) .

(٣) البخاري (٢٩٥٥) ، ومسلم (١٨٣٩) .

(٤) البخاري (حديث ٧٠٥٥ ، ٧٠٥٦) ، ومسلم (١٧٠٩) .

(٥) البخاري (حديث ٦٩٣) .

(٦) مسلم (حديث ١٢٩٨) .

لَفْظٍ لَهُ: ((عَبْدًا حَبِشِيًّا مَجْدُوعًا)).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيُكْفَرُونَ)) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: ((أَوْفُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَلِأَوَّلٍ، وَأَعْطُوهُمْ حَقَّهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ))<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ((مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَكَرَهُهُ، فَلْيُضْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةِ لِقِيَّيَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً))<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ رَبِّ الْكَعْبَةِ قَالَ<sup>(٤)</sup>: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَأَتَيْتُهُمْ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ فَتَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصَلِّحُ خِבَاءَهُ وَمِنَّا مَنْ يَتَّصِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشْرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: ((إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ؛ وَيُنذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ جُعِلَتْ عَافِيَتَهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ وَأُمُورٌ يُنْكَرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنٌ يُرْفَقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُرْزَخَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مِئِيتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمْرَةَ فُؤَادِهِ، فَلْيَطِيعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخِرٌ يُنَازِعُهُ فَأَضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ)) قَالَ فَذَنَبْتُ مِنْهُ فَقُلْتُ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ أَنَّكَ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥١).

(٤) مسلم (حديث ١٨٤٤).

سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَأَهْوَى إِلَى أذُنَيْهِ وَقَلْبِهِ بِيَدَيْهِ وَقَالَ: سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ وَوَعَاةَ قَلْبِي، فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا ابْنُ عَمِّكَ مُعَاوِيَةُ يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَنَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ قَالَ: فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: أَطَعَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَاعْصَاهُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ.

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ الْفِقْهِ وَالِدِينَ، وَقَالَ آخَرُونَ: يَعْنِي: الْعُلَمَاءَ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ أُولَى الْأَمْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْعُلَمَاءِ، كَمَا تَقَدَّمَ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَابُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ الشُّحْتَ﴾ [المائدة: ٦٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَا اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَانِي»<sup>(١)</sup>، فَهَذِهِ أَوَامِرُ بِطَاعَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَمْرَاءِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أَي: اتَّبِعُوا كِتَابَهُ ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ أَي: خُذُوا بِسُنَّتِهِ ﴿وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ أَي: فِيمَا أَمْرُكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَا فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِخَلْقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: أَي: إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ. وَهَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ بِأَنْ كُلَّ شَيْءٍ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ أَنْ يَرُدَّ التَّنَازُعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، فَمَا حَكَمَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَشَهِدَا لَهُ بِالصَّحَّةِ فَهُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أَي: رُدُّوا الْخُصُومَاتِ وَالْجَهَالَاتِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَتَحَاكَمُوا إِلَيْهِمَا فِيمَا شَجَرَ بَيْنَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧١٣٧)، ومسلم (١٨٣٥).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿ فَذَلَّ عَلَىٰ أَنْ مَنْ لَمْ يَتَحَاكَمْ فِي مَحَلِّ النِّزَاعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا يَرْجِعَ إِلَيْهِمَا فِي ذَلِكَ ، فَلَيْسَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ أَي : التَّحَاكُمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِمَا فِي فَضْلِ النِّزَاعِ ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أَي : وَأَحْسَنُ عَاقِبَةً وَمَآلًا ، وَقِيلَ : أَحْسَنُ جَزَاءً ، وَهُوَ قَرِيبٌ .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿١٦٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ تَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿١٦٣﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿١٦٤﴾

هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يَتَحَاكَمْ فِي فَضْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَالآيَةُ عَامَّةٌ ، فَإِنَّهَا دَامَةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّغُوتِ هَا هُنَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ ﴾ إِلَى آخِرِهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ أَي : يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءِآبَاءَنَا ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذِمِّ الْمُنَافِقِينَ : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أَي : فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَأَفَتْهُمْ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبِ تَطَرَّقَتْ لَهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ

وَاحْتَاَجُوا إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ ﴿ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾  
 أَي : يَعْتَدِرُونَ إِلَيْكَ وَيَخْلِفُونَ مَا أَرَدْنَا بِذَهَابِنَا إِلَى غَيْرِكَ وَتَحَاكُمُنَا إِلَى أَعْدَائِكَ إِلَّا  
 الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ ، أَي : الْمُدَارَاةَ وَالْمُصَانَعَةَ لَا اعْتِقَادًا مِنَّا صِحَّةَ تِلْكَ الْحُكُومَةِ ،  
 كَمَا أَخْبَرَنَا تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ  
 يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ - إِلَى

قَوْلُهُ - ﴿ فَيُضِبحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴾ [ المائدة : ٥٢ ]

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ هَذَا الضَّرْبُ مِنَ  
 النَّاسِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا  
 تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، فَانْتَبِ بِهِ يَا مُحَمَّدٌ فِيهِمْ ، فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِظَوَاهِرِهِمْ وَبَوَاطِنِهِمْ ، وَهَذَا  
 قَالَ لَهُ : ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴾ أَي : لَا تُعْنَتُهُمْ عَلَى مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ وَعَظَّمَهُمْ ﴾ أَي :  
 وَانْتَهَمَهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ وَسَرَائِرِ الشَّرِّ ﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾  
 أَي : وَانصَحَهُمْ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ بِكَلَامٍ بَلِيغٍ رَادِعٍ لَهُمْ .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا  
 أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا  
 رَّحِيمًا ﴿ ١٤ ﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ  
 لَا يَتَّخِذُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَاسْلَمُوا تَسْلِيمًا ﴿ ١٥ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ ﴾ أَي : فُرِضَتْ طَاعَتُهُ عَلَى مَنْ  
 أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : أَي : لَا يُطِيعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِي ،  
 يَعْنِي : لَا يُطِيعُهُمْ إِلَّا مَنْ وَفَّقْتَهُ لِدَلِّكَ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ  
 تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ [ آل عمران : ١٥٢ ] أَي : عَنْ أَمْرِهِ وَقَدْرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَسْلِيطِهِ  
 إِيَّاكُمْ عَلَيْهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ  
 الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ الْآيَةُ ، يُرِيدُ تَعَالَى الْعُصَاةَ وَالْمُذْنِبِينَ إِذَا وَقَعَ

مِنْهُمْ الْخَطَأُ وَالْعِضْيَانُ أَنْ يَأْتُوا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ فَيَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ عِنْدَهُ ، وَيَسْأَلُوهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَحِمَهُمْ وَعَفَرَ لَهُمْ ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَوْ جَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ يُقْسِمُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْمُقَدَّسَةِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ حَتَّى يُحَكِّمَ الرَّسُولَ ﷺ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ ، فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الْإِنْقِيَادُ لَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَتُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أَي : إِذَا حَكَّمُوكَ يُطِيعُونَكَ فِي بَوَاطِنِهِمْ ، فَلَا يَجِدُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَّمْتَ بِهِ ، وَيَتَقَادُونَ لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، فَيُسَلِّمُونَ لِذَلِكَ تَسْلِيمًا كَلِيمًا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُنَازَعَةٍ .

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَنَّهُ خَاصَمَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي شِرَاجٍ فِي الْحَرَّةِ ، كَانَا يَسْقِيَانِ بِهِ كِلَاهُمَا النَّخْلَ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : سَرَّحَ الْمَاءَ يَمُرُّ ، فَأَبَى عَلَيْهِ الزُّبَيْرُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ » فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ ، وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ ؟ فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ : « اسْقِ يَا زُبَيْرُ ، ثُمَّ احْسِبِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجُدْرِ » وَاسْتَوْعَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ ذَلِكَ أَشَارَ عَلَى الزُّبَيْرِ بِرَأْيِ أَرَادَ فِيهِ السَّعَةَ لَهُ وَلِلْأَنْصَارِيِّ ، فَلَمَّا أَحْفَظَ الْأَنْصَارِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَوْعَى لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ ، فَقَالَ الزُّبَيْرُ : مَا أَحْسَبُ هَذِهِ الْآيَةَ إِلَّا فِي ذَلِكَ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَتُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١١) .

وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿١١﴾ وَإِذَا لَا تَتَيْنَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٢﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

﴿٣٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٣٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ أَكْثَرِ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَوْ أَمَرُوا بِمَا هُمْ مُرْتَكِبُونَ مِنَ الْمُنَاهِي لَمَا فَعَلُوهُ ، لِأَنَّ طِبَاعَهُمُ الرَّدِيئَةَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا مِنْ عِلْمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمَا لَمْ يَكُنْ ، أَوْ كَانَ فَكَيْفَ كَانَ يَكُونُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أَي : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ وَتَرَكُوا مَا يُنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أَي : مِنْ مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ وَارْتِكَابِ النَّهْيِ ﴿ وَأَشَدَّ تَثِيئًا ﴾ أَي : وَأَشَدَّ تَصَدِيقًا ﴿ وَإِذَا لَا تَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أَي : مِنْ عِنْدِنَا ﴿ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ ، ﴿ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ وَتَرَكَ مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدِهِمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمْ الصَّدِيقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ الصَّالِحُونَ الَّذِينَ صَلَحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلَانِيَتُهُمْ ، ثُمَّ أَتَى عَلَيْهِمْ تَعَالَى فَقَالَ : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرُضُ إِلَّا خَيْرٌ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّتِي قَبِضَ فِيهَا أَخَذَتْهُ بَحَّةٌ شَدِيدَةٌ ، فَسَمِعَتْهُ يَقُولُ : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ (١) ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خَيْرٌ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ : « اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى » (٢) ثَلَاثًا ، ثُمَّ قَضَى . عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ .

وَعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَبِيتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَاتَيْتُهُ بِوَضُوءِهِ وَحَاجَّتِهِ فَقَالَ لِي : « سَلْ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي

(١) البخاري (٤٥٨٦) ، ومسلم (٢٤٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم عقب حديث (٢٤٤٤) .

الْجَنَّةِ ، فَقَالَ : « أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ » قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : « فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » (١) . وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا كُلَّهُ بَشَارَةٌ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ عَنِ الرَّجُلِ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ فَقَالَ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » (٢) قَالَ أَنَسٌ : فَمَا فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ : إِنِّي لِأَحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَحِبُّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثَنِي مَعَهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ كَعَمَلِهِمْ .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ أَهَلَ الْجَنَّةَ لَيَّرَاءُونَ أَهْلَ الْعُرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَرَاءُونَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ » (٣) .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أَي : مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِرَحْمَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي أَهْلَهُمْ لِذَلِكَ لَا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أَي : هُوَ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ وَالتَّوْفِيقَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٦١﴾  
 وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٦٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٤﴾

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحِذْرِ مِنْ عَدُوِّهِمْ وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّأَهُبُ هُمْ بِإِعْدَادِ الْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ وَتَكْثِيرِ الْعُدَدِ بِالنَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ ثُبَاتٍ ﴾ أَي : جَمَاعَةٌ بَعْدَ

(١) أخرجه مسلم (حديث ٤٨٩) .

(٢) صحيح : أخرجه البخاري (حديث ٦١٦٨) ، ومسلم (حديث ٢٦٤٠) ، وله طرق عن رسول الله ﷺ .

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .



جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٌ بَعْدَ فِرْقَةٍ، وَسَرِيَّةٌ بَعْدَ سَرِيَّةٍ، وَالثَّبَاتُ: جَمْعُ ثُبَّةٍ، وَقَدْ تَجْمَعُ الثُّبَةُ عَلَى ثُبَيْنٍ .  
 قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أَي: عَضْبًا، يَعْنِي سَرَايَا مُتَفَرِّقِينَ ﴿أَوْ  
 أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ يَعْنِي: كُلُّكُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْتَئِنَّ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: نَزَلَتْ فِي  
 الْمُنَافِقِينَ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانٍ: ﴿لِيُبْتَئِنَّ﴾ أَي: لِيَتَخَلَّفْنَ عَنِ الْجِهَادِ، وَيُحْتَمَلُ  
 أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ هُوَ فِي نَفْسِهِ، وَيُبْطِئُ غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ، كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ  
 أَبِي سَلُولٍ - قَبْحَهُ اللَّهُ - يَفْعَلُ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيُبْطِئُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ فِيهِ،  
 وَهَذَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمُنَافِقِ أَنَّهُ يَقُولُ إِذَا تَأَخَّرَ عَنِ الْجِهَادِ ﴿فَإِنَّ أَصْبَتَكُمْ  
 مُصِيبَةً﴾ أَي: قَتَلَ وَشَهَادَةٌ وَعُغْلِبَ الْعَدُوُّ لَكُمْ لِمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿قَالَ قَدْ  
 أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أَي: إِذْ لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ وَقَعَةَ الْقِتَالِ، يُعَدُّ ذَلِكَ  
 مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنَ الْأَجْرِ فِي الصَّبْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ إِنْ قُتِلَ . ﴿وَلَيْنَ  
 أَصْبَحْتُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: نَصْرٌ وَظَفْرٌ وَغَنِيمَةٌ ﴿لِيَقُولَنَّ كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ  
 مَوَدَّةٌ﴾ أَي: كَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ ﴿يَلِيَّتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾  
 أَي: بِأَنْ يُضْرَبَ لِي بِسَهْمٍ مَعَهُمْ فَأَحْضُلُ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَكْبَرُ قَصْدِهِ وَغَايَةُ مُرَادِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ﴾ أَي: الْمُؤْمِنُ النَّافِرُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ  
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ أَي: يَبِيعُونَ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا  
 لِكُفْرِهِمْ وَعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يُغْلَبْ  
 فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أَي: كُلُّ مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَوَاءً قُتِلَ أَوْ غَلِبَ فَلَهُ  
 عِنْدَ اللَّهِ مَثُوبَةٌ عَظِيمَةٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup>، وَتَكَفَّلَ اللَّهُ  
 لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ إِنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ يُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ  
 نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ  
 وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ

(١) انظر البخاري (٣١٢٣)، ومسلم (١٨٧٦).

لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يُحْرَضُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَعَلَى السَّعْيِ فِي اسْتِنْقَادِ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ الْمُتَبَرِّمِينَ مِنَ الْمَقَامِ بِهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ﴾ يَعْنِي : مَكَّةَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ ﴾ [ محمد : ١٣ ] ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ أَي : سَخِّرْ لَنَا مِنْ عِنْدِكَ وَلِيًّا نَاصِرًا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ .

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِمَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ﴾ أَي : الْمُؤْمِنُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ ، وَالْكَافِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ هَيَّجَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ الْآيَةَ .

كَانَ الْمُؤْمِنُونَ فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ وَهُمْ بِمَكَّةَ مَأْمُورِينَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ ذَاتَ النَّصَبِ لَكِنْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ مِنْهُمْ ، وَكَانُوا مَأْمُورِينَ بِالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالصَّبْرِ إِلَى حِينٍ ، وَكَانُوا يَتَحَرَّقُونَ وَيَوَدُّونَ لَوْ أُمِرُوا بِالْقِتَالِ ، لَيَسْتَفْتُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَالُ إِذْ ذَاكَ مُنَاسِبًا لِأَسْبَابِ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا : قِلَّةُ عَدَدِهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ عَدَدِ عَدُوِّهِمْ ، وَمِنْهَا كَوْنُهُمْ كَانُوا فِي بَلَدِهِمْ وَهُوَ بَلَدٌ حَرَامٌ وَأَشْرَفُ بَقَاعِ الْأَرْضِ ، فَلَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ فِيهِ إِبْتِدَاءً لِأَنَّهَا فَلِهَذَا لَمْ يُؤْمَرْ بِالْجِهَادِ إِلَّا بِالْمَدِينَةِ لَمَّا صَارَتْ لَهُمْ دَارٌ وَمَنْعَةٌ وَأَنْصَارٌ ، وَمَعَ هَذَا لَمَّا أُمِرُوا بِهَا كَانُوا يَوَدُّونَهُ جَزَعٌ بَعْضُهُمْ مِنْهُ ، وَخَافُوا مِنْ مُوَاجَهَةِ النَّاسِ خَوْفًا شَدِيدًا ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ أَي : لَوْ مَا أَخَّرْتَ فَرِيضَتَهُ إِلَى مُدَّةٍ أُخْرَى ، فَإِنَّ فِيهِ سَفْكَ الدَّمَاءِ وَيَتِمُّ الْأَوْلَادِ وَتَأْيِيمُ النِّسَاءِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ﴾ [محمد : ٢٠] الْآيَاتُ .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ <sup>(١)</sup> أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ وَأَصْحَابَهُ أَتُوا النَّبِيَّ ﷺ بِمَكَّةَ فَقَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ ، فَلَمَّا آمَنَّا صَرْنَا أَدْلَةً قَالَ : (( إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا الْقَوْمَ )) ، فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ أَي : آخِرَةُ الْمَتَقِيِّ خَيْرٌ مِنْ دُنْيَاهُ ﴿ وَلَا تظَلْمُونَ فِتْيَانًا ﴾ أَي : مِنْ أَعْمَالِكُمْ بَلْ تُوَفُّوهُمَا أَتَمَّ الْجَزَاءِ ، وَهَذِهِ تَسْلِيَةٌ لَهُمْ عَنِ الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَتَحْرِيطٌ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ . قَرَأَ الْحَسَنُ ﴿ قُلْ مَتَعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ قَالَ : رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا صَحِبَهَا عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ ، وَمَا الدُّنْيَا كُلُّهَا أَوْلَهَا وَآخِرُهَا إِلَّا كَرَجُلٍ نَامَ نَوْمَةً ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ بَعْضَ مَا يُحِبُّ ثُمَّ انْتَبَهَ .

وَقَالَ ابْنُ مَعِينٍ : كَانَ أَبُو مُسَهَّرٍ يُنْشِدُ :

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ  
فَإِنْ تُعْجِبِ الدُّنْيَا رَجَالًا فَإِنَّهَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَيِنَّمَا تَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ أَي : أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنْكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤] ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ لَا مَحَالَةَ ، وَلَا يُنْجِيهِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ وَسِوَاءَ عَلَيْهِ جَاهِدَ أَوْ لَمْ يُجَاهِدْ ، فَإِنَّ لَهُ أَجَلًا مَحْتُمًا وَأَمَدًا مَقْسُومًا ، كَمَا قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ حِينَ جَاءَ الْمَوْتُ عَلَى فِرَاشِهِ : لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِفًا ، وَمَا مِنْ عَضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ جُرْحٌ مِنْ طَعْنَةٍ أَوْ رَمِيَةٍ ، وَهَذَا أَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾ أَي : حَصِينَةٍ مَنِيعَةٍ عَالِيَةٍ رَفِيعَةٍ ، أَي : لَا يُعْنِي حَدْرٌ وَتَحْصَنٌ مِنَ الْمَوْتِ ، كَمَا قَالَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سَلْمَى :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَلْقَاهَا  
وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ أَي : حِصْبٌ وَرِزْقٌ مِنْ تِمَارٍ وَزُرُوعٍ وَأَوْلَادٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أَي : فَحَطَّ وَجَدَّبُ وَنَقَصَ فِي التِّمَارِ وَالزُّرُوعِ ، أَوْ مَوْتُ أَوْلَادٍ أَوْ نِتَاجٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ﴿ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِكَ وَيَسَبِّبُ إِتْبَاعِنَا لَكَ ، وَاقْتِدَائِنَا بِدِينِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ تَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : ١٣١] ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ [الحج : ١١] ، وَهَكَذَا قَالَ هُوَلَاءِ الْمُتَأَفِّقُونَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا ، وَهُمْ كَارِهُونَ لَهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا إِذَا أَصَابَهُمْ شَرٌّ إِنَّهَا يُسَيِّدُونَهُ إِلَى إِتْبَاعِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ . ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَهُوَ نَافِذٌ فِي الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ وَالْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أَي : الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَائِلِينَ هَذِهِ الْمَقَالَةُ الصَّادِرَةَ عَنْ شَكِّ وَرَيْبٍ، وَقَلَّةِ فَهْمٍ وَعِلْمٍ، وَكَثْرَةِ جَهْلِ وَظُلْمٍ: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُحَاطِبًا لِرَسُولِهِ ﷺ، وَالْمُرَادُ جِنْسُ الْإِنْسَانِ لِيَحْضَلَ الْجَوَابُ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ أَي: مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَمِنْهُ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أَي: فَمِنْ قِبَلِكَ وَمِنْ عَمَلِكَ أَنْتَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أَي: بِذَنْبِكَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ عُقُوبَةٌ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ بِذَنْبِكَ. وَفِي الصَّحِيحِ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ وَلَا نَصَبٌ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ حَطَايَاهُ»<sup>(١)</sup>، وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أَي: بِذَنْبِكَ، وَأَنَا الَّذِي قَدَّرْتُهَا عَلَيْكَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ أَي: تَبَلَّغْتَهُمْ شَرَائِعَ اللَّهِ، وَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أَي: عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَكَ، وَهُوَ شَهِيدٌ أَيْضًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ وَعَالِمٌ بِمَا تَبَلَّغْتَهُمْ إِيَّاهُ، وَبِمَا يَرُدُّونَ عَلَيْكَ مِنَ الْحَقِّ كُفْرًا وَعِنَادًا.

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ عِبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِأَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى الْأَمِيرَ فَقَدْ

عَصَانِي»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ أَي: لَا عَلَيْكَ مِنْهُ، إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، فَمَنْ اتَّبَعَكَ سَعِدَ وَنَجَا، وَكَانَ لَكَ مِنَ الْأَجْرِ نَظِيرٌ مَا حَصَلَ لَهُ، وَمَنْ تَوَلَّىٰ عَنْكَ خَابَ وَخَسِرَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ أَمْرِهِ شَيْءٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمَوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ ﴿ فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ أَي: خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ وَتَوَارَوْا عَنْكَ ﴿ بَيْتَ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُ ﴾ أَي: اسْتَسْرُوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ مَا أَظْهَرُوهُ لَكَ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ﴾ أَي: يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ، بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفِظَتْهُ الْكَاتِبِينَ الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ، وَالْمَعْنَىٰ فِي هَذَا التَّهْدِيدِ: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُخْبِرُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يُضْمِرُونَهُ وَيُسْرُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَعِصْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمَوَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ [النور: ٤٧]

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أَي: اصْفَحْ عَنْهُمْ وَأَحْلَمْ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ وَلَا تَكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَحْفَ مِنْهُمْ أَيْضًا ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَي: كَفَىٰ بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا، لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ.

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٤٨﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٩﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ أَمْرًا عِبَادَهُ بِتَذَكُّرِ الْقُرْآنِ، وَنَاهِيًا لَهُمْ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُ، وَعَنْ تَقَهُمُ مَعَانِيهِ الْمُحْكَمَةِ، وَالْأَفَاطِظِ الْبَلِيغَةِ، وَخَيْرًا لَهُمْ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا إِضْطِرَابَ وَلَا تَضَادًّا وَلَا تَعَارُضًا لِأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ، فَهُوَ حَقٌّ مِنْ حَقٍّ، وَهَذَا قَالَ

(١) صحيح: وقد تقدم.

تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْءَانَ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ أَي : لَوْ كَانَ مُفْتَعَلًا مُخْتَلَفًا ، كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ جَهْلَةٍ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي بَوَاطِينِهِمْ ﴿ لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا ﴾ أَي : اضْطِرَابًا وَتَضَادًّا كَثِيرًا ، أَي : وَهَذَا سَالِمٌ مِنَ الْإِخْتِلَافِ فَهُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ حَيْثُ قَالُوا : ﴿ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ أَي : مُحْكَمُهُ وَمُتَشَابِهُهُ حَقٌّ ، فَلِهَذَا رَدُّوا الْمُتَشَابِهَ إِلَى الْمُحْكَمِ فَاهْتَدَوْا ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ رَدُّوا الْمُحْكَمَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ فَعَوُوا ، وَهَذَا مَدْحٌ تَعَالَى الرَّاسِخِينَ وَذَمٌّ الرَّائِغِينَ .

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرُ النَّعَمِ ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ ، فَكَّرْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً ، إِذْ ذَكَرُوا آيَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى اِرْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَبًا ، حَتَّى إِحْمَرَ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالْتُّرَابِ وَيَقُولُ : « مَهَلًا يَا قَوْمَ ، بَهَذَا أَهْلِكْتِ الْأُمَّمُ مِنْ قَبْلِكُمْ ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ لِيُكْذَبَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، إِنَّمَا نَزَلَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ » (١) . وَعَنْهُ أَيْضًا ﷺ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدْرِ ، فَكَانَتْهَا يَفْقَهُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرَّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ ، فَقَالَ لَهُمْ : « مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، بَهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » قَالَ : فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ أَشْهَدُهُ مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنِّي لَمْ أَشْهَدُهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَاعُوا بِهِ ﴾ إِنَّكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الْأُمُورِ قَبْلَ تَحَقُّقِهَا ، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُفْسِيهَا وَيَنْشُرُهَا ، وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ .  
فَفِي الصَّحِيحِينَ (٢) عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ : أَيُّ الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الْحَدِيثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ ، مِنْ غَيْرِ تَثْبُتٍ وَلَا تَدَبُّرٍ وَلَا تَبَيَّنٍ .

(١) أخرجه أحمد (١٨١/٢) بسند حسن .

(٢) انظر البخاري (١٤٧٧) ، ومسلم (٥٩٣) .

وَلَنذُكُرَ هَهُنَا حَدِيثَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ الْمُتَّفِقِ عَلَى صِحَّتِهِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَلَّقَ نِسَاءَهُ، فَجَاءَ مِنْ مَنْزِلِهِ حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَوَجَدَ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَصْبِرْ حَتَّى اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَفْهَمَهُ: أَطَلَقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَقَالَ: «(لَا)» فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ بِطَوِيلِهِ. وَعِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup> قُلْتُ: أَطَلَقْتَهُنَّ؟ فَقَالَ: «(لَا)»، فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَنَادَيْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي لَمْ يُطَلَّقِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ أَي: يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ مَعَادِنِهِ. يُقَالُ: اسْتَنْبَطَ الرَّجُلُ الْعَيْنَ إِذَا حَفَرَهَا وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ قُعُورِهَا.

وقوله: ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قيل: يعنى المؤمنين. وقيل: يعنى كلكم.

فَقَتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا<sup>(٢)</sup> وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴿٤٤﴾ مَنْ يَشْفَعُ شَفِيعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفِيعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴿٤٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا<sup>(٣)</sup> إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٤٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا

يَأْمُرُ تَعَالَى عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِأَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ، وَمَنْ نَكَلَ عَنْهُ فَلَا عَلَيْهِ مِنْهُ، وَهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَكْلَفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾.

وقوله: ﴿وَحَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: عَلَى الْقِتَالِ وَرَغَبَهُمْ فِيهِ وَشَجَّعَهُمْ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ لَهُمْ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ وَهُوَ يُسَوِّي الصُّفُوفَ «(قُومُوا إِلَى جَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)»<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر صحيح مسلم (حديث ١٤٧٩).

(٢) مسلم (حديث ١٩٠١).



وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ فِي التَّرْغِيبِ فِي ذَلِكَ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ، وَآتَى الزَّكَاةَ ، وَصَامَ رَمَضَانَ ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ بِذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ ، فَإِنَّهُ وَسْطُ الْجَنَّةِ ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ »<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا وَنَبِيًّا ، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » قَالَ : فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ فَقَالَ : أَعَدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَفَعَلَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ الْعَبْدَ بِهَا مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » قَالَ : وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَي : بِتَحْرِيبِكَ إِيَّاهُمْ عَلَى الْقِتَالِ ، تَتَّبِعُتْ هِمُّهُمْ عَلَى مُنَاجَزَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُدَافَعَتِهِمْ عَنْ حُوزَةِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَمُقَاوَمَتِهِمْ وَمُصَابَرَتِهِمْ ، ﴿ وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ﴾ أَي : هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد : ٤]

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ أَي : مَنْ سَعَى فِي أَمْرٍ فَيَرْتَّبُ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا ﴾ أَي : يَكُونُ عَلَيْهِ وَزْرٌ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ الَّذِي تَرْتَّبَ عَلَى سَعْيِهِ وَنَيْتِهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « اشفَعُوا تُوجَرُوا ، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ »<sup>(٣)</sup> وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَشْفَعْ ﴾ ، وَلَمْ يَقُلْ : مَنْ يَشْفَعْ .

(١) البخاري (٢٧٩٠) .

(٢) مسلم (١٨٨٤) .

(٣) البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِتًا﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَيُّ: حَفِيفًا، وَقِيلَ: شَهِيدًا، وَقِيلَ: حَسِيًّا. وَقِيلَ: قَدِيرًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ أَيُّ: إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْمُسْلِمُ فَرُدُّوا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ، أَوْ رُدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ، فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ، وَالْمِثَالَةُ مَفْرُوضَةٌ. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «عَشْرٌ» ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «عِشْرُونَ» ثُمَّ جَاءَ آخَرَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ: «ثَلَاثُونَ»<sup>(١)</sup>.

فَأَمَّا أَهْلُ الدِّمَةِ فَلَا يُبَدَّءُونَ بِالسَّلَامِ، وَلَا يُزَادُونَ، بَلْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ بِمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ الْيَهُودُ فَاِتِّمُوا بِمَا يَقُولُ أَحَدُهُمْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقُلْ: وَعَلَيْكَ»<sup>(٢)</sup>، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَبَدَّءُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالسَّلَامِ وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي طَرِيقٍ فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَىٰ أَضْيَقِهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: السَّلَامُ تَطَوُّعٌ، وَالرَّدُّ فَرِيضَةٌ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ قَوْلُ الْعُلَمَاءِ قَاطِبَةً: أَنَّ الرَّدَّ وَاجِبٌ عَلَىٰ مَنْ سَلَّمَ عَلَيْهِ، فَيَأْتِيهِمْ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ، لِأَنَّهُ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تَتُومِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَفَلَا أَدَلُّكُمْ عَلَىٰ أَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»<sup>(٤)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ إِنْخِبَارٌ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَتَضَمُّنَ قَسَمًا لِقَوْلِهِ: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وَهَذِهِ اللَّامُ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ فَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ حَبْرٌ وَقَسَمٌ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ

(١) أبو داود (٣٧٩/٥) بسند صحيح.

(٢) البخاري (مع الفتح ٢٨٠/١٢)، ومسلم (١٤٤/١٤).

(٣) مسلم (مع النووي ١٤٨/١٤).

(٤) مسلم (٣٥/٢).

فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ أَي : لَا أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَدِيثِهِ  
 وَخَيْرِهِ ، وَوَعْدِهِ ، وَوَعِيدِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَعْتَيْنَ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا  
 مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ  
 كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ  
 وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ  
 جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
 لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنْ آعَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ أَلْسَلَمَ  
 فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ  
 يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ  
 يَعْزَلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ أَلْسَلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ  
 ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي اخْتِلَافِهِمْ فِي الْمُنَافِقِينَ عَلَى قَوْلَيْنِ : وَاخْتِلَافٍ  
 فِي سَبَبِ ذَلِكَ ، فَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى أَحَدِ فِرَجَعِ نَاسٍ  
 خَرَجُوا مَعَهُ فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقُولُ : نَقَتْلُهُمْ ،  
 وَفِرْقَةٌ تَقُولُ : لَا هُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فَعْتَيْنِ ﴾ ، فَقَالَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( إِنَّهَا طَيِّبَةٌ ، وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَثَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ )) (١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ ﴾ أَي : رَدَّهُمْ وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطِّ ، ﴿ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أَي :  
 بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ الرَّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ ﴿ أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ  
 اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أَي : لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَدُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ أَي : هُمْ يَدُونُ لَكُمْ الصَّلَاةَ لِيَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أَي : تَرَكُوا الْهَجْرَةَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ ﴿ فَخَذُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ أَي : لَا تَوَالُوهُمْ وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ عَلَىٰ أَعْدَاءِ اللَّهِ ، مَا دَامُوا كَذَلِكَ . ثُمَّ اسْتَشْنَى اللَّهُ مِنْ هَؤُلَاءِ ، فَقَالَ : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ أَي : إِلَّا الَّذِينَ جَاءُوا وَتَحَيَّرُوا إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مُهَادَنَةٌ ، أَوْ عَقْدُ ذِمَّةٍ ، فَاجْعَلُوا حُكْمَهُمْ كَحُكْمِهِمْ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(١)</sup> فِي قِصَّةِ صَلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ فَكَانَ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صَلْحِ فُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي صَلْحِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَعَهْدِهِمْ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ﴾ الْآيَةُ . هَؤُلَاءِ قَوْمٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُسْتَشْنَيْنِ مِنَ الْأَمْرِ بِقَاتِلِهِمْ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَجِيئُونَ إِلَى الْمَصَافِّ ، وَهُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ ، أَي : ضَيَّقَتْ صُدُورُهُمْ مُبْغِضِينَ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ ، وَلَا يَهُونَ عَلَيْهِمْ أَيْضًا أَنْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ مَعَكُمْ ، بَلْ هُمْ لَا لَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ أَي : مِنْ لُطْفِهِ بِكُمْ أَنْ كَفَّهُمْ عَنْكُمْ ﴿ فَإِن أَعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ ﴾ أَي : الْمُسَالَمَةَ ﴿ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ أَي : فَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوهُمْ مَا دَامَتْ حَالُهُمْ كَذَلِكَ ، وَهَؤُلَاءِ كَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، فَحَصَرُوا الْقِتَالَ وَهُمْ كَارِهِونَ كَالْعَبَّاسِ وَنَحْوِهِ ، وَهَذَا نَهَى النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَئِذٍ عَنْ قَتْلِ الْعَبَّاسِ وَأَمَرَ بِأَسْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾ ، هَؤُلَاءِ فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ كَمَنْ تَقَدَّمَ هُمْ ، وَلَكِنْ نِيَّةَ هَؤُلَاءِ غَيْرَ نِيَّةِ أَوْلِيَاكُمْ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُنَافِقُونَ ، يُظْهِرُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلَاَصْحَابِهِ الْإِسْلَامَ لِيَأْمَنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذُرَارِيهِمْ ، وَيَصَانِعُونَ الْكُفَّارَ فِي

الْبَاطِنِ فَيَعْبُدُونَ مَعَهُمْ مَا يَعْبُدُونَ؛ لِيَأْمِنُوا بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَهُمْ فِي الْبَاطِنِ مَعَ  
أَوْلِيائِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ  
مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ، وَقَالَ هَاهُنَا : ﴿ كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾ أَي :  
انْهَمَكُوا فِيهَا . ﴿ فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلَوْكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ﴾ الْمُهَادَنَةَ وَالصُّلْحَ ، ﴿ وَيَكْفُؤْا  
أَيْدِيَهُمْ ﴾ أَي : عَنِ الْقِتَالِ ﴿ فَخُذُوهُمْ ﴾ أُسْرَاءَ ، ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ أَي :  
أَيْنَ لَقِيتُمُوهُمْ ﴿ وَأَوْلِيَّكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنًا مُّبِينًا ﴾ أَي : بَيِّنًا وَاضِحًا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً  
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ  
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ  
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ  
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا  
وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي  
الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ  
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : النَّفْسِ بِالنَّفْسِ ، وَالنَّيْبِ الزَّانِي ،  
وَالتَّارِكِ لِديِنِهِ الْمَفَارِقِ لِلْجَمَاعَةِ » ، ثُمَّ إِذَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ  
مِنْ أَحَادِ الرَّعِيَّةِ أَنْ يَقْتُلَهُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا خَطَاً ﴾ قَالُوا :  
هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾  
هَذَانِ وَاجِبَانِ فِي قَتْلِ الْخَطَاِ أَحَدُهُمَا : الْكَفَّارَةُ لِمَا إِزْتَكَبَهُ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ وَإِنْ  
كَانَ خَطَاً ، وَمِنْ شَرَطِهَا أَنْ تَكُونَ عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَلَا تُجْرَى الْكَافِرَةُ ، وَالَّذِي عَلَيْهِ

الْجُمُهورُ: أَنَّهُ مَتَى كَانَ مُسْلِمًا صَحَّ عِنْفُهُ عَنِ الْكُفَّارَةِ سَوَاءً كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا .  
 عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ بِتِلْكَ الْجَارِيَةِ السَّوْدَاءِ قَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :  
 « أَيْنَ اللَّهُ ؟ » قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ . قَالَ : « مَنْ أَنَا ؟ » قَالَتْ : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ،  
 قَالَ : « أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ »<sup>(١)</sup> ، وَقَوْلُهُ : « وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ » هُوَ الْوَاجِبُ  
 الثَّانِي فِيمَا بَيْنَ الْقَاتِلِ وَأَهْلِ الْقَتِيلِ عَوَضًا لَهُمْ عَمَّا فَاتَهُمْ مِنْ قَتِيلِهِمْ . وَهَذِهِ الدِّيَّةُ إِنَّمَا  
 تَجِبُ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ لَا فِي مَالِهِ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : لَمْ أَعْلَمْ مُخَالَفًا أَنَّ  
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَضَى بِالْدِّيَّةِ عَلَى الْعَاقِلَةِ ، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ حَدِيثِ الْخَاصَّةِ ، وَهَذَا الَّذِي  
 أَشَارَ إِلَيْهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ ثَبَتَ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي  
 الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٢)</sup> عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : إِقْتَلَتِ امْرَأَتَانِ مِنْ هُدَيْلٍ ، فَرَمَتْ إِحْدَاهُمَا  
 الْأُخْرَى بِحَجَرٍ فَقَتَلَتْهَا ، وَمَا فِي بَطْنِهَا فَاخْتَصَمُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَضَى أَنَّ دِيَّةَ  
 جَنِينِهَا غُرَّةٌ عَبْدٌ أَوْ أَمَةٌ ، وَقَضَى بِدِيَّةِ الْمَرْأَةِ عَلَى عَاقِلَتِهَا .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ<sup>(٣)</sup> عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَالِدَ بْنَ  
 الْوَلِيدِ إِلَى بَنِي خَزِيمَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا : أَسْلَمْنَا ،  
 فَجَعَلُوا يَقُولُونَ : صَبَانَا ، صَبَانَا ، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُهُمْ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
 فَرَفَعَ يَدَهُ ، وَقَالَ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ » ، وَبَعَثَ عَلِيًّا فَوَدَى  
 قَتْلَهُمْ ، وَمَا أَتْلَفَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى مِيلِغَةَ الْكَلْبِ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ  
 خَطَأَ الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ يَكُونُ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

وَقَوْلُهُ : « إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا » أَي : فَتَجِبُ فِيهِ الدِّيَّةُ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ  
 يَتَّصَدَّقُوا بِهَا فَلَا تَجِبُ ، « فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ  
 مُؤْمِنَةٍ » أَي : إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا وَلَكِنْ أَوْلِيَاؤُهُ مِنَ الْكُفَّارِ أَهْلُ حَرْبٍ ، فَلَا دِيَّةَ  
 لَهُمْ ، وَعَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ لَا غَيْرَ ، « وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ  
 وَبَيْنَهُمْ مِمَّنْ شَقَّ فِدِيَّةً مُسَلَّمَةً إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » أَي : فَإِنْ كَانَ الْقَتِيلُ أَوْلِيَاؤُهُ أَهْلُ

(١) مسلم (حديث ٥٣٧) .

(٢) البخاري (حديث ٦٩٠٤) ، ومسلم (١٦٨١) .

(٣) البخاري (حديث ٤٣٣٩) ، وليس عنده « وبعث عليًا ... » .

ذِمَّةٍ أَوْ هُدْنَةٍ فَلَهُمْ دِيَةٌ قَتِيلِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا فِدْيَةٌ كَامِلَةٌ ، وَكَذَا إِنْ كَانَ كَافِرًا  
أَيْضًا عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقِيلَ : يَجِبُ فِي الْكَافِرِ نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ ، وَقِيلَ :  
ثُلُثُهَا ، كَمَا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ . وَيَجِبُ أَيْضًا عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ  
مُؤْمِنَةٍ ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴾ أَي : لَا إِفْطَارَ بَيْنَهُمَا بَلْ يَسْرُدُ  
صَوْمَهُمَا إِلَى آخِرِهِمَا ، فَإِنْ أَفْطَرَ مِنْ غَيْرِ عُدْرٍ مِنْ مَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نِفَاسٍ  
اسْتَأْنَفَ ، وَاخْتَلَفُوا فِي السَّفَرِ هَلْ يُقْطَعُ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ تَوْبَةٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ وَكَاتَبَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ أَي : هَذِهِ تَوْبَةُ الْقَاتِلِ  
خَطَأً إِذَا لَمْ يَجِدِ الْعِتْقَ صَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ : وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الصِّيَامَ  
هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ إِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ، كَمَا فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا :  
نَعَمْ ، كَمَا هُوَ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي كَفَّارَةِ الظَّهَارِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُذَكَّرْ هَهُنَا ؛ لِأَنَّ هَذَا مَقَامٌ  
تَهْدِيدٍ وَتَخْوِيفٍ وَتَحْذِيرٍ ، فَلَا يُنَاسِبُ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهِ الْإِطْعَامُ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّسْهِيلِ  
وَالْتَّرْخِيسِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : لَا يُعْدَلُ إِلَى الطَّعَامِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ وَاجِبًا لَمَا أَخَّرَ بَيَانَهُ  
عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ .

ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطَأِ شَرَعَ فِي بَيَانِ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ  
يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ الْآيَةَ ، وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِمَنْ تَعَاطَى هَذَا  
الذَّنْبَ الْعَظِيمَ ، الَّذِي هُوَ مَقْرُونٌ بِالشَّرْكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَيْثُ  
يَقُولُ سُبْحَانَهُ فِي « سُورَةِ الْفُرْقَانِ » : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا  
يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [ الْفُرْقَانِ : ٦٨ ] ، وَالْأَحَادِيثُ  
فِي تَحْرِيمِ الْقَتْلِ كَثِيرَةٌ جِدًّا ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ  
ﷺ : « أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ » (١).

وَقَدْ كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا . وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ  
جُبَيْرٍ قَالَ : اِخْتَلَفَ فِيهَا أَهْلُ الْكُوفَةِ ، فَرَحَلْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ، فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا ، فَقَالَ :  
نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾ هِيَ آخِرُ مَا نَزَلَ وَمَا

نَسَخَهَا شَيْءٌ<sup>(١)</sup>. وَعِنْدَ الطَّرِيقِ<sup>(٢)</sup> سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ وَمَنْ ﴿ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : لَمْ يَنْسَخْهَا شَيْءٌ ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إِلَى آخِرِهَا قَالَ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ .

وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلْفِهَا : أَنَّ الْقَاتِلَ لَهُ تَوْبَةٌ فِيهَا بَيْنُهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ فَإِنْ تَابَ وَأَنَابَ وَخَشَعَ وَخَضَعَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ ، وَعَوَّضَ الْمَقْتُولَ مِنْ ظَلَامَتِهِ وَأَرْضَاهُ عَنْ طِلَابَتِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ الْآيَةَ .

وَهَذَا خَبْرٌ لَا يَجُوزُ نَسْخُهُ وَحَمْلُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَحَمْلُ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ خِلَافُ الظَّاهِرِ ، وَيَحْتَاجُ حَمْلُهُ إِلَى دَلِيلٍ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أُسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مِنْ كُفْرٍ وَشِرْكِ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ وَقَتْلِ وَفِسْقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، كُلُّ مَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَلِكَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ مَا عَدَا الشِّرْكَ ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَبْلَهَا ؛ لِتَقْوِيَةِ الرَّجَاءِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَثَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ<sup>(٣)</sup> خَبْرُ الْإِسْرَائِيلِيِّ الَّذِي قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا : هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ : وَمَنْ يَحْوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ ثُمَّ أَرْسَدَهُ إِلَى بَلَدٍ يَعْبُدُ اللَّهُ فِيهِ ، فَهَاجَرَ إِلَيْهِ ، فَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ ، فَقبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ ، كَمَا ذَكَرْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَأَنْ يَكُونَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْآخَرَى ، لِأَنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا الْأَصَارَ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، وَبَعَثَ نَبِيًّا بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ . فَأَمَّا الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ الْآيَةَ .

(١) البخاري (٤٥٩٠) .

(٢) سنده صحيح .

(٣) البخاري (٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .



فَقَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جَارَاهُ ، وَمَعْنَى هَذِهِ الصَّيْغَةِ أَنَّ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ عَلَيْهِ ، وَكَذَا كُلُّ وَعِيدٍ عَلَى ذَنْبٍ ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مُعَارَضًا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ تَمْنَعُ وَصُولَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ إِلَيْهِ ، عَلَى قَوْلِي أَصْحَابِ الْمَوَازَنَةِ أَوْ الْإِحْبَاطِ ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا يُسَلِّكُ فِي بَابِ الْوَعِيدِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

وَبِتَقْدِيرِ دُخُولِ الْقَاتِلِ فِي النَّارِ ، إِمَّا عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَنْ وَافَقَهُ : أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لَهُ ، أَوْ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ : حَيْثُ لَا عَمَلٌ لَهُ صَالِحًا يَنْجُو بِهِ ، فَلَيْسَ بِمُخَلَّدٍ فِيهَا أَبَدًا ، بَلِ الْخُلُودُ هُوَ الْمُكْتَبُ الطَّوِيلُ ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « أَنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَذَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ » (١) ، وَأَمَّا مَنْ مَاتَ كَافِرًا فَالْنَّصُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ الْبُتَّةَ ، وَأَمَّا مُطَالَبَةُ الْمَقْتُولِ الْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ ، وَهِيَ لَا تَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَقْتُولِ ، وَالْمَسْرُوقِ مِنْهُ ، وَالْمَغْضُوبِ مِنْهُ ، وَالْمَقْدُوفِ وَسَائِرِ حُقُوقِ الْأَدَمِيِّينَ ، فَإِنَّ الْإِجْمَاعَ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّهَا لَا تَسْقُطُ بِالتَّوْبَةِ وَلَكِنَّهَا لَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ فِي صِحَّةِ التَّوْبَةِ ، فَإِنَّ تَعَدَّرَ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ مِنَ الْمُطَالَبَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ وَقُوعِ الْمُطَالَبَةِ وَقُوعُ الْمَجَازَاةِ ، إِذْ قَدْ يَكُونُ لِلْقَاتِلِ أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ تُصَرِّفُ إِلَى الْمَقْتُولِ أَوْ بَعْضُهَا ، ثُمَّ يَفْضَلُ لَهُ أَجْرٌ يَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ ، أَوْ يُعَوِّضُ اللَّهُ الْمَقْتُولَ بِمَا يَشَاءُ مِنْ فَضْلِهِ مِنْ قُصُورِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ فِيهَا ، وَنَحْوَ ذَلِكَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - ثُمَّ لِقَاتِلِ الْعَمْدِ أَحْكَامٌ فِي الدُّنْيَا وَأَحْكَامٌ فِي الْآخِرَةِ فَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَتُسَلِّطُ أَوْلِيَاءُ الْمَقْتُولِ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَيْهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٣] ، ثُمَّ هُمْ مُحْيَرُونَ بَيْنَ أَنْ يَقْتُلُوا ، أَوْ يَعْفُوا ، أَوْ يَأْخُذُوا بِدِيَةِ مُعَلَّظَةٍ أَثَلَاثًا - ثَلَاثُونَ حِقَّةً ، وَثَلَاثُونَ جَذَعَةً ، وَأَرْبَعُونَ خَلْفَةً ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ .

وَاخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ : هَلْ تُجِبُّ عَلَيْهِ كَفَّارَةٌ عِنَقِ رَقَبَةٍ أَوْ صِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ أَوْ إِطْعَامٌ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي كَفَّارَةِ الْخَطَا عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالْشَّافِعِيُّ

(١) صحيح : وقد تقدم .

وَأَصْحَابُهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ : نَعَمْ يَجِبُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَجِبَتْ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ فِي الْحَطِّ فَلَأَنْ تَجِبَ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ أَوْلَى ، وَقَالَ أَصْحَابُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَآخَرُونَ : قَتَلَ الْعَمْدَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكْفَرَ فَلَا كَفَّارَةَ فِيهِ ، وَكَذَا الْيَمِينُ الْعُمُوسُ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلِمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَلْفَىٰ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٤٦﴾

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَتِهِ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلْسَلِمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : عَرَضَ الدُّنْيَا تِلْكَ الْغَنِيمَةُ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (( السَّلَام ))<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ﴾ أَي : خَيْرٌ مِمَّا رَغِبْتُمْ فِيهِ مِنْ عَرَضِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى قَتْلِ مِثْلِ هَذَا الَّذِي أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ ، وَأَظْهَرَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ ، فَتَعَاظَلْتُمْ عَنْهُ وَاتَّهَمْتُمُوهُ بِالْمَصَانَعَةِ وَالتَّقِيَّةِ ، لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْمَغَانِمِ الْحَلَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ مَالِ هَذَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَلْفَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : قَدْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالِ كَهَذَا الَّذِي يُسِّرُ إِيْمَانَهُ وَيُخْفِيهِ مِنْ قَوْمِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ نَحَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَغَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٦] . عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ تَسْتَخْفُونَ بِإِيْمَانِكُمْ ، كَمَا اسْتَخْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيْمَانِهِ . ﴿ فَمَنْ أَلْفَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : تَابَ عَلَيْكُمْ ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ تَأَكِيدُ لِمَا تَقَدَّمَ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ .

(١) البخاري (٤٥٩١) ، ومسلم (٤٠٢٥) .

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

عن البراء<sup>(١)</sup> قال: لما نزلت ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدًا فَكَتَبَهَا، فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ<sup>(٢)</sup>: أَنَّهُ رَأَى مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ فِي الْمَسْجِدِ، قَالَ: فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَخْبَرَنَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَلَى عَلَيَّ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَجَاءَهُ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمْلِيهَا عَلَيَّ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ - وَكَانَ أَعْمَى - فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ فَخِذُهُ عَلَيَّ فَخِذِي، فَتَقَلَّتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرْضَى فَخِذِي ثُمَّ سَرَّيَ عَنْهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾. عن ابنِ عَبَّاسٍ ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَنْ بَدْرِ وَالْحَارِثِ جُونِ إِلَى بَدْرِ<sup>(٣)</sup>. وَقَوْلُهُ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كَانَ مُطْلَقًا، فَلَمَّا نَزَلَ بِوَحْيٍ سَرِيعٍ ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ صَارَ ذَلِكَ مَخْرَجًا لِدَوِي الْأَعْدَارِ الْمُبِيحَةِ لِتَرْكِ الْجِهَادِ مِنَ الْعَمَى وَالْعَرَجِ وَالْمَرَضِ، عَنْ مُسَاوَاتِهِمْ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِفَضِيلَةِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ، وَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، لَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ» قَالُوا: وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري (حديث ٤٥٩٤).

(٢) البخاري (حديث ٤٥٩٢).

(٣) البخاري (٣٩٥٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٣٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ أَي: الْجَنَّةَ وَالْجَزَاءَ الْجَزِيلَ. وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجِهَادَ لَيْسَ بِفَرْضٍ عَيْنٍ بَلْ هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ بِمَا فَضَّلَهُمْ بِهِ مِنَ الدَّرَجَاتِ فِي عُرْفِ الْجَنَانِ الْعَالِيَاتِ، وَمَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ وَالزَّلَّاتِ، وَحُلُولِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَاتِ، إِحْسَانًا مِنْهُ وَتَكْرِيمًا، وَهَذَا قَالَ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُنْهُمُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمُوتْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠﴾

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ<sup>(٢)</sup>: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعَثُ، فَكَتَبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَهَاجِرًا عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ يُكْتَبُونَ سَوَادَهُمْ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَأْتِي السَّهْمُ يَرْمِي بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يُضْرِبُ عُنُقَهُ فَيَقْتُلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الظَّالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾.

(١) البخاري (٢٧٩٠).

(٢) إسناده صحيح.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ<sup>(١)</sup> : كَانَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ أَسْلَمُوا وَكَانُوا يَسْتَحْفُونَ بِالْإِسْلَامِ ، فَأَخْرَجَهُمُ الْمُشْرِكُونَ يَوْمَ بَدْرٍ مَعَهُمْ ، فَأُصِيبَ بَعْضُهُمْ ، قَالَ الْمُسْلِمُونَ : كَانَ أَصْحَابَنَا مُسْلِمِينَ وَأَكْرَهُوا فَاسْتَغْفَرُوا لَهُمْ ، فَنَزَلَتْ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : فَكُتِبَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لَا عُذْرَ لَهُمْ ، قَالَ : فَخَرَجُوا فَاحْفَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فَأَعْطَوْهُمْ

الْفِتْنَةَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ [البقرة: ٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ هَذَا عُذْرٌ مِنَ اللَّهِ هُوَ لِأَنَّ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ قَدَرُوا مَا عَرَفُوا يَسْلُكُونَ الطَّرِيقَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ طَرِيقًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ ﴾ أَي : يَتَجَاوَزَ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ ، وَ﴿ عَسَى ﴾ مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ . عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الْعِشَاءَ إِذْ قَالَ : (( سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ )) ، ثُمَّ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ : (( اللَّهُمَّ أَنْجِ عِيَّاشَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ سَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، اللَّهُمَّ أَشَدِّدْ وَطَأَتَكَ عَلَى مُضَرَ ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يَوْسُفَ ))<sup>(٢)</sup> . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ<sup>(٣)</sup> . وَعَنْهُ أَيْضًا ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ ﴾ قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عُذَرَ اللَّهُ ﷻ<sup>(٤)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ ، وَهَذَا تَحْرِيطٌ عَلَى الْهَجْرَةِ ، وَتَرْغِيبٌ فِي مُفَارَقَةِ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ حَيْثُمَا ذَهَبَ وَجَدَ عَنْهُمْ مَدْوَحَةً وَمَلَجًا يَتَحَصَّنُ فِيهِ ، قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : (( الْمُرَاعِمُ )) التَّحَوُّلُ مِنَ

(١) البخاري (٤٥٩٦) .

(٢) البخاري (١٠٠٦) ، ومسلم (٦٧٥) .

(٣) البخاري (٤٥٨٧) .

(٤) البخاري (٤٥٨٨) .

أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ﴿ مُرَاعِمًا كَثِيرًا ﴾ يَعْنِي : مُتَزَحِّحًا عَمَّا يَكْرَهُ ، وَالظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَاعِمَ التَّمَنُّعُ الَّذِي يُتَخَلَّصُ بِهِ ، وَيُرَاعَمُ بِهِ الْأَعْدَاءُ ، ﴿ وَسَعَةً ﴾ يَعْنِي : الرِّزْقَ ، ﴿ وَمَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ أَي : وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِنِيَّةِ الْهَجْرَةِ فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ ، فَقَدْ حَصَلَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابٌ مَنْ هَاجَرَ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ )) (١).

وَهَذَا عَامٌّ فِي الْهَجْرَةِ وَفِي كُلِّ الْأَعْمَالِ ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَتَلَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ نَفْسًا ثُمَّ أَكْمَلَ بِذَلِكَ الْعَابِدِ الْمِائَةَ ، ثُمَّ سَأَلَ عَالِمًا هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ فَقَالَ لَهُ : وَمَنْ يَحْوُلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ؟ ثُمَّ أَرْشَدَهُ إِلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ يَعْبُدُ اللَّهُ فِيهِ ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ مِنْ بَلَدِهِ مُهَاجِرًا إِلَى الْبَلَدِ الْآخَرَ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَ هَؤُلَاءِ : إِنَّهُ جَاءَ تَائِبًا ، وَقَالَ هَؤُلَاءِ : إِنَّهُ لَمْ يَصِلْ بَعْدُ ، فَأَمَرُوا أَنْ يَقِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيِّمَا كَانَ أَقْرَبُ كَانَ مِنْهَا ، فَأَمَرَ اللَّهُ هَذِهِ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَنْ تَبْعُدَ ، فَوَجَدُوهُ أَقْرَبَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا بِشِيرٍ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ . وَفِي رِوَايَةٍ : أَنَّهُ لَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ نَاءَ بَصْدْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هَاجَرَ إِلَيْهَا (٢).

وَعَنْ أَبِي صَمْرَةَ بْنِ الْعَبْسِ الزُّرَقِيِّ الَّذِي كَانَ مُصَابَ الْبَصْرِ وَكَانَ بِمَكَّةَ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ ، فَقُلْتُ : إِنِّي لَغَنِيٌّ وَإِنِّي لَدُو حِيلَةٍ ، فَتَجَهَّزَ يُرِيدُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّنْعِيمِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَمَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ ﴾ الْآيَةُ (٣).

(١) البخاري (حديث ١) ببعضه وأطرافه هناك ، ومسلم (١٩٠٧) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح بمجموع طرقه ، وله جملة شواهد من المراسيل ، انظر الطبري (أثر ١٠٢٩٩) .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : سَافَرْتُمْ فِي الْبِلَادِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرَضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وءَاخَرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [المزمل : ٢٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ أَي : تُخَفَّفُوا فِيهَا إِمَّا مِنْ كَمِّيَّتِهَا بِأَنْ تُجْعَلَ الرَّبَاعِيَّةُ ثِنَايِيَّةً ، كَمَا فَهَمَهُ الْجُمْهُورُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى قُصْرِ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، فَقَدْ يَكُونُ هَذَا خَرَجَ مَخْرَجِ الْغَالِبِ حَالَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ ، فَإِنَّ فِي مَبْدَأِ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ كَانَ غَالِبُ أَسْفَارِهِمْ مَخَوْفَةً بَلْ مَا كَانُوا يَنْهَضُونَ إِلَّا إِلَىٰ غَزْوٍ عَامٍّ ، أَوْ سَرِيَّةٍ خَاصَّةٍ . وَسَائِرُ الْأَحْيَاءِ حَرَبٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، وَالْمَنْطُوقُ إِذَا خَرَجَ مَخْرَجَ الْغَالِبِ أَوْ عَلَىٰ حَادِثَةٍ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيحتَكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنْ أُرْدَنَّ تَحْصُنَا ﴾ [النور : ٣٣] ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَرَبِّبِكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣]

عَنْ يَعْلَىٰ بْنِ أُمِيَّةٍ قَالَ : سَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قُلْتُ لَهُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ ، فَقَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : عَجِبْتُ بِمَا عَجِبْتَ مِنْهُ ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : « صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ »<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَىٰ مَكَّةَ ، فَكَانَ يُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ حَتَّىٰ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، قُلْتُ : أَقَمْتُمْ بِمَكَّةَ شَيْئًا ؟ قَالَ : أَقَمْنَا بِهَا عَشْرًا<sup>(٢)</sup> . وَعَنْ حَارِثَةَ بْنِ وَهَبٍ الْخَزَاعِيِّ قَالَ : صَلَّىٰ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِمَنَىٰ أَكْثَرَ مَا كَانَ النَّاسُ وَأَمَنَهُ رَكَعَتَيْنِ<sup>(٣)</sup>.

(١) مسلم (حديث ٦٨٦) .

(٢) البخاري (١٠٨١) .

(٣) البخاري (١٠٨٣) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَكَعَتَيْنِ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ صَدْرًا مِنْ إِمَارَتِهِ ثُمَّ أُمَّهَا<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ : صَلَّى بِنَا عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ ﷺ بِمِنَى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ ، فَقِيلَ فِي ذَلِكَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ فَاسْتَرْجَعَ ، ثُمَّ قَالَ : صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمِنَى رَكَعَتَيْنِ ، وَصَلَّيْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ بِمِنَى رَكَعَتَيْنِ ، وَصَلَّيْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ بِمِنَى رَكَعَتَيْنِ ، فَلَيْتَ حَظِّي مِنْ أَرْبَعِ رَكَعَاتِ رَكَعَتَانِ مُتَقَبَّلَتَانِ<sup>(٢)</sup> . فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ صَرِيحًا عَلَى أَنَّ الْقَصْرَ لَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ وَجُودُ الْخَوْفِ ، وَهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْقَصْرِ هَهُنَا إِنَّمَا هُوَ قَصْرُ الْكَيْفِيَّةِ لَا الْكَمِّيَّةِ ، وَاعْتَصَدُوا أَيْضًا بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أُمَّهَا قَالَتْ : فَرَضَتِ الصَّلَاةَ رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ ، وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ<sup>(٣)</sup> . قَالُوا : فَإِذَا كَانَ أَصْلُ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ هِيَ الثَّنَيْنِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْقَصْرِ هَهُنَا قَصْرُ الْكَمِّيَّةِ ؟ لِأَنَّ مَا هُوَ الْأَصْلُ لَا يُقَالُ فِيهِ : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : فَرَضَ اللَّهُ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا ، وَفِي السَّفَرِ رَكَعَتَيْنِ ، وَفِي الْخَوْفِ رَكَعَةً<sup>(٤)</sup> ، فَكَمَا يُصَلِّي فِي الْحَضَرِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا فَكَذَلِكَ يُصَلِّي فِي السَّفَرِ . فَهَذَا ثَابِتٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَلَا يُنَافِي مَا تَقَدَّمَ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لِأَنَّهَا أَخْبَرَتْ أَنَّ أَصْلَ الصَّلَاةِ رَكَعَتَانِ ، وَلَكِنْ زِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ ذَلِكَ ، صَحَّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ فَرَضَ صَلَاةِ الْحَضَرِ أَرْبَعٌ ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . لَكِنْ اتَّفَقَ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ السَّفَرِ رَكَعَتَانِ ، وَأَنَّهَا تَامَّةٌ غَيْرُ مَقْصُورَةٍ ، كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَيَكُونُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَيْسَ

(١) البخاري (١١٠٢) ، ومسلم (٦٩٤) .

(٢) مسلم (١٠٨٤) .

(٣) البخاري (١٠٩٠) ، ومسلم (٦٨٥) .

(٤) مسلم (٦٨٧) .



عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴿ قَصُرَ الْكَيْفِيَّةِ كَمَا فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ إِنَّ الْكُفْرَانَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿ ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَهَا : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ ﴾ الْآيَةَ ، فَبَيَّنَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقَصْرِ هَهُنَا وَذَكَرَ صِفَتَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ ، وَهَذَا لَمَّا عَقَدَ الْبُخَارِيُّ كِتَابَ صَلَاةِ الْخَوْفِ صَدَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١١٢﴾

صَلَاةُ الْخَوْفِ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ تَارَةً يَكُونُ نُجَاهَ الْقِبْلَةِ ، وَتَارَةً يَكُونُ فِي غَيْرِ صَوْبِهَا ، وَالصَّلَاةُ تَكُونُ رُبَاعِيَّةً ، وَتَارَةً تَكُونُ ثَلَاثِيَّةً كَالْمَغْرِبِ ، وَتَارَةً تَكُونُ ثُنَائِيَّةً كَالصُّبْحِ وَصَلَاةِ السَّفَرِ ، ثُمَّ تَارَةً يُصَلُّونَ جَمَاعَةً ، وَتَارَةً يَلْتَحِمُ الْحَرْبُ فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، بَلْ يُصَلُّونَ فَرَادَى مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا ، وَهُمْ أَنْ يَمْشُوا - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - وَيَضْرِبُوا الضَّرْبَ الْمُتَابِعَ فِي مَتْنِ الصَّلَاةِ .

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ : يُصَلُّونَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - رُكْعَةً وَاحِدَةً ؛ لِحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ الْمُتَقَدِّمِ . وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَعَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ : أَمَّا عِنْدَ الْمَسَائِفَةِ فَيَجْزِيكَ رُكْعَةٌ وَاحِدَةٌ تَوْمِيَّهَا إِيَّاءً . فَإِنْ لَمْ تَقْدِرْ فَسَجْدَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ لِأَنَّهَا ذَكَرَ اللَّهُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : يَكْفِي تَكْبِيرَةً وَاحِدَةً ، فَلَعَلَّهُ أَرَادَ رُكْعَةً وَاحِدَةً ، كَمَا قَالَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابُهُ وَبِهِ قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وَكَعْبٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالسُّدِّيِّ ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَكِنْ الَّذِينَ حَكَّوهُ

إِنَّمَا حَكَّوْهُ عَلَى ظَاهِرِهِ فِي الْإِجْتِرَاءِ بِتَكْبِيرَةِ وَاحِدَةٍ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيَه - فَاللهُ أَعْلَمُ - وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أَبَاحَ تَأْخِيرَ الصَّلَاةِ لِعُدْرِ الْقِتَالِ وَالْمُنَاجَزَةِ ، كَمَا أَخَّرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الْأَحْزَابِ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فَصَلَّاهُمَا بَعْدَ الْغُرُوبِ ، ثُمَّ صَلَّى بَعْدَهُمَا الْمَغْرِبَ ثُمَّ الْعِشَاءَ ، وَكَمَا قَالَ بَعْدَهَا يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ جَهَّزَ إِلَيْهِمُ الْجَيْشَ : « لَا يُصَلِّينَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ »<sup>(١)</sup> ، فَأَذْرَكَتَهُمُ الصَّلَاةُ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ ، فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلُونَ : لَمْ يُرْذَ مِنَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا تَعْجِيلَ الْمَسِيرِ ، وَلَمْ يُرْذَ مِنَّا تَأْخِرَ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا ، فَصَلَّوْا الصَّلَاةَ لَوْ قَتَلَتْهَا فِي الطَّرِيقِ ، وَأَخَّرَ آخَرُونَ مِنْهُمْ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَصَلَّوْهَا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ الْغُرُوبِ ، وَلَمْ يُعْنَفْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحَدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى هَذَا فِي كِتَابِ السِّيَرَةِ وَبَيَّنَّا أَنَّ الَّذِينَ صَلَّوْا الْعَصْرَ لَوْ قَتَلَتْهَا أَقْرَبَ إِلَى إِصَابَةِ الْحَقِّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَإِنْ كَانَ الْآخَرُونَ مَعْدُورِينَ أَيْضًا وَالْحُجَّةُ هَهُنَا فِي عُدْرِهِمْ فِي تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ الْجِهَادِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى حِصَارِ النَّاكِثِينَ لِلْعَهْدِ مِنَ الطَّائِفَةِ الْمُعَاوَنَةِ الْيَهُودِ . وَأَمَّا الْجُمُهورُ فَقَالُوا : هَذَا كُلُّهُ مَنْسُوخٌ بِصَلَاةِ الْخَوْفِ ، فَإِنَّمَا لَمْ تَكُنْ نَزَلَتْ بَعْدُ فَلَمَّا نَزَلَتْ نُسِخَ تَأْخِيرُ الصَّلَاةِ لِذَلِكَ ، وَهَذَا بَيِّنٌ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ الَّذِي رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - وَأَهْلُ السُّنَنِ وَلَكِنْ يُشْكَلُ عَلَيْهِ مَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ<sup>(٢)</sup> فِي صَحِيحِهِ حَيْثُ قَالَ : « بَابُ الصَّلَاةِ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ الْحِصُونِ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ » قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : إِنْ كَانَ تَهَيُّاً الْفَتْحِ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ صَلَّوْا إِيْمَاءً كُلِّ امْرئٍ لِنَفْسِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِيْمَاءِ أَخْرَوْا الصَّلَاةَ حَتَّى يَنْكَشِفَ الْقِتَالُ ، أَوْ يَأْمَنُوا فَيُصَلُّوْا رَكَعَتَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا صَلَّوْا رَكَعَةً وَسَجْدَتَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا فَلَا يُجْزِيهِمُ التَّكْبِيرُ وَيُؤْخِرُونَهَا حَتَّى يَأْمَنُوا ، وَبِهِ قَالَ مَكْحُولٌ . وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ : حَضَرْتُ عِنْدَ مُنَاهَضَةِ حِصْنِ سُتْرَ عِنْدَ إِضَاءَةِ الْفَجْرِ ، وَاشْتَدَّ اسْتِعْجَالُ الْقِتَالِ فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الصَّلَاةِ فَلَمْ نُصَلِّ إِلَّا بَعْدَ اِرْتِفَاعِ النَّهَارِ ، فَصَلَّيْنَاهَا وَنَحْنُ مَعَ أَبِي مُوسَى فَفُتِحَ لَنَا ، قَالَ أَنَسُ : وَمَا يَسِّرُنِي

(١) البخاري (٩٤٦) ، ومسلم (١٧٧٠) .

(٢) البخاري (مع الفتح ٥٠٣/٢) قبيل حديث (٩٤٥) .

بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . انْتَهَى مَا ذَكَرَهُ ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِحَدِيثِ تَأْخِيرِ الصَّلَاةِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ ، ثُمَّ بِحَدِيثِ أَمْرِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ لَا يُصَلُّوا الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ ، وَكَانَهُ الْمُخْتَارُ لِذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَلَمَنْ جَنَحَ إِلَى ذَلِكَ لَهُ أَنْ يَجْتَجَّ بِصَنِيعِ أَبِي مُوسَى وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ فَتْحِ تُسْتَرٍ فَإِنَّهُ يَشْتَهَرُ غَالِبًا ، وَلَكِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي إِمَارَةِ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ وَلَمْ يُنْقَلِ أَنَّهُ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ أَي : إِذَا صَلَّيْتَ بِهِمْ إِمَامًا فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَهَذِهِ حَالَةٌ غَيْرُ الْأُولَى ، فَإِنَّ تِلْكَ قَصْرُهَا إِلَى رَكْعَةٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ فُرَادَى وَرِجَالًا وَرُكْبَانًا مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ وَغَيْرِ مُسْتَقْبِلِيهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ حَالَ الْاجْتِمَاعِ وَالِإِثْتِمَامِ بِإِمَامٍ وَاحِدٍ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى وُجُوبِ الْجَمَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، حَيْثُ أُغْتَفِرَتْ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ لِأَجْلِ الْجَمَاعَةِ ، فَلَوْلَا أَنَّهَا وَاجِبَةٌ مَا سَاغَ ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَنْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ مَنْسُوخَةٌ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ ﴾ ، فَبَعْدَهُ تَقَوَّتْ هَذِهِ الصِّفَةُ ، فَإِنَّهُ اسْتَدْلَالَ ضَعِيفٌ ، وَيَرُدُّ عَلَيْهِ مِثْلُ قَوْلِ مَانِعِي الزَّكَاةِ الَّذِينَ اِحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ قَالُوا : فَتَحْنُ لَا نَدْفَعُ زَكَاتِنَا بَعْدَهُ ﷺ إِلَى أَحَدٍ بَلْ نُخْرِجُهَا نَحْنُ بِأَيْدِينَا عَلَى مَنْ نَرَاهُ ، وَلَا نَدْفَعُهَا إِلَّا إِلَى مَنْ صَلَاتُهُ - أَي : دُعَاؤُهُ - سَكَنٌ لَنَا ، وَمَعَ هَذَا رَدَّ عَلَيْهِمُ الصَّحَابَةُ وَأَبَاوَا عَلَيْهِمْ هَذَا الْإِسْتِدْلَالَ ، وَأَجْبَرُوهُمْ عَلَى آدَاءِ الزَّكَاةِ وَقَاتَلُوا مَنْ مَنَعَهَا مِنْهُمْ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : قَامَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ فَكَبَّرَ ، وَكَبَّرُوا مَعَهُ ، وَرَكَعَ وَرَكَعَ نَاسٌ مِنْهُمْ ، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ ، ثُمَّ قَامَ لِلثَّلَاثِيَةِ فَقَامَ الَّذِينَ سَجَدُوا وَحَرَسُوا إِخْوَانَهُمْ ، وَأَتَتْ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَرَكَعُوا وَسَجَدُوا مَعَهُ ، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ وَلَكِنْ يَحْرُسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا <sup>(١)</sup> .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى بِهِمْ صَلَاةَ الْخَوْفِ فَقَامَ صَفٌّ بَيْنَ

يَدِيهِ وَصَفُّ خَلْفَهُ ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ خَلْفَهُ رَكْعَةً وَسَجَدَتَيْنِ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هُوَ لِأَيَّامٍ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ أَصْحَابِهِمْ ، وَجَاءَ أَوْلِيكَ حَتَّى قَامُوا فِي مَقَامِ هُوَ لِأَيَّامٍ فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَكْعَةً وَسَجَدَتَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ رَكْعَتَيْنِ وَهَمَّ رَكْعَةً (١) .

وَأَمَّا الْأَمْرُ بِحَمْلِ السَّلَاحِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ فَمَحْمُولٌ عِنْدَ طَائِفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْوُجُوبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٢] أَي : بَحِثْ تَكُونُونَ عَلَى أَهْبَةٍ إِذَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهَا لِبَسْتُمُوهَا بِلا كُفْلَةٍ ﴿ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ .

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ عَقِيبَ صَلَاةِ الْخَوْفِ ، وَإِنْ كَانَ مَشْرُوعًا مُرَعَّبًا فِيهِ أَيْضًا بَعْدَ غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ هَاهُنَا أَكْدُ لِمَا وَقَعَ فِيهَا مِنَ التَّخْفِيفِ فِي أَرْكَانِهَا وَمِنَ الرَّخِصَةِ فِي الدَّهَابِ فِيهَا وَالْإِيَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ يُوجَدُ فِي غَيْرِهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [التوبة : ٣٦] ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مِنْهَا مِنْ غَيْرِهَا ، وَلَكِنْ فِيهَا أَكْدٌ لِشِدَّةِ حُرْمَتِهَا وَعَظَمَتِهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾ أَي : فِي سَائِرِ أَحْوَالِكُمْ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَي : فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ وَحَصَلَتِ الطَّمَأِينَةُ ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أَي : فَأَتِمُّوهَا وَأَقِيمُوهَا ، كَمَا أَمَرْتُمْ بِحُدُودِهَا وَخُشُوعِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ شُؤْنِهَا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :  
 أَي مَفْرُوضًا ، وَقَالُوا أَيْضًا : إِنَّ لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَقْتِ الْحَجِّ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ أَي : لَا تَضَعُفُوا فِي طَلَبِ عَدُوِّكُمْ ،  
 بَلْ جُدُّوا فِيهِمْ وَقَاتِلُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ  
 يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ أَي : كَمَا يُصِيبُكُمُ الْجِرَاحُ وَالْقَتْلُ ، كَذَلِكَ يَحْصُلُ لَهُمْ ،  
 كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران : ١٤٠]  
 ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أَي : أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ سِوَاءٍ فِيمَا  
 يُصِيبُكُمْ وَإِيَّاهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ وَالْآلَامِ ، وَلَكِنْ أَنْتُمْ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ الْمُثُوبَةَ وَالنَّصْرَ  
 وَالتَّائِيدَ ، كَمَا وَعَدَكُمْ إِيَّاهُ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ وَهُوَ وَعْدٌ حَقٌّ وَخَبْرٌ  
 صِدْقٌ وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَاتَّيْتُمْ أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ وَأَشَدُّ رَغْبَةً فِيهِ  
 وَفِي إِقَامَةِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِعْلَانِهَا ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أَي : هُوَ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ فِيمَا  
 يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ وَيُنْفِذُهُ وَيُمْضِيهِ ، مِنْ أَحْكَامِهِ الْكُونِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ ، وَهُوَ الْمَحْمُودُ  
 عَلَى كُلِّ حَالٍ .

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ وَلَا  
 تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ حَاصِمًا ﴿١٥﴾ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾  
 وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَتِنُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا  
 أَثِيمًا ﴿١٧﴾ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ  
 يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٨﴾ هَتَأْتُمْ  
 هَتُوْلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطًا لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أَي : هُوَ  
 حَقٌّ مِنَ اللَّهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْحَقَّ فِي خَبْرِهِ وَطَلَبِهِ ، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْنَاكَ اللَّهُ﴾  
 اِحْتِجَّ بِهِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَصُولِ إِلَى أَنَّهُ كَانَ ﷺ لَهُ أَنْ يَحْكُمَ بِالْإِجْتِهَادِ بِهَذِهِ

الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : « أَلَا إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَحْزَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضِ ، فَأَقْضِي لَهُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرْهَا » (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ ﴾ الآية ، هَذَا إِنكَارٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي كَوْنِهِمْ يَسْتَخْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ ؛ لِئَلَّا يُنْكَرُوا عَلَيْهِمْ وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا ؛ لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ ، وَعَالِمٌ بِمَا فِي صَهَائِرِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَاتِنْتُمْ هَتُورًا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ الآية . أَي : هَبْ أَنْ هُوَ لَاءِ إِنْتَصَرُوا فِي الدُّنْيَا بِمَا أَبَدُوهُ أَوْ أَبَدَى لَهُمْ عِنْدَ الْحُكَّامِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِالظَّاهِرِ وَهُمْ مُتَعَبِدُونَ بِذَلِكَ ، فَمَازَا يَكُونُ صَنِيعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَوَكَّلُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي تَرْوِيجِ دَعْوَاهُمْ ؟ أَي : لَا أَحَدٌ يَوْمَئِذٍ يَكُونُ لَهُمْ وَكِيلاً ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ .

وَمَنْ يَعْمَلُ سُوءًا أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٦﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٧﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٨﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ كَانَ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ <sup>(١)</sup> : كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدُهُمْ ذَنْبًا أَصْبَحَ قَدْ كُتِبَ كَفَّارَةٌ ذَلِكَ الذَّنْبِ عَلَى أَبِيهِ ، وَإِذَا أَصَابَ الْبَوْلُ مِنْهُ شَيْئًا قَرَضَهُ بِالْمَقْرَاضِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : لَقَدْ آتَى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَيْرًا فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ : مَا آتَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا آتَاهُمْ ، جَعَلَ الْمَاءَ لَكُمْ طَهُورًا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [ آل عمران : ١٣٥ ] ، وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَرَوْا وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴾ [ فاطر : ١٨ ] يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَعْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَإِنَّمَا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ ، لَا يَحْمِلُ عَنْهَا غَيْرُهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أَي : مِنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ كَانَ ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ يَعْنِي : كَمَا إِتَمَّ بَنُو أُبَيْرِقَ بِصَنِيعِهِمُ الْقَبِيحِ ذَلِكَ الرَّجُلُ الصَّالِحَ وَهُوَ لَيْدُ بْنُ سَهْلٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ ، أَوْ زَيْدُ بْنُ السَّمِينِ الْيَهُودِيَّ عَلَى مَا قَالَهُ الْآخَرُونَ ، وَقَدْ كَانَ بَرِيئًا وَهُمْ الظَّلْمَةُ الْحَوْنَةُ ، كَمَا أَطْلَعَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ رَسُولَهُ ﷺ ، ثُمَّ هَذَا التَّقْرِيعُ وَهَذَا التَّوْبِيخُ عَامٌّ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ مِمَّنِ اتَّصَفَ بِصِفَتِهِمْ ، فَارْتَكَبَ مِثْلَ خَطِيئَتِهِمْ ، فَعَلَيْهِ مِثْلُ عُقُوبَتِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُونَكَ مِنْ شَيْءٍ ﴾ اِمْتَنَّ عَلَيْهِ بِتَأْيِيدِهِ إِيَّاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَعِصْمَتِهِ لَهُ ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَهُوَ : الْقُرْآنُ ، وَالْحِكْمَةُ وَهِيَ : السُّنَّةُ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ أَي : قَبْلَ نُزُولِ ذَلِكَ عَلَيْكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّنْ أَمَرْنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ﴾ [ الشورى : ٥٢ ] إِلَى آخِرِ

السُّورَةَ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [ القصص : ٨٦ ] ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١١٦﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ﴾ يَعْنِي : كَلَامِ النَّاسِ ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أَي : إِلَّا نَجْوَى مَن قَالَ ذَلِكَ .

عَنْ أُمِّ كَلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ أَنَّهُمَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَيْسَ الْكُذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَيُنْمِي خَيْرًا أَوْ يَقُولُ خَيْرًا » ﴿١﴾ وَقَالَتْ : لَمْ أَسْمَعْهُ يُرْخِصُ فِي شَيْءٍ مَّا يَقُولُهُ النَّاسُ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : فِي الْحَرْبِ ، وَالْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَحَدِيثِ الرَّجُلِ إِمْرَأَتَهُ وَحَدِيثِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا . قَالَ : وَكَانَتْ أُمُّ كَلْثُومِ بِنْتِ عُقْبَةَ مِنَ الْمُهَاجِرَاتِ اللَّاتِي بَايَعْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ؟ » قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « (إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ) » قَالَ : « وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ » ﴿٢﴾ .

وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ أَي : مُخْلِصًا إِلَى ذَلِكَ مُحْتَسِبًا ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أَي : ثَوَابًا جَزِيلًا كَثِيرًا وَاسِعًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ ﴾ أَي : وَمَن سَلَكَ غَيْرَ طَرِيقِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَصَارَ فِي شِقِّ وَالشَّرْعُ فِي شِقِّ ، وَذَلِكَ عَن عَمْدٍ مِنْهُ بَعْدَ مَا ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ وَتَبَيَّنَ لَهُ وَاتَّضَحَ لَهُ ، ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هَذَا مُلَازِمٌ لِلصَّفَةِ الْأُولَى ، وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ لِنَصِّ الشَّارِعِ ، وَقَدْ تَكُونُ لِمَا

(١) البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .

(٢) سنده صحيح : وقد أخرجه أبو داود (٤٩١٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٣٩١) ، والترمذي

(٢٥٠٩) ، وقال هذا حديث حسن صحيح .



اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ فِيمَا عَلِمَ انْتِفَاقُهُمْ عَلَيْهِ تَحْقِيقًا ، فَإِنَّهُ قَدْ ضَمِنَتْ لَهُمُ الْعِصْمَةُ فِي اجْتِمَاعِهِمْ مِنَ الْخَطَا تَشْرِيفًا لَهُمْ وَنَعْظِيًّا لِنَبِيِّهِمْ ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثٌ صَحِيحَةٌ كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ قَدْ ذَكَرْنَا مِنْهَا طَرَفًا صَالِحًا فِي كِتَابِ « أَحَادِيثِ الْأُصُولِ » وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ ادَّعَى تَوَاتُرَ مَعْنَاهَا وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْإِحْتِجَاجِ عَلَى كَوْنِ الْإِجْمَاعِ حُجَّةً تَحْرُمُ مُخَالَفَتَهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ بَعْدَ التَّرْوِيِّ وَالْفِكْرِ الطَّوِيلِ ، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْإِسْتِنْبَاطَاتِ وَأَقْوَاهَا وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ اسْتَشَكَلَ ذَلِكَ فَاسْتَبَعَدَ الدَّلَالَهَ مِنْهَا عَلَى ذَلِكَ .

وَلِهَذَا تَوَعَّدَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أَيُّ : إِذَا سَلَكَ هَذِهِ الطَّرِيقَ جَارَيْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ نُحَسِّنَهَا فِي صَدْرِهِ وَنُزِينَهَا لَهُ إِسْتِدْرَاجًا لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِمَّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [ القلم : ٤٤ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [ الصف : ٥ ] ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأنعام : ١١٠ ] ، وَجَعَلَ النَّارَ مَصِيرَهُ فِي الْآخِرَةِ لِأَنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الْهُدَى لَمْ يَكُنْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَّا إِلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [ الصفات : ٢٢ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [ الكهف : ٥٣ ]

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١٨﴾ وَلَا ضِلَّتْ لَهُمْ وَلَا مِئِينَهُمْ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيُبْتَئِكُنَّ إِذْ أَنْتَ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْئِيَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا حَتَّىٰ يَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُنْدٌ خِلْفَهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٦﴾

قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ الْآيَةَ. وَذَكَرْنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي صَدْرِ هَذِهِ السُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أَي: فَقَدْ سَلَكَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنِ الْهُدَى، وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ، وَأَهْلَكَ نَفْسَهُ وَخَسِرَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَفَاتَتْهُ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَا﴾ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ قَالَ: مَعَ كُلِّ صَنَمٍ جِنَّةٌ. وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: أَوْثَانًا. وَقِيلَ الْمَعْنَى: قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ وَإِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، قَالَ: فَاتَّخَذُوهُنَّ أَرْبَابًا وَصَوْرًا وَهُنَّ جَوَارِي فَحَكِّمُوا وَقَلِّدُوا، وَقَالُوا: هُوَ لَا يُشْبِهْنَ بَنَاتِ اللَّهِ الَّذِي نَعْبُدُهُ، يَعْنُونَ الْمَلَائِكَةَ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ شَبِيهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْتَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَنُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْتَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحَضَّرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿[الصفات: ١٥٨]، وَقِيلَ: يَعْنِي مَوْتَى.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ أَي: هُوَ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ وَحَسَنَهُ وَزَيَّنَهُ لَهُمْ، وَهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِبْلِيسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْمَ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ بِبَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ ادَّعَوْا عِبَادَتَهُمْ فِي الدُّنْيَا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبا: ٤١]

وَقَوْلُهُ: ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَي: طَرَدَهُ وَأَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنْ جِوَارِهِ، وَقَالَ: ﴿لَا تَحْذَنْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أَي: مُعَيَّنًا مُقَدَّرًا مَعْلُومًا، قَالَ قَتَادَةُ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتَسْعُونَ إِلَى النَّارِ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ.

﴿وَلَا ضَلَّ عَنْهُمُ﴾ أَي: عَنِ الْحَقِّ ﴿وَلَا مَيَّنَّ لَهُمْ﴾ أَي: أَزَيَّنَ لَهُمْ تَرْكَ التَّوْبَةِ، وَأَعَدَّهُمُ الْأَمَانِي وَأَمَرَهُمُ بِالتَّسْوِيفِ وَالتَّأْخِيرِ، وَأَعْرَضَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، ﴿وَلَا مَرَّنَهُمْ

فَلْيَبْتِكُنَّ إِذَا رَاكَ الْأَعْمَى ﴿١﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي تَشْقِيقَهَا ، وَجَعَلَهَا سِمَةً وَعَلَامَةً لِلْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ ﴿٢﴾ وَلَا تُرْمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴿٣﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِذَلِكَ خَضِي الدَّوَابِّ ﴿٤﴾ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَعْنِي بِذَلِكَ الْوَشْمُ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿٥﴾ النَّهْيُ عَنِ الْوَشْمِ فِي الْوَجْهِ ، وَفِي لَفْظٍ : « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ » وَفِي الصَّحِيحِ ﴿٦﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوَشِمَاتِ ، وَالنَّامِصَاتِ وَالْمُتَمَصَّاتِ ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغْيِرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ ﷻ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا أَلَعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ ، يَعْنِي قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] وَقَالَ عَدَدٌ آخَرَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تُرْمَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾ يَعْنِي : دِينَ اللَّهِ ﷻ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٠] عَلَى قَوْلٍ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ أَمْرًا ، أَيْ : لَا تُبَدِّلُوا فِطْرَةَ اللَّهِ وَدَعُوا النَّاسَ عَلَى فِطْرَتِهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿٧﴾ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجْسِنَانِهِ ، كَمَا تُوَلَّدُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تَجِدُونَ بِهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ » وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَّاضِ ابْنِ حِمَارٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷻ : « قَالَ اللَّهُ ﷻ : إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّلْتُ لَهُمْ » ﴿٨﴾ .  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ أَي : فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَتَلَكِ خَسَارَةٌ لَا جَبْرَ لَهَا وَلَا اسْتِدْرَاكَ لِفَائِتِهَا .  
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَعِدُ أَوْلِيَائَهُ وَيُمَنِّيهِمْ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ كَذَبَ وَافْتَرَى فِي ذَلِكَ ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعِدُهُمْ »

(١) صح ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنها - عند الطبري (٩/٢١٥) .

(٢) مسلم (٢١١٦، ٢١١٧) .

(٣) البخاري (٤٨٨٦) ، ومسلم (٢١٢٥) .

(٤) البخاري (١٣٥٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) .

(٥) مسلم (حديث ٢٨٦٥) .

الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ إِبْلِيسَ يَوْمَ الْمَعَادِ : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] وَقَوْلُهُ : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ أَي : الْمُسْتَحْسِنُونَ لَهُ فِيهَا وَعَدَهُمْ وَمَنَاهُمْ ﴿ مَاؤْلَهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أَي : مَصِيرُهُمْ وَمَأْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ أَي : لَيْسَ لَهُمْ عَنْهَا مَنَدُوحَةٌ ، وَلَا مَصْرَفٌ وَلَا خَلَاصٌ وَلَا مَنَاصُ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ السُّعْدَاءِ وَالْأَتَقِيَاءِ وَمَأْتَهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ النَّامَةِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أَي : صَدَقَتْ قُلُوبُهُمْ وَعَمِلَتْ جَوَارِحُهُمْ بِمَا أَمَرُوا بِهِ مِنَ الْخَيْرَاتِ ، وَتَرَكُوا مَا مَنُوهَا عَنْهُ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ ﴿ سُنَدَ خِلْمُهُ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : يَصْرَفُوهَا حَيْثُ شَاءُوا وَأَيْنَ شَاءُوا ، ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أَي : بِلَا زَوَالٍ وَلَا إِنْتِقَالٍ ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أَي : هَذَا وَعَدُّ مِنَ اللَّهِ وَوَعَدُ اللَّهِ مَعْلُومٌ حَقِيقَةٌ أَنَّهُ وَقَعَ لَا مَحَالَةَ ، وَلِهَذَا أَكَّدَهُ بِالْمُصَدِّرِ الدَّالِّ عَلَى تَحْقِيقِ الْخَيْرِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ حَقًّا ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ أَي : لَا أَحَدَ أَصْدَقُ مِنْهُ قَوْلًا ، أَي خَبْرًا ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ : « إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كَلَامُ اللَّهِ ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا ، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ »<sup>(١)</sup> .

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴿١٢٩﴾

(١) أخرجه مسلم بنحوه ، بدون كل ضلالة في النار ، انظر ( ٨٦٧ ) ، وهذا أيضاً عند أبي داود ، والنسائي ، وغيرهما من وجوه أخر بالفاظ قريبة هذا وزيادة كل ضلالة في النار ضعيفة .

وَالْمَعْنَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ الدِّينَ لَيْسَ بِالتَّحَلِّيِّ وَلَا بِالتَّمَنِّيِّ ، وَلَكِنْ مَا وَقَرَّ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ ادَّعَى شَيْئًا حَصَلَ لَهُ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ ، وَلَا كُلُّ مَنْ قَالَ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ سَمِعَ قَوْلُهُ بِمُجَرَّدِ ذَلِكَ ، حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنَ اللَّهِ بُرْهَانٌ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ أَي : لَيْسَ لَكُمْ وَلَا هُمْ النِّجَاةُ بِمُجَرَّدِ التَّمَنِّيِّ ، بَلِ الْعِبْرَةُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَاتِّبَاعِ مَا شَرَعَهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْكِرَامِ ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿ [الزلزلة : ٧-٨]

عن أبي هريرة قال<sup>(١)</sup> : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( قَارِبُوا وَسَدِّدُوا فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةً حَتَّى النُّكْبَةَ يَنْكُبَهَا أَوْ الشُّوْكَةَ يُشَاكُهَا )) .

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ إِنَّمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (( مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ حَتَّى الِهْمُّ يَهْمُهُ إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ ))<sup>(٢)</sup> .  
وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : السُّوءَ هَهُنَا : بِالشُّرْكِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْأَعْمَالِ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَحَادِيثِ ، وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْخُذَ مُسْتَحَقَّهَا مِنَ الْعَبْدِ ، إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَهُوَ الْأَجُودُ لَهُ ، وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ - وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَسَّأَهُ الْعَافِيَّةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَالصَّفْحَ وَالْعَفْوَ وَالْمُسَامَحَةَ - شَرَعَ فِي بَيَانِ إِحْسَانِهِ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادِهِ ذَكَرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ بِشَرَطِ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّهُ سَيَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ وَلَا مِقْدَارَ النَّقِيرِ - وَهُوَ النَّقْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ - وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْفَيْتِيلِ : وَهُوَ

(١) مسلم : أخرجه مسلم (٢٥٧٤) .

(٢) البخاري (٥٦٤١ ، ٥٦٤٢) ، ومسلم (حديث ٢٥٧٣) .

الْحَيْطُ الَّذِي فِي شَقِّ النَّوَاةِ ، وَهَذَا النَّقِيرُ : وَهُمَا فِي نَوَاةِ التَّمْرَةِ ، وَالْقَطِيمِرُ : وَهُوَ اللَّفَافَةُ الَّتِي عَلَى نَوَاةِ التَّمْرَةِ ، وَالثَّلَاثَةُ فِي الْقُرْآنِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أَي : أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّهِ ﷻ فَعَمِلَ إِيْنَا وَاحْتِسَابًا ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أَي : مُتَّبِعًا فِي عَمَلِهِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ لَهُ ، وَمَا أَرْسَلَ بِهِ رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لَا يَصِحُّ عَمَلُ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا ، أَنْ يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا ، وَالْخَالِصُ : أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ ، وَالصَّوَابُ : أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِلشَّرِيعَةِ ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ ، وَبَاطِنُهُ بِالْإِخْلَاصِ ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ ، فَمَتَى فَقَدَ الْإِخْلَاصَ كَانَ مُنَافِقًا وَهُمْ الَّذِينَ يُرَاءُونَ النَّاسَ ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلًا ، وَمَتَى جَمَعَهُمَا فَهُوَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٦] ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَاتَّبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَليُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، وَالْحَنِيفُ : هُوَ الْمَائِلُ عَنِ الشَّرْكِ قَصْدًا ، أَي : تَارِكًا لَهُ عَنِ بَصِيرَةٍ ، وَمُقْبَلٌ عَلَى الْحَقِّ بِكُلِّيَّةٍ ، لَا يَصُدُّهُ عَنْهُ صَادٌّ ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ التَّرْغِيبِ فِي اتِّبَاعِهِ ، لِأَنَّهُ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ حَيْثُ وَصَلَ إِلَى غَايَةِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعِبَادُ لَهُ ، فَإِنَّهُ انْتَهَى إِلَى دَرَجَةِ الْخَلَّةِ الَّتِي هِيَ أَرْفَعُ مَقَامَاتِ الْمَحَبَّةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِكثْرَةِ طَاعَتِهِ لِرَبِّهِ ، كَمَا وَصَفَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ : أَي : قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ ، وَفِي كُلِّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْعِبَادَةِ ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ جَلِيلٌ عَنْ حَقِيرٍ ، وَلَا كَبِيرٌ عَنْ صَغِيرٍ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠] وَالآيَةُ بَعْدَهَا . وَإِنَّمَا سُمِّيَ خَلِيلَ اللَّهِ لِشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لِرَبِّهِ ﷻ ، لِمَا قَامَ لَهُ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ »<sup>(١)</sup> ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنْ اللَّهُ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَعَيْدُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا رَادَّ لِمَا قَضَى ، وَلَا مُعَقَّبَ لِمَا حَكَمَ ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعِظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ وَأُطْفِئِهِ وَرَحْمَتِهِ ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ﴾ أَي : عِلْمُهُ نَافِذٌ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ ، لَا تُخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَا يَعْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ، وَلَا تُخْفَى عَلَيْهِ الذَّرَّةُ لِمَا تَرَاءَى لِلنَّاطِرِ وَمَا تَوَارَى .

وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تَوْلُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَالِمًا ﴿١٧﴾

عَنْ عَائِشَةَ<sup>(٣)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - : ﴿ وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ : هُوَ الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ النِّسْمَةُ ، هُوَ وَلِيُّهَا وَوَارِثُهَا ، قَدْ شَرَكْتُهُ فِي مَالِهِ حَتَّى فِي الْعِدْقِ ، فَيَرْغَبُ أَنْ يَنْكِحَهَا وَيَكْرَهُ أَنْ يَزُوجَهَا رَجُلًا فَيُشْرِكُهُ فِي مَالِهِ بِمَا شَرَكْتُهُ ، فَيَعْضُلُهَا ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ . قَالَتْ عَائِشَةُ : ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اسْتَفْتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِنَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَدَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الْآيَةَ ، قَالَتْ : وَالَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ يُتْلَىٰ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ . الْآيَةُ الْأُولَى الَّتِي

(١) البخاري (٣٩٠٤) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

(٢) انظر مسلم (٥٣٢ ، ٢٣٨٢) .

(٣) انظر البخاري (٤٥٧٤ ، ٤٦٠٠) ، وكذا البخاري (٢٥٠٦) .

قَالَ اللَّهُ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ [النساء: ٣] ، وَعَنْ عَائِشَةَ أَيْضًا قَالَتْ: وَقَوْلُ اللَّهِ ﷻ ﴿ وَتَرَعُونَ أَنْ تَسْخَبُوا مِنْ رَغْبَةٍ أَحَدِكُمْ عَنْ يَتِيمَتِهِ الَّتِي تَكُونُ فِي حِجْرِهِ حَتَّىٰ تَكُونَ قَلِيلَةَ الْمَالِ وَالْجَمَالِ ، فَنَهَىٰ أَنْ يَنْكِحُوا مَنْ رَغِبُوا فِي مَالِهَا وَجَمَالِهَا مِنْ يَتَامَىٰ النِّسَاءِ إِلَّا بِالْقِسْطِ ، مِنْ أَجْلِ رَغْبَتِهِمْ عَنْهُنَّ ، وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ فِي حِجْرِهِ يَتِيمَةٌ يَحِلُّ لَهُ تَزْوِجُهَا ، فَتَارَةً يَرِغَبُ فِي أَنْ يَتَزَوَّجَهَا فَأَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُمَهِّرَهَا أَسْوَأَ أَمْثَالِهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلْيَعْدِلْ إِلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ النِّسَاءِ ، فَقَدْ وَسَّعَ اللَّهُ ﷻ ، وَهَذَا الْمَعْنَىٰ فِي الْآيَةِ الْأُولَىٰ الَّتِي فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَتَارَةً لَا يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِيهَا رَغْبَةٌ لِذِمَامَتِهَا عِنْدَهُ ، أَوْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، فَنَهَىٰ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَعْضَلَهَا عَنِ الْأَزْوَاجِ خَشِيَةً أَنْ يُشْرِكُوهُ فِي مَالِهِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا . وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَليْمًا ﴾ تَهَيِّجًا عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَامْتِثَالًا لِلْأَوَامِرِ ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ عَالِمٌ بِجَمِيعِ ذَلِكَ ، وَسَيَجْزِي عَلَيْهِ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ وَأَتَمَّهُ .

وَإِنَّ امْرَأَةً خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا وَمُشَرِّعًا مِنْ حَالِ الزَّوْجَيْنِ تَارَةً فِي حَالِ نُفُورِ الرَّجُلِ عَنِ الْمَرْأَةِ وَتَارَةً فِي حَالِ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا ، وَتَارَةً عِنْدَ فِرَاقِهِ لَهَا ، فَالْحَالَةُ الْأُولَىٰ مَا إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا أَنْ يَنْفِرَ عَنْهَا أَوْ يُعْرِضَ عَنْهَا فَلَهَا أَنْ تُسْقِطَ عَنْهُ حَقَّهَا أَوْ بَعْضَهُ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كِسْوَةٍ أَوْ مَبِيتٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُقُوقِ عَلَيْهِ ، وَلَهُ أَنْ يَقْبَلَ ذَلِكَ مِنْهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا فِي بَدْلِهَا ذَلِكَ لَهُ ، وَلَا عَلَيْهِ فِي قَبُولِهِ مِنْهَا ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ أَيُّ: مِنَ الْفِرَاقِ ،



﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ أَي : الصُّلْحُ عِنْدَ الْمُشَاحَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ ، وَهَذَا لَمَّا كَبُرَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ عَزَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى فِرَاقِهَا ، فَصَالِحَتْهُ عَلَى أَنْ يُمَسِكَهَا ، وَتَتْرَكَ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ ، فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهَا وَأَبْقَاهَا عَلَى ذَلِكَ . عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : لَمَّا كَبُرَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ ، فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ لَهَا يَوْمَ سَوْدَةَ <sup>(١)</sup> .

وَعَنْ عَائِشَةَ : ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا ﴾ قَالَتْ : الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْمَرْأَةُ الْمُسِنَّةَ لَيْسَ بِمُسْتَكْتَبِرٍ مِنْهَا يُرِيدُ أَنْ يُفَارِقَهَا فَتَقُولُ : أَجْعَلُكَ مِنْ شَأْنِي فِي حِلٍّ فَزَلْتِ هَذِهِ الْآيَةَ <sup>(٢)</sup> . وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ صَلَاحَهَا عَلَى تَرْكِ بَعْضِ حَقِّهَا لِلزَّوْجِ ، وَقَبُولِ الزَّوْجِ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُفَارَقَةِ بِالْكُلِّيَّةِ ، كَمَا أُمِسَكَ النَّبِيُّ ﷺ سَوْدَةَ بِنْتُ زَمْعَةَ ! عَلَى أَنْ تَرَكَتْ يَوْمَهَا لِعَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وَلَمْ يُفَارِقْهَا بَلْ تَرَكَهَا مِنْ جُمْلَةِ نِسَائِهِ ، وَفِعْلُهُ ذَلِكَ لِتَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ فِي مَشْرُوعِيَّةِ ذَلِكَ وَجَوَازِهِ ، فَهُوَ أَفْضَلُ فِي حَقِّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَمَّا كَانَ الْوِفَاقُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْفِرَاقِ ؛ قَالَ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ بَلِ الطَّلَاقُ بَغِيضٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، ﴿ وَإِنِ تَحْسَبُونَهَا فِئْرَةً فَأِنَّهَا كَالنَّخْلِ الطَّائِفِ إِذَا نَبَتِ فَاصْبِرْ لَهَا صَبْرًا وَلَا يَمَسُّهَا فِي يَوْمٍ ذُو نَقْرَةٍ يَوْمٍ يَصْرِفُنَّ ﴾ . وَإِنِ تَتَجَشَّمُوا مَشَقَّةَ الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ مِنْهُنَّ ، وَتَقْسِمُوا لَهُنَّ أُسُوءَ أَمْثَالِهِنَّ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ أَي : لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تُسَاوُوا بَيْنَ النِّسَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ فَإِنَّهُ وَإِنِ وَقَعَ الْقِسْمُ الصُّورِيُّ لَيْلَةً وَلَيْلَةً فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْمَحَبَّةِ وَالشُّهُورَةِ وَالْجَمَاعِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ أَي : فَإِذَا مِلْتُمْ إِلَى وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، فَلَا تَبَالِغُوا فِي الْمِيلِ بِالْكُلِّيَّةِ ﴿ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أَي : فَتَبْقَى هَذِهِ الْأُخْرَى مُعَلَّقَةً . لَا ذَاتَ زَوْجٍ وَلَا مُطَلَّعَةً .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنِ تَصَلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أَي : وَإِنِ أَصْلَحْتُمْ فِي أُمُورِكُمْ ، وَقَسَمْتُمْ بِالْعَدْلِ فِيمَا تَمْلِكُونَ ، وَاتَّقَيْتُمُ اللَّهَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ

(١) البخاري (٥٢١٢) ، ومسلم (١٤٦٣) .

(٢) انظر البخاري (٢٥٠٦) .

عَفَرَ اللَّهُ لَكُمْ مَا كَانَ مِنْ مَيْلٍ إِلَى بَعْضِ النَّسَاءِ دُونَ بَعْضٍ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الثَّلَاثَةُ ، وَهِيَ حَالَةُ الْفِرَاقِ ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُمَا إِذَا تَفَرَّقَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يُغْنِيهِ عَنْهَا ، وَيُغْنِيهَا عَنْهُ ، بَأَنْ يُعَوِّضَهُ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا ، وَيُعَوِّضَهَا عَنْهُ بِمَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ أَي : وَاسِعَ الْفَضْلِ عَظِيمِ الْمَنْ حَكِيمًا فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْدَارِهِ وَشَرْعِهِ .

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٦٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٦٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٦٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٦٩﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ مَالِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنَّهُ الْحَاكِمُ فِيهِمَا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أَي : وَصَّيْنَاكُمْ بِمَا وَصَّيْنَاهُمْ بِهِ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ بِعِبَادَتِهِ وَحَدُّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [ إبراهيم : ٨ ] ، وَقَالَ : ﴿ فَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَعْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [ التغابن : ٦ ]

أَي : غَنِيٌّ عَنْ عِبَادِهِ ﴿ حَمِيدٌ ﴾ أَي : مَحْمُودٌ فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيُشْرَعُهُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أَي : هُوَ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، الرَّقِيبُ الشَّهِيدُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿ أَي : هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِذْهَابِكُمْ وَتَبْدِيلِكُمْ بغيرِكُمْ إِذَا عَصَيْتُمُوهُ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [ محمد : ٣٨ ] ، قَالَ

بَعْضُ السَّلَفِ : مَا أَهْوَنَ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [٢٠] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ [إبراهيم : ١٩ - ٢٠] أَيُّ : وَمَا هُوَ عَلَيْهِ بِمُمْتَنِعٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ أَيُّ : يَا مَنْ لَيْسَ هِمَّتُهُ إِلَّا الدُّنْيَا إَعْلَمَ أَنَّ عِنْدَ اللَّهِ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِذَا سَأَلْتَهُ مِنْ هَذِهِ وَهَذِهِ أَعْطَاكَ وَأَغْنَاكَ وَأَفْنَاكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [١٥] وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا سَرِيعَ الْحِسَابِ ﴿ [البقرة : ٢٠٠ - ٢٠٢] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ [الشورى : ٢٠] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ إِنْ تَعَدَلُوا وَإِنْ تَلُودُوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [١٢٥]

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، أَيُّ : بِالْعَدْلِ فَلَا يَعْدِلُوا عَنْهُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا أَنْ لَا يَأْخُذَهُمْ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَّائِمٍ ، وَلَا يَضُرُّهُمْ عَنْهُ صَارِفٌ ، وَأَنْ يَكُونُوا مُتَعَاوِنِينَ مُتَسَاعِدِينَ مُتَعَاضِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ شُهَدَاءَ لِلَّهِ ﴾ كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ أَيُّ : أَدْوَاهَا إِبْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ، فَحِينَئِذٍ تَكُونُ صَحِيحَةً عَادِلَةً حَقًّا خَالِيَةً مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالكِتْمَانِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ أَيُّ : إِشْهَدِ الْحَقَّ وَلَوْ عَادَ ضَرُّهَا عَلَيْكَ ، وَإِذَا سُئِلْتَ عَنِ الْأَمْرِ فَقُلِ الْحَقُّ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ مَضْرَّةً عَلَيْكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لِمَنْ أَطَاعَهُ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَضِيقُ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ أَيُّ : وَإِنْ كَانَتِ الشَّهَادَةُ عَلَىٰ وَالِدِكَ وَقَرَابَتِكَ فَلَا تُرَاعِهِمْ فِيهَا بَلِ إِشْهَدِ بِالْحَقِّ ، وَإِنْ عَادَ ضَرُّهَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ الْحَقَّ حَاكِمٌ

عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ أَي :  
لَا تَرَعَاهُ لِغِنَاهُ وَلَا تُشْفِقْ عَلَيْهِ لِفَقْرِهِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُمَا ، بَلْ هُوَ أَوْلَىٰ بِهِمَا مِنْكَ وَأَعْلَمُ  
بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا . ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ أَي : فَلَا تَحْمِلَنَّكُمْ الْهَوَىٰ  
وَالْعَصِيَّةُ وَبُغْضَةُ النَّاسِ إِلَيْكُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِي أُمُورِكُمْ وَشُؤُونِكُمْ ، بَلْ اإِزْمُوا  
الْعَدْلَ عَلَى أَيِّ حَالٍ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا  
أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تَلَوْتُمْ أَوْ تَعْرَضُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرٌ وَاحِدٌ مِنَ السَّلَفِ : ﴿ تَلَوْتُمْ ﴾ أَي :  
تَحَرَّفُوا الشَّهَادَةَ وَتَغَيَّرُوهَا ، وَاللَّيُّ : هُوَ التَّحْرِيفُ وَتَعَمُّدُ الْكَذِبِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ  
مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٧٨] ، وَالْإِعْرَاضُ هُوَ : كِتْمَانُ  
الشَّهَادَةِ وَتَرْكُهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ رَاءِثٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣]  
وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « خَيْرُ الشَّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا » (١) ، وَهَذَا  
تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أَي : وَسَيَجَازِيكُمْ بِذَلِكَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ  
رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ  
وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿

يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالدُّخُولِ فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الْإِيمَانِ وَشُعَبِهِ وَأَرْكَانِهِ  
وَدَعَائِمِهِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ ، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الْكَامِلِ وَتَقْرِيرِهِ  
وَتَشْيِئِهِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ ، كَمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾  
أَي : بَصِّرْنَا فِيهِ ، وَزِدْنَا هُدًى ، وَثَبِّتْنَا عَلَيْهِ ، فَأَمَرَهُمُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ [الحديد : ٢٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ ، ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي  
أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَهَذَا جِنْسٌ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَقَالَ فِي الْقُرْآنِ ﴿ نَزَّلَ ﴾

لأنه نزل مُفَرَّقًا مُنَجَّمًا عَلَى الْوَقَائِعِ ، بِحَسَبِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعِبَادُ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَأَمَّا الْكُتُبُ الْمُتَقَدِّمَةُ فَكَانَتْ تَنْزِلُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، لِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أَي : فَقَدْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَبَعُدَ عَنِ الْقَصْدِ كُلِّ الْبُعْدِ .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٧٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٧٩﴾ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٨٠﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ ، ثُمَّ رَجَعَ عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ فِيهِ ، ثُمَّ رَجَعَ وَاسْتَمَرَ عَلَى ضَلَالِهِ وَازْدَادَ حَتَّى مَاتَ ، فَإِنَّهُ لَا تَوْبَةَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَهُ وَلَا يَجْعَلُ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ فَرْجًا وَلَا مَخْرَجًا وَلَا طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى ، وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصَّفَةِ ، فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ يَوَالِيَهُمْ وَيُسِرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ : إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ . أَي : بِالْمُؤْمِنِينَ فِي إِظْهَارِنَا لَهُمْ بِالْمُؤَافَقَةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكَوهُ مِنْ مَوَالَاةِ الْكَافِرِينَ : ﴿ أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ ﴾ ، ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَمَّا جَعَلَهَا لَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر : ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ

الْعِزَّةَ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ [المنافقون: ٨]

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: التَّهْيِيجُ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللَّهِ، وَالِالْتِجَاءُ إِلَى عِبُودِيَّتِهِ وَالِإِنْتِظَامُ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ النُّصْرَةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَتُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْ أَنْتُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ أَي: إِنَّكُمْ إِذَا إِزْتَكَبْتُمْ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيْتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَزْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ فِي الْمَأْتَمِ.

وَالَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ تَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٨]

قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ يَعْنِي: نَسَخَ قَوْلُهُ: ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ ﴾ لِقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٩]

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ أَي: كَمَا اشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ كَذَلِكَ شَارَكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ وَالْقِيُودِ وَالْأَغْلَالِ وَشَرِبِ الْحَمِيمِ وَالْغَسْلِينَ لَا الزُّلَالَ.

الَّذِينَ يَرَبِّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُحْمٌ فَتَحَّ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ حَكَمٌ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَرَبِّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السُّوءِ، بِمَعْنَى: يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ وَظُهُورَ الْكُفْرَةِ عَلَيْهِمْ وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ ﴿ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ لُحْمٌ فَتَحَّ مِنْ اللَّهِ ﴾ أَي: نَصَرَ وَتَأَيَّدَ وَظَفَرَ وَغَنِمَةً، ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ أَي: يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ

بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ ، ﴿ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ أَي : إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، كَمَا وَقَعَ يَوْمَ أُحُدٍ ، فَإِنَّ الرَّسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ ؛ ﴿ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ وَمَا أَلَوْنَاكُمْ حَبَالًا وَتَحْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ .

وَهَذَا أَيْضًا تَوَدُّدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَانِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ لِيَحْظُوا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيْمَانِهِمْ وَقَلَّةِ إِيْقَانِهِمْ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاللَّهُ تَحَكُّمٌ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أَي : بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ مِنَ الْبُوطَيْنِ الرَّدِيئَةِ ، فَلَا تَعْتَرُوا بِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ ، بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

عَنْ يُسَيْعِ الْكِنْدِيِّ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ فَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ أَذْنُهُ أَذْنُهُ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ فَاللَّهُ تَحَكُّمٌ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ <sup>(١)</sup> .

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : ﴿ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُسَلِّطُوا عَلَيْهِمْ اسْتِيْلَاءً اسْتِنْصَالًا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [ غافر : ٥١ ] . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِيمَا أَمَلُوهُ وَرَجَّوهُ وَانْتَظَرُوهُ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَفِيمَا سَلَكَوهُ مِنْ مُصَانَعَتِهِمُ الْكَافِرِينَ خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ ، إِذَا هُمْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ نَدِيمِينَ ﴾ [ المائدة : ٥٢ ] وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الْعُلَمَاءِ : وَهُوَ الْمَنْعُ مِنْ بَيْعِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ لِلْكَافِرِينَ ، لِمَا فِي صِحَّةِ ابْتِيَاعِهِ مِنَ التَّسْلِيطِ لَهُ عَلَيْهِ وَالْإِذْلَالِ ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِالصَّحَّةِ بِأَمْرِهِ بِإِزَالَةِ

(١) صحيح إلى يسع الكندي ، ومراد عليٌّ ﷺ أن قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ أن ذلك يوم القيامة قال ابن عطية : وبهذا قال جميع أهل التأويل .

ملكه عنه في الحال ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ نَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ .

إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٧٢﴾ مُذَبَذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٧٣﴾

قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [البقرة : ٩] ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُخَادِعُ ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِحُجْلِهِمْ وَقَلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ ، كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا ، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْلِفُونَ لَهُ أُمَّتَهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُمْ عِنْدَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ءَلَا إِنَّهُمْ مُّكْذِبُونَ ﴾ [المجادلة : ١٨] ، وَقَوْلُهُ ﴿ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ ﴾ أَي : هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ ، وَيَخْدُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ، وَكَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴾ [الحديد : ١٣-١٥] ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ : (( مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى اللَّهُ بِهِ ))<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . هَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا وَهِيَ الصَّلَاةُ ، إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا قَامُوا وَهُمْ كَسَالَى عَنْهَا ، لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا ، وَلَا إِيمَانَ لَهُمْ بِهَا وَلَا خَشْيَةَ وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَا . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى ﴾ هَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ [التوبة : ٥٤]

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٩) ، ومسلم (٢٩٨٦ ، ٢٩٨٧) .



ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى صِفَةَ بَوَاطِنِهِمُ الْفَاسِدَةَ فَقَالَ : ﴿يُرَأُونَ النَّاسَ﴾ أَي : لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ وَلَا مُعَامَلَةَ مَعَ اللَّهِ بَلْ إِنَّمَا يَشْهَدُونَ النَّاسَ تَقِيَّةً لَهُمْ وَمُصَانَعَةً وَهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرُونَ فِيهَا غَالِبًا كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقَتِ الْعَتَمَةِ وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْعَلَسِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ مَعِي بِرِجَالٍ وَمَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطْبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ ، فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ ))<sup>(١)</sup> . وَفِي رِوَايَةٍ : (( وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرَفًا سَمِينًا أَوْ مِزْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ لَشَهِدَ الصَّلَاةَ ))<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَي : فِي صَلَاتِهِمْ لَا يَخْشُونَ وَلَا يَذَرُونَ مَا يَقُولُونَ ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرِضُونَ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ : يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنِي الشَّيْطَانِ قَامَ فَتَقَرَّرَ أَرْبَعًا ، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ))<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿مُذْتَبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ﴾ يَعْنِي : الْمُنَافِقِينَ مُحَرَّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشُّكُّ فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَتُولَاءٍ وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أَوْلِيائِكَ ﴿كَلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوَءٌ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة : ٢٠] . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿مُذْتَبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ﴾ يَعْنِي : أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ : ﴿وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ﴾ يَعْنِي : الْيَهُودُ . عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ<sup>(٤)</sup> : (( مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تُعْبَرُ إِلَى

(١) البخاري (٦٥٧) ، ومسلم (٦٥١) .

(٢) البخاري (٦٤٤) ، ومسلم (٦٥١) .

(٣) مسلم (حديث ٦٢٢) .

(٤) مسلم (٢٧٨٤) .

هَذِهِ مَرَّةً ، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً ، لَا تَدْرِي أَيُّهُمَا تَتَّبِعُ » .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ وَالْكَافِرِ مَثَلُ ثَلَاثَةِ نَفَرٍ انْتَهَوْا إِلَى وَادٍ ، فَدَفَعَ أَحَدُهُمْ فَعَبَرَ ، ثُمَّ وَقَعَ الْآخِرُ حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى نِصْفِ الْوَادِي ، نَادَاهُ الَّذِي عَلَى شَفِيرِ الْوَادِي : وَيَلَيْكَ أَيْنَ تَذْهَبُ ؟ إِلَى الْهَلَكَةِ إِرْجِعْ عَوْدَكَ عَلَى بَدْنِكَ ، وَنَادَاهُ الَّذِي عَبَرَ : هَلُمَّ إِلَى النَّجَاةِ ، فَجَعَلَ يَنْظُرُ إِلَى هَذَا مَرَّةً وَإِلَى هَذَا مَرَّةً ، قَالَ : فَجَاءَهُ سَيْلٌ فَأَعْرَقَهُ فَالَّذِي عَبَرَ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالَّذِي غَرِقَ الْمُنَافِقُ ، وَالَّذِي مَكَثَ الْكَافِرُ <sup>(١)</sup> .

وَعَنْ قَتَادَةَ <sup>(٢)</sup> ﴿ مُذْتَبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَتُولَاءٍ وَلَا إِلَى هَتُولَاءٍ ﴾ يَقُولُ : لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ مُخْلِصِينَ ، وَلَا مُشْرِكِينَ مُصَرِّحِينَ بِالشُّرْكِ ، قَالَ : وَذَكَرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَضْرِبُ مَثَلًا لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ وَالْكَافِرِ كَمَثَلِ رَهْطٍ ثَلَاثَةٍ دَفَعُوا إِلَى نَهْرٍ ، فَوَقَعَ الْمُؤْمِنُ فَقَطَعَ ، ثُمَّ وَقَعَ الْمُنَافِقُ حَتَّى إِذَا كَادَ يَصِلُ إِلَى الْمُؤْمِنِ نَادَاهُ الْكَافِرُ أَنْ هَلُمَّ إِلَيَّ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ . وَنَادَاهُ الْمُؤْمِنُ أَنْ هَلُمَّ إِلَيَّ فَإِنِّي عِنْدِي وَعِنْدِي يُحْصِي لَهُ مَا عِنْدَهُ ، فَمَا زَالَ الْمُنَافِقُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَهُمَا حَتَّى أَتَى أَدَى فَعَرَفَهُ ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ لَمْ يَزَلْ فِي شَكٍّ وَشُبُهَةٍ حَتَّى أَتَى عَلَيْهِ الْمَوْتُ وَهُوَ كَذَلِكَ . وَهَذَا قَالَ نَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ أَيُّ : وَمَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] فَإِنَّهُ ﴿ مَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وَالْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَضَلَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ النَّجَاةِ فَلَا هَادِيَ لَهُمْ ، وَلَا مُنْقِذَ لَهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٣)</sup> أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١١١﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١١٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَسَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ

(١) صححه صحيح إلى ابن مسعود .

(٢) لطبري (١٠٧٣٧) بإسناد حسن

وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٢٧﴾

يَنْهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، يَعْنِي : مُصَاحِبَتِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُنَاصَحَتِهِمْ وَإِسْرَارِ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ ، وَإِفْشَاءِ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٢٨] أَي : يُحَذِّرُكُمْ عُقُوبَتَهُ فِي إِزْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ ، وَهَذَا قَالَ هُنَا : ﴿ أَتْرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ أَي : حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾ قَالَ : كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ ، وَكَذَا قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ أَي : يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمُ الْغَلِيظِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ <sup>(١)</sup> ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ قَالَ : الدَّرَكُ الْأَسْفَلُ يُّوتُ لَهَا أَبْوَابٌ تَطْبُقُ عَلَيْهِمْ فَتُوقَدُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَمِنْ فَوْقِهِمْ . ﴿ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ أَي : يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وَقَبِلَ نَدْمَهُ ، وَإِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ ﴾ أَي : بَدَلُوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنْ قَلَّ . ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ ﴾ أَي : أَصْلَحْتُمْ الْعَمَلَ وَأَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ أَي : مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ ، وَمَنْ أَمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجُزَاءِ .

﴿ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَاءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

﴿١٦﴾ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوقًا قَدِيرًا ﴿١٦﴾

قِيلَ الْمَعْنَى : لَا يُحِبُّ اللَّهُ أَنْ يَدْعُوَ أَحَدًا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا ، فَإِنَّهُ قَدْ أَرْحَصَ لَهُ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ﴾ وَإِنْ صَبَرَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ مَالِكِ الْجَزْرِيُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : هُوَ الرَّجُلُ يَشْتُمُكَ فَتَشْتُمُهُ ، وَلَكِنْ إِنْ افْتَرَى عَلَيْكَ فَلَا تَفْتَرِ عَلَيْهِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [ الشورى : ٤١ ] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْمُسْتَبَانَ مَا قَالَا فَعَلَى الْبَادِي مِنْهُمَا ، مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ » (١) . وَقَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿ لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ ﴾ هُوَ الرَّجُلُ يَنْزِلُ بِالرَّجُلِ فَلَا يُحْسِنُ ضِيافَتَهُ فَيَخْرُجُ فَيَقُولُ أَسَاءَ ضِيافَتِي وَلَمْ يُحْسِنْ وَفِي رِوَايَةٍ : هُوَ الضَّيْفُ الْمُحْوَلُ رَحْلُهُ ، فَإِنَّهُ يَجْهَرُ لِصَاحِبِهِ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ .

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنَّكَ تَبْعُنَا فَنَنْزِلَ بِقَوْمٍ فَلَا يُقْرُونَا فَمَا تَرَى فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « إِذَا نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا مِنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ » (٢) .

وَمِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَأَمْثَالِهَا ذَهَبَ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ إِلَى وُجُوبِ الضِّيَافَةِ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنَّ لِي جَارًا يُؤْذِينِي ، فَقَالَ لَهُ : « أَخْرِجْ مَتَاعَكَ فَضَعُهُ عَلَى الطَّرِيقِ » فَأَخَذَ الرَّجُلُ مَتَاعَهُ فَطَرَحَهُ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ مَرَّ بِهِ قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : جَارِي يُؤْذِينِي فَيَقُولُ : اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ ، اللَّهُمَّ اخْزِهِ قَالَ : فَقَالَ الرَّجُلُ : ارْجِعْ إِلَى مَنْزِلِكَ وَاللَّهِ لَا أُوذِيكَ أَبَدًا (٣) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوقًا قَدِيرًا ﴾ أَي : إِنْ تَظَاهَرُوا أَيُّهَا النَّاسُ خَيْرًا أَوْ أَخْفَيْتُمُوهُ أَوْ عَفَوْتُمْ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكُمْ فَإِنَّ ذَلِكَ بِمَا يَقْرَبُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيُجْزَلُ ثَوَابِكُمْ لَدَيْهِ ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِهِ تَعَالَى أَنْ يَعْفُوَ عَنْ عِبَادِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى عِقَابِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوقًا قَدِيرًا ﴾ ، وَهَذَا وَرَدَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ

(١) مسلم (٢٥٨٧) .

(٢) البخاري (حديث ٢٤٦) ، ومسلم (١٧٢٧) .

(٣) حسن : وانظر سنن أبي داود (٥١٥٣) .

حَمَلَةَ الْعَرْشِ يَسْبَحُونَ اللَّهَ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ : سُبْحَانَكَ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ : سُبْحَانَكَ عَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : (( مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ ، وَلَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ ))<sup>(١)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَقَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

يَتَوَعَّدُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْكٰفِرِينَ بِهِ وَبِرُسُلِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ فِي الْإِيمَانِ ، فَأَمَّنُوا بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، بِمُجَرَّدِ الشَّهْيِ وَالْعَادَةِ وَمَا أَلْفَوْا عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ ، لَا عَنْ دَلِيلٍ قَادَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ بِمُجَرَّدِ الْهَوَى وَالْعَصَبِيَّةِ ، فَالْيَهُودُ - عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ - آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ إِلَّا عِيسَى وَمُحَمَّدًا - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالنَّصَارَى : آمَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَكَفَرُوا بِخَاتَمِهِمْ وَأَشْرَفِهِمْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَالسَّامِرَةُ : لَا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ بَعْدَ يَوْشَعَ خَلِيفَةَ مُوسَى ابْنِ عِمْرَانَ ، وَالْمَجُوسُ : يُقَالُ إِتْمَمُ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِنَبِيِّ هُمْ اسْمُهُ : زَرَادِشْتُ ثُمَّ كَفَرُوا بِشُرْعِهِ ، فَرَفَعَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِنَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ كَفَرَ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ بِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَمَنْ رَدَّ بُيُوتَهُ لِلْحَسَدِ أَوْ الْعَصَبِيَّةِ أَوْ الشَّهْيِ تَبَيَّنَ أَنَّ إِيمَانَهُ بِمَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ إِيمَانًا شَرْعِيًّا إِنَّمَا هُوَ عَنْ غَرَضٍ وَهَوَى وَعَصَبِيَّةٍ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فَوَسَّمَهُمْ بِأَتْمَمُ كَفَارًا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ أَي : فِي الْإِيمَانِ ﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ أَي : طَرِيقًا وَمَسْلَكًا .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ أَي: كُفْرُهُمْ مُحَقَّقٌ لَا مَحَالَةَ بِمَنْ إِدْعَاؤُا الْإِيمَانَ بِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَرْعِيًّا، إِذْ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ لَكُونَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَا مَنُوا بِنَبِيِّهِ وَبِمَنْ هُوَ أَوْضَحُ دَلِيلًا وَأَقْوَى بُرْهَانًا مِنْهُ، أَوْ نَظَرُوا حَقَّ النَّظَرِ فِي نُبُوَّتِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أَي: كَمَا اسْتَهَانُوا بِمَنْ كَفَرُوا بِهِ إِمَّا لِعَدَمِ نَظَرِهِمْ فِيهَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ اللَّهِ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى جَمْعِ حُطَامِ الدُّنْيَا بِمَا لَا ضَرُورَةَ بِهِمْ إِلَيْهِ، وَإِمَّا بِكُفْرِهِمْ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِنُبُوَّتِهِ، كَمَا كَانَ يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَحْبَابِ الْيَهُودِ فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيْثُ حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَخَالَفُوهُ وَكَذَّبُوهُ وَعَادُوهُ وَقَاتَلُوهُ فَسَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّ الدُّنْيَوِيَّ الْمَوْصُولَ بِالذَّلِّ الْأَخْرَوِيَّ ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١] فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾ يَعْنِي: بِذَلِكَ أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ ﷺ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللَّهُ وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّ لَهُمُ الْجَزَاءَ الْجَزِيلَ وَالثَّوَابَ الْجَلِيلَ وَالْعَطَاءَ الْجَمِيلَ فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ عَلَى مَا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَي: لِذُنُوبِهِمْ، إِنْ كَانَ لِبَعْضِهِمْ ذُنُوبٌ.

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا لَمُبْتَلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٠٤﴾

قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: سَأَلَ الْيَهُودُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ كَمَا نُزِلَتْ التَّوْرَةُ عَلَى مُوسَى مَكْتُوبَةً، وَقَالَ آخَرُونَ: سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ

صُحُفًا مِّنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَىٰ فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَفُلَانٍ بِتَصْدِيقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّعَنُّتِ وَالْعِنَادِ وَالْكَفْرِ وَالْإِلْحَادِ ، كَمَا سَأَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ قَبْلَهُمْ نَظِيرُ ذَلِكَ ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي سُورَةِ سُبْحَانَ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ [الإسراء : ٩٠] الْآيَاتِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَقَدَّ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أَي : بِطُغْيَانِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَعُتُوهُمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَهَذَا مُفَسَّرٌ فِي (( سُورَةِ الْبَقَرَةِ )) حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٥٥-٥٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ آتَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أَي : مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْأَدِلَّةِ الْقَاهِرَةِ عَلَىٰ يَدِ مُوسَىٰ ﷺ فِي بِلَادِ مِصْرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ إِهْلَاكِ عَدُوِّ اللَّهِ فِرْعَوْنَ وَجَمِيعِ جُنُودِهِ فِي الْيَمِّ ، فَمَا جَاوَزُوهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّىٰ أَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامِهِمْ ، فَقَالُوا لِمُوسَىٰ : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَتُولَاءِ مُتَبَرِّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْطَلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨-١٣٩] ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قِصَّةَ إِتْخَاذِهِمُ الْعِجْلَ مَبْسُوطَةً فِي (( سُورَةِ الْأَعْرَافِ )) وَفِي (( سُورَةِ طه )) بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَىٰ إِلَىٰ مُنَاجَاةِ اللَّهِ ﷻ ، ثُمَّ لَمَّا رَجَعَ وَكَانَ مَا كَانَ جَعَلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ مِنَ الَّذِي صَنَعُوهُ وَابْتَدَعُوهُ أَنْ يَقْتُلَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَهُ ، فَجَعَلَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، ثُمَّ أَحْيَاهُمْ اللَّهُ ﷻ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُّبِينًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ ﴾ وَذَلِكَ حِينَ امْتَنَعُوا مِنَ الْإِتِّزَامِ بِأَحْكَامِ التَّوْرَةِ ، وَظَهَرَ مِنْهُمْ إِبَاءٌ عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مُوسَىٰ ﷺ وَرَفَعَ اللَّهُ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ جَبَلًا ثُمَّ أَلْزَمُوا فَالْتَزَمُوا وَسَجَدُوا وَجَعَلُوا يَنْظُرُونَ إِلَىٰ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ خَشْيَةً أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧١] ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا ﴾ أَي : فَخَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، فَأَيْتَهُمْ أُمُرًا أَنْ يَدْخُلُوا بَابَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سُجْدًا وَهُمْ يَقُولُونَ حِطَّةً . أَي : اللَّهُمَّ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا

فِي تَرْكِنَا الْجِهَادَ وَنُكُولَنَا عَنْهُ حَتَّى تُمْنَا فِي التَّيِّهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى اسْتَاهِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : حِنْطَةٌ فِي شَعْرَةٍ ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ ﴾ أَي : وَصَيْنَاهُمْ بِحِفْظِ السَّبْتِ وَالنِّزَامِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا دَامَ مَشْرُوعًا لَهُمْ ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ﴾ أَي : شَدِيدًا ، فَخَالَفُوا وَعَصَوْا وَتَحَيَّلُوا عَلَى إِرْتِكَابِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ [الأعراف: ١٦٣]

فِيمَا نَقَضْتَهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفَّرَهُمْ بِعَايَتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾

وَهَذِهِ مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي إِزْتَكَبُوهَا يَمَّا أُوجِبَ لِعَنْتِهِمْ وَطَرَدَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ عَنِ الْهُدَى ، وَهُوَ نَقْضُهُمُ الْمَوَاطِيقَ وَالْعُهُودَ الَّتِي أَخَذَتْ عَلَيْهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ ، أَي : حُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ وَالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي شَاهَدُوهَا عَلَى يَدِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ وَذَلِكَ لِكثْرَةِ إِجْرَامِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا جَمًّا غَفِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ قَالَ عَزِيزٌ وَاحِدٌ : أَي فِي غِطَاءٍ ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ [فصلت: ٥] ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ ادَّعَوْا أَنَّ قُلُوبَهُمْ غُلْفٌ لِلْعِلْمِ ، أَي : أَوْعِيَةٌ لِلْعِلْمِ قَدْ حَوَتْهُ وَحَصَلَتْهُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَأَنَّهُمْ يَعْتَدِرُونَ إِلَيْهِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَعْبِي مَا يَقُولُ ؛ لِأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَفِي أَكِنَّةٍ ، قَالَ اللَّهُ : بَلْ هِيَ مَطْبُوعٌ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي عَكْسٌ عَلَيْهِمْ مَا



ادَعَوْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ . ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أَي : مَرَدَتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ وَقَلَّةِ الْإِيمَانِ . ﴿ وَبَكَفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتَّنَا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُمْ رَمَوْهَا بِالزَّنَا ، وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُمْ رَمَوْهَا وَابْنَهَا بِالْعَظَائِمِ فَجَعَلُوهَا زَانِيَةً ، وَقَدْ حَمَلَتْ بِوَلَدِهَا مِنْ ذَلِكَ ، زَادَ بَعْضُهُمْ : وَهِيَ حَائِضٌ - فَعَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَابَعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أَي : الَّذِي يَدَّعِي لِنَفْسِهِ هَذَا الْمَنْصِبَ قَتَلْنَاهُ ، وَهَذَا مِنْهُمْ مِنْ بَابِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ ، كَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [ الحجر : ٦ ]

وَكَانَ مِنْ خَيْرِ الْيَهُودِ (١) - عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللَّهِ وَسَخَطِهِ وَغَضَبِهِ وَعِقَابِهِ - أَنَّهُ لَمَّا بَعَثَ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالْبَيِّنَاتِ وَاهْتَدَى حَسَدُوهُ عَلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، الَّتِي كَانَ يُبْرئُ بِهَا الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ طَائِرًا ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِرًا يُشَاهِدُ طَيْرَانَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﷻ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِهَا وَأَجْرَاهَا عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَعَ هَذَا كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ وَسَعَوْا فِي آذَاهُ بِكُلِّ مَا أَمَكْنَهُمْ ، حَتَّى جَعَلَ نَبِيَّ اللَّهِ عِيسَى ﷺ لَا يُسَاكِنُهُمْ فِي بَلَدَةٍ ، بَلْ يُكْثِرُ السِّيَاحَةَ هُوَ وَأُمَّهُ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - ثُمَّ لَمْ يُقْعِبْهُمْ ذَلِكَ حَتَّى سَعَوْا إِلَى مَلِكِ دِمَشْقَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، وَكَانَ رَجُلًا مُشْرِكًا مِنْ عَبَدَةِ الْكُؤَاكِبِ ، وَكَانَ يُقَالُ لِأَهْلِ مِلَّتِهِ الْيُونَانُ ، وَأَنَّهُمْ إِِلَيْهِ أَنَّ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ رَجُلًا يَفْتِنُ النَّاسَ وَيُضِلُّهُمْ وَيُفْسِدُ عَلَى الْمَلِكِ رَعَايَاهُ ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ مِنْ هَذَا وَكَتَبَ إِلَى نَائِبِهِ بِالْمُقَدَّسِ أَنْ يَحْتَاطَ عَلَى هَذَا الْمَذْكُورِ ، وَأَنْ يَصْلُبَهُ وَيَضَعِ الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ وَيَكْفَأَ آذَاهُ عَنِ النَّاسِ ، فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ امْتَثَلَ وَإِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ذَلِكَ ، وَذَهَبَ هُوَ وَطَائِفَةٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ عِيسَى ﷺ وَهُوَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِثْنَيْ عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَقِيلَ : سَبْعَةَ عَشَرَ نَفَرًا ، وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ لَيْلَةَ السَّبْتِ فَحَصَرُوهُ هُنَالِكَ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ وَأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ مِنْ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ

(١) هكذا أورده الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - غير مسند .

أَوْ خُرُوجِهِ إِلَيْهِمْ ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ : أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي وَهُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ ؟ فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ شَابٌّ مِنْهُمْ فَكَانَتْهُ اسْتَصْغَرُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَعَادَهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُتَدَبُّ إِلَّا ذَلِكَ الشَّابُّ ، فَقَالَ : أَنْتَ هُوَ ، وَالْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَبَهَ عِيسَى حَتَّى كَانَتْهُ هُوَ ، وَفُتِحَتْ رُوزْنَةٌ مِنْ سَقْفِ الْبَيْتِ وَأَخَذَتْ عِيسَى عليه السلام سِنَّةً مِنَ النَّوْمِ ، فَرَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ كَذَلِكَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [ آل عمران : ٥٥ ] ، فَلَمَّا رُفِعَ خَرَجَ أَوْلِيكَ النَّفْرَ ، فَلَمَّا رَأَى أَوْلِيكَ ذَلِكَ الشَّابَّ ظَنُّوا أَنَّهُ عِيسَى فَأَخَذُوهُ فِي اللَّيْلِ وَصَلَبُوهُ وَوَضَعُوا الشُّوكَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَأَظْهَرَ الْيَهُودُ أَنَّهُمْ سَعَوْا فِي صَلْبِهِ وَتَبَجَّحُوا بِذَلِكَ ، وَسَلَّمْ لَهُمْ طَوَائِفٌ مِنَ النَّصَارَى ذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ وَقَلَّةِ عَقْلِهِمْ مَا عَدَا مَنْ كَانَ فِي الْبَيْتِ مَعَ الْمَسِيحِ فَإِنَّهُمْ شَاهَدُوا رَفْعَهُ . وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَإِنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَّ الْيَهُودُ أَنَّ الْمَصْلُوبَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّ مَرْيَمَ جَلَسَتْ تَحْتَ ذَلِكَ الْمَصْلُوبِ وَبَكَتْ ، وَيُقَالُ إِنَّهُ خَاطَبَهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ امْتِحَانِ اللَّهِ عِبَادَهُ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَقَدْ أَوْضَحَ اللَّهُ الْأَمْرَ وَجَلَّاهُ وَبَيَّنَّاهُ وَأَظْهَرَهُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ الْكَرِيمِ الْمُؤَيَّدِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالْبَيِّنَاتِ وَالذَّلَائِلِ الْوَاضِحَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى : - وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ وَرَبُّ الْعَالَمِينَ الْمُطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، الْعَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ - : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أَي : رَأَوْا شَبَهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاهُ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ ائْتَمَرُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آتِياعِ الظَّنِّ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ مَنْ ادَّعَى أَنَّهُ قَتَلَهُ مِنَ الْيَهُودِ ، وَمَنْ سَلَّمَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ جُهَالِ النَّصَارَى ، كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وَسُعْرِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ أَي : وَمَا قَتَلُوهُ مُتَيَقِّنِينَ أَنَّهُ هُوَ بَلْ شَاكِينَ مُتَوَهِّمِينَ . ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أَي : مَنِيعَ الْجَنَابِ لَا يُرَامُ جَنَابُهُ وَلَا يُضَامُ مَنْ لَادَ بِبَابِهِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَي : فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا ، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْحُجَّةُ الدَّامِغَةُ وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ وَالْأَمْرُ الْقَدِيمُ .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(١)</sup> قَالَ: لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْخَوَارِجِ، يَعْنِي فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَطْرُقُ مَاءً فَقَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي ائْتِنِي عَشْرَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبْهِي فَيَقْتُلُ مَكَانِي وَيَكُونُ مَعِي فِي دَرَجَتِي، فَقَامَ شَابٌّ مِنْ أَحَدِهِمْ سِنًّا فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَامَ ذَلِكَ الشَّابُّ فَقَالَ: اجْلِسْ. ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ فَقَامَ الشَّابُّ فَقَالَ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبْهَ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رَوْزَةِ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبْهَ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمْ ائْتِنِي عَشْرَةَ مَرَّةٍ بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَهَؤُلَاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلَاءِ النَّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَهَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَتَنَظَّهَرَتِ الْكَافِرَاتُ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوهَا، فَلَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعْنَى ذَلِكَ ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يَعْنِي: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى يُوجِّهُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ جَمِيعَهُمْ يُصَدِّقُونَ بِهِ إِذَا نَزَلَ لِقَتْلِ الدَّجَالِ، فَتَصِيرُ الْمَلَلُ كُلُّهَا وَاحِدَةً وَهِيَ مِلَّةُ الْإِسْلَامِ الْحَنِيفِيَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup>: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَقَالَ آخَرُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ ذَلِكَ عِنْدَ نَزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا بِأَمْنٍ بِهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: يَعْنِي: النَّجَاشِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ

(١) أخرج ذلك ابن أبي حاتم (٤/١١١٠)، والنسائي في التفسير (٦١١)، والطبري (٣٤٠٦٦) بإسناد حسن.

(٢) صحيح عن ابن عباس، انظر الطبري (١٠٧٩٤، ١٠٧٩٥).

عِيسَى وَاللَّهِ إِنَّهُ الْآنَ حَيٌّ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ<sup>(١)</sup> . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ، إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ إِلَيْهِ عِيسَى وَهُوَ بَاعَثَهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَقَامًا يُؤْمِنُ بِهِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ . وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْحَقُّ ، كَمَا سَنَبِّهُهُ بَعْدُ بِالذَّلِيلِ الْقَاطِعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ الثَّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَا يَمُوتُ الْيَهُودِيُّ حَتَّى يَشْهَدَ أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَلَوْ عَجَلَ عَلَيْهِ بِالسَّلَاحِ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَقَالَ آخَرُونَ مَعْنَى ذَلِكَ : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ مَوْتِ الْكِتَابِيِّ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّحَّةِ : الْقَوْلُ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ نَزُولِ عِيسَى ﷺ إِلَّا آمَنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ﷺ وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ هُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِ الْأَيِّ فِي تَقْرِيرِ بَطْلَانِ مَا ادَّعَتْهُ الْيَهُودُ مِنْ قَتْلِ عِيسَى وَصَلْبِهِ وَتَسْلِيمِ مَنْ سَلَّمَ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى الْجَهْلَةَ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا شَبَّهَ لَهُمْ فَقَتَلُوا الشَّبَّهَ وَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ ذَلِكَ ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَهُ إِلَيْهِ ، وَإِنَّهُ بَاقٍ حَيٌّ ، وَإِنَّهُ سَيَنْزِلُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَوَاتِرَةُ الَّتِي سَنُورِدُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَرِيبًا ، فَيَقْتُلُ مَسِيحَ الصَّلَاةِ ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، يَعْنِي لَا يَقْبَلُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ، بَلْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوْ السَّيْفَ ، فَأَخْبَرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةَ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الْكِتَابِ حِينَئِذٍ ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنِ التَّصَدِيقِ بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ أَي : قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى ﷺ الَّذِي رَعِمَ الْيَهُودُ وَمَنْ وَاظَفَهُمْ مِنَ النَّصَارَى أَنَّهُ قُتِلَ وَصَلِبَ . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أَي : بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنْهُمْ قَبْلَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَبَعْدَ نَزُولِهِ إِلَى الْأَرْضِ .

فَأَمَّا مَنْ فَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ بِأَنَّ الْمَعْنَى : أَنَّ كُلَّ كِتَابِيِّ لَا يَمُوتُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِعِيسَى أَوْ بِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ عِنْدَ إِخْتِصَارِهِ يَنْجَلِي لَهُ مَا كَانَ جَاهِلًا بِهِ فَيُؤْمِنُ بِهِ ، وَلَكِنْ لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِيمَانًا نَافِعًا لَهُ

(١) صحيح عن الحسن : وقد أخرجه ابن جرير الطبري - رحمه الله تعالى - .

إِذَا كَانَ قَدْ شَاهَدَ الْمَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ ﴾ [النساء : ١٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدَّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر : ٨٤ - ٨٥] الْآيَتِينَ ، فَالْإِيمَانُ بِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ لَيْسَ بِنَافِعٍ وَلَا يَنْقُلُ صَاحِبَهُ عَن كُفْرِهِ لِمَا قَدَّمَاهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا جَيِّدًا وَأَمْعَنَ النَّظَرَ اتَّضَحَ لَهُ أَنَّ هَذَا وَإِنْ كَانَ هُوَ الْوَاقِعُ لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ هَذَا ، بَلِ الْمُرَادُ بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَقْرِيرِ وُجُودِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَقَاءِ حَيَاتِهِ فِي السَّمَاءِ ، وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَكْذِبَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، الَّذِينَ تَبَايَنَتْ أَقْوَاهُمْ فِيهِ وَتَصَادَمَتْ وَتَعَاكَسَتْ وَتَنَاقَضَتْ وَخَلَّتْ عَنِ الْحَقِّ فَفَرَطَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ ، وَأَفْرَطَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى ، تَنَقَّصَهُ الْيَهُودُ بِمَا رَمَوْهُ بِهِ وَأُمَّه مِنَ الْعِظَائِمِ ، وَأَطْرَاهُ النَّصَارَى بِحَيْثُ ادَّعَوْا فِيهِ مَا لَيْسَ فِيهِ ، فَرَفَعُوهُ فِي مُقَابَلَةِ أَوْلِيَّكَ عَن مَقَامِ النَّبِيِّ إِلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

ذَكَرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي نُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى الْأَرْضِ  
مِنَ السَّمَاءِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّهُ  
يَدْعُو إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخَنزِيرَ وَيَضْعُ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضُ الْمَالَ ، حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْرًا لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » (١) ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِفْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴾ .

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لِيُهْلَنَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرُّوحَاءِ بِالْحَجِّ

أَوِ الْعُمْرَةَ أَوْ لَيْتَنِيهِمَا جَمِيعًا»<sup>(١)</sup>. وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَيْفَ بِكُمْ إِذَا نَزَلَ فِيكُمْ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ »<sup>(٢)</sup>.

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنِّي أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، عَلَيْهِ ثُوبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقَطُرُ إِنْ لَمْ يُصَبَّهُ بَلَلٌ ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخَنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجُرْزِيَةَ ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ ، وَيَهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ ، ثُمَّ تَقَعُ الْأَمْنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأَسْوَدُ مَعَ الْإِبِلِ ، وَالتَّارُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالدُّثَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَيَلْعَبُ الصَّبِيَانُ بِالْحَيَاتِ لَا تَضُرُّهُمْ ، فَيَمُكْتُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ »<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَنْزَلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ ، أَوْ بِدَائِقِ ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ ، فَإِذَا تَصَافَوْا قَالَتِ الرُّومُ : خَلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَّوْنَا مِنَّا نَقَاتِلُهُمْ ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ : لَا وَاللَّهِ لَا نُحَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا ، فَيَقَاتِلُونَهُمْ فَيَهْزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا ، وَيُقْتَلُ ثُلُثٌ هُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَفْتَحُ الثُّلُثُ لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا ، فَيَفْتَحُونَ قُسْطَنْطِينِيَةَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْسِمُونَ الْغَنَائِمَ قَدْ عَلَقُوا سُيُوفَهُمْ بِالرِّزْتُونَ ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ ، فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَعْذُونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَأْتِيهِمْ ، فَإِذَا رَأَهُ عَدُوُّ اللَّهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَدَابَّ حَتَّى يَهْلِكَ ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللَّهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ »<sup>(٤)</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَتَقَاتِلَنَّ الْيَهُودَ ، فَالْتَقَاتْنَهُمْ حَتَّى

(١) مسلم (١٢٥٢).

(٢) البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).

(٣) أحمد بإسناد حسن (٤٠٦/٢).

(٤) مسلم (٢٨٩٧).

يَقُولَ الْحَجَرُ: يَا مُسْلِمُ، هَذَا يَهُودِيٌّ فَنَعَالَ فَاقْتُلْهُ»<sup>(١)</sup>، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَنَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»<sup>(٢)</sup>.

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ<sup>(٣)</sup> قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فَخَفَضَ فِيهِ وَرَفَعَ حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِنَا فَقَالَ: «مَا شَأْنُكُمْ؟» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجَالَ غَدَاةً فَخَفَضْتَ فِيهِ وَرَفَعْتَ، حَتَّى ظَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، قَالَ: «غَيْرُ الدَّجَالِ أَخَوْفَنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَاْمُرُوا حَاجِبَ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ. إِنَّهُ شَابٌ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَائِفَةٌ، كَأَنِّي أَشَبَّهُهُ بِعَبْدِ الْعُرَى بْنِ قَطَنٍ، مَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ مِنْ خَلَةٍ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعَاثَ شِمَالًا، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَانْتَبُوا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنِيَّةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنِيَّةً أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةَ يَوْمٍ؟ قَالَ: «لَا، أَقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: «كَالغَيْثِ اسْتَدْبَرْتَهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى قَوْمٍ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتَنْبُتُ، فَتَرْوِحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتَهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًّا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيُرْدُونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُضْبِحُونَ مُمَحْلِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْحَرْبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكَ فَتَتَّبِعُهُ كُنُوزُهَا كَيْعَاسِيبِ النَّخْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتَلِنًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسِّيفِ فَيَقْطَعُهُ جَزَلَتَيْنِ رَمِيَةَ الْعَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيَقْبَلُ، وَيَتَهَلَّلُ وَجْهَهُ يَضْحَكُ. فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقٍ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى

(١) مسلم (٢٩٢١).

(٢) مسلم (٢٩٢٢).

(٣) مسلم (٢٩٣٧).

أَجْنِحَةَ مَلَكَينِ ، إِذَا طَاطَأَ رَأَهُ قَطَرَ ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جَمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ ، وَلَا يَجِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِنَابٍ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى قَوْمًا قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بَدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَى عِيسَى : إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقَاتِلِهِمْ ، فَحَرَزَ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبْرِيَّةَ ، فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ : لَقَدْ كَانَ بَهْدِهِ مَرَّةً مَاءٌ ، وَيُحْصِرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ الْيَوْمَ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ ، فَيُضْبِحُونَ فَرَسِي كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهْمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُحْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتٌ مَدْرٍ وَلَا وَبَرٍ ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَبْرُكَهَا كَالزَّلْفَةِ ، ثُمَّ يَقَالُ لِلْأَرْضِ : أَخْرِجِي ثَمْرَكَ وَرُدِّي بَرَكَتَكَ ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرِّمَانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا ، وَيُبَارِكُ اللَّهُ فِي الرُّسُلِ حَتَّى إِنَّ اللَّقْحَةَ مِنَ الْإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخْدَ مِنَ النَّاسِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ أَبْطَاهِمُ فَيَقْبِضُ اللَّهُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى شَرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجُ الْحُمُرِ ، فَعَلَيْهِمْ تَقَوْمُ السَّاعَةِ» .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو<sup>(١)</sup> قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ - لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا - فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةٌ بِنُ مَسْعُودٍ ، فَيَطْلُبُهُ فَيَهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عِدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ فَلَا



يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيْمَانٍ إِلَّا قَبَضْتُهُ ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلْتُهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ » قَالَ : سَمِعْتُهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . قَالَ : « فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِيفَةِ الطَّيْرِ وَأَحْلَامِ السَّبَاعِ ، لَا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ : أَلَا تَسْتَحْيُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرْنَا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌ رِزْقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْعَى لَيْتًا ، وَرَفَعَ لَيْتًا ، قَالَ : وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضِ إِبِلِهِ ، قَالَ : فَيُصْعَقُ وَيُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ - أَوْ قَالَ يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطْرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوْ قَالَ : الطَّلُّ - نِعْمَانُ الشَّاكِّ - فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ أُخْرَى ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ ﴿ وَقَفُوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [ الصافات : ٢٤ ] قَالَ : ثُمَّ يُقَالُ أَخْرِجُوا بَعَثِ النَّارَ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقَالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ قَالَ : فَذَلِكَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوُلْدَانَ شِيبًا ، وَذَلِكَ يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » .

وَعَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ أَسِيدِ الْغِفَارِيِّ<sup>(١)</sup> قَالَ : أَشْرَفَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غُرْفَةٍ وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ السَّاعَةَ ، فَقَالَ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَرَوْا عَشْرَ آيَاتٍ : طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَاللِّدْجَانُ ، وَالِدَابَّةُ ، وَخُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَالِدَّجَالُ ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ فَعْرٍ عَدَنِ تَسُوقُ - أَوْ تَحْشُرُ - النَّاسَ ، تَبِيْتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا ، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا » .

فَهَذِهِ أَحَادِيثٌ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى صِفَةِ نُزُولِهِ وَمَكَانِهِ مِنْ أَنَّهُ بِالشَّامِ بَلْ بِدِمَشْقَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ إِقَامَةِ صَلَاةِ الصُّبْحِ ، وَقَدْ بَيَّنَّتْ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مَنَارَةٌ لِلْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بَيْنَاءٌ مِنْ حِجَارَةٍ مَنْحُوْتَةٍ ، عِوَضًا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرْبِ الْمَنْسُوبِ إِلَى صَنِيعِ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - وَكَانَ أَكْثَرُ عِمَارَتِهَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَقَوِيَّتِ الظُّنُونُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ

عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الطَّلِيلَةَ فَيَقْتُلُ الْخُزَيْرِ وَيَكْبِسُ الصَّلِيبَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا  
 الْإِسْلَامَ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحِينَ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ ، وَتَقْرِيرٌ  
 وَتَشْرِيعٌ وَتَسْوِيعٌ لَهُ عَلَى ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، حَيْثُ تَنَزَّاهُ عَلَيْهِمْ وَتَرْتَفِعُ شُبُهَهُمْ  
 مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَهَذَا كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ مُتَابِعِينَ لِعِيسَى ، وَعَلَى يَدَيْهِ ،  
 وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ﴾ الْآيَةُ ، وَهَذِهِ  
 الْآيَةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ ﴾ [الزخرف : ٦١] ، وَقُرِئَ (( لَعَلَّمَ )) بِالتَّحْرِيكِ ،  
 أَيُّ : أَمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى اقْتِرَابِ السَّاعَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بَعْدَ خُرُوجِ الْمَسِيحِ  
 الدَّجَالِ ، فَيَقْتُلُهُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : (( إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ  
 لَهُ شِفَاءً ))<sup>(١)</sup> وَيَبْعَثُ اللهُ فِي أَيَّامِهِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ دُعَائِهِ ،  
 وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ  
 يَنْسِلُونَ ﴾ (٢) وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴿ [الأنبياء : ٩٦-٩٧]

### صِفَةُ عِيسَى الطَّلِيلَةَ

قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ آدَمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : (( فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ  
 رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ ، وَإِنْ لَمْ  
 يُصِبْهُ بَلَلٌ )) وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ (( فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيٍّ دِمَشْقَ  
 بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ ، إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطْرٌ ، وَإِذَا رَفَعَهُ  
 تَحَدَّرَ مِنْهُ مِثْلُ جُهَانِ اللَّوْلُؤِ ، وَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ أَنْ يَجِدَ رِيحَ نَفْسِهِ إِلَّا مَاتَ ، وَنَفْسُهُ  
 يَنْتَهِي حَيْثُ أَنْتَهَى طَرْفُهُ ))<sup>(٣)</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (( لَيْلَةَ أُسْرِي بِي لَقِيتُ مُوسَى )) قَالَ  
 فَتَعَنَّتْهُ (( فَإِذَا رَجُلٌ )) أَحْسَبُهُ قَالَ : (( مُضْطَرَبٌ رَجُلُ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَاءِ ))  
 قَالَ : (( وَلَقِيتُ عِيسَى )) فَتَعَنَّتْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : (( رُبْعَةٌ أَحْمَرُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيهَاسٍ ))  
 يَعْنِي : الْحَمَامَ (( وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ ))<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري (٥٦٧٨) بلفظ (( ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء )) .

(٢) صحيح : وقد تقدم .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدُ عَرِيضُ الصَّدْرِ ، وَأَمَّا مُوسَى فَأَدَمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ »<sup>(١)</sup> . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانِي النَّاسِ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ إِلَّا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ »<sup>(٢)</sup> وَلَمْسَلِمٍ عَنْهُ مَرْفُوعًا : « وَأَرَانِي اللَّهَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ ، وَإِذَا رَجُلٌ آدَمٌ كَأَحْسَنِ مَا تَرَى مِنْ أَدَمِ الرِّجَالِ تَضْرِبُ لِمَتِهِ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ رَجُلٌ الشَّعْرِ ، يَقَطُرُ رَأْسُهُ مَاءً ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، ثُمَّ رَأَيْتُ وَرَاءَهُ رَجُلًا جَعْدًا قَطَطًا أَعْوَرَ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَشْبَهُ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنَ ، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الْمَسِيحُ الدَّجَالَ »<sup>(٣)</sup> .

وَعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعِيسَى أَحْمَرٌ وَلَكِنْ قَالَ : « بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمٌ سَبِطُ الشَّعْرِ ، يَتَهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً - أَوْ يَهْرَاقُ رَأْسُهُ مَاءً - فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : ابْنُ مَرْيَمَ ، فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ جَعْدُ الرَّأْسِ ، أَعْوَرُ عَيْنُهُ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ . قُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : الدَّجَالُ ، وَأَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهَا ابْنُ قَطَنَ »<sup>(٤)</sup> . قَالَ الزُّهْرِيُّ : رَجُلٌ مِنْ خَزَاعَةَ هَلَكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ آدَمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمُكْتُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ نَزُولِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يَتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّهُ يَمُكْتُ سَبْعَ سِنِينَ فَيَحْتَمَلُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بَلْبُثِهِ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَجْمُوعٌ إِقَامَتِهِ فِيهَا قَبْلَ رَفْعِهِ وَبَعْدَ نَزُولِهِ ، فَإِنَّهُ رُفِعَ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً فِي الصَّحِيحِ .

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٨) لكن وقع عنده ابن عباس بدلاً من ابن عمر ، وانظر مسلم (١٦٩) عن

ابن عمر - رضي الله عنهما - مرفوعاً .

(٢) البخاري (٣٤٣٩) ، ومسلم في طرق حديث (١٦٩) .

(٣) مسلم (١٦٩) .

(٤) البخاري (حديث ٣٤٤١) ، ومسلم (١٧١) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُكُونُ عَلَيْهِمْ شِهَادًا ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَهَ مِنَ اللَّهِ ، وَأَقْرَبَ بِعِبُودِيَّةِ اللَّهِ ﷻ ، وَهَذَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي « آخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ » : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴿ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨]

فَيُظَلَّمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١١٦﴾ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٧﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٨﴾

وَهَذَا التَّحْرِيمُ قَدْ يَكُونُ قَدْرِيًّا بِمَعْنَى : أَنَّهُ تَعَالَى قَيَّضَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ تَأَوَّلُوا فِي كِتَابِهِمْ وَحَرَّفُوا وَبَدَّلُوا أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ فَحَرَّمُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، تَشْدِيدًا مِنْهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَضْيِيقًا وَتَنْطُعًا ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ شَرْعِيًّا بِمَعْنَى : أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ أَشْيَاءَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ﴾ [آل عمران : ٩٣] ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّ الْجَمِيعَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ، مَا عَدَا مَا كَانَ حَرَمًا إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ وَالْبَائِغَاتِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي التَّوْرَةِ ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٤٦] أَي : إِنَّمَا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ رَسُولَهُمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ فَيُظَلَّمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ

اللَّهُ كَثِيرًا ﴿ أَيُّ : صَدُّوا النَّاسَ وَصَدُّوا أَنْفُسَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ ، وَهَذِهِ سَجِيَّةٌ لَهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهَا مِنْ قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ، وَهَذَا كَانُوا أَعْدَاءَ الرُّسُلِ وَقَتَلُوا خَلْقًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَكَذَّبُوا عِيسَى وَ مُحَمَّدًا - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا - .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ أَيُّ : أَنَّ اللَّهَ قَدْ نَهَاهُمْ عَنِ الرِّبَا فَتَنَاوَلُوهُ وَأَخَذُوهُ وَاحْتَالُوا عَلَيْهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْحَيْلِ وَصُنُوفٍ مِنَ الشُّبْهِ ، وَأَكَلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ ﴾ أَيُّ : الثَّابِتُونَ فِي الدِّينِ لَهُمْ قَدَمٌ رَاسِخَةٌ فِي الْعِلْمِ النَّافِعِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي (( سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ )) .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ عَطَفَ عَلَى الرَّاسِخِينَ وَخَبَرَهُ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ . ﴿ وَالْقَائِمِينَ الصَّلَاةَ ﴾ هَكَذَا هُوَ فِي جَمِيعِ مَصَاحِفِ الْأَيْمَةِ ، وَكَذَا هُوَ فِي مُصْحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ . وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّهَا فِي مُصْحَفِ ابْنِ مَسْعُودٍ (( الْمُقِيمُونَ الصَّلَاةَ )) قَالَ : وَالصَّحِيحُ قِرَاءَةُ الْجَمِيعِ ، ثُمَّ رَدَّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَلَطِ الْكُتَّابِ ، ثُمَّ ذَكَرَ اخْتِلَافَ النَّاسِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَدْحِ ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] قَالَ : وَهَذَا سَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لَا يُبْعِدُ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُو  
أَسَدُ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُرُزِ  
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرِكٍ  
وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدُ الْأَزْرِ

وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مَخْفُوضٌ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يَعْنِي : وَبِالْقَائِمِينَ الصَّلَاةَ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ : وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةَ ، أَيُّ : يَعْتَرِفُونَ بِوُجُوبِهَا وَكِتَابَتِهَا عَلَيْهِمْ ، أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْقَائِمِينَ الصَّلَاةَ : الْمَلَائِكَةُ ، وَهَذَا اخْتِيارُ ابْنِ جَرِيرٍ ، يَعْنِي يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْمَلَائِكَةِ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ ، وَيَحْتَمِلُ زَكَاةَ النَّفُوسِ ، وَيَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أَيُّ : يُصَدِّقُونَ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ هُوَ الْخَبَرُ عَمَّا تَقَدَّمَ ﴿ سُنُوتِهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ يَعْنِي : الْجَنَّةَ .

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۗ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٧٤﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۗ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۗ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٧٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٧٦﴾

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَمَا أَوْحَى إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّنَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وَالزَّبُورُ : اسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۗ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ أَي : مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْآيَةِ . يَعْنِي : فِي السُّورِ الْمَكِّيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ نَصَّ اللَّهُ عَلَى أَسْمَائِهِمْ فِي الْقُرْآنِ ، وَهُمْ آدَمُ وَإِدْرِيسُ وَنُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَلُوطٌ وَإِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَيُوسُفُ وَأَيُّوبُ وَشُعَيْبٌ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَيُونُسُ وَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَإِلْيَاسُ وَالْيَسَعُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى . وَكَذَا ذُو الْكِفْلِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَسَيِّدُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ . ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِمُوسَى ﷺ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَلِهَذَا يُقَالُ لَهُ : الْكَلِيمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ أَي : يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَاتَّبَعَ رِضْوَانَهُ بِالْخَيْرَاتِ ، وَيُنذِرُونَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَكَذَّبَ رُسُلَهُ بِالْجُنَاحِ وَالْعَذَابِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أَي : أَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ بِالْبَشِيرَةِ وَالنَّذَارَةِ ، وَبَيَّنَّ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ بِمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ ، لِئَلَّا يَبْقَى لِمُعْتَذِرٍ عُذْرٌ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُحْزَمَ ﴾ [ طه : ١٣٤ ] ، وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ إِلَى

قَوْلِهِ: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ ﷻ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُدْرُ مِنَ اللَّهِ؛ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ» وَفِي لَفْظٍ آخَرَ «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ».

لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ<sup>ط</sup> وَالْمَلَكَةُ يَشْهَدُونَ<sup>ع</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١١٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١١٩﴾ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢٠﴾

لَمَّا تَضَمَّنَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ إِلَى آخِرِ السِّيَاقِ إِثْبَاتَ نُبُوَّتِهِ ﷺ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ نُبُوَّتَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْكِنَ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ أَي: وَإِنْ كَفَرَ بِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْ كَذْبِكَ وَخَالَفَكَ، فَاللَّهُ يَشْهَدُ لَكَ بِأَنَّكَ رَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وَهَذَا قَالَ: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أَي: فِيهِ عِلْمُهُ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يَطَّلِعَ الْعِبَادُ عَلَيْهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى وَالْفُرْقَانَ، وَمَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَمَا يَكْرَهُهُ وَيَأْبَاهُ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْغُيُوبِ مِنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ. وَمَا فِيهِ مِنْ ذِكْرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ إِلَّا أَنْ يُعْلِمَهُ اللَّهُ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا

(١) البخاري (حديث ٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴿ [البقرة: ٢٥٥] ، وَقَالَ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْمَلٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ ﴾ أَي : بِصِدْقِ مَا جَاءَكَ وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ مَعَ شَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَكَ بِذَلِكَ ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ أَي : كَفَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ فَلَمْ يَتَّبِعُوا الْحَقَّ وَسَعَوْا فِي صَدِّ النَّاسِ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ ، قَدْ خَرَجُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَضَلُّوا عَنْهُ وَبَعُدُوا مِنْهُ بَعْدًا عَظِيمًا شَاسِعًا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَن حُكْمِهِ فِي الْكَافِرِينَ بِآيَاتِهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ ، الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِذَلِكَ ، وَبِالْصِّدْقِ عَن سَبِيلِهِ ، وَازْتِكَابِ مَاثِمِهِ وَأَنْتَهَاكِ مَحَارِمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ . ﴿ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾ أَي : سَبِيلًا إِلَى الْحَيْرِ . ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ ﴾ ، وَهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ الْآيَةَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ أَي : قَدْ جَاءَكُمُ مُحَمَّدٌ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ وَالْبَيَانِ الشَّافِي مِنَ اللَّهِ ﷻ ، فَآمَنُوا بِمَا جَاءَكُم بِهِ وَاتَّبَعُوهُ يَكُنْ خَيْرًا لَّكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : فَهُوَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَعَنِ إِيْمَانِكُمْ ، وَلَا يَتَضَرَّرُ بِكُفْرَانِكُمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَعَنَىٰ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨] ، وَقَالَ هَهُنَا ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ﴾ أَي : بِمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْكُمْ الْهُدَايَةَ فِيهِدِيهِ ، وَبِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْغَوَايَةَ فَيَغْوِيهِ ﴿ حَكِيمًا ﴾ أَي : فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ وَشَرْعِهِ وَقَدْرِهِ .

يَأْهَلِ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ  
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ  
 وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا  
 اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحٰنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي  
 الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿



يَنْهَى تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ عَنِ الْغُلُوِّ وَالْإِطْرَاءِ ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي النَّصَارَى ؛ فَإِنَّهُمْ تَجَاوَزُوا حَدَّ التَّصْدِيقِ بَعِيسَى ، حَتَّى رَفَعُوهُ فَوْقَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، فَتَقَلَّبُوا مِنْ حَيْزِ النُّبُوَّةِ إِلَى أَنْ اتَّخَذُوهُ إِهَامًا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَعْبُدُونَهُ كَمَا يَعْبُدُونَهُ . بَلْ قَدْ عَلَوْا فِي أَتْبَاعِهِ وَأَشْيَاعِهِ مِمَّنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ ، فَادَّعَوْا فِيهِمُ الْعِصْمَةَ ، وَاتَّبَعُوهُمْ فِي كُلِّ مَا قَالُوهُ سِوَاءَ كَانَ حَقًّا أَوْ بَاطِلًا ، أَوْ ضَلَالًا أَوْ رَشَادًا ، أَوْ صَحِيحًا أَوْ كَذِبًا ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [ التوبة : ٣١ ]

عَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ »<sup>(١)</sup> وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا مُحَمَّدُ يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا ، وَخَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَهْوِينَكُمْ الشَّيْطَانُ أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ ﷻ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أَي : لَا تَفْتَرُوا عَلَيْهِ وَتَجْعَلُوا لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا - تَعَالَى اللَّهُ ﷻ عَنْ ذَلِكَ عَلُوًّا كَبِيرًا ، وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ وَتَوَحَّدَ فِي سُؤْدُدِهِ وَكِبَرِيَّاتِهِ وَعَظَمَتِهِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ - وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقِنَهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ أَي : إِنَّمَا هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، قَالَ لَهُ : كُنْ فَكَانَ ، وَرَسُولٌ مِنْ رُسُلِهِ ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقِنَهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أَي : خَلَقَهُ بِالْكَلامَةِ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ ﷻ إِلَى مَرْيَمَ فَتَفَخَّ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﷻ ، فَكَانَ عِيسَى بِإِذْنِهِ ﷻ ، وَصَارَتْ تِلْكَ التَّفَخَّةُ الَّتِي نَفَخَهَا فِي جَنْبِ دَرْعِهَا ، فَنَزَلَتْ حَتَّى وَجَلَّتْ فَرْجَهَا ، بِمَنْزِلَةِ لِقَاحِ الْأَبِ وَالْأُمِّ ، وَالْجَمِيعُ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ ﷻ ؛ وَهَذَا قِيلَ لِعِيسَى : إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ تَوْلَدَ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ نَاشِئٌ عَنِ الْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ بِهَا كُنْ فَكَانَ ، وَالرُّوحُ الَّتِي أَرْسَلَ بِهَا جِبْرِيلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [ المائدة : ٧٥ ] ،

(١) أخرجه البخاري بنحوه (٣٤٤٥) .

(٢) سنده صحيح : أخرجه أحمد (٢٤١/٣) ، وعبد بن حميد (١٣٠٧) بنحوه وغيرها .

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ ط خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحریم: ١٢] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩]

وَهَذَا أَحْسَنُ مِمَّا ادَّعَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلْفَهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أَي: أَعْلَمَهَا بِهَا كَمَا زَعَمَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلْأِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] أَي: يُعَلِّمُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ وَيَجْعَلُ ذَلِكَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الفصص: ٨٦] بَلِ الصَّحِيحُ: أَنَّهَا الْكَلِمَةُ الَّتِي جَاءَ بِهَا جِبْرِيْلُ إِلَى مَرْيَمَ فَنَفَخَ فِيهَا بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (( مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ ))<sup>(١)</sup> . فَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ: (( وَرُوحٌ مِنْهُ )) كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَاءً فِي السَّمَوَاتِ وَمَاءً فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أَي: مِنْ خَلْقِهِ وَمِنْ عِنْدِهِ وَلَيْسَتْ (( مِنْ )) لِلتَّبَعِيضِ ، كَمَا تَقُولُهُ النَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَّبَاعَةُ - بَلِ هِيَ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ ، كَمَا فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ، أَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ رُوحٍ مَخْلُوقَةٍ ، وَأُضِيفَتِ الرُّوحُ إِلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيفِ كَمَا أُضِيفَتِ النَّاقَةُ وَالْبَيْتُ إِلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] ، وَفِي قَوْلِهِ ﴿طَهَّرْنَا بَيْتَ اللَّطَافِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ قَبِيلِ وَاحِدٍ وَنَمَطٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلُهُ: ﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أَي: فَصَدَّقُوا بِأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ أَحَدٌ لَا وَكَلْدَ لَهُ وَلَا صَاحِبَةَ ، وَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا بِأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةَ﴾ أَي: لَا تَجْعَلُوا عِيسَى وَأُمَّهُ مَعَ اللَّهِ شَرِيكَيْنِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

(١) البخاري (٣٤٣٥) ، ومسلم (حديث ٢٨) .

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَالَّتِي تَأْتِي فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة : ٧٣] ، وَكَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ الْمَذْكُورَةِ : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وَقَالَ فِي أَوْلَاهَا : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧] . وَالنَّصَارَى - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ - مِنْ جَهْلِهِمْ لَيْسَ لَهُمْ ضَابِطٌ وَلَا لِكُفْرِهِمْ حَدٌّ ، بَلْ أَقْوَاهُمْ وَضَلَاهُمْ مُتَشِيرٌ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ إِهْمًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ شَرِيكًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُهُ وَلَدًا ، وَهُمْ طَوَائِفٌ كَثِيرَةٌ لَهُمْ آرَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ وَأَقْوَالٌ غَيْرُ مُؤْتَلِفَةٍ . وَلَقَدْ أَحْسَنَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ قَالَ : لَوْ اجْتَمَعَ عَشْرَةٌ مِنَ النَّصَارَى لَأَفْتَرَقُوا عَنْ أَحَدٍ عَشَرَ قَوْلًا . وَلَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمُ الْمَشَاهِيرُ عِنْدَهُمْ وَهُوَ سَعِيدُ بْنُ بَطْرِيْقٍ بَطْرِيْقُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ فِي حُدُودِ سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ مِنَ الْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّهُمْ اجْتَمَعُوا الْمَجْمَعُ الْكَبِيرَ الَّذِي عَقَدُوا فِيهِ الْأَمَانَةَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي لَهُمْ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحِيَانَةُ الْحَقِيرَةُ الصَّغِيرَةُ ، وَذَلِكَ فِي أَيَّامِ قُسْطَنْطِينِ ، بَانِي الْمَدِينَةِ الْمَشْهُورَةِ ، وَأَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا عَلَيْهِ اخْتِلَافًا لَا يَنْضِبُ وَلَا يَنْحَصِرُ ، فَكَانُوا أَزِيدَ مِنَ الْفَيْنِ أُسْقُفًا ، فَكَانُوا أَحْزَابًا كَثِيرَةً كُلُّ خَمْسِينَ مِنْهُمْ عَلَى مَقَالَةٍ ، وَعِشْرُونَ عَلَى مَقَالَةٍ ، وَمِائَةٌ عَلَى مَقَالَةٍ ، وَسَبْعُونَ عَلَى مَقَالَةٍ ، وَأَزِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَنْقَصُ . فَلَمَّا رَأَى مِنْهُمْ عِصَابَةً قَدْ زَادُوا عَلَى الثَّلَاثِيَّةِ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ نَفَرًا ، وَقَدْ تَوَافَقُوا عَلَى مَقَالَةٍ ، فَأَخَذَهَا الْمَلِكُ وَنَصَرَهَا وَأَيَّدَهَا ، وَكَانَ فَيْلَسُوفًا دَاهِيَةً وَحَقَّ مَا عَدَّاهَا مِنَ الْأَقْوَالِ ، وَانْتَضَمَ دَسْتُ أَوْلِيكَ الثَّلَاثِيَّةِ وَالثَّمَانِيَةَ عَشَرَ وَبُنِيَتْ لَهُمُ الْكِنَائِسُ ، وَوَضَعُوا لَهُمْ كُتُبًا وَقَوَائِنَ ، وَأَحَدُوا فِيهَا الْأَمَانَةَ الَّتِي يُلْقِنُونَهَا الْوِلْدَانَ مِنَ الصِّغَارِ لِيَعْتَقِدُوهَا وَيَعْمَدُوا بِهَا عَلَيْهَا ، وَأَتْبَاعُ هَؤُلَاءِ هُمُ الْمَلِكَانِيَّةُ . ثُمَّ إِنَّهُمْ اجْتَمَعُوا مَجْمَعًا ثَانِيًا فَحَدَّثَ فِيهِمُ الْيَعْقُوبِيَّةُ ، ثُمَّ مَجْمَعًا ثَالِثًا فَحَدَّثَ فِيهِمُ النَّسْطُورِيَّةُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْفِرَقُ ثَبِتُ الْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ فِي الْمَسِيحِ ، وَيَخْتَلِفُونَ فِي كَيْفِيَّةِ ذَلِكَ وَفِي اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ عَلَى زَعْمِهِمْ هَلْ ائْتَحَدَا أَوْ مَا ائْتَحَدَا ، أَوْ ائْتَمَزَجَا أَوْ حَلَّ فِيهِ عَلَى ثَلَاثِ مَقَالَاتٍ ، وَكُلُّ مِنْهُمْ يُكْفَرُ الْفِرْقَةُ الْأُخْرَى ، وَنَحْنُ نُكْفَرُ الثَّلَاثَةَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ أَيُّ يَكُنْ خَيْرًا لَكُمْ ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أَيُّ : تَعَالَى

وَتَقَدَّسَ عَنْ ذَلِكَ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾  
 أَي: الْجَمِيعُ مَلِكُهُ وَخَلَقَهُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِمَا عِبِيدُهُ ، وَهُمْ تَحْتَ تَدْبِيرِهِ وَتَضْرِيفِهِ ، وَهُوَ  
 وَكِيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ مِنْهُمْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ  
 الْأُخْرَى : ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ  
 يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٦﴾ فَأَمَّا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ  
 فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا  
 يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٦﴾

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَوْلُهُ ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ لَنْ يَسْتَكْبِرَ .  
 وَقِيلَ : الْإِسْتِنْكَافُ هُوَ الْإِقْتِنَاعُ ، وَقِيلَ : إِنَّمَا ذُكِرَ الْمَلَائِكَةُ . لِأَنَّهُمْ اخْتَدُوا إِلَهًا مَعَ اللَّهِ  
 كَمَا اخْتَدَى الْمَسِيحُ ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ عِبِيدٌ مِنْ عِبَادِهِ وَخَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ  
 تَعَالَى : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]  
 الْآيَاتِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾  
 أَي : فَيَجْمَعُهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَفْصَلُ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ الْعَدْلِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ وَلَا  
 يَحِيْفُ . وَهَذَا قَالَ : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ  
 وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يَعْنِي : فَيُعْطِيهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ ،  
 وَيَزِيدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَامْتِنَانِهِ . ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ  
 اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أَي : اِمْتَنَعُوا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَاسْتَكْبَرُوا عَنْ ذَلِكَ  
 ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ، كَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّ  
 الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أَي :  
 صَاغِرِينَ حَقِيرِينَ ذَلِيلِينَ ، كَمَا كَانُوا مُتَمَنِّعِينَ مُسْتَكْبِرِينَ .

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٦﴾

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ  
 وَهَدِيْمٍ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطَبًا جَمِيعَ النَّاسِ ، وَمُخْبِرًا لَهُمْ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مِنْهُ بُرْهَانٌ عَظِيمٌ ،  
 وَهُوَ الدَّلِيلُ القَاطِعُ لِلْعُذْرِ وَالحُجَّةُ المَزِيْلَةُ لِلشُّبْهِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا  
 مُّبِينًا ﴾ أَي : ضِيَاءً وَاصِحًا عَلَى الحَقِّ . قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : هُوَ القُرْآنُ . ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ ﴾ أَي : جَمَعُوا بَيْنَ مَقَامِي العِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ  
 أُمُورِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِالقُرْآنِ . ﴿ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ  
 وَفَضْلٍ ﴾ أَي : يَرْحَمُهُمْ فَيَدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ وَيَزِيدُهُمْ ثَوَابًا وَمُضَاعَفَةً وَرَفْعًا فِي دَرَجَاتِهِمْ  
 مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ﴿ وَهَدِيْمٍ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أَي : طَرِيقًا وَاصِحًا  
 قَصْدًا قَوَامًا لَا اِعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا اِنْحِرَافَ ، وَهَذِهِ صِفَةُ المُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا وَالأُخْرَةِ ،  
 فَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَلَى مِنْهَاجِ الإِسْتِقَامَةِ وَطَرِيقِ السَّلَامَةِ فِي جَمِيعِ الإِعْتِقَادَاتِ وَالعَمَلِيَّاتِ ،  
 وَفِي الأُخْرَةِ عَلَى صِرَاطِ اللَّهِ المُسْتَقِيمِ المُفْضِي إِلَى رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَلَةِ ۖ إِن مَّرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وُلْدٌ  
 وَلَهُ رَأْسٌ فَهِيَ لِأَخْتِهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَمْ يَكُنْ لَهَا وُلْدٌ ۚ فَإِن كَانَ ثَلَاثَ  
 أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رَّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَكَرِ مِثْلُ  
 حَظِّ الأُنثِيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضْلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

عَنِ البَّرَاءِ قَالَ <sup>(١)</sup> : آخِرُ سُورَةِ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ ، وَآخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ وَعَنْ  
 جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ <sup>(٢)</sup> : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَرِيضٌ لَا أَعْقِلُ . قَالَ :  
 فَتَوَضَّأْتُ ثُمَّ صَبَّ عَلَيَّ أَوْ قَالَ : صُبُّوا عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ : إِنَّهُ لَا يَرِثُنِي إِلاَّ كَلَالَةٌ فَكَيْفَ  
 المِيرَاثُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الفَرَائِضِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الكَلَامُ عَلَى الكَلَالَةِ وَاشْتِقَاقِهَا ، وَأَنَّهَا  
 مَأْخُودَةٌ مِنَ الإِكْلِيلِ الَّذِي يُحِيطُ بِالرَّأْسِ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَهَذَا فَمَيَّزَهَا أَكْثَرُ العُلَمَاءِ :

(١) أخرجه البخاري (٤٦٠٥) .

(٢) مسلم (١٦١٦) بنحوه ، وانظر أيضًا البخاري (١٩٤) ، (٥٦٧٦) .

بِمَنْ يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : الْكَلَالَةُ مَنْ لَا وَلَدَ لَهُ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وَقَدْ أَشْكَلَ حُكْمُ الْكَلَالَةِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَمَا ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثٌ وَوَدِدْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ عَهْدَ إِلَيْنَا فِيهِنَّ عَهْدًا نُنْتَهِي إِلَيْهِ : الْجُدُّ ، وَالْكَالَةُ ، وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الرَّبَا <sup>(١)</sup> .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ شَيْءٍ أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلْتُهُ عَنْ الْكَلَالَةِ حَتَّى طَعَنَ بِأَصْبُعِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ : « يَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النَّسَاءِ » <sup>(٢)</sup> .

### ذِكْرُ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهَا وَبِاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ ﴾ أَي : مَاتَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [ الفصص : ٨٨ ] كُلُّ شَيْءٍ يَفْنَى وَلَا يَبْقَى إِلَّا اللَّهُ سبحانه ، كَمَا قَالَ : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ الرحمن : ٢٧ ]

قَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءً الْوَالِدِ بَلْ يَكْفِي فِي وُجُودِ الْكَلَالَةِ انْتِفَاءُ الْوَالِدِ ، وَهُوَ رَوَايَةٌ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَوَاهَا ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ إِلَيْهِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ هُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَقَضَاءُ الصَّدِيقِ أَنَّهُ الَّذِي لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِدَ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَهُرَ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ وَلَوْ كَانَ مَعَهَا أَبٌ لَمْ تَرَثْ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ يَحْجُبُهَا بِالْإِجْمَاعِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا وَلَدَ لَهُ بِنِصِّ الْقُرْآنِ ، وَلَا وَالِدَ بِنِصِّ عِنْدِ التَّامُّلِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْأُخْتَ لَا يُفْرَضُ لَهَا النِّصْفُ مَعَ الْوَالِدِ ، بَلْ لَيْسَ لَهَا مِيرَاثٌ بِالْكُلِّيَّةِ .

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ : أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ فِي الْمَيِّتِ تَرَكَ بِنْتًا وَأُخْتًا إِنَّهُ لَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ لِقَوْلِهِ : ﴿ إِنِ امْرُؤًا هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُرَ

(١) البخاري (٥٥٨٨) ، ومسلم (٣٠٣٢) .

(٢) مسلم (١٦١٧) ، وأيضًا (٥٦٧) .

أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴿ قَالَ فَإِذَا تَرَكَ بِنْتًا فَقَدْ تَرَكَ وَلَدًا فَلَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ ،  
 وَخَالَفَهُمَا الْجُمُهُورُ فَقَالُوا : فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِلْبِنْتِ النِّصْفُ بِالْفَرْضِ ، وَاللأُخْتِ  
 النِّصْفُ الْآخِرُ بِالتَّعْصِيبِ ، بِدَلِيلٍ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصَّتْ أَنْ يُفْرَضَ  
 لَهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، وَأَمَّا وَرَائِثُهَا بِالتَّعْصِيبِ فَلِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ  
 عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَنِ الْأَسْوَدِ قَالَ : قَضَى فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 النِّصْفُ لِلْبِنْتِ وَالنِّصْفُ لِلْأُخْتِ <sup>(١)</sup> ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ : قَضَى فِينَا وَلَمْ يَذْكُرْ عَلَى عَهْدِ  
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ <sup>(٢)</sup> أَيْضًا عَنْ هُزَيْلِ بْنِ شَرْحَبِيلٍ قَالَ سُئِلَ أَبُو مُوسَى  
 الْأَشْعَرِيُّ عَنِ ابْنَةِ ، وَابْنَةِ ابْنِ ، وَأُخْتِ فَقَالَ : لِلابْنَةِ النِّصْفُ وَاللأُخْتِ النِّصْفُ ،  
 وَأَتِ ابْنُ مَسْعُودٍ فَسَيِّئَابِعُنِي ، فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى ، فَقَالَ :  
 ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [ الأنعام : ٥٦ ] أَقْضَى فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ  
 النِّصْفُ لِلْبِنْتِ ، وَلِبِنْتِ ابْنِ السُّدُسِ تَكْمِلَةَ الثَّلَاثِينَ ، وَمَا بَقِيَ فَلِلأُخْتِ ، فَأَتَيْنَا  
 أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرَنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالَ : لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْخَبْرُ فِيكُمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ﴾ أَي : وَالْأَخُ يَرِثُ جَمِيعَ مَا لَهَا إِذَا مَاتَتْ  
 كَلَالَةً وَلَيْسَ لَهَا وَلَدٌ ، أَي وَلَا وَالِدٌ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَ لَهَا وَالِدٌ لَمْ يَرِثِ الْأَخُ شَيْئًا ، فَإِنْ  
 فُرِضَ أَنْ مَعَهُ مَنْ لَهُ فَرَضٌ صَرَفَ إِلَيْهِ فَرَضُهُ كَزَوْجٍ أَوْ أَخٍ مِنْ أُمَّ وَصَرَفَ الْبَاقِي  
 إِلَى الْأَخِ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَلْحِقُوا  
 الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا فَمَا أَبْقَتِ الْفَرَائِضُ فَلِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرَ » <sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أَي : فَإِنْ كَانَ لِمَنْ يَمُوتُ  
 كَلَالَةً أُخْتَانِ فَرَضَ لهُمَا الثَّلَاثَانِ ، وَكَذَا مَا زَادَ عَلَى الْأُخْتَيْنِ فِي حُكْمِهِمَا ، وَمِنْ هَهُنَا  
 أَخَذَ الْجَمَاعَةُ حُكْمَ الْبِتَيْنِ ، كَمَا أُسْتَفِيدَ حُكْمُ الْأَخَوَاتِ مِنَ الْبَنَاتِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ  
 كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ ﴾ .

(١) البخاري (٦٧٤١) .

(٢) البخاري (٦٧٣٦) .

(٣) صحيح : وقد تقدم .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ هَذَا حُكْمُ الْعَصَبَاتِ مِنَ النَّبِيِّ وَبَنِي النَّبِيِّ ، وَالْإِخْوَةُ إِذَا اجْتَمَعَ ذُكُورُهُمْ وَإِنَاثُهُمْ أُعْطِيَ الذَّكَرُ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أَي : يَفْرِضُ لَكُمْ فَرَائِضَهُ وَيَحُدُّ لَكُمْ حُدُودَهُ ، وَيُوضِّحُ لَكُمْ شَرَائِعَهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ أَي : لِئَلَّا تَضِلُّوا عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ الْبَيَانِ ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أَي : هُوَ عَالِمٌ بِعَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَصَالِحِهَا وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَيْرِ لِعِبَادِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرَابَاتِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ مِنَ الْمَتَوَفَّى . وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ يَقُولُ : هُوَ مَا عَدَا الْوَالِدَ وَالْوَالِدُ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الصِّدِّيقُ ، عَلَيْهِ جُمُهورُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأَئِمَّةِ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، وَالْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ ، وَقَوْلُ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ قَاطِبَةً ، وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، كَمَا أَرشَدَ اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ وَوَضَّحَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

انتهى تفسير سورة النساء والله الحمد والمِنَّة



## تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة<sup>(١)</sup>.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۗ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلَا نَعْلَمُ إِلَّا مَا  
يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا  
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ  
وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۗ وَإِذَا حَلَلْتُمْ  
فَأَصْطَادُوا ۗ وَلَا تَجْرِمَنكُمْ شَفَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
أَن تَعْتَدُوا ۗ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ  
وَاتَّقُوا اللَّهَ ۗ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ : يَعْنِي بِالْعُقُودِ : الْعُهُودَ . وَحَكَى  
ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَىٰ ذَلِكَ ، قَالَ : وَالْعُهُودُ مَا كَانُوا يَتَعَاهَدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَلْفِ  
وغيره ، وَقَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ : يَعْنِي بِالْعُهُودِ ، يَعْنِي : مَا  
أَحَلَّ اللَّهُ ، وَمَا حَرَّمَ ، وَمَا فَرَضَ ، وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، وَلَا تَعْدُرُوا وَلَا تَنْكُثُوا ،  
وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ : هِيَ سِتَّةٌ : عَهْدُ اللَّهِ وَعَقْدُ الْحَلْفِ ،  
وَعَقْدُ الشَّرِكَةِ ، وَعَقْدُ الْبَيْعِ ، وَعَقْدُ النِّكَاحِ ، وَعَقْدُ الْيَمِينِ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُ مَنْ  
ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُ لَا خِيَارَ فِي مَجْلِسِ الْبَيْعِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قَالَ : فَهَذِهِ تَدُلُّ  
عَلَى لُزُومِ الْعَقْدِ وَثُبُوتِهِ فَيَقْتَضِي نَفْيَ خِيَارِ الْمَجْلِسِ ، وَهَذَا مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ

(١) صحيح بمجموع طرقه : وقد أخرجه الترمذي (٣٠٦٣) ، وانظر سنن الترمذي الكبرى (٦/٢٣٣) ،

وَمَالِكٍ ، وَخَالَفَهُمَا فِي ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْجُمْهُورُ : وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « (الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا) »<sup>(١)</sup> وَفِي لَفْظٍ آخَرَ لِلْبُخَارِيِّ : « (إِذَا تَبَاعَ الرَّجُلَانِ فِكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا) »<sup>(٢)</sup> وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إِثْبَاتِ خِيَارِ الْمَجْلِسِ الْمُتَعَقِّبِ لِعَقْدِ الْبَيْعِ ، وَلَيْسَ هَذَا مُنَافِيًا لِلزُّومِ الْعَقْدِ ، بَلْ هُوَ مِنْ مُقْتَضِيَاتِهِ شَرْعًا ، فَالْتِزَامُهُ مِنْ تَمَامِ الْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ ﴾ هِيَ : الْأَيْلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَقَدْ اسْتَدَلَّ غَيْرُ وَاحِدٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ عَلَى إِبَاحَةِ الْجَنِينِ إِذَا وُجِدَ مَيْتًا فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا ذُبِحَتْ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ :  
﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ إِلَّا أَنَّمَا تَحْرُمُ بِهَذِهِ الْعَوَارِضِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِلَّا مَا ذُكِّمْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ ﴾ يَعْنِي : مِنْهَا ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ لَا يُمَكِّنُ اسْتِدْرَاكُهُ وَتَلَا حُقُّهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ أَي : إِلَّا مَا سَيِّئَلَى عَلَيْكُمْ مِنْ تَحْرِيمِ بَعْضِهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ غَيْرَ مَجْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ ، وَالْمُرَادُ بِالْأَنْعَامِ : مَا يَعُمُّ الْإِنْسِيَّ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَمَا يَعُمُّ الْوَحْشِيَّ كَالظَّبَاءِ وَالْبَقَرِ وَالْحُمْرِ ، فَاسْتَسْنَى مِنَ الْإِنْسِيَّ مَا تَقَدَّمَ ، وَاسْتَسْنَى مِنَ الْوَحْشِيَّ الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَحْلَلْنَا لَكُمْ الْأَنْعَامَ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ، فَحَرَّمُوا الصَّيْدَ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بِهَذَا ، وَهُوَ الْحَكِيمُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْتِمَ اللَّهِ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي بِذَلِكَ : مَنَاسِكَ الْحَجِّ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الصِّفَا وَالْمَرْوَةُ وَالْهَدْيُ وَالْبُدْنُ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : شَعَائِرُ اللَّهِ مَحَارِمُهُ : أَي لَا تُحِلُّوا مَحَارِمَ اللَّهِ الَّتِي حَرَّمَهَا تَعَالَى ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا أَلْشَّهْرَ الْحَرَامِ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : تَحْرِيمُهُ وَالْاعْتِرَافُ بِتَعْظِيمِهِ ، وَتَرْكُ

(١) البخاري (٢١٠٩) ، ومسلم (١٥٣١) .

(٢) البخاري (٢١١٢) ، ومسلم أيضًا (١٥٣١) .

مَا نَهَى اللَّهُ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ ، مِنَ الْإِبْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ ، وَتَأْكِيدِ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [ البقرة : ٢١٧ ] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [ التوبة : ٣٦ ] ، وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ : « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ : ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ : ذُو الْقَعْدَةِ ، وَذُو الْحِجَّةِ ، وَالْمَحْرَمُ ، وَرَجَبٌ مُضَرُّ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ »<sup>(١)</sup> . وَهَذَا يُدُلُّ عَلَى اسْتِمْرَارِ تَحْرِيمِهَا إِلَى آخِرِ وَقْتِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي : لَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ فِيهِ ، وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مَنْسُوخٌ ، وَأَنَّهُ يُجُوزُ إِبْتِدَاءُ الْقِتَالِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَاحْتِجُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ ﴾ قَالُوا : وَالْمُرَادُ أَشْهُرُ التَّسْيِيرِ الْأَرْبَعَةَ ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ [ التوبة : ٥ ] قَالُوا : فَلَمْ يَسْتَنْ شَهْرًا حَرَامًا مِنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَلَّ قِتَالَ أَهْلِ الشُّرْكِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ وَغَيْرِهَا مِنْ شُهُورِ السَّنَةِ . قَالَ : وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ لَوْ قُلِدَّ عُنُقُهُ أَوْ ذِرَاعِيهِ بِلِحَاءِ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْحَرَمِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لَهُ أَمَانًا مِنَ الْقَتْلِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ تَقَدَّمَ لَهُ عَقْدُ ذِمَّةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَمَانٌ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا أَهْدَى وَلَا أَلْقَلِيدَ ﴾ يَعْنِي : لَا تَتْرُكُوا الْإِهْدَاءَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ فَإِنَّ فِيهِ تَعْظِيمًا لِشَعَائِرِ اللَّهِ ، وَلَا تَتْرُكُوا تَقْلِيدَهَا فِي أَعْنَاقِهَا لِتَتَّمِيزَ بِهِ عَمَّا عَدَاهَا مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَلِيَعْلَمَ أَنَّهَا هَدْيٌ إِلَى الْكَعْبَةِ فَيَجْتَنِبُهَا مَنْ يُرِيدُهَا بِسُوءٍ ، وَتَبَعَتْ مَنْ يَرَاهَا عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهَا ؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلَى هَدْيٍ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أَجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ ، وَهَذَا لَمَّا حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَاتَ بِذِي الْحُلَيْفَةِ وَهُوَ وَادِي الْعَقِيقِ<sup>(٢)</sup> ، فَلَمَّا أَصْبَحَ طَافَ عَلَى نِسَائِهِ وَكُنَّ تِسْعًا ، ثُمَّ

(١) البخاري (حديث ٣١٩٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

(٢) انظر البخاري (١٥٣٤) ، ومسلم (حديث ١١٩٢) .

اغْتَسَلَ وَتَطَيَّبَ وَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، ثُمَّ أَشْعَرَ هَدْيَهُ وَقَلَّدهُ وَأَهْلَ لِلْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ،  
وَكَانَ هَدْيُهُ إِبْلًا كَثِيرَةً تُنْفُ عَلَى السَّتِينِ مِنْ أَحْسَنِ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، كَمَا قَالَ  
تَعَالَى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] وَقَالَ  
بَعْضُ السَّلَفِ : إِعْظَامُهَا : اسْتِحْسَانُهَا وَاسْتِسْمَانُهَا .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : ﴿ وَلَا الْقَلْبِيدَ ﴾ فَلَا تَسْتَحِلُّوهُ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا  
خَرَجُوا مِنْ أَوْطَانِهِمْ فِي غَيْرِ الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ قَلَّدُوا أَنْفُسَهُمْ بِالشَّعْرِ وَالْوَبْرِ ، وَتَقَلَّدَ  
مُشْرِكُو الْحَرَمِ مِنْ لِحَاءِ شَجَرِ الْحَرَمِ فَيَأْمُنُونَ بِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا آيِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ أَي :  
وَلَا تَسْتَحِلُّوا قِتَالَ الْقَاصِدِينَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَكَذَا  
مَنْ قَصَدَهُ طَالِبًا فَضَلَ اللَّهِ ، وَرَاغِبًا فِي رِضْوَانِهِ فَلَا تُصَدُّوهُ وَلَا تَمْنَعُوهُ وَلَا تُهَيِّجُوهُ .  
قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ : يَعْنِي بِذَلِكَ التَّجَارَةَ ،  
وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾  
[البقرة : ١٩٨] وَقَوْلُهُ : ﴿ وَرِضْوَانًا ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَتَرَضَّوْنَ اللَّهَ بِحَجَّتِهِمْ .

وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكَ يَجُوزُ قِتْلُهُ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَمَانٌ وَإِنْ  
أَمَّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ أَوْ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، فَإِنَّ هَذَا الْحُكْمَ مَنْسُوخٌ فِي حَقِّهِمْ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ -  
فَأَمَّا مَنْ قَصَدَهُ بِالْإِلْحَادِ فِيهِ وَالشُّرْكَ عِنْدَهُ وَالْكَفْرَ بِهِ فَهَذَا يُمْنَعُ ، قَالَ تَعَالَى :  
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ  
عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] وَهَذَا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ تِسْعٍ - لَمَّا أَمَرَ الصِّدِّيقَ  
عَلَى الْحَجِّجِ - عَلِيًّا ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ عَلَى سَبِيلِ النِّيَابَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرِأَةِ ،  
وَأَنْ لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ ، وَلَا يَطُوفَنَّ بِالْبَيْتِ عُزَيَانٌ<sup>(١)</sup> . وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ  
أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا الْقَلْبِيدَ ﴾ يَعْنِي : إِنْ تَقَلَّدُوا قِلَادَةً مِنَ الْحَرَمِ فَأَمَّنُوهُمْ ، قَالَ :  
وَلَمْ تَزَلِ الْعَرَبُ تُعَيَّرُ مِنْ أَخْفَرَ ذَلِكَ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

أَلَمْ تَقْتُلَا الْحَرْجِينَ إِذْ أَعَوْرَا لَكُمْ  
يَمْرَانِ بِالْأَيْدِي اللَّحَاءِ الْمُضْفَرَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ أَي : إِذَا فَرَعْتُمْ مِنْ إِحْرَامِكُمْ وَأَحَلَلْتُمْ مِنْهُ فَقَدْ أَبْحَنَّا لَكُمْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْكُمْ فِي حَالِ الإِحْرَامِ مِنَ الصَّيْدِ .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ مَعْنَاهَا : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ قَوْمٍ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ - وَذَلِكَ عَامُ الْحُدَيْبِيَّةِ - عَلَى أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللَّهِ فِيكُمْ فَتَقْتَصُوا مِنْهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ، بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ فِي حَقِّ كُلِّ أَحَدٍ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ كَمَا سَيَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] أَي : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بَعْضُ أَقْوَامٍ عَلَىٰ تَرْكِ الْعَدْلِ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ وَاجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ أَحَدٍ فِي كُلِّ حَالٍ ، وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَا عَامَلْتُ مَنْ عَصَى اللَّهَ فِيكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ ، وَالْعَدْلُ بِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدُّونَ ﴾ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُعَاوَنَةِ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرَاتِ ، وَهُوَ الْبِرُّ وَتَرْكُ الْمُنْكَرَاتِ ، وَهُوَ التَّقْوَىٰ وَبَيْنَاهُمْ عَنِ التَّنَاصُرِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْمَآثِمِ وَالْمُحَارِمِ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْإِثْمُ : تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِفِعْلِهِ ، وَالتَّعَدُّونَ : مُجَاوِزَةٌ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ وَفِي غَيْرِكُمْ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «(أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا)»<sup>(١)</sup>  
 قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا نَصْرُهُ مَظْلُومًا ، فَكَيْفَ أَنْصَرُهُ إِذَا كَانَ ظَالِمًا ؟ قَالَ : «(تَحْجِزُهُ وَتَمْنَعُهُ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ)» .

وَعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : «(الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ)»<sup>(٢)</sup> .  
 وَفِي الصَّحِيحِ : «(مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ

(١) البخاري (٦٩٥٢) .

(٢) صحيح : أخرجه الترمذي (٢٥٠٧) ، وأحمد (٣٦٥/٥) .

الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» (١).

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ  
وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ  
وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ  
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ  
غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى عِبَادَهُ خَبْرًا مُتَضَمِّنًا النَّهْيَ عَنْ تَعَاطِي هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ مِنَ الْمَيْتَةِ :  
وَهِيَ مَا مَاتَ مِنَ الْحَيَوَانِ حَتْفَ أَنْفِهِ مِنْ غَيْرِ ذَكَاةٍ وَلَا إِضْطِيَادٍ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا  
فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمِ الْمُحْتَقِنِ ، فَهِيَ ضَارَةٌ لِلدِّينِ وَلِلْبَدَنِ ، فَلِهَذَا حَرَّمَهَا  
اللَّهُ ﷻ ، وَيُسْتَشْنَى مِنَ الْمَيْتَةِ السَّمَكُ فَإِنَّهُ حَلَالٌ سِوَاءَ مَا تَبْذِكِيَّةٍ أَوْ غَيْرِهَا ؛ لِمَا  
وَرَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ مَاءِ الْبَحْرِ فَقَالَ : « هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ  
الْحَلُّ مِثْنَةٌ » (٣) وَهَكَذَا الْجَرَادُ ؛ لِمَا سَيَأْتِي مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالِدَمُ ﴾ يَعْنِي بِهِ :  
الْمَسْفُوحُ لِقَوْلِهِ : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ .

قَوْلُهُ : ﴿ وَالْحَمُّ الْخِنْزِيرِ ﴾ يَعْنِي : إِنْسِيَّةٌ وَوَحْشِيَّةٌ ، وَاللَّحْمُ يَعْمُ جَمِيعُ أَجْزَائِهِ حَتَّى  
الشَّحْمَ ، وَلَا يُحْتَاجُ إِلَى تَحْدِثِ الظَّاهِرِيَّةِ فِي جُودِهِمْ هَهُنَا وَتَعَسُّفِهِمْ فِي الْإِحْتِجَاجِ  
بِقَوْلِهِ : ﴿ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقٌ ﴾ يَعْنُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا  
مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمِ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ ﴾ [ الأنعام : ١٤٥ ] أَعَادُوا الضَّمِيرَ فِيمَا فَهْمُوهُ  
عَلَى الْخِنْزِيرِ حَتَّى يَعْمَ جَمِيعُ أَجْزَائِهِ ، وَهَذَا بَعِيدٌ مِنْ حَيْثُ اللَّغَةُ ، فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ  
الضَّمِيرُ إِلَّا إِلَى الْمُضَافِ دُونَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ ، وَالْأَظْهَرُ : أَنَّ اللَّحْمَ يَعْمُ جَمِيعُ الْأَجْزَاءِ ،  
كَمَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَمِنْ الْعُرْفِ الْمَطْرَدِ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ بُرَيْدَةَ

(١) مسلم (حديث ٢٦٧٤).

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ٨٣) ، والترمذي (٦٩) ، وغيرهما .

ابن الحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِشِيرِ فَكَأَنَّمَا صَبَعَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَدَمِهِ »<sup>(١)</sup> فَإِذَا كَانَ هَذَا التَّنْفِيرُ لِمُجَرَّدِ اللَّمَسِ فَكَيْفَ يَكُونُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ الْأَكِيدُ عَلَى أَكْلِهِ وَالتَّغْذِي بِهِ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى شُمُولِ اللَّحْمِ لِجَمِيعِ الْأَجْزَاءِ مِنَ الشَّحْمِ وَغَيْرِهِ .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْأَصْنَامِ »<sup>(٢)</sup> فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ فَإِنَّهَا تُطْلَى بِهَا الشُّفْنُ ، وَتُدَهَّنُ بِهَا الْجُلُودُ ، وَيَسْتَضِيحُ بِهَا النَّاسُ فَقَالَ : « لَا ، هُوَ حَرَامٌ » .

وَقَوْلُهُ : « وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ » أَي : مَا ذُبِحَ فَذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ أَنْ تُذْبَحَ مَخْلُوقَاتُهُ عَلَى اسْمِهِ الْعَظِيمِ ، فَمَتَى عُدِلَ بِهَا عَنْ ذَلِكَ وَذُكِرَ عَلَيْهَا اسْمُ غَيْرِهِ مِنْ صَنَمٍ أَوْ طَاغُوتٍ أَوْ وَثْنٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَإِنَّهَا حَرَامٌ بِالْإِجْمَاعِ ، وَإِنَّمَا اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَتْرُوكِ التَّسْمِيَةِ إِمَّا عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا ، كَمَا سَيَأْتِي تَفْرِيرُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ<sup>(٣)</sup> .

وَقَوْلُهُ : « وَالْمُنْحَبِقَةُ » وَهِيَ الَّتِي تَمُوتُ بِالْحَنْقِ ، إِمَّا قَصْدًا وَإِمَّا اتِّفَاقًا ، بِأَنْ تَتَخَبَّلَ فِي وَثَاقِهَا فَتَمُوتُ بِهِ ، فَهِيَ حَرَامٌ ، وَأَمَّا « وَالْمَوْقُودَةُ » فَهِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِشَيْءٍ ثَقِيلٍ غَيْرِ مُحَدَّدٍ حَتَّى تَمُوتَ ، كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ وَاحِدٍ : هِيَ الَّتِي تُضْرَبُ بِالْحَشْبَةِ حَتَّى يُوقِذَهَا فَتَمُوتَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَضْرِبُونَهَا بِالْعَصَا حَتَّى إِذَا مَاتَتْ أَكَلُوهَا . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ فَأُصِيبُ قَالَ : « إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ ، وَإِنْ أَصَابَ بَعْرُضِهِ فَإِنَّمَا هُوَ وَقِيدٌ ، فَلَا تَأْكُلْهُ »<sup>(٤)</sup> ، فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا أَصَابَهُ بِالسَّهْمِ أَوْ بِالْمِزْرَاقِ وَنَحْوِهِ بِحَدِّهِ فَأَحَلَّهُ ، وَمَا أَصَابَهُ بِبَعْرُضِهِ فَجَعَلَهُ وَقِيدًا لَمْ يُحَلِّهِ ، وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَاخْتَلَفُوا فِيهَا إِذَا صَدَمَ الْجَارِحَةَ الصَّيْدَ فَقَتَلَهُ بِثِقَلِهِ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٦٠) .

(٢) البخاري (٢٢٣٦) ، ومسلم (١٥١٨) .

(٣) راجع تفسير الآية رقم (١٢١) من سورة الأنعام .

(٤) البخاري (٢٠٥٤) ، ومسلم (١٩٢٩) .

وَلَمْ يَجْرَحْهُ عَلَى قَوْلَيْنِ هُمَا قَوْلَانِ لِلشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ - أَحَدُهُمَا : لَا يَحِلُّ كَمَا فِي السَّهْمِ ، وَالْجَامِعُ أَنَّ كَلًّا مِنْهُمَا مَيِّتٌ بِغَيْرِ جَرْحٍ فَهُوَ وَقِيدٌ وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَحِلُّ لِأَنَّهُ حَكَمَ بِإِبَاحَةِ مَا صَادَهُ الْكَلْبُ وَلَمْ يَسْتَفْصِلْ ، فَدَلَّ عَلَى إِبَاحَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَ فِي الْعُمُومِ ، وَقَدْ قَرَّرْتُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَصَلًّا فَلْيَكْتُبْ هَهُنَا .

### فَصْلٌ

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِيهَا إِذَا أُرْسِلَ كَلْبًا عَلَى صَيْدٍ فَقَتَلَهُ بِثِقَلِهِ وَلَمْ يَجْرَحْهُ أَوْ صَدَمَهُ ، هَلْ يَحِلُّ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ ذَلِكَ حَلَالٌ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ وَكَذَا عُمُومَاتُ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ ، وَهَذَا الْقَوْلُ أَشْبَهُ بِالصَّوَابِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ؛ لِأَنَّهُ أَجْرِي عَلَى الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ ، وَأَمْسَ الْأُصُولَ الشَّرْعِيَّةَ ، وَاحْتَجَّ ابْنُ الصَّبَاحِ لَهُ بِحَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لَأَقْوِ الْعَدُوَّ عَدًّا وَلَيْسَ مَعَنَا مُدَى أَفَنْدَبِحُ بِالْقَصَبِ ؟ قَالَ : « مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ »<sup>(١)</sup> . وَهَذَا وَإِنْ كَانَ وَارِدًا عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ ، فَالْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ عِنْدَ جُمْهُورِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ ، كَمَا سُئِلَ العلامة عَنِ الْبِتْعِ وَهُوَ نَبِيذُ الْعَسَلِ فَقَالَ : « كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ »<sup>(٢)</sup> أَفَيَقُولُ فَيَقِيهِ : إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مَخْصُوصٌ بِشَرَابِ الْعَسَلِ ؟ وَهَكَذَا هَذَا ، كَمَا سَأَلُوهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الذَّكَاءَةِ فَقَالَ لَهُمْ كَلَامًا عَامًّا يَشْمَلُ ذَاكَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ وَغَيْرَهُ ، لِأَنَّهُ العلامة كَانَ قَدْ أُوتِيَ جَوَامِعُ الْكَلِمِ ، إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَمَا صَدَمَهُ الْكَلْبُ أَوْ غَمَّهُ بِثِقَلِهِ لَيْسَ مِمَّا أَنْهَرَ دَمَهُ فَلَا يَحِلُّ ، لِمَفْهُومِ هَذَا الْحَدِيثِ . وَأَمَّا الْمُرَدِّيَّةُ : فَهِيَ الَّتِي تَقَعُ مِنْ شَاهِقٍ أَوْ مَوْضِعٍ عَالٍ فَتَمُوتُ بِذَلِكَ فَلَا يَحِلُّ . وَأَمَّا النَّطِيحَةُ : فَهِيَ الَّتِي مَاتَتْ بِسَبَبِ نَطْحٍ غَيْرِهَا لَهَا ، فَهِيَ حَرَامٌ وَإِنْ جَرَحَهَا الْقُرْنُ ، وَخَرَجَ مِنْهَا الدَّمُ ، وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا ، وَالنَّطِيحَةُ فَعِيلَةٌ بِمَعْنَى : مَفْعُولَةٌ ، أَي : مَنْطُوحَةٌ .

(١) البخاري (٢٤٨٨) ، ومسلم (١٩٦٨) .

(٢) البخاري (٢٤٢٢) ، ومسلم (٢٠٠١) .



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ أَي: مَا عَدَا عَلَيْهَا أَسَدٌ أَوْ فَهْدٌ أَوْ نَمْرٌ أَوْ ذئبٌ أَوْ كَلْبٌ فَأَكَلَ بَعْضَهَا فَمَاتَتْ بِذَلِكَ فَهِيَ حَرَامٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَالَ مِنْهَا الدَّمُ وَلَوْ مِنْ مَذْبَحِهَا فَلَا تَحِلُّ بِالْإِجْمَاعِ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ مَا أَفْضَلَ السَّبْعِ مِنَ الشَّاةِ أَوْ الْبَعِيرِ أَوْ الْبَقْرَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَحَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى مَا يُمَكِّنُ عَوْدَهُ عَلَيْهِ مِمَّا انْعَقَدَ سَبَبُ مَوْتِهِ فَأَمَكَّنَ تَدَارُكُهُ بِذِكَاةٍ، وَفِيهِ حَيَاةٌ مُسْتَقَرَّةٌ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالْمُنْحَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾. قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَنَّ الْمُدْكَاةَ مَنْ تَحَرَّكَتْ بِحَرَكَةٍ تَدُلُّ عَلَى بَقَاءِ الْحَيَاةِ فِيهَا بَعْدَ الذَّبْحِ فَهِيَ حَلَالٌ، وَهَذَا مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَأَقُو الْعَدُوَّ غَدًا وَلَيْسَ مَعَنَا مَدَى أَفْذَبِحُ بِالْقَصْبِ؟ فَقَالَ: ((مَا أَنَهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكَلُّوهُ، لَيْسَ السِّنُّ وَالظُّفْرُ، وَسَأَحَدْتُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، أَمَّا السِّنُّ فَعِظْمٌ، وَأَمَّا الظُّفْرُ فَمَدَى الْحَبَشَةِ))<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصْبِ﴾ قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ: كَانَتْ النُّصْبُ حِجَارَةً حَوْلَ الْكَعْبَةِ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: وَهِيَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصْبًا، كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَذْبَحُونَ عِنْدَهَا وَيَنْضَحُونَ مَا أَقْبَلَ مِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ بِدِمَاءِ تِلْكَ الذَّبَائِحِ، وَيُسَرِّحُونَ اللَّحْمَ وَيَضْعُونَهُ عَلَى النُّصْبِ، كَذَا ذَكَرَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ. فَنَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ هَذِهِ الذَّبَائِحِ الَّتِي فَعَلَتْ عِنْدَ النُّصْبِ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ يُذَكَّرُ عَلَيْهَا اسْمُ اللَّهِ لَمَا فِي الذَّبْحِ عِنْدَ النُّصْبِ مِنَ الشَّرِكِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ هَذَا عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ تَحْرِيمُ مَا أَهْلٌ بِهِ لِعَبِيرِ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ أَي: حَرَّمَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الْإِسْتِقْسَامَ بِالْأَزْلَامِ، وَاحِدُهَا: زَلْمٌ، وَقَدْ تَفْتَحُ الزَّاي فَيَقَالُ: زَلَمَ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا يَتَعَاطُونَ ذَلِكَ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ قِدَاحِ ثَلَاثَةِ عَلَى أَحَدِهَا مَكْتُوبٌ: اِفْعَلْ،

(١) صحيح: وقد تقدم قريباً.

وَعَلَى الْآخِرِ : لَا تَفْعَلْ ، وَالثَّالِثُ : غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ : مَكْتُوبٌ عَلَى الْوَاحِدِ : أَمْرِي رَبِّي ، وَعَلَى الْآخِرِ : نَهَانِي رَبِّي ، وَالثَّالِثُ : غُفْلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَإِذَا أَجَاهَا فَطَلَعَ سَهْمُ الْأَمْرِ فَعَلَهُ ، أَوْ النَّهْيُ تَرَكَهُ ، وَإِنْ طَلَعَ الْفَارِغُ أَعَادَ ، وَالِاسْتِقْسَامُ مَاخُودٌ مِنْ طَلَبِ الْقِسْمِ مِنْ هَذِهِ الْأَزْلَامِ ، هَكَذَا قَرَّرَ ذَلِكَ أَبُو جَعْفَرِ ابْنِ جَرِيرٍ .

وَبُتِّ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا دَخَلَ الْكَعْبَةَ وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ مُصَوَّرَيْنِ فِيهَا وَفِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ ، فَقَالَ : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا أَبَدًا » (١) . وَفِي الصَّحِيحِ (٢) أَنَّ سُرَاقَةَ بِنَ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ لَمَّا خَرَجَ فِي طَلَبِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَهُمَا ذَاهِبَانِ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرَيْنِ ، قَالَ : فَاسْتَقْسَمْتُ بِالْأَزْلَامِ : هَلْ أَضْرُّهُمْ أَمْ لَا ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكْرَهُ : لَا تَضُرُّهُمْ ، قَالَ : فَعَصَيْتُ الْأَزْلَامَ وَاتَّبَعْتُهُمْ ، ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَقْسَمَ بِهَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كُلُّ ذَلِكَ يُخْرِجُ الَّذِي يَكْرَهُ : لَا تَضُرُّهُمْ وَكَانَ كَذَلِكَ ، وَكَانَ سُرَاقَةَ لَمْ يُسَلِّمْ إِذْ ذَاكَ ، ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ .

﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ أَي : تَعَاطِيهِ فِسْقٌ وَغِيٌّ وَضَلَالَةٌ وَجَهَالَةٌ وَشُرْكٌ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَرَدَّدُوا فِي أُمُورِهِمْ أَنْ يَسْتَخِيرُوهُ ، بِأَنْ يَعْبُدُوهُ ، ثُمَّ يَسْأَلُوهُ الْخَيْرَةَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ . عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَيَقُولُ : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ - وَيُسَمِّيهِ بِاسْمِهِ - خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ - قَالَ عَاجِلُ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْهُ عَنِّي ، وَاقْدِرْ لِي

(١) البخاري (١٦٠١) .

(٢) البخاري (٣٩٠٦) .

الْخَيْرِ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضْنِي بِهِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ يَعْنِي: يَبْسُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرُدُّ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَبْسُ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ))<sup>(٢)</sup> وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَبْسُوا مِنْ مُشَابَهَةِ الْمُسْلِمِينَ لِمَا تَمَيَّزَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُخَالَفَةِ لِلشَّرِكِ وَأَهْلِهِ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى أَمْرًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصْبِرُوا وَيَتَّبِعُوا فِي مُخَالَفَةِ الْكُفَّارِ وَلَا يَخَافُوا أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ فَقَالَ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أَي: لَا تَخَافُوهُمْ فِي مُخَالَفَتِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَاخْشَوْنِي أَنْصُرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَأَيُّدُهُمْ وَأُظْفُرُهُمْ بِهِمْ، وَأَشْفِ صُدُورَكُمْ مِنْهُمْ، وَأَجْعَلْكُمْ فَوْقَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هَذِهِ أَكْبَرُ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ أَكْمَلَ تَعَالَى لَهُمْ دِينَهُمْ فَلَا يَحْتَاجُونَ إِلَى دِينٍ غَيْرِهِ، وَلَا إِلَى نَبِيٍّ غَيْرِ نَبِيِّهِمْ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَهَذَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ، وَبَعَثَهُ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَلَا حَلَالَ إِلَّا مَا أَحَلَّهُ، وَلَا حَرَامًا إِلَّا مَا حَرَّمَهُ، وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَخْبَرَ بِهِ فَهُوَ حَقٌّ وَصِدْقٌ، لَا كَذِبَ فِيهِ وَلَا خُلْفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أَي: صِدْقًا فِي الْإِخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَلَمَّا أَكْمَلَ لَهُمُ الدِّينَ تَمَّتْ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةُ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أَي: فَارْضَوْهُ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّهُ الدِّينُ الَّذِي أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ وَبَعَثَ بِهِ أَفْضَلَ الرُّسُلِ الْكِرَامِ، وَأَنْزَلَ بِهِ أَشْرَفَ كُتُبِهِ.

عَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ قَالَ<sup>(٣)</sup>: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرءُونَ آيَةَ فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعَشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ؛ لَا نَتَّخِذُنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَآيُ آيَةٍ؟ قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ

(١) البخاري (٦٣٨٢).

(٢) مسلم (٢٨١٢).

(٣) البخاري (٤٤٠٧)، ومسلم (٣٠١٧)، وأحمد (٣١/١)، وعبد بن حميد (المنتخب ٣٠).

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴿ فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ،  
وَالسَّاعَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، نَزَلَتْ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ .

وَالصَّوَابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ أَنَّمَا أُنزِلَتْ يَوْمَ عَرَفَةَ وَكَانَ يَوْمَ جُمُعَةٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي :  
فَمَنْ أَحْتَاجَ إِلَى تَنَاوُلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِضُرُورَةِ الْجَائِئِ  
إِلَى ذَلِكَ ، فَلَهُ تَنَاوُلُهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ حَاجَةَ عَبْدِهِ الْمُضْطَرِّ  
وَافْتِقَارَهُ إِلَى ذَلِكَ ، فَيَتَجَاوَزُ عَنْهُ وَيَغْفِرُ لَهُ . وَهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : قَدْ يَكُونُ تَنَاوُلُ  
الْمَيْتَةِ وَاجِبًا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، وَهُوَ مَا إِذَا خَافَ عَلَى مُهَجَّتِهِ التَّلَفَ وَلَمْ يَجِدْ غَيْرَهَا ،  
وَقَدْ يَكُونُ مَنْدُوبًا ، وَقَدْ يَكُونُ مُبَاحًا بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ﴾ أَي : غَيْرُ مُتَعَاطٍ لِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبَاحَ  
ذَلِكَ لَهُ وَسَكَتَ عَنِ الْآخِرِ ، كَمَا قَالَ فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» : ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ  
وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣]

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ  
الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا  
اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْحَبَائِثِ الضَّارَّةِ لِمُتَنَاوُلِهَا إِمَّا فِي بَدَنِهِ  
أَوْ فِي دِينِهِ أَوْ فِيهَا ، اسْتَشْنَاهُ فِي حَالَةِ الضَّرُورَةِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ  
عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَضْطَرَّرْتُمُ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١١٩] قَالَ بَعْدَهَا : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ  
قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ : أَنَّهُ يُحِلُّ لَهُمُ  
الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ . وَقَدْ سُئِلَ الزُّهْرِيُّ عَنْ شُرْبِ الْبَوْلِ لِلتَّدَاوِي  
فَقَالَ : لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . وَسُئِلَ مَالِكٌ عَنْ بَيْعِ الطَّيْنِ الَّذِي يَأْكُلُهُ النَّاسُ فَقَالَ :  
لَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ أَي : أُحِلَّ لَكُمْ الذَّبَائِحُ الَّتِي ذُكِرَ

إِسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا ، وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ الرِّزْقِ ، وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا صَدَّمُوهُ بِالْجَوَارِحِ ، وَهِيَ مِنَ الْكِلَابِ وَالْفُهُودِ وَالصُّقُورِ وَأَشْبَاهِهَا ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْأئِمَّةِ . وَالْمَحْكِيُّ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الصَّيْدَ بِالطُّيُورِ كَالصَّيْدِ بِالْكِلَابِ ؛ لِأَنَّهَا تُكَلَّبُ الصَّيْدَ بِمَخَالِبِهَا ، كَمَا تُكَلَّبُ الْكِلَابُ فَلَا فَرْقَ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي يُصْطَادُ بِهِنَّ جَوَارِحُ مِنَ الْجَرَحِ ؛ وَهُوَ الْكَسْبُ ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : فُلَانٌ جَرَحَ أَهْلَهُ خَيْرًا . أَيِ : كَسَبَهُمْ خَيْرًا ، وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ لَا جَارِحَ لَهُ ، أَيِ : لَا كَاسِبَ لَهُ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أَيِ : مَا كَسَبْتُمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مُكَلَّبِينَ ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الصَّمِيرِ فِي عِلْمْتُمْ ؛ فَيَكُونُ حَالًا مِنَ الْفَاعِلِ ، وَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنَ الْمَفْعُولِ ، وَهُوَ الْجَوَارِحُ ، أَيِ : وَمَا عِلْمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ فِي حَالِ كَوْنِنَّ مُكَلَّبَاتٍ لِلصَّيْدِ ، وَذَلِكَ أَنْ تَقْتَنِصَهُ بِمَخَالِبِهَا أَوْ أَظْفَارِهَا ، فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - عَلَى أَنَّ الْجَارِحَةَ إِذَا قَتَلَ الصَّيْدَ بِصَدْمَتِهِ لَا بِمَخَالِبِهِ وَظَفَرِهِ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ كَمَا هُوَ أَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ ، وَطَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ﴾ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أُرْسِلَهُ اسْتَرْسَلَ ، وَإِذَا أَشْلَاهُ اسْتَشَلَّى ، وَإِذَا أَخَذَ الصَّيْدَ أَمْسَكَهُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يَجِيءَ إِلَيْهِ ، وَلَا يُمَسِّكُهُ لِنَفْسِهِ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ فَمَتَى كَانَ الْجَارِحُ مُعَلَّمًا وَأَمْسَكَ عَلَى صَاحِبِهِ وَكَانَ قَدْ ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَتَ إِزْسَالِهِ ، حَلَّ الصَّيْدُ وَإِنْ قَتَلَهُ بِالْإِجْمَاعِ .

وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمِثْلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ « عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُرْسِلُ الْكِلَابَ الْمَعْلَمَةَ وَأَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ فَقَالَ : « إِذَا أُرْسَلَتْ كَلْبِكَ الْمَعْلَمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ » قُلْتُ : وَإِنْ قَتَلَنَ ؟ قَالَ : « وَإِنْ قَتَلَنَ ، مَا لَمْ يُشْرِكْهَا كَلْبٌ لَيْسَ مِنْهَا ، فَإِنَّكَ إِتْمَا سَمَيْتَ عَلَى كَلْبِكَ وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى غَيْرِهِ » قُلْتُ لَهُ : فَإِنِّي أُرْمِي بِالْمِعْرَاضِ الصَّيْدَ

فَأَصِيبُ؟ فَقَالَ: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَحَزَقَ فَكُلْهُ، وَإِنْ أَصَابَهُ بَعْرَضٍ فَإِنَّهُ وَقِيدٌ، فَلَا تَأْكُلْهُ» وَفِي لَفْظٍ هُنَا: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ أَمْسَكَ عَلَيْكَ فَادْرَكْتَهُ حَيًّا فَادْبَحْهُ، وَإِنْ أَدْرَكْتَهُ قَدْ قَتَلَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ، فَكُلْهُ فَإِنْ أَخَذَ الْكَلْبُ ذَكَاتَهُ» وَفِي رِوَايَةٍ هُنَا: «فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ» فَهَذَا دَلِيلٌ لِلْجُمْهُورِ وَهُوَ الصَّحِيحُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا أَكَلَ الْكَلْبُ مِنَ الصَّيْدِ يَحْرُمُ مُطْلَقًا، وَلَمْ يَسْتَفْصِلُوا كَمَا وَرَدَ بِذَلِكَ الْحَدِيثُ، وَحُكِّيَ عَنِ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا يَحْرُمُ مُطْلَقًا.

ذَكَرَ الْأَثَارَ بِذَلِكَ: عَنِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: كُلُّ، وَإِنْ أَكَلَ ثُلْثِيهِ، يَعْنِي الصَّيْدَ إِذَا أَكَلَ مِنْهُ الْكَلْبُ<sup>(١)</sup>. وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: كُلُّ، وَإِنْ أَكَلَ ثُلْثِيهِ<sup>(٢)</sup>. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ فَأَكَلَ مِنْهُ، فَإِنْ أَكَلَ ثُلْثِيهِ وَبَقِيَ ثُلْثُهُ فَكُلْهُ<sup>(٣)</sup>. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ الْمَعْلَمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ أَكَلَ أَوْ لَمْ يَأْكُلْ<sup>(٤)</sup>.

وَعَنْ عَمْرٍو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لَهُ أَبُو ثَعْلَبَةَ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي كِلَابًا مُكَلَّبَةً فَأَقْتِنِي فِي صَيْدِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنْ كَانَ لَكَ كِلَابٌ مُكَلَّبَةٌ فَكُلْ بِمَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ» فَقَالَ: ذِكِيًّا وَغَيْرَ ذِكِيٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: ذِكِيًّا وَغَيْرَ ذِكِيٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَقْتِنِي فِي قَوْسِي؟ قَالَ: «كُلْ مَا رَدَّتْ عَلَيْكَ قَوْسُكَ» قَالَ ذِكِيًّا وَغَيْرَ ذِكِيٍّ؟ قَالَ: وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنِّي؟ قَالَ: «وَإِنْ تَغَيَّبَ عَنْكَ مَا لَمْ يَضِلَّ أَوْ تَجَدَّ فِيهِ أَثَرًا غَيْرَ سَهْمِكَ» قَالَ: أَقْتِنِي فِي آيَةِ الْمَجُوسِ إِذَا اضْطُرَرْنَا إِلَيْهَا؟ قَالَ: «إِغْسِلْهَا وَكُلْ فِيهَا»<sup>(٥)</sup>.

فَهَذِهِ آثَارٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ يُغْتَفَرُ وَإِنْ أَكَلَ مِنْهُ الْكَلْبُ، وَقَدْ اِحْتَجَّ بِهَا مَنْ لَمْ يُحْرِمِ الصَّيْدَ

(١) صحيح الإسناد.

(٢) صحيح الإسناد.

(٣) صحيح الإسناد.

(٤) صحيح الإسناد.

(٥) أبو داود بسند جيد (٢٨٥٧).

بِأَكْلِ الْكَلْبِ وَمَا أَشْبَهُهُ ، كَمَا تَقَدَّمَ عَمَّنْ حَكَيْنَاهُ عَنْهُمْ . وَقَدْ تَوَسَّطَ آخَرُونَ فَقَالُوا :  
 إِنْ أَكَلَ عَقَبَ مَا أَمْسَكَهُ فَإِنَّهُ يَحْرَمُ لِحَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، وَلِلْعَلَّةِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا  
 النَّبِيُّ ﷺ : « فَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ » وَأَمَّا إِنْ  
 أَمْسَكَهُ ثُمَّ انْتَهَرَ صَاحِبَهُ فَطَالَ عَلَيْهِ ، وَجَاعَ فَأَكَلَ مِنْهُ لِحُجُوعِهِ فَإِنَّهُ لَا يُؤْتَرُ فِي  
 التَّحْرِيمِ ، وَحَمَلُوا عَلَى ذَلِكَ حَدِيثَ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْحُسَيْنِيِّ وَهَذَا تَفْرِيقٌ حَسَنٌ وَجَمَعَ بَيْنَ  
 الْحَدِيثَيْنِ صَاحِحٌ .

وَقَالَ آخَرُونَ قَوْلًا رَابِعًا فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَهُوَ التَّفْرِيقُ بَيْنَ أَكْلِ الْكَلْبِ فَيَحْرَمُ لِحَدِيثِ  
 عَدِيِّ وَبَيْنَ أَكْلِ الصُّقُورِ وَنَحْوِهَا فَلَا يُحْرَمُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ التَّغْلِيمَ إِلَّا بِالْأَكْلِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أَي : عِنْدَ إِرْسَالِهِ  
 كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : « إِذَا أُرْسَلَتْ كَلْبُكَ الْمُعَلَّمُ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللَّهِ  
 فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ »<sup>(١)</sup> وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ « إِذَا أُرْسَلَتْ كَلْبُكَ فَادْكُرْ اسْمَ  
 اللَّهِ ، وَإِذَا رَمَيْتَ بِسَهْمِكَ فَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ »<sup>(٢)</sup> ، وَهَذَا اشْتَرَطَ مَنْ اشْتَرَطَ مِنَ الْأَئِمَّةِ  
 كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ : التَّسْمِيَةَ عِنْدَ إِرْسَالِ الْكَلْبِ وَالرَّمْيِ  
 بِالسَّهْمِ ؛ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَهَذَا الْحَدِيثِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْمُرَادَ  
 بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْإِرْسَالِ .

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ : الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْأَمْرُ بِالتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْأَكْلِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي  
 الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَّمَ رَبِيئَةَ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ : « سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ  
 بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ »<sup>(٣)</sup> عَنْ عَائِشَةَ أُمَّهُمُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ قَوْمًا يَأْتُونَنَا  
 حَدِيثًا عَهْدُهُمْ بِكُفْرِ بِلُحْمَانِ ، لَا نَدْرِي أَذْكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَمْ لَا ؟ فَقَالَ : « سَمُّوا  
 اللَّهُ أَنْتُمْ وَكُلُوا »<sup>(٤)</sup> .

وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ : كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النَّبِيِّ عَلَى طَعَامٍ لَمْ نَضَعْ أَيْدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ

(١) صحيح : وقد تقدم .

(٢) البخاري (٥٤٧٨) ، ومسلم (١٩٣٠) .

(٣) البخاري (حديث رقم ٥٣٧٦) ، ومسلم (٢٠٢٢) .

(٤) البخاري (٧٣٩٨) .





وَقُلْتُ : لَا أُعْطِي الْيَوْمَ مِنْ هَذَا أَحَدًا ، وَالتَّفْتُ فَإِذَا النَّبِيُّ ﷺ يَتَبَسَّمُ <sup>(١)</sup> ، فَاسْتَدَلَّ بِهِ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَنَاوُلُ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ الْقِسْمَةِ وَهَذَا ظَاهِرٌ .

وَبُتَّ فِي الصَّحِيحِ <sup>(٢)</sup> أَنَّ أَهْلَ خَيْبَرَ أَهْدَوْا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةً مَضْلِيَّةً وَقَدْ سَمُّوا ذِرَاعَهَا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ الذَّرَاعُ ، فَتَنَاوَلَهُ فَنَهَسَ مِنْهُ مَهْشَةً ، فَأَخْبَرَهُ الذَّرَاعُ أَنَّهُ مَسْمُومٌ فَلَفَظَهُ ، وَآثَرَ ذَلِكَ السَّمُّ فِي ثَيَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي أَبْهَرِهِ ، وَأَكَلَ مَعَهُ مِنْهَا بَشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ فَمَاتَ ، فَقَتَلَ الْيَهُودِيَّةَ الَّتِي سَمَّتهُ ، وَكَانَ اسْمُهَا زَيْنَبُ ، فَقَتَلَتْ بِيَشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ .

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَضَافَهُ يَهُودِيًّا عَلَى خُبْرٍ شَعِيرٍ وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ <sup>(٣)</sup> ، يَعْنِي : وَدَكَّا زِنَخًا . وَعَنْ عَلِيٍّ <sup>(٤)</sup> : لَا تَأْكُلُوا ذَبَائِحَ بَنِي تَغْلِبَ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَمَسَّكُونَ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَكَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ .

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ <sup>(٥)</sup> : أُمَّهُمَا كَانَا لَا يَرِيَانِ بَأْسًا بِذَبِيحَةِ نَصَارَى بَنِي تَغْلِبَ ، وَأَمَّا الْمَجُوسُ فَإِنَّهُمْ وَإِنْ أُخِذَتْ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ تَبَعًا وَإِلْحَاقًا لِأَهْلِ الْكِتَابِ ، فَإِنَّهُمْ لَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ وَلَا تُنْكَحُ نِسَاؤُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ أَي : وَيَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ وَلَيْسَ هَذَا إِخْبَارًا عَنِ الْحُكْمِ عِنْدَهُمْ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ خَبْرًا عَمَّا أَمُرُوا بِهِ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ سِوَاءَ كَانَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ أَوْ غَيْرِهَا ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرَ فِي الْمَعْنَى ، أَي : وَلَكُمْ أَنْ تُطْعِمُوهُمْ مِنْ ذَبَائِحِكُمْ كَمَا أَكَلْتُمْ مِنْ ذَبَائِحِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَالْحَصْنَتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أَي : وَأَحِلَّ لَكُمْ نِكَاحَ الْحَرَائِرِ الْعَفَائِفِ

(١) البخاري (٣١٥٣ ، ٤٢١٤) ومسلم (١٧٧٢) بلفظ قريب .

(٢) الذي في الصحيح (البخاري ٢٦١٧) من حديث أنس ؓ أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فقبل ألا نقتلها؟ قال (لا) .

(٣) البخاري (٢٠٦٩) .

(٤) أخرجه الطبري (١١٢٣٣ ، ١١٢٣٤ ، ١١٢٣٥) بإسناد صحيح عن علي .

(٥) انظر سنن سعيد بن منصور (٧١٧ ، ٧١٩) .

مِنَ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَذَكَرَ هَذَا تَوَظُّعًا لِمَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أَرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ : الْحَرَائِرَ دُونَ الْإِمَاءِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِالْحُرَّةِ : الْعَفِيفَةَ ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ هَهُنَا وَهُوَ الْأَشْبَهُ ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ فِيهَا أَنْ تَكُونَ ذِمِّيَّةً وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ عَفِيفَةٍ فَيَفْسُدُ حَالُهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَيَتَحَصَّلُ رُوجُهَا عَلَى مَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : « حَشْفًا وَسَوْءَ كَيْلَةٍ » وَالظَّاهِرُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ : الْعَفِيفَاتِ عَنِ الزَّنَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَفِّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ وَالْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ هَلْ يَعْمُ كُلُّ كِتَابِيَّةٍ عَفِيفَةً سِوَاءَ كَانَتْ حُرَّةً أَوْ أَمَةً ؟ حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ السَّلَفِ مِمَّنْ فَسَّرَ الْمُحْصَنَةَ بِالْعَفِيفَةِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِأَهْلِ الْكِتَابِ هَهُنَا الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِذَلِكَ الذَّمِّيَّاتُ دُونَ الْحَرْبِيَّاتِ لِقَوْلِهِ : ﴿ قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة : ٢٩] ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لَا يَرَى التَّرْوِيجَ بِالنِّصْرَانِيَّةِ ، وَيَقُولُ : لَا أَعْلَمُ شَرَكًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ تَقُولَ إِنَّ رَبَّهَا عِيسَى ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ﴾ [البقرة : ٢٢١]

وَقَدْ تَزَوَّجَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنْ نِسَاءِ النَّصَارَى ، وَلَمْ يَرَوْا بِذَلِكَ بَأْسًا أَخَذًا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ فَجَعَلُوا هَذِهِ مُحْصَنَةً لِلآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ﴾ إِنْ قِيلَ بِدُخُولِ الْكِتَابِيَّاتِ فِي عُمُومِهَا ، وَإِلَّا فَلَا مُعَارَضَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ انفصلُوا فِي ذِكْرِهِمْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة : ١] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [آل عمران : ٢٠] وَقَوْلُهُ : ﴿ إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ أَي : مُهُورَهُنَّ ، أَي كَمَا هُنَّ مُحْصَنَاتٌ عَفَائِفُ فَابْتَدَلُوا هُنَّ الْمُهُورَ عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ ، وَقَدْ أَفْتَى عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : بِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا نَكَحَ امْرَأَةً فَزَنَتْ قَبْلَ دُخُولِهِ بِهَا أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا ، وَتَرُدُّ عَلَيْهِ مَا بَدَلَ لَهَا مِنَ الْمَهْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ ﴾ فَكَمَا شَرَطَ الْإِحْصَانَ فِي

النِّسَاءِ وَهِيَ الْعِفَّةُ عَنِ الزَّانَا ، كَذَلِكَ شَرَطَهَا فِي الرَّجَالِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ مُحْصَنًا عَافِيًا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ﴾ وَهُمْ الزَّانَا الَّذِينَ لَا يَزْتَدَعُونَ عَنِ مَعْصِيَةٍ ، وَلَا يَرُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَمَّنْ جَاءَهُمْ ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَحْدَانٍ ﴾ أَي : ذَوِي الْعَشِيقَاتِ الَّذِينَ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا مَعَهُنَّ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ سِوَاءً ، وَهَذَا ذَهَبَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ نِكَاحُ الْمَرْأَةِ الْبَغِيِّ حَتَّى تَتُوبَ ، وَمَا دَامَتْ كَذَلِكَ لَا يَصِحُّ تَزْوِيجُهَا مِنْ رَجُلٍ عَافِيٍّ ، وَكَذَلِكَ لَا يَصِحُّ عِنْدَهُ عَقْدُ الرَّجُلِ الْفَاجِرِ عَلَى عَافِيَةٍ حَتَّى يَتُوبَ وَيُقْلَعَ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الزَّانَا ، لَهُذِهِ الْآيَةِ وَلِلْحَدِيثِ : « لَا يَنْكَحُ الزَّانِي الْمَجْلُودُ إِلَّا مِثْلَهُ »<sup>(١)</sup> .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

قَالَ كَثِيرُونَ مِنَ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ يَعْنِي : وَأَنْتُمْ مُحْدَثُونَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : إِذَا قُمْتُمْ مِنَ النَّوْمِ إِلَى الصَّلَاةِ ، وَكِلَاهُمَا قَرِيبٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ : بَلِ الْمَعْنَى أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ . فَلَايَةُ أَمْرَةٍ بِالْوُضُوءِ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَى الصَّلَاةِ ، وَلَكِنْ هُوَ فِي حَقِّ الْمُحْدَثِ وَاجِبٌ ، وَفِي حَقِّ الْمُتَطَهَّرِ نَذْبٌ ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْأَمْرَ بِالْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ كَانَ وَاجِبًا فِي إِبْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُسِخَ . عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْفَتْحِ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَيْهِ وَصَلَّى الصَّلَاةَ الْوُضُوءِ وَاحِدٍ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ فَعَلْتَ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ قَالَ : « إِنِّي عَمَدًا فَعَلْتُهُ يَا عُمَرُ »<sup>(٢)</sup> .

(١) أبو داود ( حديث ٢٠٥٣ ) بسند حسن .

(٢) مسلم ( حديث ٢٧٧ ) .

وَفِي فِعْلِ ابْنِ عُمَرَ وَمَدَاوَمَتِهِ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوءِ لِكُلِّ صَلَاةٍ دَلَالَةٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ قَالَ : قُلْتُ : فَأَنْتُمْ كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ ؟ قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي الصَّلَوَاتِ كُلَّهَا بِوُضُوءٍ وَاحِدٍ مَا لَمْ نُحَدِّثْ<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَى الْخَلَاءَ ثُمَّ إِنَّهُ رَجَعَ ، فَأَتَى بِطَعَامٍ ، فَقِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَتَوَضَّأُ ؟ فَقَالَ : « لِمَ ؟ أَصَلِّي فَأَتَوَضَّأُ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : « فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ » قَدْ اسْتَدَلَّ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ عَلَى وَجُوبِ النِّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ ، لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ هَا ، كَمَا تَقُولُ الْعَرَبُ : إِذَا رَأَيْتَ الْأَمِيرَ فَقُمْ ، أَي : لَهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثٌ : « الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »<sup>(٣)</sup> .

وَيُسْتَحَبُّ قَبْلَ غَسْلِ الْوَجْهِ أَنْ يَذْكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى وَضُوءِهِ ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَغْسَلَ كَفَّيْهِ قَبْلَ إِدْخَالِهَا فِي الْإِنَاءِ ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ عِنْدَ الْقِيَامِ مِنَ النَّوْمِ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ فَلَا يَدْخُلُ يَدُهُ فِي الْإِنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ »<sup>(٤)</sup> ، وَحَدُّ الْوَجْهِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ مَا بَيْنَ مَنْابِتِ شَعْرِ الرَّأْسِ - وَلَا اعْتِبَارَ بِالصَّلَعِ وَلَا بِالْغَمَمِ - إِلَى مُنْتَهَى اللَّحْيَيْنِ وَالذَّقْنِ طَوَّلًا ، وَمِنَ الْأُذُنِ إِلَى الْأُذُنِ عَرْضًا .

وَقَدْ ثَبَتَ<sup>(٥)</sup> عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ تَمَضُّضًا وَاسْتَنْشَقَ ، فَاخْتَلَفَ الْأَيْمَةُ فِي ذَلِكَ ، هَلْ هُمَا وَاجِبَانِ فِي الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَوْ مُسْتَحَبَّانِ فِيهِمَا كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ

(١) البخاري (٢١٤) .

(٢) مسلم (٣٧٤) .

(٣) البخاري (حديث رقم ١) وفي عدة مواطن من صحيحه ومسلم (حديث ١٩٠٧) .

(٤) البخاري (حديث ١٦٢) ومسلم (٢٧٨) .

(٥) لذلك طرق كثيرة جدًا عن رسول الله ﷺ في الصحيحين وغيرهما .

النَّبِيِّ ﷺ قَالَ لِلْمُسِيِّ صَلَاتِهِ : « تَوَضَّأَ كَمَا أَمَرَكَ اللَّهُ »<sup>(١)</sup> أَوْ يَجْبَانُ فِي الْعُسْلِ دُونَ الْوُضُوءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ ، أَوْ يَجِبُ الْإِسْتِنْشَاقُ دُونَ الْمَضْمَضَةِ كَمَا هُوَ رَوَايَةٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ؛ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَلْيَسْتَنْثِرْ »<sup>(٢)</sup> وَالْإِنْثَارُ : هُوَ الْمُبَالِغَةُ فِي الْإِسْتِنْشَاقِ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَنَعَسَ وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَتَمَضَّمَصَ بِهَا وَاسْتَنْثَرَ ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً فَجَعَلَ بِهَا هَكَذَا يَعْنِي أَضَافَهَا إِلَى يَدِهِ الْأُخْرَى فَعَسَلَ بِهَا وَجْهَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَعَسَلَ بِهَا يَدَهُ الْيُمْنَى ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَعَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ الْيُمْنَى حَتَّى غَسَلَهَا ، ثُمَّ أَخَذَ غَرْفَةً مِنْ مَاءٍ فَغَسَلَ بِهَا رِجْلَهُ الْيُسْرَى ، ثُمَّ قَالَ : هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَعْنِي : يَتَوَضَّأُ<sup>(٣)</sup> .  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ أَي : مَعَ الْمَرَافِقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا

أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٢]

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُتَوَضِّعِ أَنْ يَشْرَعَ فِي الْعَضْدِ فَيَغْسِلَهُ مَعَ ذِرَاعَيْهِ ؛ لِمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ أُمَّتِي يُدْعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ »<sup>(٤)</sup> . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ : « تَبْلُغُ الْحَلِيَّةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوُضُوءُ »<sup>(٥)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ اِخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْبَاءِ ، هَلْ هِيَ لِلْإِلْصَاقِ ؟ وَهُوَ الْأَظْهَرُ ، أَوْ لِلتَّبْعِيضِ ؟ وَفِيهِ نَظَرٌ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَمِنَ الْأُصُولِيِّينَ مَنْ قَالَ : هَذَا مُجْمَلٌ فَلْيُرْجَعْ فِي بَيَانِهِ إِلَى السُّنَّةِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(٦)</sup> ، عَنْ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُرِينِي كَيْفَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ : نَعَمْ ، فَدَعَا

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (٨٥٨) وغيره .

(٢) البخاري (١٦١) ومسلم (٢٣٧) .

(٣) البخاري بنحوه (حديث ١٤٠) .

(٤) البخاري (حديث ١٣٦) ومسلم (حديث ٢٤٦) .

(٥) مسلم حديث (٢٥٠) .

(٦) البخاري (١٨٥) ومسلم (٢٣٥) .

بِوُضوءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ مَضَمَضَ وَاسْتَشَقَّ ثَلَاثًا ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ بِيَدَيْهِ فَأَقْبَلَ بِهِمَا وَأَدْبَرَ ، بَدَأَ بِمُقَدَّمِ رَأْسِهِ ثُمَّ ذَهَبَ بِهِمَا إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ رَدَّهُمَا حَتَّى رَجَعَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ .

ثُمَّ اِخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُ هَلْ يُسْتَحَبُّ تَكَرُّرُ مَسْحِ الرَّأْسِ ثَلَاثًا كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ ، أَوْ إِنَّمَا يُسْتَحَبُّ مَسْحَةٌ وَاحِدَةٌ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمَنْ تَابَعَهُ ، عَلَى قَوْلَيْنِ : عَنْ حُمْرَانَ بْنِ أَبَانَ قَالَ : « رَأَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ تَوَضَّأَ فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ ثَلَاثًا فَغَسَلَهُمَا ، ثُمَّ تَمَضَمَضَ وَاسْتَشَقَّ ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَيْهِ الِئْمَنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثًا ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ غَسَلَ قَدَمَهُ الْيُمْنَى ثَلَاثًا ، ثُمَّ الْيُسْرَى ثَلَاثًا مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا ، ثُمَّ قَالَ : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (١) . وَاحْتَجَّ مَنْ اسْتَحَبَّ تَكَرُّرَ مَسْحِ الرَّأْسِ بِعُمُومِ حَدِيثِ عُثْمَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ ثَلَاثًا ثَلَاثًا (٢) .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ قَرِيءٌ ﴿ وَأَرْجُلِكُمْ ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿ فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَهَا ﴿ وَأَرْجُلِكُمْ ﴾ يَقُولُ : رَجَعْتُ إِلَى الْغَسْلِ . وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ ظَاهِرَةٌ فِي وُجُوبِ الْغَسْلِ كَمَا قَالَ السَّلْفُ .

وَمَنْ هَهُنَا ذَهَبَ مِنْ ذَهَبٍ إِلَى وُجُوبِ التَّرْتِيبِ فِي الْوُضُوءِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ . وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى وَهِيَ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ وَأَرْجُلِكُمْ بِالْحَقْفِ ، فَقَدْ اِخْتَجَّ بِهَا الشَّيْخَةُ فِي قَوْلِهِمْ بِوُجُوبِ مَسْحِ الرَّجْلَيْنِ ؛ لِأَنَّهَا عِنْدَهُمْ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَسْحِ الرَّأْسِ . وَإِنَّمَا جَاءَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ بِالْحَقْفِ ، إِذَا عَلَى الْمَجَاوِرَةِ وَتَنَاسُبِ الْكَلَامِ كَمَا فِي قَوْلِ الْعَرَبِ : جُحِرُ ضَبٌّ حَرْبٍ ، وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ [ الْإِنْسَانُ : ٢١ ] وَهَذَا شَائِعٌ ذَائِعٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ سَائِعٌ ،

(١) البخاري (١٦٤) ومسلم (٢٢٦) .

(٢) البخاري (١٥٩) .

(٣) مسلم (حديث ٢٣٠) .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى مَسْحِ الْقَدَمَيْنِ إِذَا كَانَ عَلَيْهِمَا الْخُفَّانِ ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هِيَ دَالَةٌ عَلَى مَسْحِ الرَّجْلَيْنِ ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ الْغَسْلَ الْخَفِيفِ ، كَمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ .

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَالْوَاجِبُ غَسْلُ الرَّجْلَيْنِ فَرَضًا لَا بُدَّ مِنْهُ لِالْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي سَنُورِدُهَا . وَمَنْ أَوْجَبَ مِنَ الشَّيْخَةِ مَسْحَهُمَا ، كَمَا يَمْسَحُ الْخُفَّ فَقَدْ ضَلَّ وَأَضَلَّ ، وَكَذَا مَنْ جَوَّزَ مَسْحَهُمَا ، وَجَوَّزَ غَسْلَهُمَا فَقَدْ أَخْطَأَ أَيْضًا .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أَمِيرِي الْمُؤْمِنِينَ : عَثْمَانَ وَعَلِيَّ ، وَابْنَ عَبَّاسٍ ، وَمُعَاوِيَةَ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَاصِمٍ ، وَالْمِقْدَادِ بْنَ مَعْدِيكَرِبَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَسَلَ الرَّجْلَيْنِ فِي وُضُوئِهِ ، إِمَّا مَرَّةً وَإِمَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِمْ ، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : تَخَلَّفَ عَنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرَةٍ سَافَرْنَاهَا ، فَأَدْرَكْنَا وَقَدْ أَرْهَقْتَنَا الصَّلَاةُ - صَلَاةُ الْعَصْرِ - وَنَحْنُ نَتَوَضَّأُ فَجَعَلْنَا نَمْسَحُ عَلَى أَرْجُلِنَا فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ « وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ »<sup>(١)</sup> وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ<sup>(٢)</sup> ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ »<sup>(٣)</sup> .

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ ظَاهِرَةٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فَرَضَ الرَّجْلَيْنِ مَسْحَهُمَا أَوْ أَنَّهُ يَجُوزُ ذَلِكَ فِيهِمَا لَمَا تَوَعَّدَ عَلَى تَرْكِهِ ؛ لِأَنَّ الْمَسْحَ لَا يَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ الرَّجْلِ ، بَلْ يَجْرِي فِيهِ مَا يَجْرِي فِي مَسْحِ الْخُفِّ . وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا تَوَضَّأَ فَتَرَكَ مَوْضِعَ ظَفْرِ عَلَى قَدَمِهِ ، فَأَبْصَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ : « ارْجِعْ فَأَحْسِنْ وَضُوءَكَ »<sup>(٤)</sup> .

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَمْرًا بِغَسْلِ الرَّجْلَيْنِ كَمَا فِي قِرَاءَةِ النَّصْبِ ، وَكَمَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَمْلِ قِرَاءَةِ الْخُفِّضِ عَلَيْهِ ، تَوَهَّمْ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَاسِخَةٌ لِرُخْصَةِ الْمَسْحِ

(١) البخاري (١٦٣) ، ومسلم (٢٤٣) .

(٢) البخاري (١٦٥) ، ومسلم (٢٤٢) .

(٣) مسلم (٢٤٠) ولكن اللفظ هناك أن عائشة قالت : يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويلى للأعقاب من النار » .

(٤) مسلم (حديث ٢٤٣) ، ويروى مراجعة هذا الحديث من كتب العليل .

عَلَى الْخُفَّيْنِ . وَلَيْسَ كَمَا زَعَمُوهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ .

عَنْ هَمَّامٍ قَالَ : بَالَ جَرِيرٌ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ ، فَقِيلَ : تَفْعَلُ هَذَا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَالَ ثُمَّ تَوَضَّأَ وَمَسَحَ عَلَى خُفَّيْهِ . قَالَ : فَكَانَ يُعْجِبُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ ؛ لِأَنَّ إِسْلَامَ جَرِيرٍ كَانَ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ <sup>(١)</sup> .

وَقَدْ ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشْرُوعِيَّةُ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ قَوْلًا مِنْهُ وَفِعْلًا ، وَقَدْ خَالَفَتِ الرَّوَافِضُ فِي ذَلِكَ بِلَا مُسْتَنَدٍ بَلْ بِجَهْلٍ وَضَلَالٍ ، مَعَ أَنَّهُ ثَابِتٌ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ رِوَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ <sup>(٢)</sup> ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ النَّهْيُ عَنِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ <sup>(٣)</sup> وَهُمْ يَسْتَيْحِضُونَهَا ، وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى وُجُوبِ غَسْلِ الرَّجْلَيْنِ مَعَ مَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ مِنْ فِعْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى وَفْقِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ ، وَهُمْ مُخَالِفُونَ لِذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَيْسَ لَهُمْ دَلِيلٌ صَحِيحٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ .

وَهَكَذَا خَالَفُوا الْأَئِمَّةَ وَالسَّلَفَ فِي الْكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ فِي الْقَدَمَيْنِ ، فَعِنْدَهُمْ أَمْتُهُمَا فِي ظَهْرِ الْقَدَمِ ، فَعِنْدَهُمْ فِي كُلِّ رِجْلِ كَعْبٌ ، وَعِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الْكَعْبَيْنِ هُمَا : الْعِظْمَانِ النَّاتِيَتَانِ عِنْدَ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ : لَمْ أَعْلَمْ مُخَالَفًا فِي أَنَّ الْكَعْبَيْنِ اللَّذَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِي الْوُضُوءِ هُمَا النَّاتِيَتَانِ ، وَهُمَا مَجْمَعُ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ هَذَا لَفْظُهُ ، فَعِنْدَ الْأَئِمَّةِ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي كُلِّ قَدَمٍ كَعْبَانِ ، كَمَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ ، وَكَذَا دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ ، فَفِي الصَّحِيحِ <sup>(٤)</sup> عَنْ عُثْمَانَ أَنَّهُ تَوَضَّأَ فَغَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَالْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

(١) البخاري (حديث ٣٨٧) ، ومسلم (٢٧٢) .

(٢) مسلم (حديث ٢٧٦) .

(٣) البخاري (٤٢١٦) ، ومسلم (١٤٠٧) .

(٤) تقدم .



مِنَهُ ﴿ كُلُّ ذَلِكَ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النَّسَاءِ ؛ لَكِنَّ الْبُخَارِيَّ (١) رَوَى هَهُنَا حَدِيثًا خَاصًّا بِهِذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ : سَقَطَتْ قِلَادَةٌ لِي بِالْبَيْدَاءِ وَنَحْنُ دَاخِلُونَ الْمَدِينَةَ ، فَأَنَاحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَنَزَلَ فَشَنَى رَأْسَهُ فِي حِجْرِي رَاقِدًا ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَكَزَنِي لَكَزَةً شَدِيدَةً وَقَالَ : حَبَسَتِ النَّاسَ فِي قِلَادَةٍ ، فَبِي الْمَوْتِ لِمَكَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي وَقَدْ أَوْجَعَنِي ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ وَحَضَرَتِ الصُّبْحُ فَالْتَمَسَ الْمَاءَ فَلَمْ يَوْجَدْ ، فَزَلَّتْ ﴿ يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ، فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْخَضِرِ : لَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ لِلنَّاسِ فِيكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ ، مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَرَكَتُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ أَيُّ : فَلِهَذَا سَهَّلَ عَلَيْكُمْ وَيَسَّرَ وَلَمْ يُعَسِّرْ ، بَلْ أَبَاحَ التَّيَّمَّمَ عِنْدَ الْمَرَضِ ، وَعِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ ، تَوْسِعَةً عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةً بِكُمْ ، وَجَعَلَهُ فِي حَقِّ مَنْ شَرَعَ لَهُ يَتَوَمَّ مَقَامَ الْمَاءِ ، إِلَّا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَكَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي كِتَابِ الْأَحْكَامِ الْكَبِيرِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أَيُّ : لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ نِعْمَهُ عَلَيْكُمْ فِيمَا شَرَعَهُ لَكُمْ مِنَ التَّوَسُّعَةِ وَالرَّافَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالتَّسْهِيلِ وَالتَّسَاحَةِ ، وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِالْحُثِّ عَلَى الدُّعَاءِ عَقِبَ الْوُضُوءِ بِأَنْ يُجْعَلَ فَاعِلُهُ مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ الدَّاخِلِينَ فِي امْتِثَالِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ . عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : كَانَتْ عَلَيْنَا رِعَايَةُ الْإِبِلِ ، فَجَاءَتْ نَوْبَتِي فَرَوَّحْتُهَا بِعَشِيٍّ فَأَذْرَكْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا يُحَدِّثُ النَّاسَ فَأَذْرَكْتُ مِنْ قَوْلِهِ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ، ثُمَّ يَتَوَمَّ فَيُصَلِّي رَكَعَتَيْنِ مُقْبِلًا عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ ، إِلَّا وَجِبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ » قَالَ : قُلْتُ مَا أَجُودَ هَذِهِ ، فَإِذَا قَائِلٌ بَيْنَ يَدَيَّ يَقُولُ : الَّتِي قَبْلَهَا أَجُودُ مِنْهَا ، فَظَنَرْتُ فَإِذَا عَمْرٌ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ جِئْتَ أَنْفًا ، قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيَسْبُغُ الْوُضُوءَ يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ التَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ » (٢) .

(١) انظر البخاري حديث (٣٣٤) .

(٢) مسلم (٢٣٤) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ ، خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ ، أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ ، حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ » (١).

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - تَمْلَأَنِ - أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا » (٢). وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ وَلَا صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ » (٣).

وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُوا بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَّا يَبْسُطُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ فِي شَرَعِهِ هُمْ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ ، وَإِزْسَالِهِ إِلَيْهِمْ هَذَا الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، وَمَا أَخَذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ فِي

(١) مسلم حديث (٢٤٤).

(٢) مسلم (٢٢٣).

(٣) مسلم (٢٢٤).

مُبَايَعْتِهِ عَلَى مُتَابَعَتِهِ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَاوَزَتِهِ ، وَالْقِيَامِ بِيَدَيْهِ ، وَإِبْلَاغِهِ عَنْهُ ، وَقَبُولِهِ مِنْهُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاتَّقُكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ وَهَذِهِ هِيَ الْبَيْعَةُ الَّتِي كَانُوا يُبَايِعُونَ عَلَيْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ إِسْلَامِهِمْ ، كَمَا قَالُوا : بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَأَثَرَةَ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ<sup>(١)</sup> ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الحديد : ٨ ] ، وَقِيلَ : هَذَا تَذْكَارٌ لِلْيَهُودِ بِمَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوَاطِيقِ وَالْعُهُودِ فِي مُتَابَعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالانْتِقَادِ لِشُرْعِهِ . وَقِيلَ : هُوَ تَذْكَارٌ بِمَا أَخَذَ تَعَالَى مِنَ الْعَهْدِ عَلَى ذُرِّيَّةِ آدَمَ حِينَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا<sup>(٢)</sup> [ الأعراف : ٦٧٢ ] ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ تَأْكِيدٌ وَتَحْرِيبٌ عَلَى مُوَاطَبَةِ التَّقْوَى فِي كُلِّ حَالٍ ، ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَتَخَالَجُ فِي الصَّمَائِرِ مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْخَوَاطِرِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلَّهِ ﴾ أَي : كُفُونًا قَوْمِينَ بِالْحَقِّ لِلَّهِ ﷻ ، لَا لِأَجْلِ النَّاسِ وَالسَّمْعَةِ ، وَكُفُونًا ﴿ شَهْدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ أَي : بِالْعَدْلِ لَا بِالْجُورِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّهُ قَالَ : نَحَلَنِي أَبِي نُحْلًا فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةٌ بِنْتُ رَوَاحَةَ : لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهَدَ عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فَجَاءَهُ لِيُشْهَدَهُ عَلَى صَدَقَتِي ، فَقَالَ : « أَكُلُّ وَلَدِكَ نَحَلْتِ مِثْلَهُ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ » وَقَالَ : « إِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرِ »<sup>(٣)</sup> قَالَ : فَارْجِعْ أَبِي فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴾ أَي : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ

(١) البخاري (حديث ٧٠٥٦، ٧٠٥٧)، ومسلم (حديث ١٨٤٠) من حديث جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمِيَةَ قَالَ : دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض فقلنا : حدثنا - أصلحك الله - بحديث ينفع الله به ، سمعته من رسول الله ﷺ فقال : دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه ، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة ، في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله . قال : إلا أن تروا كفرا بواحا ، وعندكم من الله فيه برهان .

(٢) انظر البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (حديث ١٦٢٣) .

بُعْضُ قَوْمٍ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، بَلِ اسْتَعْمَلُوا الْعَدْلَ فِي كُلِّ أَحَدٍ ، صَدِيقًا كَانَ أَوْ  
 عَدُوًّا ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ أَي : عَدْلُكُمْ أَقْرَبُ إِلَى التَّقْوَى  
 مِنْ تَرْكِهِ ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي عَادَ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ فِي نَظَائِرِهِ مِنَ الْقُرْآنِ  
 وَغَيْرِهِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨]  
 وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي  
 لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْهُ شَيْءٌ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ  
 مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] وَكَقَوْلِ بَعْضِ الصَّحَابِيَّاتِ لِعُمَرَ : أَنْتَ أَفْظُ  
 وَأَعْلَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الَّتِي عَمِلْتُمُوهَا إِنْ خَيْرًا  
 فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَسَرُّ ، وَهَذَا قَالَ بَعْدَهُ : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 لَهُمْ مَغْفِرَةً ﴾ ، أَي : لِذُنُوبِهِمْ ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَى  
 عِبَادِهِ لَا يَنَالُوهَا بِأَعْمَالِهِمْ ، بَلْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبٌ وَصُولِ الرَّحْمَةِ  
 إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَهُوَ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَهَا أَسْبَابًا إِلَى نَيْلِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَعَفْوِهِ  
 وَرِضْوَانِهِ ، فَالْكُلُّ مِنْهُ وَلَهُ ، فَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وَهَذَا مِنْ عَدْلِهِ  
 تَعَالَى وَحُكْمَتِهِ وَحُكْمِهِ الَّذِي لَا يَجُورُ فِيهِ ، بَلْ هُوَ الْحُكْمُ الْعَدْلُ الْحَكِيمُ الْقَدِيرُ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدَّكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ  
 يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ مِنْزِلًا  
 وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي الْعِضَاءِ يَسْتَظِلُّونَ تَحْتَهَا ، وَعَلَّقَ النَّبِيُّ سِلَاحَهُ بِشَجَرَةٍ ، فَجَاءَ  
 أَعْرَابِيٌّ إِلَى سَيْفِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَهُ فَسَلَّهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : مَنْ  
 يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : (( اللَّهُ ﷻ )) قَالَ الْأَعْرَابِيُّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟  
 وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : (( اللَّهُ )) قَالَ : فَشَامَ الْأَعْرَابِيُّ السَّيْفَ فَدَعَا النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ  
 فَأَخْبَرَهُمْ خَبَرَ الْأَعْرَابِيِّ وَهُوَ جَالِسٌ إِلَى جَنْبِهِ وَلَمْ يُعَاقِبَهُ (٢) .

(١) البخاري (٣٢٩٤) ، ومسلم (٢٣٩٦) .

(٢) البخاري (٤١٣٩) ، ومسلم (٨٤٣) والعضة : كل شجر يعظم له شوك ، وشام السيف : أي أغمده .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يَعْنِي : مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ ، وَحَفِظَهُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ وَعَصَمَهُ .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمْ مَوَاهِمَهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢٤﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٦﴾

لَمَّا أَمَرَ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَفَاءِ بَعْدِهِ وَمِيثَاقِهِ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ عَلَى لِسَانِ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِيَامِ بِالْحَقِّ وَالشَّهَادَةِ بِالْعَدْلِ ، وَذَكَرَهُمْ نِعْمَةً عَلَيْهِمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ فِيمَا هَدَاهُمْ لَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْهُدَى ، شَرَعَ يُبَيِّنُ لَهُمْ كَيْفَ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِفَ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ : الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فَلَمَّا نَقَضُوا عُهُودَهُ وَمَوَاقِفَهُ أَعَقَبَهُمْ ذَلِكَ لَعْنًا مِنْهُ لَهُمْ ، وَطَرْدًا عَنْ بَابِهِ وَجَنَابِهِ ، وَحِجَابًا لِقُلُوبِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، وَهُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ يَعْنِي : عُرَفَاءَ عَلَى قَبَائِلِهِمْ بِالْمُبَايَعَةِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ .

وَهَكَذَا لَمَّا بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْأَنْصَارَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ؛ كَانَ فِيهِمْ اثْنَا عَشَرَ نَقِيبًا : ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوْسِ وَهُمْ : أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ ، وَسَعْدُ بْنُ حَيْثَمَةَ ، وَرِفَاعَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ وَيُقَالُ : بَدَلَهُ أَبُو الْهَيْثَمِ بْنُ التَّيْهَانِ ﷺ ، وَتَسَعَةً مِنَ الْخَزْرَجِ وَهُمْ : أَبُو أَمَامَةَ

أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ ، وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، وَرَافِعُ بْنُ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ ، وَعَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ ، وَسَعْدُ بْنُ عَبَّادَةَ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ حُنَيْسٍ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا عُرَفَاءَ عَلَى قَوْمِهِمْ لِيَلْتَمِذَ عَنْ أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَهُمْ الَّذِينَ وُلُوا الْمُعَاقِدَةَ وَالْمُبَايَعَةَ عَنْ قَوْمِهِمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ﴾ أَي : بِحِفْظِي وَكِلَافِي وَنَصْرِي ، ﴿ لِيَنْ أَقِمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي ﴾ أَي : صَدَقْتُمُوهُمْ فِيمَا يَجِئُونَكُمْ بِهِ مِنَ الْوَحْيِ ﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾ أَي : نَصَرْتُمُوهُمْ وَأَزَّرْتُمُوهُمْ عَلَى الْحَقِّ ، ﴿ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِهِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ ، ﴿ لِأَكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ أَي : ذُنُوبِكُمْ أَحْوَهَا وَأَسْرَهَا وَلَا أُؤَاخِذْكُمْ بِهَا ﴿ وَلَا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي : أَدْفَعُ عَنْكُمْ الْمَحْدُورَ وَأَحْصَلَ لَكُمْ الْمَقْصُودَ ، ﴿ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ أَي : فَمَنْ خَالَفَ هَذَا الْمِيثَاقَ بَعْدَ عَقْدِهِ وَتَوَكِيدِهِ وَشُدِّهِ ، وَجَحَدَهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةً مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ ، وَعَدَلَ عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِمْ مِيثَاقَهُ وَنَقْضِهِمْ عَهْدَهُ . فَقَالَ : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ ﴾ أَي : فَيَسَبِّ نَقْضِهِمُ الْمِيثَاقَ الَّذِي أَخَذَ عَلَيْهِمْ ، لَعْنَاهُمْ أَي : أَبْعَدْنَاهُمْ عَنِ الْحَقِّ ، وَطَرَدْنَاهُمْ عَنِ الْهُدَى ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أَي : فَلَا يَتَّبِعُونَ بِمَوْعِظَةٍ لِيُغْلِظَهَا وَقَسَاوَتِهَا ﴿ تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ أَي : فَسَدَتْ فُهُومُهُمْ وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى غَيْرِ مُرَادِهِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ - عِيَادًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ - ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أَي : وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ رَغْبَةً عَنَّهُ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : تَرَكُوا عَرَى دِينِهِمْ وَوُظَائِفَ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي لَا يَقْبَلُ الْعَمَلَ إِلَّا بِهَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : تَرَكُوا الْعَمَلَ فَصَارُوا إِلَى حَالَةٍ رَدِيئَةٍ فَلَا قُلُوبَ سَلِيمَةً ، وَلَا فِطْرَ مُسْتَقِيمَةً ، وَلَا أَعْمَالَ قَوِيمَةً ﴿ وَلَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَابِنَةٍ مَبْهُمٍ ﴾ يَعْنِي : مَكْرُهُمْ وَعَدْرُهُمْ لَكَ وَلَا أَصْحَابِكَ ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ وَهَذَا هُوَ عَيْنُ النَّصْرِ وَالظَّفْرِ . كَمَا قَالَ

بَعْضُ السَّلَفِ : مَا عَامَلْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَبِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهُ فِيهِ ، وَهَذَا يَحْصُلُ  
 لَهُمْ تَأْلِيفٌ وَجَمْعٌ عَلَى الْحَقِّ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَحِبُّ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴾ يَعْنِي بِهِ : الصَّفْحَ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هَذِهِ آيَةُ  
 ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ﴾ مَسْخُوحَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا  
 بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [ التوبة : ٢٩ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ ﴾ أَي : وَمِنَ  
 الَّذِينَ ادَّعَوْا لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ نَصَارَى مُتَابِعُونَ الْمَسِيحِ ابْنَ مَرْيَمَ عليه السلام وَلَيْسُوا كَذَلِكَ ،  
 أَخَذْنَا عَلَيْهِمُ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَمُنَاصَرَتِهِ وَمُؤَازَرَتِهِ وَاقْتِفَاءِ  
 آثَارِهِ ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِكُلِّ نَبِيٍّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ ،  
 خَالَفُوا الْمَوَاقِيقَ وَتَقَضَّوْا الْعُهُودَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ  
 فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أَي : فَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ  
 وَالْبَغْضَاءَ لِبَعْضِهِمْ بَعْضًا ، وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ  
 النَّصَارَى عَلَى إِخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ لَا يَزَالُونَ مُتَبَاغِضِينَ مُتَعَادِينَ يُكْفَرُ بَعْضُهُمْ  
 بَعْضًا ، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تُحْرَمُ الْأُخْرَى ، وَلَا تَدْعُهَا تَلِجُ مَعْبَدَهَا ،  
 فَالْمَلَكِيَّةُ تُكْفَرُ الْيَعْقُوبِيَّةَ وَكَذَلِكَ الْأَخْرُونَ ، وَكَذَلِكَ النَّسْطُورِيَّةُ وَالْأَرْيُوسِيَّةُ ، كُلُّ  
 طَائِفَةٍ تُكْفَرُ الْأُخْرَى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَسَوْفَ  
 يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ لِلنَّصَارَى عَلَى مَا  
 اِرْتَكَبُوهُ مِنَ الْكُذْبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَا نَسَبُوهُ إِلَى الرَّبِّ ﷻ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ  
 عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوقًا كَبِيرًا ، مِنْ جَعَلِهِمْ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْفَرْدُ  
 الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ .

يَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا  
 كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ  
 مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ  
 سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، عَرَبِيَّهِمْ وَعَجَمِيَّهِمْ ، أُمِّيَّهِمْ وَكِتَابِيَّهِمْ ، وَأَنَّهُ بَعَثَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْفُرْقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أَي : يُبَيِّنُ مَا بَدَلُوهُ وَحَرَّفُوهُ وَأَوَّلُوهُ وَافْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ فِيهِ ، وَيَسْكُتُ عَنْ كَثِيرٍ بِمَا غَيَّرُوهُ وَلَا فَائِدَةَ فِي بَيَانِهِ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : مَنْ كَفَرَ بِالرَّجْمِ فَقَدْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

قَوْلُهُ : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ فَكَانَ الرَّجْمُ بِمَا أَخْفَوْهُ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فَقَالَ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ أَي : طُرُقَ النَّجَاةِ وَالسَّلَامَةِ وَمَنَاهِجَ الْإِسْتِقَامَةِ ، ﴿ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أَي : يُنَجِّيهِمْ مِنَ الْمَهَالِكِ وَيُوضِّحُ لَهُمُ أَبْيَنَ الْمَسَالِكِ ، فَيُضْرَفُ عَنْهُمْ الْمَحْذُورَ ، وَيُحْصَلُ لَهُمُ أَحَبُّ الْأُمُورِ ، وَيَنْفِي عَنْهُمْ الضَّلَالَةَ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى أَقْوَمِ حَالَةٍ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾



يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا وَحَاكِمًا بِكُفْرِ النَّصَارَى فِي إِدْعَائِهِمْ فِي الْمَسِيحِ ابْنِ مَرْيَمَ ، وَهُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَخَلِقٌ مِنْ خَلْقِهِ ، أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عَلُودًا كَبِيرًا - ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَكُونِهَا تَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أَي : لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ فَمَنْ ذَا الَّذِي كَانَ يَمْنَعُهُ مِنْهُ ، أَوْ مَنْ ذَا الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى صَرْفِهِ عَنْ ذَلِكَ ؟ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أَي : جَمِيعُ الْمَوْجُودَاتِ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى مَا يَشَاءُ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ وَعَدْلِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمُتَّبِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي كَذِبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ ﴾ أَي : نَحْنُ مُنْتَسِبُونَ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ، وَهُمْ بَنُوهُ وَلَهُ بِهِمْ عِنَايَةٌ ، وَهُوَ مُحِبُّنَا ، وَنَقَلُوا عَنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِعَبْدِهِ إِسْرَائِيلَ : أَنْتَ ابْنِي بِكَرِّي ، فَحَمَلُوا هَذَا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَحَرَفُوهُ ، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَسْلَمَ مِنْ عَقْلَائِهِمْ وَقَالُوا : هَذَا يُطْلَقُ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ ، كَمَا نَقَلَ النَّصَارَى مِنْ كِتَابِهِمْ أَنَّ عِيسَى قَالَ لَهُمْ : إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَأَيِّكُمْ يَعْنِي رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْبُتُوَّةِ مَا ادَّعَوْهَا فِي عِيسَى عليه السلام وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِنْ ذَلِكَ مَعَزَتَهُمْ لَدَيْهِ وَحُظُوتَهُمْ عِنْدَهُ ، وَهَذَا قَالُوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ أَي : لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَدَّعُونَ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ فَلِمَ أَعَدَّ لَكُمْ نَارَ جَهَنَّمَ عَلَى كُفْرِكُمْ وَكَذِبِكُمْ وَافْتِرَائِكُمْ ؟ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ شُبُوحِ الصُّوفِيَّةِ لِبَعْضِ الْفُقَهَاءِ : أَيْنَ تَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْحَبِيبَ لَا يُعَذِّبُ حَبِيبَهُ ؟ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ ، فَتَلَا عَلَيْهِ الصُّوفِيُّ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ حَسَنٌ وَلَهُ شَاهِدٌ . فَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي نَقَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَصَبِيٌّ فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا رَأَتْ أُمَّهُ الْقَوْمَ خَشِيَتْ عَلَى وَلَدِهَا أَنْ يُوْطَأَ ، فَأَقْبَلَتْ تَسْعَى وَتَقُولُ : ابْنِي ابْنِي ، وَسَعَتْ فَأَخَذَتْهُ ، فَقَالَ الْقَوْمُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِيُنْقَلَى وَلَدَهَا فِي النَّارِ ، قَالَ : فَحَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : « وَلَا وَاللَّهِ ﷻ مَا يُلْقَى حَبِيبَهُ

في النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أَي : لَكُمْ أَسْوَأَةٌ أَمْثَالِكُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْحَاكِمُ فِي جَمِيعِ عِبَادِهِ ، ﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَي : هُوَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أَي : الْجَمِيعُ مُلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ ﴿ وَالِيهِ الْمَصِيرُ ﴾ أَي : الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبُ إِلَيْهِ فَيَحْكُمُ فِي عِبَادِهِ بِمَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَجُورُ .  
أَمَّا قَوْلُهُمْ : ﴿ خَنَ أَبْتَوْنَا اللَّهَ ﴾ فَإِنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيلَ : وَلَدًا مِنْ وَلَدِكَ أَدْخِلْهُمْ النَّارَ فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حَتَّى تُطَهَّرَهُمْ وَتَأْكُلَ خَطَايَاهُمْ ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ : أَنْ أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ وَلَدِ إِسْرَائِيلَ ، فَأَخْرَجُوهُمْ فَذَلِكَ قَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ﴾ [ آل عمران : ٢٤ ]

يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُحَاطِبًا أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، بَإَنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ ، بَلْ هُوَ الْمُعَقَّبُ لِجَمِيعِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أَي : بَعْدَ مُدَّةٍ مَطَّوَالَةٍ مَا بَيْنَ إِزْسَالِهِ وَعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ . وَالْمَشْهُورُ هُوَ أَنَّهَا سِتِّمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : سِتِّمِائَةِ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا ، فَإِنَّ الْقَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتِّمِائَةَ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ ، وَالْآخَرَ أَرَادَ قَمَرِيَّةٍ ، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ الْقَمَرِيَّةِ نَحْوُ مِنْ ثَلَاثِ سِنِينَ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ أَهْلِ الْكَهْفِ : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [ الكهف : ٢٥ ] أَي : قَمَرِيَّةٍ ، لِتَكْمِيلِ ثَلَاثِ مِائَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَانَتِ الْفِتْرَةُ بَيْنَ عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ آخِرِ أَنْبِيَاءِ

(١) سند رجاله ثقات ، وأخرجه أحمد (٣/ ١٠٤) ، وللحديث شواهد منها عند البخاري (٥٩٩٩) .

بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِأَبْنِ مَرْيَمَ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ » (١) .

وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، وَطُمُوسٍ مِنَ السُّبُلِ ، وَتَغْيِيرِ الْأَدْيَانِ ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ وَالصُّلْبَانِ ، فَكَانَتْ النِّعْمَةُ بِهِ أُنْتَمَ النِّعْمَ ، وَالْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرٌ عَمَمٌ ، فَإِنَّ الْفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ ، وَالطُّغْيَانَ وَالْجَهْلُ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ الْعِبَادِ ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ دِينِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ مِنْ بَعْضِ أَحْبَابِ الْيَهُودِ وَعِبَادِ النَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ . عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ (٢) : « وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ بِمَا جَهِلْتُمْ بِمَا عَلَّمَنِي فِي يَوْمِي هَذَا ، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عِبَادِي حَلَالٌ ، لِأَنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلِّهُمْ ، وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ أَتَتْهُمْ فَأَصَلَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَمْتَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ ﷻ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبِيَّتَهُمْ وَعَجَمَتَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِابْتِلَايِكَ وَابْتِلَايَ بَكَ ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا ، فَقُلْتُ : يَا رَبِّ إِذْنُ يَنْلَعُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خُبْرَةً ، فَقَالَ : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرِجُوكَ ، وَاعْزُهُمْ نِعْرَكَ ، وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ فَسَنَنْفِقُ عَلَيْكَ ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعْتُ حَمْسَةَ مِثْلَهُ ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ : ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ مُتَّصِدٌّ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ بِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ ، وَرَجُلٌ عَفِيفٌ فَقِيرٌ ذُو عِيَالٍ مُتَّصِدٌّ : وَأَهْلُ النَّارِ حَمْسَةٌ : الضَّعِيفُ الَّذِي لَا زَبْرَ لَهُ ، وَالذِّينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا أَوْ تَبَعَاءَ لَا يَتَّبِعُونَ أَهْلًا وَلَا مَالًا ، وَالْحَائِنُ الَّذِي لَا يَحْفَى لَهُ طَمَعٌ - وَإِنْ دَقَّ - إِلَّا خَانَهُ ، وَرَجُلٌ لَا يُصْبِحُ وَلَا يُمَسِي إِلَّا وَهُوَ مُجَادِعٌ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ » . وَذَكَرَ الْبُخَلَّ أَوْ الْكُذِبَ وَالشَّنْظِيرَ الْفَاحِشَ .

(١) البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) بنحوه .

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِبْرَادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَجْمَهُمْ وَعَرَبَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» فَكَانَ الدِّينُ قَدِ انْتَبَسَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فَهَدَى الْخَلَائِقَ وَأَخْرَجَهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَتَرَكَهُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَالشَّرِيعَةِ الْغُرَاءِ ؛ وَهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾ أَي: لِنَلَّا نَحْتَجُّوهُ وَتَقُولُوا - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَعَيَّرُوهُ - مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالْخَيْرِ وَيُنذِرُ مِنَ الشَّرِّ . ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ يَعْنِي: مُحَمَّدًا ﷺ: ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ مَعْنَاهُ: إِنِّي قَادِرٌ عَلَى عِقَابِ مَنْ عَصَانِي وَثَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدْرُكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٠﴾ يَنْقُومِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠١﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا حَتَّىٰ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١٠٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِنَّا لَنَنْدُخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿١٠٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام فِيمَا ذَكَرَ بِهِ قَوْمَهُ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَالْآيَةِ لَدَيْهِمْ ، فِي جَمْعِهِ لَهُمْ خَيْرٌ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى طَرِيقَتِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةَ ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ أَدْرُكُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلْ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ ﴾ أَي: كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ قَامَ فِيكُمْ نَبِيٌّ مِنْ لَدُنْ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ وَكَذَلِكَ كَانُوا لَا يَزَالُ فِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ وَيُحذِّرُونَ  
نِقْمَتَهُ حَتَّى خُتِمُوا بِعَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى خَاتِمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ  
عَلَى الْإِطْلَاقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَنْشُوبِ إِلَى إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَهُوَ أَشْرَفُ  
مِنْ كُلِّ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ عليه السلام.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا ﴾ قِيلَ: الْخَادِمُ وَالْمَرْأَةُ وَالْبَيْتُ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو  
ابْنِ الْعَاصِ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَلَسْنَا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: أَلَكِ  
إِمْرَأَةٌ تَأْوِي إِلَيْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلَكِ مَسْكَنٌ تَسْكُنُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنْتَ  
مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، فَقَالَ: إِنَّ لِي خَادِمًا، فَقَالَ: فَأَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يَعْنِي: عَالِمِي زَمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ  
كَانُوا أَشْرَفَ النَّاسِ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الْيُونَانِ وَالْقِبْطِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ بَنِي آدَمَ، كَمَا قَالَ:  
﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ  
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الجنات: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى لَمَّا قَالُوا: ﴿ اجْعَلْ لَنَا  
إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ <sup>(٢)</sup> إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَنْطَلِقُ مَا  
كَانُوا يَعْمَلُونَ <sup>(٣)</sup> قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

[الأعراف: ١٣٨-١٤٠]

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُمْ كَانُوا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وَإِلَّا فَهَذِهِ الْأُمَّةُ أَشْرَفُ مِنْهُمْ  
وَأَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْمَلُ شَرِيعَةً، وَأَقْوَمُ مِنْهَا جَا، وَأَكْرَمُ نَبِيًّا، وَأَعْظَمُ مُلْكًا،  
وَأَغْزَرُ أَرْزَاقًا، وَأَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا، وَأَوْسَعُ مَمْلَكَةً، وَأَدْوَمُ عِزًّا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:  
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وَقَالَ: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ  
أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وَقَدْ ذَكَرْنَا الْأَحَادِيثَ  
الْمُتَوَاتِرَةَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَشَرَفِهَا وَكْرَمِهَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ كُنْتُمْ  
خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ يَعْنِي: أُمَّةً  
مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنَّ هَذَا الْخُطَابَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَءَاتَيْنَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا ﴾ مَعَ

هَذِهِ الْأُمَّةُ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ مِنْ مُوسَى لِقَوْمِهِ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ ﴿وَأَتَيْنُكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ مَا كَانَ تَعَالَى نَزَلَهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَيُظَلِّلُهُمْ بِهِ مِنَ الْعَمَامِ وَعَظِيمِ ذَلِكَ بِمَا كَانَ تَعَالَى يُخْصُّهُمْ بِهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَحْرِيطِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْجِهَادِ وَالذُّخُولِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ الَّذِي كَانَ بِأَيْدِيهِمْ فِي زَمَانِ أَبِيهِمْ يَعْقُوبَ لَمَّا أَرْتَحَلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَأَهْلُهُ إِلَى بِلَادِ مِصْرَ أَيَّامَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ لَمْ يَزَالُوا بِهَا حَتَّى خَرَجُوا مَعَ مُوسَى فَوَجَدُوا فِيهَا قَوْمًا مِّنَ الْعَمَالِقَةِ الْجَبَّارِينَ قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا وَتَمَلَّكُوهَا ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالذُّخُولِ إِلَيْهَا وَبِقِتَالِ أَعْدَائِهِمْ ، وَبَشَّرَهُمْ بِالنُّصْرَةِ وَالظَّفَرِ عَلَيْهِمْ ، فَكَلُّوا وَعَصَوْا وَخَالَفُوا أَمْرَهُ ، فَعُوقِبُوا بِالذَّهَابِ فِي النَّبِيِّ وَالتَّهَادِي فِي سَيْرِهِمْ حَائِرِينَ ، لَا يَدْرُونَ كَيْفَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَقْصِدِ مُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى تَفْرِيطِهِمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أَي : الْمُطَهَّرَةَ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ هِيَ : الطُّورُ وَمَا حَوْلَهُ ، وَقِيلَ هِيَ : أَرِيحَاءُ ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ ؛ لِأَنَّ أَرِيحَاءَ لَيْسَتْ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالْفَتْحِ ، وَلَا كَانَتْ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَقَدْ قَدَّمُوا مِنْ بِلَادِ مِصْرَ حِينَ أَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُمْ فِرْعَوْنَ ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِأَرِيحَاءَ أَرْضِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، كَمَا قَالَهُ السُّدِّيُّ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا هَذِهِ الْبَلَدَةُ الْمَعْرُوفَةُ فِي طَرَفِ الْعُورِ ، شَرْقِيَّ بَيْتِ الْمَقْدِسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي : الَّتِي وَعَدَكُمُوهَا اللَّهُ عَلَى لِسَانِ أَبِيكُمْ إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ وَرَائَهُ مِنْ أَمْنٍ مِنْكُمْ ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ أَي : وَلَا تَتَكَلَّمُوا عَنِ الْجِهَادِ ، ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ٥٠٠ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿أَي : اعْتَدَرُوا بِأَنَّ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ النَّبِيِّ أَمَرْتَنَا بِدُخُولِهَا وَقِتَالِ أَهْلِهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ ، أَي ذَوِي خَلْقِ هَائِلَةٍ وَقُوَى شَدِيدَةٍ ، وَإِنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى مُقَاوَمَتِهِمْ وَلَا مُصَاوَلَتِهِمْ وَلَا يُمَكِّنُنَا الدُّخُولُ إِلَيْهَا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا دَخَلْنَاهَا وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ .

وَقَدْ ذَكَرَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ هَهُنَا أَخْبَارًا مِنْ وَضْعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عَظَمَةِ خَلْقِ هَؤُلَاءِ الْجَبَّارِينَ ، وَأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ عُوجُ بْنُ عَنُقَ بْنِ آدَمَ عليه السلام ، وَأَنَّهُ كَانَ طُولُهُ ثَلَاثَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ وَثَلَاثِينَ وَثَلَاثَةَ وَثَلَاثُونَ ذِرَاعًا وَثَلَاثُ ذِرَاعٍ ، تَحْرِيرُ الْحِسَابِ ، وَهَذَا شَيْءٌ يُسْتَحَى مِنْ ذِكْرِهِ ، ثُمَّ هُوَ مُخَالَفٌ لِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ : (( إِنْ اللَّهُ خَلَقَ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُونَ ذِرَاعًا ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ ))<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ أَي : فَلَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَرَّضَهُمْ رَجُلَانِ ، اللَّهُ عَلَيْهِمَا نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَهُمَا مِمَّنْ يَخَافُ أَمْرَ اللَّهِ وَيَحْشَى عِقَابَهُ ، وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ : (( قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ )) أَي : مِمَّنْ لَهُمَا مَهَابَةٌ وَمَوْضِعٌ مِنَ النَّاسِ ، وَيُقَالُ إِنَّمَا : يُوشِعُ بْنُ نُونٍ وَكَالِبُ بْنُ يُونَانَ قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ . فَقَالَا : ﴿ ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غُلَبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : إِنْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ وَاتَّبَعْتُمْ أَمْرَهُ وَوَأَفَقْتُمْ رَسُولَهُ نَصَرَكُمُ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ ، وَأَيْدِيكُمْ وَظَفَرَكُمُ بِهِمْ وَدَخَلْتُمُ الْبَلَدَ الَّتِي كَتَبَهَا لَكُمْ ، فَلَمْ يَنْفَعِ ذَلِكَ فِيهِمْ شَيْئًا . ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ . وَهَذَا نُكُولٌ مِنْهُمْ عَنِ الْجِهَادِ ، وَمُخَالَفَةٌ لِرَسُولِهِمْ ، وَتَخَلُّفٌ عَنِ مُقَاتَلَةِ الْأَعْدَاءِ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا أَجَابَ بِهِ الصَّحَابَةُ رضي الله عنهم يَوْمَ بَدْرٍ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ اسْتَشَارَهُمْ فِي قِتَالِ النَّفِيرِ الَّذِينَ جَاءُوا لِمَنْعِ الْعِيرِ الَّذِي كَانَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ ، فَلَمَّا فَاتَ اقْتِنَاصُ الْعِيرِ وَاقْتَرَبَ مِنْهُمْ النَّفِيرُ وَهُمْ فِي جَمْعٍ مَا بَيْنَ السَّعْيَةِ إِلَى الْأَلْفِ فِي الْعُدَّةِ وَالْبَيْضِ وَالْيَلْبِ<sup>(٢)</sup> فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَأَحْسَنَ ، ثُمَّ تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ مِنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : (( أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ )) وَمَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا لِيَسْتَعْلِمَ مَا عِنْدَ الْأَنْصَارِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا جُمْهُورَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ<sup>(٣)</sup> : كَأَنَّكَ

(١) البخاري (٣٣٢٦) ، ومسلم (٢٨٤١) .

(٢) اليب : الدروع من الجلود .

(٣) صوابه سعد بن عباد بن عباد وانظر صحيح مسلم (١٧٧٩) فهناك بنحوه .

تَعْرِضُ بِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضْنَاهُ مَعَكَ مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرُهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُونًا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَرْبِ صِدْقٌ فِي اللَّقَاءِ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَيَسِّرَ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ، فَسَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَطَهُ ذَلِكَ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: لَقَدْ شَهِدْتُ مِنَ الْمِقْدَادِ مَشْهَدًا؛ لِأَنَّ أَكُونَ أَنَا صَاحِبُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا عَدِلَ بِهِ، أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا نَقُولُ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ يَسَارِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُشْرِقُ لِذَلِكَ وَسُرَّ بِذَلِكَ <sup>(١)</sup>.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يَعْنِي: لَمَّا نَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَنِ الْقِتَالِ غَضِبَ عَلَيْهِمُ مُوسَى عليه السلام وَقَالَ دَاعِيًا عَلَيْهِمْ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أَي: لَيْسَ أَحَدٌ يُطِيعُنِي مِنْهُمْ فَيَمْتَثِلُ أَمْرَ اللَّهِ وَيُجِيبُ إِلَى مَا دَعَوْتُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنَا وَأَخِي هَارُونَ ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: يَعْنِي: إِقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ: إِقْضِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَافْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَقَالَ آخَرُونَ: أَفْرِقْ: إِفْصِلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ.

لَمَّا دَعَا عَلَيْهِمُ مُوسَى عليه السلام حِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ، حَكَّمَ اللَّهُ بِتَحْرِيمِ دُخُولِهَا عَلَيْهِمْ قَدْرَ مُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَوَقَعُوا فِي التِّيهِ يَسِيرُونَ دَائِمًا لَا يَتَّهَدُونَ لِلْخُرُوجِ مِنْهُ، وَفِيهِ كَانَتْ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ وَخَوَارِقٌ كَثِيرَةٌ مِنْ تَطْلِيلِهِمْ بِالْعَمَامِ، وَإِنزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى عَلَيْهِمْ، وَمِنْ إِخْرَاجِ الْمَاءِ الْجَارِي مِنْ صَخْرَةٍ صَمَاءٍ تُحْمَلُ مَعَهُمْ عَلَى دَابَّةٍ، فَإِذَا ضَرَبَهَا مُوسَى بِعَصَاهُ انْفَجَرَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحَجَرِ اثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا، تَجْرِي لِكُلِّ شَعْبٍ عَيْنٌ، وَعَظِيمٌ ذَلِكَ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي آيَدَ اللَّهُ بِهَا مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ، وَهُنَاكَ نَزَلَتْ التَّوْرَةُ وَشُرِعَتْ لَهُمُ الْأَحْكَامُ، وَعُمِلَتْ قُبَّةُ الْعَهْدِ، وَيُقَالُ لَهَا: قُبَّةُ الزَّمَانِ. عَنْ



سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ<sup>(١)</sup> : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : فَتَاهُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُصْبِحُونَ كُلَّ يَوْمٍ يَسِيرُونَ لَيْسَ لَهُمْ قَرَارٌ ، ثُمَّ ظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ فِي التِّيهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ، وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثِ الْفُتُونِ ، ثُمَّ كَانَتْ وَفَاءً هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ بَعْدَهُ بِمُدَّةِ ثَلَاثِ سِنِينَ وَفَاءً مُوسَى الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَقَامَ اللَّهُ فِيهِمْ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا خَلِيفَةً عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ ، وَمَاتَ أَكْثَرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُنَاكَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ سِوَى يُوشَعَ وَكَالِبَ ، وَمِنْ هَهُنَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هَذَا وَوَفَّ تَامٌ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ مَنْصُوبٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فَلَمَّا انْقَضَتْ الْمُدَّةُ خَرَجَ بِهِمْ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بِمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ وَبِسَائِرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - مِنَ الْجِيلِ الثَّانِي - فَقَصَدَ بِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَحَاصَرَهَا ، فَكَانَ فَتْحُهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَلَمَّا تَصَيَّفَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ وَخَشِيَ دُخُولَ السَّبَبِ عَلَيْهِمْ ، قَالَ : إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ ، فَحَبَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى حَتَّى فَتَحَهَا ، وَأَمَرَ اللَّهُ يُوشَعَ بْنَ نُونٍ أَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ يَدْخُلُونَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ أَنْ يَدْخُلُوا بِأَبْهَامِ سَجْدًا وَهُمْ يَقُولُونَ : حِطَّةٌ ، أَيْ حُطَّ عَنَّا ذُنُوبُنَا فَبَدَّلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا كُلُّهُ فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» .

وَقَدْ اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنْ قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هُوَ الْعَامِلُ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَأَنَّهُمْ مَكَّنُوا لَا يَدْخُلُونَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَهُمْ تَائِهُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ لَا يَهْتَدُونَ لِمَقْصِدِ ، قَالَ : ثُمَّ خَرَجُوا مَعَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَفَتَحَ بِهِمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، ثُمَّ احْتَجَّ عَلَى ذَلِكَ مَنْ قَالَ بِاجْتِمَاعِ عُلَمَاءِ أَخْبَارِ الْأَوَّلِينَ أَنَّ عُوَجَ بْنَ عَتَقَ قَتَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : فَلَوْ كَانَ قَتَلُهُ إِيَّاهُ قَبْلَ التِّيهِ لَمَا رَهَبَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَمَالِيقِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ التِّيهِ ، قَالَ : وَاجْمَعُوا عَلَى أَنَّ بَلْعَامَ بْنَ بَاعُورًا أَعَانَ الْجَبَّارِينَ بِالِدُّعَاءِ عَلَى مُوسَى ، قَالَ : وَمَا ذَاكَ إِلَّا بَعْدَ التِّيهِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ التِّيهِ لَا يَخَافُونَ مِنْ مُوسَى وَقَوْمِهِ . هَذَا اسْتِدْلَالُهُ .

(١) انظر مسند أبي يعلى الموصلي (١٠/٥) فهناك خبر مطول بسند صحيح .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ تَسْلِيَةً لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُمْ أَيْ: لَا تَأْسَفْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ فِيمَا حَكَمْتَ عَلَيْهِمْ بِهِ، فَإِنَّهُمْ مُسْتَحِقُونَ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْقِصَّةُ تَضَمَّنَتْ تَقْرِيعَ الْيَهُودِ وَبَيَانَ فَضَائِحِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَنُكُوهِمُ عَنْ طَاعَتِهِمَا فِيمَا أَمَرَاهُمْ بِهِ مِنَ الْجِهَادِ، فَضَعَفَتْ أَنْفُسُهُمْ عَنْ مُصَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُجَالَدَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ مَعَ أَنَّ بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَكَلِيمَهُ وَصَفِيهِ مِنْ خَلْقِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَهُوَ يَعِدُهُمْ بِالنَّصْرِ وَالظَّفْرِ بِأَعْدَائِهِمْ، هَذَا مَعَ مَا شَاهَدُوا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ بَعْدُوهُمْ فِرْعَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ وَالغَرَقِ لَهُ وَالْجُنُودِ فِي الْيَمِّ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، لِتَقَرُّ بِهِ أَعْيُنُهُمْ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ، ثُمَّ يَنْكُلُونَ عَنْ مُقَاتَلَةِ أَهْلِ بَلَدٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى دِيَارِ مِصْرَ لَا تُوَازِي عَشْرَ الْمُعْشَارِ فِي عُدَّةِ أَهْلِهَا وَعَدَدِهِمْ، فَظَهَرَتْ قَبَائِحُ صَنِيعِهِمْ لِلْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَانْفَضَّحُوا فَضِيحَةً لَا يُعْطِيهَا اللَّيْلُ وَلَا يَسْتُرُهَا الذَّيْلُ، هَذَا وَهُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَعْمَهُونَ، وَفِي غِيْهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَهُمْ الْبُعْضَاءُ إِلَى اللَّهِ وَأَعْدَاؤُهُ، وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، فَتَبَحَّ اللَّهُ وَجُوهَهُمُ الَّتِي مُسَخَّ مِنْهَا الْخَنَازِيرُ وَالْقُرُودُ، وَأَلْزَمَهُمْ لَعْنَةً تَصْحَبُهُمْ إِلَى النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ، وَيَقْضِي لَهُمْ فِيهَا بِتَأْيِيدِ الْخُلُودِ، وَقَدْ فَعَلَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي جَمِيعِ الْوُجُودِ.

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرَ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧٤﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِيَدَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧٥﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٦﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٧﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١٧٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى مَبِينًا وَخِيمَ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ وَالظُّلْمِ فِي خَبَرِ ابْنِي آدَمَ لِصُلْبِهِ . فِي

قَوْلِ الْجُمْهُورِ - وَهُمَا : قَابِيلُ وَهَابِيلُ ، كَيْفَ عَدَا أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَقَتَلَهُ بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ فِيهَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَتَقَبَّلَ الْقُرْبَانَ الَّذِي أَحْلَصَ فِيهِ اللَّهُ ﷻ ، فَفَارَزَ الْمَقْتُولُ بِوَضْعِ الْأَثَامِ وَالِدُّخُولِ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَخَابَ الْقَاتِلُ وَرَجَعَ بِالصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ ابْنَى آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : أَقْضَى عَلَى هَؤُلَاءِ الْبُغَاةِ الْحَسَدَةَ إِخْوَانَ الْخَنَازِيرِ وَالْفُورَدَةِ مِنَ الْيَهُودِ وَأَمْثَالِهِمْ وَأَشْبَاهِهِمْ ، خَبَرَ ابْنِي آدَمَ وَهُمَا : هَابِيلُ وَقَابِيلُ ، فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : عَلَى الْجَلِيَّةِ وَالْأَمْرِ الَّذِي لَا لَبْسَ فِيهِ وَلَا كَذِبَ وَلَا وَهْمَ وَلَا تَبْدِيلَ وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ [ آل عمران : ٦٢ ] وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [ الكهف : ١٣ ] ، وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِمَا<sup>(١)</sup> فِيمَا ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لِآدَمَ ﷺ أَنْ يُزَوِّجَ بَنَاتَهُ مِنْ بَنِيهِ لِضُرُورَةِ الْحَالِ ، وَلَكِنْ قَالُوا : كَانَ يُوَلِّدُ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ ذَكَرٌ وَأُنْثَى ، فَكَانَ يُزَوِّجُ أَنْثَى هَذَا الْبَطْنِ لِذَكَرِ الْبَطْنِ الْآخِرِ ، وَكَانَتْ أُخْتُ هَابِيلَ دَمِيمَةً وَأُخْتُ قَابِيلَ وَضِيئَةً ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَا عَلَى أُخِيهِ ، فَأَبَى آدَمُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يُقَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَمَنْ تَقَبَّلَ مِنْهُ فَهِيَ لَهُ ، فَتَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ ، وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمَا مَا قَصَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ . ثُمَّ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْجُمْهُورِ أَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الشَّاةَ هُوَ هَابِيلُ ، وَأَنَّ الَّذِي قَرَّبَ الطَّعَامَ هُوَ قَابِيلُ ، وَأَنَّهُ تَقَبَّلَ مِنْ هَابِيلَ شَاتُهُ حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : إِنَّهَا الْكَبْشُ الَّذِي فُدِيَ بِهِ الدَّبِيحُ وَهُوَ مُنَاسِبٌ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنْ قَابِيلَ . كَذَلِكَ نَصَّ عَلَيْهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا .

وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : مِمَّنِ اتَّقَى اللَّهَ فِي فِعْلِهِ . عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : لِأَنَّ أَسْتَقِينَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَبَّلَ لِي صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ إِنِّي أَخَافُ

(١) ولم يثبت بذلك خبر عن النبي ﷺ

اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ يَقُولُ لَهُ أَخُوهُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الَّذِي تَقَبَّلَ اللَّهُ فُرْبَانَهُ لِتَقْوَاهُ حِينَ تَوَاعَدَهُ أَخُوهُ بِالْقَتْلِ عَلَى غَيْرِ مَا ذَنْبَ مِنْهُ إِلَيْهِ : ﴿ لَيْنُ بَسَطَتْ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أَي : لَا أَقَابِلُكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْفَاسِدِ بِمِثْلِهِ فَأَكُونُ أَنَا وَأَنْتَ سَوَاءٌ فِي الْحَطِيئَةِ ﴾ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : مِنْ أَنْ أَصْنَعَ كَمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ، بَلْ أَصْبِرُ وَأَحْتَسِبُ . قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنْ كَانَ لِأَشَدَّ الرَّجُلَيْنِ ، وَلَكِنْ مَنَعَهُ التَّحَرُّجُ يَعْنِي الْوَرَعُ ، وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا تَوَاجَهَ الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بِالْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : « إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ »<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ حِمَارًا وَأَرْدَفَنِي خَلْفَهُ وَقَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ جُوعٌ شَدِيدٌ ، لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ مِنْ فِرَاشِكَ إِلَى مَسْجِدِكَ كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « تَعَفَّفُ » قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَ النَّاسَ مَوْتُ شَدِيدٌ يَكُونُ الْبَيْتُ فِيهِ بِالْعَبْدِ » يَعْنِي : الْقَبْرَ - « كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ : « إِصْبِرْ » قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » يَعْنِي : حَتَّى تَعْرُقَ حِجَارَةُ الزَّيْتِ مِنَ الدَّمَائِ « كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ » قَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : « أَقْعُدُ فِي بَيْتِكَ وَأَغْلِقُ عَلَيْكَ بَابَكَ » قَالَ : فَإِنْ لَمْ أُتْرَكَ ؟ قَالَ : « فَأَتِ مَنْ أَنْتَ مِنْهُمْ فَكُنْ مِنْهُمْ » قَالَ : فَأَخُذُ سِلَاحِي ؟ قَالَ : « فَإِذَا تَشَارِكْتُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ ، وَلَكِنْ إِذَا حَشِيتَ أَنْ يَرُوعَكَ شُعَاعُ السَّيْفِ فَأَلْتِ طَرْفَ رِدَائِكَ عَلَى وَجْهِكَ كَمَا يَبُوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمَكَ »<sup>(٢)</sup> .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : أَي : بِإِثْمِ قَتْلِي وَإِثْمِكَ الَّذِي عَلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ . وَأَمَّا ابْنُ جَرِيرٍ فَقَالَ : وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ : إِنْ تَأْوَيْلَهُ : أَنِّي أُرِيدُ أَنْ تَنْصَرِفَ بِحَطِيئَتِكَ فِي قَتْلِكَ إِيَّايَ ، وَذَلِكَ هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي ﴾ وَأَمَّا مَعْنَى : ﴿ وَإِثْمِكَ ﴾ ، فَهُوَ إِثْمُهُ يَعْنِي : قَتْلُهُ وَذَلِكَ مَعْصِيَةُ اللَّهِ ﷻ فِي

(١) البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

(٢) أخرجه ابن حبان (موارد الظمان ١٨٦٢) بسند صحيح .

إِعْمَالِ سِوَاهُ ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ هُوَ الصَّوَابُ لِإِجْمَاعِ أَهْلِ التَّأْوِيلِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ أَخْبَرَنَا أَنَّ كُلَّ عَامِلٍ فَجَزَاءٍ عَمَلِهِ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا حُكْمُهُ فِي خَلْقِهِ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ تَكُونَ آثَامُ الْمَقْتُولِ مَأْخُودًا بِهَا الْقَاتِلِ ، وَإِنَّمَا يُؤْخَذُ الْقَاتِلُ بِإِثْمِهِ بِالْقَتْلِ الْمُحَرَّمَ وَسَائِرِ آثَامِ مَعَاصِيهِ الَّتِي إِزْتَكَبَهَا بِنَفْسِهِ دُونَ مَا إِزْتَكَبَهُ قَتِيلُهُ . هَذَا لَفْظُهُ ، ثُمَّ أوردَ عَلَى هَذَا سُؤَالَ حَاصِلِهِ كَيْفَ أَرَادَ هَابِيلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَخِيهِ قَابِيلَ إِثْمَ قَتْلِهِ وَإِثْمَ نَفْسِهِ مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ لَهُ مُحَرَّمٌ ؟ وَأَجَابَ بِمَا حَاصِلُهُ : أَنَّ هَابِيلَ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا يُقَاتِلُ أَحَاهُ إِنْ قَاتَلَهُ ، بَلْ يَكْفُ عَنْهُ يَدُهُ طَالِبًا إِنْ وَقَعَ قَتْلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَخِيهِ لَا مِنْهُ . قُلْتُ : وَهَذَا الْكَلَامُ مُتَضَمِّنٌ مَوْعِظَةً لَهُ لَوْ اتَّعَظَ ، وَزَجْرًا لَهُ لَوْ انْزَجَرَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ ﴾ أَي : تَتَحَمَّلُ إِثْمِي وَإِثْمَكَ ﴿ فَتَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أَي : فَحَسَنْتَ وَسَوَّلْتَ لَهُ نَفْسَهُ وَشَجَعْتَهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ، أَي : بَعْدَ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ وَهَذَا الزَّجْرُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أَي : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَيُّ خَسَارَةٍ أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ . وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمِهَا ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ »<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ قَالَ يَتَوَلَّى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّسِيمِينَ ﴿ رُوي عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : لَمَّا مَاتَ الْعُلَامُ تَرَكَهُ بِالْعَرَاءِ ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ يُدْفَنُ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابَيْنِ أَحْوَيْنِ فَاقْتَتَلَا ، فَقَتَلَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ ، فَحَفَرَ لَهُ ثُمَّ حَتَّى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : ﴿ يَتَوَلَّى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي ﴾ وَرُوي عَنْ آخَرِينَ : جَاءَ غُرَابٌ إِلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ فَحَتَّى عَلَيْهِ مِنَ التُّرَابِ حَتَّى وَارَاهُ ، فَقَالَ الَّذِي قَتَلَ أَحَاهُ ﴿ يَتَوَلَّى أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سَوْءَةَ أَخِي ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : عَلَاهُ اللَّهُ بِنَدَامَةٍ بَعْدَ حُسْرَانٍ ، فَهَذِهِ أَقْوَالُ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ ، وَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ هَذَيْنِ ابْنَا آدَمَ لِصَلْبِهِ كَمَا هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ، وَكَمَا نَطَقَ بِهِ الْحَدِيثُ فِي قَوْلِهِ : « إِنْ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِمَّا دَمِمَا ، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ » (١) وَهَذَا ظَاهِرٌ وَجَلِيٌّ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يُدْخِرُ لِصَاحِبِهِ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ » (٢) وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي فِعْلٍ قَابِلٍ هَذَا وَهَذَا ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى مِنْ أَجْلِ قَتْلِ ابْنِ آدَمَ أَخَاهُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أَي : شَرَعْنَا لَهُمْ وَأَعْلَمْنَاهُمْ ﴿ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أَي : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ سَبَبٍ مِنْ قِصَاصٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ وَاسْتَحَلَّ قَتْلَهَا بِلا سَبَبٍ وَلَا جِنَايَةٍ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ عِنْدَهُ بَيْنَ نَفْسٍ وَنَفْسٍ ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أَي : حَرَّمَ قَتْلَهَا وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ ، فَقَدْ سَلِمَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْهُ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، وَهَذَا قَالَ :

(١) البخاري (٣٣٣٥) ، ومسلم (١٦٧٧) .

(٢) صحيح الإسناد : أخرجه أبو داود (٤٩٠٢) والترمذي (٢٥/١) وقال هذا حديث حسن صحيح .

﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ . هَذَا قَوْلٌ ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ :  
مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أَوْ إِمَامًا عَدْلًا ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ شَدَّ عَلَى عَضْدِ نَبِيٍّ أَوْ إِمَامٍ  
عَدْلٍ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ <sup>(١)</sup> .

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ : مَنْ قَتَلَ نَفْسًا فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ ، يَعْنِي  
وَجَبَ عَلَيْهِ الْقِصَاصُ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أَي : عَفَا عَنْ  
قَاتِلِ وَلِيِّهِ ، فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أَي : بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ،  
وَالدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ ﴿ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ ،  
وَهَذَا تَفْرِيعٌ لَهُمْ وَتَوْبِيخٌ عَلَى إِرْتِكَابِهِمُ الْمَحَارِمَ بَعْدَ عِلْمِهِمْ بِهَا ، كَمَا كَانَتْ بَنُو  
قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرَ وَغَيْرُهُمْ مِنْ بَنِي قَيْنِقَاعَ يَمُنُّ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ ، الَّذِينَ كَانُوا  
يُقَاتِلُونَ مَعَ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمُ الْحُرُوبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ إِذَا  
وَضَعَتِ الْحُرُوبُ أَوْزَارَهَا فَذَوَّأَ مِنْ أَسْرُوهُ وَوَدَّوْأَ مِنْ قَتْلُوهُ ، وَقَدْ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
ذَلِكَ فِي « سُورَةِ الْبَقَرَةِ » .

وَقَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاؤُا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ  
يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ .  
الْمُحَارَبَةُ : هِيَ الْمُضَادَّةُ وَالْمُخَالَفَةُ ، وَهِيَ صَادِقَةٌ عَلَى الْكُفْرِ وَعَلَى قَطْعِ الطَّرِيقِ  
وَإِحَافَةِ السَّبِيلِ ، وَكَذَا الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الشَّرِّ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ  
تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ  
الْفَسَادَ ﴾ [البقرة: ٢٠٥]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ <sup>(٢)</sup> : أَنَّ نَفَرًا مِنْ عُكْلٍ - ثَمَانِيَّةً - قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَاسْتَوْحَمُوا الْمَدِينَةَ وَسَقَمَتِ أَجْسَامُهُمْ ، فَشَكُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ  
ﷺ ذَلِكَ فَقَالَ : « أَلَا تَخْرُجُونَ مَعَنَا فِي إِبِلِهِ ، فَتُصَيَّبُونَ مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا »  
فَقَالُوا : بَلَى ، فَخَرَجُوا فَشَرِبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَأَلْبَانِهَا فَصَحُّوا فَقَتَلُوا الرَّاعِي وَطَرَدُوا

(١) تفسير الطبري (١١٧٧٤) .

(٢) انظر البخاري (٤٦١٠) ، ومسلم (١٢٩٨) ، وأبو داود (٤٣٦٦) .

الإبل ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمْ فَأَذِرْكُمْ ، فَجِيءَ بِهِمْ فَأَمَرَ بِهِمْ فَقَطَعَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَسُمِرَتْ أَعْيُنُهُمْ ثُمَّ نُبِدُوا فِي الشَّمْسِ حَتَّى مَاتُوا . وَفِي لَفْظٍ : مِنْ عُكْلٍ أَوْ عُرَيْتَةٍ ، وَفِي لَفْظٍ : وَالْقَوَا فِي الْحَرَّةِ فَجَعَلُوا يَسْتَسْقُونَ فَلَا يُسْقُونَ ، وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ : وَلَمْ يَحْسِمُهُمْ ، وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ قَالَ أَبُو قَلَابَةَ : فَهَؤُلَاءِ سَرَقُوا وَقَتَلُوا وَكَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وَحَارَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ : فَارْتَدُّوا . وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : إِنَّمَا سَمَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَ أَوْلِيكَ ؛ لِأَنَّهُمْ سَمَلُوا أَعْيُنَ الرَّعَاءِ .

وَقَدْ اِخْتَلَفَ الْأَئِمَّةُ فِي حُكْمِ هَؤُلَاءِ الْعَرَنِيِّينَ : هَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ أَوْ مُحْكَمٌ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَنْسُوخٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَزَعَمُوا أَنَّ فِيهَا عِتَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٣] ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هُوَ مَنْسُوخٌ بِنَهْيِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْمُثَلَّةِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ نَظَرٌ ، ثُمَّ قَائِلُهُ مُطَالِبٌ بَيِّنَانٍ تَأَخَّرَ النَّاسِخُ الَّذِي إِدْعَاهُ عَنِ الْمَنْسُوخِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ الْحُدُودُ ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَفِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنَّ قِصَّتَهُ مُتَأَخَّرَةٌ ، وَفِي رِوَايَةِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ لِقِصَّتِهِمْ مَا يَدُلُّ عَلَى تَأَخُّرِهَا ، فَإِنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ نَزُولِ الْمَائِدَةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَمْ يَسْمَلِ النَّبِيُّ ﷺ أَعْيُنَهُمْ وَإِنَّمَا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ فَبَيَّنَ حُكْمَ الْمُحَارِبِينَ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَيْضًا فِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفِقِ عَلَيْهِ أَنَّهُ سَمَلَ ، وَفِي رِوَايَةٍ : سَمَرَ أَعْيُنَهُمْ . ثُمَّ قَدْ اِحْتَجَّ بَعْضُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ جُمُهورُ الْعُلَمَاءِ فِي ذَهَابِهِمْ إِلَى أَنَّ حُكْمَ الْمُحَارِبَةِ فِي الْأَمْصَارِ وَفِي السَّبَلَانِ عَلَى السَّوَاءِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِمَّنْ خَلَفَ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الْآيَةُ . قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : مِمَّنْ شَهَرَ السَّلَاحَ فِي فِتْنَةِ الْإِسْلَامِ وَأَخَافَ السَّبِيلَ ، ثُمَّ ظَفَرَ بِهِ وَقَدَّرَ عَلَيْهِ ، فَأَمَامَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ بِالْخِيَارِ إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ ، وَإِنْ شَاءَ صَلَبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ قَطَعَ يَدَهُ وَرِجْلَهُ ، وَمُسْتَنَدُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ ظَاهِرَ ﴿ أَوْ ﴾ لِلتَّخْيِيرِ ، كَمَا فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ فِي جَزَاءِ الصَّيْدِ : ﴿ فَجَزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِمَّنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامًا مَسْكِينًا أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ [المائدة : ٩٥] ، وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْفِدْيَةِ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا



أَوْ بَعْدَ أَدَىٰ مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴿ [البقرة: ١٩٦] ، وَكَقَوْلِهِ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ : ﴿ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّن أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [المائدة: ٨٩] هَذِهِ كُلُّهَا عَلَى التَّخْيِيرِ ، فَكَذَلِكَ فَلْتَكُنْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَالَ الْجُمْهُورُ : هَذِهِ الْآيَةُ مُنَزَّلَةٌ عَلَى أَحْوَالِ . إِذَا قَتَلُوا وَأَخَذُوا الْمَالَ : قَتَلُوا وَصَلَبُوا ، وَإِذَا قَتَلُوا وَلَمْ يَأْخُذُوا الْمَالَ : قَتَلُوا وَلَمْ يُصَلِّبُوا ، وَإِذَا أَخَذُوا الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلُوا : قَطَعَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ ، وَإِذَا أَخَافُوا السَّبِيلَ وَلَمْ يَأْخُذُوا الْمَالَ : نَفُوا مِنَ الْأَرْضِ . وَاخْتَلَفُوا : هَلْ يُصَلَّبُ حَيًّا وَيُتْرَكُ حَتَّى يَمُوتَ بِمَنْعِهِ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ؟ أَوْ بِقَتْلِهِ بِرُمْحٍ أَوْ نَحْوِهِ ، أَوْ يُقْتَلُ أَوَّلًا ثُمَّ يُصَلَّبُ تَنْكِيلًا وَتَشْدِيدًا لِغَيْرِهِ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . وَهَلْ يُصَلَّبُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ثُمَّ يُنْزَلُ أَوْ يُتْرَكُ حَتَّى يَسِيلَ صَدِيدُهُ ؟ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ خِلَافٌ مُحَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ ، وَبِاللَّهِ الثَّمَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ أَنْ يُطْلَبَ حَتَّى يُقَدَّرَ عَلَيْهِ فَيَقَامَ عَلَيْهِ الْحُدُّ أَوْ يَهْرَبَ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُرَادُ بِالنَّفْيِ هَهُنَا السَّجْنُ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّفْيِ هَهُنَا : أَنْ يُجْرَجَ مِنْ بَلَدِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ فَيُسَجَّنَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أَي : هَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ مِنْ قَتْلِهِمْ وَمِنْ صَلْبِهِمْ ، وَقَطْعِ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ مِنْ خِلَافٍ وَنَفْيِهِمْ ، خِزْيٌ لَهُمْ بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، مَعَ مَا إِدْخَرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْعَظِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَهَذَا قَدْ يَتَأَيَّدُ بِهِ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ ، فَأَمَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ : أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا نَسْرِقُ ، وَلَا نَزْنِي ، وَلَا نَقْتُلُ أَوْلَادَنَا ، وَلَا يَعْضُهُ بَعْضُنَا بَعْضًا « فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ » (١) .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي: شَرٌّ وَعَارٌ وَنِكَالٌ وَذَلَّةٌ وَعُقُوبَةٌ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أَي: إِذَا لَمْ يُتُوبُوا مِنْ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ حَتَّى هَلَكُوا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ مَعَ الْجَزَاءِ الَّذِي جَازَيْتُهُمْ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالْعُقُوبَةُ الَّتِي عَاقَبْتُهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يَعْنِي: عَذَابٌ جَهَنَّمِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَمَّا عَلَى قَوْلٍ مَنْ قَالَ: إِنَّمَا فِي أَهْلِ الشَّرْكِ فَظَاهِرٌ، وَأَمَّا الْمُحَارِبُونَ الْمُسْلِمُونَ: فَإِذَا تَابُوا قَبْلَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُ يَسْقُطُ عَنْهُمْ ائْتِئَامُ الْقَتْلِ وَالصَّلْبِ وَقَطْعِ الرَّجْلِ . وَهَلْ يَسْقُطُ قَطْعُ الْيَدِ أَمْ لَا ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ: وَظَاهِرُ الْآيَةِ يَقْتَضِي سُقُوطَ الْجَمِيعِ وَعَلَيْهِ عَمَلُ الصَّحَابَةِ .

يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١٨﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَقْوَاهُ وَهِيَ إِذَا قَرِنَتْ بِطَاعَتِهِ كَانَ الْمُرَادُ بِهَا الْإِنْكَفَافَ عَنِ الْمَحَارِمِ وَتَرْكُ الْمُنْهَيَّاتِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ: أَي: الْقُرْبَةَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَي: تَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَقَرَأَ ابْنُ زَيْدٍ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ لَاءِ الْأُمَّةِ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمَفْسِّرِينَ فِيهِ ، وَأَنْشَدَ عَلَيْهِ ابْنُ جَرِيرٍ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

إِذَا غَفَلَ الْوَأَشُونَ عُدْنَا لَوْضَلْنَا وَعَادَ التَّصَافِي بَيْنَنَا وَالْوَسَائِلُ

وَالْوَسِيلَةُ: هِيَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَىٰ تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ ، وَالْوَسِيلَةُ أَيْضًا: عِلْمٌ عَلَىٰ أَعْلَىٰ مَنْزِلَةٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ مَنْزِلَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَدَارُهُ فِي الْجَنَّةِ ، وَهِيَ أَقْرَبُ أَمْكِنَةٍ

الْجَنَّةِ إِلَى الْعَرْشِ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبِّ هَذِهِ الدَّعْوَةُ التَّامَّةُ وَالصَّلَاةُ الْقَائِمَةُ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ » (٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لَمَّا أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ الْمَحَارِمِ وَفِعْلِ الطَّاعَاتِ أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْأَعْدَاءِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ الْخَارِجِينَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالتَّارِكِينَ لِلدِّينِ الْقَوِيمِ ، وَرَغَبَهُمْ فِي ذَلِكَ بِالَّذِي أَعَدَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : مِنَ الْفَلَاحِ وَالسَّعَادَةِ الْعَظِيمَةِ الْخَالِدَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ ، الَّتِي لَا تَبِيدُ وَلَا تُحَوَّلُ وَلَا تَزُولُ فِي الْعَرْفِ الْعَالِيَةِ الرَّفِيعَةِ الْأَمْنَةِ ، الْحُسْنَةِ مَنَاطِرُهَا ، الطَّيِّبَةِ مَسَاكِنُهَا ، الَّتِي مَنْ سَكَنَهَا يُنْعَمَ لَا يَبْأَسُ ، وَيَحْيَا لَا يَمُوتُ ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ .

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِمَا أَعَدَّ لِأَعْدَائِهِ الْكُفَّارِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَبِمِثْلِهِ لَيَفْتَدِيَ بِذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ - الَّذِي قَدْ أَحَاطَ بِهِ وَتَيَقَّنَ وَوُصِّلَهُ إِلَيْهِ - مَا تُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ ، بَلْ لَا مَنَدُوحَةَ عَنْهُ وَلَا مَحِيصَ لَهُ وَلَا مَنَاصَ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : مُوجِع .

ثُمَّ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ تَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢] ، فَلَا يَرَاوُنَ يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّتِهِ وَأَلِيمَ مَسِّهِ ، وَلَا

(١) البخاري (٦١٤).

(٢) مسلم (٣٨٤).

سَبِيلَ هُمْ إِلَى ذَلِكَ ، وَكُلَّمَا رَفَعَهُمُ اللَّهُ فَصَارُوا فِي أَعْلَىٰ جَهَنَّمَ ضَرَبْتَهُمُ الزَّبَانِيَةَ بِالْمَقَامِعِ الْحَدِيدِ فَيَرُدُّوهُمْ إِلَىٰ أَسْفَلِهَا ﴿ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : دَائِمٌ مُسْتَمِرٌّ لَا خُرُوجَ لَهُمْ مِنْهَا ، وَلَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهَا .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ ؛ كَيْفَ وَجَدْتَ مَضْجَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : شَرٌّ مَضْجَعٌ ، فَيُقَالُ : هَلْ تَفْتَدِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ ذَهَبًا ؟ قَالَ ، فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : كَذَبْتَ ؛ قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ . فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ (١) .

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا وَأَمْرًا يَقْطَعُ يَدَ السَّارِقِ وَالسَّارِقَةَ . وَالْحُكْمُ عِنْدَ جَمِيعِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ الْيَمِينَ هِيَ الَّتِي تُقْطَعُ ، وَقَدْ كَانَ الْقَطْعُ مَعْمُولًا بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فُقِّرَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَزِيدَتْ شُرُوطٌ أُخْرَى كَمَا سَنَذَكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . كَمَا كَانَتِ الْقِسَامَةُ وَالذِّبَّةُ وَالْقِرَاضُ وَعَظِيمُ ذَلِكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِتَقْرِيرِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَزِيَادَاتُ هِيَ مِنْ تَمَامِ الْمَصَالِحِ ، وَيُقَالُ : إِنْ أَوَّلَ مَنْ قَطَعَ الْأَيْدِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ قُرَيْشٌ ، قَطَعُوا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ دُونِكُ مَوْلَى لِنَبِيِّ مَلِيحِ بْنِ عَمْرٍو مِنْ خُرَاعَةَ ، كَانَ قَدْ سَرَقَ كَثْرَ الْكَعْبَةِ ، وَيُقَالُ : سَرَقَهُ قَوْمٌ فَوَضَعُوهُ عِنْدَهُ ، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَهْلِ الظَّاهِرِ إِلَى أَنَّهُ مَتَى سَرَقَ السَّارِقُ شَيْئًا قَطَعَتْ يَدُهُ بِهِ سِوَاءَ كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ؛ لِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ فَلَمْ يَعْتَبَرُوا نِصَابًا وَلَا حِرْزًا بَلْ أَخَذُوا بِمُجَرَّدِ السَّرِقَةِ . وَتَمَسَّكُوا بِمَا ثَبَتَ فِي

(١) لم أقف عليه عند مسلم بهذا اللفظ وإنما بالفاظ آخر (٢٠٨٧) ، وانظر مسلم من طريق آخر عن أنس (٢٨٠٥) بنحوه .

الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ السَّارِقَ ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ ، وَيَسْرِقُ الْحَبْلَ فَتُقَطَّعُ يَدُهُ »<sup>(١)</sup>.

وَأَمَّا الْجُمْهُورُ فَاعْتَبَرُوا النَّصَابَ فِي السَّرِقَةِ وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَهُمُ الْخِلَافُ فِي قَدْرِهِ ، فَذَهَبَ كُلُّ مِنَ الْأَيِّمَةِ الْأَرْبَعَةِ إِلَى قَوْلٍ عَلَى حِدَةٍ ، فَعِنْدَ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - النَّصَابُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ مَضْرُوبَةٍ خَالِصَةٍ - فَمَتَى سَرَقَهَا - أَوْ مَا يَبْلُغُ ثَمَنَهَا فَمَا فَوْقَهُ وَجَبَ الْقَطْعُ ، وَاحتجَّ فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « قَطَعَ فِي مَجْنٍ ثَمَنُهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمٍ »<sup>(٢)</sup> وَمَا رَوَاهُ<sup>(٣)</sup> عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ : أَنَّ سَارِقًا سَرَقَ فِي زَمَنِ عُمَانَ أُتْرُجَّةً ، فَأَمَرَ بِهَا عُمَانُ أَنْ تُقَوِّمَ فَقَوِّمَتْ بِثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ - مِنْ صَرَفِ اثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا بِدِينَارٍ - فَقَطَّعَ عُمَانُ يَدَهُ ، قَالَ أَصْحَابُ مَالِكٍ : وَمِثْلُ هَذَا الصَّنِيعُ يَشْتَهَرُ وَلَمْ يُنْكَرْ ، فَمِنْ مِثْلِهِ يُحْكَى الْإِجْمَاعُ الشُّكْرِيُّ ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى الْقَطْعِ فِي الثَّمَارِ خِلَافًا لِلْحَنْفِيَّةِ ، وَعَلَى اعْتِبَارِ ثَلَاثَةِ دَرَاهِمٍ خِلَافًا لَهُمْ فِي أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عَشْرَةِ دَرَاهِمٍ ، وَلِلشَّافِعِيِّ فِي اعْتِبَارِ رُبْعِ دِينَارٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - إِلَى أَنَّ الْإِعْتِبَارَ فِي قَطْعِ يَدِ السَّارِقِ بِرُبْعِ دِينَارٍ أَوْ مَا يُسَاوِيهِ مِنَ الْأَثْمَانِ أَوْ الْعُرُوضِ فَصَاعِدًا ، وَالْحُجَّةُ فِي ذَلِكَ مَا أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانُ : عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « تَقَطَّعَ يَدُ السَّارِقِ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا »<sup>(٤)</sup> ، وَلِمسَلِمٍ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تُقَطَّعُ يَدُ السَّارِقِ إِلَّا فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا »<sup>(٥)</sup> قَالَ أَصْحَابُنَا : فَهَذَا الْحَدِيثُ فَاصِلٌ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَنَصَّ فِي اعْتِبَارِ رُبْعِ الدِّينَارِ لَا مَا سَاوَاهُ . قَالُوا : وَحَدِيثُ ثَمَنِ الْمَجْنِ وَأَنَّهُ كَانَ ثَلَاثَةَ دَرَاهِمٍ لَا يُنَافِي هَذَا ؛ لِأَنَّهُ إِذْ ذَاكَ كَانَ الدِّينَارُ بِاثْنَيْ عَشَرَ دِرْهَمًا فَهِيَ ثَمَنُ رُبْعِ دِينَارٍ ، فَأَمَكَنَ الْجَمْعُ بِهَذَا الطَّرِيقِ .

(١) البخاري (٦٧٨٣) ، ومسلم (١٦٨٧) .

(٢) البخاري رقم (٦٧٩٥) ، ومسلم (١٦٨٦) من طريق مالك .

(٣) الموطأ ، كتاب الحدود ، باب ما يجب فيه القطع رقم (٢٣) وإسناده صحيح .

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٩ ، ٦٧٩٠) ، ومسلم (١٦٨٤) .

(٥) هو عند مسلم عقب حديث (١٦٨٤) .

وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ الْمَعْرِيَّ لَمَّا قَدِمَ بَعْدَادَ اشْتَهَرَ عَنْهُ أَنَّهُ أُوْرِدَ إِشْكَالًا عَلَى الْفُقَهَاءِ فِي جَعْلِهِمْ نِصَابَ السَّرِقَةِ رُبْعَ دِينَارٍ ، وَنَظَمَ فِي ذَلِكَ شِعْرًا دَلَّ عَلَى جَهْلِهِ وَقَلَّةِ عَقْلِهِ فَقَالَ :

يَدٌ بِخَمْسٍ مِثِينَ عَسَجِدِ وُدَيْتَ      مَا بَالُهَا قُطِعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ  
تَنَاقَضَ مَا لَنَا إِلَّا السُّكُوتُ لَهُ      وَأَنْ نَعُودَ بِمَوْلَانَا مِنَ النَّارِ

وَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ وَاشْتَهَرَ عَنْهُ تَطَلُّبُهُ الْفُقَهَاءَ فَهَرَبَ مِنْهُمْ ، وَقَدْ أَجَابَهُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ جَوَابُ الْقَاضِي عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمَالِكِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنْ قَالَ : لَمَّا كَانَتْ أَمِينَةً كَانَتْ ثَمِينَةً ، وَلَمَّا خَانَتْ هَانَتْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هَذَا مِنْ تَمَامِ الْحِكْمَةِ وَالْمُصْلِحَةِ وَأَسْرَارِ الشَّرِيعَةِ الْعَظِيمَةِ ، فَإِنَّ فِي بَابِ الْجِنَايَاتِ نَاسَبٌ أَنْ تُعْظَمَ قِيمَةُ الْيَدِ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ ؛ لِئَلَّا يُجْنَى عَلَيْهَا ، وَفِي بَابِ السَّرِقَةِ نَاسَبٌ أَنْ يَكُونَ الْقَدْرُ الَّذِي تُقَطَّعُ فِيهِ رُبْعُ دِينَارٍ ؛ لِئَلَّا يُسَارِعَ النَّاسُ فِي سَرِقَةِ الْأَمْوَالِ ، فَهَذَا هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ عِنْدَ ذَوِي الْأَلْبَابِ . وَهَذَا قَالَ : ﴿ جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أَي : مُجَازَاةٌ عَلَى صَنِيعِهِمَا السَّيِّئِ فِي أَخْذِهِمَا أَمْوَالَ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ ، فَنَاسَبٌ أَنْ يُقَطَّعَ مَا اسْتَعَانَا بِهِ فِي ذَلِكَ ﴿ نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أَي : تَنْكِيلًا مِنَ اللَّهِ بِهِمَا عَلَى ارْتِكَابِ ذَلِكَ ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أَي : فِي انْتِقَامِهِ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أَي : فِي أَمْرِهِ وَتَمْيِيهِ وَشَرِّعِهِ وَقَدْرِهِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أَي : مَنْ تَابَ بَعْدَ سَرِقَتِهِ وَأَتَابَ إِلَى اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ ، فَأَمَّا أَمْوَالَ النَّاسِ فَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهِمْ أَوْ بَدْلُهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَقَالُوا : مَنْ يَكْلِمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَتَى بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ﷻ ؟ » فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ : اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاخْتَطَبَ فَأَتَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ،

وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ! لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» (١). ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَطَعْتَ يَدَهَا ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَحَسُنْتَ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ، وَتَرَوَّجَتْ وَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَهَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ ، وَفِي لَفْظٍ لَهُ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (٢) : كَانَتْ امْرَأَةٌ مَحْزُومِيَّةٌ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجَحِّدُهُ فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِهَا .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أَي : هُوَ الْمَالِكُ لِجَمِيعِ ذَلِكَ ، الْحَاكِمُ فِيهِ الَّذِي لَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ . وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا تَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ تَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْكُلُونَ لِلشَّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٦٢﴾ وَتَيْفٌ تَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِحَايَتِي

(١) انظر البخاري (٦٧٨٨) ، ومسلم (١٦٨٨) .

(٢) مسلم في طرق حديث (١٦٨٨) .

ثَمْنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ فِي الْمُسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ أَي : أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِالْإِسْتِثْمِ ، وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِيهِ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ ﴿ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَي : مُسْتَجِيبُونَ لَهُ مُنْفِعِينَ عَنْهُ ﴿ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ﴾ أَي : يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ آخِرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَسَمَّعُونَ الْكَلَامَ وَيَنْهَوْنَهُ إِلَى أَقْوَامٍ آخِرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ عِنْدَكَ مِنْ أَعْدَائِكَ ﴿ تَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ أَي : يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ، وَيُبَدِّلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ . وَالصَّحِيحُ : أَنَّهُ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِيِّينَ اللَّذِينَ زَنَبُوا وَكَانُوا قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأَيْدِيهِمْ مِنَ الْأَمْرِ بِرَجْمٍ مَنْ أَحْصَنَ مِنْهُمْ ، فَحَرَّفُوهُ وَاصْطَلَحُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى الْجُلْدِ مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِرْكَابِ عَلَى حِمَارَيْنِ مَقْلُوبَيْنِ ، فَلَمَّا وَقَعَتْ تِلْكَ الْكَاثِنَةُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ : تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ ، فَإِنْ حَكَمَ بِالْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ فَخُذُوا عَنْهُ وَاجْعَلُوهُ حُجَّةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ ، وَيَكُونُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ قَدْ حَكَمَ بَيْنَكُمْ بِذَلِكَ ، وَإِنْ حَكَمَ بِالرَّجْمِ فَلَا تَتَّبِعُوهُ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ ، فَقَالَ مَالِكٌ : عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : إِنْ الْيَهُودَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَامْرَأَةً زَنَبَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ ؟ فَقَالُوا : نَفْضَحُهُمْ وَيُجْلَدُونَ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : كَذَبْتُمْ إِنْ فِيهَا الرَّجْمُ ، فَأَتَوْا بِالتَّوْرَةِ فَنَشَرُوهَا فَوَضَعَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ، فَقَرَأَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ : اِرْزُقْ يَدَكَ ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَإِذَا آيَةُ الرَّجْمِ ، فَقَالُوا : صَدَقَ يَا مُحَمَّدُ فِيهَا آيَةُ الرَّجْمِ ، فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمَا ، فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يُخْبِي عَلَى الْمَرْأَةِ يَقِيهَا الْحِجَارَةَ<sup>(١)</sup>.

(١) البخاري (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩).



وَعِنْدَ مُسْلِمٍ<sup>(١)</sup> : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِيَهُودِيٍّ وَيَهُودِيَّةً قَدْ زَنِيَا فَاذْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَ يَهُودٌ فَقَالَ : « مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ عَلَى مَنْ زَنَى ؟ » قَالُوا نُسُودٌ وَجُوهُهُمَا وَنَحْمَلُهُمَا وَنُخَالِفُ بَيْنَ وَجُوهَيْهِمَا وَيُطَافُ بِهِمَا قَالَ : ﴿ فَاتَّوَا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣] قَالَ : فَجَاءُوا بِهَا فَقَرَأُوهَا حَتَّى إِذَا مَرَّ بِآيَةِ الرَّجْمِ وَضَعَ الْفَتَى الَّذِي يَقْرَأُ يَدَهُ عَلَى آيَةِ الرَّجْمِ ، وَقَرَأَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا وَرَاءَهَا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَهُوَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : مُرْهُ فَلْيَرْفَعْ يَدَهُ فَرَفَعَ يَدَهُ ، فَإِذَا مَحَّتْهَا آيَةُ الرَّجْمِ فَأَمَرَ بِهِمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَجِمَا ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : كُنْتُ فِيمَنْ رَجَمَهُمَا ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَقِيهَا مِنَ الْحِجَارَةِ بِنَفْسِهِ .

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ<sup>(٢)</sup> قَالَ : مَرَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهُودِيٌّ مُحَمَّمٌ مَجْلُودٌ فَدَعَاهُمْ فَقَالَ : « أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟ » فَقَالُوا : نَعَمْ ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ : « أَنْشُدْكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ ؟ » فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَوْ لَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ ، نَجِدُ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِنَا الرَّجْمَ ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا حَتَّى نَجْعَلَ شَيْئًا نَقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ فَاجْتَمَعْنَا عَلَى التَّحْمِيمِ وَالْجُلْدِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ » قَالَ : فَأَمَرَ بِهِ فَرَجِمَ ، قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ : ﴿ يَتَّيْهَا الرَّسُولُ لَا حُرْمَةَ الْكُفْرِ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ﴾ أَي : يَقُولُونَ ائْتُوا مُحَمَّدًا ، فَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالتَّحْمِيمِ وَالْجُلْدِ فَخُذُوهُ ، وَإِنْ أَفْتَاكُمْ بِالرَّجْمِ فَاحْذَرُوا . إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قَالَ : فِي الْيَهُودِ ، إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قَالَ : فِي الْيَهُودِ . ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قَالَ : فِي الْكُفَّارِ كُلِّهِمْ .

فَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَكَمَ بِمُؤَافَقَةِ حُكْمِ التَّوْرَةِ ، وَكَانَ

(١) مسلم (١٦٩٩) .

(٢) مسلم (١٧٠٠) حديث .

هَذَا مِنْ بَابِ الْإِزْرَامِ لَهُمْ بِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ لَا مَحَالَةَ ، وَلَكِنَّ هَذَا بُوْحِي خَاصٌّ مِنَ اللَّهِ ﷻ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَسُؤَالُهُ إِيَّاهُمْ عَنْ ذَلِكَ لِيُقَرَّرَهُمْ عَلَى مَا بِأَيْدِيهِمْ مِمَّا تَوَاطَّأُوا عَلَى كِتَابِهِ وَجَحْدِهِ وَعَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ تِلْكَ الدُّهُورِ الطَّوِيلَةِ ، فَلَمَّا اعْتَرَفُوا بِهِ مَعَ عِلْمِهِمْ عَلَى خِلَافِهِ بِأَنَّ زَيْغَهُمْ وَعِنَادَهُمْ وَتَكْذِيبَهُمْ لِمَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ، وَعَدُوْلَهُمْ إِلَى تَحْكِيمِ الرَّسُولِ ﷺ إِنَّمَا كَانَ عَنْ هَوَى مِنْهُمْ وَشَهْوَةٍ ، لِمُوَافَقَةِ آرَائِهِمْ لَا لِاعْتِقَادِهِمْ صِحَّةَ مَا يَحْكُمُ بِهِ ، وَهَذَا قَالُوا : ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا ﴾ أَيُّ : الْجُلْدَ وَالتَّحْمِيمَ ﴿ فَخُذُوهُ ﴾ أَيُّ : اِقْبَلُوهُ ﴿ وَإِنْ لَمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ﴾ أَيُّ : مِنْ قَبُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٥١ ﴾ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أَيُّ : الْبَاطِلُ ﴿ أَكَلُونَ لِلشَّحْتِ ﴾ أَيُّ : الْحَرَامُ وَهُوَ الرِّشْوَةُ ، كَمَا قَالَهُ غَيْرٌ وَاحِدٍ أَيُّ : وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ كَيْفَ يُطَهِّرُ اللَّهُ قَلْبَهُ وَأَنَّى يَسْتَجِيبُ لَهُ . ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ ﴾ أَيُّ : يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْكَ ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ﴾ أَيُّ : فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَقْصِدُونَ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَيْكَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ ، بَلْ مَا يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ . قَالَ غَيْرٌ وَاحِدٍ : هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [ المائدة : ٤٩ ] ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ ﴾ أَيُّ : بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَإِنْ كَانُوا ظَلَمَةً خَارِجِينَ عَنْ طَرِيقِ الْعَدْلِ ﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ فِي آرَائِهِمُ الْفَاسِدَةِ ، وَمَقَاصِدِهِمُ الزَّائِغَةِ ، فِي تَرْكِهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ ، الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بِالتَّمَسُّكِ بِهِ أَبَدًا ، ثُمَّ خَرَجُوا عَنْ حُكْمِهِ وَعَدَلُوا إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بُطْلَانَهُ وَعَدَمَ لُزُومِهِ لَهُمْ فَقَالَ : ﴿ وَكَيْفَ تُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثُمَّ مَدَحَ التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فَقَالَ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ تَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أَيُّ :

لَا يَخْرُجُونَ عَنْ حُكْمِهَا وَلَا يُبَدِّلُونَهَا وَلَا يُحَرِّفُونَهَا ﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ ﴾ أَي :  
 وَكَذَلِكَ الرَّبَّانِيُّونَ : وَهُمْ الْعُلَمَاءُ الْعُبَادُ ، وَالْأَحْبَارُ : وَهُمْ الْعُلَمَاءُ ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا  
 مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾ : أَي بِمَا اسْتُودِعُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي أُمِرُوا أَنْ يُظَهِّرُوهُ وَيَعْمَلُوا بِهِ  
 ﴿ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَأَخْشَوْنَ ﴾ أَي : لَا تَخَافُوا مِنْهُمْ وَخَافُونِي  
 ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ  
 الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . زَادَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : وَهِيَ عَلَيْنَا وَاجِبَةٌ ، وَعَنْ  
 إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ <sup>(١)</sup> قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَرَضِيَ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِهَا .  
 اخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْآيَةَ الْمُرَادُ بِهَا أَهْلُ الْكِتَابِ ، أَوْ مَنْ جَحَدَ حُكْمَ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ  
 فِي الْكِتَابِ . وَعَنْ الشَّعْبِيِّ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾  
 قَالَ : هَذَا فِي الْمُسْلِمِينَ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قَالَ :  
 هَذَا فِي الْيَهُودِ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ قَالَ : هَذَا  
 فِي النَّصَارَى . وَعَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ  
 يَحْكَمْ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ : هِيَ بِهِ كُفْرٌ ، قَالَ ابْنُ طَاوُسٍ : وَلَيْسَ كَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ  
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ <sup>(٢)</sup> . وَعَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ : كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ ، وَظُلْمٌ دُونَ ظُلْمٍ ،  
 وَفِسْقٌ دُونَ فِسْقٍ <sup>(٣)</sup> . وَعَنْ طَاوُسٍ : قَالَ : لَيْسَ بِكُفْرٍ يَنْقُلُ عَنِ الْمِلَّةِ .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ  
 وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ  
 كَفَّارَةٌ لَهُ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

وَهَذَا أَيْضًا بِمَا وَبَّخَتْ بِهِ الْيَهُودُ وَقَرَّعُوا عَلَيْهِ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ فِي نَصِّ التَّوْرَةِ أَنَّ  
 النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَهُمْ يُجَالِفُونَ ذَلِكَ عَمْدًا وَعِينَادًا ، وَيُقِيدُونَ النَّصْرِيَّ مِنَ الْقَرْظِيِّ ،

(١) صحيح عن إبراهيم .

(٢) انظر الطبري (١٢٠٥٢، ١٢٠٥٣، ١٢٠٥٤) .

(٣) الطبري (أثر ١٢٠٤٧) .

وَلَا يُقِيدُونَ الْقَرْظِيَّ مِنَ النَّصْرِيِّ بَلْ يَعْدِلُونَ إِلَى الدِّيَةِ ، كَمَا خَالَفُوا حُكْمَ التَّوْرَةِ الْمَنْصُوصِ عِنْدَهُمْ فِي رَجْمِ الزَّانِي الْمُحْصَنِ ، وَعَدَلُوا إِلَى مَا إِصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنَ الْجُلْدِ وَالتَّحْمِيمِ وَالْإِشْهَارِ ، وَلِهَذَا قَالَ هُنَاكَ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ لِأَنَّهُمْ جَحَدُوا حُكْمَ اللَّهِ قَصْدًا مِنْهُمْ وَعِنَادًا وَعَمْدًا ، وَقَالَ هَهُنَا : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُنْصِفُوا الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ فِيهِ ، فَخَالَفُوا وَظَلَمُوا وَتَعَدَّوْا عَلَى بَعْضِهِمْ بَعْضًا .

وَقَدْ اسْتَدَلَّ كَثِيرٌ مِمَّنْ ذَهَبَ مِنَ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ : شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا إِذَا حُكِيَ مُقَرَّرًا وَلَمْ يُنْسَخْ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ ، وَكَمَا حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ عَنِ نَصِّ الشَّافِعِيِّ وَأَكْثَرِ الْأَصْحَابِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، حَيْثُ كَانَ الْحُكْمُ عِنْدَنَا عَلَى وَفْقِهَا فِي الْجِنَايَاتِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأَيِّمَةِ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبُضْرِيُّ : هِيَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ عَامَّةً ، وَقَدْ حَكَى الشَّيْخُ أَبُو زَكَرِيَّا النَّوَوِيُّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ ، ثَالِثُهَا : أَنَّ شَرْعَ إِبْرَاهِيمَ حُجَّةٌ دُونَ غَيْرِهِ ، وَصَحَّحَ مِنْهَا عَدَمَ الْحُجِّيَّةِ ، وَنَقَلَهَا الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ أَقْوَالًا عَنِ الشَّافِعِيِّ وَرَجَّحَ أَنَّ حُجَّةً عِنْدَ الْجُمْهُورِ مِنْ أَصْحَابِنَا ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ حَكَى الْإِمَامُ أَبُو نَصْرِ بْنِ الصَّبَّاحِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ الشَّامِلِ إِجْمَاعَ الْعُلَمَاءِ عَلَى الْإِخْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ اخْتَجَّ الْأَيُّمَةُ كُلُّهُمْ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ يُقْتَلُ بِالْمَرْأَةِ بَعْمُومٍ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ »<sup>(١)</sup> وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ . وَكَذَا اخْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - بَعْمُومٍ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ يُقْتَلُ الْمُسْلِمُ بِالْكَافِرِ الذَّمِّيِّ وَعَلَى قَتْلِ الْحُرِّ بِالْعَبْدِ ، وَقَدْ خَالَفَهُ الْجُمْهُورُ فِيهِمَا . عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍِّّ عليه السلام قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ »<sup>(٢)</sup> وَأَمَّا الْعَبْدُ فَفِيهِ عَنِ السَّلَفِ آثَارٌ مُتَعَدِّدَةٌ : أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُقِيدُونَ الْعَبْدَ مِنَ الْحُرِّ وَلَا يَقْتُلُونَ حُرًّا بِعَبْدٍ ، وَجَاءَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ لَا تَصِحُّ ،

(١) أحمد في المسند (٢/١٨٠) ، وأبو داود (٤٥٣١) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٢) البخاري (٦٩١٥) .

وَحَكَى الشَّافِعِيُّ الإِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِ قَوْلِ الْحَنَفِيَّةِ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ بُطْلَانُ قَوْلِهِمْ إِلَّا بِدَلِيلٍ مُخْصَّصٍ لِلآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَيُؤَيِّدُ مَا قَالَهُ ابْنُ الصَّبَّاحِ مِنَ الإِخْتِجَاحِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي ذَلِكَ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : أَنَّ الرُّبَيْعَ عَمَّةُ أَنَسٍ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ فَطَلَبُوا إِلَى الْقَوْمِ الْعَفْوَ فَأَبَوْا ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : الْقِصَاصُ ، فَقَالَ أَخُوهَا - أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ - : يَا رَسُولَ اللَّهِ تُكْسِرُ ثَنِيَّةَ فُلَانَةَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( يَا أَنَسُ كِتَابُ اللَّهِ الْقِصَاصُ )) قَالَ : فَقَالَ : لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا تُكْسِرُ ثَنِيَّةَ فُلَانَةَ ، قَالَ : فَرَضِي الْقَوْمُ فَعَفَوْا وَتَرَكَوا الْقِصَاصَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (( إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ ))<sup>(١)</sup> .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ﴾ قِيلَ : فَمَنْ عَفَا عَنْهُ وَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِلْمَطْلُوبِ وَأَجْرٌ لِلطَّالِبِ وَقِيلَ : كَفَّارَةٌ لِلجَّارِحِ وَأَجْرٌ لِلْمَجْرُوحِ عَلَى اللَّهِ ﷻ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ عَنْ طَاوُسٍ وَعَطَاءٍ أَنَّهُمَا قَالَا : كُفِّرَ دُونَ كُفْرٍ ، وَظَلِمَ دُونَ ظُلْمٍ ، وَفَسَقَ دُونَ فِسْقٍ .

وَقَفَيْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَقَفَيْنَا ﴾ أَي : أَتْبَعْنَا عَلَى آثَرِهِمْ يَعْنِي أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أَي : مُؤْمِنًا بِهَا حَاكِمًا بِهَا فِيهَا ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أَي : هُدًى إِلَى الْحَقِّ وَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ فِي إِزَالَةِ الشُّبُهَاتِ وَحَلِّ الْمَشْكَلَاتِ : ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أَي : مُتَّبِعًا لَهَا غَيْرَ مُخَالَفٍ لِمَا فِيهَا إِلَّا فِي الْقَلِيلِ مِمَّا بَيْنَ لَبْنِي إِسْرَائِيلَ بَعْضَ مَا كَانُوا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] وَهَذَا كَانَ الْمَشْهُورُ مِنْ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنْجِيلَ نَسَخَ بَعْضَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : وَجَعَلْنَا الْإِنْجِيلَ هُدًى يُهْتَدَى بِهِ ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أَي : زَاجِرًا عَنِ إِزْتِكَابِ الْمَحَارِمِ وَالْمَأْتِمِ ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أَي : لِمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَخَافَ وَعِيدَهُ وَعِقَابَهُ . ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قُرْئِ ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بِالنَّصْبِ ، عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامٌ كَيْ ، أَي : وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ لِيَحْكُمَ أَهْلَ مِلَّتِهِ بِهِ فِي زَمَانِهِمْ ، وَقُرْئِ ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بِالْجُزْمِ عَلَى أَنَّ اللَّامَ لَامٌ الْأَمْرِ ، أَي : لِيُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا فِيهِ ، وَلِيُقِيمُوا مَا أُمِرُوا بِهِ فِيهِ ، وَمِمَّا فِيهِ الْإِسَارَةُ بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ وَتَصْدِيقِهِ إِذَا وُجِدَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [المائدة : ٦٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وَهَذَا قَالَ هَهُنَا ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أَي : الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ رَبِّهِمْ ، الْمَائِلُونَ إِلَى الْبَاطِلِ ، النَّارِكُونَ لِلْحَقِّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّصَارَى وَهُوَ ظَاهِرٌ مِنَ السِّيَاقِ .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ  
مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤٢﴾

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى التَّوْرَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مُوسَى كَلِيمِهِ ، وَمَدَحَهَا وَأَثْنَى عَلَيْهَا وَأَمَرَ  
بِاتِّبَاعِهَا ، حَيْثُ كَانَتْ سَائِعَةً الْإِتِّبَاعِ ، وَذَكَرَ الْإِنْجِيلَ وَمَدَحَهُ وَأَمَرَ أَهْلَهُ بِإِقَامَتِهِ  
وَاتِّبَاعِ مَا فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، شَرَعَ فِي ذِكْرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ  
وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أَي : بِالصِّدْقِ الَّذِي  
لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أَي : مِنْ  
الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ ذِكْرَهُ وَمَدَحَهُ وَأَنَّهُ سَيَنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ  
مُحَمَّدٍ ﷺ فَكَانَ نَزْوُلُهُ كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ بِمَا زَادَهَا صِدْقًا عِنْدَ حَامِلِيهَا مِنْ ذَوِي الْبَصَائِرِ  
الَّذِينَ انْقَادُوا لِأَمْرِ اللَّهِ وَاتَّبَعُوا شَرَائِعَ اللَّهِ وَصَدَّقُوا رُسُلَ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ

سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨]

أَي : إِنْ كَانَ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ ﷺ  
﴿ لَمَفْعُولًا ﴾ أَي : لِكَاثِبًا لَا مَحَالَةَ وَلَا بَدًّا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ قَالَ ابْنُ  
عَبَّاسٍ : الْمُهَيِّمُ الْأَمِينُ . قَالَ : الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : الْقُرْآنُ أَمِينٌ عَلَى الْكِتَابِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبْلَهُ فَمَا وَاَفَقَهُ مِنْهُ فَهُوَ حَقٌّ ،  
وَمَا خَالَفَهُ مِنْهَا فَهُوَ بَاطِلٌ ، وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ وَمُهَيِّمًا ﴾ أَي : شَهِيدًا . وَقِيلَ :  
حَاكِمًا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا مُتَقَابِرَةٌ الْمَعْنَى ، فَإِنَّ اسْمَ  
الْمُهَيِّمِ يَتَضَمَّنُ هَذَا كُلَّهُ فَهُوَ : أَمِينٌ وَشَاهِدٌ وَحَاكِمٌ عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ ، جَعَلَ  
اللَّهُ هَذَا الْكِتَابَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَنْزَلَهُ آخِرَ الْكِتَابِ ، وَخَاتَمَهَا وَأَشْمَلَهَا وَأَعْظَمَهَا  
وَأَكْمَلَهَا ، حَيْثُ جَمَعَ فِيهِ مَحَاسِنَ مَا قَبْلَهُ ، وَزَادَهُ مِنَ الْكَمَالَاتِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ ؛  
فَلِهَذَا جَعَلَهُ شَاهِدًا وَأَمِينًا وَحَاكِمًا عَلَيْهَا كُلِّهَا ، وَتَكَفَّلَ تَعَالَى حِفْظَهُ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ،

فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أَي : فَاحْكُمْ يَا مُحَمَّدُ بَيْنَ النَّاسِ

عَرَبِيهِمْ وَعَجَمِهِمْ ، أُمَّيِّهِمْ وَكِتَابِيَّهِمْ ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ وَبِمَا قَدَّرَهُ لَكَ مِنْ حُكْمٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَلَمْ يَنْسَخْهُ فِي شَرْعِكَ . هَكَذَا وَجَّهَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِمَعْنَاهُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أَي : آرَاءَهُمْ الَّتِي اضْطَلَحُوا عَلَيْهَا ، وَتَرَكُوا بِسَبَبِهَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رُسُلِهِ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَي : لَا تَنْصَرِفْ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ إِلَى أَهْوَاءِ هَؤُلَاءِ مِنَ الْجَهْلَةِ الْأَشْقِيَاءِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴾ سَبِيلًا وَسُنَّةً . وَقِيلَ : ﴿ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴾ أَي : سُنَّةً ، فَإِنَّ الشَّرْعَةَ - وَهِيَ الشَّرِيعَةُ أَيْضًا - هِيَ : مَا يُبْتَدَأُ فِيهِ إِلَى الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ : شَرَعْتُ فِي كَذَا ، أَي : ابْتَدَأْتُ فِيهِ : وَكَذَا الشَّرِيعَةُ وَهِيَ : مَا يُشْرَعُ مِنْهَا إِلَى الْمَاءِ ، أَمَّا الْمَنْهَاجُ فَهُوَ : الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ السَّهْلُ ، وَالسُّنَنُ : الطَّرَائِقُ ، فَتَفْسِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴾ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ أَظْهَرَ فِي الْمُنَاسَبَةِ مِنَ الْعَكْسِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . ثُمَّ هُوَ الْإِجْبَارُ عَنِ الْأَمَمِ الْمُخْتَلَفَةِ الْأَدْيَانِ بِاعْتِبَارِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ الْكِرَامَ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُخْتَلَفَةِ فِي الْأَحْكَامِ الْمُتَهَمَّةِ فِي التَّوْحِيدِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :

« نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ إِخْوَةٌ لِعَلَاتِ دِينِنَا وَوَاحِدٌ »<sup>(١)</sup> يَعْنِي : بِذَلِكَ التَّوْحِيدِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ وَضَمَّنَهُ كُلَّ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وَأَمَّا الشَّرَائِعُ فَمُخْتَلَفَةٌ فِي الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي ، فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ حَرَامًا ثُمَّ يُحِلُّ فِي الشَّرِيعَةِ الْأُخْرَى وَبِالْعَكْسِ ، وَخَفِيفًا فَيَزَادُ فِي الشَّدَّةِ فِي هَذِهِ دُونَ هَذِهِ ، وَذَلِكَ لِمَا لَهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ .

وَعَنْ قَتَادَةَ ، قَوْلُهُ : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمَنْهَاجًا ﴾ يَقُولُ : سَبِيلًا وَسُنَّةً ، وَالسُّنَنُ مُخْتَلَفَةٌ ، هِيَ فِي التَّوْرَةِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ ، وَفِي الْفُرْقَانِ شَرِيعَةٌ ، يُحِلُّ اللَّهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَيُحْرِمُ مَا يَشَاءُ ، لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُهُ مِمَّنْ يَعَصِيهِ ، وَالذِّينُ الَّذِي



لَا يَقْبَلُ اللَّهُ غَيْرَهُ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ جَمِيعُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ الشَّرَائِعَ مُخْتَلِفَةً ؛ لِيُخْتَبَرَ عِبَادَهُ فِيمَا شَرَعَ لَهُمْ ، وَيُثَبِّهُمُ أَوْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ بِمَا فَعَلُوهُ أَوْ عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَدَبَهُمْ إِلَى الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْحَيْرَاتِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَيْهَا فَقَالَ : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وَهِيَ طَاعَةُ اللَّهِ وَاتِّبَاعُ شَرْعِهِ الَّذِي جَعَلَهُ نَاسِخًا لِمَا قَبْلَهُ ، وَالتَّصَدِيقُ بِهَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ آخِرُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أَي : مَعَاذُكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَمَصِيرُكُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أَي : فَيُخْبِرُكُمْ بِمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ فَيَجْزِي الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ الْجَاهِلِينَ الْمُكذِّبِينَ بِالْحَقِّ الْعَادِلِينَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ بِلَا دَلِيلٍ وَلَا بُرْهَانٍ ، بَلْ هُمْ مُعَانِدُونَ لِلْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ وَالْأَدِلَّةِ الدَّامِغَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرِ بِذَلِكَ ، وَالنَّهْيُ عَنْ خِلَافِهِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ أَي : وَاحْذَرِ أَعْدَاءَكَ الْيَهُودَ أَنْ يُدَلِّسُوا عَلَيْكَ الْحَقَّ فِيمَا يُنْهَوْنَهُ إِلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَلَا تَغْتَرَّ بِهِمْ فَإِنَّهُمْ كَذَبَةٌ كَفَرَةٌ خَوْنَةٌ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أَي : عَمَّا تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقِّ وَخَالَفُوا شَرْعَ اللَّهِ ﴿ فَأَعْلَمْنَا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ أَي : فَأَعْلَمْنَا أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ فِيهِمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْهُدَى لِمَا هُمْ مِنَ الذُّنُوبِ السَّالِفَةِ الَّتِي اقْتَضَتْ إِضْلَالَهُمْ وَنَكَالَهُمْ ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ أَي : إِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ خَارِجُونَ عَنْ طَاعَةِ رَبِّهِمْ مُخَالِفُونَ لِلْحَقِّ نَاءُونَ عَنْهُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَطَعْتَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ خَرَجَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ الْمُحْكَمِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ ، النَّاهِي عَنْ كُلِّ شَرٍّ ، وَعَدَلٌ إِلَى مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَرَءِ وَالْأَهْوَاءِ وَالْإِضْطِلَاحَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا

الرَّجَالِ بِلَا مُسْتَنَدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ ، كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَحْكُمُونَ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالْجِهَالَاتِ بِمَا يَضْعُونَهَا بِأَرَائِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ ، وَكَمَا يَحْكُمُ بِهِ التَّارُ مِنَ السِّيَاسَاتِ الْمَلَكِيَّةِ الْمَأْخُودَةِ عَنْ مَلِكِهِمْ جَنْكِيَزَ خَانَ الَّذِي وَضَعَ لَهُمُ الْيَسَاقَ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كِتَابٍ مَجْمُوعٍ مِنْ أَحْكَامٍ قَدْ اقْتَبَسَهَا مِنْ شَرَائِعِ شَتَّى : مِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ وَالْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، وَفِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ أَخَذَهَا مِنْ مُجَرَّدِ نَظَرِهِ وَهَوَاهُ ، فَصَارَتْ فِي بَيْنِهِ شَرْعًا مُتَّبَعًا يُقَدِّمُونَهَا عَلَى الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ يَجِبُ قِتَالُهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَلَا يُحْكَمُ سِوَاهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ﴾ أَي : يَبْتَغُونَ وَيُرِيدُونَ وَعَنْ حُكْمِ اللَّهِ يَعْدِلُونَ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أَي : وَمَنْ أَعْدَلُ مِنَ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ شَرْعَهُ وَآمَنَ بِهِ ، وَأَيُّقِنَ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، وَأَرْحَمُ بَخْلَقِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ بَوْلِدِهَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْعَادِلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ . وَكَانَ طَاوُسٌ إِذَا سَأَلَهُ رَجُلٌ : أَفْضَلُ بَيْنَ وَلَدِي فِي النَّحْلِ (١) ؟ قَرَأَ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ ﴾ الْآيَةَ .

﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١)  
فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُوا لَوْلَا الَّذِينَ آفَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

يُنْهَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُؤَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ - قَاتَلَهُمُ اللَّهُ - ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ .

(١) النَّحْلُ أَي : الْهَبَاتِ وَالْعَطَايَا ، وَالسُّنْدُ صَحِيحٌ إِلَى طَاوُسٍ .

عَنْ عِيَاضٍ : أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ مَا أَخَذَ وَمَا أُعْطِيَ فِي أَدِيمٍ وَاحِدٍ ، وَكَانَ لَهُ كَاتِبٌ نَصْرَانِيٌّ فَرَفَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ ، فَعَجِبَ عُمَرُ وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَحَفِيفٌ هَلْ أَنْتَ قَارِئٌ لَنَا كِتَابًا فِي الْمَسْجِدِ جَاءَ مِنَ الشَّامِ ؟ فَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ . فَقَالَ عُمَرُ : أَجُبُّهُ هُوَ ؟ قَالَ : لَا بَلْ نَصْرَانِيٌّ ، قَالَ : فَانْتَهَرَنِي وَضَرَبَ فِخْذِي ثُمَّ قَالَ : أَخْرِجُوهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ ۗ ﴾ الْآيَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أَي : شَكُّ وَرَيْبٌ وَنِفَاقٌ ﴿ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ . أَي : يُبَادِرُونَ إِلَى مَوَالِيهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ﴿ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصَيِّنَا دَابِرَةً ﴾ أَي : يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمَوَالِيهِمْ : أَنَّهُمْ يَحْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكَافِرِينَ بِالْمُسْلِمِينَ فَتَكُونَ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ ذَلِكَ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : فَتْحَ مَكَّةَ . وَقِيلَ : يَعْنِي : الْقَضَاءَ وَالْفَضْلَ ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ قِيلَ : يَعْنِي : ضَرْبَ الْحِزْبِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ ﴿ فَيُضْهِحُوا ﴾ يَعْنِي : الَّذِينَ وَالْوَالِيَاءَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ مِنَ الْمَوَالِيَةِ ﴿ نَدِيمِينَ ﴾ أَي : عَلَىٰ مَا كَانَ مِنْهُمْ مِمَّا لَمْ يُجِدْ عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْدُورًا ، بَلْ كَانَ عَيْنُ الْمَفْسَدَةِ ، فَإِنَّهُمْ فَضِحُوا وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْتُورِينَ لَا يَدْرَىٰ كَيْفَ حَالُهُمْ ، فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَخْلِفُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ ، فَبَانَ كَذِبُهُمْ وَافْتَرَاؤُهُمْ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۗ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۗ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

ءَامِنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ شَرِيْعَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْتَبْدِلُ بِهِ مَنْ هُوَ خَيْرًا لَهَا مِنْهُ ، وَأَشَدَّ مَنَعَةً ، وَأَقْوَمَ سَبِيلًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٥٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩-٢٠] أَيْ : بِمُتَمَنِّعٍ وَلَا صَعْبٍ ، وَقَالَ تَعَالَى هَهُنَا ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ﴾ أَيْ : يَرْجِعُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ هَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْكَمَّلِ أَنَّ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ وَوَلِيِّهِ ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوِّهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وَقَوْلُهُ ﷻ : ﴿ مُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ أَيْ : لَا يَرُدُّهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ ، وَقِتَالِ أَعْدَائِهِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لَا يَرُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ رَادٌّ ، وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْهُ صَادٌّ ، وَلَا يَحِيكُ فِيهِمْ لَوْمٌ لَائِمٌ وَلَا عَذْلٌ عَاذِلٌ . ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أَيْ : مَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَوْفِيقِهِ لَهُ ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أَيْ : وَاسِعُ الْفَضْلِ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ مِمَّنْ يَجْرِمُهُ إِيَّاهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أَيْ : لَيْسَ الْيَهُودُ بِأَوْلِيَاءِكُمْ ، بَلْ وَلَا يَتِيكُمُ رَاجِعَةٌ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أَيْ : الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّصِفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، مِنْ إِقَامِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ الَّتِي هِيَ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ ، وَمُسَاعَدَةِ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ . فَكُلُّ مَنْ رَضِيَ بِوِلَايَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ، فَهُوَ مُفْلِحٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾

وَهَذَا تَنْفِيرٌ مِنْ مُوَالَاةِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنَ الْكِتَابِيِّينَ وَالْمَشْرِكِينَ ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَفْضَلَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُونَ ، وَهِيَ شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُطَهَّرَةُ الْمُحْكَمَةُ الْمُسْتَمْلَمَةُ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ دُنْيَوِيٍّ وَأُخْرَوِيٍّ ، يَتَّخِذُونَهَا هُزُؤًا : يَسْتَهْزِئُونَ بِهَا ، وَلَعِبًا : يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا نَوْعٌ مِنَ اللَّعِبِ فِي نَظَرِهِمُ الْفَاسِدِ وَفِكْرِهِمُ الْبَارِدِ ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :  
وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا      وَافْتَهُ مِنْ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ ﴾ « مِنْ » هَهُنَا لِبَيَانِ الْجِنْسِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ ﴿ وَالْكَفَّارَ ﴾ بِالْحَقْفِضِ عَطْفًا ، وَقَرَأَ آخَرُونَ بِالنَّضْبِ عَلَى أَنَّهُ مَعْمُولٌ ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تَقْدِيرُهُ : « وَلَا الْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ » أَي : لَا تَتَّخِذُوا هُوَلاءَ وَلَا هُوَلاءَ أَوْلِيَاءَ ، وَالْمُرَادُ بِالْكَفَّارِ هَهُنَا : الْمَشْرِكُونَ .  
وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : اتَّقُوا اللَّهَ أَنْ تَتَّخِذُوا هُوَلاءَ الْأَعْدَاءِ لَكُمْ وَلِدِينِكُمْ أَوْلِيَاءَ ، إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ بِشَرَعِ اللَّهِ الَّذِي اتَّخَذَهُ هُوَلاءَ هُزُؤًا وَلَعِبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ

وَأِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران : ٢٨]

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ أَي : وَكَذَٰلِكَ إِذَا أَدَّيْتُمْ دَاعِينَ إِلَى الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ لِمَنْ يَعْقِلُ وَيَعْلَمُ مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ ﴿ اتَّخَذُوهَا ﴾ أَيضًا ﴿ هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ مَعَانِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَشَرَائِعِهِ ، وَهَذِهِ صِفَاتُ أَتْبَاعِ الشَّيْطَانِ الَّذِي « إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِيَ أَدْبَرَ وَهُوَ حُصَاصٌ ، أَي : ضَرَاطٌ ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ النَّادِينَ ، فَإِذَا قُضِيَ النَّادِينَ أَقْبَلَ ، فَإِذَا نُوبَ لِلصَّلَاةِ

أَدْبَرَ ، فَإِذَا قُضِيَ التَّوْبُ أُنْقِلَ ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ فَيَقُولُ : أذْكَرُ كَذَا ، أذْكَرُ كَذَا ، لَمَّا لَمْ يَكُنْ يَذْكَرُ ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى ، فَإِذَا وَجَدَ أَحَدَكُمْ ذَلِكَ فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ السَّلَامِ» (١).

قُلْ يَا هَلْ أَكْتَبِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرْتُمْ فَسِقُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١١﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١٢﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ ﴿١٣﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَابُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ : ﴿ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أَي : هَلْ لَكُمْ عَلَيْنَا مَطْعَنٌ أَوْ عَيْبٌ إِلَّا هَذَا ؟ وَهَذَا لَيْسَ بِعَيْبٍ وَلَا مَذْمَةٍ ، فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [ البروج : ٨ ] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [ التوبة : ٧٤ ] وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ : « مَا يَنْقُمُ ابْنُ جَبْرِيلَ إِلَّا أَنْ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللَّهُ » (٢).

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَنْ أَكْثَرْتُمْ فَسِقُونَ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ ﴾ أَي : وَآمَنَّا بِأَنْ أَكْثَرْتُمْ فاسِقُونَ ، أَي : خَارِجُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أَي : هَلْ أَخْبِرْكُمْ بِشَرِّ

(١) البخاري (٦٠٨) ، ومسلم (حديث ٣٨٩) .

(٢) البخاري (١٤٦٨) ، ومسلم (٩٨٣) .

جَزَاءٍ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِمَّا تَطْنُونَهُ بِنَا ؟ وَهُمْ أَنْتُمْ الَّذِينَ هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهِذِهِ الصِّفَاتِ الْمَفْسَّرَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ أَي : أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾ أَي : غَضِبًا لَا يَرْضَى بَعْدَهُ أَبَدًا ﴿ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ ﴾ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقِرْدَةِ وَالْحَنَازِيرِ أَهِيَ مِمَّا مَسَخَ اللَّهُ ؟ فَقَالَ : « إِنْ اللَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا » أَوْ قَالَ « لَمْ يَمَسَخْ قَوْمًا فَيَجْعَلْ لَهُمْ نَسْلًا وَلَا عَقَبًا ، وَإِنَّ الْقِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ » (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَبَدَ الطَّغُوتَ ﴾ وَقُرِئَ ﴿ وَعَبَدَ الطَّغُوتَ ﴾ عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ ، وَالطَّاغُوتُ مَنْصُوبٌ بِهِ ، أَي : وَجَعَلَ مِنْهُمْ مَنْ عَبَدَ الطَّاغُوتَ . وَقُرِئَ « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » بِالْإِضَافَةِ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى : وَجَعَلَ مِنْهُمْ خَدَمَ الطَّاغُوتِ ، أَي : خُدَامَهُ وَعَبِيدَهُ . وَقُرِئَ « وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ » عَلَى أَنَّهُ جَمْعُ الْجَمْعِ ، عَبْدٌ وَعَبِيدٌ وَعَبْدٌ مِثْلُ تِمَارٍ وَتُمُرٍ . حَكَاهَا ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْأَعْمَشِ ، وَحُكِيَ عَنِ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرُؤُهَا : « وَعَابَدَ الطَّاغُوتَ » ، وَعَنْ أَبِي وَابْنِ مَسْعُودٍ ﴿ عَبَدُوا ﴾ وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرُؤُهَا : ﴿ وَعَبَدَ الطَّغُوتَ ﴾ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ ، ثُمَّ اسْتَبَعَدَ مَعْنَاهَا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ لَا بُعْدَ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّعْرِيفِ بِهِمْ ، أَي : وَقَدْ عَبَدَتِ الطَّاغُوتُ فِيكُمْ وَكُتِبَتْ أَنْتُمْ الَّذِينَ تَعَاطَوْا ذَلِكَ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ يَرْجِعُ مَعْنَاهَا إِلَى : أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ الطَّاعِينَ فِي دِينِنَا الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَاتِ دُونَ مَا سِوَاهُ ، كَيْفَ يَصْدُرُ مِنْكُمْ هَذَا وَأَنْتُمْ قَدْ وَجَدَ مِنْكُمْ جَمِيعُ مَا ذُكِرَ ؟ وَهَذَا قَالَ : ﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ وَهَذَا مِنْ بَابِ اسْتِعْمَالِ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ فِيمَا لَيْسَ لِلطَّرْفِ الْآخِرِ مُشَارَكَةٌ ، كَقَوْلِهِ ﷻ ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ حَرَجُوا بِهِ ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ أَنْهُمْ يُصَانِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ ، وَهَذَا قَالَ : ﴿ وَقَدْ دَخَلُوا ﴾ أَي : عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ ﴿ بِالْكَفْرِ ﴾ أَي :

مُسْتَضْحِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَامِنٌ فِيهَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الزَّوَاجِرُ ، وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ﴾ فَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ أَي : عَالِمٌ بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صَمَائِرُهُمْ ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لِحَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ ، وَتَزَيَّنُوا بِهَا لَيْسَ فِيهِمْ ، فَإِنَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ﴾ أَي : يُيَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالْإِعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ ، وَأَكْلِ أَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ ﴿ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أَي : لَيْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ ، وَبِئْسَ الْإِعْتِدَاءُ إِعْتِدَاؤُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ يَعْنِي : هَلَّا كَانَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ مِنْهُمْ عَنْ تَعَاطِي ذَلِكَ ، وَالرَّبَّانِيُّونَ هُمْ : الْعُلَمَاءُ الْعَمَالُ أَرْبَابُ الْوِلَايَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَالْأَحْبَارُ هُمْ : الْعُلَمَاءُ فَقَطْ ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ رُوي عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ : يَعْنِي الرَّبَّانِيِّينَ ، أَنَّهُمْ بَشَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ، يَعْنِي : فِي تَرْكِهِمْ ذَلِكَ .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾



يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ - عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ الْمَتَّبِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - بِأَنَّهُمْ وَصَفُوهُ - تَعَالَى عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - بِأَنَّهُ بَخِيلٌ كَمَا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ فَقِيرٌ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، وَعَبَّرُوا عَنِ الْبُخْلِ بِأَن قَالُوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : لَا يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ يَدَ اللَّهِ مُوثِقَةٌ وَلَكِنْ يَقُولُونَ : بَخِيلٌ ، أَمْسَكَ مَا عِنْدَهُ بُخْلًا - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا - . وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] يَعْنِي : أَنَّهُ يَنْهَى عَنِ الْبُخْلِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْبُخْلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَ هُوَ لِأَنَّ الْيَهُودَ عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ .

وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمْ مَا قَالُوهُ ، وَقَابَلَهُمْ فِيمَا اخْتَلَفُوهُ وَافْتَرَوْهُ وَاتْتَفَكُوهُ ، فَقَالَ : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ ، وَهَكَذَا وَقَعَ لَهُمْ ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْبُخْلِ وَالْحَسَدِ وَالْجُبْنِ وَالذَّلَّةِ أَمْرًا عَظِيمًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾ [٥٣-٥٤] أَمْ تَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٥٣-٥٤] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ﴾ [البقرة : ٦١] ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أَي : بَلْ هُوَ الْوَاسِعُ الْفَضْلُ ، الْجَزِيلُ الْعَطَاءُ ، الَّذِي مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَهُ خَزَائِنُهُ ، وَهُوَ الَّذِي مَا بَخَلَّهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَهُ ، وَهُوَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، الَّذِي خَلَقَ لَنَا كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي لَيْلِنَا وَنَهَارِنَا ، وَحَضَرْنَا وَسَفَرْنَا ، وَفِي جَمِيعِ أَحْوَالِنَا ، كَمَا قَالَ : ﴿ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، وَالآيَاتُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ( قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ . قَالَ : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ يَرْفَعُ وَيُخْفِضُ - قَالَ - : وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ أَي :

يَكُونُ مَا آتَاكَ اللَّهُ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ النِّعْمَةِ نِقْمَةً فِي حَقِّ أَعْدَائِكَ مِنَ الْيَهُودِ وَأَشْبَاهِهِمْ ،  
فَكَمَا يَزِدَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ تَصَدِيقًا وَعَمَلًا صَالِحًا وَعِلْمًا نَافِعًا ، يَزِدَادُ بِهِ الْكَافِرُونَ  
الْحَاسِدُونَ لَكَ وَالْمُتَكِبُّونَ ﴿ طُعِينًا ﴾ وَهُوَ الْمُبَالِغَةُ وَالْمَجَاوِزَةُ لِلْحَدِّ فِي الْأَشْيَاءِ  
﴿ وَكُفْرًا ﴾ أَي : تَكْذِيبًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً  
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَادَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ  
مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [ فصلت : ٤٤ ] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ  
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [ الإسراء : ٨٢ ]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْقِيَامَةَ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ لَا  
تَجْتَمِعُ قُلُوبُهُمْ ، بَلِ الْعَدَاوَةُ وَاقِعَةٌ بَيْنَ فِرْقِهِمْ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ دَائِمًا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا  
يَجْتَمِعُونَ عَلَى حَقٍّ ، وَقَدْ خَالَفُوا وَكَذَّبُوا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ أَي : كُلَّمَا عَقَدُوا أَسْبَابًا  
يَكِيدُونَكَ بِهَا ، وَكَلَّمَا أَبْرَمُوا أُمُورًا يُحَارِبُونَكَ بِهَا أَبْطَلَهَا اللَّهُ ، وَرَدَّ كَيْدَهُمْ عَلَيْهِمْ ،  
وَحَاقَ مَكْرَهُمُ السَّيِّئِ بِهِمْ . ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾  
أَي : مِنْ سَجِيَّتِهِمْ أَنَّهُمْ دَائِمًا يَسْعَوْنَ فِي الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ هَذِهِ  
صِفَتُهُ . ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا ﴾ أَي : لَوْ أَنَّهُمْ  
ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقَوْا مَا كَانُوا يَتَعَاطَوْنَهُ مِنَ الْمَائِمِ وَالْمَحَارِمِ ﴿ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ  
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ أَي : لَأَزَلْنَا عَنْهُمْ الْمَحْذُورَ وَأَنْلَيْنَاهُمُ الْمَقْصُودَ .  
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِزَّةُ :  
هُوَ الْقُرْآنُ . ﴿ لِأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ أَي : لَوْ أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِمَا فِي  
الْكِتَابِ الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَبْدِيلٍ وَلَا  
تَغْيِيرٍ ؛ لَقَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى إِتْبَاعِ الْحَقِّ وَالْعِلْمِ بِمُقْتَضَى مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ ، فَإِنَّ  
كُتُبَهُمْ نَاطِقَةٌ بِتَصَدِيقِهِ ، وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ حَتْمًا لَا مَحَالَةَ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ : كَثْرَةُ الرِّزْقِ  
النَّازِلِ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ، وَالنَّابِتِ لَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ  
الْقُرْآنِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [ الأعراف : ٩٦ ]

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم : ٤١] .  
وَقَالَ بَعْضُهُمْ مَعْنَاهُ : ﴿ لِأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ يَعْنِي : مِنْ غَيْرِ كَدٍّ  
وَلَا تَعَبٍ وَلَا شَقَاءٍ وَلَا عَنَاءٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَنْ  
قَوْمٌ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٩] وَكَقَوْلِهِ عَنْ أَتْبَاعِ  
عِيسَى : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ [الحديد : ٢٧] . فَجَعَلَ أَعْلَى مَقَامَاتِهِمُ  
الْإِقْتِصَادَ ، وَهُوَ أَوْسَطُ مَقَامَاتِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ رُتْبَةُ السَّابِقِينَ كَمَا فِي قَوْلِهِ  
ﷻ : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ  
مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتْ  
عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر : ٣٢ - ٣٣]

وَالصَّحِيحُ : أَنَّ الْأَقْسَامَ الثَّلَاثَةَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ  
رِسَالَاتَهُ وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِاسْمِ الرِّسَالَةِ وَأَمْرًا لَهُ بِإِبْلَاحِ جَمِيعِ  
مَا أَرْسَلَهُ اللَّهُ بِهِ وَقَدْ امْتَثَلَ - عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ - ذَلِكَ ، وَقَامَ بِهِ أَنْتُمْ  
الْقِيَامَ ، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ <sup>(١)</sup> : مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِمَّا  
أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَدْ كَذَبَ وَهُوَ يَقُولُ : ﴿ يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾  
الْآيَةَ . وَعَنْهَا أَيْضًا قَالَتْ <sup>(٢)</sup> : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ كَاتِمًا شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ :  
﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ وَعَنْ أَبِي  
جُحَيْفَةَ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّوَائِيِّ قَالَ : قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ هَلْ عِنْدَكُمْ  
شَيْءٌ مِنَ الْوَحْيِ مِمَّا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ؟ فَقَالَ : لَا وَالَّذِي فَتَقَى الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ إِلَّا فَهَمَّا  
يُعْطِيهِ اللَّهُ رَجُلًا فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ، قُلْتُ : وَمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ ؟

(١) البخاري (٤٦١٢) ، ومسلم (١٧٧) .

(٢) البخاري (٧٥٣١) ، ومسلم (١٧٧) .

قَالَ: الْعَقْلُ، وَفِكَالُ الْأَسِيرِ، وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رضي الله عنه: قَالَ الزُّهْرِيُّ: مِنْ اللَّهِ الرَّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ، وَقَدْ شَهِدْتُ لَهُ أُمَّتُهُ بِإِبْلَاحِ الرَّسَالَةِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ بِذَلِكَ فِي أَعْظَمِ الْمَحَافِلِ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ أَصْحَابِهِ نَحْوُ مِنْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَئِذٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ وَأَدَيْتَ وَنَصَحْتَ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَيُقَلِّبُهَا إِلَيْهِمْ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ، اللَّهُمَّ بَلَغْتُ»<sup>(٢)</sup>.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يَعْنِي: وَإِنْ لَمْ تُؤَدِّ إِلَى النَّاسِ مَا أُرْسَلْتُكَ بِهِ ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أَي: وَقَدْ عَلِمَ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَى ذَلِكَ لَوْ وَقَعَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أَي: بَلَغَ أَنْتَ رِسَالَتِي وَأَنَا حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ وَمُؤَيِّدُكَ عَلَى أَعْدَائِكَ، وَمُظْفِرُكَ بِهِمْ، فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ، فَلَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَيْكَ بِسُوءٍ يُؤْذِيكَ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ نَزْوِلِ هَذِهِ الْآيَةِ يُحْرَسُ. عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - كَانَتْ تُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَهَرَ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهِيَ إِلَى جَنْبِهِ قَالَتْ: فَقُلْتُ مَا سَأَلْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يُحْرَسُنِي اللَّيْلَةَ» قَالَتْ: فَبَيْنَا أَنَا عَلَى ذَلِكَ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّلَاحِ فَقَالَ: «مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: أَنَا سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ، فَقَالَ: «مَا جَاءَ بِكَ؟» قَالَ: جِئْتُ لِأَحْرُسَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: فَسَمِعْتُ غَطِيطَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي نَوْمِهِ<sup>(٣)</sup>. وَقَدْ وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ لَا تَخْلُو مِنْ مَقَالٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يُحْرَسُ، فَلَمَّا نَزَلَ ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ تَرَكَ الْحِرَاسَةَ.

وَمِنْ عِصْمَةِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ: حِفْظُهُ لَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَصَنَادِيدِهَا وَحَسَادِيهَا وَمُعَانِدِيهَا وَمُتَرَفِيهَا مَعَ شِدَّةِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَةِ وَنَصَبِ الْمُحَارَبَةِ لَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا، بِمَا

(١) صحيح: وقد تقدم قريباً.

(٢) مسلم (١٢١٨).

(٣) البخاري (٢٨٨٥)، ومسلم (٢٤١٠).

يَخْلُقُهُ اللَّهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْعَظِيمَةِ بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ الْعَظِيمَةِ ، فَصَانَهُ فِي ابْتِدَاءِ الرِّسَالَةِ بَعَمَّهُ أَبِي طَالِبٍ ، إِذْ كَانَ رَئِيسًا مُطَاعًا كَبِيرًا فِي قُرَيْشٍ ، وَخَلَقَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ مَحَبَّةً طَبِيعِيَّةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا شَرِيعِيَّةً ، وَلَوْ كَانَ أَسْلَمَ لَاجْتِرَاءً عَلَيْهِ كَفَارُهَا وَكِبَارُهَا ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ قَدْرٌ مُشْتَرِكٌ فِي الْكُفْرِ هَابُوهُ وَاحْتَرَمُوهُ ، فَلَمَّا مَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ نَالَ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ أَدَى يَسِيرًا ، ثُمَّ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ الْأَنْصَارَ فَبَايَعُوهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَعَلَى أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى دَارِهِمْ وَهِيَ الْمَدِينَةُ ، فَلَمَّا صَارَ إِلَيْهَا حَمُوهُ مِنَ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ ، وَكَلَّمَا هَمَّ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ بِسُوءٍ كَادَهُ اللَّهُ وَرَدَّ كَيْدَهُ عَلَيْهِ ، كَمَا كَادَهُ الْيَهُودُ بِالسَّحْرِ فَحَمَاهُ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ سُورَتَيِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ دَوَاءً لِذَلِكَ الدَّاءِ ، وَلَمَّا سَمَّهَ الْيَهُودُ فِي ذِرَاعِ تِلْكَ الشَّاةِ بِخَيْبَرَ أَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ وَحَمَاهُ مِنْهُ ، وَهَذَا أَشْبَاهُ كَثِيرَةٌ جَدًّا يَطُولُ ذِكْرُهَا .

وَقَوْلُهُ: ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي : بَلَّغَ أَنْتَ ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصْرِيُّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ يَا مُحَمَّدُ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ أَي : مِنَ الدِّينِ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ أَي : حَتَّى تُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ مَا بَأْيَدِيكُمْ مِنَ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَتَعْمَلُوا بِهَا فِيهَا ، وَمِمَّا فِيهَا الْإِيْمَانُ بِمُحَمَّدٍ وَالْأَمْرُ بِاتِّبَاعِهِ ﷺ ، وَالْإِيْمَانُ بِمَبْعُوثِهِ وَالْإِفْتِدَاءُ بِشَرِيعَتِهِ ، وَهَذَا قَالَ لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنِ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يَعْنِي : الْقُرْآنَ الْعَظِيمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ

﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أَي : فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا يَهْدِنَكَ ذَلِكَ مِنْهُمْ .  
 ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾ وَهُمْ حَمَلَةُ  
 التَّوْرَةِ ﴿ وَالصَّبِيُّونَ ﴾ لَمَّا طَالَ الْفَضْلُ حَسَنَ الْعَطْفِ بِالرَّفْعِ ، وَالصَّابِئُونَ : طَائِفَةٌ  
 مِنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ لَيْسَ لَهُمْ دِينٌ قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَعَنْهُ : مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَجُوسِ ،  
 وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَعَنِ الْحَسَنِ : إِنَّهُمْ كَالْمَجُوسِ ،  
 وَقَالَ قَتَادَةُ : هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُصَلُّونَ إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ وَيَقْرَءُونَ الزَّبُورَ ،  
 وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنْبِهٍ : هُمْ قَوْمٌ يَعْرِفُونَ اللَّهَ وَحَدَهُ ، وَلَيْسَتْ لَهُمْ شَرِيعَةٌ يَعْمَلُونَ بِهَا  
 وَلَمْ يُحَدِّثُوا كُفْرًا . وَأَمَّا النَّصَارَى فَمَعْرُوفُونَ : وَهُمْ حَمَلَةُ الْإِنْجِيلِ ، وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ  
 كُلَّ فِرْقَةٍ آمَنَتْ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ الْمِعَادُ وَالْجَزَاءُ يَوْمَ الدِّينِ ، وَعَمِلَتْ عَمَلًا  
 صَالِحًا ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بَعْدَ إِرْسَالِ  
 صَاحِبِهَا الْمَبْعُوثِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ ، فَمَنْ اتَّصَفَ بِذَلِكَ ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فِيمَا  
 يَسْتَقْبِلُونَهُ ، وَلَا عَلَى مَا تَرَكُوا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ  
 الْكَلَامُ عَلَى نَظِيرَتَيْهَا فِي «سُورَةِ الْبَقَرَةِ» بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ هَهُنَا .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا <sup>ط</sup> كَمَا جَاءَهُمْ  
 رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٤﴾ وَحَسِبُوا  
 أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا  
 كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٥﴾

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ  
 وَلِرُسُلِهِ ، فَتَقَضُوا تِلْكَ الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ وَاتَّبَعُوا آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ ، وَقَدِمُوا عَلَى  
 الشَّرَائِعِ فَمَا وَافَقَهُمْ مِنْهَا قَبِلُوهُ ، وَمَا خَالَفَهُمْ رَدُّوهُ ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَمَا  
 جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا  
 تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴿ أَي : وَحَسِبُوا أَنْ لَا يَتَرْتَبَّ لَهُمْ شَرٌّ عَلَى مَا صَنَعُوا فَتَرْتَبَّ ، وَهُوَ أَهْمُ  
 عَمُوا عَنِ الْحَقِّ وَصَمُوا ، فَلَا يَسْمَعُونَ حَقًّا وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ﴾ ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .  
 أَي مِمَّا كَانُوا فِيهِ ﴿ ثُمَّ عَمُوا ﴾ أَي : بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا

يَعْمَلُونَ ﴿ أَيُّ : مُطَّلَعٌ عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْهَدَايَةَ يَمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَوَايَةَ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٧٩﴾

يَقُولُ تَعَالَى حَاكِمًا بِتَكْفِيرِ فِرْقِ النَّصَارَى : مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ يَمَّنْ قَالَ مِنْهُمْ بَأَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ وَتَنَزَّهَ وَتَقَدَّسَ عُلُوهَا كَبِيرًا - هَذَا وَقَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْمَسِيحُ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ نَطَقَ بِهَا وَهُوَ صَغِيرٌ فِي الْمَهْدِ أَنْ قَالَ : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ وَلَا ابْنُ اللَّهِ بَلْ قَالَ : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [ مريم : ٣٠ - ٣٦ ] ، وَكَذَلِكَ قَالَ لَهُمْ فِي حَالِ كُهولَتِهِ وَنُبُوَّتِهِ أَمْرًا لَهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ رَبِّهِ وَرَبِّهِمْ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ : فَيَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ ﴾ أَيُّ : فَقَدْ أَوْجَبَ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [ النساء : ٤٨ ] ، وَفِي الصَّحِيحِ <sup>(١)</sup> : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُنَادِيًا يُنَادِي فِي النَّاسِ : إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَفِي لَفْظٍ : مُؤْمِنَةٌ . وَهَذَا قَالَ تَعَالَى

إِخْبَارًا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ  
الْحِجَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ أَي : وَمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ نَاصِرٌ وَلَا  
مُعِينٌ وَلَا مُنْقِذٌ مِمَّا هُوَ فِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ . الصَّحِيحُ : أَنَّهُا أُنزِلَتْ  
فِي النَّصَارَى خَاصَّةً قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، ثُمَّ اِخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ : الْمُرَادُ  
بِذَلِكَ كُفْرُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ بِالْأَقَانِيمِ الثَّلَاثَةِ وَهُوَ : أَفْنُومُ الْأَبِ وَأَقْنُومُ الْإِبْنِ وَأَقْنُومُ  
الْكَلِمَةِ الْمُنْبِيحَةِ مِنَ الْأَبِ إِلَى الْإِبْنِ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوءًا كَبِيرًا - قَالَ ابْنُ  
جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ : وَالطَّوَائِفُ الثَّلَاثَةُ مِنَ الْمَلَكِيَّةِ وَالْيَعْقُوبِيَّةِ وَالنَّسْطُورِيَّةِ تَقُولُ بِهَذِهِ  
الْأَقَانِيمِ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِيهَا اِخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ  
تُكْفَرُ الْأُخْرَى وَالْحَقُّ أَنَّ الثَّلَاثَةَ كَافِرَةٌ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : نَزَلَتْ فِي جَعْلِهِمْ - الْمَسِيحِ وَأُمَّةٍ - إِلَهَيْنِ مَعَ اللَّهِ ، فَجَعَلُوا  
اللَّهَ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ بِهَذَا الْإِعْتِبَارِ ، قَالَ السُّدِّيُّ : وَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ :  
﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
قَالَ سُبْحٰنَكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ أَي : لَيْسَ مُتَعَدِّدًا بَلْ هُوَ وَاحِدٌ لَا  
شَرِيكَ لَهُ إِلَهُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا لَهُمْ وَمُتَهَدِّدًا  
﴿ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أَي : مِنْ هَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ ﴿ لَيَمَسَّنَّ  
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْأَغْلَالِ وَالنَّكَالِ . ثُمَّ قَالَ :  
﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ كَرَمِهِ تَعَالَى  
وَجُودِهِ وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ ، مَعَ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، وَهَذَا الْإِفْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ  
وَالْإِفْكَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، فَكُلُّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أَي :  
لَهُ أَسْوَةٌ أَمْثَالِهِ مِنْ سَائِرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَرَسُولٌ  
مِنْ رُسُلِهِ الْكِرَامِ ، كَمَا قَالَ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِبَنِي



وقوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: مؤمنة به مُصَدِّقَةٌ لَهُ، وَهَذَا أَعْلَى مَقَامَاتِهَا، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهَا كَيْسَتْ بِنَيْبَةٍ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا إِلَّا مِنَ الرِّجَالِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ مِنْ اَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وَقَدْ حَكَى الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ .

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي: يَخْتَاجَانِ إِلَى التَّغْذِيَةِ بِهِ وَإِلَى خُرُوجِهِ مِنْهُمَا، فَهُمَا عَبْدَانِ كَسَائِرِ النَّاسِ، وَلَيْسَا بِإِلَهَيْنِ كَمَا زَعَمَتِ فِرْقَ النَّصَارَى الْجَهْلَةَ - عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُتَّابِعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: نُوَضِّحُهَا وَنُنْظِرُهَا ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ثُمَّ أَنْظُرْ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْوَضُوحِ وَالْجَلَاءِ، أَيْنَ يَذْهَبُونَ؟ وَبِأَيِّ قَوْلٍ يَتَمَسَّكُونَ؟ وَإِلَى أَيِّ مَذْهَبٍ مِنَ الضَّلَالِ يَذْهَبُونَ؟ .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُنْكَرًا عَلَى مَنْ عَبَدَ غَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَمُبَيِّنًا لَهُ أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْإِلَهِيَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ أي: يَا مُحَمَّدُ هُوَ لِأَيِّ الْعَابِدِينَ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ سَائِرِ فِرْقِ بَنِي آدَمَ، وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيْصَالِ ضَرِّ إِلَيْكُمْ وَلَا إِجْبَادِ نَفْعٍ ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: السَّمِيعُ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ، الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْهُ إِلَى عِبَادَةِ جَمَادٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يَعْلَمُ شَيْئًا وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا لغيره وَلَا لِنَفْسِهِ .

ثُمَّ قَالَ: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي: لَا تَجَاوِزُوا الْحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَلَا تَنْظُرُوا مَنْ أَمَرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ فَتَبَالِغُوا فِيهِ حَتَّى تُخْرِجُوهُ عَنْ

حَبِزِ النَّبُوَّةِ إِلَى مَقَامِ الْإِلَهِيَّةِ ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي الْمَسِيحِ ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَجَعَلْتُمُوهُ  
إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِإِفْتِدَائِكُمْ بِشُيُوخِ الضَّلَالِ الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ  
ضَلَّ قَدِيمًا ﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أَي : وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ  
الْإِسْتِقَامَةِ وَالْإِعْتِدَالِ إِلَى طَرِيقِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ .

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ  
مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ  
عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ  
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَيْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ  
عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ  
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْكَافِرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ فِيمَا أُنزِلَ عَلَيْهِ دَاوُدُ  
نَبِيِّهِ ﷺ وَعَلَى لِسَانِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ بِسَبَبِ عَصْيَانِهِمْ لِلَّهِ وَاعْتِدَائِهِمْ عَلَيْهِ خَلْقِهِ ،  
ثُمَّ بَيَّنَّ حَالَهُمْ فِيمَا كَانُوا يَعْتَمِدُونَهُ فِي زَمَانِهِمْ . فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ  
عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أَي : كَانَ لَا يَنْهَى أَحَدٌ مِنْهُمْ  
أَحَدًا عَنِ إِزْتِكَابِ الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ ثُمَّ ذَمَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ لِئَحْذَرَ أَنْ يُرْتَكَبَ مِثْلُ  
الَّذِي إِزْتَكَبُوهُ فَقَالَ : ﴿ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .<sup>(١)</sup>

وَالْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنْهَا :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ  
بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَوْعَى الْإِيمَانِ »<sup>(٢)</sup> . وَعَنْهُ

(١) أوردَ هَاهُنَا الْحَافِظُ ابْنَ كَثِيرٍ خَبْرًا شَهِيرًا وَنَحْنُ نَسُوْقُهُ لِبَيَانِ ضَعْفِهِ فَقَدْ أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٣٣٦) ،  
وَأَحْمَدُ ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٠٤٧ ، ٣٠٤٨) ، وَعَبْرُهُمْ ، وَقَدْ أُعْلِيَ بِالْإِنْقِطَاعِ وَالْإِرْسَالِ . مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ  
ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي ، نَهَتْهُمْ عَلَيْهِمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ  
فِي مَجَالِسِهِمْ » قَالَ يَزِيدُ وَأَحْسَبُهُ قَالَ فِي « أَسْوَأِهِمْ وَأَكْلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضْرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ  
بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ ﴾ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ .

(٢) مسلم (حديث ٤٩) .

أَيْضًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةٌ حَقٌّ عِنْدَ سُلْطَانِ جَائِرٍ » (١) .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : يَعْنِي  
 بِذَلِكَ الْمُنَافِقِينَ ، ﴿ لَيْسَ مَا قَدَمْتَ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يَعْنِي : بِذَلِكَ مُوَالَاتِهِمْ لِلْكَافِرِينَ  
 وَتَرْكِهِمْ مُوَالَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي أَعَقَبَتْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَسْخَطَتِ اللَّهَ عَلَيْهِمْ  
 سَخَطًا مُسْتَمِرًّا إِلَى يَوْمِ مَعَادِهِمْ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وَفَسَّرَ بِذَلِكَ  
 مَا ذَمَّهُمْ بِهِ ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ ﴿ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُواهُمْ  
 أَوْلِيَاءَ ﴾ أَي : لَوْ آمَنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ وَالْقُرْآنِ لَمَا ارْتَكَبُوا مَا ارْتَكَبُوهُ مِنْ  
 مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فِي الْبَاطِنِ وَمُعَادَاةِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴿ وَلَكِنَّ  
 كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴾ أَي : خَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُخَالِفُونَ لِآيَاتِ  
 وَحْيِهِ وَتَنْزِيلِهِ .

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا  
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ ذَٰلِكَ  
 بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا  
 أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ  
 يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٨﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا  
 جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٤٩﴾  
 فَاتَّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ  
 جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِفَايْتِنَا أُوتِيتِكَ أَصْحَابُ  
 الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾  
 وَمَا ذَٰلِكَ إِلَّا لِأَنَّ كُفْرَ الْيَهُودِ كُفْرٌ عِنَادٍ وَجُحُودٍ وَمُبَاهَاةً لِلْحَقِّ وَغَمْطٍ لِلنَّاسِ

(١) حسن لشواهدة : أخرجه أبو داود (٤٣٤٤) ، وغيره .

وَتَنْقُصِ بِحَمَلَةِ الْعِلْمِ ، وَهَذَا قَتَلُوا كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى هَمُّوا بِقَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ مَرَّةٍ وَسَمُّوهُ وَسَحَرُوهُ وَأَلْبُوا عَلَيْهِ أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ - عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَّبَعَةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرِي ﴾ أَي : الَّذِينَ رَزَعُمُوا أَنَّهُمْ نَصَارِي مِنْ أَتْبَاعِ الْمَسِيحِ وَعَلَى مِنْهَاجِ إِنْجِيلِهِ ، فِيهِمْ مَوَدَّةٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ فِي الْجُمْلَةِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ فِي قُلُوبِهِمْ إِذْ كَانُوا عَلَى دِينِ الْمَسِيحِ مِنَ الرَّقَّةِ وَالرَّأْفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ [ الحديد : ٢٧ ] وَفِي كِتَابِهِمْ : مَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ خَدَّكَ الْأَيْسَرَ ، وَلَيْسَ الْقِتَالُ مَشْرُوعًا فِي مِلَّتِهِمْ ، وَهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أَي : يُوجَدُ فِيهِمُ الْقِسِيَسُونَ وَهُمْ : خُطْبَاؤُهُمْ وَعُلَمَاؤُهُمْ ، وَاحِدُهُمْ قِسِيَسٌ وَقَسٌ أَيْضًا ، وَقَدْ يُجْمَعُ عَلَى فُسُوسٍ ، وَالرُّهْبَانُ : جَمْعُ رَاهِبٍ وَهُوَ : الْعَابِدُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرَّهْبَةِ وَهِيَ الْخَوْفُ ، كَرَاكِبٍ وَرُكْبَانٍ وَفَارِسٍ وَفُرْسَانٍ . فَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تَضَمَّنَ وَصْفَهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ الْعِلْمَ وَالْعِبَادَةَ وَالتَّوَاضُعَ ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِالْإِنْقِيَادِ لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْصَافِ . فَقَالَ : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ﴾ أَي : مِمَّا عِنْدَهُمْ مِنَ الْبَشَارَةِ بِبِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَأَمْنَا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَي : مَعَ مَنْ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ هَذَا وَيُؤْمِنُ بِهِ . عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ فِي النَّجَاشِيِّ وَفِي أَصْحَابِهِ .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ النَّصَارَى هُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴾ [ آل عمران : ١٩٩ ] . وَهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ - إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [ القصص : ٥٢ - ٥٥ ] قَالَ تَعَالَى هَهُنَا : ﴿ فَأَتَيْنَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أَي :

فَجَازَاهُمْ عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ وَتَصَدِيقِهِمْ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالْحَقِّ ﴿ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أَي : مَا كَثِيرٌ فِيهَا أَبَدًا لَا يُحْوَلُونَ وَلَا يُزْوَلُونَ ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أَي : فِي إِتْبَاعِهِمُ الْحَقَّ وَانْفِيَادِهِمْ لَهُ حَيْثُ كَانَ وَأَيْنَ كَانَ وَمَعَ مَنْ كَانَ . ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أَي : جَحَدُوا بِهَا وَخَالَفُوهَا ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أَي : هُمْ أَهْلُهَا وَالِدَاخِلُونَ فِيهَا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَكُلُ اللَّحْمَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » ﴿١﴾ .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا نَغْزُو مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ مَعَنَا نِسَاءٌ ، فَقُلْنَا : أَلَا نَسْتَخْصِي فَهَانَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ ، وَرَخَّصَ لَنَا أَنْ نَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِالثُّوبِ إِلَىٰ أَجَلٍ ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ﴿١﴾ ، وَهَذَا كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ نِكَاحِ الْمُتَعَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَجِيءَ بِبَضْعٍ فَتَنَحَّى رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ : اؤْدُنْ ، فَقَالَ : إِنِّي حَرَّمْتُ أَنْ أَكُلَهُ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : اؤْدُنْ ، فَاطْعَمَ

(١) أخرجه البخاري (٦١٠١ ، ٧٣٠١) ، ومسلم (٢٣٥٦) من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتزوه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فنظب فحمد الله ثم قال : « ما بال أقوام يتزوهون عن الشيء أصنع ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » . أما المتن الذي أورده الحافظ ابن كثير فلم ألق عليه من حديث عائشة - رضي الله عنها - ولكن نحوه في الصحيحين من حديث أنس ؓ مرفوعاً عند البخاري (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) .

(٢) البخاري (٤٦١٥) .

وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِك ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ الْآيَةَ (١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ : وَلَا تَبَالِغُوا فِي التَّضْيِيقِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُبَاحَاتِ عَلَيْكُمْ كَمَا قَالَهُ مَنْ قَالَهُ مِنَ السَّلَفِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ : كَمَا لَا تَحْرِمُوا الْحَلَالَ فَلَا تَعْتَدُوا فِي تَنَازُلِ الْحَلَالِ بَلْ خُذُوا مِنْهُ بِقَدْرِ كِفَايَتِكُمْ وَحَاجَتِكُمْ ، وَلَا تُجَاوِزُوا الْحُدَّ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكُلُوا وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ [ الأعراف : ٣١ ] وَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [ الفرقان : ٦٧ ] فَشَرَعُ اللَّهُ عَدْلًا بَيْنَ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، لَا إِفْرَاطَ وَلَا تَفْرِيطَ وَهَذَا قَالَ : ﴿ لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ أَي : فِي حَالِ كَوْنِهِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ، وَاتَّبِعُوا طَاعَتَهُ وَرِضْوَانَهُ وَاتْرَكُوا مُحَالَفَتَهُ وَعِصْيَانَهُ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ .

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَّرْتُهُ رَ إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرِ رَقِيَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى اللَّغْوِ فِي الْيَمِينِ ، وَإِنَّهُ قَوْلُ الرَّجُلِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ : لَا وَاللَّهِ ، بَلَى وَاللَّهِ . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ ﴾ أَي : بِمَا صَمَّمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْهَا وَقَصَدْتُمُوهَا ﴿ فَكَفَّرْتُهُ رَ إِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ ﴾ يَعْنِي :

حَاجِيجٍ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ لَا يَجِدُ مَا يَكْفِيهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : أَي : مِنْ أَعْدَلِ مَا

تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ . عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ بَعْضَ أَهْلِهِ قُوتَ دُونَ ، وَبَعْضُهُمْ قُوتًا فِيهِ سَعَةٌ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أَي : مِنْ الْخُبْزِ وَالزَّيْتِ . وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنْ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ أَي : فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَقْدَارِ مَا يُطْعَمُهُمْ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : يَكْفِيهِ أَنْ يُطْعَمَ عَشْرَةَ مَسَاكِينَ أَكَلَةً وَاحِدَةً خُبْزًا وَحَلَا ، حَتَّى يَشْبَعُوا ، وَقَالَ آخَرُونَ : فَخُبْزًا وَسَمْنًا وَلَبَنًا ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَخُبْزًا وَزَيْتًا وَحَلَا ، حَتَّى يَشْبَعُوا ، وَقَالَ آخَرُونَ : يُطْعَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ أَوْ تَمْرٍ وَنَحْوِهِمَا . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : الْوَاجِبُ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ مُدٌّ بِمُدِّ النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِكُلِّ مَسْكِينٍ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِلأُدْمِ ، وَاحْتَجَّ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ لِلَّذِي جَامَعَ فِي رَمَضَانَ بِأَنْ يُطْعَمَ سِتِينَ مَسْكِينًا مِنْ مَكِيلٍ يَسَعُ خَمْسَةَ عَشَرَ صَاعًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدٌّ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : الْوَاجِبُ مُدٌّ مِنْ بُرٍّ أَوْ مُدَّانٍ مِنْ غَيْرِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَسَوْتَهُمْ ﴾ قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَوْ دَفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَشْرَةِ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكِسْوَةِ مِنْ قَمِيصٍ أَوْ سَرَاوِيلٍ أَوْ إِزَارٍ أَوْ عِمَامَةٍ أَوْ مَقْنَعَةٍ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ . وَقَالَ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : لَا بُدَّ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْكِسْوَةِ مَا يَصِحُّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ إِنْ كَانَ رَجُلًا أَوْ امْرَأَةً كُلَّ بِحَسَبِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ أَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ بِإِطْلَاقِهَا فَقَالَ : تُجْزَى الْكَافِرَةُ كَمَا تُجْزَى الْمُؤْمِنَةُ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَآخَرُونَ : لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُؤْمِنَةً ، وَأَخَذَ تَقْيِيدَهَا بِالْإِيمَانِ مِنْ كَفَّارَةِ الْقَتْلِ لِاتِّحَادِ الْمَوْجِبِ وَإِنْ اخْتَلَفَ السَّبَبُ ، وَمِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ ابْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ <sup>(١)</sup> وَفِيهِ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ عَلَيْهِ عَتَقَ رَقَبَةً وَجَاءَ مَعَهُ بِجَارِيَةٍ سَوْدَاءَ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيْنَ اللَّهُ ؟ » قَالَتْ : فِي السَّمَاءِ قَالَ : « مَنْ أَنَا ؟ » قَالَتْ : رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : « أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ » . الْحَدِيثُ بِطَوْلِهِ ، فَهَذِهِ خِصَالُ ثَلَاثٍ فِي كَفَّارَةِ الْيَمِينِ أَيُّهَا فَعَلَ الْحَانِثُ أَجْزَأَ عَنْهُ بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ بَدَأَ بِالْأَسْهَلِ فَلِأَسْهَلِ ، فَلِأَطْعَامِ أَسْهَلٍ وَأَيْسَرُ مِنَ الْكِسْوَةِ ، كَمَا أَنَّ الْكِسْوَةَ أَيْسَرُ مِنَ الْعِتْقِ ، فَتَرَقَّى فِيهَا

مِنَ الْأَذْنَى إِلَى الْأَعْلَى فَإِنْ لَمْ يَقْدِرِ الْمُكَلَّفُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ كَفَرَ بِصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ .  
 وَقَوْلُهُ: ﴿ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أَي: هَذِهِ كَفَارَةُ الْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ  
 ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ لَا تَتْرُكُوهَا بِغَيْرِ تَكْفِيرٍ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ  
 اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أَي: يُوَضِّحُهَا وَيُفَسِّرُهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَلُ رَجَسٌ مِّنْ  
 عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ  
 بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ  
 الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن  
 تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١١٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٣﴾

يَقُولُ تَعَالَى نَاهِيًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ تَعَاطِي الْحَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَهُوَ الْقَهَارُ . قَالَ عَدَدٌ  
 مِنَ الْعُلَمَاءِ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْقَهَارِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ حَتَّى لِعِبِ الصَّبِيَّانِ بِالْجُوزِ ، وَقَالَ  
 الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: مَا أَلْهَى عَنِ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ . وَعَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ  
 الْحَصِيبِ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ شِرْكَ فَكَأَنَّمَا صَبَغَ  
 يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ» (١) . وَأَمَّا الشُّطْرَنْجُ ، فَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ أَنَّهُ شَرٌّ مِنَ  
 النَّرْدِ ، وَتَقَدَّمَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ مِنَ الْمَيْسِرِ وَنَصَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ  
 وَأَحْمَدُ وَكَرَهُهُ الشَّافِعِيُّ - رَجَّهَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - .

وَأَمَّا الْأَنْصَابُ فَقَدْ قَالَ غَيْرَ وَاحِدٍ: هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَدْبَحُونَ قَرَابِينَهُمْ عِنْدَهَا .  
 وَأَمَّا الْأَرْزَلُ فَقَالُوا أَيْضًا: هِيَ قِدَاحٌ كَانُوا يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا .  
 وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قِيلَ: سَخَطٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ،



وَقِيلَ : إِنَّكُمْ ، وَقِيلَ : أَيُّ : شَرٌّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴿ فَأَجْتَبَاهُ ﴾ الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الرَّجْسِ ، أَيُّ : أتركوه ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ وَهَذَا تَرْغِيبٌ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَتَرْهيبٌ .

### ذِكْرُ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي بَيَانِ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ

ثَبَّتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ<sup>(١)</sup> عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ وَهِيَ مِنْ حُمْسَةِ : الْعِنَبِ وَالْتَّمْرِ وَالْعَسَلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ ، وَالْخَمْرِ مَا خَامَرَ الْعَقْلَ .

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ وَعْلَةَ قَالَ<sup>(٢)</sup> : سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْ بَيْعِ الْخَمْرِ فَقَالَ : كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَدِيقٌ مِنْ تَقِيفٍ أَوْ مِنْ دَوْسٍ فَلَقِيَهُ يَوْمَ الْفَتْحِ بِرَاوِيَةِ خَمْرٍ يُهْدِيهَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا فُلَانُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا » ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ عَلَى غُلَامِهِ فَقَالَ : اذْهَبْ فَبِعْهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا فُلَانُ ؛ بِمَاذَا أَمَرْتَهُ ؟ » فَقَالَ : أَمَرْتُهُ أَنْ يَبِيعَهَا . قَالَ : « إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا » فَأَمَرَ بِهَا فَأُفْرِغَتْ فِي الْبَطْحَاءِ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ<sup>(٣)</sup> : كُنْتُ أُسْقِي أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ ، وَأُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ، وَسُهَيْلَ ابْنَ بَيْضَاءَ ، وَتَفَرَّأَ مِنْ أَصْحَابِهِ عِنْدَ أَبِي طَلْحَةَ حَتَّى كَادَ الشَّرَابُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ ، فَأَتَى آتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ : أَمَا شَعَرْتُمْ أَنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ؟ فَقَالُوا : حَتَّى نَنْظُرَ وَنَسْأَلَ ، مِمَّا قَالُوا : يَا أَنَسُ أَسْكَبَ مَا بَقِيَ فِي إِنْائِكَ ، فَوَاللَّهِ مَا عَادُوا فِيهَا وَمَا هِيَ إِلَّا التَّمْرُ وَالْبُسْرُ ، وَهِيَ خَمْرُهُمْ يَوْمَئِذٍ .

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ<sup>(٤)</sup> : كُنْتُ سَاقِي الْقَوْمِ يَوْمَ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ الْبُسْرُ وَالْتَّمْرُ ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادِي ، قَالَ : اخْرُجْ فَاَنْظُرْ ، فَإِذَا مُنَادٍ

(١) البخاري (٤٦١٩) ، ومسلم (٣٠٣٢) .

(٢) مسلم (١٥٧٩) .

(٣) البخاري (٢٤٦٤) ، ومسلم (١٩٨٠) .

(٤) البخاري (٢٤٦٤) ، ومسلم (١٩٨٠) .

يُنَادِي : أَلَا إِنَّ الْخُمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ ، قَالَ : فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : أَخْرُجْ فَأَهْرِقْهَا فَهَرَقْتُهَا ، فَقَالُوا أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ : قَتَلَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ ، قَالَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ الْآيَةَ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ <sup>(١)</sup> : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لُعِنَتِ الْخُمْرُ عَلَى عَشْرَةِ وُجُوهِ ، لُعِنَتِ الْخُمْرُ بِعَيْنِهَا ، وَشَارِبِهَا ، وَسَاقِيهَا ، وَبَائِعِهَا ، وَمُبْتَاعِهَا ، وَعَاصِرِهَا ، وَمُعْتَصِرِهَا ، وَحَامِلِهَا ، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ ، وَآكِلِ ثَمَنِهَا » .

وَعَنْ سَعْدِ قَالَ <sup>(٢)</sup> : أَنْزِلَتْ فِي الْخُمْرِ أَرْبَعُ آيَاتٍ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، قَالَ : وَضَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ طَعَامًا ، فَدَعَانَا فَشَرَبْنَا الْخُمْرَ قَبْلَ أَنْ نُحَرَّمَ حَتَّى انْتَشِينَا فَتَفَاخَرْنَا ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ : نَحْنُ أَفْضَلُ ، وَقَالَتْ قُرَيْشُ : نَحْنُ أَفْضَلُ ، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ لَحْيَ جَزْوِرٍ فَضَرَبَ بِهِ أَنْفَ سَعْدٍ فَفَزَرَهُ وَكَانَتْ أَنْفُ سَعْدٍ مَفْزُورَةً فَتَزَلَّتْ : ﴿ إِنَّمَا الْخُمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ .

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ <sup>(٣)</sup> : صَبَحَ أَنَاسٌ غَدَاةَ أُحُدٍ الْخُمْرَ فَقَتَلُوا مِنْ يَوْمِهِمْ جَمِيعًا شُهَدَاءَ وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِهَا . وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ <sup>(٤)</sup> : أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ آيَاتِمَ فِي حِجْرِهِ وَرَثُوا خُمْرًا فَقَالَ : « أَهْرِقْهَا » قَالَ : أَفَلَا نَجْعَلُهَا حَلًّا ؟ قَالَ : « لَا » .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فَسَلِبُهَا ، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ » قِيلَ : وَمَا طِينَةُ الْحَبَالِ ؟ قَالَ : « عَصَاةُ أَهْلِ جَهَنَّمَ » <sup>(٥)</sup> . وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ شَرِبَ الْخُمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا حُرْمَهَا فِي الْآخِرَةِ » <sup>(٦)</sup> .

(١) حسن لشواهده : وقد أخرجه أبو داود (٣٦٧٤) ، وأحمد (٢/٢٥٧١) .

(٢) أخرجه مسلم بنحوه (١٧٤٨) . وفزره : أي شقه .

(٣) البخاري (٤٦١٨) .

(٤) مسلم (حديث ١٩٨٣) .

(٥) سنده حسن : أخرجه أحمد (١٧٨/٢) .

(٦) البخاري (حديث ٥٥٧٥) ومسلم (٢٠٠٣) .

وَعَنْ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ قَالَ : اجْتَنَبُوا الْخُمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الْخُبَاثِثِ إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ فِيمَنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا أَنْ تَدْعُوهُ لَشَهَادَةٍ ، فَدَخَلَ مَعَهَا فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَعْلَقَتْهُ دُونَهُ ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلَامٌ وَبَاطِيَةٌ خَيْرٌ ، فَقَالَتْ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا دَعَوْتُكَ لَشَهَادَةٍ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ ، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلَامَ ، أَوْ تَشْرَبَ هَذَا الْخُمْرَ ، فَسَقَتْهُ كَأَسَا فَقَالَ : زِيدُونِي ، فَلَمْ يَرِمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا ، وَقَتَلَ النَّفْسَ فَاجْتَنَبُوا الْخُمْرَ ، فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرَجَ صَاحِبُهُ . وَلَهُ شَاهِدٌ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ سَرِقَةً حِينَ يَسْرِقُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْرَبُ الْخُمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » (١) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ « قِيلَ لِي : أَنْتَ مِنْهُمْ » (٢) .

يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَن أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ تَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغٌ الْكَعْبَةَ أَوْ كَفَرَةً طَعَامٌ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : ﴿ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ ﴾ يَعْنِي : صِغَارُ الصَّيْدِ وَفِرَاحُهُ ﴿ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ يَعْنِي : كِبَارُهُ ﴿ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ تَعَالَى يَتَلَيَّهُمُ بِالصَّيْدِ يَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، يَتَمَكَّنُونَ مِنْ أَخْذِهِ بِالْأَيْدِي وَالرِّمَاحِ سِرًّا

(١) البخاري (٥٥٧٨) ، ومسلم (٥٧) .

(٢) مسلم (٢٤٥٩) .

وَجَهْرًا ؛ لِتَظَهَرَ طَاعَةُ مَنْ يُطِيعُ مِنْهُمْ فِي سِرِّهِ أَوْ جَهْرِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ خَشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [ الملك : ١٢ ] ، وَقَوْلُهُ هَهُنَا ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ : يَعْنِي : بَعْدَ هَذَا الْإِعْلَامِ وَالْإِنذَارِ وَالتَّقَدُّمِ ﴿ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أَي : لِمُخَالَفَتِهِ أَمْرَ اللَّهِ وَسُرْعَهُ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴾ ، وَهَذَا تَحْرِيمٌ مِنْهُ تَعَالَى لِقَتْلِ الصَّيْدِ فِي حَالِ الْإِحْرَامِ ، وَهِيَ عَنْ تَعَاطِيهِ فِيهِ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى الْمَأْكُولُ وَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ ، فَأَمَّا غَيْرُ الْمَأْكُولِ مِنْ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّ فَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ يَجُوزُ لِلْمُحْرِمِ قَتْلُهَا وَالْجُمْهُورُ عَلَى تَحْرِيمِ قَتْلِهَا أَيْضًا ، وَلَا يُسْتَشْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ . عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ : الْعُرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ))<sup>(١)</sup> .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (( خَمْسٌ مِنَ الدَّوَابِّ لَيْسَ عَلَى الْمُحْرِمِ فِي قَتْلِهِنَّ جُنَاحٌ : الْعُرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ ))<sup>(٢)</sup> وَرَوَاهُ أَيُّوبُ عَنْ نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ ، قَالَ أَيُّوبُ : فَقُلْتُ لِنَافِعٍ : فَالْحَيْةُ ؟ قَالَ : الْحَيْةُ لَا شَكَّ فِيهَا ، وَلَا يُخْتَلَفُ فِي قَتْلِهَا ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ كَمَا لِكِ وَأَحْمَدُ مَنْ أَحَقَّ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ الدُّبَّ وَالسَّبْعَ وَالنَّمِرَ وَالْفَهْدَ ؛ لِأَنَّهَا أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْهُ فَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ﴾ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ : أَنَّ الْعَامِدَ وَالنَّاسِيَّ سِوَاءٍ فِي وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : دَلَّ الْكِتَابُ عَلَى الْعَامِدِ وَجَرَتْ السُّنَّةُ عَلَى النَّاسِيِّ وَمَعْنَى هَذَا : أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى وُجُوبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْمُتَعَمِّدِ وَعَلَى تَأْيِيمِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴿ ، وَجَاءَتِ السُّنَّةُ مِنْ أَحْكَامِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَحْكَامِ أَصْحَابِهِ بِوُجُوبِ الْجَزَاءِ فِي الْخَطِّأِ كَمَا دَلَّ الْكِتَابُ عَلَيْهِ فِي الْعَمْدِ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ خَتَلَ الصَّيْدَ إِتْلَافٌ ، وَالْإِتْلَافُ مَضْمُونٌ فِي الْعَمْدِ وَفِي النَّسِيَانِ ، لَكِنَّ الْمُتَعَمِّدَ مَأْثُومٌ

(١) صحيح : وقد تقدم ، وانظر البخاري (١٨٢٩) ، ومسلم (١١٩٨) .

(٢) البخاري (١٨٢٦) ، ومسلم (١١٩٩) .

وَالْمُخْطِئُ غَيْرُ مَلُومٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ قَرَأَ بَعْضُهُمْ بِالْإِضَافَةِ وَقَرَأَ آخَرُونَ بِعَطْفِهَا وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ ابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَهَا « فَجَزَاؤُهُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ » وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴾ عَلَى كُلِّ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ دَلِيلٌ لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ وَالْجُمْهُورُ مِنْ وَجُوبِ الْجَزَاءِ مِنْ مِثْلِ مَا قَتَلَهُ الْمُحْرَمُ إِذَا كَانَ لَهُ مِثْلٌ مِنَ الْحَيَوَانَ الْإِنْسِيَّ خِلَافًا لِأَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَيْثُ أَوْجَبَ الْقِيَمَةَ سِوَاءَ كَانَ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِثْلِيًّا أَوْ غَيْرَ مِثْلِيٍّ . قَالَ : وَهُوَ مُحَيَّرٌ إِنْ شَاءَ تَصَدَّقَ بِشَمَنِهِ ، وَإِنْ شَاءَ اشْتَرَى بِهِ هَدِيًّا ، وَالَّذِي حَكَمَ بِهِ الصَّحَابَةُ فِي الْمِثْلِ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ ، فَإِنَّهُمْ حَكَمُوا فِي النَّعَامَةِ بِبَدَنَةِ ، وَفِي بَقَرَةِ الْوَحْشِ بِبَقَرَةٍ ، وَفِي الْغَزَالِ بِعَنْزٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدَلٍ مِّنكُمْ ﴾ ، يَعْنِي أَنَّهُ يُحْكَمُ بِالْجَزَاءِ فِي الْمِثْلِ أَوْ بِالْقِيَمَةِ فِي غَيْرِ الْمِثْلِ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

وَاحْتَلَفُوا هَلْ تُسْتَأْنَفُ الْحُكُومَةُ فِي كُلِّ مَا يُصِيبُهُ الْمُحْرَمُ فَيَجِبُ أَنْ يُحْكَمَ فِيهِ ذَوَا عَدَلٍ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ حَكَمَ فِي مِثْلِهِ الصَّحَابَةُ ، أَوْ يَكْتَفِي بِأَحْكَامِ الصَّحَابَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ ، فَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ : يَتَّبَعُ فِي ذَلِكَ مَا حَكَمَتْ بِهِ الصَّحَابَةُ وَجَعَلَاهُ شَرْعًا مُقَرَّرًا لَا يُعَدَّلُ عَنْهُ ، وَمَا لَمْ يُحْكَمْ فِيهِ الصَّحَابَةُ يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى عَدْلَيْنِ ، وَقَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ : بَلْ يَجِبُ الْحُكْمُ فِي كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ سِوَاءَ وَجَدَ لِلصَّحَابَةِ فِي مِثْلِهِ حُكْمٌ أَمْ لَا ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ سَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدَلٍ مِّنكُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَدِيًّا بَلِغَ الْكَعْبَةِ ﴾ أَيَّ وَاصِلًا إِلَى الْكَعْبَةِ ، وَالْمُرَادُ وَصُولُهُ إِلَى الْحَرَمِ بِأَنْ يُذْبَحَ هُنَاكَ وَيَفْرَقَ لَحْمُهُ عَلَى مَسَاكِينِ الْحَرَمِ ، وَهَذَا أَمْرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الصُّورَةِ ، ﴿ أَوْ كَفَّرَةً طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ أَيَّ : إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمُحْرَمُ مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، أَوْ لَمْ يَكُنِ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ مِنْ ذَوَاتِ الْأَمْثَالِ ، أَوْ قُلْنَا بِالتَّخْيِيرِ فِي هَذَا الْمَقَامِ بَيْنَ الْجَزَاءِ وَالْإِطْعَامِ وَالصِّيَامِ كَمَا هُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ وَأَحَدِ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ وَالْمَشْهُورِ عَنْ أَحْمَدَ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - لِظَاهِرِ الْآيَةِ « (أَوْ) » بِأَنَّهَا لِلتَّخْيِيرِ ، وَالْقَوْلُ الْآخِرُ أَتَمُّ عَلَى التَّرْتِيبِ .

فَصُورَةٌ ذَلِكَ أَنْ يُعَدَّلَ إِلَى الْقِيَمَةِ فَيَقُومُ الصَّيْدُ الْمَقْتُولُ عِنْدَ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ

وَأَصْحَابِهِ وَحَمَّادٍ وَإِبْرَاهِيمَ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُقَوْمُ مِثْلُهُ مِنَ النَّعْمِ لَوْ كَانَ مَوْجُودًا ، ثُمَّ يَشْتَرِي بِهِ طَعَامًا فَيَتَصَدَّقُ بِهِ فَيَصْرِفُ لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدًّا مِنْهُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَفُقَهَاءِ الْحِجَازِ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جُرَيْرٍ .

وَاخْتَلَفُوا فِي مَكَانِ هَذَا الإِطْعَامِ : فَقَالَ الشَّافِعِيُّ : مَكَانُهُ الْحَرَمُ ، وَهُوَ قَوْلُ عَطَاءٍ . وَقَالَ مَالِكٌ : يُطْعَمُ فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَصَابَ فِيهِ الصَّيْدَ أَوْ أَقْرَبَ الْأَمَاكِنِ إِلَيْهِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إِنْ شَاءَ أَطْعَمَ فِي الْحَرَمِ وَإِنْ شَاءَ أَطْعَمَ فِي غَيْرِهِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ﴾ أَي : أَوْجَبْنَا عَلَيْهِ الْكُفَّارَةَ لِيَذُوقَ عُقُوبَةَ فِعْلِهِ الَّذِي ارْتَكَبَ فِيهِ الْمُخَالَفَةَ ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ أَي : فِي زَمَانِ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَنْ أَحْسَنَ فِي الإِسْلَامِ وَاتَّبَعَ شَرَعَ اللَّهِ وَلَمْ يَرْتَكِبِ الْمَعْصِيَةَ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ أَي : وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْرِيمِهِ فِي الإِسْلَامِ وَبُلُوغِ الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ إِلَيْهِ ﴿ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : مَا ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ﴾ ؟ قَالَ : عَمَّا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ : قُلْتُ : وَمَا ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ ؟ قَالَ : وَمَنْ عَادَ فِي الإِسْلَامِ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَعَلَيْهِ مَعَ ذَلِكَ الْكُفَّارَةُ ، قَالَ : قُلْتُ : فَهَلْ فِي الْعُودِ مِنْ حَدِّ تَعْلُمُهُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : قُلْتُ : فَتَرَى حَقًّا عَلَى الإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَهُ ؟ قَالَ : لَا ، هُوَ ذَنْبٌ أَذْنَبُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ ﷻ وَلَكِنْ يَفْتَدِي . ثُمَّ الْجَمْهُورُ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى أَنَّهُ مَتَى قُتِلَ الْمُحْرَمُ الصَّيْدَ وَجَبَ الْجَزَاءُ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْأُولَى وَالثَانِيَةِ وَإِنْ تَكَرَّرَ مَا تَكَرَّرَ سِوَاءِ الْخَطَأِ فِي ذَلِكَ وَالْعَمْدِ .

وَقَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يَقُولُ عَزَّ ذِكْرُهُ : وَاللَّهُ مَنِيعٌ فِي سُلْطَانِهِ ، لَا يَتَهَرَّهُ قَاهِرٌ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ انْتَقَمَ مِنْهُ وَلَا مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَرَادَ عُقُوبَتَهُ مَانِعٌ ، لِأَنَّ الْخَلْقَ خَلَقَهُ وَالْأَمْرَ أَمْرَهُ لَهُ الْعِزَّةُ وَالْمَنْعَةُ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ يَعْنِي : أَنَّهُ ذُو مُعَاقِبَةٍ لِمَنْ عَصَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ جُرْمًا ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٦٦﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْبَحْرَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ الْحَرَّمَ وَالسَّيَّارَةَ وَالْأَهْدَى وَالْقَلْبِيدَ

ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾

قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ﴾ يَعْنِي: مَا يُضْطَادُّ مِنْهُ طَرِيًّا ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا يُتْرَوْدُ مِنْهُ مَلِيحًا يَابَسًا، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: ﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا لَفْظُهُ مَيْتًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَتَنَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أَي: مَنْفَعَةً وَقُوْتًا لَكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ وَهُوَ جَمْعُ سَيَّارٍ. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: الطَّرِيُّ مِنْهُ لِمَنْ يَضْطَادُّهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْبَحْرِ، وَطَعَامُهُ مَا مَاتَ فِيهِ أَوْ أَضْطِيدَ مِنْهُ وَمُلْحٌ وَقَدَّدَ يَكُونُ زَادًا لِلْمُسَافِرِينَ وَالنَّائِثِينَ عَنِ الْبَحْرِ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ الْجُمْهُورُ عَلَى حِلِّ مَيْتَتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَبِهَا رَوَاهُ الْإِمَامُ مَالِكٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْثًا قِبَلَ السَّاحِلِ فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ وَهُمْ ثَلَاثَةٌ وَأَنَا فِيهِمْ، قَالَ: فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ فَنِيَّ الزَّادُ، فَأَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِأَزْوَادِ ذَلِكَ الْجَيْشِ فَجُمِعَ ذَلِكَ كُلُّهُ، فَكَانَ مَزُودِي تَمْرًا. قَالَ: فَكَانَ يَقُوْتُنَا كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى فَنِيَّ، فَلَمْ يَكُنْ يُصِيبُنَا إِلَّا تَمْرَةٌ تَمْرَةٌ، فَقَالَ: فَقَدْ وَجَدْنَا فَقْدَهَا حِينَ فَنَيْتَ، قَالَ: ثُمَّ أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْبَحْرِ فَإِذَا حُوتٌ مِثْلُ الطَّرِبِ فَأَكَلْنَا مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْشُ ثَمَانِي عَشْرَةَ لَيْلَةً، ثُمَّ أَمَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِضَلْعَيْنِ مِنْ أَضْلَاعِهِ فَنُصِبَا ثُمَّ أَمَرَ بِرَاحِلَةٍ فَرَحَلْتُ وَمَرَّتْ تَحْتَهُمَا فَلَمْ تُصِيبْهُمَا<sup>(١)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ<sup>(٢)</sup> عَنْ جَابِرٍ: فَإِذَا عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِثْلُ الْكَيْبِ الضَّخْمِ فَاتَيْنَاهُ فَإِذَا بَدَائِيَّةٌ يُقَالُ لَهَا الْعَبْرُ قَالَ: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَيْتَةٌ. ثُمَّ قَالَ: لَا، وَنَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ أَضْطَرَّرْتُمْ فَكُلُوا، قَالَ: فَأَقَمْنَا عَلَيْهِ شَهْرًا، وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ حَتَّى سَمِنَّا، وَلَقَدْ رَأَيْنَا نَعْرَفُ مِنْ وَقَبِ عَيْنِيهِ بِالْقِلَالِ الدُّهْنِ، وَنَقَطَعُ

(١) البخاري (٢٤٨٣)، ومسلم في طرق حديث (١٩٣٥).

(٢) مسلم (١٩٣٥).

مِنْهُ الْفِدْرَ كَالثَّوْرِ ، قَالَ : وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيْدَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُمْ فِي وَفِّ عَيْنَيْهِ ، وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضْلَاعِهِ فَأَقَامَهَا ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمَرَّ مِنْ تَحْتِهِ ، وَتَرَوَدُّنَا مِنْ لَحْمِهِ وَشَائِقٍ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَيْءٌ فَتُطْعَمُونَا ؟ » قَالَ : فَأَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ . وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ مُسْلِمٍ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ وَجَدُوا هَذِهِ السَّمَكَةَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ وَاقِعَةٌ أُخْرَى ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ هِيَ قَضِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَكِنْ كَانُوا أَوْلَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ، ثُمَّ بَعَثَهُمْ سَرِيَّةً مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ فَوَجَدُوا هَذِهِ فِي سَرِيَّتِهِمْ تِلْكَ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَعَنْ الْمُغِيرَةَ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَرْكَبُ الْبَحْرَ وَنَحْمِلُ مَعَنَا الْقَلِيلَ مِنَ الْمَاءِ ، فَإِنْ تَوَضَّأْنَا بِهِ عَطَشْنَا ، أَفْتَوَضَّأُ بِمَاءِ الْبَحْرِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتُهُ »<sup>(١)</sup> .

وَقَدْ اِخْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ مَنْ ذَهَبَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّهُ تُؤْكَلُ دَوَابُّ الْبَحْرِ وَلَمْ يَسْتَنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ، وَقَالَ آخَرُونَ : يُؤْكَلُ مِنْ صَيْدِ الْبَحْرِ السَّمَكُ وَلَا يُؤْكَلُ الضَّفَدَعُ ، وَاخْتَلَفُوا فِيمَا سِوَاهُمَا فِقِيلٌ : يُؤْكَلُ سَائِرُ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : لَا يُؤْكَلُ ، وَقِيلَ : مَا أَكَلَ شِبْهَهُ مِنَ الْبَرِّ أَكَلَ مِثْلَهُ فِي الْبَحْرِ ، وَمَا لَا يُؤْكَلُ شِبْهَهُ لَا يُؤْكَلُ . وَهَذِهِ كُلُّهَا وَجُوهٌ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - :

لَا يُؤْكَلُ مَا مَاتَ فِي الْبَحْرِ ، كَمَا لَا يُؤْكَلُ مَا مَاتَ فِي الْبَرِّ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ . وَقَدْ اِخْتَجَّ الْجُمْهُورُ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ بِحَدِيثِ الْعَنْبَرِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ وَبِحَدِيثِ « هُوَ الطَّهُّورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتُهُ » . وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانٍ فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ : فَالْحَوْتُ وَالْجَرَادُ وَأَمَّا الدَّمَانِ : فَالْكَبِدُ وَالطُّحَالُ »<sup>(٢)</sup> . وَرَوَى مَوْفُوًّا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ﴾ أَي : فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ يُحْرَمُ

(١) صحيح : أخرجه أبو داود (حديث ٨٣) والترمذي (حديث ٦٩) .

(٢) الصواب وقفه على ابن عمر - رضي الله عنهما - لكنه لا يقال من قبل الرأي ، وقد أخرجه البيهقي

(٢٥٤/١) بسند صحيح عن ابن عمر ، والمرفوع ضعيف كما أشرنا .



عَلَيْكُمْ الْإِضْطِيَادُ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ ، فَإِذَا اضْطَادَ الْمُحْرِمُ الصَّيْدَ مُتَعَمِّدًا  
أَيْمَ وَعَرِمَ ، أَوْ مُحْطِطًا غَرِمَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ أَكْلُهُ ، لِأَنَّهُ فِي حَقِّهِ كَالْمَيْتَةِ وَكَذَا فِي حَقِّ غَيْرِهِ  
مِنَ الْمُحْرِمِينَ وَالْمُحَلِّينَ عِنْدَ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ . وَأَمَّا إِذَا صَادَ حَلَالًا  
صَيْدًا فَأَهْدَاهُ إِلَى مُحْرِمٍ فَقَدْ ذَهَبَ ذَاهِبُونَ إِلَى إِبَاحَتِهِ مُطْلَقًا وَلَمْ يَسْتَفْصِلُوا بَيْنَ أَنْ  
يَكُونَ قَدْ صَادَهُ مِنْ أَجَلِهِ أَمْ لَا .

وَالْجُمْهُورُ : إِنْ كَانَ الْحَلَالُ قَدْ قَصَدَ الْمُحْرِمُ بِذَلِكَ الصَّيْدَ لَمْ يَجْزِ لِلْمُحْرِمِ أَكْلَهُ  
لِحَدِيثِ الصَّعْبِ بْنِ جَثَامَةَ أَنَّهُ أَهْدَى لِلنَّبِيِّ ﷺ حِمَارًا وَحَشِيًّا وَهُوَ بِالْأَبْوَاءِ أَوْ بِوَدَّانِ ،  
فَرَدَّهُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا رَأَى مَا فِي وَجْهِهِ قَالَ : « إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلَّا أَنَا حُرْمٌ » وَهَذَا  
الْحَدِيثُ مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(١)</sup> وَلَهُ أَلْفَاظٌ كَثِيرَةٌ . قَالُوا : فَوَجْهُهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَنَّ  
أَنَّ هَذَا إِنَّمَا صَادَهُ مِنْ أَجَلِهِ فَرَدَّهُ لِذَلِكَ ، فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ بِالِاضْطِيَادِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ لَهُ  
الْأَكْلُ مِنْهُ ، لِحَدِيثِ أَبِي قَتَادَةَ حِينَ صَادَ حِمَارًا وَحَشِيًّا وَكَانَ حَلَالًا لَمْ يُحْرَمْ ، وَكَانَ  
أَصْحَابُهُ مُحْرِمِينَ فَتَوَقَّفُوا فِي أَكْلِهِ ، ثُمَّ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « هَلْ كَانَ مِنْكُمْ  
أَحَدٌ أَشَارَ إِلَيْهَا أَوْ أَعَانَ فِي قَتْلِهَا ؟ » قَالُوا : لَا ، قَالَ : « فَكُلُوا » وَأَكَلَ مِنْهَا  
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ثَابِتَةٌ أَيْضًا فِي الصَّحِيحَيْنِ <sup>(٢)</sup> بِالْأَلْفَاظِ كَثِيرَةٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : « يَقُولُ  
تَعَالَى ذِكْرُهُ : وَاحْشُوا اللَّهَ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، وَاحْذَرُوهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ فَرَائِضِهِ ،  
وَفِيمَا تَهَاكُمُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى نَبِيِّكُمْ ﷺ ، مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْحُمْرِ  
وَالْمَيْسِرِ وَالْأَنْصَابِ وَالْأَزْلَامِ ، وَعَنْ إِصَابَةِ صَيْدِ الْبَرِّ وَقَتْلِهِ فِي حَالِ إِحْرَامِكُمْ وَفِي  
غَيْرِهَا ، فَإِنَّ اللَّهَ مُصَيِّرُكُمْ وَمُرْجِعُكُمْ ، فَيُعَاقِبُكُمْ بِمَعْصِيَتِكُمْ إِيَّاهُ ، وَيَجْازِيكُمْ  
فِيئْسَابِكُمْ عَلَى طَاعَتِكُمْ لَهُ » .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَأَهْدَى  
وَالْقَلْبَيْدِ ﴾ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : صَيَّرَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ الَّذِينَ لَا قِيَامَ  
لَهُمْ ، مِنْ رَيْسٍ يَجْزُ قِيَمَتَهُمْ عَنْ ضَعْفِهِمْ ، وَمُسَيْتَهُمْ عَنْ مُحْسِنِهِمْ ، وَظَالِمَهُمْ عَنْ

(١) البخاري (١٨٢٥) ، ومسلم (١١٩٣) .

(٢) البخاري (١٨٢١) ، ومسلم (١١٩٦) .

مَظْلُومِهِمْ - وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ - فَحَجَزَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ قِيَامٌ غَيْرِهِ ، وَجَعَلَهَا مَعَالِمَ لِدِينِهِمْ ، وَمَصَالِحَ أُمُورِهِمْ .  
 قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَمَّا ﴿ الْكَعْبَةُ ﴾ فَالْحَرْمُ كُلُّهُ ، وَسَمَّاها اللهُ تَعَالَى (( حَرَامًا )) ؛ لِتَحْرِيمِهَا إِيَّاهَا أَنْ يُصَادُ صَيْدُهَا أَوْ يُحْتَلَى خِلَالُهَا ، أَوْ يُعَصَّدُ شَجَرُهَا . وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ ﴿ قَيْنِمًا لِلنَّاسِ ﴾ بِالْقِيَامِ . وَرَوَى فِي ذَلِكَ آثَارًا مِنْهَا . ﴿ قَيْنِمًا لِلنَّاسِ ﴾ ، قَالَ : صَلَاحًا لِدِينِهِمْ وَمِنْهَا قِيَامُهَا : أَنْ يَأْمَنَ مِنْ تَوَجُّهِ إِلَيْهَا ، وَمِنْهَا هُوَ قِيَامُ أَمْرِهِمْ . قَالَ الطَّبْرِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ - : وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَإِنْ اخْتَلَفَ مِنَ الْأَفَاطِ قَائِلِيهَا أَلْفَاطُهَا ، فَإِنَّ مَعَانِيهَا آيَلَةٌ إِلَى مَا قُلْنَا مِنْ ذَلِكَ ، مِنْ أَنَّ الْقِيَامَ لِلشَّيْءِ ، هُوَ الَّذِي بِهِ صَلَاحُهُ ، كَمَا أَنَّ الْمَلِكَ الْأَعْظَمَ ، قِيَامٌ رَعِيَّتِهِ وَمَنْ فِي سُلْطَانِهِ ؛ لِأَنَّهُ مُدَبِّرُ أَمْرِهِمْ ، وَحَاجِزُ ظُلْمِهِمْ عَنْ مَظْلُومِهِمْ ، وَالِدَّافِعُ عَنْهُمْ مَكْرُوهٌ مِنْ بَغَاؤِهِمْ وَعَادَاهُمْ . وَكَذَلِكَ كَانَتْ الْكَعْبَةُ وَالشَّهْرُ الْحَرَامُ وَالْهَدْيُ وَالْقَلَائِدُ قِيَامَ أَمْرِ الْعَرَبِ الَّذِي كَانَ بِهِ صَلَاحُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَهِيَ فِي الْإِسْلَامِ لِأَهْلِهَا مَعَالِمٌ حَجَّهِمْ وَمَنَاسِكِهِمْ وَمَتَوَجَّهَهُمْ لِصَلَاتِهِمْ ، وَقَبْلَتِهِمْ الَّتِي بِاسْتِقْبَالِهَا يَتِمُّ فَرَضُهُمْ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : اَعْلَمُوا ، أَيُّهَا النَّاسُ ، أَنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ سَرَائِرِ أَعْمَالِكُمْ وَعَلَانِيَتِهَا ، وَهُوَ يُحْصِيهَا عَلَيْكُمْ لِيُجَازِيَكُمْ بِهَا شَدِيدُ عِقَابِهِ - مَنْ عَصَاهُ وَتَمَرَّدَ عَلَيْهِ - عَلَى مَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ ، وَهُوَ غَفُورٌ لِذُنُوبِ مَنْ أَطَاعَهُ وَأَنَابَ إِلَيْهِ ، فَسَاتَرَ عَلَيْهِ وَتَارَكَ فَضِيحَتَهُ بِهَا رَحِيمٌ بِهِ أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ ، بَعْدَ إِنْابَتِهِ وَتَوْبَتِهِ مِنْهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ هَذَا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ، وَتَهْدِيدٌ لِعِبَادِهِ وَوَعِيدٌ ، يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : لَيْسَ عَلَى رَسُولِنَا الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، بِإِنذَارِكُمْ عِقَابِنَا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، وَإِعْذَارِنَا إِلَيْكُمْ بِمَا فِيهِ قَطْعٌ حُجَجِكُمْ ، إِلَّا أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْكُمْ رَسُولَنَا ، ثُمَّ إِنَّا الثَّوَابُ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَعَلَيْنَا الْعِقَابُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ . ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ يَقُولُ : وَغَيْرُ خَفِيِّ عَلَيْنَا الْمُطِيعُ مِنْكُمْ ، وَالْقَابِلُ رَسُولَنَا الْعَامِلُ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ مِنْ

الْعَاصِيِ الْآبِي رَسَالَتَنَا ، التَّارِكِ الْعَمَلِ بِمَا أَمَرْتُهُ بِالْعَمَلِ بِهِ ؛ لَأَنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلَهُ الْعَامِلُ مِنْكُمْ فَأَظْهَرَهُ بِجَوَارِحِهِ وَنَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ ﴿ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ ، يَعْنِي : وَمَا تُخْفُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ إِيْمَانٍ وَكُفْرٍ ، أَوْ يَقِينٍ وَشَكٍّ وَنِفَاقٍ .  
يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ : فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ضَمَائِرِ الصُّدُورِ ، وَظَوَاهِرِ أَعْمَالِ النُّفُوسِ ، مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَبِيَدِهِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ ، فَحَقِيقٌ أَنْ يُتَّقَى ، وَأَنْ يُطَاعَ ، فَلَا يُعْصَى .

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْحَنِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْحَنِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ  
أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلِ الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ  
عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ  
أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٢﴾

يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿ لَا يَسْتَوِي الْحَنِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ ﴾  
أَيُّ : يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿ كَثْرَةُ الْحَنِيثِ ﴾ يَعْنِي : أَنَّ الْقَلِيلَ الْحَلَالَ النَّافِعَ خَيْرٌ مِنَ الْكَثِيرِ  
الْحَرَامِ الضَّارِّ . ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أَيُّ : يَا ذَوِي الْعُقُولِ الصَّحِيحَةِ  
الْمُسْتَقِيمَةِ ، وَتَجَنَّبُوا الْحَرَامَ وَدَعُوهُ وَافْنَعُوا بِالْحَلَالِ وَاکْتَفُوا بِهِ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾  
أَيُّ : فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾  
هَذَا تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَهَيَّ هُمْ عَنْ أَنْ يَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِمَّا لَا  
فَائِدَةَ لَهُمْ فِي السُّؤَالِ وَالتَّنْقِيبِ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهَا إِنْ أُظْهِرَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْأُمُورُ رَبِّهَا  
سَاءَتْهُمْ وَشَقَّ عَلَيْهِمْ سَمَاعُهَا . عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ <sup>(١)</sup> : حَظَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
خُطْبَةً مَا سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ وَقَالَ فِيهَا : « لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا  
وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا » قَالَ : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وُجُوهَهُمْ هُمْ حِينَئِذٍ فَقَالَ رَجُلٌ :

مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «فُلَانٌ» فَزَكَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ .  
 وَعَنْ قَتَادَةَ<sup>(١)</sup> أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ حَتَّى أَخْفَوْهُ  
 بِالْمَسْأَلَةِ ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَقَالَ : « لَا تَسْأَلُونِي الْيَوْمَ عَنْ شَيْءٍ  
 إِلَّا بَيَّنَّتُهُ لَكُمْ » فَأَشْفَقَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيَّ أَمْرٍ قَدْ حَضَرَ  
 فَجَعَلْتُ لَا أَلْتَفِتُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا إِلَّا وَجَدْتُ كَلًّا لَأَفَارَ رَأْسَهُ فِي تَوْبِهِ يَبْكِي ، فَأَنْشَأُ  
 رَجُلٌ كَانَ يَلَاحِي فَيُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ! مَنْ أَبِي ؟ قَالَ : « أَبُوكَ  
 حُدَاقَةُ » قَالَ : ثُمَّ قَامَ عُمَرُ - أَوْ قَالَ : فَأَنْشَأَ عُمَرُ - فَقَالَ : رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا ،  
 وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، عَائِدًا بِاللَّهِ - أَوْ قَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ - مِنْ سَرِّ  
 الْفِتَنِ ، قَالَ : وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمْ أَرِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ كَالْيَوْمِ قَطُّ ، صُوِّرَتْ لِي  
 الْجَنَّةُ وَالنَّارُ حَتَّى رَأَيْتُهُمَا دُونَ الْحَائِطِ » .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ<sup>(٢)</sup> - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ : كَانَ قَوْمٌ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ  
 اسْتِهْزَاءً ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ : مَنْ أَبِي ؟ وَيَقُولُ الرَّجُلُ تَضَلُّ نَاقَتُهُ : أَيْنَ نَاقَتِي ؟ فَأَنْزَلَ  
 اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ﴾  
 حَتَّى فَرَعَ مِنَ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ أَي : وَإِنْ تَسْأَلُوا  
 عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نُهَيْتُمْ عَنِ السُّؤَالِ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ  
 تُبَيِّنُ لَكُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَي : عَمَّا كَانَ مِنْكُمْ  
 قَبْلَ ذَلِكَ ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ  
 الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ ﴾ أَي : لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ تَسْتَأْنِفُونَ السُّؤَالَ عَنْهَا فَلَعَلَّهُ قَدْ يُنَزَّلُ  
 بِسَبَبِ سُؤَالِكُمْ تَشْدِيدٌ أَوْ تَضْيِيقٌ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا :  
 مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ ، فَحَرَّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ »<sup>(٣)</sup> وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا  
 مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا بَيَّنَّتْ لَكُمْ حِينَئِذٍ ، لِأَحْتِيَاجِكُمْ إِلَيْهَا ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴾ أَي :

(١) إسناده حسن : ولكن الخبر صحيح ، وانظر البخاري (٧٠٨٩ ، ٧٠٩٠ ، ٧٠٩١) ، ومسلم (٢٣٥٩) .

(٢) البخاري (٤٦٢٢) .

(٣) البخاري (٧٢٨٩) ، ومسلم (حديث ٢٣٥٨) .

مَا لَمْ يَذْكُرْهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ بِمَا عَفَا عَنْهُ ، فَاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كَمَا سَكَتَ عَنْهَا ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سَوَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ »<sup>(١)</sup> .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ أَي : قَدْ سَأَلَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْمَنْهِيَّ عَنْهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ فَأُجِبُوا عَنْهَا ، ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ، فَأَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ، أَي : بِسَبَبِهَا أَنْ بَيَّنَّتْ لَهُمْ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهَا ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْأَلُوا عَلَى وَجْهِ الْاسْتِرْشَادِ ، بَلْ عَلَى وَجْهِ الْاسْتِهْزَاءِ وَالْعِنَادِ .

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نُجْحِرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٢٧﴾

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ : الْبَحِيرَةُ : الَّتِي يُمْنَعُ دَرُّهَا لِلطَّوَاعِثِ فَلَا يَجْلِبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ ، وَالسَّائِبَةُ : كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِأَهْلِيهِمْ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ ، قَالَ : وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ الْخُزَاعِيِّ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ ، كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِثَ »<sup>(٢)</sup> وَالْوَصِيلَةُ : النَّاقَةُ الْبَكْرُ تُبَكَّرُ فِي أَوَّلِ نِتَاجِ الْإِبِلِ ، ثُمَّ تُثَنَّى بَعْدَ بَأْنَتِي وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَّوَاعِثِهِمْ إِنْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ وَالْحَامُ : فَحُلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرَابَ الْمَعْدُودَ فَإِذَا قَضَى ضَرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاعِثِ وَأَعْفُوهُ عَنِ الْحَمْلِ فَلَمْ يُحْمَلْ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِي .

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا - قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَرَأَيْتُ عَمْرًا يَجْرُ قُضْبَهُ وَهُوَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِثَ »<sup>(٣)</sup> . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَكْثَمِ بْنِ الْجُنُونِ : « يَا أَكْثَمُ

(١) البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧٩) .

(٢) البخاري (٤٦٢٣) ، ومسلم (حديث ٢٨٥٦) .

(٣) البخاري (٤٦٢٤) .

رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحْيٍ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفٍ يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ ، فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَشْبَهَ  
بِرَجُلٍ بِهِ مِنْكَ وَلَا مِنْكَ بِهِ » فَقَالَ أَكُنْتُمْ : تَخْشَى أَنْ يَضُرَّنِي شَبَهُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟  
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا ، إِنَّكَ مُؤْمِنٌ وَهُوَ كَافِرٌ ، إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ ،  
وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَحَمَى الْحَامِي » (١) . فَعَمْرُو هَذَا هُوَ ابْنُ لُحْيٍ بْنِ قَمْعَةَ  
أَحَدُ رُؤَسَاءِ خُزَاعَةَ الَّذِينَ وُلُّوا النَّبِيَّتَ بَعْدَ جُرْهُمَ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيمَ  
الْحَلِيلِ ، فَأَدْخَلَ الْأَضْنَامَ إِلَى الْحِجَازِ ، وَدَعَا الرَّعَاعَ مِنَ النَّاسِ إِلَى عِبَادَتِهِ أَوْ  
التَّقَرُّبِ بِهَا ، وَشَرَعَ لَهُمْ هَذِهِ الشَّرَائِعَ الْجَاهِلِيَّةَ فِي الْأَنْعَامِ وَعَظِيمًا ، كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ  
تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ  
وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام: ١٣٦] إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ .

فَأَمَّا الْبَحِيرَةُ فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ النَّاقَةُ إِذَا تَنَجَّتْ حَمْسَةَ أَبْطُنٍ ، نَظَرُوا إِلَى الْحَامِسِ  
فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ الرَّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى جَدَعُوا آذَانَهَا فَقَالُوا :  
هَذِهِ بَحِيرَةٌ . وَأَمَّا السَّائِبَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ مِنَ الْغَنَمِ نَحْوُ مَا فَسَّرَ مِنَ الْبَحِيرَةِ ،  
إِلَّا أَنَّهُمَا مَا وَلَدَتْ مِنْ وَلَدٍ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ سِتَّةٌ أَوْ لَادٍ كَانَتْ عَلَى هَيْئَتِهَا ، فَإِذَا وَلَدَتْ  
السَّابِعَ ذَكَرًا أَوْ ذَكَرَيْنِ ذَبَحُوهُ فَأَكَلَهُ رِجَالُهُمْ دُونَ نِسَائِهِمْ ، وَقِيلَ : السَّائِبَةُ : هِيَ  
النَّاقَةُ إِذَا وَلَدَتْ عَشْرَ إِنَاثٍ مِنَ الْوَالِدِ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ ، سُمِّيَتْ فَلَمْ تُرَكَّبْ ، وَلَمْ يُجَزَّ  
وَبَرَّهَا وَلَمْ يُحْلَبْ لَبْنُهَا إِلَّا الصَّيْفَ . وَأَمَّا الْوَصِيلَةُ : فَقِيلَ أَيْضًا : هِيَ الشَّاةُ إِذَا تَنَجَّتْ  
سَبْعَةَ أَبْطُنٍ ، نَظَرُوا إِلَى السَّابِعِ ، فَإِنْ كَانَ ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مَيِّتٌ اشْتَرَكَ فِيهِ الرَّجَالُ  
دُونَ النِّسَاءِ ، وَإِنْ كَانَ أُنْثَى اسْتَحْيَوْهَا ، وَإِنْ كَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ اسْتَحْيَوْهُمَا ،  
وَقَالُوا : وَصَلْتُهُ أَخْتَهُ فَحَرَّمْتُهُ عَلَيْنَا . عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ ﴿ وَلَا وَصِيلَةَ ﴾ قَالَ :  
فَالْوَصِيلَةُ مِنَ الْإِبِلِ كَانَتْ النَّاقَةُ تَبْتَكِرُ بِأُنْثَى ثُمَّ تُنْثَى بِأُنْثَى ، فَيَسْمُوْنَهَا الْوَصِيلَةَ .  
وَيَقُولُونَ : وَصَلْتُ أُثَيْنِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ ، فَكَانُوا يَجْدَعُونَهَا لِطَوَاعِيهِمْ .

عَنْ مَالِكِ بْنِ نَضْلَةَ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي خُلُقَانٍ مِنَ الثِّيَابِ فَقَالَ لِي : « هَلْ  
لَكَ مِنْ مَالٍ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : « مِنْ أَيِّ الْمَالِ ؟ » قَالَ : فَقُلْتُ : مِنْ كُلِّ الْمَالِ

مِنَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْحَيْلِ وَالرَّقِيقِ . قَالَ : « فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا فَكَثِّرْ عَلَيْكَ »<sup>(١)</sup> ثُمَّ قَالَ « تُنْتِجُ إِبِلُكَ وَافِيَةٌ أَذَانُهَا ؟ » قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : « وَهَلْ تُنْتِجُ الْإِبِلُ إِلَّا كَذَلِكَ ؟ » قَالَ : « فَلَعَلَّكَ تَأْخُذُ الْمَوْسَى فَتَقْطَعُ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ : هَذِهِ بَحِيرٌ وَتَشُقُّ آذَانَ طَائِفَةٍ مِنْهَا وَتَقُولُ هَذِهِ حَرَمٌ ؟ » قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَ : « فَلَا تَفْعَلْ ، إِنَّ كُلَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ لَكَ حِلٌّ » ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْمٍ وَلَا سَابِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أَي : مَا شَرَعَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَلَا هِيَ عِنْدَهُ قُرْبَةٌ ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ افْتَرَوْا ذَلِكَ وَجَعَلُوهُ شَرْعًا لَهُمْ وَقُرْبَةً ، يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَيْهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِحَاصِلِ لَهُمْ بَلْ هُوَ وَبَالٌ عَلَيْهِمْ . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أَي : إِذَا دُعُوا إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرَعِهِ وَمَا أَوْجَبَهُ وَتَرَكَ مَا حَرَّمَهُ ، قَالُوا : يَكْفِينَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْأَبَاءَ وَالْأَجْدَادَ مِنَ الطَّرَائِقِ وَالْمَسَالِكِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أَي : لَا يَفْهَمُونَ حَقًّا وَلَا يَعْرِفُونَهُ وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِ ، فَكَيْفَ يَتَّبِعُونَهُمْ وَالْحَالَةَ هَذِهِ ؟ لَا يَتَّبِعُهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَأَضَلُّ سَبِيلًا .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ  
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُضْلِحُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَفْعَلُوا الْخَيْرَ بِجُهِدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ وَمُخْبِرًا لَهُمْ : أَنَّهُ مَنْ أَصْلَحَ أَمْرَهُ لَا يَضُرُّهُ فَسَادُ مَنْ فَسَدَ مِنَ النَّاسِ سَوَاءً كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَوْ بَعِيدًا . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : يَقُولُ تَعَالَى إِذَا مَا الْعَبْدُ أَطَاعَنِي فِيمَا أَمَرْتُهُ بِهِ مِنَ الْحَلَالِ ، وَهَيْبَتِهِ عَنْهُ مِنَ الْحَرَامِ ، فَلَا يَضُرُّهُ مَنْ ضَلَّ بَعْدَهُ إِذَا عَمِلَ بِمَا أَمَرْتُهُ بِهِ ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾

(١) سنده صحيح عند أبي داود (٤٠٦٣) ولكن مختصر ، ليس فيه ذكر الآية ولا قوله ( فلعلك تأخذ الموصى ..... ) وأخرج الترمذي جزءًا منه ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا ( إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ) ( ٢٨١٩ ) ، وسنده حسن . وعند الطبري بسياق أتم من الذي عند أبي داود ( ١٢٨٢٩ ، ١٢٨٣٠ ) وسنده صحيح . والحديث مطول عند ابن أبي حاتم ( ٦٨٨٥ ) .

نُصِبَ عَلَى الْإِعْرَاءِ ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَتُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أَي : فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .  
 وَلَيْسَ فِيهَا مُسْتَدَلٌّ عَلَى تَرْكِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، إِذَا كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُمَكِّنًا . عَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَأُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ وَإِنَّكُمْ تَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَا يُغَيِّرُونَهُ يُوشِكُ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَعْمَهُمْ بِعِقَابِهِ » قَالَ : وَسَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَانِبٌ لِلْإِيمَانِ <sup>(١)</sup> . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ : إِذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ وَهَيَّيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَلَا يَضُرُّكَ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتَ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ  
 اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ  
 فَأَصَبْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ حَبْسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ  
 أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهْدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا  
 لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ عَثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخِرَانِ يُقِيمَانِ  
 مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتْنَا  
 أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ أَدْنَى  
 أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهْدَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ۗ وَاتَّقُوا  
 اللَّهَ وَاسْمَعُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَىٰ حُكْمِ عَزِيزِ قَيْلٍ : إِنَّهُ مَسْخُوحٌ ، وَقَالَ آخِرُونَ -  
 وَهُمْ الْأَكْثَرُونَ فِيهَا قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ - : بَلْ هُوَ مُحْكَمٌ وَمَنْ ادَّعَى نَسْخَهُ فَعَلَيْهِ الْبَيَانُ ،

(١) إسناده صحيح عن أبي بكر ، وقد أخرجه أحمد في المسند (١/٩، ٧، ٥، ٢) وأبو داود (حديث ٤٣٣٨) ، وانظر عبد بن حميد في المنتخب (١) .



فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ﴾ هَذَا هُوَ الْخَبْرُ لِقَوْلِهِ : ﴿ شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ فَقِيلَ : تَقْدِيرُهُ شَهَادَةُ اثْنَيْنِ ، وَقِيلَ : دَلَّ الْكَلَامُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَشْهَدَ اثْنَانِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ذَوَا عَدَلٍ ﴾ وَصَفَ الْاِثْنَيْنِ بِأَنْ يَكُونَا عَدْلَيْنِ . ﴿ مِّنْكُمْ ﴾ أَيُّ : مِنْ الْمُسْلِمِينَ قَالَهُ الْجُمْهُورُ . ﴿ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْنِي : أَهْلَ الْكِتَابِ . ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أَيُّ : سَافَرْتُمْ ﴿ فَأَصَبْتُمْ مَّصِيبَةَ الْمَوْتِ ﴾ وَهَذَانِ شَرْطَانِ لِحَوَازِ اسْتِشْهَادِ الدَّمِيِّينَ عِنْدَ فَقْدِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سَفَرٍ وَأَنْ يَكُونَ فِي وَصِيَّةٍ كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شُرَيْحُ الْقَاضِي . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : أُخْتَلِفَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدَلٍ مِّنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ هَلِ الْمُرَادُ بِهِ أَنْ يُوصِيَ إِلَيْهِمَا أَوْ يُشْهَدُهُمَا عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يُوصِيَ إِلَيْهِمَا . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُمَا يَكُونَانِ شَاهِدَيْنِ وَهُوَ ظَاهِرٌ سِيَاقِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَصِيٌّ ثَالِثٌ مَعَهُمَا اجْتَمَعَ فِيهِمَا الْوَصْفَانِ : الْوَصَايَةُ وَالشَّهَادَةُ ، كَمَا فِي قِصَّةِ تَيْمِ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُمَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَبِهِ التَّوْفِيقُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : يَعْنِي صَلَاةَ الْعَصْرِ . وَالْمَقْصُودُ : أَنْ يُقَامَ هَذَانِ الشَّاهِدَانِ بَعْدَ صَلَاةِ اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِيهَا بِحَضْرَتِهِمْ ﴿ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ ﴾ أَيُّ فَيَحْلِفَانِ بِاللَّهِ ﴿ إِنْ أَرْتَبْتُمْ ﴾ أَيُّ : إِنْ ظَهَرَتْ لَكُمْ مِنْهُمَا رِيْبَةٌ أَنَّهُمَا قَدْ خَانَا أَوْ غَلَا فَيَحْلِفَانِ حَيْثُذِ بِاللَّهِ ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ﴾ أَيُّ : بِأَيِّ إِنَّا ﴿ ثَمَنًا ﴾ أَيُّ : لَا نَعْتَاضُ عَنْهُ بِعَوَضٍ قَلِيلٍ مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ ﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ أَيُّ : وَلَوْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ قَرِيبًا لَنَا لَا نُحَايِيهِ ﴿ وَلَا نَكْتُمُ شَهَدَةَ اللَّهِ ﴾ أَضَافَهَا إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفًا لَهَا وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهَا . ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴾ أَيُّ : إِنْ فَعَلْنَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ مِنْ تَحْرِيفِ الشَّهَادَةِ أَوْ تَبْدِيلِهَا أَوْ تَغْيِيرِهَا أَوْ كَتْمِهَا بِالْكُلِّيَّةِ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أَيُّ : فَإِنْ اِسْتَهَرَ وَظَهَرَ وَتَحَقَّقَ مِنَ الشَّاهِدَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ أَنَّهُمَا خَانَا أَوْ غَلَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ الْمَوْصَىٰ بِهِ إِلَيْهِمَا وَظَهَرَ عَلَيْهِمَا بِذَلِكَ ﴿ فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ ﴾ .

يَكُونُ الْمَعْنَى بِذَلِكَ : أَي مَتَى تَحَقَّقَ ذَلِكَ بِالْخَبْرِ الصَّحِيحِ عَلَى خِيَانَتَيْهَا ، فَلَيْقُمْ  
 إِثْنَانِ مِنَ الْوَرَثَةِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلرَّكَّةِ ، وَلْيَكُونَا مِنْ أَوْلَى مَنْ يَرِثُ ذَلِكَ الْمَالَ ﴿ فَيُقْسَمَانِ  
 بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا ﴾ أَي : لَقَوْلِنَا إِتْمَانًا أَحَقُّ وَأَصَحُّ وَأَثْبَتُ  
 مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا الْمُتَقَدِّمَةِ ﴿ وَمَا أَعْتَدَيْنَا ﴾ أَي : فِيمَا قُلْنَا فِيهِمَا مِنَ الْخِيَانَةِ ﴿ إِنَّا إِذَا لَمِنَ  
 الظُّلْمِينَ ﴾ أَي : إِنْ كُنَّا قَدْ كَذَبْنَا عَلَيْهِمَا ، وَهَذَا التَّحْلِيفُ لِلْوَرَثَةِ وَالرُّجُوعُ إِلَى  
 قَوْلِهِمَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ كَمَا يَحْلِفُ أَوْلِيَاءُ الْمُقْتُولِ إِذَا ظَهَرَ لَوْثٌ فِي جَانِبِ الْقَاتِلِ ، فَيُقْسَمُ  
 الْمُسْتَحِقُّونَ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُدْفَعُ بِرُمَّتِهِ إِلَيْهِمْ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي بَابِ الْقَسَامَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ .  
 وَقَدْ وَرَدَتِ السُّنَّةُ بِمِثْلِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ . فَذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ <sup>(١)</sup> :  
 عَنْ تَمِيمِ الدَّارِيِّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ  
 الْمَوْتُ ﴾ قَالَ : بَرِيءُ النَّاسِ مِنْهَا غَيْرِي وَغَيْرِ عَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ ، وَكَانَا نَصْرَانِيَيْنِ  
 يَخْتَلِفَانِ إِلَى الشَّامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، فَأَتَيْتَا الشَّامَ لِتِجَارَتَيْهِمَا وَقَدِمَ عَلَيْهِمَا مَوْلَى لَيْبِي سَهْمٍ  
 يُقَالُ لَهُ : بُدَيْلُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ بِتِجَارَةٍ مَعَهُ جَامٌ مِنْ فِضَّةٍ ، يُرِيدُ بِهِ الْمَلِكَ ، وَهُوَ عَظُمُ  
 تِجَارَتِهِ فَمَرِضٌ فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يُبَلِّغَا مَا تَرَكَ أَهْلُهُ .  
 قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا مَاتَ أَخَذْنَا ذَلِكَ الْجَامَ فَبِعْنَاهُ بِأَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَاقْتَسَمْنَاهُ أَنَا وَعَدِيُّ ،  
 فَلَمَّا قَدِمْنَا إِلَى أَهْلِهِ دَفَعْنَا إِلَيْهِمْ مَا كَانَ مَعَنَا ، وَفَقَدُوا الْجَامَ فَسَأَلُونَا عَنْهُ ، فَقُلْنَا :  
 مَا تَرَكَ غَيْرَ هَذَا وَمَا دَفَعَ إِلَيْنَا غَيْرُهُ ، قَالَ تَمِيمٌ : فَلَمَّا أَسْلَمْتُ بَعْدَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ  
 ﷺ الْمَدِينَةَ تَأَثَّمْتُ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَأَخْبَرْتُهُمُ الْخَبَرَ ، وَدَفَعْتُ إِلَيْهِمْ خَمْسِمِائَةَ  
 دِرْهَمٍ ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ عِنْدَ صَاحِبِي مِثْلَهَا فَوَثَبُوا عَلَيْهِ ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَحْلِفُوهُ  
 بِمَا يُعَظَّمُ بِهِ عَلَى أَهْلِ دِينِهِ فَحَلَفَ فَنَزَلَتْ ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةَ بَيْنِكُمْ ﴾ إِلَى  
 قَوْلِهِ : ﴿ فَيُقْسَمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتِنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتَيْهِمَا ﴾ فَقَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ  
 وَرَجُلٌ آخَرٌ مِنْهُمْ فَحَلَفَا فَنَزَعَتِ الْخَمْسِمِائَةَ مِنْ عَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ . وَمِنَ الشُّوَاهِدِ

(١) إسناده ضعيف: لكن أخرج البخاري (٢٧٨٠) من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداروي وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جامًا من فضة مخصوصًا من ذهب، فأحلفها رسول الله ﷺ ثم وجد الجامر بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي بن بداء فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وإن الجام لصاحبهم، قال: وفيهم نزلت هذه الآية ﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةَ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ الآية.

لِصَحَّةِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَيْضًا : مَا رَوَاهُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ (١) : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ بِدُقُوقًا قَالَ : فَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُشْهَدُهُ عَلَى وَصِيَّتِهِ ، فَأَشْهَدَ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ : فَقَدِمَا الْكُوفَةَ فَأَتِيَا الْأَشْعَرِيَّ يَعْنِي أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ ، وَقَدِمَا بِتَرِكْتِهِ وَوَصِيَّتِهِ ، فَقَالَ الْأَشْعَرِيَّ : هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : فَأَحْلَفْتُهَا بَعْدَ الْعَصْرِ بِاللَّهِ مَا خَانَا وَلَا كَذَبْنَا وَلَا بَدَلْنَا وَلَا كَتَمْنَا وَلَا غَيْرًا ، وَأَتَيْتُهَا لَوْصِيَّةَ الرَّجُلِ وَتَرِكْتِهِ ، قَالَ : فَأَمَصَى شَهَادَتَيْهَا . فَقَوْلُهُ : هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ الَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . الظَّاهِرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ قِصَّةَ تَمِيمٍ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءَ ، قَدْ ذَكَرُوا أَنَّ إِسْلَامَ تَمِيمِ بْنِ أَوْسِ الدَّارِيِّ ﷺ كَانَ فِي سَنَةِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ هَذَا الْحُكْمُ مُتَأَخِّرًا يَحْتَاجُ مُدْعِي نَسْخِهِ إِلَى دَلِيلٍ فَاصِلٍ فِي هَذَا الْمَقَامِ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - .

قَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ أَدَّتْ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهَيْهَا ﴾ أَي : شَرْعِيَّةَ هَذَا الْحُكْمِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ مِنْ تَحْلِيفِ الشَّاهِدِينَ الذَّمِّيِّينَ وَقَدْ اسْتَرَبَّ بِهِمَا ، أَقْرَبُ إِلَى إِقَامَتَيْهَا الشَّهَادَةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَرْضِيِّ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوْ تَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُكُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أَي : يَكُونُ الْحَامِلُ لَهُمْ عَلَى الْإِثْبَانِ بِهَا عَلَى وَجْهَيْهَا ، هُوَ تَعْظِيمُ الْحَلْفِ بِاللَّهِ ، وَمُرَاعَاةُ جَانِبِهِ وَإِجْلَالِهِ ، وَالْخَوْفُ مِنَ الْفُضِيحَةِ بَيْنَ النَّاسِ ، إِنْ رُدَّتِ الْيَمِينُ عَلَى الْوَرَثَةِ ، فَيَحْلِفُونَ وَيَسْتَحِقُّونَ مَا يَدْعُونَ ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ أَوْ تَخَافُوا أَنْ تَرُدَّ أَيْمَانُكُمْ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أَي : فِي جَمِيعِ أُمُورِكُمْ ﴿ وَأَسْمَعُوا ﴾ أَي : وَأَطِيعُوا ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أَي : الْخَارِجِينَ عَنِ طَاعَتِهِ وَمُتَابِعَةِ شَرِيعَتِهِ .

﴿ يَوْمَ تَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ

عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١﴾

هَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ الْمُرْسَلِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا أُجِيبُوا بِهِ مِنْ أَمْرِهِمُ الَّذِينَ

(١) سنده صحيح إلى الشعبي ، وقد أخرجه الطبري (١٢٩٤٨) ، وأبو داود (٣٦٠٥) .

أَرْسَلَهُمْ إِلَيْهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [ الأعراف : ٦ ] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ وَقَوْلُ الرَّسُولِ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ قَالَ عَدَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ : إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ وَقِيلَ : أَيُّ مَاذَا عَمِلُوا بَعْدَكُمْ وَمَاذَا أَحَدْتُوا بَعْدَكُمْ ، قَالُوا : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ وَقِيلَ : يَقُولُونَ لِلرَّبِّ ﷻ : لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا عِلْمُ أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ثُمَّ اخْتَارَهُ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ الثَّلَاثَةِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ قَوْلٌ حَسَنٌ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّأْدِبِ مَعَ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ . أَيُّ لَا عِلْمَ لَنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَنَحْنُ وَإِنْ كُنَّا قَدْ أُجِبْنَا وَعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنَا ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ كُنَّا إِنَّمَا نَطَّلِعُ عَلَى ظَاهِرِهِ لَا عِلْمَ لَنَا بِبَاطِنِهِ ، وَأَنْتَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، الْمَطَّلِعُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَعِلْمُنَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِلْمِكَ كَلَّا عِلْمٌ ، فَإِنَّكَ ﴿ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ .

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَآشَهِدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿

يَذْكُرُ تَعَالَى مَا أَمَّنَّ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ أَيُّ : فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمَّ بِلَا ذَكَرٍ ، وَجَعَلِي إِيَّاكَ آيَةً ، وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَى الْأَشْيَاءِ ﴿ وَعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ حَيْثُ جَعَلْتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَى بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ

الظَّالِمُونَ الْجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْفَاحِشَةِ ﴿ إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، فَأَنْطَقْتُكَ فِي الْمَهْدِ صَغِيرًا ، فَشَهِدْتَ بِبِرَاءَةِ أُمَّكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ ، وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالْعُبُودِيَّةِ ، وَأَخْبَرْتَ عَنِ رِسَالَتِي إِيَّاكَ ، وَدَعَوْتَ إِلَى عِبَادَتِي ؛ وَهَذَا قَالَ : ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴾ أَي : تَدْعُو النَّاسَ إِلَى اللَّهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ ، وَضَمَّنَ ﴿ تَكَلَّمَ ﴾ تَدْعُو ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كَهُولِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ . ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ أَي : الْحَطَّ وَالْفَهْمَ ﴿ وَالتَّوْرَةَ ﴾ وَهِيَ الْمَنْزَلَةُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ الْكَلِيمِ ، وَقَدْ يَرُدُّ لَفْظُ التَّوْرَةِ فِي الْحَدِيثِ وَيُرَادُ بِهِ مَا هُوَ أَعْمُ مِنْ ذَلِكَ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ﴾ أَي : تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَى هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ ﴿ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ أَي : فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَّلْتَهَا بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ فَتَكُونُ طَيْرًا ذَا رُوحٍ تَطِيرُ بِإِذْنِ اللَّهِ وَخَلْقِهِ . ﴿ وَتَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ . ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ﴾ أَي : تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَي : وَادَّكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ فِي كَفِّي إِيَّاهُمْ عَنْكَ حِينَ جِئْتَهُمْ بِالْبَرَاهِينِ وَالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ عَلَى نُبُوتِكَ ، وَرِسَالَتِكَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَكَذَّبُوكَ وَأَتَمُّوكَ بِأَنَّكَ سَاحِرٌ ، وَسَعَوْا فِي قَتْلِكَ وَصَلَبِكَ ، فَنَجَّيْتُكَ مِنْهُمْ وَرَفَعْتُكَ إِلَيَّ وَطَهَّرْتُكَ مِنْ دَسِيسِهِمْ ، وَكَفَيْتُكَ شَرَّهُمْ ، وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْإِمْتِنَانَ كَانَ مِنَ اللَّهِ إِلَيْهِ بَعْدَ رَفْعِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، أَوْ يَكُونُ هَذَا الْإِمْتِنَانُ وَإِقْعَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ الْمَاضِي دَلَالَةً عَلَى وَقُوعِهِ لَا مُحَالَةً ، وَهَذَا مِنْ أَسْرَارِ الْغُيُوبِ الَّتِي أَطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْإِمْتِنَانِ عَلَيْهِ ﷺ بِأَنْ جَعَلَ لَهُ أَصْحَابًا وَأَنْصَارًا ، ثُمَّ قِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْوَحْيِ وَحْيُ إِبْرَاهِيمَ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [ القصص : ٧ ]

الآية . وَهُوَ وَحْيٌ إلهَامٌ بِلَا خِلَافٍ ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًا ﴿ [ النحل : ٦٨ - ٦٩ ] ، وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ أَي : أَلْهَمُوا ذَلِكَ فَامْتَثَلُوا مَا أَلْهَمُوا ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : أَلْهَمَهُمُ اللَّهُ ﷻ ذَلِكَ ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ . وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ : وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيْهِمْ بِوِاسِطَتِكَ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَبِرِسْوَائِهِ ، وَاسْتَجَابُوا لَكَ وَانْقَادُوا وَتَابَعُوكَ ، فَقَالُوا ﴿ ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ ﴾ .

إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَنعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْبِئِنَّا قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوْلِيَانَا وَإِخْرَبًا وَإِيَّةَ مَنكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

هَذِهِ قِصَّةُ الْمَائِدَةِ وَإِلَيْهَا تُنْسَبُ السُّورَةُ ، فَيَقَالُ : سُورَةُ الْمَائِدَةِ ، وَهِيَ مِمَّا ائْتَنَّا اللَّهُ بِهِ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى لَمَّا أَجَابَ دُعَاءَهُ بِنَزْوِهَا ، فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ آيَةً وَدَلَالَةً وَمَعْجَزَةً بَاهِرَةً ، وَحُجَّةً قَاطِعَةً ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ عِيسَى ﷺ ﴿ يَنعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ هَذِهِ قِرَاءَةٌ كَثِيرِينَ ، وَقَرَأَ آخَرُونَ : « هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ » أَي : هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ ﴿ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ وَالْمَائِدَةُ : هِيَ الْخِوَانُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ ، وَذَكَرَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ إِتْمَا سَأَلُوا ذَلِكَ لِحَاجَتِهِمْ وَفَقْرِهِمْ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً كُلَّ يَوْمٍ يَقْتَاتُونَ مِنْهَا ، وَيَتَقَوَّونَ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ ﴿ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أَي : فَأَجَابَهُمُ الْمَسِيحُ ﷺ قَائِلًا

هَمْ : اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَسْأَلُوا هَذَا ، فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لَكُمْ ، وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أَي : نَحْنُ مُحْتَاجُونَ إِلَى الْأَكْلِ مِنْهَا . ﴿ وَتَطْبِخَنَ قُلُوبُنَا ﴾ إِذَا شَاهَدْنَا نُزُولَهَا رِزْقًا لَنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴿ وَنَعْلَمُ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أَي : وَنَزَدَادُ إِيْمَانًا بِكَ وَعِلْمًا بِرِسَالَتِكَ ﴿ وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أَي : وَنَشْهَدُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَدَلَالَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَى بُبُوتِكَ ، وَصِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ : أَي : نَتَّخِذُ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عِيدًا نَعُظَّمُهُ نَحْنُ وَمَنْ بَعَدَنَا ، وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : يَعْنِي : يَوْمًا نُصَلِّي فِيهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : أَرَادُوا أَنْ تَكُونَ لِعَقِبِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ . وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ : عِظَةٌ لَنَا وَلِمَنْ بَعَدَنَا ، وَقِيلَ : كَافِيَةٌ لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ﴿ وَآيَةٌ مِنْكَ ﴾ أَي : دَلِيلًا تَنْصِبُهُ عَلَى قُدْرَتِكَ عَلَى الْأَشْيَاءِ ، وَعَلَى إِجَابَتِكَ لِدَعْوَتِي ، فَيُصَدِّقُونِي فِيهَا أَبْلَغُهُ عَنْكَ ﴿ وَارْزُقْنَا ﴾ أَي : مِنْ عِنْدِكَ رِزْقًا هَيِّئْنَا بِلَا كُفْلَةٍ وَلَا تَعَبٍ ﴿ وَأَنْتَ حَيُّ الرِّزْقِينَ ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ ﴿ أَي : فَمَنْ كَذَّبَ بِهَا مِنْ أُمَّتِكَ يَا عِيسَى وَعَائِدَهَا ﴿ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ أَي : مِنْ عَالَمِي زَمَانِكُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [ غافر : ٤٦ ] ، وَكَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ النَّسْفِيقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [ النساء : ١٤٥ ]

### ذَكَرُ أَخْبَارٍ رُوِيَتْ عَنِ السَّلَفِ فِي نُزُولِ الْمَائِدَةِ عَلَى الْحَوَارِيِّينَ<sup>(١)</sup>

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَثَارِ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمَائِدَةَ نَزَلَتْ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيَّامَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِجَابَةً مِنَ اللَّهِ لِدَعْوَتِهِ ، كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرُ هَذَا السِّيَاقِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . وَقَالَ قَوْمٌ : إِنَّهَا لَمْ تُنَزَّلْ . وَالْجُمْهُورُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ . وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ قَالَ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِنُزُولِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا

(١) أورد الحافظ ابن كثير رحمه الله تحت هذا العنوان جملة من الآثار لا يخلو خبر منها من مقال فحذفناها .

عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ قَالَ :  
وَوَعَدُ اللَّهِ وَوَعِيدُهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - الصَّوَابُ كَمَا  
دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ .

هَذَا وَقَدْ وَرَدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ : اُدْعُ  
لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا وَتُورًا مِنْ بَيْتِكَ ، قَالَ : « وَتَفْعَلُونَ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ،  
قَالَ : فَدَعَا ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : « إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ : إِنْ شِئْتَ  
أَصْبَحَ لُحْمُ الصِّفَا ذَهَبًا ، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ  
الْعَالَمِينَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةَ . قَالَ : بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » (١).

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ  
مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ  
قُلْتُهُ ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ  
عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٨﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ  
وَكَنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ  
وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٩﴾ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ  
فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٠﴾

هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطَبُ اللَّهُ بِهِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام قَائِلًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
بِحَضْرَةِ مَنْ اتَّخَذَهُ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ : ﴿ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ  
اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَى وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَى رُءُوسِ  
الْأَشْهَادِ هَكَذَا قَالَهُ فَتَادَةٌ وَغَيْرُهُ ، وَاسْتَدْلٌ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ  
الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] ، وَقَالَ السُّدِّيُّ : هَذَا الْخُطَابُ وَالْجَوَابُ فِي الدُّنْيَا .  
وَالَّذِي قَالَهُ فَتَادَةٌ وَغَيْرُهُ هُوَ الْأَظْهَرُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛  
لِيَدُلَّ عَلَى تَهْدِيدِ النَّصَارَى وَتَقْرِيعِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) أحمد (١/٢٤٢٩) بسند صحيح لشواهده ووقع عنده عمران بن الحكم وصوابه عمران أبو الحكم .



وَقَوْلُهُ: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ هَذَا تَوْفِيقٌ لِلتَّأْدِبِ فِي الْجَوَابِ الْكَامِلِ . ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أَي: إِنْ كَانَ صَدَرَ مِنِّي هَذَا فَقَدْ عَلِمْتَهُ يَا رَبِّ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ فَمَا قُلْتُهُ وَلَا أَرَدْتُهُ فِي نَفْسِي وَلَا أَضْمَرْتُهُ ، وَهَذَا قَالَ: ﴿تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (١) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ - بِإِبْلَاغِهِ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَي: مَا دَعَوْتُهُمْ إِلَّا إِلَى الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ وَأَمَرْتَنِي بِإِبْلَاغِهِ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أَي: هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ لَهُمْ .

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أَي: كُنْتُ أَشْهَدُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ حِينَ كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .  
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (٢) : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَوْعِظَةٍ فَقَالَ: ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ ﷻ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلًا﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلْقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمَ ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ فَأَقُولُ: أَصْحَابِي ، فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ: كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٣) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فَيُقَالُ: إِنْ هُوَ لَمْ يَزَلْ أَلِمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ» .

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هَذَا الْكَلَامُ يَنْصَمُنُ رَدَّ الْمَشِيئَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ ، فَإِنَّهُ الْفَعَالُ لِمَا يَشَاءُ ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ، وَمُتَّصِمُنُ التَّبَرِّيِّ مِنَ النَّصَارَى ، الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَجَعَلُوا اللَّهَ نِدًّا وَصَاحِبَةً وَوَلَدًا ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَهَذِهِ الْآيَةُ لَهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ وَنَبَأٌ عَجِيبٌ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَامَ بِهَا لَيْلَةً حَتَّى الصَّبَاحِ يَرُدُّهَا .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ (٤) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تَلَا قَوْلَ عِيسَى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ

(١) البخاري (حديث ٤٦٢٥) ومسلم (٢٨٦٠) .

(٢) مسلم (حديث ٢٠٢) .

فَأَيُّهَا عِبَادُكَ وَإِن تَغَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : (( اللَّهُمَّ أُمَّتِي )) وَبَكَى ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جَبْرِيلُ إِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَاسْأَلْهُ مَا يُبْكِيهِ ؟ فَاتَاهُ جَبْرِيلُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ اللَّهُ : يَا جَبْرِيلُ إِذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ )) .

قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ ١١١ ﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ ١١٢ ﴾

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيبًا لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَنهَاهُ إِلَيْهِ مِنَ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى الْمُلْحِدِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ ، وَمِنْ رَدِّ الْمَشِيئَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ ﷻ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قِيلَ : يَوْمٌ يَنْفَعُ الْمُؤَحِّدِينَ تَوْحِيدُهُمْ ﴿ هُمْ جَنَّتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أَي : مَا كَثُرَ فِيهَا لَا يُحْوَلُونَ وَلَا يَزُولُونَ ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢]

وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أَي : هَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَعْظَمُ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصفات : ٦١] ، وَكَمَا قَالَ : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦]

قَوْلُهُ : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أَي : هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ الْمَالِكُ لَهَا الْمُتَصَرِّفُ فِيهَا الْقَادِرُ عَلَيْهَا ، فَالْجَمِيعُ مِلْكُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفِي مَشِيئَتِهِ ، فَلَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ وَلَا عَدِيلَ وَلَا وَالِدَ وَلَا وَلَدَ وَلَا صَاحِبَةَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ سُورَةُ الْمَائِدَةِ .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ

# فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة .....
١١	ترجمة الحافظ ابن كثير رحمه الله .....
١٣	تفسير سورة الفاتحة .....
١٣	أقوال العلماء في أسماء الفاتحة .....
١٤	ذكر ما ورد في فضل الفاتحة .....
١٦	الكلام على تفسير الاستعاذة وأحكامها .....
١٩	أقوال العلماء في الجهر بالبسملة أو عدم الجهر .....
٢٠	فصل في فضل البسملة .....
٢١	تفسير لفظ الجلالة .....
٢٣	تفسير قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .....
٢٤	تفسير قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .....
٢٥	تفسير قوله تعالى: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ .....
٢٦	تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .....
٢٧	تفسير قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .....
٢٨	أقوال العلماء في تفسير الصراط .....
٢٩	تفسير قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .....
٢٩	تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ .....
٣٢	استحباب قول (( آمين )) بعد قراءة الفاتحة .....
٣٤	تفسير سورة البقرة .....
٣٤	ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران .....
٣٦	أقوال العلماء في الحروف المقطعة .....
٣٧	اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن .....
٣٩	تفسير معنى الإيمان لغة وشرعا .....
٣٩	أقوال العلماء في تفسير الغيب .....
	اختلاف المفسرين في الموصوفين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
٤١	وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ .....﴾ .....
٤٣	معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .....
٤٥	تفسير معنى النفاق وأنواعه .....

الصفحة	الموضوع
٤٧	صفات المنافقين .....
٥٠	أمثلة لأنواع المنافقين .....
٥٥	بيان وحدانية الله ﷻ ونعمه على خلقه .....
٥٧	استدلال العلماء على وجود الخالق ﷻ .....
٥٩	عجز الكافرين عن معارضة القرآن والإتيان بمثله .....
٦٣	استدلال أئمة السنة على أن النار موجودة .....
٦٣	مصير المؤمنين الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .....
٦٥	الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن الكريم .....
٦٦	معنى الفاسق لغة وشرعاً .....
٦٧	أقوال العلماء في تفسير معنى العهد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ .....
٧٠	الاستدلال على أن الأرض خلقت قبل السماء .....
٧١	إخبار الله ﷻ لملائكته بأنه جاعل في الأرض خليفة .....
٧٤	اختصاص آدم ﷺ بعلم أسماء كل شيء دون الملائكة .....
٧٦	تكريم آدم ﷺ بأمر الله ﷻ لملائكته بالسجود له .....
٧٦	حسد إبليس - لعنه الله - لآدم على ما أعطاه الله من الكرامة .....
٧٧	اختلاف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم .....
٧٧	أقوال العلماء في الشجرة التي أكل منها آدم .....
٧٩	أمر الله ﷻ لبني إسرائيل بالدخول في الإسلام .....
٨١	تحذير الله ﷻ لليهود من كتمان الحق وإظهار الباطل .....
٨٢	استنكار الله ﷻ لأهل الكتاب بأمرهم بالمعروف وعدم فعلهم له .....
٨٣	الاستعانة على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة .....
٨٨	تذكير بني إسرائيل بنعم الله ﷻ عليهم .....
٩١	تذكير الله ﷻ لبني إسرائيل بما أسبغ عليهم من النعم .....
٩٢	لوم الله ﷻ لليهود على نكولهم عن الجهاد .....
٩٤	استجابة الله ﷻ لموسى حين استسقى لقومه .....
٩٥	توبيخ موسى لقومه على ما سألوا من الأطعمة الدنيئة .....
٩٦	إحلال الذلة على بني إسرائيل بسبب استكبارهم عن اتباع الحق .....
٩٨	أقوال العلماء في المقصود بالصائبين .....

## الصفحة

## الموضوع

- ٩٩ ..... تذكير الله ﷻ لبني إسرائيل بما أخذ عليهم من العهود والمواثيق.
- ٩٩ ..... تحيُّل بني إسرائيل على اصطیاد الخيتان يوم السبت
- ١٠١ ..... قصة بقرة بني إسرائيل
- ١٠٨ ..... إخبار الله ﷻ بأن اليهود بدلوا التوراة وكتبوه بأيديهم
- ١٠٩ ..... إدعاء اليهود بأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة
- ١١٠ ..... أخذ الميثاق على بني إسرائيل ونقضهم إياه
- ١١٤ ..... استكبار بني إسرائيل لأنبيائهم وتكذيبهم وقتلهم
- ١١٧ ..... غضب الله ﷻ على اليهود بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم بمحمد ﷺ والقرآن
- ١١٩ ..... إدعاء بني إسرائيل الإیمان رغم نقضهم المواثيق وكفرهم بآيات الله
- ١٢٠ ..... حرص اليهود على الحياة وعدم تمني الموت
- ١٣١ ..... أقوال العلماء في تكفير من تعلم السحر
- ١٣٣ ..... هل يسأل الساحر حلا لسحره؟
- ١٣٨ ..... نهي الله ﷻ المؤمنين عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها ...
- ١٤١ ..... اغترار اليهود والنصارى وإدعائهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتهم
- ١٤٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ ﴾
- ١٤٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾
- ١٥٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا ﴾
- ١٥٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ ﴾
- ١٥٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيَاهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾
- ١٥٤ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَّثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾
- ١٥٨ ..... أحاديث تدل أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض
- ١٦٢ ..... قصة أم إسماعيل عليهما السلام
- ١٧١ ..... دعوة إبراهيم عليه السلام لبنيه
- ١٧٢ ..... وصية يعقوب عليه السلام لبنيه
- ١٧٥ ..... إرشاد الله تعالى نبيه ﷺ إلى درء مجادلة المشركين
- ١٧٧ ..... الأمر باستقبال الكعبة في الصلاة
- ١٨٥ ..... فضل الصابرين على الابتلاء
- ١٨٨ ..... السعي بين الصفا والمروة

الصفحة	الموضوع
١٩٠	الوعيد لمن كتم ما جاءت به الرسل
١٩٣	ذكر الله ﷻ حال المشركين في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة
١٩٥	الأمر بالأكل من الحلال
١٩٧	تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله
١٩٨	مصير اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم
٢٠٠	صفات المؤمنين الأبرار المتقين
٢٠٣	الأمر بالقصاص
٢٠٥	الأمر بالوصية
٢٠٧	فرض الصيام
٢١٠	فضل شهر رمضان
٢١٤	الرخصة بالأكل والشرب والجماع في ليالي رمضان
٢١٧	مشروعية الاعتكاف في رمضان
٢١٨	تحريم أكل أموال الناس بالباطل
٢١٩	الكلام على الأهلّة
٢٢٠	الأمر بالجهاد في سبيل الله
٢٢٠	الأمر بالإنفاق في سبيل الله
٢٢٤	الأمر بالحج والعمرة
٢٣٠	أشهر الحج
٢٣١	الأمر بذكر الله عند الإفاضة من عرفات
٢٣٤	الأمر بذكر الله عند قضاء المناسك
٢٣٦	الأمر بذكر الله في الأيام المعدودات المعلومات
٢٣٧	تحريم النفاق والإفساد في الأرض
٢٤٢	تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ...﴾
٢٤٣	الإنفاق على الوالدين والأقربين
٢٤٤	الأمر بقتال الكافرين
٢٤٥	تحريم القتال في الأشهر الحرم
٢٤٥	تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾
٢٤٧	الأمر بإصلاح شأن اليتامى

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	تحريم نكاح المشركات ونكاح المشركين
٢٤٩	الأمر باعتزال النساء في أيام الحيض
٢٥١	تفسير قوله تعالى: ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ... ﴾
٢٥٣	النهي عن الإكثار من الحلف بالله
٢٥٥	تفسير قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ... ﴾
٢٥٦	عدَّة الطلاق
٢٥٨	عدد الطلاق الشرعي
٢٦١	الكلام على الخُلَع
٢٦٢	النهي عن تعدي حدود الله
٢٦٤	الأمر بالمعروف في الطلاق
٢٦٥	مدة الرضاعة
٢٦٨	عدة المتوفى عنها زوجها
٢٧١	إجازة التعريض بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح
٢٧٣	إباحة طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها
٢٧٤	وجوب نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول
٢٧٥	الأمر بالمحافظة على الصلوات
٢٨٠	الأمر بالقتال في سبيل الله وعدم الفرار
٢٨٢	قصة طالوت مع بني إسرائيل
٢٨٥	تفضيل بعض الرسل على بعض
٢٨٦	فضل آية الكرسي، وتفسيرها
٢٨٩	تفسير قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ... ﴾
٢٩٣	قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود
٢٩٤	قصة عزيز عليه السلام
٢٩٥	إحياء الموتى لإبراهيم عليه السلام
٢٩٦	فضل الإنفاق في سبيل الله
٢٩٧	النهي عن المن في الصدقة
٢٩٨	الحث على الإنفاق ابتغاء مرضات الله
٣٠٥	النهي عن أكل الربا

الصفحة	الموضوع
٣١٢	الأمر بكتابة الدين .....
٣١٨	الأمر بأداء الأمانة وعدم كتمان الشهادة .....
٣٢٢	تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ .....
٣٢٤	تفسير سورة آل عمران .....
٣٢٥	تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ...﴾ .....
٣٢٥	الكلام على المحكم والمتشابه .....
٣٣٠	تأييد الله ﷻ للفتنة المؤمنة .....
٣٣١	تفسير قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ...﴾ .....
٣٣٣	صفات المتقين .....
٣٣٤	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ .....
٣٣٧	تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ...﴾ .....
٣٣٩	النهي عن موالاتة الكافرين .....
٣٤٢	ذكر من اصطفاهم الله من عباده .....
٣٤٢	دعاء امرأة عمران ( أم مريم عليها السلام ) .....
٣٤٤	دعاء زكريا <small>عليه السلام</small> .....
٣٤٦	اصطفاء مريم عليها السلام على نساء العالمين .....
٣٤٧	بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليها السلام .....
٣٤٩	معجزات عيسى <small>عليه السلام</small> .....
٣٥٠	أنصار عيسى <small>عليه السلام</small> .....
٣٥٢	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ...﴾ .....
٣٥٣	تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...﴾ .....
٣٥٦	دعوى اليهود والنصارى بأن إبراهيم <small>عليه السلام</small> كان منهم .....
٣٦٣	أخذ العهد على الأنبياء للنبي محمد ﷺ .....
٣٦٤	لا يقبل الله ديناً غير الإسلام .....
٣٦٥	تفسير قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا...﴾ .....
٣٦٦	عدم قبول التوبة لمن كفر بعد الإيمان ثم ازداد كفراً .....
٣٦٨	الأمر بالإنفاق مما يجب المنفق .....
٣٧٠	الكعبة هي أول بيت وضع للناس .....



الصفحة	الموضوع
٣٧٥	النهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف
٣٧٦	الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
٣٧٧	خيرية أمة محمد ﷺ على سائر الأمم
٣٨٢	نهي الله ﷻ عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة
٣٨٤	الكلام على موقعة أحد
٣٩٠	المبادرة إلى فعل الخيرات
٣٩١	صفة أهل الجنة
٣٩٥	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. ﴾
٣٩٨	تحذير الله تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين
٤٠٣	تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ... ﴾
٤٠٥	تفسير قوله تعالى: ﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ... ﴾
٤١٠	تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِكًا قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا ... ﴾
٤١٢	حياة الشهداء
٤١٩	تفسير قوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... ﴾
٤٢٢	أمر الله لأهل الكتاب ببيان الحق وعدم كتمانها
٤٢٣	الآيات الدالة على عظمة الله ﷻ
٤٢٨	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ... ﴾
٤٣١	تفسير سورة النساء
٤٣١	أمر الله ﷻ لعباده بالتقوى ووحدانيته
٤٣٢	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ... ﴾
٤٣٢	تعدد الزوجات
٤٣٥	نهي الله ﷻ عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال
٤٣٨	تفسير قوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ... ﴾
٤٤١	تفسير آية الميراث
٤٤٦	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ مِنَ الْفَجْشَةِ مِنْ نِسَائِكُمْ ... ﴾
٤٤٨	تفسير قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا ... ﴾
٤٥٢	المحرمات من النساء
٤٦٠	النهي عن أكل أموال الناس بالباطل

## الصفحة

## الموضوع

- ٤٦١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾
- ٤٦٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَى...﴾
- ٤٦٧ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾
- ٤٦٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا...﴾
- ٤٧٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ...﴾
- ٤٧٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾
- ٤٧٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ...﴾
- ٤٨١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾
- ٤٨٢ ..... خصوصية أمة محمد ﷺ بمشروعية التيمم
- ٤٨٣ ..... ذكر سبب نزول مشروعية التيمم
- ٤٨٥ ..... أمر الله ﷻ لأهل الكتاب بالإيمان بما أنزل على محمد ﷺ
- ٤٨٨ ..... النهي عن تزكية النفس
- ٤٩٣ ..... الأمر بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر
- ٤٩٦ ..... النهي عن التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله
- ٥٠٠ ..... أمر الله ﷻ للمؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم
- ٥٠٢ ..... حث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله
- ٥٠٥ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ...﴾
- ٥٠٦ ..... أمر الله ﷻ بعبادته بتدبر القرآن
- ٥١٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا...﴾
- ٥١١ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي النِّفَاقِينَ فُتْتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ...﴾
- ٥١٣ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً...﴾
- ٥١٦ ..... قول الجمهور في توبة القاتل
- ٥١٩ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾
- ٥٢٠ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...﴾
- ٥٢٣ ..... القصر في الصلاة
- ٥٢٥ ..... صلاة الخوف
- ٥٢٨ ..... الأمر بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف
- ٥٣٢ ..... تفسير قوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ...﴾

الصفحة	الموضوع
٥٣٦	تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾
٥٣٩	تفسير قوله تعالى: ﴿وَسْتَغْفِرُونَكَ فِي النَّسَاءِ...﴾
٥٤٠	تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا...﴾
٥٤٣	الأمر للمؤمنين بأن يكونوا قوامين بالقسط شاهدين بالعدل
٥٤٦	من صفات المنافقين
٥٥١	نهي المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء
٥٥١	تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَاءِ...﴾
٥٥٤	تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ...﴾
٥٥٨	رفع عيسى <small>عليه السلام</small> إلى السماء
٥٦١	أحاديث في نزول عيسى <small>عليه السلام</small>
٥٦٦	صفة عيسى <small>عليه السلام</small>
٥٦٨	تحريم بعض الطيبات على بني إسرائيل بظلمهم وصددهم عن سبيل الله
٥٧٠	تشريف الله <small>تعالى</small> لموسى <small>عليه السلام</small> بكلامه
٥٧٣	نهي أهل الكتاب عن الغلو والإطراء في عيسى <small>عليه السلام</small>
٥٧٦	تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ...﴾
٥٧٧	تفسير آية الكلاله
٥٧٨	ذكر الكلام على معنى الكلاله
٥٨١	تفسير سورة المائدة
٥٨١	الأمر بالوفاء بالعقود
٥٨٢	تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْجُوا شَعِيرَ اللَّهِ...﴾
٥٩١	تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾
٥٩٢	تفسير قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ...﴾
٥٩٦	تفسير قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ...﴾
٥٩٩	فرض الوضوء وأركانه
٦٠٧	تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا...﴾
٦١٢	تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾
٦١٨	تفسير قوله تعالى: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ...﴾
٦٢٢	قصة قابيل وهابيل

الصفحة	الموضوع
٦٢٦	تحريم قتل النفس بغير حق والفساد في الأرض
٦٣٢	حدُّ السارق والسارقة
٦٣٦	وجوب الرجوع إلى كتاب الله عند الاختلاف
٦٣٩	وجوب القصاص
٦٤١	وجوب الحكم بما أنزل الله ﷻ
٦٤٦	النهي عن موالاتة اليهود والنصارى
٦٤٨	الحث على نصرة دين الله ﷻ وإقامة شريعته
٦٥٣	تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ... ﴾
٦٥٦	عصمة الله تعالى لرسوله ﷺ من الناس
٦٥٨	نقض اليهود للعهود والمواثيق
٦٦٣	عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين
٦٦٦	حكم كفارة اليمين
٦٦٨	تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام
٦٦٩	ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر
٦٧١	تحريم قتل الصيد في الحرم
٦٧٥	إباحة صيد البحر وتحريم صيد البر للمحرم
٦٧٩	النهي عن كثرة السؤال لغير سبب
٦٨١	تفسير قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ نَجْدَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ ... ﴾
٦٨٣	الأمر بإصلاح النفس وفعل الخيرات
٦٨٤	الإشهاد على الوصية
٦٨٧	تفويض العلم إلى الله ﷻ
٦٨٨	تذكير الله عيسى ﷺ بنعمه عليه
٦٩٠	قصة المائدة ونزولها
٦٩١	ذكر أخبار عن السلف في نزول المائدة
٦٩٥	فهرس الموضوعات

